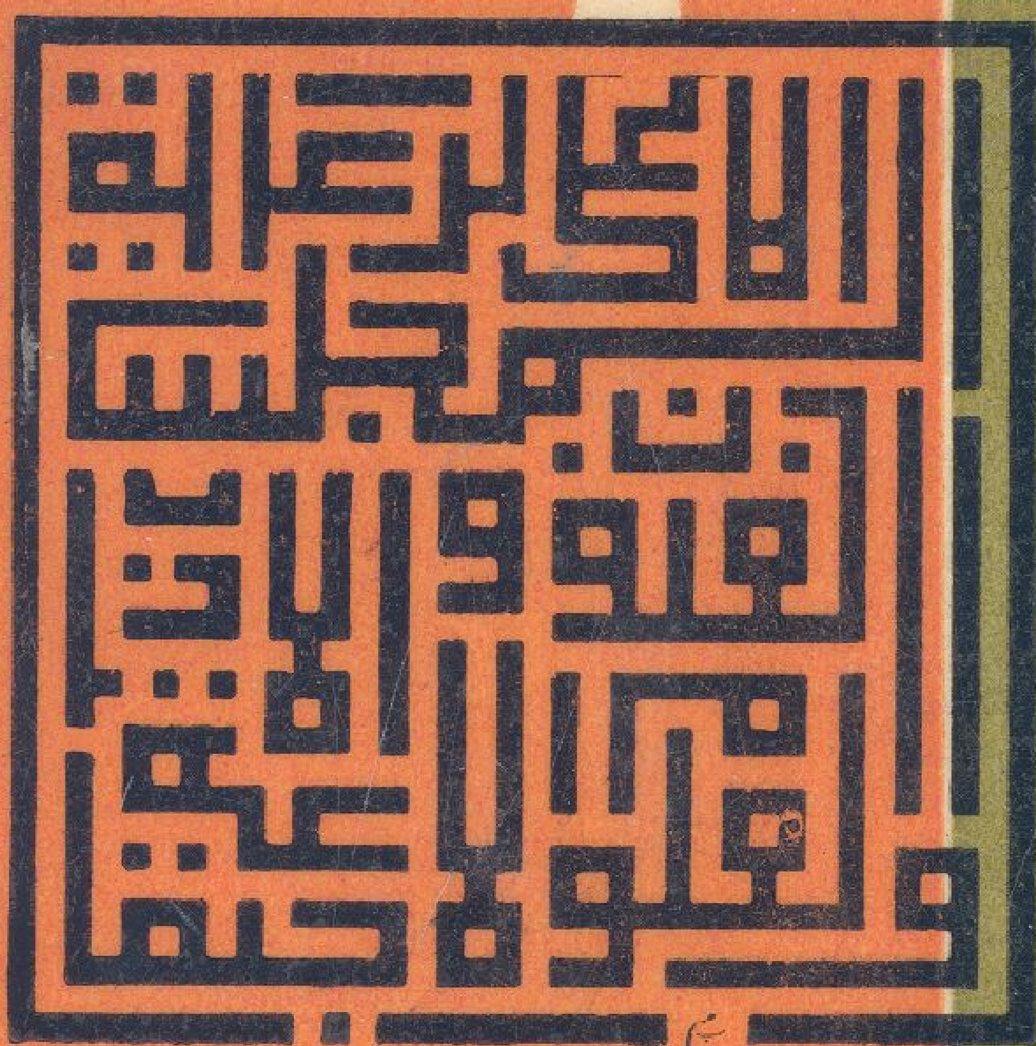
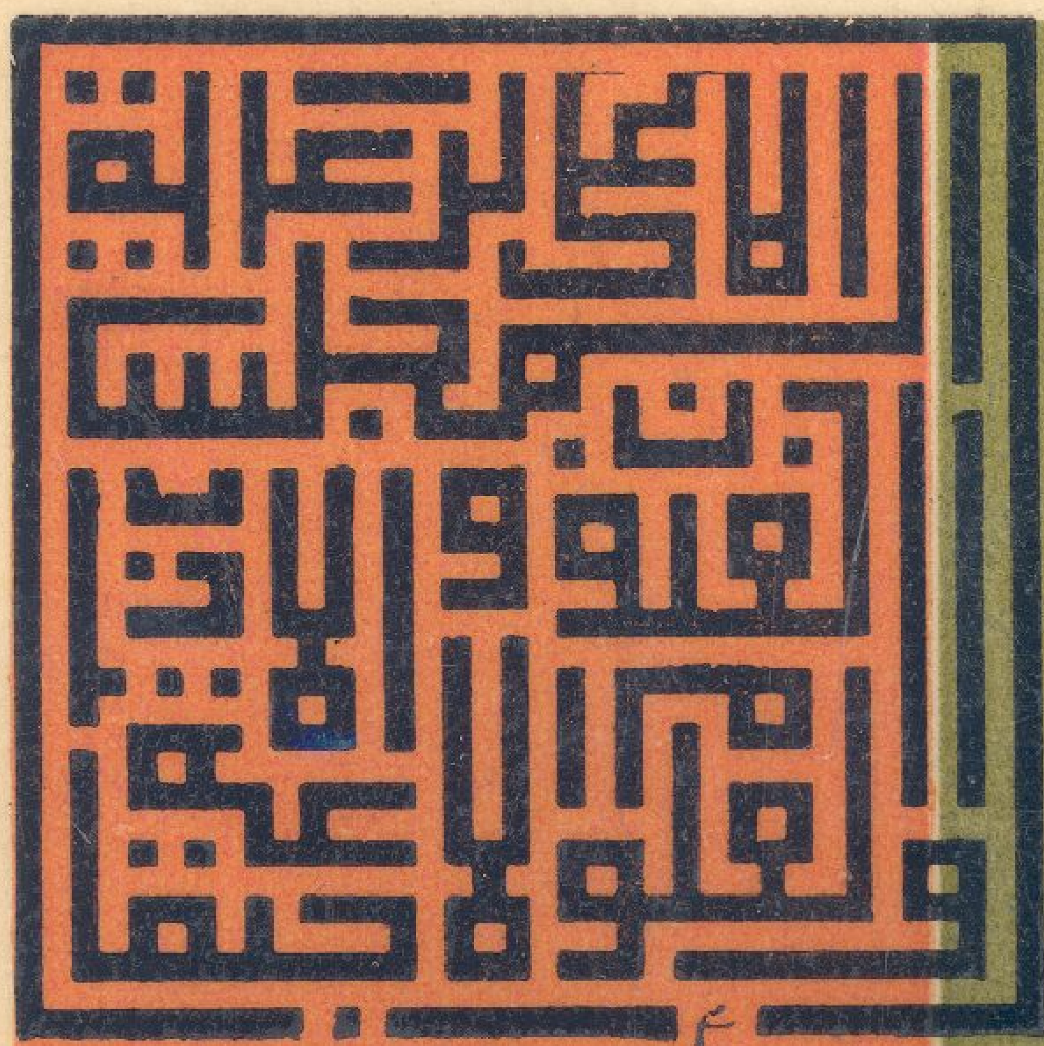
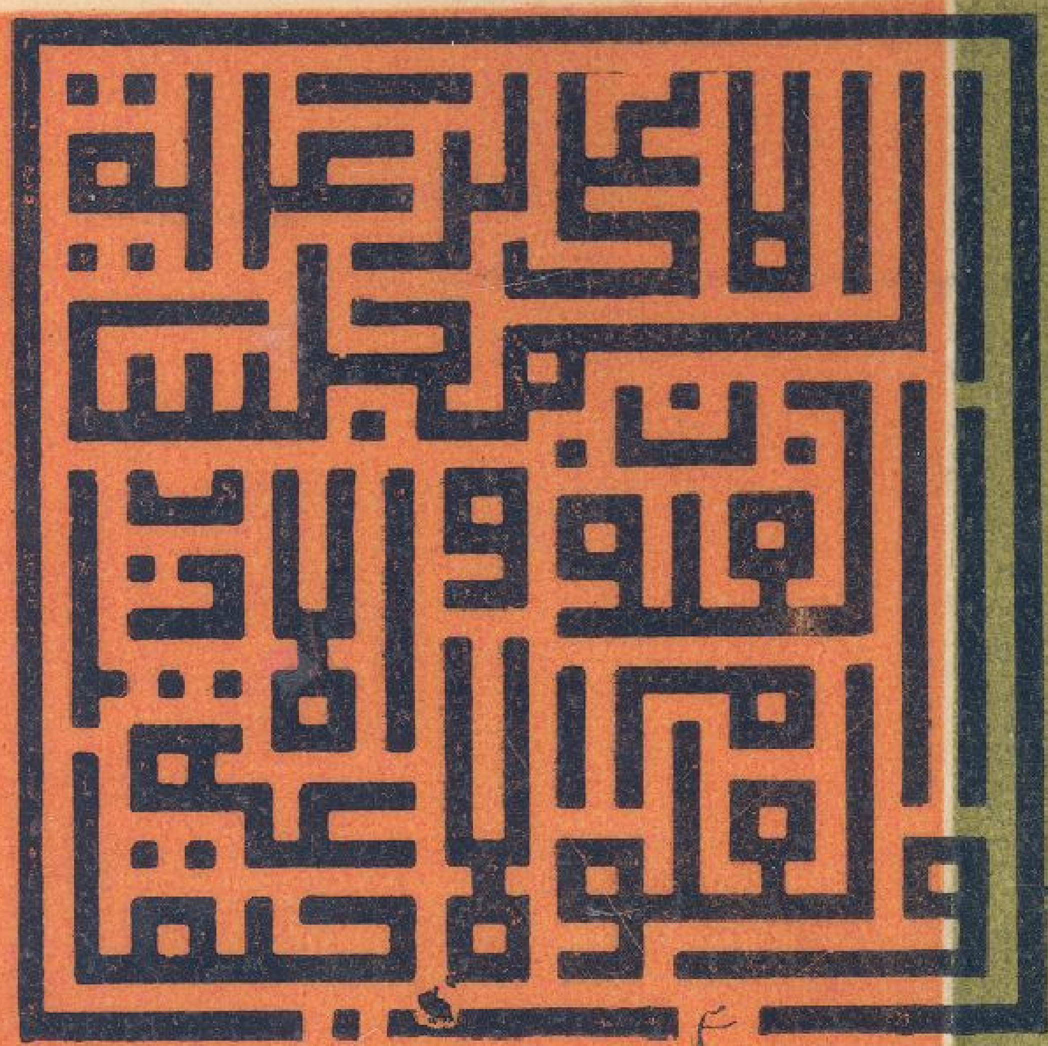






المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

نشر الرسائل الجامعية

عَبدُه بَدَوِي

الشعر الحديث في السودان

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
نشر الرسائل الجامعية

الشِّعرُ الحَدِيثُ فِي السُّودَانِ

١٨٤٠ — ٩٥٣

تأليف
عَبدُه بَدَوِي

الشعر الحديث في السودان

قدمت هذه الرسالة الى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وناقشتها لجنة مكونة من الأستاذ عمر الدسوقى المشرف على الرسالة رئيسا ، والدكتور أحمد أحمد بدوى والدكتور احمد هيكل عضوين ، ونالت درجة الماجستير فى اللغة العربية (تاريخ الأدب) بتقدير جيد جدا . وتمت المناقشة فى ٢٦ ابريل سنة ١٩٦١

كلمة

السودان جزء من الوطن العربى ، وروابطه متصلة الوشائج بالعرب والعروبة وكان سكانه منذ أبعد العصور يعيشون فى بيئة لا تختلف كثيرا عن البيئة التى كان يعيش فيها سكان الجزيرة العربية .

سهول واسعة الأرجاء وآكام وأودية ، وأجواء ، بين المطر المتدفق والحرارة المحرقة ، وحياة منبثقة بين المراعى الخضر والكثبان أشبه بالحياة التى عاشها العرب ونشأ فيها الشعر العربى منذ أقدم العصور .. وقد خلعت عليها المدنية الحديثة خلعها فجمعت بين القديم فى أصالته ، والحديث فى غضارته .

ويمتاز السودان فوق هذا بمناظر النيل وشواطئه الجميلة .

وقد وصف الشاعر السودانى عبد الله عبد الرحمن الأمين الطبيعة فى السودان بأبيات بديعة يقول فيها :

كم للطبيعة فى السودان من فتن	وكم لأطيارها من سحر ألحان
الرمل عند ضفاف النيل تحسبه	حمر الشفاه حلاها بيض أسنان
وظلمة الليل فى « العتمور » ملهمة	خوالد الشعر يرويها الجديدان
ما للكهارب سلطان على قمر	ولا على الشمس سلطان لبنيان
حيث البداوة فى أحلى مظاهرها	والابل طالعة من بين كثبان
والضأن والمعز والأنعام تابعة	مواقع الغيث قطعانا لقطعان
وللحداة حداء كله كرم	فيه الإباء وفيه نصرة العانى
وسامر الحى من غيد وفتيان	بين البيوت وفى أعطاف وديان

وليس من شك فى أن بعض القبائل العربية نزحت الى السودان قبل الاسلام وبعده . وأن قبائل عربية لا تزال تعيش فيه على عاداتها وتقاليدها القديمة .

فالشعر السودانى وليد تلك البيئة ، شعر عربى بليغ صافى المورد ، اتخذ طريقه فى جميع العصور المختلفة التى مر بها ولم يطرأ عليه تغيير يعدل به عن هذا الطابع من الاصالة الا فى القليل .

وعلى الرغم من الصلات التاريخية والاجتماعية والأدبية الوثيقة التى تربطنا بالقطر الشقيق فاننا لا نجد بين أيدينا مؤلفات وافية عن أدبه وتيارات الشعر فيه .

لذلك كان لهذه الرسالة التى وضعها المؤلف الأديب « عبده بدوى » ونال عليها درجة الماجستير من كلية دار العلوم ، أثرها فى ابراز ناحية من نواحى الشعر العربى كان لابد أن تنال الكبير من عنايتنا .

وقد تحدث المؤلف فيها عن تاريخ السودان منذ أقدم العصور حتى أوفى على العصر الحديث عصر حريته واستقلاله ، وعرض للأحوال السياسية والاجتماعية فأبان أثرها فى تكوين العقلية السودانية وما طرأ على الفكر السودانى من التغيير والتبديل على مر العصور ليخرج من ذلك الى الكلام عن الشعر الحديث ، فيعطينا فكرة سليمة معززة بالشواهد والبراهين المستمدة من أحوال البيئة القومية فى ظل الاستقلال .

فنجد الروابط التاريخية وثيقة الصلات بين الشعر وبين سائر الأحداث حتى نال السودان استقلاله سنة ١٩٥٦

ويقول المؤلف فى تصدير كتابه عن الشعر الحديث فى السودان :

« أردت بالشعر الحديث فى السودان هذا اللون المرتبط بوحى جديد ينبض فى قلب الأمة ، ويجدد فيها طاقة خالقة تجعلها تحس نفسها وتضع يدها على مصيرها وخصائصها بحيث يمكن القول بأن الأمة قد وجدت نفسها ، واستجمعت ذاتها التى قد تكون متفرقة بين الضعف والاهمال والاستسلام » وهذه نبذة جديرة بأن تبين لنا بوضوح مرمى البحث فى هذا الكتاب والمقصد الذى يرمى اليه المؤلف .

وطريقته التى توضح ارتباط تاريخ الأمة قديمها بحديثها ومدى احساسها بتطورات الأحداث والأزمات فى مدارج التاريخ حتى أحست نفسها وعرفت استقلالها .

وقد ألم المؤلف بتاريخ المسيحية فى السودان وتحدث عن الاسلام وأثره البالغ فى الحياة الفكرة والاجتماعية ، وحدد السودان القديم والحديث ، وعرض الثورات والأزمات كثورة المهدى وأزمة فاشودة .

وشرح حالة التعليم الدينى والتعليم العام وايفاد البعثات وانشاء المعاهد الحديثة وأثر ذلك فى الشعر قديمه وحديثه .

وقسم رسالته الى ثلاثة أبواب . الأول : يتناول الفترة ما بين سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٩٩ .

والثانى : يتناول الفترة ما بين سنة ١٨٩٩ ، ١٩٢٤ .

والثالث : يعرض للشعر ما بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٥٣ .

وهو فى كل هذه الأبواب يتحدث عن الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية فى السودان ويلقى الضوء على الشعر وتطوراته حتى يصل بنا الى دراسة الشعر الحديث حيث تجد الأمة نفسها وتعرف مصيرها وخصائصها .

وقد عرض بالبحث والدراسة لأبرز الشعراء الذين ظهروا فى تلك الفترات الثلاث مستشهدا بالمناسب من أشعارهم فى موضع الاستشهاد .

ولا شك أن هذه الرسالة الشاملة قد أضافت الى المكتبة العربية عملا جديدا جديرا بالتقدير ، وفتحت أمام الباحث فى آداب اللغة العربية نافذة يطل منها على ظلال أدب وارف الظلال :

أدب الشعر الحديث فى السودان .

ونحن اذ نقدم هذه الرسالة نرجو لصاحبها دوام التوفيق .

١٩٦٢/٥/١٠

محمد طاهر الجبلاوى
عضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى
للفنون والآداب

الشِّعرُ الحَديثُ في السُّودَان

١٨٤٠ – ١٩٥٣

منهج الرسالة

تعريف بالسودان وحال الأدب فيه قبل فترة البحث :

عصور ما قبل التـاريخ ـ العصر الحجرى المتوسط والحديث ـ العصـــور التاريخية عصر المملكة الحديثـة ـ العصر النبتى ـ العصر المروى ـ العصر المسيحى ـ السودان القديم وحدوده ـ العروبة قبل الاسلام ـ العروبة بعد الاسلام فى السودان ـ الطريق الشرقى للتـدفق العربى ـ الطريق الشمالى ـ الطريق الغربى ـ العرب فى السـودان ـ عرب شمال الجزيرة وجنوبها ـ السيادة العربية فى السودان ـ مملكة الفونج ـ مملكة الفور ـ مملكة تقلى ـ السودان فى فترة الحكم التركى ـ مدى انتشار العربية وخصائصها ـ العربية فى السودان ـ خصائص العربية فى السودان ـ حال الأدب فى السودان قبل فترة البحث .

الباب الأول

(الفصل الأول)

الشعر الحديث فى السودان (١٨٤٠ ـ ١٨٩٩) :

الحياة السياسية : استعانة مصر بالأجانب ـ الثورة المهدية ـ الامام المهدى ـ استرداد السودان ـ أزمة فاشودة ـ احتلال كردفان ـ دارفور ـ معاهدة عام ١٨٩٩ نقد اتفاقية السودان ـ

الحياة العقلية : التعليم الدينى ـ الأزهر ـ التعليم العام ـ البعثات الى مصر ـ التبشير فى السودان ـ الحياة العقلية فى عهد المهدية ـ موقف

المعارضة من المهدية ـ الحياة المهدية فى عصر الخليفة ـ الطباعة ـ الصحافة ـ خريجو المعاهد المصرية ـ الترجمة .

الحياة الاجتماعية : الحياة القبلية ـ طبيعة المجتمع السودانى ـ العادات الاجتماعية عند البجة ـ العادات الاجتماعية عند النوبة ـ العادات الاجتماعية فى غرب السودان ـ عادات محلية عامة ـ تأثر المجتمع بالزعامة الدينية ـ مدى تأثر السودان بالحضارة الحديثة ـ المرأة السودانية فى هذه الفترة ـ الخرافات والتقاليد الخاصة بالسودان ـ الطبقات فى السودان خلال هذه الفترة وحال المجتمع .

(الفصل الثانى)

الشعر فى هذه الفترة وخصائصه :

موضوعاته : المدح ـ المهدية ـ التصوف ـ الغزل ـ الرثاء ـ الحماسة ـ الحكمة ـ الوصف ـ التاريخ ـ معانيه ـ أساليبه وألفاظه وأخيلته ـ خصائصه الفنية .

(الفصل الثالث)

أشهر شعراء هذه الفترة وطبيعة شعرهم، ومنزلتهم، وخصائص هذا الشعر:

١ ـ الشيخ الحسين الزهراء
٢ ـ الشيخ يحيى السلاوى
٣ ـ الشيخ عمر الأزهرى
٤ ـ الشيخ محمد الطاهر المجذوب

الباب الثانى ١٨٩٩ ـ ١٩٢٤

(الفصل الأول)

الحياة السياسية : الحكم الثنائى ـ موقف مصر والانجليز فى

السودان ــ سياسة الانجليز نحو عزل السودان ــ شعور السودانيين ازاء هذا الحكم ــ تأثر السودان بالأحداث فى مصر وسياسة الحزب الوطنى ــ تأثر السودان بالحرب العالمية الأولى ــ تأثر السودان بثورة ١٩١٩ ــ أسباب حوادث ١٩٢٤ وموقف السودان منها ونتائجها .

الحياة العقلية التعليم فى السودان ــ الصحافة والطباعة والنشر ــ البعثات الى مصر وانجلترا وأثرها ــ مدى التأثر بالثقافة الحديثة ــ التعليم الدينى .

الحياة الاجتماعية : اتصال السودان بالمدنية الغربية ــ حالة المجتمع من حيث الفقر والغنى والصحة والمرض والعادات والتقاليد وما طرأ عليها ــ المرأة

(الفصل الثانى)

الشعر فى هذه الفترة وخصائصه :

موضوعاته : المدح ــ الغزل ــ الرثاء ــ الوصف ــ الاجتماعيات ــ السياسة ــ الفخر ــ الخمر ــ القصة ــ الاخوانيات ــ السياسة العالمية ــ معانيه وأخيلته ــ ألفاظه ــ خصائصه الفنية .

(الفصل الثالث)

اشهر شعراء هذه الفترة ــ وطبيعة شعرهم، ومنزلتهم، وخصائص هذا الشعر :

١ ــ عبد الله محمد عمر البنا

٢ ــ محمد سعيد العباسى

٣ ــ عثمان هاشم

الباب الثالث

الباب الثالث ١٩٢٤ ـ ١٩٥٣

(الفصل الأول)

الحالة السياسية : طرد المصريين من السودان ـ الانجليز يحكمون حكما مباشرا ـ الوعى القومى بالسودان ورد الفعل لحكم الانجليز ـ عود المصريين بعد عام ١٩٣٦ ـ الشعور ازاء عودة الجيش المصرى ـ الوعى السياسى فى السودان وقيام الأحزاب ـ حزب الأشقاء ـ حزب الاحرار ـ حزب وحدة وادى النيل ـ الحزب القومى ـ حزب الأمة ـ الحزب الجمهورى الاشتراكى ـ الجبهة الوطنية ـ حزب الاستقلال الجمهورى ـ الجبهة المعادية للاستعمار ـ الحزب الوطنى الاتحادى ـ الحزب الوطنى ـ حزب الأحرار الجنوبى ـ أثر الزعامات الدينية فى السياسة ـ السياسة الانجليزية ـ وسائلها وغاياتها ـ السودان خلال الحرب العالمية الثانية ـ الثورة المصرية وأثرها فى السودان ـ اتفاقية السودان عام ١٩٥٣ .

الحياة العقلية : انتشار التعليم فى السودان ـ كلية غوردون وأثرها ـ انتشار المدارس المصرية ـ البعثات الى انجلترا ومصر وأثرها ـ انتشار الصحافة والطباعة والنشر ـ المعاهد الدينية ـ النوادى العلمية والأدبية .

الحياة الاجتماعية : الحياة الاجتماعية من حيث الصحة ، والمرض ، والفقر ، والغنى ـ مدى تأثر السودان بالمدنية الغربية فى أساليبه المعيشية ، وشئون الحياة ، وفى العادات والتقاليد ، فى القبلية ، والمدينة ، والريف ـ خصائص المجتمع السودانى ـ مميزاته فى تلك الحقبة ـ المرأة السودانية الحديثة .

(الفصل الثانى)

الشعر الحديث فى هذه الفترة :

أغراضه : الشعر السياسى ــ الشعر والانجليز ــ الشعر ومصر ــ الشعر والبعث القومى ــ شعر الطبيعة ــ الغزل ــ الاجتماعيات ــ الرثاء ــ الهجاء ــ الدين والشك ــ الحنين ومشــكلة اللون ــ العــروبة ــ الشعور الافريقى ــ الشعر المسرحى ــ أغراض أخرى ــ الفاظه ــ معانيه وأخيلته تأثره بالأدب العربى فى مصر والحركات التجديدية فى البــلاد العربية عامة ، وبالمهجر ــ خصائصه الفنية .

(الفصل الثالث)

اشهر شعراء هذه الفترة ، وطبيعة شعرهم ، ومنزلتهم ، وخصائص هــذا الشعر :

١ ــ التيجانى يوسف بشير

٢ ــ محمد المهدى مجذوب

٣ ــ ادريس محمد جماع

السودان فى الشعر المصرى ــ تلخيص لأهم الموضوعات ــ ما أضافته الرسالة من جديد الى التراث العلمى العالمى ــ المقترحات وماذا عساه قد فات البحث من نقاط جديرة بالدرس

المصادر والمراجع

تقديم

أردت بالشعر الحديث فى السـودان هذا اللون المرتبط بوعى جديد ينبض فى قلب الأمة ، ويجدد فيها طاقة خالقة تجعلها تحس بنفسها ، وتضع يدها على مصيرها وخصائصها ، بحيث يمكن القـول ان الأمة قد وجدت نفسها ، واستجمعت ذاتها التى قد تكون متفرقة بين الضعف والاهمال ، والاستسلام .

ولقد كانت هذه الفترة مرتبطة فى رأيى بعملية التوحيد التى قامت فى هذه البـلاد لأول مرة على يد « محمد على » وبهذا الاحساس النـامى بوحدة البلاد بعد أن كانت تائهة بين المحلية ، والقبلية ، والنفوذ المتباين .
فمن هذه الفترة يمكن قياس العمق فى النفسية السودانية . أما حركات البعث المحدودة التى قامت فى عدة أجزاء من هذا الوطن الكبير فقد كانت حركات مسطحة لا تضرب بجذورها الى شىء بعيد . ولا يمكن أن يكون الشعر فيها نتاجا طبيعيا ممثلا لوجدان الوطن الكبـير . لأن الناس كانوا تائهين عن أنفسهم ، ولأن الحيـاة من حولهم كانت راكدة متعثرة تدور حول نفسها ولا تأخذ طريقها الى الأمام .

فاذا كان العصر الحديث فى مصر يبدأ بعهـد « محمـد على » الذى تفتحت فيه البلاد على حياة جديدة وقيم جديدة واقتحام ميادين لم تطرق قبل ذلك كالترجمة ، وايفاد البعثات ، وفتح المدارس ذات اللون الجـديد كمدرسة الألسن ، والطب ، وانشاء المطبعة الأميرية ، وصـدور الوقائع المصرية ، فان العصر الحديث يبدأ فى السودان بهذه الفترة أيضا ، ولكن بعد مرور فترة من الزمن استطاعت فيها البلاد أن تحس بوحدتها الجديدة ، وأن تستوعب كثيرا من ألوان الحياة الوافدة عليها .

وقد سرت بالشعر فى هذه البلاد بين معاهدة لندن عام ١٨٤٠ الى اتفاقية السودان عام ١٩٥٣ لأن السودان فى الفترة الاولى كان قد دخل حياة جديدة ولأن السودان فى الفترة الأخيرة كانت قد دفعته الأحداث الى أن يقف على قمة تطورها ، ولقد كانت قمة التطور الأخيرة له هى اتفاقية السودان التى أعطت له الحق فى أن يختار الحياة التى يريدها .

وكما لم نقصد بالسودان هذا السودان المترامى الأطراف فى افريقية ، فانا لم نقصد به كذلك هذا السودان الجنوبى الذى يتشكل من عناصر زنجية ذلك لأننا أردنا بالسودان هذا السودان الشمالى الذى صبغته العروبة بصبغتها ، وهو ما يكون الآن القسم الشمالى من جمهورية السودان .

أما الخطة التى انتهجتها فى هذا البحث فقد كانت التعريف بالسودان من فجر التاريخ وتتبع نموه ، ووقع الأحداث فيه حتى أصبح الآن شيئا مميزا له خصائصه ونفسيته ، مع تركيز على جغرافيته ، ومدى انتشار العربية فيه وخصائصها ، والقاء الضوء على تاريخ العرب فى هذه البلاد ، وعلى طبيعة الأدب قبل فترة البحث مع موازنة بينه وبين الأدب العربى بعامة ، والأدب فى مصر بخاصة .

وقد قسمت البحث الى ثلاثة أبواب . حددت الباب الأول منه بالفترة مابين عامى (١٨٤٠ ، ١٨٩٩) وتحدثت فيه عن الحالة السياسية ، والعقلية ، والاجتماعية مع توضيح للشعر فى هذه الفترة ، وأشهر شعرائها ، ودراسة شعرهم دراسة عملية تبين منزلته ، وطبيعته .

وفى الباب الثانى تعرضت للشعر بين عامى (١٨٩٩ ، ١٩٢٤) وتحدثت فيه عن الحياة السياسية ، والعقلية ، والاجتماعية مع توضيح للشعر فى هذه الفترة وخصائصه ، ودراسة أشهر شعرائها ، وطبيعة ما يصدر عنهم من شعر ، ومنزلته ، وخصائصه .

أما الباب الثالث فتعرضت فيه للشعر بين عامى (١٩٢٤ ، ١٩٥٣) مع دراسة للحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية ، والقاء الضوء على

الشعر الحديث فى هذه الفترة ، وخصائصه ، ودراسة أشهر شعرائها ، مع التركيز على شعرهم ، ومنزلته وخصائصه .

ثم أنهيت الرسالة بتلخيص لأهم الموضوعات التى تعرضت لها ، ولما أضافته الرسالة من جديد الى التراث العلمى ، وللمقترحات ، وماذا عساه قد فات البحث من نقاط جديرة بالبحث .

أما الصعاب التى قابلتها فكانت ما يلاقيه دائما الانسان الرائد فى بحثه . ذلك لأن الرسالة أول بحث علمى متكامل يتعرض للشعر فى السودان ، وقد كان لا بد من الدراسة على الطبيعة فى هذه البلاد ، وقد اقتضانى هذا الاتصال المباشر بالأدباء ، وتتبع مجالات نشرهم ، وتعقبها عند الأفراد لأن المنشور من هذا الشعر قليل ، ولأن المطبعة مازالت قاصرة ، وباهظة التكاليف فى السودان ، ومن هنا فهى لا تواكب الحياة الأدبية هناك ، وزيادة على ذلك فان ما يطبع منه لا يحفظ فى المكان الذى ينبغى أن يحفظ فيه لقصور الخدمة المكتبية هناك .

فدور الكتب فى السودان لا تضم الانتاج الشعرى لهذه البلاد ، ولا تحافظ عليه محافظة كاملة ، ويكفى للتدليل على هذا أن نعرف أن مجلة الفجر التى تعتبر وثيقة هامة للشعر لا يوجد منها غير مجلدين عند بعض الأفراد ، وأن ديوان البنا لا يوجد فى مكتبات الخرطوم ، كما لا يوجد عند الشاعر نفسه .

ولذلك رأيتنى مضطرا الى مقابلة كل الشعراء الأحياء ، والتماس شعر الأموات عند ذويهم ، وأعترف أن هذه العملية كانت شاقة وأنها كادت تصرفنى عن بحثى هذا أكثر من مرة ، فقد لقيت ضروبا من التسويف ، وعدم التشجيع ، أو السماح بحمل النص الى منزلى ولذلك كنت أضطر الى نقل هذه الأصول فى منتديات الأدب ، أو مكاتب الموظفين .

وقد زاد البحث صعوبة أنى كنت أقوم بالبحث فى فترة توترت فيها الصلات بين مصر والسودان مما جعل بعض السودانيين يشكون فى كل ما هو مصرى ، ويعتبرون كل من يبحث فى تاريخهم وأدبهم جاسوسا ، ومتطفلا .

ومن ألمع الكتب التى تعرضت لهذا الموضوع كتاب « تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين » ولكنه كتاب مجمل تعرض للدين ، والاجتماع والأدب ، ولم يتعرض لكل المرحلة التى تكلمت عنها .

ومن الكتب التى تعرضت للشعر فى السودان كتاب « الاتجاهات الشعرية فى السودان للدكتور محمد النويهى » ، ومما يؤخذ عليه أنه حدد المنابع التى أثرت الشعر السودانى وهى الشعر الجاهلى ، والأموى ، والعباسى . ثم الفترة الحديثة فى البلاد العربية وبخاصة شعر شوقى دون أن يتعرض لشعر الفترتين المملوكية والعثمانية ، مع أن الشعر الحديث فى السودان يتكىء على هاتين الفترتين ويظهر أثرهما فيه .

فنحن نرى أثرهما واضحا فى شعر شاعرين من الشعراء الثلاثة الذين اختارهم ليدلل بهم على عدم التأثر بهذه الفترة وهما الشيخ « عبد الله عبد الرحمن » ، والشيخ « عبد الله البنا » ففى شعرهما السطحية ، والمعارضات ، والتشطير ، والتخميس ، والتكرار ، والألفاظ الخافتة ، وألوان من نظم العلوم ، والحقائق التاريخية ، وكل هذه الأشياء من سمات هاتين الفترتين .

ثم نراه ينتهى عند الحديث من هذه المدرسة الى « خفوت الملامح السودانية تحت هذا الركام الهائل من التقليد » ثم نراه يشدد عليهم فى قسوة ، وان كنا نرى أنهم فى ظل ظروفهم السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية كانوا أسبق من غيرهم فى البلاد العربية الأخرى الى ظهور ملامح مجتمعهم ، ويمكن مشاهدة هذا فى شعر « محمد سعيد العباسى » وشعر « عبد الله عبد الرحمن » .

ثم نراه يذكر عن العرب فى السودان أنهم كانوا فاتحين ، وسادة أسروا العبيد واقتنوا الرقيق ، وملكوا الأرض ، واستولوا على الحكم ، وقللوا من أهمية العنصر المغلوب أو أنكروه « ومن الطبيعى أن يكون شعورهم الأول هو التقليل من أهمية العنصر المغلوب أو انكاره تماما ، وأن يظلوا على هذا الشعور حتى يبلغوا درجة من اتساع النظرة تخفف من نعرتهم العنصرية ، وتحملهم على التسوية بين جميع السلالات البشرية » .

وفى هذا الكلام تحامل ، لأن تعريب السودان قد تم عن طريق الهجرات من الشرق ، والشمال ، والغرب أكثر مما تم عن أى طريق آخر ، حتى ليمكن القول بأن عملية الغزو فى السودان كانت عملية « غزو داخلى سلمى » .

كما تؤكد أن الظاهرة العامة للسلوك العربى فى السودان لم تكن الاستعلاء على أهل البلاد ، ولعل ذلك لما فيهم من أنفة تتساوى مع أنفتهم ، بل لقد كانت الظاهرة المميزة للسلوك العربى هى عملية التقريب من جهة العرب ، ومحاولة الامتزاج بالسودانيين عن طريق التزوج من السودانيين ، وقد استفادوا من هذه الظاهرة ، وآل اليهم حكم بعض البلاد عن طريقها .

وقد أخذ المؤلف على السودانيين فى أول عهد الاحتلال عدم استجابتهم للثقافة الغربية وتمسكهم بالثقافة العربية ، ونحن هنا نتساءل أية ثقافة هذه التى يذكرها المؤلف ، والتى كان يمكن أن ينفعل بها شعراء هذه الفترة ؟ ! بينما الاستعمار حديث فى السودان ، ولغته لم تتمكن بعد فى ألسنة الناس ، والانجليز أنفسهم باعدوا بينهم وبين ثقافتهم الصحيحة ، فالشىء الطبيعى هنا هو التمسك بالثقافة العربية الموجودة ، وليس معنى التغنى بها وبأمجادها أنهم كانوا يعادون الثقافة الانجليزية ، والتقاليد

الطيبة التى يتمسكون بها لأننا نجد فى شعر الشعراء الثلاثة الذين يمثلون هذه الفترة اعجابا بالانجليز وثقافتهم .

ثم يرى المؤلف أن الدعوة الى الأدب القومى كانت موجهة ضد الثقافة الغربية فى السودان ، ولكنا نرى أن الجزء الأكبر من هـذه الدعوة كان يقصد به فصل الأدب السودانى عن الأدب المصرى ، وقد شغل الكتاب بعملية الفصل هذه وامتد أثرها الى مصر حينما جزع لها الأستاذ « محمد عبد القادر حمزة » .

كما نخالف الدكتور النويهى أيضا فى ذهابه الى استبطانية «التجانى» وعدم معرفته الحب الحقيقى للمرأة ، وفى بعض تفسيرات شعره .

وقد كان من أهم المصادر ، والمراجع التى استعنت بها كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان للفقيه محمد ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى ، وتاريخ ملوك السودان تحقيق وتعليق واعداد مكى شبيكه ، وتشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان لمحمد بن عمر التونسى ، وكتاب تاريخ السودان لنعوم شقير ، والتربية فى السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد . والسودان الشمالى للدكتور محمد عوض محمد ، والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكه .

« عبده بدوى »

تمهيد

- حدود السودان
- عصر ماقبل التاريخ
- العصور التاريخية
- الادب فى السودان قبل فترة البحث

عصور ماقبل التاريخ

(ا) العصر الحجرى القديم :

عرفت الحياة فى السودان منذ أقدم العصور ، ويجمل بنا أن نتتبع هذه الحياة فى ضوء التاريخ . حتى نربط بين ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله ، وليزداد احساسنا به . ثم أخيرا ليبرز فى صورة مجسمة للعيان .

ففى العصر الحجرى القديم وجدنا الحياة فى هذه البلاد كأوضح ما تكون عليه الحياة فى مثل هذا العصر . فقد عثر فى خور « أبى غنجه » بأم درمان على بعض الآلات التى كانت تستعمل فى هذا العصر كالفئوس اليدوية Hand axes ولا شك أن هذا النوع من الفئوس متطور عن مراحل سابقة كنزع شظية ، وتسوية حجر (١) .

(ب) العصر الحجرى المتوسط والحديث :

استطاع الانسان فى هذين العصرين أن يقلل من جفاف الحياة حوله ، وأن يعمل على صنع أدوات أصغر حجما ، وأكثر اتقانا تماما كالطفل الذى يتدرج من الوحدة الكبيرة الى الصغيرة ومن الكتلة الضخمة الى الكتلة الدقيقة وفقا لتطور المهارة فى يديه ، ونموها فى عقله .

ثم اهتدى من بعد الى صناعة الفخار ، وتأليف الحيوان ، وزراعة الأرض . فقد عثر على أماكن أثرية تدلل على هذا . ففى احدى الحفريات بالقرب من مستشفى الخرطوم الملكى الآن عثر على الفخار ، وعلى كل أنواع الأدوات الحجرية ، والعظمية التى تتوافر فى الأماكن الأثرية التى ترجع الى هذا العهد ، وقد وجد أن مستوى الفخار والأدوات كان على صورة أكثر جودة منه فى البلاد الأخرى .

وفى حفريات « الشهينات » (٢) وجدت قرينة واهية على تأليف الحيوان ، وان لم يعثر بها ما يدل على الزراعة .

---

(١) موجز لتاريخ السودان الى عام ١٥٠٠ لمرجريت شينى تعريب ثابت حسن ص ١ .
(٢) على بعد ثلاثين ميلا من الخرطوم .

على أنه فى الوقت الذى قارب فيه العصر الحجرى الحديث على الانتهاء فى السودان كانت تنمو بخصوبة فى مصر حضارة استعملت فيها المعادن ، كما ظهرت الكتابة التى عرف منها أن المصريين القدماء استولوا على أجزاء من السودان حوالى ٢٠٠٠ ق.م (١) .

العصور التاريخية :

١ — عصر المملكة الوسطى المصرية (٢٠٠٠ — ١٧٠٠ ق.م)

يعتبر تاريخ السودان منذ السنين الأولى لهذا العصر حتى عام ٥٠٠ ق.م مرتبطا بمصر . فقد استمر الاحتلال المصرى الأول للسودان حوالى ٣٠٠ سنة ، بحيث أصبح اقليما مصريا ، يديره حاكم مصرى من « كرمه » (٢) ، ويمكن الآن مشاهدة مقر هؤلاء الحكام ، وكذلك المعبد الجنائزى .

وقد استقدم هؤلاء الحكام عددا كبيرا من الصناع المصريين فتطورت على أيديهم صناعة الفخار الأحمر ذى الحافة السوداء ، ونحتوا التماثيل الجنائزية ، وصنعوا السيوف البرونزية ذات المقابض العاجية الجميلة ، وطعموا السرر بالعاج على شكل زراف ، ونعام ، وضباع ، وطيور .. الخ .

كما صنعوا الأوانى من الفيانس Faience الأزرق (٣) ، وزخرفوا المنازل بالبلاط الأزرق الجميل ، وصنعوا رقائق المايكا Mica (٤) على شكل حيوانات لتغطى رءوس النساء . وفى الحق لقد كان اتصال الثقافتين المصرية والسودانية سببا فى انتاج أشياء كثيرة جذابة ذات أشكال لم يظهر لها مثيل فى تاريخ هذه البلاد ، بل وفى تاريخ مصر نفسها (٥) .

---

(١) نفس المرجع ص ٢ ، ٣ .

(٢) تقع على شاطىء النيل الشرقى جنوبى الشلال الثالث بين طمبس ، وجزيرة ارجو الشهيرة بالاثار . أو بين الشلالين الثالث والرابع . وهى الى الثالث أقرب منها الى الرابع .

(٣) حجر الطلق الشفاف .

(٤) حجر صناعى يتكون من الرمل ، ومادة السلكا .

(٥) موجز تاريخ السودان تأليف أ. ج. آركل . ترجمة حسن ثابت ص ٥ ، ٦

ولقد كان من أثر هذا الاحتلال أن ظهرت القلاع ، والحاميات المصرية فى بلاد السودان بين الشلال الأول و « كرمة » . على أنها لم تكن حصونا حربية بقدر ما كانت مدنا صغيرة محصنة يسكنها الجند ، كما يعيش بها العمال الذين ينقبون فى الثروات كالذهب .

ففى « كرمة » أقيمت المبانى الكثيرة التى لا تزال آثارها باقية الى الآن ، وتعرف محليا « بالدفوفة » (١) .

ونحن نعرف أنه حوالى ١٨٧١ ق.م ذهب الملك « سنوسرت الثالث » الى دنقلة ، وأمر بترميم الحصون ، وانشاء حاميات لتأمين المواصلات ، وشق ترعة فى صخور الشلال الأول لتسهيل سبل الملاحة ، وأن هذه الزيارة قد سجلت على لوحة لتوضع فى المعابد القريبة ، وقد جاء فى ختامها « ان أى فرد من سلالتى يحافظ على هذا الحد الذى أقمته هو ابنى وقد ولدته ، انه ابن يشبه أباه ، ويحافظ على ملك من أنجبه . أما من يتقاعس ولا يذود عنه فهو ليس ابنى ولم يولد لى . انظروا لقد أقمت تمثالا الى جانب هذه اللوحة لتعمكم بركته ، وتحاربوا دونه » (٢) .

ومهما يكن من شىء فقد تأثرت البلاد المحيطة بهذه المستعمرات بالحضارة المصرية وبخاصة ما يتصل منها بالحرف ، وقد ظل هذا التأثر قويا الى أن اكتسح « الهكسوس » مصر حوالى ١٧٠٠ ق.م ، ومن ثم ضعفت الصلة بين القطرين .

٢ — عصر المملكة الحديثة (١٥٨٠ — ١١٠٠ ق.م) :

عاد المصريون الى السودان فى هذا العصر بعد مقاومة ، وسرعان ما استقرت الأمور وازدهرت التجارة ، وامتدت الى أواسط السودان ، والبحر الأحمر ، وربما أبعد من ذلك جنوبا .

كما شيدت المعابد فى أكثر من مكان وحولها المدن التى كان يحتوى

---

(١) تاريخ السودان من أقدم العصور للاستاذ مندور مهدوى ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) العدد الرابع من مجلة نهضة افريقية مقال للدكتور أحمد فخرى ص ٤٣ .

كل منها على مركز للصناع ، والكتاب المتفوقين فى الطب ، والقانون ، واللاهوت . كما كانت تغص بالمواطنين ورجال الحرب ، وعائلات كاملة من المصريين كانت سرعان ما تندمج فى السودانيين ، وتتزوج منهم (١) .

واذا جاز لنا أن نقول ان الاستعمار المصرى الأول كان عسكريا ، فانه من الجائز أيضا أن نقول ان الاستعمار المصرى للسودان فى هذه الفترة كان مدنيا أكثر منه عسكريا . فقد دخل كثير من المدنيين السودان كموظفين ، وصناع ، ورجال دين ، وشيدوا به كثيرا من المعابد أشهرها ما أقاموه فى جبل « البركل » . كما بنوا مدينتى « عمارا » و « الكوة » .

وهكذا أصبح السودان الشمالى مستعمرة مصرية عليها وال يلقب بابن الملك ، وينتقل بين عاصمتيه « سمنه » و « كرمة » بحسب فصول السنة (٢) . ومن هنا فقد انتشرت الحضارة المصرية الى حد كبير . وأصبح السودانيون يدينون بالدين المصرى القديم ،ويتكلمون أو يتكلم الظاهرون فيهم باللغة المصرية ، ودرجوا على كثير من العادات المصرية (٣) .

٣ ــ العصر النبتى « ٧٥٠ ــ ٣٠٠ ق . م »

امتدت رقعة هذه المملكة من أسوان شمالا الى النيل الأزرق جنوبا ، وقد اعتلى عرشها الملك النوبى « كشتا » واتخذ من « نبتة » عاصمة له .

ولقد كانت مملكة « نبتة » هذه صورة مطابقة لامارة « آمون » بطيبة فقد كان يعبد فيها الاله « آمون » وتتحكم فى مصائرها الكهنة ، وبخاصة بعد أن مد « كشتا » سلطانه حتى « طيبة » ، وأجبر كاهنة « آمون » الكبيرة على تبنى ابنته ، وتسمى « كبير القطرين »

---

(١) موجز لتاريخ السودان لمرجريت شينى ص ٤ ، وموجز لتاريخ السودان ا٠ح٠ آركل ص٧

(٢) تاريخ السودان لمندور مهدوى ص ٧ ، ٨ ، ومقال للدكتور أحمد فخرى فى العدد الخامس من مجلة نهضة افريقية (مارس سنة ١٩٥٨) .

(٣) السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية جـ ا ص ٣٠

وقد خلف « كشتنا » على العرش ولده « بعانخى » ففتح مصر ،وأصبح حاكما لحوض النيل من النيل الأزرق حتى الدلتا عام ٧٢١ ق ٠ م ، وقد سجل أخبار غزوة مصر على صخرة ضخمة عثر عليها فى معبده بجبل البركل ضابط مصرى عام ١٨٦٢ ، ومن ثم نقلت الى دار الآثار بالقاهرة ، ويبلغ هذا النص الهيروغليفى ١٥٩ سطرا ، وقد جاء فيه فى اليوم الأول من شهر توت ، وبعد مضى احدى وعشرين سنة على حكم ملك الشمال والجنوب بعانخى محبوب آمون الأزلى تفوه جلالته بهذه الكلمات : اسمعوا عنى يا معشر القوم هذه الأشياء التى عملتها ولم يسبق اليها سلفى . أنا الملك الوفى الذى أمده الله بفيض منه ، وقد قضى الله أن أكون حاكما منذ ولادتى حاكما يلقى فى قلوب الزعماء الهلع والفزع

وقد اشتهر « بعانخى » بمبانيه التى لاتزال موجودة بجبل « البركل » فقد أعاد بناء المعبد الذى بناه المصريون من قبل ، كما شيد معابد أخرى ، وكان أول من استعمل الهرم من ملوك « نبتة » (١) .

ولما مات تولى العرش أخوه وزوج ابنته المسمى « شبكة » عام ٧٠٠ ق ٠ م . وقد حارب « شبكة » هذا الأشوريين . ثم خلفه « شبتاكا » الذى اغتصب السودان منه أخوه الملك « ترهاقا » عام ٦٨٨ ق ٠ م ثم خلفه ابنه « تاتون آمون » الذى فقد جيشه أمام جيش آشور عام٦٦١ ق٠م ومن ثم اكتفى ملوكهم بعد ذلك ببلاد السودان ، وبدأت « نبته » فى الاضمحلال (٢) .

وقد تأثر السودانيون بالمصريين فى هذا العهد . فنراهم قد استعاروا فكرة الأهرامات والمعابد ، والديانة ، ولكن هذا التأثير بدأ يفقد قدرته الى حد أن اللغة المصرية قد زالت فى القرن الأول الميلادى ، وظهرت

(١) تاريخ السودان لمندور مهدوى ص ١٨٠ ، السودان لعبد الله حسين ج ١ ص ٣١ .
(٢) تاريخ السودان لمندور مهدوى ص ٣٢ ، ٣٧ ، ومقال الدكتور أحمد فخرى فى العدد الخامس من مجلة نهضة افريقية .

للسودانيين كتابة خاصة بهم هى الكتابة المروية وان كان تأثير الهيروغليفية فيها واضحا (١) .

٤ ـ العصر المروى « ٣٠٠ ـ ٣٥٠ ق ٠ م »

هاجر الى « مروى » فرع من فروع العائلة المالكة بنبتة ، وما زال يؤكد نفوذه هناك حتى أصبح صاحب الكلمة بين السكان ، وقد اتخذ من « مروى » عاصمة له ، وأصبحت هذه المملكة تمتد من الشلال الأول حتى أعالى النيل تقريبا ، ويستدل على موضعها بالقرب من قرية « البجراوية » الحاليـة (٢) .

فهناك بقايا آثار معبد آمون . كما يوجد على بعد ميل شرقا من مروى معبد الشمس الذى ذكره « هيروديت » ، وبعض الأهرامات .. وقد دخلت الساقية كما دخل الجمل لأول مرة فى هذا العهد الى السودان . وقد عاصرت حكومة « مروى » الفرس ، والبطالسة ، والرومان فى مصر ولم تكن العلاقات بينهم فى جميعها ودية .

وبمرور الزمن تعرضت للغزو من سكان جبال النوبة ، ومن البجة ، ومن النباط الذين جاءوا من الشمال الغربى مما ترتب عليه اختلال الميزان الاقتصادى ، وانقسامها الى قسمين أولهما فى الشمال ، وثانيهما فى الجنوب حوالى عام ٣٠٠ م ، وتدميرها من الجنوب على يد دولة أكسوم الحبشية المسيحية فقد اقتحمتها حوالى عام ٣٥٠ م . ويمتاز العصر المروى بأنه الوحيد فى تاريخ السودان القديم الذى وصل فيه السودان الى درجة عالية من الثقافة بدون حافز أجنبى ، فقد كان فى مقدورهم فى هذا الوقت التأمل فى الحضارات الأخرى التى عرفوها ، واقتباس مايلائمهم منها ،

(١) موجز لتاريخ السودان لمرجريت شيى ص ٥ ، ٦ .

(٢) بين النيل وخط السكة الحديدية .

وكانت النتيجة أن خلفوا لنا بعض الآثار التى تعتبر من أضخم ما يحوزه السودان (١) .

٥ ـ العصر المسيحى « ٥٤٠ ــ ١٥٠٤ »

ازدهرت المسيحية فى مصر الرومانية ، فمنذ حوالى أواسط القرن الخامس الميلادى اعتنق غالبية المصريين المسيحية . بينما كانت تذوب الديانة المصرية القديمة .

وقد تسربت المسيحية من مصر الى السودان على أيدى الذين كانوا يفرون بدينهم الى الجنوب قبل أن يتولى قسطنطين — أول امبراطور مسيحى رومانى — سلطته .

وقد أرسل امبراطور القسطنطينية « جستنيان » وزوجته «تيودورا» البعوث التبشيرية الى السودان فى القرن السادس الميلادى . بحيث يمكن القول انه حوالى القرن السادس الميلادى كانت المسيحية قد غمرت البلاد بحيث لم يبق على الوثنية غير قبائل « البجة » (٢) .

فقد تنصرت الممالك الثلاث التى كانت موجودة فى السودان وهى :

١ — النوبة — من أسوان الى كرسكو — وكانت عاصمتها فرس .

٢ — المقرة . وهى تلى النوبة جنوبا ، وقد تسمى مملكة دنقلة ، ولقد كان حدها الجنوبى تقريبا « أبو حمد »

٣ — علوة وهى تلى المقرة جنوبا ، وقد تسمى مملكة « سوبا » باسم عاصمتها .

على أن النوبة لم تلبث أن اندمجت فى المقرة . ثم ان المسيحية لم تكن

---

(١) تاريخ السودان لمندور مهدوى ص ٣٧ – ٤٠ ، وموجز لتاريخ السودان لمرجريت شينى ص ٨ .

(٢) موجز لتاريخ السودان لمرجريت ص ٨ ، تاريخ السودان لمندور ص ٤٣ ، السودان لعبد الله حسين جـ ١ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٦ .

عميقة فى هذه البلاد . لأنها كانت دين الحكام ، والحضر ، ولقد كان مما ساعد على عدم تعميقها فى هذه البلاد دخول الاسلام مصر ، ومما ترتب عليه انقطاع الصلات لفترة بين القطرين .

ولقد كانت المسيحية فى هذه البلاد يشـــكلها المذهبان اليعقوبى ، والملكانى (١) .

ومما لاشك فيه أن المسيحية قد تركت آثارا بارزة فى هذه البلاد فقد حول رجال الدين اللغة النوبية من لغة حديث فقط الى لغة تكتب بالحروف الاغريقية ، وتستخدم فى الطقوس الكنسية . بل ويترجم اليها الكثير من الكتاب المقدس . كل هذا الى جانب تأثير اللغتين القبطية والأغريقية أو الاتصال بمركزين هامين هما الاسكندرية ، والحبشة .

وقد ظل الحال هكذا حتى انحسرت المسيحية التى كانت قد وصلت الى أعالى سنار بعد أن سقطت دنقلة نهائيا فى عام ١٣١٨ واعتناق ملوك المقرة الاسلام وتغلب الفرنج على مملكة علوة حوالى عام ١٥٠٥ م (٢) .

(١) السودان القديم وحدوده

١ — يعتبر المصريون أول من أطلق اسم السودان على البلاد التى تلى بلادهم جنوبا فالفراعنة قد قسموا العالم الى أربعـة أقسام . فسموا البلاد التى يسكنها الليبيون بلاد غرب مصر وسموا البـلاد التى يسكنها الآسيويون ــ فلسطين ، وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين وما وراء ذلك ــ بلاد شرق مصر ، وسموا مصر أرض الناس (٣) .

أما البلاد التى تقع جنوب بلادهم ويسكنها السود فقد أطلقوا عليها كلمة Ta Nehesu ومعناها أرض السود .

---

(١) تاريخ السودان لمندور مهدوى ص ٤٩ ، ومعالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٧ .
(٢) اللغة النوبية للاستاذ محمد متولى بدر ص ١٨ .
(٣) التربية فى السودان جـ ١ ص ٣ للدكتور عبد العزيز عبد المجيد .

كما أطلقوا على هـذه البلاد أيضا أرض « كوش » وقد وردت هذه الكلمـة فى الآثار المصرية بأكثر من نطق ، وبخـاصة ما ورد فى ألواح « تل العمارنة » فى القرن السابع عشر قبل الميلاد (١) .

وقد أنشئت فى عهد الملك « أمنحتب » وظيفـة باسم « الابن الملكى فى كوش حاكم البلاد الجنوبية ، ولم تمض سنوات حتى أصبح اللقب الرسمى « ملك كوش وطيبة » (٢) .

وقد ذكر المسعودى « أنه لما تفـرق ولد نوح فى الأرض سـار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر . ثم افترقوا فسـارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة ، والبجـة ، والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة » (٣) .

فهو يميل هنا الى توزيع السكان على أساس من أبناء وأحفاد نوح ، وفى هذا مجافاة للحقائق العلمية . والظاهر أن « كوش » هذه كانت جزءا من بلاد النوبة ، وأنهـا كانت اسما للقبيلة الغالبة فى جنوب مصر ، وأن كل مكان كان يسمى باسم القبيلة الغالبة وأن « كوش » هذه قد سكنت حوض النيل الأزرق . كما سكنت المقرة (الماكورة) منطقة دنقلة ، وقبيلة نوب « النوبة » بين الشلالين الأول والثـانى (٤) . وكمـا أقامت كذلك ديجون فى حوض نهر عطبرة (٥) .

٢ — وحينما احتل الاغريق مصر أطلقوا اسم Ethiopia على البلاد التى تليها جنوبا دون تحديد وقد جاراهم الرومان فى هذه التسمية (٦) .

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل للاستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل ص ٥ .

(٢) نهضة افريقية . مقال الدكتور احمد فخرى فى العدد الخامس . مارس ١٩٥٨ .

(٣) تاريخ مروج الذهب لابى الحسن بن الحسين بن المسعودى ج ١ ص ٢٣٥ .

(٤) التربية فى السودان ج ٣ ص ١ .

(٥) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٦ .

A history of Arabs in Sudan H. A. Macmichael 2. vols. Cambridge 1922. p. 171.

(٦) تاريخ التربية فى السودان ج ٣ ص ١ ، والسودان لعبد الله حسين ج ١ ص ٤٠ .

واذا عرفنا أن كلمة أثيوبيا معناها « الوجه المحترق » — وهو ما اختاره الأحباش علما عليهم — رأينا انها لا تبعد كثيرا عن معنى الكلمة المصرية القديمة تانهسو .

٣ — على أن العرب لم يبعدوا كذلك عن معنى الكلمة حينما أطلقوا على هذه البلاد اسم السودان ، والسـودان جمع أسـود ، وقد أطلقها مؤرخو القرون الوسطى من العرب على هـذه الأقاليم التى تقع جنوب الصحراء الكبرى ، ومصر . حتى انها شملت فى القرن التاسع عشر ممالك سـنار ودارفـور ، ووراى ، وباقرمى ، وكانم ، وبرنو ، وسـكوتو ، وتمبكتو ، وملى (١) .

وقد كان الكتاب العرب أكثر تدقيقا من الأغريق فى تحديدهم لهذه المنطقة جنوبى الشلال الأول ، وتعـريف مناطقها بأسمائها القريبـة من الصحة (٢) فقد أطلقوها على الجهات الافريقية التى يسكنها السـود ، وتحد شمالا بمصر الاستوائية ، وشرقا بالحبشـة ومرتفعات « جـلا » وغربا بالمحيط الأطلسى .

وقد أطلق الأوربيون هذا اللفظ للدلالة على نفس هذه المنطقة ، وان كانوا قد قسموها الى السودان الشرقى ، والأوسط ، والغربى .

وقد ظهرت فى هذه المنطقة الهائلة عدة ممالك متناحرة فى أوائل القرن التاسـع عشر فقامت غـرب نهر النيجر عدة ممالك أشـهرها نوندو ، وفوتا جالون ، ولكنها خضعت جميعا للسيطرة الفرنسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وهى ما كان يطلق عليه اسم السودان الفرنسى .

كما قامت عـدة ممالك بين النيجر وبحـيرة تشاد كان أهمها سلطنة سكوتو ، وسلطنة بورنيو القديمة ولكنها خضعت جميعـا تحت الحماية الانجليزية القائمة فى شمال نيجريا .

---

(١) التربية فى السودان جـ ١ ص ١ .
(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٦ .

كما قامت كذلك عدة ممالك بين بحيرة تشاد ، وأعالى النيل مثل سلطنة باقرمى التى ضمت كانم ووادى ، وخضعت هى الأخرى للنفوذ الأوربى فأصبحت قسما من الكونغو الفرنسى (١) .

(ب) لم تعرف حدود السودان الاستقرار الا فى العهد الأخير .. فقد كان فى عهد ما قبل الأسرات شمالى أسوان بالقرب من جبل السلسلة وكوم امبو . وفى عهد الأسرة السادسة حوالى (٢٦٠٠ ق م) كان الحد جزيرة « الفنتين » جنوبى أسوان ، وفى عهد الأسرة الثانية عشرة حوالى (٢٠٠٠ ق م) نرى سلطان مصر يمتد الى مسافة ٢٥٠ ميلا جنوبى أسوان ، وفى حوالى عام (١٤٠٠ ق.م) تصل الحدود الجنوبية لمصر الى مدينة « نبتة » وموقعها الآن مروى على مسافة قدرها ٦٠٠ ميل عن طريق النيل من أسوان ثم تنحسر هذه الحدود بحيث تحدها شمالا أسوان وبخاصة حينما استقلت مملكة « مروى » وقد تجمدت الحدود على هذه الحال حتى جاء عهد البطالسة فنراها تنتقل الى الجنوب بالقرب من بلدة « المحرقة »

ثم تمكن الرومان فى مصر من احتلال « ابريم » وهى بلدة جنوب المحرقة ، وكان ذلك فى عهد الامبراطور « أغسطس » ثم رجعت الحدود ثانية الى « المحرقة » وقد وضع النوبيون الوثنيون فى أواخر الحكم الرومانى يدهم على معبد فيلة ، وعلى أسوان ، وظلوا على وثنيتهم حتى أظلتهم المسيحية فى القرن السادس الميلادى (٢) .

ولما فتح العرب مصر ، وحارب « سعد بن أبى سرح » النوبة أصبحت الحدود . كما وردت فى المعاهدة التى تمت بينهما ، والتى جاء فيها عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ، ولجميع أهل مملكته . عهد عقده على الكبير والصغير من حد أرض أسوان الى حد أرض

---

(١) يقظة السودان للدكتور ابراهيم العدوى ، مجلة نهضة افريقية مقال لعبده بدوى فى العدد العاشر ١٩٥٨ .

(٢) التربية فى السودان جـ ٣ ص ١ ، ٢ ، ٣ .

علوة .. الخ كتبه عمر بن شرحبيل فى رمضان ٣١ هـ (١) » وفى عهد السلطان ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) ضمت لمصر أرض الشــلال ، ولما قامت مملكة الفونج فى سنار أصبحت حدودها شمالا الشلال الثالث (٢) ، وقد توقفت الحدود تقريبا عند هــذا الشلال الى أن فتح محمــد على السـودان فى عام ١٨٢٠ . ثم أرسل بعثتين لاختراق منطقة الســدود ، وللوصول الى الحدود الجنوبية فى عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ وهكذا يصبح السودان لأول مرة فى التاريخ تحت ظل وحدة عامة (٣) .

هــذا اذا استثنينا « دارفور » التى دخلت تحت الحكم المصرى فى نوفمبر عام ١٨٧٤ ، والتى لم تدخل تحت الحكم الثنائى الا فى عام ١٩١٦ . فقد وصلت حدود السودان شرقا الى البحر الأحمر والحبشة بعد أن فتحت القوات المصرية اقليم التاكا (كسلا) فى عام ١٨٤٠ ولقد كان لهذا الفتح قيمته لاحتوائه على مراع وأرض خصبة ، ولأنه الباب الذى يؤدى الى ثغرى ســواكن ومصــوع كما فتحت الجنود أيضا « القضــــارف » ، و « القلابات » ثم استأجر « محمد على » مينائى سواكن ، ومصوع من السلطات مقابل ٢٥٫٠٠٠ جنيه .

ثم كانت تنتهى الحــدود جنــوبا الى جــزيرة « جونكر » تجــاه « غوندكرو » . اما مديرية خط الاستواء وأوغندة فلم يصل اليهما الفتح المصرى الا فى عهد اسماعيل باشا » .

وفى الغــرب نرى أن « محمــد على » قد دخل فى حكمــه اقليــم « كردفان » . أما « دارفور » فرغم أنهــا دخلت رسميا فى حكم « محمد على » بمقتضى فرمان فى ١٨٤١/٢/١٣ الا أنها لم تفتــح الا فى عهــــد اســماعيل .

أما الحد الشمالى للسودان فقد كان جزيرة « ساى » جنوبى وادى

(١) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٣٢٣ .
(٢) تاريخ السودان لنعوم شقير جـ ٢ ص ٧٣ .
(٣) السودان ووادى النيل للدكتور محمد عوض ص ٢٥ .

حلفا (١) . فلم يكن هنــاك حتى الفتح المصرى اسم علم يطلق على هذه الدول التى كانت عبارة عن أخلاط من الأجناس والقبائل تسكن مساحات واسعة فى الجنوب زنوج على الفطرة ، وفى الشمال عرب رحالة ، وقرويون خليط من الجنسين (٢) .

ثم حددته بعد ذلك اتفاقية عام ١٨٩٩ فنراه يستقر أخيرا على هــذا النحو . فحده شمالا خط ٢٢° من خطوط العرض الشمالى الى الشمال من حلفا ، وحده جنــوبا بلاد أوغنــدة على خط ٥° ، ومن الشرق البحر الأحمر ، وأرتريا وأثيوبيا ، ومن الغرب والجنــوب الغــربى الصحراء الكبرى وبلاد وداى ، والجبال المتوسطة بين نهر الكونغو ، وبحر الغزال .

فطوله من الشمال الى الجنوب نحو ١٢٠٠ ميل ، ومعظم عرضه من الشرق الى الغرب نحو ١٠٠٠ ميل (٣) .

---

(١) تاريخ الحركة القومية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى جـ ٣ ص ١٩٢ .
(٢) التربية فى السودان جـ ١ (التمهيد) .
(٣) تاريخ السودان القديم والحديث جـ ١ ص ٩ .

العروبة قبل الاســلام

عرفت افريقية العروبة من زمن بعيـــد موغل فى القدم . فقـــد استمر الطريق البحرى الجنوبى تحت السيادة العربية حتى القرن الأول المسيحى تقريبا . فقد كانوا يعملون كموردين لمحاصيل ساحل افريقية الشرقى (١) كما ظلوا يتدفقون قبل الاسلام على هذا الساحل وكانوا الوســاطة التى حملت الى هذا الساحل وما وراءه من بلاد الحبشـــــة نتاج الحضــارات الفارسية ، واليونانية ، والرومانية ثم نقلت بدورها الى هذه البلاد نتاج الهضبة الأثيوبية .

ومع أنهم تغلغلوا فى شواطىء المحيط الهندى ودخلوا « زنجبار » الا أن التأثير العميق لهم كان فى بلاد الحبشة .

فقـــد أثبتت النقوش القديمة فى بلاد الحبشة أنهم كانوا يستخدمون فى الطور الأول من تاريخهم اللغة والكتابة السبئية(٢). وقد رسمت الحروف الأثيوبية القديمة بعد محاولات عديدة لتحـــويرها من الحروف السبئية أو حروف تشبهها . هذه الحروف التى كانت تمثل الفرع الجنوبى للحروف الأبجدية الذى انشق من الحروف الأبجـــدية السامية الأصـــلية فى عصر متقدم جدا .

أما رأى الباحثين القائلين بأن الحروف الأثيوبية قد انشقت من أصل يونانى فيجب طرحه الآن تماما وبشكل نهائى . ذلك لأن الحروف الموجودة فى المخطوطات الحبشيـــة هى اما مطابقة للسبئية ولما تشبهها الى درجة لا تدع مجالا للشك فى هذا الاشتقاق بحيث لا يمكن للتطورات العديدة التى أصابت الكتابة السبئية فى الحبشـــة أن تمنعنا من الاعتراف بدون

---

(١) تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى ترجمة الاستاذ مبروك نافع ج ١ ص ٦٨ ، ٧٠ .

(٢) بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين ص ١٠ .

صعوبة بتأثير هذه الحروف فى الكتابة الأثيوبية (١) .

ومما يدل على هذا التأثير أنه قد عثر على عدة أماكن فى الحبشة كان لها نظائر فى اليمن مثل « أوم » التى كانت تطلق على حرم بلقيس ، أو أحد هياكل القمر . وقد عثر « كونتى روسينى » على عدة نظائر مثل مدرى وقلى ، وضهرم ، وسحرت ، وحوزين ، وغيرها .

ثم ان ثمة تشابها بين سبأ ، والقبائل السامية المهاجرة بعقيدتها الدينية . فأقدم النقوش الحبشية كانت مقدمة الى الاله السيئى « المقاه » (٢) .

كل هذا جعل الباحثين يرجحون وجود قرابة بين بعض القبائل السبئية ، والأحباش الساميين فقد دفعت التجارة بعض القبائل العربية الى الهجرة ، وما كانت هذه الهجرة لتشق عليهم لأن الطريق الى الحبشة كان من السهولة بمكان . فالمسافة بين الساحل العربى والافريقى ليست شاقة العبور وبخاصة اذا عرفنا أن هذه المسافة تضيق جدا عند « باب المندب » (٣) .

ومن هنا نرى أن العرب قد تركوا تأثيرا واضحا ظل الى اليوم ، فظاهرة اشتقاق الخط الحبشى من الخط الحميرى ما زالت موجودة حتى اليوم (٤) .

ثم ان اللغة العربية تعتبر من أوثق اللغات صلة باللغة الأثيوبية ، وهذا طبيعى نظرا للصلات التى قامت بين الأحباش الساميين ، وبين جنوب الجزيرة العربية وتأثرهم بها ، وللصلات التى حافظوا عليها معها . رغم بعض الدلائل التى تدل من أول وهلة على عكس ذلك كترتيب الحروف الأبجدية مثلا .

ورغم ذلك فلا يمكننا أن نقول أن اللغة الأثيوبية هى مجرد واحدة

---

(1) Ethiopic grammer Dillmann & Bezald p. 15-10

(٢) بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١ .

(٤) العروبة فى السودان للاستاذ محمد عبد الرحيم ص ١٦ .

من اللهجات العربية وبخاصة اذا عنينا بذلك العربية الفصحى فى العصور الوسطى .

ويسمح لنا هذا باستنتاج أن اللغة الأثيوبية القديمة واصلت بعد انفصالها عن اللغات السامية الشمالية نفس الطريق المشترك مع اللغة العربية لمدة من الزمن ، ولكنها انفصلت عنها فى وقت متقدم ، وقبل أن تصل العربية الى أشكالها الحالية المزدهرة ، وقبل أن تصل كذلك الى قواعدها الثابتة (١) .

وقد ظلت حركة الدفع العربى تتغلغل حتى وصلت الى السودان فى عهد يرجع الى ما قبل المسيحية بل ، والموسوية (٢) .

وقد روى أن عرب حمير الذين أخضعوا الحبشة لبلادهم قد نقلوا عبادة الشمس اليها ، وظلت هذه العبادة تنتشر بفضل القوى العربية والحبشية حتى وصلت الى « تلميس » (٣) وما زالت بها حتى زمن « جستنيان » فهذا يؤكد الصلة التى كانت بين حمير ، وبلاد النوبة فى عصر ما قبل الاسلام (٤) .

وتذكر رواية عربية أن « أبو مالك » أحد ملوك حمير قد جهز حملة الى بلاد « البجة » للحصول على المعادن ، ولكن جيشه هلك (٥) .

وقد عرفت بلاد البجة هذه هجرة « الحضارمة » قبل الاسلام . فقد وفدوا على هذه البلاد واستقروا عند « العتباى » ، وتلال « سنكات » وتحولوا فى هذه البلاد من الوثنية الى المسيحية . ثم الى الاسلام ، وقد كانوا ينتمون فى الجاهلية البعيدة الى امارة « حضرموت » وهم ما أطلق عليهم البجة بعد ذلك لفظ « الحدراب » .

---

(١) Ethiopic grammer p. 4.5

(٢) مقال للاستاذ عباس محمود العقاد عن الاسماء العربية فى السودان بمجلة الكتاب (السنة السابعة يوليو ١٩٥٢) .

(٣) الكلابشة منطقة اثرية فى جنوب اسوان .

(٤) A history of Arabs in the Sudan 7 vols p. 3-9.

(٥) السودان الشمالى للدكتور محمد عوض ص ١٣١ ، ١٣٢ .

كما أنه يرجع وصول الأنباط العرب الى السودان قبل الاسلام (١) .

وقد احتفظت الأماكن الواقعة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر والقريبة منه بأسماء عربية قديمة وجدت لها نظائر فى بلاد العرب كنجران التى كانت الاسم القديم لمملكة « بلو » فى شرق السودان .

ولعل « سوبا » محرفة عن سبأ (٢) ، ويرجع هذا الى أن ثمة تشابها بين سبأ اليمنية ، وسوبا السودانية فى نظام تولى الملكات العرش ، وكذلك فى نظام المعابد ، وطقوس العبادة (٣) .

ويدلل الدكتور محمد عوض على قدم العروبة بأن اللغة المصرية القديمة قد انطبعت بالطابع السامى فى زمن قديم جدا ، وأن الجزيرة العربية كانت مصدر هذا التأثير كنتيجة للهجرات القديمة التى وصلت الى وادى النيل .

فكثير من اليمنيين قد هاجروا الى الحبشة ، وعملوا على نشر الثقافة العربية « فى وقت يرجع على الأقل الى القرن العاشر قبل الميلاد » .

وقد وصل هذا التأثير الى السودان . ولا يقتصر أمر العرب على اليمن فقط لأن الحجازيين كانوا أيضا على معرفة تامة ووثيقة بالحبشة حتى انهم فضلوا الهجرة اليها فى بدء الاسلام عن أى بلد آخر . ثم ان الحجاز قد عرف كثيرا من اليمنيين وبخاصة بعد انهيار سد مأرب ، ثم ان عددا غير قليل من الممالك المنتشرة حول بحيرة « تشاد » غربى السودان مثل « كانم » و « برنو » ينتسب رجالها الى « سيف بن ذى يزن » أحد ملوك التبابعة (٤) .

فالبحر الأحمر لم يمنع الاتصال بين الشاطىء الآسيوى العربى ، والشاطىء

---

(١) دراسات سودانية للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٧ — ٩ .

(٢) العروبة فى السودان للأستاذ محمد عبد الرحيم ص ١٤ .

(٣) A history of Arabs in the Sudan 1 rols p. 41.

(٤) السودان ووادى النيل للدكتور محمد عوض محمد ص ٣٥ ، النابغة الدبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ١٢ ، ١٥ ، ١٦ .

الافريقى لأن اجتيازه بالسفن الصغيرة يسير . ثم انه يضيق جـدا عنـد « باب المندب » بحيث لا يزيد على العشرة الأميال .

وهكذا نرى أن بلاد اليمن ، وما يليها من الجنوب ، والشمال كانت مصدرا خصبا لهجرات كثيرة استطاعت التأثير فى الحبشة ، وأعالى النيل الأزرق ، وعطبرة ، وأريتريا ، وسواحل السودان الشرقية (١) .

ومن هنا نرى أن العرب تدفقوا من البحر الأحمر ، ثم استقروا فى السودان ، واختلطوا مع أهله ، وتمكنوا بفضل قانون وراثة الأم من الوصول الى الحكم . قبل تدفق الاسلام . واذا كانت لا توجد اشارة فى المخطوطات السودانية تشير الى هذه الهجرات القديمة فما ذلك الا لأنهم — فى الغالب — لم يجدوا شيئا يقفون عنده بأصولهم خيرا من الأصول الاسـلامية (٢) .

وقد أثبتت البحوث الحديثة أن العرب قبل الاسلام أدركوا قيمة موقع « زنجبار » فاتخذوها قاعدة لتجارتهم ، ومنها تغلغلوا فى داخل القارة حتى البحيرات الكبرى . وقد استدل علماء الأجنـاس فى اقليم بحيرة « فيكتوريا » من الملامح العامة للسكان على أن التغلغل العربى قد ظهر فى هذا الاقليم قبل الاسلام (٣) .

ومما لا شك فيه كذلك أن العرب الذين قدموا الى هذه البلاد قبل الاسلام لم تكن لغتهم هى اللغة العربية الفصيحة المعروفة ، فالحضارمة حملوا معهم لغتهم ، وكذلك حمير ، والأنباط ، ومن هنـا لم تتكون لهم وحدة لغوية الا بعد وصول الاسلام . فالتاريخ يؤكد أن عرب الجنوب حينما هاجروا الى الشمال وجـدوا أن اللغتين غير متفقتين تماما ، ورغم

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦ .

(٢) A history of Arabs in the Sudan 2 vols. p. 8.

(٣) الجغرافية التاريخية الاسلامية للاستاذ محمد احمد حسونة ص ٧١ .

الجوار ، والمصاهرة ، والحروب ، والتجارة والحرب فقد « بقيت فى لسان كل قبيلة عدنانية أو يمنية بعض الهنات التى عسر عليهم أن يتخلصوا منها ، وظل هذا التفاعل بين اليمنية والعدنانية يشتد ويقوى (١) .

---

(١) النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقي ص ١٥ .

العروبة بعد الاسلام فى السودان

طرق العروبة بعد الاسلام فى السودان

تعتبر الطرق التى وصلت الاسلام الى السودان هى ما يأتى :

١ — الحبشة

٢ — مصر

٣ — ليبيـــا

الطريق الشرقى

(١) لم يتوقف بعد الاسلام التغلغل العربى فى شرق افريقية ، والشرق فى وقتنا الحاضر يطلق بصفة عامة على هذا الجزء الممتد من خليج عدن من رأس « جردفوى » الى خليج « ديلاجو » ويضم الصومال ، وكينيا ، وتنجانيقا ، وموزمبيق .

وقد أطلق العرب على هذا الاقليم اسم بلاد الزنج ، وان كان جغرافيوهم كالمســعودى والادريسى ، وابن معبد ، وابن الوردى ، وأبى الفداء ، وياقوت الحموى ، وآخرين قد اختلفوا فى تحديده تماما .

ومع أننا ذكرنا أن العرب قبل الاسلام لم يكونوا غرباء عن هذه المنطقة الا أنه من المحتمل القول بأنهم حتى ظهور الاسلام لم يكونوا قد أقاموا فى مستعمرات دائمة فى افريقية الشرقية لأن الاقامة قبل ذلك كانت طارئة ولأغراض تقوم على التجارة ، ولذلك كان لابد من دافع ملح فى اقامة هذه المستعمرات ، وقد وجد هذا الدافع فى عهد الدولة الأموية والعباسية .

فقد كانت هناك فى حوالى عام ٦٩٥ م هجرة عربية كبيرة الى شرق

افريقية . اضطر اليها سليمان ، وسعيد أبناء « عباد الجلندى » حينما كانا حاكمين على عمــان بسبب ضغط « الحجاج بن يوسف الثقفى » عامل « عبــد الملك بن مروان » على العراق الذى رأى فيهما نصـيرين للزبير ابن العـــوام (١) .

ثم أعقبت هــذه الهجرة هجـــرة طائفة من الزيدية حوالى عام (٧٣٩ م — ١٢٢ هـ) ثم كانت هجرة سبعة أخوة من الاحساء حوالى عام ٣٠٩ هـ نتيجة لضغط حاكم مجاور لهم ، وكانت هذه الهجرة على ثلاث سفن .

ثم تلت هذه الهجرة تلك الهجرة التى قام بها « الحسن بن على » وأولاده الستة ثم هجرة بنى نبهان من عمان .

من كل هذا وغيره تكونت عدة مستعمرات عربية أهمها :

مقديشيو ، وبردة ، وملندة ، وبمبا ، وزنجبار ، ومافيــا ، وكلوه ، وموزمبيق ، وسفالة (٢) ، وكانت جهود العرب مقصورة على الحدود الساحلية فى أول الأمر ثم أوغلوا فى داخل القـــارة الافريقية المتأخمـة للســاحل (٣) .

وقد استمر هذا النفوذ العربى فى شرق افريقية حتى نهــاية القرن الخامس عشر الميلادى . ثم كان التدخل الأوربى ، وعرف شرق القارة أن البرتغال تسعى لتحقيق هدفين هما :

١ — محاربة المسلمين فى السواحل القريبة وبخاصة ساحل شمال افريقية

٢ — الوصول الى سواحل الرقيق لاقتناصهم تحت ستار التبشير .

(ب) قدمنا بهذا لندلل على أن الزحف العربى لم يتوقف فى افريقية ،

(١) المنافسة الدولية فى أعالى النيل للدكتور على ابراهيم عبده ص ٣٢ ، مجلة النادى المصرى بالخرطوم (الكتاب السنوى ١٩٤٤) .

(٢) المنافسة الدولية ص ٣٠ ، ٣٢ ، ومقال العرب فى شرق افريقية بمجلة النادى المصرى بالخرطوم (الكتاب السنوى ١٩٤٤) .

(٣) انتشار الاسلام والعروبة للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٢ .

ولنمهد الى دخول الاسلام للسودان عن طريق الحبشة . فقد نصح الرسول عليه السلام أصحابه بالهجرة الى الحبشة لخبرتهم السابقة بهذه البلاد التى عاش بها اخوان لهم من قبل .

وقد استمرت هذه الهجرة وبخاصة بعد حرب « الردة » وما تلاها من أحـــداث (١)

وعن طريق الحبشة استمر الزحف الاسلامى للســـودان ، فشواهد القبور فى هضاب البحر الأحمر يستدل منها على أن الاسلام قد عبر هذا البحر فى تاريخ قديم (٢) .

وقد زاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيـل الأزرق ، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة فى القرن العاشر حتى انهم استطاعوا أن يلتمسوا الاذن ببناء مسجد فى سوبة عاصمة المملكة المسيحية (٣) .

وقد دفع هجوم القراصنة من سكان الجانب الافريقى على التجار ، والموانى العربية ، العرب على انشاء نقاط ارتكاز على الجانب الغربى للبحر الأحمر حتى لا يمتد نفوذهم الى الأماكن المقدسة . بعد أن قاموا بهجوم عنيف على ميناء جدة وخربوها فى عام ٧٠٢ م .

ولذلك رأيناهم يحتلون جزائر دهلك التى كان أهمها دهل ، وحرات ، وكبارى ، ودركه ، وديقارنج ، ونورة ونقرة (٤) .

ومن نقاط الارتكاز هذه التى امتدت على طول الشاطىء الافريقى حتى بحر الزنج صار للعرب نفوذ كبير فى هذه المنطقة ، وقد شمل هـذا النفوذ الهضبة الأثيوبية ، وحوض وادى النيل الأوسط ، وقوى هـذا النفوذ حين تم لهم انشاء سبع ولايات اسلامية فى أثيوبيا هى :

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل للاستاذ الشاطر بصيلى ص ٦

(٢) مقترحات لبعض طرق البحث العلمى فى السودان لاركل ترجمة ثابت حسن ثابت ص ١٢

(٣) الدعوة الى السلام لسير توماس . و . أرنولد ترجمة الدكتورين حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوى ط ٢ ص ١٣١ .

(٤) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٨ .

١ ــ أوفات والزيلع
٢ ــ دوارو
٣ ــ أرابينى
٤ ــ هدية
٥ ــ شرخا
٦ ــ بالى
٧ ــ دارة (١)

وهكذا نراهم يضعون أيديهم على مصير التجارة بين أثيوبيا وحوض النيل الأوسط وبين البلاد الواقعة فى الشرق الأقصى . كمــا تمكنوا من الاستيلاء على ميناء « زولا » الذى كان يعتبر المنفذ الوحيد على البحر الأحمر لأثيوبيا ، ومن هنا عزلوا عن الواقع الخارجي . ودارت فيها معارك حامية حول الملك فى أواخر القرن العاشر الميلادى (٢) .

وقد استغل العرب فرصة هذه المعــارك فأتموا فتــوحاتهم ، ومدوا سلطانهم الاقتصادى حتى جزيرة « مروى » ولكن المسلمين والأثيوبيين ما لبثــــوا أن دخلوا فى صراع حينمــا خاف أول نجــاشى من البيت السليمانى (٣) من أن يدبر المسلمون أمر اقصائه واعادة الملك الى البيت الزغوى بعد أن رأى العرب يتحكمون تماما فى الموارد والصلات الخارجية للبـــــلاد .

ومن هنا فقــد استغل النجــاشى ــ بعد أن هادنهم فى أول الأمر ــ الصراع الذى كان بين رجال الدين والسلاطين فى الامارات ، وبين بعض السلاطين وبعض ، حتى استطاع أن يقضى على سلطناتهم الواحدة تلو الأخرى ثم يضمهم الى ملكه فى الوقت الذى كانت تعززه فيه المسيحيــة الغــــربية .

---

(١) صبح الاعشى جـ ٨ ص ١١ .
(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٩ .
(٣) يكونو أملاك « ١٢٧٠ ــ ١٢٨٥ م » .

وهكذا انتهى الصراع بهزيمة المسلمين بعد مقتل الامام « احمد القرين (١) » فى السنوات الأخيرة فى النصف الأول من القرن السادس عشر (٢) .

وقد ألقى السير توماس . و . ارنولد ضوءا على هذه الفترة فقال « لم تكن هناك حتى القرن العاشر الميلادى الا أسر اسلامية قليلة العدد تقيم فى مدن الحبشة الساحلية ، الا أنه فى نهاية القرن الثانى عشر أدى تأسيس دولة عربية الى فصل بعض الأراضى الساحلية عن المملكة الحبشية ، وحدث فى عام ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة ، ويدعى أبو عبد الله محمد ، طريقه الى بلاد الحبشة داعيا أهلها الى الاسلام فلما تمكن من أن يجمع حوله مائتى ألف شخص هجم فى السنة الثانية على حاكم أمهرة ، واشتبك معه فى معارك كثيرة . وقد اتخذ الملك « سيف أرعد » (١٤٣٢ — ١٣٧٠) تدابير صارمة ضد المسلمين فى مملكته ، وفى نهاية هذا القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب لانشغالها بالحرب الأهلية الداخلية ، ومهدت تلك الحالة السبيل للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل لأن يجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها وطردوا الأحباش الى المناطق الداخلية ، وقد قيل ان الملك « بثيد ماريام » (١٤٦٨ — ١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه فى محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته . وفى مستهل القرن السادس عشر بينما كانت مملكة « عدل » الاسلامية القوية الواقعة بين بلاد الحبشة والأطراف الجنوبية للبحر الأحمر وغيرها من الممالك فى عداء مستحكم مع القوة المسيحية كانت هناك ممالك أخرى تؤلف جماعة مسالمة خاضعة للقديس يوحنا ، ومن أمثلة هؤلاء قوم من العرب كانوا

---

(١) امير مملكة عدل .

(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٣ ، ١٤ من لهجات الجزيرة (رسالة الدكتوراه للدكتور عبد الحميد طلب ص ٤) .

يسكنون فى مصوع .. » (١)

ومهما يكن من شيء فقد دفع هـــذا الصراع كثيرا من المسلمين الى البعد عن ساحة المنازعات والقتال فانتقــلوا الى حوض النيــل الأزرق والأماكن المجاورة له ، وقد كان لمجريات الأحوال فى شــمال أثيوبيــا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أثرها المباشر فى قيام سلطان فى سنار والجمع بين المشيخات فى وحدة تزعمها البيت السنارى (٢) .

ومازال هــذا الطريق يرفد الســودان الى اليــوم باليمنيين الذين يشكلون الطبقة الثانية من التجار بعد الأجانب هناك .

وبالاضافة الى هذا فقد عرف العرب « البجة » فى شرق السودان ، وعاشوا فى أمان فترة ، غير أنه لما اشتد ايذاؤهم للمسلمين رفع أمرهم الى الخليفة المأمون (٢١٦ هـ ـــ ٨٣١ م) ثم كانت وقائع انتهت بالصلح بين العرب ، وبين « كنون بن عبد العزيز » زعيم البجة .

ومن أهم هذه الشروط التى تلقى الضوء على مدى ما وصلت اليــه اتصالات العرب بشرق السودان تلك الشروط الآتية :

١ ـــ أن تكون بلاد البجة ملكا للخليفة ، وأن يكون السكان ورئيسهم عبيدا له ، وأن يستمر « كنون بن عبد العزيز » ملكا عليهم ، وهذه أول مرة تصبح فيها هذه المنطقة ملكا للخليفة .

٢ ـــ أن يؤدى الملك الخراج أو « البقط » مائة من الابل أو ثلثمــائة دينار .

٣ ـــ أن يحترم البجة الاسلام ، والا يعينوا عليه أحدا .

٤ ـــ السماح للمسلمين بممارسة التجارة فى بلادهم .

---

(١) الدعوة الى الاسلام ط ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٥ .

٥ — أن يصبح كل مسلم آمنـا حين يتاجر أو يقيم أو يجتاز البـلاد . أو يحج .

« وتدل هذه الشروط على أن العـرب المسلمين كانوا يترددون على شرقى السودان تجارا ، ومقيمين ، ومجتازين ، وحجاجا ، وأن من البجة من أسلم ، وأن للمسلمين بها مسـاجد معمورة فى أكثر من بلد ، وأن عمال الخليفة كانوا يغشونها لقبض الجزية ، فهذه المنطقة اذن أسبق مناطق السودان الى الدخول تحت لواء الاسلام ، وأهلها أول من أسلم ودخل فى هذا الدين قبل أن يسلم أهل شمال السودان (١) » .

(١) انتشار الاسلام والعروبة ص ٩٧ ، ٩٨ .

الطريق الشمالى

تدفق هذا الطريق بالعروبة منذ دخل الاسلام مصر ، وبعد أن ارتبطت النوبة بعهد الأمان الذى كان من « عمرو بن العاص » عام (٢٠ هـ) فقد ورد فيه ، « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب .. على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا (بكذا وكذا) رأسا على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد وابناه (١) .

ثم أرسل عمرو حملة بقيادة عقبة بن نافع الى النوبة الا أنها لم تتقدم كثيرا .

ثم كانت حملة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح وقد اصطدم فيها الفريقان ، ودارت بينهما حرب أرغمت أخيرا الملك « قليدورت » على وقف القتال والصلح (٢) ، وقبول الاتفاقية التى الزمت النوبة بدفع ٣٦٠ رأسا من أواسط رقيق البلد غير المعيب ، ورد الآبقين وحفظ المسجد ، وقد بدأت هكذا : عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته : عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض السودان الى أرض علوة (٣) .

---

(١) تاريخ الامم والملوك للطبرى جـ ٣ ص ١٩٩ .

(٢) بلاد النوبة فى العصور الوسطى تأليف ب. ل. شنى ترجمة نجم الدين محمد شرف .

(٣) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٣٢٣ .

وحين انتقلت الخلافة من الأمويين الى العباسيين حوالى عام (١٣٢ هـ) نرى عبيد الله بن مروان أمير مصر يفر بعبيده وأمواله الى بلاد النوبة ، ولكن ملك النوبة لا يرضى عن بقائه ببلاده فيعود ثانية الى مصر حيث يقبض عليه جنود الخليفة المنصور ، ويبعثون به الى بغداد .

وقد شهدت أسوان كثيرا من العرب من قبائل قحطان ، وربيعة ، ومضر ، وقريش تمتد ضياعهم فى بلاد النوبة (١) .

فقد كان الجنوب بمراعيه ، ومساحاته الشاسعة يغرى هؤلاء العرب على النزوح دائما الى الجنوب الذى يذكرهم ببلادهم .

وقد كان لاستدعاء آخر حاكم عربى على مصر لبغداد عام ٨٥٦ — ٢٤٢ هـ) أن تولى الحكم مسلمون من أهل البلاد . فأحس العرب أن مكانتهم فى البلاد قد تغيرت ، وأن الحكام الجدد لا يعاملونهم مثلما كانوا يعاملون من قبل ، ومن هنا أخذوا فى التوغل جنوبا (٢) .

وقد أرسل « ابن طولون » عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ليؤدب أهل النوبة ، وكان أكثر رجاله من جهينة وربيعة (٣) ، ولما أغاروا على اسوان وقتلوا كثيرا من المسلمين أرسل اليهم « أنو جورين الأخشيد » القائد عبد الله الخازن ، وكان هذا عقب عملية التخريب التى قاموا بها فى أسوان (٩٥٦ — ٣٤٤ هـ) (٤) .

وحين قام الحكم الفاطمى أرسل جوهر الصقلى الى « جورج » ملك النوبة رسالة يطلب فيها منه دخول الاسلام ، ولكن الملك جورج لم يقبل . وكان ذلك عقب تخريبه لأسوان عام ٣٥١ هـ ، وهكذا جاء القرن العاشر والاسلام يتعثر فى النوبة (٥) .

---

(١) السودان لعبد الله حسين جـ ١ ص ٥٧ .

(٢) العروبة فى السودان ص ٦٧ ، وتاريخ السودان لمندور مهدوى ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٢٠ ، ٢١ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥ ، السودان لعبد الله حسين جـ ١ ص ٥٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٥ ، السودان لعبد الله حسين ص ٥٨ .

وقد ظلت المسيحية فى القرن الحادى عشر هى الدين الرسمى للبلاد ، ولكن لوحظ فى هذا الوقت ظهور امارة عربية فى شمال النوبة ، وكانت هذه الامارة فخذا من ربيعة .

وحين قامت الأيوبية أرسل صلاح الدين حملة الى النوبة السفلى عام ٥٦٩ بقيادة « شمس الدين طوراه » ، والأمير « كنز الدولة » حامى أسوان ليرغمهم على دفع المقرر عليهم من « البقط » وليتحسس ملجأه الى النوبة اذ أرغمه على هذا الامر « نور الدين » .

ولكنه لم ير فائدة من التوغل فى هذه البلاد فأعاد جيشه بعد ان ترك فيها حامية . ثم عاد وسحبها (١) .

وحين أسفر العداء بين المماليك البحرية والعرب اضطر العرب للهجرة جنوبا ، وقامت بسبب هذه اشتباكات بين الممالك والنوبة مما اضطر الملك « شكنده » الى أن يدين بالولاء للسلطان « بيبرس » حين تولى العرش فى دنقلة عام ٦٧٤ هـ الى أن يقول « واننى عبد مولانا السلطان عز نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من والاه وعدو من عاداه والله على ما أقول شهيد (٢) .

وقد أرسل السلطان المنصور قلاوون جيشا الى النوبة عام ٦٨٦ هـ ، وتوغل فى البلاد الى جنوب « دنقلة » ثم عاد بعد أن ضرب عليها الجزية ، وفى عهد السلطان ناصر بن قلاوون أصبحت لمصر تعيين الملوك فى هذه البلاد ، وانحسرت المسيحية وأصبح للاسلام الكلمة العليا هناك « وفى دنقلة العجوز جامع قائم على أطلال كنيسة ، وعلى واجهته حجر من الرخام ، منقوش عليه تاريخ افتتاح هذه العاصمة فى ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧١٧ هـ ، ٩ من يونيه سنة ١٣١٨ م على يد سيف الدين عبد الله الناصر ، وأحد أمراء بيت كنز الدولة (٣) .

---

(١) التربية فى السودان جـ ١ ص ٢٠ — ٢٩ ، السودان لعبد الله حسين جـ ١ ص ٥٨ .

(٢) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٣) السودان للاستاذ عبد الله حسين جـ ١ ص ٥٨ ، ٥٩ .

وبهذا وغيره تدفق العرب بغزارة على هــذه البلاد ، وقد ذكر أحد الباحثين أن هناك احدى عشرة قبيلة عربية مشتركة بين السودان والقسم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة بمعنى أن بعضها يقيم فى مصر ، وبعضها يقيم فى السودان (١) .

وقد أرخ السير توماس . و . أرنولد لهــذه الفترة الحاسمة بقــوله « وقد خضع النوبيون للمؤثرات الاســلامية القــوية التى أحاطت بهم ، ويرجع اليها أكبر الفضل فى الجهود التبشيرية التى قام بها المسلمون الذين تنقلوا فى القرون الماضية ، ففى الشمال كانت مصر وكذلك القبائل العربية التى كانت قد أخذت طريقها تجاه منابع النيل ، ووسعت سلطانها على طول ضــــفاف ذلك النهر ، وفى الجنــوب كانت ولاية بلو الاســــلامية تفصل بينهم وبين سائر بلاد الحبشة (٢) » .

(١) العروبة فى السودان للاستاذ محمد عبد الرحيم ص ٦٩ .

(٢) الدعوة الى الاسلام ط ٢ ص ١٣٤ .

الطريق الغربى

(ا) كان غرب السودان هو الطريق الثالث الذى تدفق بالعـروبة . مما كان أثره واضحا فى العروبة بعد الاسلام بهذه البلاد ، ويرجح الدكتور محمد عوض محمد أن هذا الباب لم يكن مصدرا للثقافة العربية الا بعد الاســـلام (١) .

وقد كانت خطوات العروبة الموفقة فى الشمال ايذانا بالتغلغل فى غرب افريقية فقد طرقت القيروان ، وقرطاجنة ، وتلمسان ، وطنجة ، ومامسـه حتى لتذهب بعض الروايات الى أن عقبة بن نافع قد أدرك مدينة « نول » على ساحل المحيط الأطلسى فى أقصى بلاد المغرب وانه قد أدرك الحـدود الشمالية لمملكة السودان ، وقد أكد موسى خطوات العروبة هنـاك حين اتصـل بقبـائل الملثمين الذين كانوا ينتشرون فى الصحراء الكبرى حتى حدود السودان الشمالية ، كما زاد « عبد الرحمن بين حبيب(٢) ١٢٧ — ٣١٢ هـ خطوة حين أمر بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات افريقيـة وبين مدينة « أودغشت » بصحراء المغرب الأقصى ، وهكذا أمكن الوصول الى بلاد السودان عن طريق ساحل المحيط ، وعن طريق الصحراء الذى تم على يد « عبد الرحمن بن حبيب الفهرى » والذى تم بفضله تغلغل العروبة غرب افريقية (٣) .

وتعتبر مملكة « السنغال » أول من أسلم من ممالك السودان فى أوائل القرن الحـادى عشر الميلادى والرابع الهجرى . حتى أن العرش أصبح مقصورا على المسلمين هناك ، وهكذا كان القرن الحادى عشر فاتحة خير

---

(١) السودان الشمالى ص ١٦٠ .

(٢) حفيد عقبة بن نافع .

(٣) انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ .

للمد الاسلامي في غانة ، وتكرور ، ومالي (١) وقد بدأت عمليات المد الجماعي حين أغارت قبائل بني هلال — التي أرسلها الخليفة الفاطمي لتأديب الخارجين عليه في الشمال الافريقي من البربر ، ومن هنا تدفق البربر الى الصحراء والسودان .

ومن هؤلاء الفارين وغيرهم تكونت دول اسلامية عديدة كان لها أثر كبير في حمل الاسلام الى الافريقيين ، وفي تغلغل العروبة في هذه المناطق البكر ، وقد ساعدهم على التغلغل في الجنوب ضعف مملكة غانة وتفككها (٢) .

ونحن نعرف أن المسلمين حين طردوا من أسبانيا نزل كثير منهم السودان ، وقد استولى هؤلاء الأسبان والمغاربة على « تمبكتو » وغيرها من بلاد « الماندنجو » كما نزلوا الى الشمال من « سيراليون » وأقاموا الكثير من المدارس لتعليم الثقافة العربية « وعنوا بنوع خاص بتعليم جيرانهم أن المسلم لا يباع رقيقا (٣) » .

وقد كانت نتيجة كل هذه الجهود قيام عشر دول اسلامية في غرب القارة هي :

١ — مملكة غانة .

وتعتبر هذه المملكة من أعرق الممالك السودانية ، وأطولها عمرا ، فتاريخها يرجع الى القرن الثاني الميلادي ، وقد بلغت قمة ازدهارها في أوائل القرن الحادي عشر بفضل التجارة ، وقد وقفت هذه المملكة بعناد في وجه القوى الاسلامية ، ولكنها سقطت في عام ١٠٧٦ م على يد زعيم المرابطين « أبي بكر بن عمر » ثم واصل عملية القضاء خليفته « يوسف بن تاشفين »

٢ — مملكة صو .

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان جـ ٤ ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ص ١٣٠ .

(٢) الديانات في افريقية السوداء لهوبير ديشان ترجمة أحمد صادق حمدي ص ١٢٢ ، ١٢٣ . وانتشار الاسلام والعروبة ص ٥٢ .

(٣) الجغرافية التاريخية للاستاذ محمد أحمد حسونة ص ٧٠ ، ٧١ .

قامت هذه المملكة على يد « الفلانيين » وهم المغاربة الذين هاجروا من مدة كبيرة الى داخل القارة وتأقلموا بالحياة فيها ، وقد ضمت اليها فى القرن الثانى عشر الميلادى مدينة « ديارا » . ثم ضمت اليها بعد ذلك مملكة « غانة » ثم تغلب شعب « الماندنجو » على هذه المملكة .

٣ — مملكة مالى .

تقع مالى بين بلاد « برنو » شرقا ، والمحيط الأطلسى غربا ، وجبال البربر شمالا ، وقد ورثت مكانة « غانة » التجارية ، وبلغت قمة ازدهارها فى عهد الملك « منسى موسى » (١٣٠٧ — ١٣٣٢ م) فقد كانت تتكون من خمسة أقاليم كبيرة ، ولكنها فى منتصف القرن السابع عشر عادت دولة صغيرة فى « كانجابا » كما كانت من قبل .

٤ — مملكة سنغاى فى جوا

يبدأ تاريخها بقبائل « لمطه » المغربية الوثنية ، فقد تمكن هؤلاء البربر من تكوين أسرة حاكمة تسمى أسرة « ديا » وقد ظلت تحكم حتى عام ١٣٢٥ م ، ويعتبر الملك « اسكيا محمد الأول » من المع حكام هذه الدولة وقد ظلت هذه المملكة قائمة حتى لاقت نهايتها على يد المراكشيين عام ١٥٩٠ م .

٥ — شعب الحوصة .

كانت تتكون من سبع امارات وثنية حتى دخلها الاسلام فى القرن الثالث عشر الميلادى فاعتنقته ، واعتبرت نفسها مسئولة عن نشره ، ومن ألمع الدعاة الى الاسلام هناك « الشيخ عثمان دان فوديو » الذى لقب باسم « ساركين مسلمانى » (١) وتوفى عام ١٨١٧ م ثم استسلمت البلاد للانجليز .

٦ — شعب اليوروبا .

يسكن هذا الشعب فى نيجيريا الجنوبية ، وقد عرف الاسلام على يد « الفلانيين » ، وقد بلغت أوج عظمتها فى القرن الثامن عشر الميلادى ثم سقطت تحت الحكم الانجليزى .

---

(١) معناها أمير المؤمنين .

٧ — مملكة بورنو .

تقع الى الشرق من بلاد الحوصة ، وقد بسطت نفوذها على الصحراء الكبرى ، وعلى جزء من السودان ، ومن أعظم حكامها « محمد الكانمى » وقد احتلها السلطان « رابح » حتى عام ١٩٠٠ ثم سقطت فى يد الفرنسيين

٨ — مملكة الكانم .

تقع على الشمال الشرقى لبحيرة « تشاد » وقد اعتنقت الاسلام فى القرن الحادى عشر وتطرق اليها الضعف فى القرن الثالث عشر .

٩ — امارات موسى .

تكونت هذه الامارات الخمس على يد طائفة وافدة من الشمال الشرقى وظلت متماسكة حتى نهاية القرن التاسع عشر وقدوم الغزاة البيض .

١٠ — مملكة البمبارا .

تكونت من امارتين هما « سيجو » و « كآرتا » وقد أدخل الاسلام اليها « أحمد لوبو » الذى ينتمى الى أصل « فلانى » (١) .

وهكذا نرى أن خطوات الاسلام والعروبة كانت أكيدة فى هذه البلاد وأن ازدهار الطـرق الصوفية كالقادرية والتجانية (٢) ، واخلاص نفر من الدعاة كالشيخ « عبد الله بن ياسين » والشيخ «عثمان دان فوريو» والحاج « عمرتال » والشيخ « عمروكبا » كان له الفضل الكبير فى تأكيد الاسلام فى هذه البلاد (٣) ، كما كان للتجار دورهم فى التغلغل فى القارة ، وأن نزول المسلمين فى بلاد وثنية هو كذلك ايذان بفتح باب للتجارة أوسـع مدى وانتشارا ، وبالاتصال بمراكز اسلامية تجارية كبيرة من أمثال جنى أوسجو أو كانو . كما أن هؤلاء المسلمين قدموا الى الأهالى نصيبا من مزايا هـذه الحضارة المادية مع الدين الاسلامى .

(ب) وقد أفضـنا فى خطوات الاسلام فى الغرب ليظهر لنا أنه من

---

(١) انتشار الاسلام والعروبة ص ٥٢ — ٨٨ .

(٢) الديانات فى افريقية ص ١٢٢ — ١٢٦ ، انتشار الاسلام والعروبة ص ٩٢ .

(٣) الدعوى الى الاسلام ط ٢ ص ٣٩٣ .

الطبيعى أن يستمر المد الاسلامى الكبير فى شكل أفراد وجماعات الى السودان ، وبخاصة اذا عرفنا أنه ليست هناك حواجز طبيعية تعوق هذه الهجرات عن التقدم فضلا عن المراعى التى تغرى بالتقدم .

ولعل أكبر هجرة جاءت من الغرب الى السودان هى تلك الهجرة العربية التى دخلت « دارفور » حينما كانت لاتزال على وثنيتها وأنه بفضل هذه الهجرة قد تحولت هذه البلاد الى الاسلام .

فقد انتقل عرب التنجار من القسم الجنوبى من تونس ، وهم ينتسبون الى أبى زيد الهلالى (١) وانتشروا فى « برنو » ، « وداى » حتى وصلوا الى « دارفور » ، وقد كان اتصال دارفور بالمغرب مع وداى ، وبرنو أكثر من اتصالها بالشرق (٢) . وقد أجمعت الروايات على أن هذه الهجرة كانت برئاسة « أحمد المعقور » الذى ما كاد يصل الى دارفور حتى أعجب به ملكها ، وقربه اليه ، وجعله مستشاره وزوجه ابنته .

وقد استفاد العرب من نظام وراثة ابن الأخت الذى كان سائدا هناك فقد انتقل الملك اليهم بعد أن أنجب هذا الزواج الملكى « سليمان صولون » (٣) . الذى قوى الاسلام فى عهده ، واشتد نفوذ من معه من العرب (٤) .

فاذا أضفنا الى ما سبق أن الطرق الصوفية فى السودان كانت ولازالت ذات تأثير كبير فى الحياة السودانية أدركنا أن بعض هذه الطرق قد وفد الى السودان عن طريق الغرب كالطريقة الشاذلية التى دخلت البلاد فى أواخر القرن الحادى عشر ، وهى الطريقة التى اشتهرت باسم « مجاذيب الدامر » (٥) ومثل الطريقة التجانية التى اقتحمت افريقية الغربية الى السودان فى القرن التاسع عشر والتى تظهر بوضوح فى دارفور (٦) .

---

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٤٥ .

(٢) انتشار الاسلام والعروبة ص ١١٤ .

(٣) معناها العربى بلغة الفوراويين .

(٤) التربية فى السودان ج ١ ص ٣٦ — ٤٢ ، والجغرافية التاريخية الاسلامية ص ٦٨ .

(٥) تاريخ السودان لنعيم شقير ج ١ ص ١٣٩ .

(٦) التربية فى السودان ج ١ ص ٢٤٥ .

ومثل الأدريسية التى نشأت فى مدينة « فاس » فى القرن الثامن عشر وتعتبر حديثة فى السودان (١) .

وقد ورد أن القطب المعروف الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن صاحب المزار المعروف بالخرطوم قبالة توتى ، سلك طريق القوم على الشيخ أحمد التنبكاوى الفـلاتى (٢) ـ نسبته الى تنبكتو عاصمة سكوتو بالغرب ـ

العرب فى السودان

يتشكل السودان العربى من مجموعتين كبيرتين هما :

١ — المجموعة الجعلية ، والكواهلة ، وتمثل العدنانيين من عرب الشمال فى الجزيرة العربية .

٢ — المجموعة الجهنية وتمثل القحطانيين من عرب الجنوب فى الجزيرة العربية .

(أ) المجموعة الجعلية

يعتبر الطريق الشمالى هو العامل الرئيسى لتكوين المجموعة الجعلية التى تمثل الكثرة العددية من العرب العدنانيين (٣) .

فهذا الطريق لا يتبع النيل دائما لأنه يتابع النهر من جنوب أسوان الى قرب كرسكو . ثم يخترق صحراء « العطمور » الى «أبو حمد» ليصاحب النهر مرة أخرى . ثم يسيران جنبا الى جنب للجنوب ، وزيادة على أن هذا الطريق أخصر من غيره فهو يبتعد عن البجة ، وعن النوبة ، ويعطى السائر فيه حرية العبور ، وبعض مايحتاج اليه المهاجرون من أخوار ، وأودية ممرعة حينا ومجدبة حينا آخر ، ومياه جوفية .

وقد كان هذا الطريق معروفا من القدم . فقد استخدمه المصريون فى الوصول الى « شندى » خليفة « مروى » القديمة .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

(٢) الطبقات فى خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان للفقيه محمد ضيف الله نشر ابراهيم صديق ص ٧٤ ٢

(٣) السودان الشمالى للدكتور محمد عوض محمد ص ١٦٤ .

وقد تركزت هذه المجموعة على النيل مابين الخرطوم جنوبا ، وبلاد النوبة شمالا ، كما توزع بعضها فى البطانة ، وبالقرب من النيلين الأزرق والأبيض ، وفى كردفان .

وقد وجدت حين دخلت السودان كثيرا من السكان بين حاميين ، وعناصر أخرى لهم ثقافتهم وتقاليدهم المشبعة بالتأثير النوبى (١) .

والجعليون يلحقون نسبهم بابراهيم الذى ينتهى نسبه الى العباس بن عبد المطلب وقد لقب ابراهيم « بجعل » لأنه كان يدمج السكان فى أنصاره قائلا جملة تقليدية هى « جعلناكم منا » .

ورغم أن الدكتور محمد عوض يميل الى هذا الرأى مستندا الى التواتر بين السكان فان « مكميكل » يرى أنهم خليط من عدة قبائل متباينة (٢) .

وتنطوى الآن تحت اسم « المجموعة الجعلية » عدة قبائل هى :

(١) القبائل النهرية :

١ — الجعليون الذين ليس لديهم اسم آخر وهم بلا شك أهم أقسام المجموعة ، ومواطنهم تمتد من « خانق سبلوقة الى « العطبرة » . ...

٢ — الميرفاب — الى شمال العطبرة حول بربر .

٣ — الرباطاب — من بربر الى أبى حمد .

٤ — المناصير — من أبى حمد الى آخر الشلال الرابع .

٥ الشايقية — من الشلال الرابع الى اقليم الدبة .

٦ — الجوابرة (بنى جابر) داخل بلاد النوبة بين الدناقلة والمحس .

٧ — الركابية — ويشك فى نسبتهم الى الجعليين ، وهم على كل حال من العرب الشماليين وموطنهم وسط بلاد المحس .

٨ — الجمع — غرب النيل الأبيض الى الجنوب من بلاد الكواهلة .

---

(١) السودان الشمالى ص ١٦١ ، ١٤١ ، اللغة النوبية لمحمد متولى بدر ص ٣٢ .
(٢) السودان الشمالى ص ١٦٤ ، تاريخ العرب فى السودان ص ١٩٧ .

٩ — الجموعية وأتباعهم ــ شمال وجنوب أم درمان الى حدود الكواهلة .

(ب) القبائل المقسمة بين النهر وكردفان .

١٠ — البديرية ــ بعضهم فى بلاد النوبة ، وبعضهم فى كردفان .

(جـ) القبائل التى ابتعدت عن النهر .

١١ ــ الجوامعة ــ فى أواسط كردفان شمال وشرق الأبيض .

١٢ — الفديات ــ الى الجنوب من الأبيض .

١٣ ــ البطاحين ــ فى النصف الشمالى من البطانة (١) .

(د) مجموعة الكواهلة .

لا شك أن هذه المجموعة تعد صغيرة اذا قيست بالمجموعة الجعلية التى مر ذكرها والجهنية التى ستأتى بعد ذلك ، وهم من عرب الشمال الذين ينتسبون فى أصولهم الى كاهل بن أسد بن خزيمة بن مدركة .

وقد كانت مواطنها مما يلى الكرخ من أرض نجد فى مجاورة طيء ، ويقال « ان بلاد طيء كانت لبنى أسد فلما خرج بنو طيء من اليمن غلبوا على سلمى وأجأ وتفرقوا بعد ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حى » .

وتعتبر هذه المجموعة من أهم المجموعات التى جاورت قبائل « البجة » وأصهرت اليها ، وأثرت فيها وقد بلغ هذا التأثير مدى جعل المجموعات البجاوية تلحق نسبها بكاهل هذا (٢) .

وقد وجدهم « ابن بطوطة » فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى مخالطين للبجة ، ومتحدثين بلسانهم (٣) .

وحين ازداد تقاطرهم تحولوا نحو الغرب فنزلوا حوض نهر عطبرة والنيل الأزرق . كما قصدوا النيل الأبيض وكردفان مدفوعين بقيام مملكة

(١) السودان الشمالى ص ١٦٧ .

(٢) السودان الشمالى ص ١٤٣ ، نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب لابى العباس أحمد القلقشندى تحقيق ابراهيم الابيارى ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٧٠ .

« تقلى » الاسلامية التى كانت تفتح ذراعيهـا وقلبها لهجـرات القبائل العـربية (١) .

٢ — مجموعة بنى جهينة .

وهم حى من قضاعة من القحطانيـين ، فهم ينتسبون الى جهينة بن زيد ابن ليث بن مسلم بن الحاف بن قضاعة (٢) .

وقد كانت هذه المجموعة وثيقة الصلة من قبل بافريقيـة مما كان له أثر كبير حين بدأ الاسلام يدخل القارة ، وقد حدثنـا الطبرى أن جيش عمرو بن العاص كان يضم عددا كبيرا من هذه المجموعة (٣) .

كما أننا نعرف أن أوطان هذه القبيلة كانت قريبـة من البحر الأحمر مما يسهل لها الأمور الى عبوره والوصول الى الضفة الشرقية ، واذا عرفنا أن عددا كبيرا من هذه المجموعة يقيـم فى دارفور ، وكردفان أمكننا أن نقول : انهم قد دخلوا الى السودان كذلك من الشمال الغربى عن طريق « الأربعين » أو من أى مكان آخر فى الغرب . وهكذا نراهـم قد دخلوا الى السودان من الشرق ، والشمال ، والغرب . ومن أعز ما تعتز به هذه المجموعة انتسابها الى « عبد الله الجهنى » الصحابى (٤) .

والمجموعة الجهنية فى السودان تنقسـم الى المجموعات الرئيسـية الآتيـة :

١ — رفاعة ، ومعها أقرباؤها من القواسمة ، والعبدلاب ، والعركيين ، وغيرهم .

٢ — اللحويون أو الحلويون .

٣ — العوامرة والخوالدة .. الخ .

٤ — الشكرية . وموطنهم فى أقاليـم النيـل الأزرق ، والبطانة أى

---

(١) السودان الشمالى ص ١٤٧ .

(٢) نهاية الارب تحقيق ابراهيم الابيارى ص ٢٢١ .

(٣) تاريخ الامم والملوك جـ ٣ ص ٢٠١ .

(٤) السودان الشمالى ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١ .

النصف الشرقى من السودان .

٥ — دار حامد .

٦ — بنى حامد .

٧ — الزيادية .

٨ — البزغة .

٩ — الشنابلة .

١٠ — المعاليـــا .

ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم [1] فزارة ، وهم فى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان .

١١ — الدويحية .

١٢ — المسلمية .

١٣ — البقارة .

١٤ — المحاميد والماهرية .

١٥ — الكبابيش .

١٦ — المغاربة (الذين جاءوا من الغرب) .

١٧ — الحمر (خلاف الحمر وهم من البقارة) .

وهؤلاء منتشرون فى كردفان ودارفور ، وان كان بعضـــــهم مثـــل المسلمية ، والدويحية لهم أوطان فى الجزيرة والنيل الأزرق [2] .

وقد أحصيت القبائل العربية فى السودان بمائتين وأربع عشرة قبيلة[3]

كل هذا بالاضافة الى الكثيرين من العرب الذين لا ينتســـبون الى قبيلة ، ولعل هذا يرجع الى ما أصاب الســـودان من حروب واضطرابات متوالية ، وكذلك الى العوامل الحضـــارية التى لا تعترف بهـــذا اللون القبـــــلى [4] .

---

(١) جاء فى نهاية الارب فى معرفة انساب العرب تحقيق ابراهيم الابيارى ص ٣٩٢ . « بنوفزارة » بطن من ذبيان من غطفان . من القحطانية وهم . بنوفزارة بن زبيان .

(٢) السودان الشمالى ص ٢١٤ .

(٣) العروبة فى السودان للاستاذ محمد عبد الرحيم ص ٣٩ .

(٤) السودان الشمالى ص ١٦ .

السيادة العربية فى السودان

شغلت القبائل حيزا كبيرا يفصل بين المملكتين المسيحيتين الموجودتين فى السودان فى هذا الزمن وهما مملكة « علوة » الجنوبيـــة ومملكة « المقرة » الشمالية .

ولقد كانا فى أول أمرهما على شىء كبير من القوة والاتحاد مكنهمـا من الوقوف بصلابة فى وجه التقدم الاسلامى ، ولكن الخلافات الداخلية فتتتهما الى طوائف صغيرة متناحرة ، وبسبب الاهمـال الذى لقياه من كنيسة الاسكندرية ، وأخيرا بسبب هذا المد الاسلامى الذى كان يتدفق فى اصرار وعناد .

واذا كان من الطبيعى أن تسقطا وهمـا على هـذا الحال من الضعف والاهمال ، فقد كان من الطبيعى كذلك أن تتلاقى هـذه القوى العربيـة المتناثرة ، وتتداخل فى كيان عربى موحد ومن ثم فقـد تلاقت يد زعيم من عرب القواسمة هو « عبـد الله جماع » شيخ قبيلة العبـدلاب (١) ومؤسسها بيد « الفونج » فى حلف كان أول أغراضه القضاء على مملكة « علوة » والعمل على نشر الاسلام فى أرضها ، ولم يمض وقت كبير حتى وقعت هذه المملكة تماما تحت السيطرة العربية بحدودها التى تمتـد من « أربجى » على النيل الأزرق الى جبال « قرى » (٢) .

ويعتبر انقضـاء دولة « علوة » على يد الفونج والعبـدلاب اعلانا رسميا للسيادة العربية الاسلامية فى هذه البلاد لأن تسرب الاسـلام والعرب سبق انقضاء الدولة المسيحية بأكثر من قرنين (٣) .

---

(١) العبدلات ذرية الشيخ عبد الله جماع الذى اقتسم المملكة مع القونج ، وقد امتـدت المشيخة من قرى الى الحلفاية ، ومن حجر العسل الى سوبه ، وقـد كانوا يعتبرون كوزراء لملوك الفونج « السودان لعبد الله حسين ص.٧٥ » .

(٢) الشايقية تأليف و. نكولز. ترجمة الدكتور عبد المجيد عابدين ص ١٠ ، ١١ .

(٣) السـودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة ص ٣ .

أما مملكة « المقرة » الشـمالية « النوبة » فقد كانت منهكة بسبب الضربات التى تتلقاها فى الشرق من البجة ، وفى الغـرب من الفور زيادة على انقساماتها الداخلية . ثم ان الاسلام كان يلقى تقبلا بفضل التجـار المسلمين وغيرهم الذين كانوا يطوفون بهذه البلاد ، وقد ساعدهم على هذا أن الحياة الدينية فى الكنائس كانت قد وصلت الى « أقصى حد من الانحطاط » لأنه لم يكن بين النوبيين فى هذه الفترة أساقفة أو قساوسة ، وقد تطلعوا فى فترة الى الحبشة مطالبين برجال للدين عندهم ولكنهم لم يوفقوا فى رغبتهم هذه (١) » .

من كل هذا نرى أن الثمرة كانت ناضجة ، وأنه كان من الطبيعى أن تسقط فى يد مشايخ العبدلاب خلفاء الفونج ،ومن هنا رأينا الجموع تهرول للدخول فى الاسلام ، وتندمج بوجودها فى الكيان العربى الجديد « حتى صـار فى الوقت الحـاضر من أصعب الأمور أن يميز المرء بين النـوبى والعربى » .

أضف الى ذلك أنه ليس أحد من أهالى النوبة يعترف طواعيـة بأنه نوبى الأصـل ، ولكنهم يتنافسون جميعـا فى الدعوى بأنهم ينتمون الى أشرف دماء فى الحجاز، ولم يكد ينتهى القرن السادس عشر (٢) حتى كان وادى النيل كله من شلالات « حنك » الى نهر « الرهد » قد خضع لملك الفونج فى سنار عن طريق مشايخ العبدلات فى قرى .

وحقـا لقـد كان لميـلاد السودان العربى صدى انتصار بين جميع المسلمين فى كل العـالم ذلك لأنه ولد بين حقبتـين من أقسى الحقب على الاسلام . ففى عام (٨٩٧ هـ ـــ ١٤٩٢ م) سقطت أسبانيا العربية بسقوط غرناطة ، وقامت عملية رهيبة لطرد العرب ، وطمس حضارتهم ، وفى عام (٩٢٢ هـ ـــ ١٥١٧ م) وقعت مصر فريسة فى يد الأتراك العثمانيين .

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٢) يوافق القرن الهجرى الذى يبدأ بعام ١٩٠٦ وينتهى بعام ١٠٠٩ .
(٣) الشايقية ص ١٢ .

أضف الى ذلك أن العراق كان ما زال يعانى من عملية تخريبية ، وأن الشام تسلمتها القوة العثمانية من مصر ، وأن المغرب كان قد فقد بريقه ، وأن المسلمين فى الحبشة كانوا قد غلبوا على أمرهم كذلك .

ومن هنا فقد من الله على العالم الاسلامى بثلاث دول اسلامية فى السودان . كان لها أثر كبير فى نشر حضارة الاسلام والثقافة العربية .

وسرعان ما تأصلت هناك عادات العرب ، واستقرت فى النفوس بحيث أصبحت سمة على الحياة هناك الى اليوم . وحسبنا أن نورد هنا بعض هذه العادات والتقاليد التى حملها العرب معهم ، والتى تظهر بوضوح فى الأدب الشعبى . بعكس الأدب الفصيح الذى يعكس بعضها شاحبا معروقا . فمن هذه العادات .

١ — حماية الجار .

٢ — كراهية البنات .

٣ — شرب الخمر ، وذكر مجالسها ، ووصف ما يأكلون عند شربها على الطريقة العربية .

٤ — عدم بكاء المقتول حتى يدرك ثأره .

٥ — ايقاد النار ليلا .

٦ — القسمة بالأعواد ، والتصافن — وهو وضع حجر فى اناء فارغ ثم يصب الماء واللبن حتى ينغمر الحجر ، والعرب يسمون هذا الحجر المقلة أو حصاة القسم .

٧ — الصر — وهو لف طرف الثدى للبهائم حتى لا يرضع الصغار أو يضيع اللبن .

٨ — العقيرة — وهى ذبح الماشية والضأن فى الليلة الأولى بعد الدفن .

٩ — عادات التجمل ومنها :

(ا) وشم اللثة والشفة السفلى فى النساء أو الشفتين معا .

(ب) وشم ظاهر اليد .

(حـ) لبس الرهط .

(د) ازالة شعر الجباه والخدود بالخيوط أو الرماد .

(هـ) اتخـاذ الاسورة ، والحجول ، والخروص ، والتـلال ، والفـدوة ، والكسكس .

١٠ — الاعتقاد فى اختلاج العين .

١١ — الاعتقاد فى الخدر والشفاء منه بضربة من بكر أبويه .

١٢ — رمى السن فى الشمس .

١٣ — العصبية القبلية (١) .

مملكة الفونج

١٥٠٥ — ١٨٢٠

تعارضت الآراء حول مصدر كلمة (فونج) أو (فنج) التى أطلقت على مملكة سنار . فقد قيل انها ترجع الى كلمة بون Bwon فى لغة الشلك ، وقيل انها من كلمة fon فى لغة النوبر ، وقيل انها ترد الى كلمـة Bunj وتعتبر هذه الكلمة قريبة من كلمة فونجى Fanji ومهما يكن من شىء فمعانى هذه الكلمات تتلاقى فى معنى واحد هو « الغريب » ، وتطلق هـذه الكلمة على البيت الحاكم ، ومن هنـا فاطلاقهـا على الشعب من قبيل التوسع .

وكما اختلفوا فى هذه الكلمة ، فقد اختلفوا كذلك فى أصل الفونج فقد قيل انهم من قبيلة الشلك فى الجنوب ، وقيـل انهم من العرب من « دارفور » أو من « برنو » (٢) .

أما رأى الفونج أنفسهم فهو أنهم من « بنى أمية » ، وأنهم نزلوا

---

(١) من لهجات الجزيرة ص ١٥٩ — ١٦٧ ، العربية فى السودان للشيخ عبدالله عبدالرحمن ص ١٩ — ٣٢ .

(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٢٤ .

الى الحبشة بعد صراعهم مع العباسيين ، ولكن العباسيين احتجوا على الأحباش مما اضطرهم الى ترك بلادهم والالتجاء الى الجهات المتاخمة ولعلها الطرف الجنوبي من الجزيرة والبطانة ، ومن هذا المكان كثروا وأصبحت لهم قوة في الصراع الدائر في السودان (١) .

ويؤيد هذا ما نقله المقريزي عن ابن سليم من أنه قد انتقل من نجا من الأمويين الى الساحل الأثيوبي للبحر الأحمر(٢) ، كما تدل عليه كذلك رسالة الملك «عمارة دونقس» الى السلطان سليم حينما خاف على ملكه من توسعه في الشرق فقد جاء فيها : « اني لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي فان كان لتأييد دين الاسلام فاني وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله عليه وسلم ، وان كان لغرض مادي فاعلم أن أكثر مملكتي عرب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق (٣) » .

وقد استشهد الأستاذ الشاطر بصيلي على هذا الرأي بعدة مسوغات هي :

١ — رحلة داود روبيني الذي زار فيها السلطان عميرة في عاصمته « لملم » قبل انتقاله الى سنار .

٢ — جاء في كتاب تاريخ لأثيوبيا لمؤلفه لودلفس « وفي الجنوب مملكة سنار والفند يقصد (الفونج) ويحكمها سلطان شديد البأس ، وقد كان فيما مضى يدين بالولاء للحبشة ، أما اليوم فهو مستقل يسيطر على ذلك الجزء من النوبة القديمة » .

٣ — خطاب السلطان محمد بادي عجيب الذي أرسله الى بني أمية (كذا في النص) الساكنين في دار ضنقلة (دنقلة) والذي يؤكد فيه صلة الأسرة السنارية بالأمويين .

---

(١) السودان الشمالي ص ٢٥٣ .

(٢) الخطط للمقريزي جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٣) تاريخ السودان القديم والحديث «طبعة القاهرة» جـ ٢ ص ٧٤ .

٤ — الروايات المحلية السودانية المتداولة تؤكد هذه الصلة .
٥ — مذكرات الضابط الايطالى « تلمنتى » التى حققها ونشرها العالم الايطـالى روسينى التى تؤكد دخول الفونج الى السـودان من الحبشة .
٦ — رحلة أولياشى التى سمع فيهـا من سلطان سنار (دويتا) متأثرا بلغة سكان الجزء الغربى من أثيوبيا (١) .

وقد نزح السلطان « عمارة » من عاصمته يلملم الى سنار بعد أن رأى أهمية هذا الموقع الجديد الذى يسيطر على الطرق النيلية والقوافل . على أنه كانت هناك عوامل أخرى سياسية كتسرب العثمانيين الى البحر الأحمر ، ونزول أسطولهم فيه ، الأمر الذى ساعد على السيطرة على المرافق التجارة بين الساحل والمناطق الافريقية الداخلية بما فى ذلك أثيوبيا(٢).

كما اتخذ وزيره « عبد الله جماع » بلدة قرى الواقعة على الشاطىء الشرقى لنهـر النيـل بالقرب من خانق سبلوقة (الشـلال السـادس) عاصمة له (٣) .

حقا لقد ازدهرت هذه المملكة بعد انتصارها على البدو فى الشرق ، والمسيحية فى حوض النيل وقد امتد حكمهم فى عهد الملك (بادى الثانى) الى « فازوغلى » على النيـل الأزرق . كما تمكنوا من اخضاع الشلك والامتداد بنفوذهم الى جبال « تقلى » ، وجنوب « كردفان » ، وهكذا ظل نفوذهم يمتد طوال القرن الثامن عشر فقد تمكن الملك (بادى الرابع) من القضاء على أمراء المسبعات أقرباء سلاطين دارفور حتى انه فى أواخر القرن الثامن عشر كانت هذه المملكة تمتد من البحر الأحمر الى كردفان غربا . كما تمتد من الشلال الثالث حتى فازوغلى جنوبا (٤) .

وقد أسهمت هذه المملكة مساهمة فعالة فى نشر الاسـلام والثقافة

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢ .
(٣) من لهجات الجزيرة ص ١٠ ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٧٠ .
(٤) الاسلام والثقافة العربية فى افريقية للدكتور حسن احمد محمد ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

العربية ، وبخاصة بعد أن قضوا على مملكة « علوة » المسيحية وأصبحوا أصحاب الكلمة النافذة فى البلاد .

فقد جاهدوا البلو ، واشتركوا فى حركة « أحمد القرين(١) »، وعملوا بصدق على نشر الاسلام بين القبائل الوثنية داخل السودان ، وقد أفتى علماؤهم بحرب النوبا لغاراتهم المتكررة على كردفان ودخلوا معهم فى حروب كان من ثمارها دخول الاسلام فى أكثر من مكان بجبال النوبا .

وقد كانت لهذه المملكة صلات طيبة باليمن والهند والمغرب — عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور والموانى الواقعة على البحر الأحمر والخاضعة للباشا التركى ، وبالحجاز عن طريق الحج ، وشئون التجارة ، وتشجيع علمائه ومتصوفيه بالرحلة الى بلادهم (٢) .

كما كان المغرب كذلك يرفد الثقافة الاسلامية فى البلاد بعد أن استقدم عدد كبير من علمائه وكذلك الحال بالنسبة للعراق(٣) ذلك لأنهم كانوا يلاحقون العلماء بالهدايا فى أكثر من مكان مما اضطر عمر المغـربى أحد علماء الأزهر أن يلهج لسانه بذكر الملك « بادى أبودقن » فيقول :

أيا راكبا يسرى على متن ضـامر ... الى صاحب العلياء والجود والبر
وينهض من مصر وشـاطىء نيلها ... وأزهرها المعمـور بالعلم والذكر
لك الخيرانوافيت سنار قف بها ... وقوف محب واغتنم فرصة العمر
هو الملك المنصور (بادى) الذى له ... مدائح قد جلت عن العد والحصر
سليل ملوك الفنج والسادة الألى ... علا مجدهم فوق السماكين والنسر (٤)

وقد كان اكرامهم للعلماء ، وتقريبهم فى مجلسهم ومنحهم الاقطاعيات ، واحترام كلمتهم مضرب الأمثـال (٥) وهكذا نرى الحجاز ، والمغرب ، والعراق منابع ثرة للثقافة الاسلامية فى البلاد بفضل من هاجر من العلماء

---

(١) أمير دعا الاسلام باخلاص فى أثيوبيا .
(٢) الاسلام والثقافة العربية ص ٣٢١ ، ٣٢٢ من لهجات الجزيرة ص ١١ .
(٣) انتشار الاسلام والعروبة ص ١١٢ ، ١٥٤ .
(٤) تاريخ ملوك السودان ص ٤ .
(٥) تاريخ السودان لنعوم شقير جـ ٣ ص ١٠٠ ، السودان فى قرن ص ٤ .

والمتصـوفة الى هذه البلاد ، وبفضـل هؤلاء السودانيـين الذين كانوا يمتاحون الثقافة الاسلامية فى مكة ، والمدينة ، وبلاد المغرب ، ومصر ثم يعودون الى بلادهم ممتلئين بالحماس لنشر ما اكتسبوه فى هذه البلاد من معارف .

وقد كان التأثير الواضح للحجاز ، والمغرب ، والعراق — وهو دون التأثير الحجازى والمغربى — يمكن وصفه بأنه تأثير صوفى . أو صـوفى علمى ظهر أثره فى الطرق التى ظهرت هناك كالقادرية والشاذلية أما التأثير المصرى فقد كان يغلب عليه الطابع العلمى كتعليم الناس الفقه ، واللغة ، وبعض العلوم الأخرى المشابهة (١) .

غير أن الطابع العام للثقافة هناك كان طابعا صوفيا(٢) ، وهكذا نرى هذه المملكة قد لعبت دورا حاسما فى نشر الاسلام فى هذه البلاد ، وتطبيقه بحرفيته وخاصة ما يتصل منه بالحدود (٣) زهاء ثلاثة قرون .

غير أن القرن الثامن عشر حمل معه ظواهر القضاء على هذه المملكة وقد كان من أهم بذور القضاء عليها ما يأتى :

١ — نظـام ولاية العرش ، والتنـافس بين الزوجات من بنـات عين الشمس (٤) ، وبين الزوجات اللاتى ارتفعن الى مصاف الزوجية .

٢ — ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف الى قيام وحدة قومية وتكامل اقتصادى يغنى الدولة عن الاستيراد الخارجى .

٣ — تصدع الحلف الذى كان قائما بينهم وبين « العبدلاب » .

٤ — قيام عدة ممالك مختلفة .

٥ — انصراف الملوك عن الحياة الجادة .

٦ — وثوب الأقلية لادارة شئون الحكم .

---

(١) الثقافة العربية فى السودان ص ٥٥ ، ٥٧ .

(٢) الثقافة العربية فى السودان ص ٥٥ ٥٧ .

(٣) انتشار الاسلام والعروبة ص ١٥٤ .

(٤) السودان لنعوم شقير ج ٢ ص ٩٨ .

٧ — الابقاء على تقاليد توزيع الأراضى الذى أدى فى النهاية الى تطاحن أخيرا .

٨ — ظهور نفوذ الهمج (الهمق) واعتمادهم فى الحكم على عنصر القوة وخاصة بعد الانتصارات التى حققها « محمد أبو كتمور » عام ١٧٧٦ ، وتلاعبه بالسلاطين (١) .

وهكذا رأينا الأتراك حين قدموا الى سنار يريدون غزوها عام ١٨٢٠ وجدوا مملكة متداعية لا تستطيع المقاومة .

مملكة الفور

يطلق اسم الفور الآن على مديرية « دارفور » وهى الجزء الذى يقع الى أقصى الغرب من السودان وقد ضمت هذه المنطقة شعبا أسود هو شعب « الداجو » الذى وفد على البلاد من الشرق وكون ملكا فيها . ثم تلقت هذه البلاد عنصرا مغربيا من تونس يسمى التنجور ومن التقاء هذين العنصرين تكون شعب الفور .

وتعتبر شعبة التنجور هذه التى دخلت البلاد فى القرن الرابع عشر الميلادى ذات أثر كبير فى تعريب هذه البلاد فقد دخلتها دماء عربية كثيرة (٢) . هذا الى جانب دماء عربية خالصة مثل قبائل الهبانية ، والريزيقات ، والمسيرية ، والتعايشية ، والمعابدة والحمر ، والزيادية ، والماهرية ، والمحاميد ، وبنى حميد (٣) .

وقد وفد الاسلام الى هذه البلاد مع شعب التنجور الذى لا يبعد أن يكون قدومه هربا من بنى هلال فى شمال افريقية (٤) ، وقد وفد من بين القادمين رجل عربى قوى يسمى « أحمد المعقور » الذى ما كاد يصل الى

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٩٧ ، ٩٨ ، والاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٣٢٠ .

(٢) السودان الشمالى ١٦١ .

(٣) السودان لنعوم شقير جـ ٢ ص ١١٤ .

(٤) انتشار الاسلام والعروبة ص ١١٢ .

البلاد حتى لقى الحفاوة والتكريم من ملكها الوثنى « دورشيت » فقد قربه من نفسه ، واستشاره فى كل أموره ، وأخذ رأيه فى سياسة البلاد ، وانتهى به الأمر الى أن زوجه ابنته ، ونادى به خليفة له ، وهكذا صار « أحمد المعقور » أول ملك مسلم على هذه البلاد ، ولكن الاسلام لم يستقر حقيقة فى أعماق هـــذه البــلاد الا حينما تولى ابنه « سليمان صولون (١) » تقاليد الحكم .

فقد فتح الممالك السهلية ، ووحد القبــائل ، ووصل بلاده بمراكز الاسلام فى الشرق ، وقرب العلماء وظل الحكم فى أعقابه حتى بعد أن قتل الزبير باشا السلطان ابراهيم فى عام ١٨٧٥ ببلدة « منواشى » لأنهم عادوا الى الحكم بعد ذلك ولم ينتهوا الا بانتهاء « على بن دينار » الذى قتل فى بداية الحرب العالمية الأولى (٢) .

وقد أدت هذه الدولة دورها فى نشر الاســـلام فى هذه المنطقة فالمجهود الذى قام به « سليمان صولون » فى تاريخ دارفور لا يختلف عن دور عمارة دونقس فى سنار ، ومنسى موسى وأسكى محمد وغيرهم فى غرب افريقية ، ذلك لأن القائمين بأمرها قد أسهموا باخلاص فى نشر الدين والثقافة العربية ، والاتصال بالنوافذ الاسلامية الأخرى .

فقد أرسلوا الطلاب الى مصر حتى لقد أصبح لهم لكثرة عددهم بمصر رواق يسمى رواق « دارفور » (٣) ، واشتراكوا فى ارســال « صرة الحرمين » كما اتصل الملك عبد الرحمن بالخليفة فى الاستانة وتلقى منه رسالة يمنح فيها لقب الرشيد (٤) .

وقد كان العلماء يتمتعون فى هذه البلاد بحظوة كبيرة فكان لكل منهم مسجد يصلى فيه الناس ويعمل على تثقيفهم ، ومن أشهر هؤلاء العلماء الشيخ التمر ، والفلانى ، وحسين عمارى الأزهرى ، والشريف مساعد (٥)

---

(١) معناها بلغة الفور « العربى » .

(٢) انتشار الاسلام والعروبة ص ١١٢ ، ١١٣ السودان لعبد الله حسين ص ٧٧ .

(٣) الاسلام والثقافة العربية ص ٣٢٨ .

(٤) السودان لنعوم شقير جـ ٢ ص ١٢١ ، ١٤١ .

(٥) تشحيذ الاذهان للتونسى ص ٥٥ ، ٥٦ .

وقد ساعد هذه البلاد على الازدهار أنها كانت تتمتع باقتصاديات سليمة وبوضع جغرافى مهم ولم تنعزل عن الأمم المجاورة بسبب استمرار القوافل التجارية ، ولكن قدرتها على خدمة العروبة والاسلام لم تبلغ ما بلغته مملكة الفونج لقلة العنصر العربى بها ، ولبعدها عن الاشعاعات الكبيرة التى أطلقتها مملكة الفونج (١) .

وتوجد فى دارفور الآن آثار كبيرة تتراوح بين القصور المبنية بالحجر ، والمساجد ، والمنشئات الأخرى التى من المحتمل أن يكون معظمها قد أنشىء بعد عام ١٥٠٠م ، ولكن من المؤكد أن آثار « اورى » عاصمة التنجور قد أقيمت قبل هذا التاريخ ، وقد كانت هذه العاصمة مبنية على الطراز الافريقى حيث يكون الكوخ مستديرا ، ومحاطا بجدران أو سياج (٢) .

وكما نسب الفونج أنفسهم الى « بنى أمية » فقد نسب هؤلاء أنفسهم الى « بنى العباس » (٣) .

مملكة تقلى

قامت هذه المملكة وسط جبال تقلى فى الشمال الشرقى من منطقة جبال النوبا غربى السودان (٤) وهى ما يطلق عليه الآن « كردفان » .

وقد ظهرت الى الوجود فى أواسط القرن السادس عشر ، ويرجع الفضل فى تأسيسها الى هجرة زاهد جعلى — يقال انه من قبيلة الجموعية حوالى عام ١٥٣٠ — الى ربوع هذه البلاد ، وقد استطاع بورعه ، وحب الناس له أن يتصل بأمير الاقليم ، وأن يصاهره ، وقد أدت هذه المصاهرة الى أن يرث ابنه المشهور باسم « جيلى أبو جريدة » الحكم حوالى عام ١٥٧٠ .

---

(١) التربية فى السودان ص ٧٢ .
(٢) موجز لتاريخ السودان لمرجريت شينى ص ١٠ ، ١١ .
(٣) الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٣٣٧ ، السودان لعبد الله حسين ص ٧٧ .
(٤) انتشار الاسلام والعروبة ص ١٠٨ .

وقد اشتملت هذه المملكة على الاقليم الشرقى من الجبـــال ما بين « تالودى » جنوبا الى « أبو جبل » شمالا ، وقد خلف جيلى أبو جريدة على الحكم تسعة عشر حاكما من أبنائه وأحفاده وكانت سياستهم تقــوم على نشر الاسلام والثقافة العربية ، والتزواج من القبـــائل النوباوية ، وتشجيع هجرة القبائل العربية الى هذه البلاد ، ومن هنا رأت هـــذه المنطقة زحوفا من الجعليين والبديرية والجوامعة ، والكواهلة ، وكنانة(١)، كما رأت ظهور العنصر العربى ظهورا واضحا عنه فى دارفور (٢) .

وهكذا كان لها فى تاريخ العربية فضل يذكر لأنها مكنت العنـاصر العربية من التغلغل فى الربع الشمالى من جبال « النوبا » الى الشمال من بلدة « رشاد » ، والى جنوبها بعد أن كانت هذه الجبال تقف كالقلعـــة المنيعة بين الثقافة العربية ، وبين جماعات النوبا البعيدة (٣) .

وقد كانت هذه الدولة ضئيلة بالنسبة لسنار ، ودارفور ، ومن هنـــا أصبحت تتراوحها الدولتان فمرة تغزوها سنار ، ومرة تغزوها الفور ، ومرة تستقل الى أن انتهت تماما بقدوم الفتح التركى المصرى .

وهكذا أسهمت هذه الممالك الثلاث فى تعريب السودان فقـــد جاء هذا العامل المؤثر ذو النفوذ القوى من الأرض الجرداء فى شرق البحــر الأحمر ، ومن بلاد العرب جاء الرجال ، واللغـــة والدين ، وجاء النظام التشريعى للاسلام ، وكان للاسلام تأثيره الكبير فى سيكولوجية الناس . فوجه آراءهم الدينية وجهة واحدة أثارت دهشة كل الذين كتبوا عن هذا الركن من افريقية دراسة من دراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية (٤) .

---

(١) السودان الشمالى ص ٢٥٨ — ٢٦٠ .

(٢) التربية فى السودان ص ٧٣ .

(٣) السودان الشمالى ص ٢٥٨ .

(٤) تلخيص كتاب الاسلام فى السودان لترمينجام بمجلة نهضة افريقية العدد ١٧ مارس سنة ١٩٥٩ .

السودان فى فترة الحكم التركى

(١) بينا فى الحديث عن مملكة الفونج أنها أخـــذت تنهار تحت الانقسامات الداخلية ، ووضع السلطـة الفعلية فى يد وزراء « الهمج » الذين تلاعبوا بالملوك ، وخرجوا عن الطاعة فى أكثر من مكان ، وقد ترتب على هذا أن تمكن الفور من اغتصاب كردفان من هذه المملكة .

هذا الى جانب أنه فى عام ١٨١٠ رأينا الحمى الصفراء تفتك بالعـدد الوفير من الناس وفى عام ١٨١٣ وقع الناس فريسة للغـلاء . بينما كانت المؤامرات والثـورات مشتعلة فى أكثر من مكان ، وبخاصة تلك الغارات التى شنتها الشايقية ، والبشارية على القوافل مما هدد طرق المواصلات .

فاذا انتقلنا الى سكان النوبة وجدنا المجاعة تفتك بهم فتكا مرا، فاذا توجهنا نحو دارفور فى أواخر القرن الثامن عشر وجدناها هى الأخـرى منهكة ، وفى حرب مع سنار والقوافل لا تمر بينها وبين سـواكن (١) وهكذا كان السودان متفككا ومهيأ للغزو الخارجى .

وقد كانت مصر غير بعيدة عن هذه الأحداث . فقد قدمت اليها وفود سودانية تضم بعض الشخصيات البارزة ، ومن هذه الشخصيات « أبو مدين » الذى كان يطالب بعرش دارفور ، والملك « ادريس ودناصر » من البيت المالك فى سنار ، فى صحبة زعماء من « فازوغلى » والملك نصر الدين أبو جحل ملك الميرفاب الذى استولى على ملكه أثنـاء غيـابه « على ود تمساح » فقدم الى مصر مطالبا بالعون فى استرداد ملكه ، وكذلك اتصل الملك « طمبل » بمصر لمثل هذا الغرض (٢) . ومن هنا تكونت عند محمد على فكرة عن الظروف السياسية فى هذه البلاد بالاضافة الى ما جاءت به البعثتان المصريتان حينما قدمتا من « سنار » و « غندار » (٣) .

على أن محمد على كان متنبها الى النشاط الأجنبى فى هـذه المنطقة وخاصة هذا النشاط الذى قام به « هنرى صولت » فى رحلتـه الأولى

---

(١) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٢٢١ ، تاريخ ملوك السودان ص ٢٥ .
(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٢٧ ، السودان فى قرن ص ١٢ .
(٣) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٢٩ .

بصحبه اللورد « فلنشيا » فى عام ١٨٠٥ - ١٨٠٦ الى نجاشى أثيوبيا ليطلب منه منح بريطانيا قاعدة بحرية فى أرض الدناكل لتستخدم فى غزو مصر من الجنوب اذا حاولت فرنسا اقفال البحر الأبيض لاحتلال مصر ثانية أو وقعت مصر تحت سيطرة دولة معادية لبريطانيا .

ولقد كانت الرحلة الثانية التى قام بها « هنرى صولت » الى أثيوبيا فى ١٨٠٩ — ١٨١٠ لتوثيق الروابط المسيحية ، ومن ورائها الروابط السياسية . حتى لقد أخذ « محمد على » موقفا مضادا لهذه المحاولة التى تهدف الى التحكم فى مصر عن طريق أثيوبيا والبحر الأحمر وكان هذا الموقف هو أنه أرسل عدة مكاتبات كما أرسل وفدا رسمياً الى سنار عام ١٨١٣ ، ووفدا ثانيا الى غندار بأثيوبيا (١) ثم لقد كان هناك عامل مهم يصرف محمد على الى السودان وهو دخول المماليك الى هذه البلاد ومحاولتهم السيطرة على دنقله والتغلغل الى الجنوب حيث كردفان ، وبلاد الفور ، واتصالهم بالوهابيين فى الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم « حسن جوهر الكاشف » .

هذه هى العوامل الخارجية للموقف ، ولا شك أنه كانت هناك عوامل داخلية كذلك ساعدت فى تطوير الموقف ويمكن تلخيص هذه العوامل فى رغبة محمد على الملحة فى تكوين جيش من السودانيين ، وفى التنقيب عن الذهب الذى سمع الكثير عنه هناك (٢) وفى اكتشاف منابع النيل ، وفتح طريق الاستيراد بين البلدبن . كما أن « محمد على » كان يريد كسر شوكة جنوده الأخلاط الذين لم يقبلوا على النظم العسكرية الحديثة وأصبحوا مصدر تعب له بعد حرب الوهابيين (٣) ، وقد علم من مستشاريه الفرنسيين أن السودان أرض واسعة تستأهل الفتح ، ثم انه بالاستيلاء عليه يستطيع أن يؤمن حدوده (٤) .

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩ والسودان فى قرن ص ١٢ .
(٣) تاريخ السودان لنعوم شقير ج ٣ ص ٢ وتاريخ الحركة القومية (عصر محمد على ج ٣ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٤) السودان لعبد الله حسين ج ١ ص ٨٥ .

وبالاضافة الى ذلك فقد كانت تسود العالم فى القرن التاسع عشر وخاصة فى أوله فكرتان سياسيتان هما :

١ — الفكرة القومية السياسية التى ظهرت تحت تأثير التطـــورات الاجتماعية الفكرية الغربية .

٢ — الفكرة القومية الاسلامية التى كانت تقوم عليها الخــلافة ، ومن هذه الزاوية يمكن أن نعرف أن الدوافع التى دفعت « محمد على » الى غزو السودان كانت امتدادا لفكرة القومية الاســلامية التى كانت تسود المجتمعات الاسلامية فى هذه الفترة (١) .

(ب) مقدمات الحملة .

أرسل محمد على الى المماليك الذين كانوا قد استقروا وراء شلال أسوان ، واتخذوا من دنقلة مركزا لنشــاطهم ، بعض رجاله يطلبون منهم العودة الى مصر بشروط أهمها ألا يقيموا فى المدن الا باذن خاص ، وألا يحضروا الى العاصمة الا فى حماية جنود ، وفى الوقت نفسه يتنازلون عن امتيازهم ، وما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة .

ولقد كان يتوقع رفضهم القاطع لهذه الشروط ومن هنا يجد المسوغ للزحف الذى كانت فكرته قد نضجت فى نفسه . وقد اهتم بأمر هـــذه الحملة اهتماما خاصا فذهب بنفسه فى سبتمبر ١٨١٩ الى مصر العليـــا ليتعرف مقدما على الطريق الذى ستسلكه الحملة ، ولينظم مواقع جنوده ويضع خطة كاملة للزحف ثم عاد فى نوفمبر عام ١٨١٩ ليكمل الخطة وليعقد لابنه اسماعيل عليها (٢) .

وهكذا سارت الحملة بقيادة اســماعيل أصغر أبنــاء محمد على فى مستهل الصيف ، وما كاد المماليك يسمعون بهذه الحملة وكان عددهم قد نقص بسبب الحروب والحمى — حتى تركوا مراغة الى شندى بعد حرب مريرة مع الشايقية .

وقد كانت حملة السودان مكونة من عشرة آلاف رجل وتتشكل من

---

(١) محاضرات فى علم الاجتماع السودانى للدكتور محيى الدين صابر .

(٢) تاريخ الحركة القومية جـ ٣ ص ١٦١ .

بصحبه اللورد « فلنشيا » فى عام ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ الى نجاشى أثيوبيا ليطلب منه منح بريطانيا قاعدة بحرية فى أرض الدناكل لتستخدم فى غزو مصر من الجنوب اذا حاولت فرنسا اقفال البحر الأبيض لاحتلال مصر ثانية أو وقعت مصر تحت سيطرة دولة معادية لبريطانيا .

ولقد كانت الرحلة الثانية التى قام بها « هنرى صولت » الى أثيوبيا فى ١٨٠٩ — ١٨١٠ لتوثيق الروابط المسيحية ، ومن ورائها الروابط السياسية . حتى لقد أخذ « محمد على » موقفا مضادا لهذه المحاولة التى تهدف الى التحكم فى مصر عن طريق أثيوبيا والبحر الأحمر وكان هذا الموقف هو أنه أرسل عدة مكاتبات كما أرسل وفدا رسمياً الى سنار عام ١٨١٣ ، ووفدا ثانيا الى غندار بأثيوبيا (١) ثم لقد كان هناك عامل مهم يصرف محمد على الى السودان وهو دخول المماليك الى هذه البلاد ومحاولتهم السيطرة على دنقله والتغلغل الى الجنوب حيث كردفان ، وبلاد الفور ، واتصالهم بالوهابيين فى الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم « حسن جوهر الكاشف » .

هذه هى العوامل الخارجية للموقف ، ولا شك أنه كانت هناك عوامل داخلية كذلك ساعدت فى تطوير الموقف ويمكن تلخيص هذه العوامل فى رغبة محمد على الملحة فى تكوين جيش من السودانيين ، وفى التنقيب عن الذهب الذى سمع الكثير عنه هناك (٢) وفى اكتشاف منابع النيل ، وفتح طريق الاستيراد بين البلدين . كما أن « محمد على » كان يريد كسر شوكة جنوده الأخلاط الذين لم يقبلوا على النظم العسكرية الحديثة وأصبحوا مصدر تعب له بعد حرب الوهابيين (٣) ، وقد علم من مستشاريه الفرنسيين أن السودان أرض واسعة تستأهل الفتح ، ثم انه بالاستيلاء عليه يستطيع أن يؤمن حدوده (٤) .

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩ والسودان فى قرن ص ١٢ .

(٣) تاريخ السودان لنعوم شقير ج ٣ ص ٢ وتاريخ الحركة القومية (عصر محمد على ج ٣ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) السودان لعبد الله حسين ج ١ ص ٨٥ .

وبالاضافة الى ذلك فقد كانت تسود العالم فى القرن التاسع عشر وخاصة فى أوله فكرتان سياسيتان هما :

١ — الفكرة القومية السياسية التى ظهرت تحت تأثير التطـــورات الاجتماعية الفكرية الغربية .

٢ — الفكرة القومية الاسلامية التى كانت تقوم عليها الخـلافة ، ومن هذه الزاوية يمكن أن نعرف أن الدوافع التى دفعت « محمد على » الى غزو السودان كانت امتدادا لفكرة القومية الاســلامية التى كانت تسود المجتمعات الاسلامية فى هذه الفترة (١) .

(ب) مقدمات الحملة .

أرسل محمد على الى المماليك الذين كانوا قد استقروا وراء شلال أسوان ، واتخذوا من دنقلة مركزا لنشــاطهم ، بعض رجاله يطلبون منهم العودة الى مصر بشروط أهمها ألا يقيموا فى المدن الا باذن خاص ، وألا يحضروا الى العاصمة الا فى حماية جنود ، وفى الوقت نفسه يتنازلون عن امتيازهم ، وما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة .

ولقد كان يتوقع رفضهم القاطع لهذه الشروط ومن هنا يجد المسوغ للزحف الذى كانت فكرته قد نضجت فى نفسه . وقد اهتم بأمر هـــذه الحملة اهتماما خاصا فذهب بنفسه فى سبتمبر ١٨١٩ الى مصر العليـــا ليتعرف مقدما على الطريق الذى ستسلكه الحملة ، ولينظم مواقع جنوده ويضع خطة كاملة للزحف ثم عاد فى نوفمبر عام ١٨١٩ ليكمل الخطة وليعقد لابنه اسماعيل عليها (٢) .

وهكذا سارت الحملة بقيادة اســماعيل أصغر أبنــاء محمد على فى مستهل الصيف ، وما كاد المماليك يسمعون بهذه الحملة وكان عددهم قد نقص بسبب الحروب والحمى — حتى تركوا مراغة الى شندى بعد حرب مريرة مع الشايقية .

وقد كانت حملة السودان مكونة من عشرة آلاف رجل وتتشكل من

(١) محاضرات فى علم الاجتماع السودانى للدكتور محيى الدين صابر .

(٢) تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ١٦١ .

الخبراء المصريين ، وأخذ « خورشيد باشا » الذى عين عام ١٨٢٦ يعامل البلاد برفق وفهم ، ويعين على الانشاء والتعمير وبخاصة فى الخرطوم التى صارت فى عهده مدينة كبيرة ، كما قام فى الوقت نفسه باحتلال القلابات ، واخضاع جبال قلى ، وقبائل الشلك والسدرات (١) .

وقد استمر فى الحكم حتى عام ١٨٣٧ حيث تولى الحكم « أحمد باشا جركس » (٢) الذى وثق علاقاته بالزعماء السودانيين ، وكان يتبادل معهم نظم « الدوبيت » ، كما شجع على الزراعة وتنمية الصناعة بما شيد من مصانع فى الخندق ، والمتمة ، والكاملين وغيرها ، وفتح اقليم التاكة وأسس مدينة كسلا ، وفى عهده زار محمد على السودان ومعه بعض العلماء الفرنسيين .

ثم تولى بعده « أحمد باشا المنكلى » وبعودته الى مصر عام ١٨٤٥ خلفه « خالد باشا » .

ومهما يكن من شىء فقد تمكن « محمد على » من فتح البلاد كما تمكن من اعادة الهدوء اليها بحيث شملت سيطرته دولة الفونج ، واستأجر من سلطان تركيا سواكن ، ومصوع ، وبلغت حملاته غندكرو على النيل الأبيض ، وقسم البلاد الى سبع مديريات تتمثل فى دنقلة ، والخرطوم ، وبربر ، وكردفان وسنار ، وفازوغلى والتاكة ، وعمل على زيادة الانتاج الزراعى والصناعى ، ونقب عن الذهب وهكذا حقق السودان قبل أن يموت عام ١٨٤٩ وحدة لم تكن للبلاد من قبل .

ومن محاسن ادارته أنه أزال الفوارق التى كانت قائمة بين المملكات الصغيرة هناك ، وقضى على الحروب التى كانت قائمة ، وأمن المواصلات ومنح البلاد ادارة موحدة قللت نوعا من العصبية القبلية ، والانفصالية التى كانت سائدة فى عهد الفونج ، وهكذا أحس الجميع بوحدة عامة تجمع فى يدها مصير البلاد (٣) .

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٢) اشتهر فى السودان باسم « احمد باشا ابا اذان » لكبر اذنيه .

(٣) معالم تاريخ سودان وادى النيل ١٤٣ ، ١٤٤ ، السودان فى قرن ص ٤٥ ، ٤٦ والسودان لعبد الله حسين ٩١ ، ٩٢ .

وقد أسست فى هذا العهد مدينة الخرطوم التى كانت من قبل حلة صغيرة للصيادين ، ومدينة كسلا التى أصبحت عاصمة اقليم التاكة ، ومدينة فامكة على النيل الأزرق التى صارت عاصمة مديرية فازوغلى وأدخلت زراعة القمح ، والخضر ، وأشجار الفاكهة من عنب ورمان وبرتقال وليمون (١) .

وبعد فان الأثر الاجتماعى والثقافى لهذه الحملة تظهر آثاره واضحة فيما يأتى :

١ — المركزية والتعميم ونقصد بهما وحدة الادارة السياسية وعموميتها فقد قام تنظيم سياسى جديد فى كل مرافق البلاد ، وهذا التعميم وهذه المركزية من شأنهما الوصول الى نتيجة مماثلة فى التكوين الاجتماعى ذلك لأن السكان تكيفت حياتهم بطابع واحد ، وبدرجة واحدة ، وكان هذا أساس وجود ما يمكن أن يسمى بنظام كامل لأنه يصب كل المجتمع فى قالب عام متشابه .

٢ — تشابك العلاقات الفردية والاجتماعية نتيجة للمواصلات وبخاصة اللاسلكية كالتلغراف ومكاتب البريد ، واستتباب الأمن مما ساعد على نمو التجارة ، واستغلال موارد جديدة وجدت تسويقا منظما فى مصر وأوربا .

٣ — ولعل أقوى هذه الآثار هو توحيد النظم والمشاعر نتيجة لتوحيد الأدوات الموجهة ، والسياسة العامة مما جعل للسودان طابعا جديدا لم يأخذه من قبل .

٤ — ظهور تحولات سكانية نتيجة لنشأة بعض المدن الكبيرة وزيادة السكان .

٥ — استمرار التركيبات الطبقية مع تطويرها ، وظهور طبقة كبار التجار والوسطاء ، والعملاء فى تجارة الرقيق (٢) .

---

(١) السودان فى قرن ص ٥٣ ، تاريخ السودان لمندور مهدوى ص ٩٩ ، ١٠٢ .
(٢) السودان لعبد الله حسين ٩٠ ، ٩١ .

١ ــ اللغة العربية فى افريقية

لقد حلت العربية فى افريقية محل لغات كثيرة أهمها القبطية فى مصر ، والبربرية فى شمال افريقية ، والحامية ، والزنجية فى السودان ، فاللغة العربية تعتبر من أقدم اللغات الحية فى القارة ، وبفضل هذه الحيوية التى تنبض خلالها نراها قد تركت بصماتها من وقت بعيد جــدا على لغات الحبشة ، والصومال ، وزنجبار .

فقد حمل العرب معهم كقبيلتى الحبشات ، والأجاعز لغة يمنية قديمة سرعان ما أصبحت لغة رسمية للأحباش القدامى (١) ، وقد أصبح من المقرر أن اللغة العربية من أوثق اللغات صلة باللغة الأثيوبية ، وأن هذه الصلة تعتبر طبيعية نظرا للعلاقات التى قامت بين الساميين الأحباش ، وبين جنوب الجزيرة العربية ، ولكن هذا التأثير بدأ يقل على مر الأزمان بحيث أصبحت ألفاظ اللغتين فى تعارض بشكل واضح فتستخدم الأثيوبية غالبا كلمات مختلفة ، وأصولا مختلفة عن كلمات وأصول العربية ، وبخاصة تلك الكلمات التى تمس الحياة العامة . وبالعكس فان هذا النوع من الكلمات لا يوجد فى الأثيوبية القديمة الا فى بعض آثار بسيطة ومتفرقة (٢) .

وهاجر الأنباط وهم عرب الى افريقية ، وربما نزل عدد منهم فى بعض مناطق السودان وحملوا معهم لغة آرامية هى اللغة النبطية (٣) .

ثم انتشر الاسلام فى افريقية فازدهرت العربية فى البلاد التى اعتنقت الاسلام ، وأصبحت لغة رسمية لكثير من الدول كمصر ، وليبيا ، والمغرب ، وتونس ، والجزائر والسودان ونمت ببطء فى الصومال ، والحبشة لأن الاسلام لم يوجه الى هذه المناطق الكثير من اهتمامه .

---

(١) دراسات سودانية للدكتور عبد المجيد عابدين ص .

(٢) Ethiopic Grammer Dillmann & Bezald p. 4.5

(٣) دراسات سودانية للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٧ .

وتعثرت على تخـوم غانة ، وفى السنغال ، ونيجـيريا ، والكونغو البلجيكى ، وتنجانيقا ، وكينيا ، وزنجبار ، ويوغندة ، ولكنا نرى فيهـا جميعا « مجموعة من اللهجات الافريقية التى تطعمت باللغة العربية على مر العصور ، والتى يمكن تنميتها ، وتطويرها ، وصقلها وتهذيبها بحيث تقترب من اللغة الأم اقترابا طبيعيا لا اعتساف فيه » (١) .

فبعض هذه الدول يتكلم لغة « الهوسة » وهى ليست غير تحريف للغة العربية ، أو يتكلم اللغة « السـواحلية » التى يمكن القـول بأنها « مركب لغوى من أصـــل باتنوى افريقى مطعم أو ممزوج بألفاظ عربية (٢) ، ثم انها تكتب بحروف عربية كما تكتب بحروف لاتينية .



من هذه اللمحات العابرة يتبين لنا انه يمكن من الناحية العملية اعتبار اللغة العربية « لغة أما » يستطاع بشيء من المجهود أن تصبح لغة لجميع الأقاليم التى تقع شمال هذا الخط الذى يمتد من سواحل غانة الجنوبية شرقا الى نيجيريا ، والكونغو ، ويوغنده ، وكينيا ، وتنجانيقا ، وينحرف جنوبا الى المناطق الشمالية من موزمبيق .

---

(١) مقال للأستاذ عبد العزيز اسحق عن لغة القارة العدد (١١ سبتمبر ١٩٥٨ من مجلة نهضـة افريقيـة) .

(٢) مقال عن اللغـة السواحلية للأستـاذ محمد جلال عبـاس (العـدد ٢٥ من مجلة نهضة افريقيـة) .

٢ ـ العربية فى السودان

(ا) لقد دخل العرب بلغاتهم السودان ، كما أوضحنا من الشرق ، ومن الشمال ، والغرب ، ولا شك أنهم احتفظوا بلغاتهم وطوروها ، وان كنا سنرى أنها ستحمل طابعا خاصا يختلف عنه فى البلاد التى تركتها .

والذى يعنينا هنا هو هذه المجموعات التى لم تكن تتكلم العربية ثم تكلمتها وانفعلت بها ، اللهم الا قلة تأخذ فى الذوبان دائما فى اللغة العربية .

وقد ذكرنا من قبل أن الأنباط وهم عرب ، قد نزلوا افريقية ، وقلنا انه ربما نزلوا السودان وحملوا معهم لغة آرامية هى اللغة النبطية .

وربما يقول قائل : ان لغة العرب الجنوبيين من قديم الزمن لم تكن كلغة الشماليين ، ولكن الأستاذ عمر الدسوقى يضع أيدينا على الحقيقة فيقول « ولكن مما لا ريب فيه أن اللغة القحطانية أو لغة العرب العاربة الأصل من أصول العدنانية تدل على ذلك النقوش اليمنية التى درسها العلماء ، والتى نرى بين أيدينا منها مقدارا يكفى لهـذا الحكم . بل ان فى هذه النقوش عبارات تتفق مع العربية كلمات وتركيبا » (١) .

كما نعرف أن الحضارمة قد هاجروا من قبل الاسلام الى بلاد البجة وحملوا معهم لغة يمنية . أما البجة فلغتهم هى اللغة التى تسمى « التبداوى » أو « بداويت » وهى لغة حامية بحيث أصبحت البجة الآن تتكلم اللغة العربية الى جانب لغتها ؛ بل أصبحت العربية هى اللغة الأولى ، والتى أثرت تأثيرا مباشرا فى لغتهم المحلية(٢) . والملحوظ أنهم يتكلمون فى حياتهم الخاصة باللغة المحلية ، أما فى الحياة العامة فيتكلمون بالعربية (٣) .

(ب) وفى شمال السودان كانت توجد لغة حامية هى اللغة النوبية

---

(١) النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ١٢ .

(٢) السودان الشمالى ص ٢٧ ، الثقافة العربية فى السودان ص ١٨ .

(٣) السودان لنعوم شقير ص ١٠٥ .

وهى التى يتكلم بها الآن الكنوز ، والسكوت ، والمحس ، وأهل دنقلة ، وتاريخها فى البلاد يرجع الى القرن الثالث قبل المسيح ، وقد أخلت مكانا للغة العربية ، فأصبح بعضهم يتكلم العربية فقط أو يتكلم لغته الى جانب العربية . فبينما تستخدم الأولى فى الحياة الخاصة تستخدم الثانية فى الحياة العامة ، وقد أثرت العربية فى اللغة النوبية حتى لقد أصبح هذا التأثير العربى فى اللغة النوبية بنسبة ثلاثين فى المائة من الألفاظ والتراكيب « ونستطيع أن نفترض فى ضوء قوانين علم اللغة أنه سيأتى وقت تضيع فيه النوبية من هذه المناطق ويتم للعربية الغلبة عليها فى جميع مناطق السودان الشمالى (١) .

ولا شك أن هذا ينسحب على اللغات الأخرى التى تجاور العربية فى السودان

(ج) أما فى الغرب فقد ضاعت بعض لغات القبائل بحيث أصبحت الآن لا تعرف غير العربية فالفلاتة الذين أقاموا فى سنار كانوا يتكلمون لغة « الهوسة » ولكن حينما اندمجوا فى هذه البلاد أصبحوا لا يتكلمون غير العربية . أما الذين يقيمون منهم فى دارفور فيتكلمون الى جانب لغتهم اللغة العربية (٢) .

وقد أرجع الاستاذ محمد عبد الرحيم نسب الفلاتة الى « عقبة بن ياسر الصحابى » ويقول : ان والدتهم من البربر وانهم ينقسمون الى قسمين « ايكا » ، و « ايبا » فالايكا هم سكان سعدون والرهد ويتكلمون العربية ، والايبا هم الذين يتكلمون بلغة أعجمية ، ويقال ان أصلهم من كنانة (٣) .

---

(١) الثقافة العربية فى السودان ص ١٦ ، ١٧ ، رسالة مركز الثقافة المصرى بأم درمان ص ١٧ .

(٢) تاريخ الثقافة العربية ص ١٩ ، رسالة المركز الثقافى بأم درمان ص ١٧ .

(٣) العروبة فى السودان ص ٣٢ .

ومهما يكن من شيء فسكان هذه البلاد من القبائل العربية التى هاجرت الى السودان من زمن بعيد ثم استقرت فى هذه البلاد مختلطة بالسكان الأصليين . وقد قيل ان لغتهم تشبه فى ألفاظها ـ لا معانيها ـ اللغة التركية فهم اذا دعوا انسانا قالوا له « كلا » أما الترك فينادونه « بكال » (١) ويعتبر هذا الاستقراء ناقصا لأنهم لم يعرفوا الترك الا فى وقت متأخر بعد أن استقرت لغتهم .

(ء) وفى مناطق الجنوب بدأت العربية من فترة كبيرة تؤكد فعاليتها ، فقبائل الدنيكا ، والشلوك ، والنوير ، والباريا ، والزاندى لكل واحدة منها رطانتها الخاصة بها . أما لغة التفاهم بينها جميعا فرطانة عربية تختفى فيها « حروف الحلق وخاصة العين والحاء كما توجد تشققات وانحرافات أخرى » (٢) .

---

(١) الزبير باشا رجل السودان ص ٥٨ .

(٢) مقال لغة القارة (العدد ١١ من مجلة نهضة افريقية) .

٣ ــ خصائص العربية فى السـودان

يمكن معرفة خصـائص اللغة العربية فى السودان بالدراسة اللغوية والنحوية والصرفية فى قطاع كبير يمثل البلاد ، وسنحاول هنا أن نتعرف على الخصائص العربية فى السودان من لهجات « الجـزيرة » باعتبارها أخصب الأماكن بالهجرات العربية :

(أ) الظواهر الصوتية .

١ — ضم ضمير الغائب المتصـل بحرف الجر فى جميع الأحـوال مثل « المرق المافيه شى ما يال طى »

٢ — استعمال « ش » بمعنى ماذا مثل « البيصلى ش عمل » وقد تحور الى « ايش » .

٣ — اسـتعمال (هـ) بدلا من هـذا ، وهذه مثل « يا جامع الشـمل تجمعنى فى هـ الجامع يقصد (هذا الجامع) ومثل « قال ليه والله ها السع » يقصد (هذه الساعة) .

٤ — أنا تصير « نى » بعـدما النافيـة مثل قولهم « مانى فار بادخل الحجار » .

٥ — دخول الباء على المضارع مثل « سيدك ما بيخاف » .

٦ — تصير لكن « لاكين » مثل « الفرخ دا كان نادر لاكين شوم » .

٧ — حذف همزة الى وبقاء اللام مفتوحة أو محالة للكسر مثل « خلوه يرقد فى السجن لى باكر » .

٨ — استعمال من بدلا من « مَن » الموصولة مثل « من استراح راح »

٩ — يميلون الى ظاهرة النحت فى اللغة مثل :

(أ) منو بدلا من هو .

(ب) شنو بدلا من أى شيء هو

(ج) مو بدلا من ما هو

(د) مى بدلا من ما هى

(هـ) لو بدلا من لا هى

(و) اتبلش بدلا من بلا شيء

١٠ــ حذف الدال من الكلمات الآتية عبد . عند . عدد

١١ــ ترد « حتى » بصيغ متعددة .

١٢ــ حذف لام قال عند حالة الاسناد الى تاء الفاعل وتاء التأنيث

١٣ــ استعمال كاف المخاطب بدلا من « أنت وأنت وأنتم » بعد ما النافية

١٤ــ تستعمل ان بدلا من « ما ، أو ، من » الاستفهاميتين أو بدلا من أل الموصولة زيادة على استعمالها كحرف شرط

(ب) الظواهر النحوية

١ ــ استعمال « أل » بمعنى الذى وفروعه ، وتدخل على الجملة الاسمية والفعلية ، والظرف والجار ، واسم الفاعل ، واستعمالها على هذه الصورة موجود فى اللغة العربية

٢ ــ التخلص من التقاء الساكنين بالفتحة .

٣ ــ نداء ما فيه ال .

٤ ــ استعمال لام الأمر كما فى الفصحى .

٥ ــ حذف ان الشرطية ويستعاض عنها بكان .

٦ ــ استعمال « ما » بدلا من « لا » الناهية .

٧ ــ حذف تاء الفاعل .

٨ ــ الضمير « اياك » يظل منفصلا اذا سبقه فعل ينصب مفعولين .

٩ — فتح تاء الفاعل .

١٠— استعمال شن بدل « من » الشرطية .

١٠ — تعلق الجار والمجرور بفعل لا يصح التعليق به فى الفصحى .

(د) الظواهر الصرفية

١ — ابدال الدال ضادا كأضان بدلا من آذان

١ — ابدال الذال ضادا كداك الزول بدلا من ذاك الانسان

٢ — ابدال الذال زايا كعزر بدلا من عذر .

٤ — ابدال الذال ظاء كقولهم « جلدك سندسا ظاكرة الاله فى الآية »

٥ — ابدال القاف كافا كتلة بدلا من قتلة .

٦ — ابدال الكاف كافا كدكسات العيون بدلا من دكسات العيون

٧ — ابدال القاف غينا كالمغبرة بدلا من المقبرة

٨ — ابدال الغين قافا كمستقرب بدلا من مستغرب

٩ — ابدال الصاد سينا كسدرى بدلا من صدرى

١٠ — ابدال السين صادا كصورة بدلامن سورة

١١ — قلب الهمزة ياء كقولهم محمد وديمام بدلا من امام

١٢ — قلب الهمزة واوا ككاتل الروح وين بيروح بدلا من أين

١٣ — ادغام النون الساكنة فى التاء اذا وليتها كقولهم أتو جيتو بدلا من أنتم

١٤ — تخفيف المضعف كمار على بدلا من مار على

١٥ — تخفيف اللام المسبوقة بالقاف كالتمساح قلع

١٦ — القلب المكانى كمفحضة بدلا من محفظة (١) .

مما تقدم نعرف أن اللهجات العربية فى السودان تتفق فى عدة مسائل أهمها :

١ — أوزان الكلمات فهناك تماثل لصيغ الأفعال ، والأسماء ، والتصغير ، والنسب ، والجموع

٢ — قلما نجد فى تركيب الجملة فى اللهجة السـودانية ما يختلف عن تركيبها فى اللغة الفصحى وسائر اللهجات العربية .

٣ — لا يوجد خلاف عادة بين اللهجات العربية فى بنية الكلمة « الا فى تلك الحروف والحركات التى تتغير أو يعتريها الحذف والزيادة لأسباب صوتية معروفة (٢) ، والى جانب هذا نجد ألفاظا عربية خشنة قد تخلصنا نحن هنا فى مصر من أمثالها ولكنها حية تدور فى السودان وان كانت صحيحة لغويا مثل الاضاة التى تطلق على الغدير ، والبـدرة للقرية ، والبرمة للجرة من الخزف ، والبطحا للمكان المتسع ، وبهرج بمعنى جبن ، والبابو للصبى ، والتلتلة للحركة بعنف ، والجداية للظبية ، والجنى للثمر والصبى والبيض ، وحرد بمعنى غضب ، والحزة بمعنى السـاعة ، والحلة لعدد من البيوت والحوار للتلميذ ، والريف لمصر ، والزول للانسـان ، والسـيرة لموكب العروس ؛ ودقه بمعنى ضربه ، والكراع للرجل والسرحان للفجـر ، والطخا للغيم . حتى ان الدكتور طه حسين حينما عاب على الدكتور عبد الله الطيب ورود مثل هذه الكلمات فى شعره رد عليه بأن السودان ملىء بهذه الكلمات فى الحيـاة العامة .

وقد حملت اللغة العربية أيضا الى هذه البـلاد خصائصها التعبيرية ،

---

(١) من لهجات الجزيرة ، وأشياء أحسستها فى السودان .

(٢) الثقافة العربية فى السودان ص ٢١ ، ٢٢ .

وأجواءها التى عاشت فيها هناك ، وميراثها الغنى ممـا سنجد أثره واضحا فيما سنسوق من الشعر العربى الفصيح بل يتعـداه أيضـا الى الشعر الشعبى .

فالشاعرة السودانية « بنت مسيس » تشبه الزبير باشا بالزبير بن العوام وأنه يتهلل عند قدوم المعوزين « كأنك تعطيه الذى أنت سائله » وتصف أحد فرسانه بأنه يعود بالخيل لاهثة بعد هزيمة الأعداء ، وقطع خوذاتهم، وأن الجنود يتركون اللحم للصقور ونجد فى الشعر الشعبى كذلك ظاهرة كره البنات ، والصعلكة ، والتغنى بنار القرى ، والعصبية القبيلية .. الخ

وتوجد هذه الظواهر بارزة عند « ود حبوبة » ، و « الحاردلو » فالعربية هناك لم تفرض خصائصها على شعرائها المفصحين فقط ، ولكنها تتعداهم فتؤثر من بعيد أو قريب فى الشعر الشعبى .

حال الأدب فى السودان قبل فترة البحث

(أ) بدأ الشعر فى السودان شعبيا لا يخضع للغة الفصيحة وتقاليدها ، وان كان ينطوى على الأغراض العربية المتوارثة كالمدح ، والغزل ، والحماسة ، وقد نشأ كظاهرة طبيعية للحاجة الى التغنى بالحياة والتخفيف من ضروراتها والشاعر السودانى الشعبى كالشاعر العربى القديم مهتم بالغناء ، وترديد الوحدة ، ومن هذا نشأ عندهم ما يسمى بغناء « النميم » الذى يدور حول حث الابل ، وذكر التشوق الى الحبيب .

كما نشأ عندهم ما يسمى بالغناء « المطرق » لاقترانه بصوت طرق عصا يتتابع فى رتابة ، وقد كان كبار القوم يعملون على أن يكون لهم مغن خاص يسمونه اللبيب أو الغناى .

وكذلك عرفت البقارة الرجل الذى يتغنى على ظهر فرسه بكل مايهم الناس ويسمى « البوشنى »

وهناك المداحون الذين يتغنون بالمآثر النبوية

ولم يكن هذا الأمر مقصورا على الرجال فقط لأن النساء أسهمن فى هذا اللون من التعبير الشعبى . حتى انه كان للمرأة المسماة « الحكامة » فى الغرب سلطة كبيرة لأن هجاءها كفيل باسقاط هيبة أى رجل .. وأخيرا فلأغانى البرامكة التى تدور حول مجالس الشاى دور كبير هناك !

وقد تعدى الشعر الشعبى هذه الأغراض الى التصوف فاعتبر «الشيخ» مثلا أعلى للحياة خصه بالكثير من أغراضه ، ومن هنا انتشر لون من الغناء الصوفى الجماعى يسمى « كرير » ولم يقف عند حد الرجال بل تعداه الى نساء الفور ، ومن هذا قول التونسى « فترى النساء يحضرن فى الأمور المهمة ومن ذلك الأذكار .. فتحضر حلقة الذكر امرأة تنشد لهم والنساء خلفها وقوف .. وقد ينشد رجل والنساء يسمعن كبقية الرجال ..

وأما أعجام الفور فيقفون فى الذكر صفين أو حلقة وكل رجل منهم خلفه صبية والنساء ينشدن وهم يذكرون وذكرهم كرير (١) .

(ب) ولكن بظهور ألوان الثقافة التى كانت سائدة فى هذا العصر ، وبظهور عدد كبير من السودانيين المثقفين ، رأينا الشعر الشعبى يتحول الى شعر قريب من الفصحى ثم أخذ يحاول الوصول الى الشكل الفصيح ما استطاع « فنظموا أشعارا لا هى عامية ولا هى فصيحة ، ولكنها صورة محاولة قاصرة فى الحس الموسيقى مخفقة فى التزام الاعراب .

ولعل الشاعر من هؤلاء لم يكن يقود الكلمات وانما هى التى كانت تقوده فيقول شيئا يحسبه شعرا لأن فيه اثارة من موسيقى ولكنه قليل الحظ من المعنى (٢) .

وقد عارضوا بعض القصائد الصوفية المعروفة كتائية ابن الفارض(٣)، وأكثروا من الوعظ ومدح الشيخ الذى كان المثل الأعلى للحياة فى هذه الفترة ، فالشيخ مكى الدقلاشى يقول :

الله لى عدة فى كل نائبة ... أقول فى كل نايبة حسبى الله
يا فارحا بالمعاصى عند خلوته ... أما علمت بأن الشاهد الله
الى متى أنت فى لهو وفى لعب ... فما مقالك فيما يعلم الله
تب يابن آدم مادمت فى مهل ... واستغفر الله ان الغافر الله (٤)

ونحن نراهم قد أكثروا من مدح « الشيخ » فمدح الشيخ محمد ولد هدوى الشيخ ابراهيم بن الشيخ صغيرون ، ومدح الشيخ فرح ولد تكتوك الشيخ أبو بكر ولد تورير ، ومدح الشيخ نور الدين الشيخ عبد اللطيف

(١) تشحيذ الاذهان للتونسى ص ١٢٢ ، ١٢٣ تاريخ الثقافة العربية ص ١٧٥ وما بعدها
(٢) مقال عن الأدب السودانى قبل القرن ١٩ للدكتور احسان عباس بمجلة القلم الجديد (العدد السادس شباط ١٩٥٣) .
(٣) الطبقات — منديل ١٤٦ .
(٤) المرجع نفسه ص ١٤٩ .

الخطيب ، ومدح الشيخ عبد النور الشيخ دفع الله بن الشيخ محمود أبو ادريس ، ومدح الشيخ طه ابن الحاج لقانى شيخه حسن ، وقد مدح مالك والده الشيخ عبد الرحمن بن حمدتو بقوله :

ليث العلوم فاضل لبيب … محرر وحاذق مصيب
محقق الأصول والفروع … وسامع لربه مطيع
وفى دجى الليل يقوم ساعه … وساعة تلاوة ضراعه (١)

وكما أكثروا من المدح أكثروا من الرثاء ، فرثى الشيخ أبا ادريس تلميذه عبد النور (٢) ، كما رثى عبد النور كذلك الشيخ عبد الله بن دفع الله فى أبيات منها :

لأهل الله نطلب قول … ننظمها بأبيات تطول
جبال الأرض زلت واستقلت … فوا أسفا على موت الفحول
فهم من بيننا قمر منير … وعند الله أشهاد عدول
فلولا شيخنا العركى لكنا … علينا جزية القوم الجهول (٣)

وقد رثى السيد ولد عبد الهادى الدولابى الشيخ خوجلى عبد الرحمن بقصيدة بلغت أبياتها ستة وثمانين بيتا وهو يذكر فيها أشياء خرافية كقوله :

ومن العجائب عند موت امامنا … ظهرت له كل العجائب ياه
وكذاك تروى الحاضرون لموته … آيات فخر ما حواها سواه
كحنين محراب لفقد صلاته … كالجذع حن بشوقه وبكاه
والخيمة الخضرا تظلل نعشه … والرايتان أمامه ووراه (٤)

ويروون عن الشيخ محمد الهميم بن عبد الصادق أنه تزوج ما يقرب من التسعين ، وقد جمع فيهن بين الأختين فأنكر عليه هذا القاضى دشين وفسخ

(١) الطبقات منديلى ص ٢٠ ، ٢١ ، ١٤٠ ، ٨٨ ، ١١١ ، ١١٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٦ .
(٣) طبقات — منديلى ص ١٠٦ .
(٤) طبقات — صديق ص ١٨٠ .

هذه العقود الباطلة فدعا عليه الشيخ قائلا : « الله يفسخ جلدك وأن القاضى مرض وانفسخ جلده مثل قميص الدبيبة وشطح الشيخ شطحا مع كونه أميا لم يقرأ الا لغاية الزلزلة :

فان كنت ياقاضى قرأت مذاهبا ... فلم تدر ياقاضى رموز مذاهبنا
فمذهبكم نصلح به بعض ديننا ... ومذهبنا يعجم عليكم اذا قلنا
قطعنا البحار الزاخرات وراءنا ... فلم يدر الفقهاء أين توجهنا (١)

فالشاعر هنا لا يهتم بالقواعد النحوية ، والصرفية ، كما أنه لا يهتم بالوزن ، والذوق العروضى والمضمون العميق .

ولعل مثالا واحدا تتوافر فيه هذه النقائص قول عبد النور فى رثاء الشيخ « أبو ادريس » :

صوفى الصفات فذاك شـــيخى ... أبو ادريس الورع الوجـــول
لا يشـــتاق للذات فيهـــا ... من مأكول ومشروب العســـول
لمرضـاة ربه ســـهر الليـالى ... أحب الجـوع واكتسب النحول
فمـاله حـرفة قط يعتلقهـا ... ولا غرض لشى ينســـبول
وقد تخلف بعـده الحبر المسمى ... بدفع الله من أســد شــبول (٢)

فالأدب فى هذه الفترة كان فى عملية التحول ، والانتقال من الشعر الشعبى الى الشعر الفصيح ، كما أنه كان يعيش فى دائرة ضـــيقة تماما كتلك الحياة التى يعيش فيها .

ولا شك أنه كان أضعف شعر عربى فى البلاد العربية . أما الشعر فى مصر فانه وان كان فى هذه الفترة خائرا بين القيود البلاغية الا أن الحياة كانت تنبض فى بعض مجالاته .

---

(١) طبقات ــ صديق ص ١٤٩ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥ ، ١٦ .

الفترة الأولى

١٨٤٠ – ١٨٩٩

- الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية
- الشعر
- أشهر الشعراء

الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية

- الحياة السياسية
- الحياة العقلية
- الحياة الاجتماعية

الحيـــاة السياسية

(أ) توفى « محمد على » فى ٢ من أغسطس عام ١٨٤٩ ، وكان ابراهيم قد تولى الحكم فى حياته فى ابريل عام ١٨٤٧ ، ولكنه سرعان ماتوفى فى ١٠ من نوفمبر عام ١٨٤٨ ، وكان أن تولى الحكم « عباس باشا » فى ٢٤ من نوفمبر عام ١٨٤٨ وقد اعتبر السودان منفى للمغضوب عليهم (١) .

وفى عهده عين « عبد اللطيف باشـــا » حاكما عاما للســـودان (١٨٥٠ ــ ١٨٥١) وما كاد يصل الى الخرطوم فى فبراير عام ١٨٥٠ حتى انهمرت عليه الشكاوى وكلها صارخة بظلم سلفه الذى كان يصـــادر أموال الناس وحرياتهم مما اضطره الى أن يصادر هو الاخر أموال سلفه « خالد باشا » (١٨٤٦ ــ ١٨٥٠) ويأمر بانزاله الى مصر .

ثم عمل بدوره على بث روح العدل ، وادخال الطمأنينة على نفـــوس السكان ، ووضع الناس فى أماكنهم . فعزل الشيخ « ادريس عدلان » من شياخة جبال الفونج ، ونصب مكانه ابن أخيـــه « عدلان محمد » وشدد النكير على « حسن مسمار » ملتزم الجمارك فحبسه ، وصادر أمواله ، وقام بنفس العمل مع « حسن خليفة العبـــادى » ملتزم ســـكة عطمور أبى حمد ، وقلد منصب المشيخة الذى كان يتولاه أخاه « حسين خليفة » .

والى جانب هذا فقد كافأ العاملين فقلد الشيخ « عبد القادر » وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة ، وقرب اليه الشيخ « أحمد أبو سن » .

وفى عهده غزت تكارنة القلابات الملك عمر فى ميقبـــه ، وتوالى دخول الرهبان والمبشرين الى السودان ، وأقيمت القنصليات فى الخرطوم ، وكانت

---

(١) السودان لعبد الله حسين جـ ١ ص ٩٤ ، ٩٥ .

فى مقدمتها القنصلية النمساوية ، وقد اضطرت هذه الكثرة « عبد اللطيف باشا » أن يطلب من القاهرة تراجم ، ولكن القاهرة ردت عليه بأن المكاتبات يجب أن تكون بالعربية كالحال فى مصر .

وقد ترتب على كثرة القنصليات تغلغل التجار الأوربيين فى السودان مما أقلق « عبد اللطيف باشا » وجعله يعمل على ايقاف نفوذهم .

ولكن القناصل تقدموا بشكاوى حاقدة ضده جاء فيها أن لهم امتيازات فى الممتلكات العثمانية ، وان الحكمدار يسىء الى رهبان الكاثوليك رغم وجود فرمانات من « محمد على » تطالب بحسن معاملتهم ، وفى ختام شكاواهم طالبوا بطرده ، وكان أن استجاب لهم « عباس باشا » وعين مكانه رستم باشا (١٨٥١ — ١٨٥٢) (١) .

عين رستم باشا حاكما عاما على السودان . فذهب الى « واد مدنى » ولكنه سرعان ما احس بالمرض بها فسارع الى الخرطوم حيث دفن بها عام ١٨٥٢ ، وقد حضرت فى فترة حكمه لجنة من مصر للنظر فى أحوال السودان برئاسة « ميرى بك » ثم تولى الحكم من بعده اسماعيل باشا أبو جبل (١٨٥٢ — ١٨٥٣) ولكنه لم يمكث بالبلاد كثيرا حتى استدعته القاهرة .

ثم تولى الحكم سليم باشا (١٨٥٣ — ١٨٥٤) على غير رغبة منه فذهب الى السودان كارها وأقام به كارها ، ومدعيا المرض ، ومازال على هذا الحال حتى ندب الى القاهرة .

وكان أن تولى الحكم على سرى باشا الأرناؤوطى (١٨٥٤ — ١٨٥٥) فأقام بالبلاد مدة قصيرة تنقل فيها بين الخرطوم وسنار ، وقيل انه قد استحل كثيرا من مال الأمة .

وفى يوليو من عام ١٨٥٤ توفى « عباس باشا » وانتقل الحكم الى

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ج ٢ ص ٢٨ ، ٣٠ ، السودان فى قرن ص ٥٦ .

« سعيد باشا » فأسند أمور الحكمدارية الى على شركس باشا (١٨٥٥ ــ ١٨٥٧) فوصل الخرطوم فى فبراير عام ١٨٥٥ .

وفى أوائل حكمه ذهب الى السودان الأمير عبد الحليم بن محمد على وتسلم الأمور من الحكمدار بعد أن ثبت عليه الاختلاس (١) .

على أنه لم يلبث كثيرا حتى انتشر الهواء الأصفر الذى مات بسببه خلق كثير ، ومن هنا أشار عليه الأطباء بمغادرة البلاد فغادرها .

وماكاد هذا الوباء يزول حتى ذهب « سعيد باشا » الى السودان فوصل الى الخرطوم فى ١٦ من يناير عام ١٨٥٧ ، وقد هاله ما رأى من فقر البلاد فعزم على اخلائها (٢) ولكن أصحاب الرأى فيها ذكروا له أن الفوضى ستعم البلاد ، اذا أخليت ، وربما امتدت آثار هــذه الفوضى الى مصر ، فاستقر رأيه على البقاء ، ووضع للبلاد نظام اللامركزية ، وأمر بتنظيم البريد بين الخرطوم والقاهرة ، وخفض ضرائب الأطيان والسواقى وأن تجبى بعــد الحصاد على أن يكون القيام بهــذه المهمة موكولا الى مشايخ البلاد لا الى الجند ، وان يجتمع الاعيان كل عام فى الخرطوم للنظر فى شئون البــلاد .

كما أصدر أمرا صريحا بمنع تجارة الرقيق التى كانت قد عمت البلاد وأمر بانشاء محطة عسكرية لمراقبة تجار الرقيق ، ومعاقبة النخاسين ، وكانت هذه المحطة على نهر « سبت »

كما كلف المهندس الفرنسى « مونجل » بتصميم مشروع للســـكة الحديدية بين حلفا والخرطوم بعد أن عاد الى القــاهرة فى ديســـمبر عام ١٨٥٧ (٣) .

---

(١) السودان فى قرن ص ٦٠ .

(٢) شكك الدكتور محمد فؤاد شكرى فى أمر الاخلاء هذا (مصر والسودان ٨٧ ــ ٩٠) .

(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .

ورغم هذه الأعمال الطيبة التى قام بها سعيد فانه أخطأ خطأ لا ينسى له فقد استجاب الى فكرة « نابليون الثالث » التى طلب فيها منه امداده بسودانيين للاشتراك مع فرنسا فى تأديب المكسيك وكان أن أرسل سعيد الى المكسيك أورطة مكونة من ٤٥٣ سودانيا أقلعت بهم النقالة الفرنسية لاسين La seine من الاسكندرية فى ٨ يناير عام ١٨٦٣ (١) .

ومهما يكن من شيء فقد عين على السودان أحد الذين كانوا معه فى رحلته الى السودان وهو أراكيل بك الأرمنى الملقب بالفرنساوى (١٨٥٧ — ١٨٥٩) بعد أن عزل على باشا شركس .

وقد أنكر السودانيون وبخاصة مشايخ الشكرية ، والفقيه ابراهيم عبد الدافع تعيين وال مسيحى عليهم مما اضطر « أراكيل » الى أن يكتب الى سعيد باشا فى هذا الأمر ، وقد كان الرد عليه أن أرسل زعماء الثائرين فأرسل اليه الشيخ أحمد أبو سن شيخ الشكرية ، والفقيه ابراهيم عبد الدافع .

وما كادا يصلان حتى ألقيا فى سجن الاسكندرية ، ثم أفرج عنهما ، وعادا الى السودان بعد أداء يمين الطاعة .

ثم كان أن توفى أراكيل بك فى سبتمبر عام ١٨٥٩ ، وتولى الأمور من بعده حسن بك سلامة الشركسى (١٨٥٩ — ١٨٦٢) وقيل انه كان شرسا . سىء الادارة . على غير معرفة بنفسية البلاد فعزل .

ثم تولى بعد ذلك محمد راسخ بك (١٨٦٢ — ١٨٦٣) .

وقد كان مديرا للتاكة فعين مديرا للخرطوم ، وكان محبا للغناء والطرب ، وفى عهده ألغى سعيد نظام اللامركزية ، وعاد الى النظام القديم الذى يقضى بأن تكون الخرطوم مركزا عاما للبلاد (٢) .

---

(١) السودان لعبد الله حسين ج ١ ص ٩٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣ .

ثم عين بعد ذلك موسى حمدى باشا (١٨٦٣ ــ ١٨٦٥) حاكما عاما على السودان . فلما مات سعيد باشا أقره خلفه اسماعيل باشا . على أنه ما كاد يصل الى السودان حتى طلب المشايخ وأعيان البلاد وعقد معهم مجلسا تدارس فيه حال البلاد ، ونظم قوانين جمع الضرائب بوساطة « سركى » كما أشرك الأهالى فى الحكم مشاركة فعالة فجعل من الأهالى نظار أقسام ، ومعاونين ، وطلب منهم ارتداء الملابس العثمانية ، ووافق على تعيين الشيخ أحمد أبو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم ، وسنار .

وفى عهده توالى تعدى الأحباش والعربان على الحدود فأرسل جيشا كبيرا الى بلاد القلابات ، ومن هناك توغل فى أرض الحبشة ، وعاد بالعربان الذين كانوا قد هجروا بلادهم .

كما أرسل جيشا الى أولاد الملك نمر فهزمهم . ثم ذهب الى التاكة ومنها الى الخرطوم . وفى أيامه حضر السير « صمويل بيكر » ليكتشف منابع النيل الأبيض عام ١٨٦٥ .

كما فر اليه الملك ناصر ملك جبال تقلى فأرسله الى مصر ، وقامت حرب العقال بين عربان حمر بزعامة الشيخ فضل الله ود المنعم ، وبين عربان الكبابيش بزعامة الشيخ فضل الله ود سالم . ثم توفى فقام مقامه عمر فخرى بك حتى حضر الحكمدار الجديد (١) .

وكان هذا الحكمدار الجديد هو جعفر باشا صادق ١٨٦٥

وقد قامت فى عهده ثورة الجهادية « السود » فى كسلا عام ١٨٦٥ وتركت آثارا تدميرية فى البلاد . كما احتلت مصر فاشودة عام ١٨٦٥ ، ولكنه مرض وعاد الى مصر .

ثم خلفه جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ ــ ١٨٧١) وقد قام بنصيب كبير

(١) السودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة ص ٦٣ ، ٦٤ ، تاريخ السودان لنعوم شقير ج ٣ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٢ .

فى تهدئة الثورة فى كسلا كما جمع العساكر السودانية من التاكا وواد مدنى ، وكردفان وأرسلهم الى مصر . وأحضر مكانهم جنودا مصريين ثم عاد فطلب ردهم ثانية ، وفى عهده تخلت الدولة العثمانية عن سواكن ، ومصوع لمصر فى مقابل ١٦٠٠٠ جنيه زيادة على الجزية السنوية ، وقامت ثورة «البلالى» محاولة احتلال بحر الغزال ، وحضر صمويل بيكر لاحتلال خط الاستواء ، والضرب على أيدى تجار الرقيق . ثم انتهى أمره بالعزل .

وتولى الحكم من بعده ممتاز باشا (١٨٧١ — ١٨٧٣)

وقد أدخل الى البلاد زراعة القطن ، ومد يده الى مالية البلاد ، وأشاع الرشوة فى كل الأمور ، مما ترتب عليه وقفه عن عمله ، وسجنه بالخرطوم ، وقد مات فى سجنه عام ١٨٧٥ .

ثم خلفه اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧)

وقد بدأ عمله بمحاولة تفتيت السد من النيل الأبيض ، كما تم فى عهده تقسيم البلاد الى مديريات بحيث أصبح كل مدير مسئولا عن مديريته . وفى أول حكمه خلف « غوردون » بيكر على خط الاستواء . وقد ضمت فى عهده مملكة دارفور الى أملاك مصر بوساطة الزبير باشا رحمة ، واشتريت مقاطعة « ايلت »(١) من حاكمها ، واحتلت « سنهيت » عام ١٨٧٤ ، و « هرر » عام ١٨٧٥ بعد أن نجح اسماعيل باشا فى شراء زيلع ، وبربرة ميناء هرر من الدولة العثمانية بزيادة ١٣٣٦٥ جنيها زيادة على جزية مصر .

وفى عام ١٨٧٥ أرسل اسماعيل باشا حملة الى نهر جوبا لفتح الطريق بين خط الاستواء والبحر الهندى بعد أن فشلت المحاولات فى تفتيت

---

(١) تقع بين حماسين ومصوع .

السد فى النيل الأبيض ولكن انجلترا تدخلت . ثم قامت حرب الحبشة (١٨٧٥ — ١٨٧٦) التى انتهت بهزيمة الجيش المصرى .

ثم كانت الفترة التى حكم فيها غوردون السودان كله (١٨٧٧ — ١٨٧٩) بعد أن قضى فترة من قبل كمدير لمديرية خط الاستواء ثم سافر الى انجلترا ، وكان أن استدعاه الخديوى تلغرافيا بناء على توصية من انجلترا ، وقد كانت مديريات السودان تتبع النظام اللامركزى ، فطالب بتركيز السلطة فى يده ، وكان أن صدر فرمان بمنحه الولاية على السودان مع دارفور ، وخط الاستواء ، وسواحل البحر الأحمر ، وهرر ، ووضع السلطة العسكرية والمدنية فى يده ، وسلطان القتل ، والعفو ، وعدم دخول البلاد الا بأمره ، والقضاء على النخاسة ، وتحديد الحدود بين مصر والحبشة ، وتحسين المواصلات .

وقد قضى فى هذه الفترة على ثورة الأمير هارون بدارفور ، وحركة الصباحى فى كردفان ، وسليمان الزبير فى بحر الغزال (١) .

وقد أقيل اسماعيل باشا فى ختام هذه الفترة (٢) ، وتولى مكانه توفيق باشا وكان أن تولى الحكم فى السودان رءوف باشا (١٨٧٩ — ١٨٨٢) .

وقد كلف ببحث ميزانية البلاد ، وتنظيم الادارتين المدنية والعسكرية ، ومنع تداول الرقيق ، وفى صيف عام ١٨٨٠ ثار الصومال فأرسل نجدة لحاكم هرر ، وما كادت تنقضى حتى قامت الثورة العرابية فى مصر ، والثورة المهدية فى السودان .

وهكذا كان آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة ثم حكم من بعده عبد القادر حلمى باشا (١٨٨٢ — ١٨٨٣)

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ص ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٨٦ ، ٩٠ — ٩٣ ، السودان فى قرن ص ٨٢ ، ٨٣ ؛ السودان لعبد الله حسين ص ١١٩ .

(٢) اقيل فى ٢٥ من يونية عام ١٨٧٩ .

علاء الدين باشا (١٨٨٣)

غوردون للمرة الثانية (١٨٨٤ — ١٨٨٥)

ولما اشتدت الثورة صدر أمر فى ١٥ من يناير عام ١٨٨٤ يقضى بالحاق ادارة عموم السودان وملحقاته الى نظارة الحربية (١) .

(١) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ١٠٥ — ١٠٨ ، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ط ٢ للرافعى ص ٨٥ .

استعانة مصر بالأجانب

(ب) لقد كانت استعانة مصر بالأجانب حلقة من سلسلة ضخمة يرادبها تطويق افريقية ، ذلك أن انجلترا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت قد عقدت العزم على اقامة امبراطورية لها فى افريقية مستعينة على ذلك فى أول الأمر بالمبشرين ، والمكتشفين .

ومن هنا رأينا « كرابف » مندوب جمعية المبشرين الانجليزية يكتشف جبل كينيا عام ١٨٤٩ ، والمستشرق « برتون » يقوم بعدة رحلات فى شرق افريقية ليتمكن من الوصول الى منابع النيل ، ثم يتغلغل مع « سبيك » الى داخل القارة فيكتشفان بحيرة تنجانيقيـا حتى اذا مرض « برتون » وجدنا سبيك يتجـه شمالا حتى يصل الى السـاحل الجنـوبى للبحيرة الضخمة التى أطلق عليها بعد ذلك اسم بحيرة فكتوريا فى يونية عام ١٨٥٨ .

وفى عام ١٦٨٠ نرى « سبيك » يعـود مرة أخرى ومعه « جرانت » ليتأكد من أن النيـل يخرج من هـذه البحيرة ، وقد سار حتى قابلا هناك « أمتيسـة » ملك أوغندة ثم قابلا فى غندكرو صـامويل بيكر وزوجته فى فـبراير عـام ١٨٦٣ ذلك لأن صـامويل بيكر كان قد حصـل من سعيد على أمر بتسهيل مهمته ، وفى مارس وصل مع زوجتـه الى بحيرة البرت ، وكشفا شلالات مرشيزوق ثم عادا الى انجلترا . وقد وصل تحت ستار الكشف عن منابع النيل ، ومحـاربة الرق الى الوصـول الى قلب اسماعيل باشا بمعاونة ولى عهد انجلترا ، وكانت نتيجة هذا حصوله على عقد باستخدامه أربع سنوات للعمل على ما يأتى : ـ

١ ـ الغاء تجارة الرقيق واحلال تجارة مشروعة محلها

٢ ـ اخضاع البلاد الواقعة جنوب غندكرو وضمها لمصر .

٣ ـ فتح البحيرات للملاحة

٤ — تأسيس محطات عسكرية ، ومستودعات للتجارة فى افريقيـــة الوسطى على أن تكون غندوكرو قاعدة تموين لها (١) .

وقد تنبه حكمدار السودان جعفر باشا مظهـر (١٨٦٦ — ١٨٧١) الى خطورة الاستعانة بأجنبى فى هذا الأمر ، وأشـار على الخديوى بأن هـذا العمل يجب أن يقـوم به ضـباط مصريون ولكن الخـديوى لم يسمع له (٢) .

وقد أعلن فى ٢٦ مايو ١٨٧١ ضم غندكرو الى مصر ، وسماها الاسماعيلية ، وفتح بعض الأراضى ، وان كان قد عجز عن مقاومة تجار الرقيق وبخاصة «أبو السعود» (٣) وفى الوقت نفسه أساء معاملة قبائل البارى ، ونفر السكان من الحكم الخديوى ، وأخفق فى فتح الملاحة النهرية الى بحيرة البرت ، وانتهت مدته فى الخدمة بعد أن كبد ميزانية الدولة أكثر من مليون جنيه على أن النتائج الأدبية لهذه الحملة فى تسوىء سمعة مصر ، وانقاص هيبتها بين سكان تلك المناطق كانت كبيرة ، ولا شك أن ذلك كان فى صالح السياسة الانجليزية ، فقد كتب عضو فى الوزارة الانجليزية الى بيكر على أثر عودته الى لندن فى أواخر سنة ١٨٧٣ يقول : مهما كان من أمر تجارة الرقيق فان حملتك لا بد أن تكون قد أدت الى بسط النفوذ الانجليزى فى مصر كم سننتظر من الوقت حتى تكون لنا سفن تجـارية حاملة العلم الانجليزى فى البحيرات ، ويكون لها خط مواصلات منتظم يصل البحيرات بالقـــاهرة (٤) .

وبعد ذلك عين الخديوى « غوردون » مكانه على أن يكون مستقلا عن حكمدارية السودان وأن يتفادى الأخـطاء التى وقع فيهـا سـلفه

---

(١) المنافسـة الدوليـة فى أعالى النيـل ص ٦٥ — ٦٩ ، تاريخ مديرية خط الاستواء ج ١ ص ١٢ .

(٢) حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣١٥ .

(٣) السـودان فى قرن ص ١٠٢ .

(٤) المنافسـة الدولية فى أعالى النيل ص ٧١ ، ٧٢ .

وقبل ذهاب غوردون كان أمتيسة ملك أوغندة قد أبدى رغبتــه فى الاتصال بمصر ، وابفاد عالمين ليعلماه وشعبه الاسلام ، ولكن غــوردون سرعان ما أرسل اليه بعثة برئاسة « أرنست دى بلفورن » استطاعت أن تبعد عنه الاسلام وتقرب اليه المسيحية » . وعندما جهز أرنست للدفن وجــد غوردون فى جيبه خطابا من ستانلى الى انجلترا يهيب فيه بالرأى العــام الانجليزى أن يرسل بعثات تبشيرية لأواسط افريقية ويرى أنها فرصة ذهبية لفتح تلك المجاهل للمسيحية فبعث غوردون بالخطاب للخرطوم ليرسل منها الى مصر فانجلترا .. وقد استجاب الرأى العام الانجليزى استجابة سريعة ، وتدفقت بعثات ارساليات الكنيسة الانجليزية على أواسط أفريقية (١) .

وقد كان غوردون مهتما بالمواصلات بينه وبين القاهرة اما عن طريق الشمال ، واما عن طريق الشرق حتى لقد اتفق مع الخديوى اسماعيل على ارسال حملة للاستيلاء على الصومال وقد قامت هذه الحملة برئاسة القائد الانجليزى « ماك كيلوب باشا » لتحقيق هذه الفكرة وسارت حتى وصلت الى نهر الجب فى اتجاه ممبسة ، ولكن انجلترا أرغمت مصر على اخــلاء المنطقة التى احتلتها بين نهر الجب ورأس حافون باسم حقوق زنجبـــار على الساحل حيث مهدت لنفسها بعد هذا العمل سبيل اعلان الحماية فى عام ١٨٩٠ على زنجبار وملحقاتها (٢) .

ثم انه بعد أن أرسل حملة لاحتلال أوغندة ، وبعد أن استقبلها الملك بنفسه فى روباجا عاصمة ملكة عاد فقرر اخلاءها بدعوى أن الجنود كانوا فى موقف حرج ، وهكذا عدل عن الحاق أوغندة بمصر (٣) .

ثم انتهت مدة عقده وسافر الى انجلترا ، ولكن الخديوى اســتدعاه ثانية حيث عينه فى فبراير عام ١٨٧٧ حاكما عاما على السودان .

---

(١) السودان فى قرن ص ١١٠ .

(٢) المنافسة الدولية على أعالى النيل ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) حقائق الأخبار عن دول البحار ص ٣١٨ .

ولما كانت انجلترا تمانع فى التوسع المصرى صوب المنابع طالبت باجلاء مصر عن المناطق الممتدة حول البحيرات جميعها .

وفى عام ١٨٧٨ رجع غوردون بالحدود المصرية الى منطقة بعيدة عن بحيرة « البرت نيانزا » وأمر الدكتور أمين أو الألمانى « شنيتزر » بترك المحطات الجنوبية بحيث تصبح « دوفيلة » الحد الأقصى للأراضى المصرية فى الجنوب ، ولما تلكأ الدكتور أمين طلب من « جسى » الايطالى تنفيذ الاخلاء .

وفى الوقت نفسه أثار الفزع فى نفوس الأهالى ، وأشاع جوا من الرهبة فى البلاد ، وكانت نتيجة حكمه أنه لم يضم أوغندة ، ولم يفتتح بلادا فى الغرب . بل عمل على حسر الممتلكات الخديوية بعيدا عن البحيرات ، وألغى المدارس الأميرية ، وأوقف ارسال الطلبة الى القاهرة « قال جبرائيل بك حداد فى صفحة ١٦ من تاريخ الحرب السودانية أن سياسة غوردون فى السودان لا تخلو من محل للانتقاص والملام ، ولا يسع المنصف أن ينكر أنها آلت من قبيل منع النخاسة الى ابتعاد قلوب الأهالى عن الحكومة المصرية ونفورهم منها ووجدهم عليها » (١) ومن أخطائه : أنه عزل عددا كبيرا من الموظفين المصريين والسودانيين الذين أثبتوا جدارة فى عملهم مستبدلا بهم أوربيين حتى انه عين فى شهر يوليو عام ١٨٧٨ أربعة عشر أوروبيا مما جعل الناس يعتقدون أن هذه الحرب التى تشن عليهم من « الكفار » ــ كما كانوا يسمونهم ــ انما هى حرب دينية (٢) .

وهكذا حينما استقال غوردون فى عام ١٨٧٩ عقب عزل اسماعيل كان قد ترك السودان مهيئا لثورة ضخمة أحس بها الناس من وقت بعيد . فقد كتب أحد علماء السودان الى أستاذه بالأزهر « ان الحكومة (اتى

---

(١) اسماعيل سرهنك ص ٢٣٥ ، ٣٣٨ .

(٢) مصر والسودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ١٥٠ ــ ١٥٣ .

يتولاها غوردون) كأسد كاسر والأهالى كأنعـام ضالة لا راعى لها غير الأسد . هذه حالنا اليـوم أما أنا فاننى أؤكد لك أن هـذه الأحوال لا تدوم أياما قلائل وسترى أن الأغنام السود ستنقلب الى ذئاب ، وسيرأسها أسد كاسر ، ويموت الأسد الظالم شر ميتة » (١) .

ولم يقف دور هذا الرجل عند التهيئة للثورة ، وانما باشر بنفسه عملية تصفية الحكم هناك . اذا ما كاد يصـل حتى جمع العلماء وأهل الرأى فى البلاد وأوصاهم بطاعة الكلونيل استيوارت ووكيله ، ولم يشر الى الضباط المصريين من حوله ، وألغى الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وفتح أبواب المدينة لجواسيس المهدى ، وأذاع منشورا قوى فيـه حركة المهدى فقد ذكر أن السودان فصل فصلا تاما عن مصر وأنه جاء حاكما عاما عليه ، وأنه سيعزل جميع الضباط الأتراك والمصريين وأنه جعل من محمـد أحمـد المهدى أميرا على كردفان .. حتى لقد قال الكلونيل شابى لونج بك : ان مهمة غوردون هى بسط الفوضى والخلل فى البـلاد ، وأنه يسهل على انجلترا الاستحواز عليهـا . كما أدرك هذا ابراهيم فوزى باشا فقـرر أن مهمة غوردون انحصرت فى التمهيد لوقوع البلاد تحت السيطرة الانجليزية ، والقضاء على نفوذ مصر (٢) .

---

(١) الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٢٣٠ .

(٢) مصر والسودان للرافعى ص ١١٦ ــ ١١٨ ، السـودان بين يدى غوردون وكتشنر لابراهيم فوزى ج ١ ص ٢٩٥ .

الثورة المهـدية

(جـ) كان السودان مهيئـا للانفجار . فقـد تلاحقت فيه الأحداث وتداخلت حتى أدت الى ما يمكن أن نسميه بحتمية الثورة .

وقد أخذ بعض المؤرخين موقفا دفاعيا عن سياسة مصر فى السـودان فيه شيء من الحماس ، وأن للثورة أسـبابا ترجع فى أصولها الى عاملين أساسيين هما : محاولة الغـاء تجارة الرقيق بالعنف ، وضعف حـكومة القـاهرة (١) .

وعلى الرغم من أن أسباب الثورة عديدة ومتشابكة الا أننا نستطيع أن نتعرف على أهمها وهى :

١ — قسوة الحكام فى السودان ، فعلى الرغم من أن البلاد لم تقاوم الفتح مقاومة عنيفة الا أن مقتـل اسـماعيل كامل الذى قاد الحملة الى السودان بتكليف من والده محمد على كان شرا على البـلاد فقد أنزل الدفتردار وخلفـه عثمـان بك بالبـلاد ضربات مدمرة أذهلت المواطنين عن أنفسهم ذلك لأن محمد الدفتردار حين حضر من كردفان بعـد علمـه باحراق اسماعيل فى دار الملك نمر ، وبعد محاولة الاعتداء عليه لم يفرق بين ظالم ومظلوم فى هذه المعركة فقد « نكل بالجعليين تنكيـلا لم يروه ولا سمعوا به من قبل ولا سيما فى شندى ، والمتمة ، والعيلفون . فانه قتـل وسبى وأذل الأهلين وأوجعهم فوجدوا على الحكومة بسببه ، وقد أورثوا الوجد أبناءهم من بعدهم فحفظوه حتى قام المهدى فقاموا معه يطالبون بالثأر ، وقد رأيت الكثير ممن ثاروا على الحكومة فقالوا . انما فعلنا ذلك لأسباب شتى أولها الأخذ بالثأر » (٢) .

---

(١) مصر والسودان للدكتور شكرى ٣٧٢ — ٣٧٦ .

(٢) تاريخ السودان لنعوم شقير جـ ٣ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

وقد اضطر الملك نمر الى الهرب شرقا ، والتف من حوله الكثيرون فى شرق السودان ، وظلت هذه المنطقة تغلى بالغضب على الحكومة ، فما كادت الثورة المهدية تعلن حتى لباها أبناء الملك وأنصاره هناك وبخاصة فى منطقة القضارف . فالناس فى هذه البلاد يحتفلون بالثأر ، ويبقونه فى نفوسهم حتى تحين الفرص . فالمجتمع القبلى الذى كان يشكل حياتهم يحتفى بهذا اللون من الحقد المكتوم .

ولقد كان الحكام خليطا من الأتراك ، والشراكسة والمصريين ، فكانوا يذهبون الى هذه البلاد وفى نفوسهم أنهم شىء يراد التخلص منه فى مصر . فكانوا ــ الا من عصم ــ يقيمون على كره منهم محاولين الاثراء على حساب موارد البلاد الضحلة ، ويطلقون تشكيلات متنافرة من الجند على الأهالى ، وحقا لقد أساءت جماعات الباشبوزق ، والأكراد ، والمغاربة ، والشايقية فى تحصيل هذه الضرائب التى لم تكن معروفة عند هؤلاء الناس من قبل ، والتى كانت تجبى من الفقراء بعنف لأن الأغنياء كانوا من أقدر الناس على رشوة الحاكمين. حتى لقد ندد المهدى فى منشوراته بهذا الحكم الذى تسحب فيه الناس فى الحديد والسلاسل « من أجل الضرائب »(١). ذلك لأن المأمور كان يستطيع أن يفرض لنفسه ضريبة أو أكثر زيادة على الضريبة الرسمية .

كما كان الحكام يفتنون فى تعذيب الأهالى ، ومن هذا التعذيب ما أشار اليه الشيخ محمد شريف فى قوله :

وما أبت السودان حكم حكومة ... الى أن أتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير (٢) وحده ... وللشيخ والنظار أضعافه فادر
بضرب شديد ثم كتف مؤلم ... ومن بعده الالقاء فى الشمس والحر
وأوتاد ذى الأوتاد من بعض فعلهم ... وأشنع من ذا كله عمل الهر (٣)

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣٦٦ .
(٢) يقصد الميرى .
(٣) كانوا يضعون فى ملابس الرجل هرا ثم يضرب حتى يمزق الهر جسمه .

وقد أدى هذا الى أن كثيرا من الناس قد تركوا بلادهم الى الأطراف البعيدة عن الحكام كالقلابات ، وبحر الغزال ، ودارفور (١) .

ومن المؤكد أن كل الحكام لم يكونوا بكل هذه القسوة الا أن الملامح الرئيسية لهذه الفترة كانت بالغة القسوة .

ولقد كانت هناك قسوة من نوع آخر كان لها أثرها البالغ فى هـذا المجتمع القبلى وهى تفضيل بعض الجماعات ، والقبائل على بعضها الآخر . فقد ميزت الحكومة الشايقية على القبائل الأخرى ، وحينما ثار العبدلاب نزعت منهم أرضهم وسلمت للشايقية (٢) ، وأعفتهم من الضرائب فى الوقت الذى يصرخ منها اخوان لهم ، واستعملتهم قوامين على جمع الضرائب ، وجندا يقومون بواجب الدفاع حتى لقد توعدهم الجعليون بقيام المهدية فقالوا :

« يا نعم العباسية القامت المهـدية
والله مافى ريـة غنيمة الشايقية »

ولم يكتف التمييز بين القبائل وانما تعداه الى الطرق الصوفية فقربوا المرغنية الى نفوسهم وأهملوا الطرق الأخرى ، حتى لقد اعتزت بهذا الطريقة المرغنية فصارت تتطاول على الطرق الصوفية الأخرى ، وكان رد الفعل الطبيعى كراهية الحكومة (٣) .

٢ ـ الاستعانة بالأجانب وتغلغل نفوذهم واعتمادهم على أجانب مثلهم كما سبق أن وضحنا . فالحكام فى مصر لم يراعوا مشاعر السـكان الذين تغلب عليهم العروبة والاسلام فعين سعيد باشا عليهم «أراكيل بك الأرمنى» وهذه أول مرة يعين فيها عليهم مسيحى فلما ثار على هذا الوضع المتنورون هناك أرسل شـيخ الشكرية ، والفقيه ابراهيم عبـد الدافع الى سـجن الاسكندرية .

---

(١) تاريخ السودان جـ ٣ ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الشايقية ص ٤٣ .

(٣) تاريخ السودان جـ ٣ ص ١١٢ .

وقد حدث عصيان بين حامية دارة وصاح الجند « أننا لا نرضى أن يحكمنا نصرانى » مما اضطر « سلاطين » ازاء هذا التمرد ، وازاء اعتقاد الجنود أنهم هزموا فى موقعة « أم ورقات » لأن رئيسهم نصرانى أن يعلن اسلامه فقد وقف قائلا «اعلموا أنى مسلم مثلكم وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » فسر الجنود باسلامه ، وعادوا الى طاعته ، وقد كان من المتناقضات أن يطلب غوردون من العلماء الافتاء بالفطر فى رمضان ، واباحة الحرب فيه ثم ينشر هذه الفتوى بين العساكر (١) وقد كان هؤلاء الأجانب ينطوون على الحقد والكراهية للمصريين والسودانيين معا ، وبعبارة أدق للعروبة .

فجسى الايطالى يكتب فى ١٨٧٩/٩/٤ أنه يرغب فى الذهاب الى الخرطوم ولكنه لن يستطيع قبل طرد جميع العرب واخراجهم من ديارهم ، ويكتب أيضا فى مجلة المكتشف الايطالية بمناسبة اخفاق البعثة الانجليزية التبشرية بأنه يرى أن الوسيلة الوحيدة للتنصير فى هذه البلاد هى الاستعمار على نطاق واسع فبهذه الطريقة يمكن التغلب على الاسلام ، وضرب دين محمد ضربة قاضية ، كما يرى « كازاتى » الذى احضره « جسى » معه أن العرب فى هذه البلاد لصوص وشحاذون ، وأنه يجب عودتهم الى بلادهم كما يجب الفصل بين السودان الشمالى والسودان الجنوبى ، وقد أكد هذه الدعوى فى مارس عام ١٨٨٣ اليهودى الألمانى الدكتور ادوارد اشنيتزر (أمين باشا) (٢) .

وتوجد هذه الروح العدائية الحادة كذلك عند بيكر ، وملكولم باشا ، وماك كيلوب باشا ، وأرنست دى بلفورن . أما غوردون فقد استهل أعماله « بمعاكسة تيار الاسلام الذى أخذ يتدفق من السودان الى شعوب أواسط

---

(١) تاريخ السودان جـ ٣ ص ١٨٧ ، ٢٤٨ .

(٢) الامبراطورية السودانية للدكتور صبرى ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

افريقيــة واطفــاء شعلة الحضــارة العربية التى تصاحب دائما هذا التيار الاسلامى [1] » .

وهكذا نرى أن محاربة تجار الرقيق كانت ستارا لتشريد بعض الرجال المخلصين كالزبير ورابح ، ولقتل بعضهم كسليمان ، ولاذلال كل العرب حتى لقــد شــاعت كلمة « الكفار » والتصقت بغوردون وعملائه ، ولذا اعتبر الســودانيون أن قتليهم شــهيد ، وأنهم فى جهــاد مقدس ضد هؤلاء الــــكفار [2] .

٣ — تحطيم الاقتصاد :

تحطيم اقتصاديات البلاد بمنع الرق مرة واحدة فى مجتمع يعتمد على الرقيق فى كل شئون حياته ، وفى دفع الضرائب التى لا تنتهى ، وقد حرر غردون بعد التصديق على معاهدة الغاء الرق بين مصر وبريطانيا فى ٤ من أغسطس عام ١٨٧٧ كثيرا من العبيد الذين استغلوا هــذه الحرية المباغتة فصاروا يتركون الأعمال التى كان المجتمع يعتمد عليهم فيها ، دون تعويض مالكيهم [3] . وقد كان الأثر المباشر لسياسة القمع التى اتبعها غوردون اللجوء الى الأماكن المنعزلة واعلان الثورة كثورة سليمان بن الزبير ، وثورة هارون حفيد السلطان محمد الفضل فى دارفور ، وثورة الصباحى فى كردفان مما يؤكد أنه بالتزام سياسة العنف زيادة على ما ارتكب من أخطاء كان يبتغى تحريك الثورة فى السودان ، والتمهيد لسلخه من مصر ، ووضع أموره فى يد انجلترا .

ويتصل بهذا السبب احتكار الحكومة لتجارة العاج التى كانت تعتبر من أهم مصادر الثروة وقد نظم غوردون هذا الاحتكار فاستولت الحكومة على المكاسب الضخمة التى كانت تذهب الى أيدى الأهالى . وقريب من هــذا مساعدة الأوروبيين فى استنزاف ثروات البلاد فقد تاجروا فى العاج فى بادىء الأمر . ثم انصرفوا الى تجارة الرقيق فأصبحت مراكبهم تشق النيل الأبيض

---

(١) المنافسة الدولية ص ٢٤ .
(٢) يقظة السودان للدكتور ابراهيم العدوى ص ٥٠ .
(٣) مصر والسودان للدكتور شكرى ص ٢٩٨ .

فى حرية تحت أعلامهم الغربية ، وصارت لهم زرائب ومحطات لهذا الغرض ، وقد شهد الأوربيون أنفسهم بأن هؤلاء التجار كانوا من « حثالة القوم » .

ومن كل هـذا نرى تكوين جبهة عريضـة من التجار — وهم السادة الحقيقيون للبلاد فى هذا الوقت — ضـد الحكم القائم ، ونرى اقتصـاد السودان نفسه متدهورا (١) .

٤ — موقف مصر من الثورة

ظهرت دعوة المهدى فى مايو عام ١٨٨١ وحازت انتصارين على الحكومة فاستنجد محمد رءوف باشا — وكان رجـلا ضعيفا — بمصر ذلك لأن الحاميات العسكرية كانت ضعيفة فى هذه البلاد المترامية الأطراف ، وكانت تضم بعض الجند غير المنظمين كالباشبوزق (٢) ، وبعض الساخطين لبعدهم عن مصر ، وقد استجاب « شريف باشا » لاستنجاد رءوف باشا فعزم على ارسـال آلاى طرة الى السودان ولكن وزارته سقطت . وما عملته وزارة البارودى أنها استصدرت أمرين فى ٢١/٢/١٨٨٢ بجعل عموم السودان بما فيه شرق السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر ، ومديرية هرر ، وزيلع ، وبربرة ، وتاجورة حكمدارية واحدة ، وانشاء وزارة (نظارة) للسودان ، وبتعيين عبد القادر حلمى حكمدارا عاما وناظرا على أقاليم السودان وملحقاته واستبقته فى القاهرة اذ أنه لم يغادرها الا فى أوائل مايو عام ١٨٨٢ .

وقد بلغ تهاون الوزارة حدا جعلها تنشر فى الوقائع الرسمية بيانا مكذوبا عن مقتل المهدى « وجملة القول — كما يقول الرافعى — ان سياسة وزارة البارودى حيال السودان كانت سـياسة خاطئة ، وكان لها الأثر السىء فى استفحال ثورة المهدى ، ولا غرابة فى ذلك فان البارودى وعرابى وصحبهما كانوا لا يقدرون السودان حق قدره بل كانوا ينظرون اليه كمنفى للمغضوب

(١) مصر والسـودان للدكتـور شـكرى ص ٩٢ — ٩٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، مصر والسودان للرافعى ص ٨٩ .

(٢) تاريخ السودان ج ٣ ص ١٥ ، مصر والسودان للرافعى ص ٩٠ .

عليهم(١) » حتى ان عرابى حينما أراد أن يعاقب الضباط الشراكسة المتهمين بالائتمار فى ابريل عام ١٨٨٢ أرسلهم الى السودان (٢) .

ونحن وان كنا لا ننكر خطأ السياسة التى اتبعت الا أننا لا نوافق على أن العرابيين كانوا لا يقدرون السودان حق قدره ، فلا يعتبر ارسال الشراكسة الى هناك أن السودان منفى لأن المقصود كان ابعادهم عن المجال الحيوى الذى يمكنهم التأثير فيه .

وقد دلتنا الأحداث على أن العرابيين كانوا يعرفون للسودان قدره فقد فكروا فى التحالف مع المهديين وعرب برقة لاقامة جبهة موحدة ضد التدخل البريطانى فى مصر . كما لم يخف عرابى وهو فى المنفى تأييده وميله للمهدى ، واعلانه أنه كان ينوى اقامته حاكما على السودان (٣) .

٥ — فرصة سانحة

وجدت انجلترا الفرصة سانحة لوضع سياسة بعيدة الأجل ترمى الى فتحها السودان بأيد مصرية . فما كادت تضع أقدامها فى مصر حتى عملت على اضعاف هيبة الحكومة ، والغاء جيشها الوطنى لتزداد الفوضى فى السودان حتى ان عبد القادر حلمى باشا حينما حقق انتصارات على الثورة فى السودان كادت له وعملت على اقصائه . ثم أخيرا أكرهت مصر على اخلاء السودان (٤) .

ثم وضعت خطتها على أن تستفيد من تصفية الثورة فى مصر ، والثورة فى السودان .

---

(١) الثورة العرابية ص ٢١٤ ، ٢١٧ .

(٢) مصر والسودان للرافعى ص ٩٠ .

(٣) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان للدكتور جلال يحيى ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) مصر والسودان للرافعى ص ٩١ .

الامام المهدى

وجدت العناصر العربية المغلوبة على أمرها فى حركة المهدى متنفسا طبيعيا عن غضبها وقلقها ، ومن هنا ناصرته ، ووقفت من دونه ، واعتبرته مخلصا حقيقيا للبلاد من محنتها ، وقد أثبت المهدى أنه شخصية قيادية له فلسفته الخاصة التى تتفق وروح المجتمع فى هذا الوقت .

وقد اختلفت الروايات فى مولده فذكر نعوم شقير أنه ولد فى جزيرة ضرار من أعمال دنقلة عام ١٨٣٤ أو حواليها (١) ، وذكر ابراهيم فوزى أنه ولد فى عام ١٨٣٤ بجزيرة الخناق ، وفى قول يؤيده السيد عبد الرحمن المهدى أنه ولد فى الأسبوع الثانى من شهر أغسطس عام ١٨٤٤ (٢) كما ذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى أنه ولد فى ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤ جنوب مدينة دنقلة (٣) .

أما قبيلته فمن العرب المتنوبه وهـذه سلسلة النسب التى ذكرها عن نفسه « محمد المهدى بن عبد الله بن فحل بن عبد المولى بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف بن على بن أحمد بن على بن حسب النبى بن صبر بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أبى العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكرى بن علوان بن عبد الباقى بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الامام على بن أبى طالب (٤) » .

وكان أبوه نجارا ماهرا فى بناء المراكب والسواقى ، ولكن الحال ضاقت به فى موطنه الأصلى فرحل بعائلته الى الخرطوم فى الوقت الذى كان فيه « محمد أحمد » طفلا وقد اشتغل اخوته الثلاثة بصنعة والدهم أما

---

(١) تاريخ السودان جـ ٣ ص ١١٤ .
(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٦ ، تاريخ مصر والسودان للرافعى ص ٩٢ .
(٣) مصر والسودان ص ٢٩٠ .
(٤) معالم تاريخ سودان وادى النيل ١٩٦ ، تاريخ السودان لنعوم ص ١٤ .

الفقه والتوحيد والتصوف والنحو على عدد من أعلام عصره « واشتهر بين أقرانه منذ الصغر بالتعبد والتقوى بل بالترفض والتزهد حتى قيل انه كان يمتنع عن أكل زاد أستاذه محمـــد الخير لأنه كان يجرى عليه من الحـــكومة لقوله انه مال الظلم فكان اذا لم يأته الزاد من أهله اصطاد السمك وتقوب به (۱) » .

وقد مالت نفسه الى التعمق فى التصوف فسعى الى الشيخ محمـــد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية عام ١٨٦١ طالبا منه أن يسلكه فى عداد « حيرانه » تلاميذه . فأجابه الشيخ الى ما أراد وبدأ يعد نفسه اعدادا خاصا فانقطع للصلاة والعبادة ، وبعد عن مظاهر الحياة . كل هذا فى تقشف وزهد وخدمة للشيخ حتى انه كان يبكى كلما وقف للصلاة . فاستحق بهذا تقدير أستاذه فجعله شيخا ، وأعطاه راية ، وأذن له فى اعطاء « العهود » ونشر الطريقة .

وبهذا شق طريقه الى الخرطوم ، وتزوج بابنة عم له ، وأخذ يدعو الى طريقته ، وفى عام ١٨٧١ ذهب مع اخوته الى جزيرة « أبا » لصلاحية أشجارها لصنع المراكب ، وهناك بنى جامعا ومدرسة فأقبل عليه السكان وبخاصة دغيم وكنانة فسلكهم فى طريقته كما تبعه ناس كثيرون ، وكان دائم الزيارة لشيخه محمد شريف حتى لقد زين له الاقامة فى « العراديب » بالقرب منه ، واستجاب الشيخ فعلا الى طلبه ، ولكن سرعان ما تغاضبا فى عام ١٨٧٨ فقد ذكر الشيخ محمد شريف بأن محمد أحمد أسر اليه بأنه المهدى المنتظر فزجره أكثر من مرة ولمـــا لم ينتصح عقد له مجلسا من سادة البلاد ليبعد هذه الفكرة عنه ، ونصح لقائمقام « الكوة » بالقبض عليه ولكنه عارضه بأنه رجل صالح . بينما يذكر المهديون أن سبب الخلاف بينهما كان انصراف الناس عن الشيخ محمد شريف الى محمد أحمد ، وأن محمد أحمـــد قد أخذ على شيخه أنه أقام فى حفل ختان ابنه حفلا يتضمن الرقص والموسيقى ، وأن علاقته بالنساء لم تكن فوق الشبهات .

---

(۱) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١١٥ .

وما كاد الشيخ محمد القرشى أحد مشايخ السمانية يعلم بهذا الخلاف حتى قربه اليه (١) .

والمؤكد أن الخلاف بين الشيخ محمد شريف وبينه كان بسبب هذه الدعوة . فقد كان بينهما حب كبير لا يمكن أن يزلزل الا بأمر كبير كهذا الأمر ، وقد سجل هذا الشيخ محمد شريف فى قصيدته التى يقول فى مطلعها .

لقد جاء فى عام زع لموضع على جبل السلطان فى شاطىء البحر

كما استعدى عليه كما ذكرنا قائمقام « الكوة » (٢) وأبلغ بأمره رءوف باشا . ومهما يكن من شىء فقد أقبل محمد أحمد على العبادة ، وشق لنفسه غارا تحت الأرض للتعبد . فأقبل عليه الناس وبخاصة المسافرون فى النيل يلتمسون البركة ، ويقدمون الهدايا التى كان يوزعها بدوره على الفقراء ، ومازال فى هذه الحال حتى توفى الشيخ القرشى عام ١٨٨٠ فنراه يخرج مع تلاميذه الى الحلاوين ، ويأمر ببناء قبة فوق قبره ، ويصير وارثا لمشيخته . ثم نرى دعوته الى المهدية تأخذ شكلها العلنى فى البلاد التى أخذ يطوف بها ، وان كان الخليفة عبد الله التعايشى يؤكد أن طوافه لم يكن من أجل بث الدعوة فقط ، وانما لاكتشاف جغرافية البلاد من حوله ، ودراسة مواقعها استعدادا لمواجهة الحكومة (٣) .

ثم بدأ يكاتب بدعوته الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق والقبائل وقد جاء فى أحد كتبه « ... وأخبرنى سيد الوجود (صلعم) بذاته الكريمة ، وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدنى الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا ، وكذلك المؤمنون من الجن فى ساحة الحرب يحضر معهم أمام جيشى سيد

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١١٥ ، ١١٦ ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١١٦ ، ١٢٧ ، مصر والسودان للرافعى ص ٩٢ .

(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٢١ .

الوجود (صلعم) بذاته الكريمة ، وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأعطانى سيف النصر من حضرته (صلعم) وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ولو كان الثقلين الانس والجن ثم اخبرنى سيد الوجود (صلعم) بأن الله جعل لك على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى ، وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوته الا خزاه الله . ثم قال لى صلى الله عليه وسلم انك مخلوق من نور عنان قلبى فمن له سعادة صدق بأنى المهدى المنتظر (١) » .

كما راسل السيد « محمد المهدى السنوسى » بشأن قبول دعوته وليشغل كرسى عثمان بن عفان وطلب منه الحضور الى السودان أو القيام فى جهته والغارة على مصر ، وكذلك راسل السلطان « رابح فضل الله » يطالبه بالعودة الى السودان (٢) .

وقد وقعت بعض هذه المناشير فى يد رءوف باشا وكان الشيخ محمد شريف قد حذره من قبل ، ولكنه حمل كلامه على ما بينهما من كراهية وكتب الى محمد أحمد يستفسره فى هذا فقد كان يعتقد الى هذا الوقت ان هذه المناشير ربما كانت دخيلة عليه . فرد عليه بأن المناشير منه « .. وليكن من المعلوم أنه أتانى من الحضرتين النبوة وحضرة الأقطاب سيف ، وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد . ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله أما بالخسف وأما بالغرق (٣) » .

فجمع رءوف باشا العلماء وأطلعهم على منشوراته وكتابه ، واستقر رأيهم على وجوب القبض عليه فأرسل اليه « محمد بك أبو السعود »

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٢٢ .
(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٢٠٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٧ .

فتوجه الى « أبا » وتحادث مع المهدى فأغلظ له المهدى القول فرجع الى الخرطوم وقص ما شاهده على رءوف باشا ، فأرسل اليه حملة مكونة من مائتى جندى على رأسهم « أبو السعود » ، ولكن الدراويش سحقوهم فعاد أبو السعود الذى كان لم يغادر الباخرة مع الباقين من جنـده يجر أذيال الهزيمة ، وقد سميت هذه الموقعة بموقعة « أبا » وبدأ الناس يتحدثون بها متشفين من الحكومة .

ثم هاجر المهدى الى جبل قدير ، وعلى الطريق الذى شقه كانت الوفود تلاحقه وتنضم اليه ، وعند ما وصلوا الى جبال « تقلى » رحب بهم الملك « آدم أم دبالو » وأدخلهم فى حمـايته ، وتغلب على الملك المختـار فى ١٨٨١/١٠/٢٤ وتعتبر هذه الهجـرة نقطة من خطة عامة دبرها المهدى لاحكام خططه الحربية ، ولتأكيد نظام المهدوية . فقد قال لأصحابه « ان سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أمرنا بالهجرة الى جبل ماسة بلصق جبل قدير » ولم يكن هناك جبل بهذا الاسم ولكنه أطلقه على حجر ضخم بجانب الجبل ، فمن الأحاديث المختلفة أن المهـدى المنتظر تكون هجرته الى جبل ماسة .

وقد كان من رأى سعيد باشا مدير كردفان مطاردة المهدى قبل فوات الفرصة ، وكان رأى رءوف باشا التوجه الى « أبا » للتحقق من فراغ الجزيرة ، ولجمع المعلومات عن الواقعة السابقة ، وفعلا ذهب سعيد باشا الى المهدى فى « أبا » ولما لم يجده استأذن رءوف باشا فى اللحاق به ، وقد تمكن المهدى من الوصول الى جبل قدير فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٨١ بعد أن رحب به الملك ناصر ملك الجبل ، وسرعان ما بنى مسجدا ، وأقيمت منازل فى هذه المنطقة بعد هذه الرحلة الشاقة التى وقع بسببها الكثيرون صرعى الحمى والارهاق .

وما كاد يستقر حتى عزم راشد بك مدير فاشودة على مهاجمته فكتب الى رءوف باشا يستأذنه فى ذلك فلم يوافق ، لكن هذا العزم قوى فى نفس

راشد بعد أن تواترت اليه الأخبار بأن المهدى يعانى ضيقا شديدا فى تدبير حياته ، وأن الحمى قد تغلغلت فى رجاله ، وازاء هـذا ذهب راشـد بك ليهاجمه بدون استئذان على رأس ٤٠٠ من رجاله ، وألف من الشلك ، وقد حاول مباغتة المهدى ، ولكن امرأة كنانية تسمى رابحة رأت هذا التدبير فأسرعت حتى وصلت الى المهـدى فى الثلث الأخير من الليل . فاحتشد له المهدى فى رجاله وكانوا قدبلغوا ٨٠٠٠ رجـل ، وخرج بهم الى غابة قرب جبل قدير ، وقد كان موفقا فى هذا العمل فهذه الغابة هى الطريق الوحيدة الى جبل قدير ، وهناك رغبهم على الحرب باسم الجهاد والجنة التى أعدت للمستشهدين ، وانتظر حتى دخل جيش راشد بك وكان ذلك فى يوم الجمعة ٩ ديسمبر عام ١٨٨١ ، ثم أمر رجاله بالهجوم عليهم ورغم ان النار كانت تحصدهم الا أنهم كانوا فى موقف أمنع ومعبئين بشحنة روحية ضخمة ، فدخلوا بين النار بسيوفهم ، واستطاعوا أن يكسبوا المعركة ويقتلوا راشد بك ، ويغتنموا الكثير من المال والأسلحة والذخائر والزاد (١) .

وقد انتشر خبر واقعة راشد هذه فى كل السودان ، وانطلقت الأساطير تشيع بأن المهدى يحارب بسيف القدرة ، ويحول رصاص أعدائه الى ماء ، وأن النار كانت تخرج من سيوف المهديين وحرابهم ثم تحرق الأعـداء ، وروى بعضهم « أنهم رأوا بأعينهم اسم المهدى مكتوبا على ورق الشجر وبيض الطيور فى البرية (٢) » .

ولذا نرى النـاس يتدفقون اليه استجابة لوفوده التى أرسلها الى البلاد ، ولاعتباره المخلص فى نظرهم .

وقد كان لهذه الموقعة وقع سيىء على المسئولين فى مصر ، فعزل رءوف باشا ، وعين عبد القادر حلمى باشا (١٨٨٢ — ١٨٨٣) كما عـين جيكلر

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٣١ ، مصر والسودان للرافعى ص ٩٦ .
(٢) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ١٣٢ .

باشا وكيلا له ، ولكن عبد القادر حلمى لم يصل مباشرة الى السودان فقد كانت الثورة العرابية فى مصر تشغل الأذهان . لذلك نرى جيكلر باشا يطلب — فى ضوء مارآه فى السودان — السماح له بمقابلة المهدى فى قدير فأذن له ، وعقد ليوسف باشا الشلالى على الحملة التى ستقابل المهدى . وقد بدأ المناوشة بأن طلب من المهدى التسليم ، ولكن المهدى رد عليه فى جرأة ، واستخفاف . ثم نزل بجيشه الذى سرعان ما انهمك فى بناء الاستحكامات ، وقد خرج المهدى من منزله فى ٢٩ من مايو عام ١٨٨٢ ، ووصل الاستحكامات عند الفجر فصلى بجيشه ، وحرضه على القتال ، وعلمه كلمات يقولها عند الهجوم . وكان جيش الشلالى فى هـــذه الفترة قد آوى الى النوم بعـــد أن انهمك طول الليل فى اقامة الاستحكامات ، وكانت فرصة سانحة للمهدى مما جعله يكسب المعركة ويقتل الشلالى باشا .

وقد وقعت هذه الموقعة فى أول عهد عبد القادر باشا ولكنه لم يكن مسئولا عنها لأنها جهزت قبل مجيئه ، ويقـــال انه عارض وهو فى مصر تسييرها (١) .

كما وقعت قبل وصوله كذلك حركة « عامر المكاشف » الذى دعا باسم المهدى فى جزيرة سنار وتلك الحركة التى كانت موجهة ضد الحكوميين من الشريف أحمد طه ، ومحمد زين ، ولكنه وصل الى الخرطوم فى ١١ من مايو عام ١٨٨٢ فعمل على تحصين المدينة ، وأخمد الثورة فى سنار .

ثم قام بالثورة فى كردفان « المكى ود ابراهيم » باسم المهدى فقد هاجر اليه ثم رجع من عنده أميرا على قومه ، ولم يقف الأمر عنده بل تعداه الى أكثر من واحد ، وقد دفعت هذه الانتصارات والهجرات المتوالية المهدى الى عملية الغـــزو ، وبدأ بالأبيض ، وقد شجعه من أهلها بعض أنصاره كالياس باشا أم برير الذى كان مديرا لها من قبـــل ثم غضبت عليه الحكومة . .

---

(١) مصر والسودان للرافعى ص ٩٦ ، تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٣٣ .

فلما كان اليوم الثامن والعشرون من يوليو عام ١٨٨٢ سار فى نحو عشرين ألف مقاتل من أتباعه قائلا لهم : « ان سيد الوجود أمرنى بالتوجه إلى كردفان فان الترك فيها آذوا المسلمين وضيقوا عليهم . ولما وصل الى هناك وجه محمد المغربى ، وودجلى الزياد أبى بكتابين واحد الى سعيد باشا ورجال الجيش ، والثانى الى سكان المدينة وقد أبدى الكثير من الأهالى الميل الى المهدى ، وبدأوا يتوافدون عليه حتى لم يبق فى المدينة من الأهالى غير عدد قليل يقارب ربعمائة ، وغير المرسلين النمساويين ، ورأس رسولى المهدى .

فلما كان اليوم الثامن من سبتمبر عام ١٨٨٢ صلى المهدى بجيشه ثم قال « ان أبواب الجنة مفتوحة للشهداء فاذا استشهد أحدكم فى هذا الجهاد تأتيه الحور العين من الجنة بجامعات من الفضة والذهب وتسقيه أطيب الشراب وتحمله الى حيث أعد له ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر فى بال انسان (١) » .

ثم سار فى نحو خمسين ألف مقاتل فى جرأة وعزم ، ولكن سعيد باشا تمكن من هزيمتهم حتى لقد قدرت خسارتهم بعشرة آلاف مقاتل الى اثنى عشر ألفا ، وقد كاد المهدى أن ييأس حتى لقد أشار اليه خليفته التعايشى بالعودة الى « قدير » ، ولكن الياس باشا ثبته ، ودله على حصار الأبيض . فعاد المهدى يقول لأصحابه « أمرنى سيد الوجود بمحاصرة مدينة الأبيض الى أن يسلم أهلها أو يهلكوا جوعا (٢) » ، وقد تسلم فى أثناء الحصار حامية « الدلن » فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، كما تسلم « بارة » فى ٥ يناير عام ١٨٨٣ ، ومهما يكن من شيء فقد أحكم الحصار على الأبيض حتى اضطر العساكر الى أكل الخيل والحمير والكلاب والفيران والأحذية ، ووقع الكثير منهم صرعى الجوع والمرض ، ولقد كانوا مصممين على الدفاع

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ١٥٥ — ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٩ .

ولكن فت فى عضدهم تسليم « بارة » واهلاك حملة الانقاذ ، وابلاغهم أن الثورة فى سنار قائمـــة ، وأن الثورة العرابية قد قامت بدور كبير فى مصر . ولذا نراهم يسلمون ، وقد أثر هذا فى نفوس الأهالى فى السودان فهرعوا الى المهدى مبايعين ، وكان من أشهر هؤلاء « عثمان دقنة » .

وفى هذه الفترة (١٤ سبتمبر ١٨٨٢) كان الانجليز قد احتلوا مصر . فعملوا على التخلص من القائد القوى عبـد القادر باشــا ، وعملوا على التخلص من فلول العرابيين بارسالهم الى المعركة (١) كما عملوا على ارسال علاء باشا وحصره فى الادارة المدنيــة . أما الادارة العســكرية فتولاها سليمان نيازى باشا قومندانا عاما والذى كان لا يملك من الأمر شيئا لأن الخديوى قد أعطاه أمرا سريا بالموافقة على كل خطط « هكس باشــا » الذى كان رئيسا لأركان حربه ، ولقد جاء فى تقرير أحمد حمدى عن هكس أنه كان « شخصية غير مرغوب فيها » من المصريين والســـودانيين على السواء (٢) ، ولقد كان فى الوقت نفسه على خلاف مستحكم مع علاء باشا مما أدى الى اضعافهما فى حملة كردفان . فقد سار هكس بالجيش حتى دخل واديا مفتوحا بين غابات كثيفة ، وهناك تمكن الأنصــار من ابادته ، وقد كتب المهدى بهذا الى عثمان دقنة فى ٩ يناير عام ١٨٨٤ « ومن خصوص الجردة المصرية التى بلغكم أنها حضرت الينا من طريق الخـرطوم وصلتنا وحصل الظفر عليها بأمر الله تعالى وقتلناها عن آخرها شر قتلة بما فيها من الرءوس الكبار أحدهم علاء الدين الحكمدار والثــانى هكس النصرانى والثالث حسن وغيرهم من الضباط والآن جميع مدافعهم وأسلحتهم بيدنا وهى شىء كثير جدا وكان هلاك المذكورين فى يوم الاثنين ٤ محرم ســنة ١٣٠١ هـ بجهة علوية (شيكان) وعددهم كما قيل ستة وثلاثون ألفــا

(١) مصر والسودان للرافعى ١٥٦ وما بعدها .

(٢) الثورة المهدية للدكتور جلال يحيى ص ٧٥ ، ٦٩ .

فانقرضوا فى أقل من ســاعة واشتعلت النيران فى أجســامهم بأمر الله السماوى (١) » .

وتعتبر هذه الموقعة معلما بارزا فى حياة المهدية فقـد امتنع جنــود « سلاطين بك » الذين كانوا يعسكرون فى دارفور عن مواصلة الحــرب ضد المهدية ، واستسلمت المدينة للمهدية فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٨٣ ، كما أعلن الخضوع « لبتون بك » الذى كان قائدا لحامية بحر الغزال ، وأقبل كثير من الرؤساء السودانيين على المهدى (٢) .

وهكذا آمن الكثيرون بالرجل ، وانتشر أمره فى العالم الاســلامى ، وقدمت اليه الوفود من الحجاز ، والهنــد ، وتونس ، ومراكش . كما أصبح مركزا ضخما من مراكز المقاومة العربية فى الوقت الذى أصبح فيه الحكم التركى فى السودان شيئا يحمل على السخرية ، وقد تأكد هذا بعد أن أرسل السرايا الى دارفور ، وبحر الغــزال ، وبربر ، ودنقلة وغيرها لاخضاع الحاميات المصرية ، واستعداده المتواصل لحصار الخرطوم (٣) .

وفى الوقت الذى قوبلت فيه هزيمة الجيش فى شيكان بحزن بالغ فى مصر قوبل هذا الأمر بالغبطــة فى انجلترا . لأنهــا كانت قد دبرت حملة « هكس » وهى عالمة بمصيرها المتوقع لتتخذ من هذا المصير سببا لاخلاء السودان ، وسرعان ما قابل اللورد كرومر توفيق باشا وأبلغه تعليمــات حكومته التى تنصح باخلاء السودان فقد كانت النية مدبرة لاحتــلال وتثبيت أقدامها فيه باسم مصر .

وبينما أبدى توفيق موافقة على الاخلاء وقف شريف باشا فى عنــاد وحب لبلاده ، ولمــا لم يجد سميعا ذكر فى استقالته « ولا يخفى أن هذه المقترحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصــادرة فى ٢٨ أغسطس

---

(١) النداء فى دفع الافتراء ص ١٤٦ ، وتاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٨٠ وما بعدها .

(٢) الثورة المهدية ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

١٨٧٨ التى نص فيها على أن الخديوى يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار . فبناء على ذلك نضطر هنا الى أن نطلب من مقــــامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شـــورية (١) » .

ومن بعد شريف عرضت الوزارة على رياض فرفض ، وقبل نوبار ، ووكلت مهمة الاخلاء الى غودون مع أنه لم يكن يرى من قبـــل اخلاءه . وكانت خطته تتلخص فى التمهيد لانجلترا فى هذه البلاد ، والقضــاء على سمعة مصر ، وبدأ باستمالة المهدى مما يدل على أنه كان يتجاهل ما حدث فى البلاد فسماه أميرا على كردفان — بعد أن أصبح بحق صاحب الكلمة الأولى هناك ، وأرسل اليه هدية سرعان ما أعيدت اليــه أخرى ، وكانت مكونة مما يلبسه الدراويش ، مع رسالة بالدعوة الى أتباعه ، ولذا نرى غوردون يستعد من جديد للدفاع فجند الكثيرين ، وقوى الاستحكامات وحصن الوابورات . بينما نرى دعوة المهدى آخذة فى المد ، ونراه يجعل من « أبو قرجة » أميرا عاما على محاصرى الخرطوم ويستعد لمحاصرتها ، واســقاطها .

وقد وجهت فى هذه الأثناء حملة تحت ضغط الرأى العــام البريطانى الأوروبى لانقاذ غوردون ، والكولونيل استيوارت بقيادة اللورد ولسلى ، وقد هزمت فى طريقها الأنصار فى أبى طليح . ثم اتصلت برسل غــوردون وعرفت منهم خطورة الحال . فلو أبحرت الحملة الى الخرطوم مبـــاشرة بمجرد وصولها « المتمة » لمــا سقطت الخرطوم ، ولكنها تلكأت هنــاك خمسة أيام بناء على خطة سابقة لتجد من مقتل غوردون سببا مبـــاشرا للتدخل فى السودان . ثم رجعت الحملة بعد قرار بريطانيا بالعــدول عن الزحف بعد مقتل غوردون (٢) كأن أرواح المصريين وأموالهــم هنــاك لا تستحق شرف الدفاع عنها .

---

(١) مصر والسودان للرافعى ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) مصر والسودان للرافعى ص ١٢٣ وما بعدها .

وبسقوط الخرطوم أصبحت البلاد ما سلم منها وما لم يسلم فى حكم التابعة له ، وقد أسكره النصر فوجه الى أهل مصر منشورا يخبرهم فيه بعزمه على غزو مصر ، ويدعوهم الى نصرته . كما كتب الى الخديوى كتابا كله اعتزاز وثقة وسخرية منه لتسليم « أمر أمة محمد (صلعم) لأعداء الله الانكليز » ، ودعاه الى الدخول فى مهديته « .. ونكون الجميع يدا واحدة على اقامة الدين واخراج أعداء الله من بلاد المسلمين وقتل دابرهم واستئصالهم من عند آخرهم ان لم ينيبوا الى الله ويسلموا . وقد حررت اليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا على هدايتك فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك فى الدارين وهأنا قادم على جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالى فان أمر السودان قد انتهى فان بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية والانابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك (١) » .

كما أرسل الحاج عبد الله الكحال من الرهد عاملا على الشام ، ويظهر أن بعض المراكشيين المقيمين فى مصر قد كتبوا اليه مصدقين ، وسائلين تسمية أحدهم السيد محمد الغالى أميرا على مراكش للقيام بنشر الدعوة هناك . فقد أرسل اليهم خطابا بهذا المعنى فى ١٠ من مايو عام ١٨٨٥ ، وكتب فى نفس التاريخ كتابا خاصا بعمالة السيد محمد غالى على فاس ، وكتابا الى الطيب البنانى بالامارة ضمن عمالته ، وكتابا الى حاكم فاس للانضمام الى عامله ، وقد ذكرنا من قبل أنه كتب الى الأمير السنوسى محرضا له على مصر ، وذاكرا أنه يحتفظ له بكرسى عثمان بن عفان (٢) .

من كل ما تقدم نعرف أن المهدى كان على ثقافة عسكرية ممتازة . فكان يعرف كيف يهجم وكيف يناوش ، وكيف ينسحب ، وساعدته عقليته الحربية هذه على أن يصبح صاحب الكلمة الأولى فى البلاد .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

٤ — وهكذا نرى أن من أهم نتائج الثورة المهدية قيام دولة عربيــة اسلامية تقوم على تعاليم الدين ، وعلى فكرة المهدية . فقد اعتبـر فكرة المهدية أصلا من أصول الدين كما فى رسائله ومن هذه الرسائل رســالته الى يوسف باشا الشلالى « .. وقولكم انا قتلنا جملة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلما وعدوانا باطل لأنا ما قتلنا الا أهل الجردة بعد أن كذبونا وحاربونا وقد أخبرنا النبى (صلعم) وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم وبعد ذلك لما انقاد باقيهم لحكمنا رجعنا لهم جميع أمتعتهم التى بأيدى أصحابنا رفقا بهم مع أنها حلال لنا .. على أن النبى (صلعم) أمرنا صريحا بقتــــال الترك وأخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا وارادتهم لاطفــاء نور الله تعالى الذى أراد به اظهــــار عــدله (١) » .

وقد تشبه المهدى بالرسول فى كل أعماله ، وحاول أن يدير حكومته على منوال ادارة الرسول لحكومته فقبل خروجه الى الهجرة من « أبا » جعل خلفاءه بعدد خلفاء الرسول فجعل عبد الله التعايشى فى مكان أبى بكر ، وعلى ودحلو من عرب دغيم مكان عمر بن الخطاب ، ومحمــــد السنوسى (٢) مكان عثمان ، وابن عمه محمد شريف مكان على ، وجعــل لكل خليفة وكيلا على رايته ، ودونه أمراء ، ومقاديم ، ولكل أمــير راية خاصة غير راية الخليفة .

وكان مما يكتب على الرايات فى السطر الأول « بسم الله الرحمن الرحيم » وفى السطر الثانى « لا اله الا الله محمد رسول الله » وفى الثالث « محمد المهــدى خليفة رسول الله » وفى الرابع « يا حى يا قيوم ياذا الجـــلال والاكرام » أو كان يكتب على التوالى فى أربعة أسطر .

---

(١) تاريخ السودان ص ١٣٤ .

(٢) لم يقبل هذه المهدية .

« يا الله يا رحمن يا رحيم يا حى يا قيوم » .

« يا ذا الجلال والاكرام » .

« لا اله الا الله محمد رسول الله » .

« محمد المهدى خليفة رسول الله » .

وضربت بعض نقوده باسم « لا اله الا الله محمد رسول الله محمد المهدى عبد الله (١) » .

وقد سمى ذهابه الى جبل قدير بالهجرة تشبها بهجرة الرسول ، واتخذ له غارا يتعبد فيه (٢) ، واتخذ له بيعة معروفة ، وسمى أصحابه الأنصار ، وجمع الزكاة والعشور ، وحذر من الغلول فى الغنائم ، « وان من أخذ ابرة من الغنائم تقع يوم القيامة فى قعر بحر من نار ويؤمر بأن يغوص فى البحر ليخرجها (٣) » .

ومات عن أربع من الزوجات سمين بأمهات المؤمنين (٤) .

هذا هو المظهر الخارجى لدعوته الدينية . أما المظهر الداخلى فكان يقوم على تبسيط المظاهر الدينية بما يتفق وعقلية المسلم العادى فقد حجب اختلاف المذاهب ، والنحل ، والفرعيات والشروح الجوهر الفطرى للدين . ذلك لأن الدين ليس قاصرا على العلماء المناطقة وانما هو شىء ملك للجميع وفى متناول الجميع أما هذه المباحث المنطقة فشىء قشرى لا قيمة له ، وهو فى هذا يعبر بصدق عن عقلية المواطن السودانى البسيطة المتخففة كالحياة من حوله .

على أن الأمر لا يقف عند العلماء وانما يتعداه الى المتصوفة أيضا فقد

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠ ، ١٣١ .
(٣) المصدر نفسه ٢٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٦٣ .

كانت الطرق مختلفة ومتعددة ولكل منها آراء لا تتفق والآراء الأخرى ، وكل واحدة ترمى الثانية بالخروج عن الدين (1) .

وقد رفع المذاهب الأربعة وتفرد بمذهب اجتهادى خاص به وحد فيه المذاهب بتسوية ما بين بعضها من الخلاف والغاء البعض الآخر وفرضه على أتباعه مدعيا أنه هو الوساطة بينهم وبين نبى الاسلام فى تبليغ الأحكام الاسلامية ، وأن فعله كفعل النبى ففرض عليهم أن يتوضؤا كما رأوه يتوضأ ، ويصلوا كما رأوه يصلى ، وهكذا فى جميع العادات والعبادات من غير نظر لما تدون بالمذاهب الأربعة المذكورة ، وقد أحرق كل كتب السنة والتفسير وأحرق معها جميع الكتب الدينية والعلمية حتى لم يبق فى السودان من الكتب الا القرآن ومناشيره ورواتبه (2) » .

وقد شكك الدكتور مكى شبيكه فى أنه هو الذى أمر باحراقها ، ولعل ما يؤيد هذا أنه عثر فى مكتبته على روح البيان ، وكثير من كتب التفسير ، وكتب الشعرانى ، وابن عطاء الله ، وأنه كان يقرأ بعض هذه الكتب على أصحابه . كما يدل على مرونته أن الشيخ محمود نور أحمد حين أصر على قراءة الجزولية أقره عليها (3) .

ومهما يكن من شيء فقد ألغى الطرق لأنها كانت تقف دون توحيد المجتمع الدينى الذى يريده حتى لقد أصدر أمرا يلغى فيه لقب دراويش ويستبدله بكلمة الأنصار (4) .

وقد كانت حركة التبسيط هذه حركة موفقة ضد الاقطاع الدينى الذى كان يستغل فيه الفقيه والصوفى الكثير من الناس باسم المغيبات فقد أراد أن يعطى للناس حرية التفكير ، وحرية الاتصال المباشر بالاله . وبهذا

---

(1) تاريخ السودان لنعوم جـ 3 ص 364 .
(2) السودان فى قرن ص 245 ، مجلة نهضة افريقية (العدد 18 مايو 1959) .
(3) تاريخ الثقافة العربية ص 118 .
(4) السودان فى قرن ص 235 ، 236 .

التفكير جعل للدين معناه الحقيقي فى النفوس فقد قرب كلا منهما للآخر ، واستطاع فى ضوء هذه الفكرة أن يجعل للدين المباشر السيادة الحقيقية فى البلاد بعد أن انصرف الكثير من الناس عن تعاليمه وتمسكوا بقشـــور لا تمس جوهره المشع ، فقد وصل الجهل بالناس حدا جعل المهدى يسمع وهو بالأبيض زواج رجل برجل . كما سمع الكثـير عن حال البـــلاد الاسلامية التى عطل فيها الحكم بالدين بحيث أصبح قائما على العـرف والعادة والقوانين الوضعية (١) ، وقد كان المثل من نفسه قريبـا حين رأى بلاده تعذب على يد « الطبقة الدخيلة التى سميت فى السودان بالكفار » .

٢ — كان من نتائج الثورة المهدية ظهور القومية السودانية ، والتفاف الناس حول المهدى . فقد رأوا فيه رجلا منهم تتمثل فيه كل خصائصهم ، ويقف فى وجه أعدائهم من الأوروبيين ، والأتراك وغيرهم .

ومن هنا التفوا من حوله ، واعتزوا به ، وناصروه ، وقد ساعد على ازدهار هذه القومية السودانية عاملان أولهما الدين . فباســـمه قامت المهدية ، وباسمه تجمع الناس من حولها حتى لقـد قال أحد الأوروبيين المقيمين فى سواكن « ان المهدية أدمجت فى اتحاد عام جميع القبائل العربية التى كانت بطونهـا وأفخاذها المتعددة لاتتحد ولا تأتلف فى أى وقت من الأوقات فهى تؤلف الآن شعبا منتظما (٢) » .

فالناس فى هذه البلاد من أشد الناس تحمسا للدين السليم « وحتى أمس القريب لا يمكن أن تنجح أية حركة لاحـــداث انقـلاب أو تغيير الأوضاع الا اذا كانت حركة دينية أو متشحة ، على الأقل ، بثوب الدين ، وما حديث المهدية عنا ببعيد (٣) » .

ولقد كانت فى البلاد الاسلامية فى هذه الفترة حـــركة للعودة الى

---

(١) السودان فى قرن ص ٢٣٥ — ٢٢٥ .
(٢) الامبراطورية السودانية للدكتور محمد صبرى ص ١٢٢ .
(٣) الحركة الفكرية فى السودان الى أين تتجه لمحمد احمد محجوب ص ١٤ ، ١٥ .

الاسلام الصحيح فقد سمعت أصوات تسير فى نفس الاتجاه كحركة مهدى الصومال محمد عبد الله حسن ، وكحركة السنوسى الذى حاول المهـدى أن يكون منه كما كان عثمان للرسول ، وكحركة محمد عبده وجمال الدين الأفغـانى .

أما العامل الثانى الذى قامت عليه القومية السودانية فكان العصبية القبلية حيث كان لكل قبيلة لواء ، وشاعر ، وقائد ، ورغبة أكيدة فى صنع الأمجاد ، والتغلب على القبائل الأخرى فى حملتهم جميعا على أعداء المهدية وبمرور الزمن أحست القبائل أنها كيان موحد يلتف بصدق واخـلاص حول المهدية ، ولم يكن هذا الالتقاء بين القبائل العربية هو الأول من نوعه لأنه سبق بالتقاء آخر حول أهداف الزعيمين عبد الله جماع ، وعمارة .

على أن هذه القومية السودانية قد انداحت الى دائرة أكبر هى دائرة « القومية الاسلامية » .

وتشهد بهذا رسالته الى الخديوى « .. فعليك أمان الله ورسـوله وأماننا وما بيننا وبينك الا المحبة الخالصة لوجهه تعالى ونكون الجميع يدا واحدة على اقامة الدين واخراج أعداء الله من بلاد المسلمين وقطع دابرهم واستئصالهم من عند آخرهم ان لم ينيبوا الى الله ويسلموا (١) ».

كما تشهد رسله وكتبه وتوليته بعض الولاة فى أكثر من مكان اسلامى

وقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة على المهديين مما يؤيد عمقها فى نفوسهم فقد أرسل الخليفة التعايشى بكتبه التى تنطق بأفكار المهدية الى السلطان عبد الحميد ، وقبائل نجد ، والحجاز ، ووداى ، والى السلطان رابح ، وسلطان سكت ، ثم خطا خطوة أخرى بدعوته الى الاسلام ملك الحبشة ، والملكة فيكتوريا ملكة انجلترا .

كل هذا يدلنا على أن المهدية كانت طموحة الى أبعد حدود الطموح

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ج ٣ ص ٣٥٠ — ٣٥٢ .

وكانت تتحرك بأفكارها فى اطار كبير حدوده المجتمع الاسلامى كله وهدفه خدمة الدين ، والعودة به الى البساطة والى المواطن العادى فليس الدين وقفا على الطبقة العليا من المجتمع ولكنه لكل الناس .

وان كان هذا لم يمنع من تسرب الأخطاء الى فكرته . فالمهدية عندى — ككل الثورات — لم تكن الا ثورة تحررية من أشياء كثيرة داخلية وخارجية ، ولم يكن العصر كما لم تكن البيئة تسمح لها بالخروج على الناس الا فى هذا الثوب الدينى ، ومن خلال التراث الفكرى المتوارث مهما شحنته الأخطاء .

٣ — كان من نتائج الثورة المهدية خلق مجتمع جديد له قيمته وخصائصه . فقد تحول الفلاحون والرعاة الى جنود فى صفوف المهدية . عاملين بمبادئها . غير عابئين بالقتال والأوبئة والمجاعات التى تعرضوا لها .

كما نشأت مدن جديدة ذات طابع حربى كأم درمان ، وقد أمكنها أن تقضى على المدن التجارية المعروفة كبربر والمسلمية . وقد تعرض السودان فى هذه الفترة الى هجرات داخلية وهجرات خارجية . أما الهجرات الأولى فتتمثل فى دخول الكثيرين البلاد من الوسط والغرب . ذلك لأن الاستعمار كان قد بدأ يضغط على هذه المنطقة .

وفى الوقت نفسه كانت الدعوة الجديدة ومكاسبها تغرى الكثيرين على الهجرة لهذه البلاد ، خاصة وأن بلاد السودان تعتبر معبرا الى مكة ، وكان الكثيرون الذين منعتهم ظروف الثورة من الذهاب الى الحج يقيمون فى البلاد ، وكان يقابل هؤلاء الذين يدخلون السودان حبا فى المهدية . هؤلاء الذين كانوا ناقمين عليها وعلى الأخص من كان منهم فى منطقتى حلفا ، ودنقلة ، فقد اضطر الكثيرون من هؤلاء تحت ضغط المهدية الى الهجرة الى مصر بعيدا عن هذه الأرض الثائرة .

ومهما يكن من شىء فقد حدث امتزاج بين القبائل بعضها وبعض فى

مناطق التجمع . وكان من الطبيعى أن يحدث تخلخل سكانى فى كثير من المناطق الزراعية والرعوية .

وظهرت طبقات جديدة فى المجتمع السودانى نتيجة لتغير المثل العليا فيه ، ولدخول نظم جديدة تتصل بالملكية ، والتجريد منها ، وعملية الفىء والغنيمة ، وشخصية الفارس المجدة حتى لقد تفشت فكرة احتقار المهن والصناعات ما عدا تلك الصناعات التى كانت تتصل من قريب أو بعيد بالحرب (١) .

وهكذا قامت فى السودان أمة واحدة ذات مفهوم دينى خاص : أمة ضد القوى الأجنبية بقدر ما هى مخلصة للعروبة والاسلام . فاللغة العربية لم تلق انتشارا فى هذه البلاد مثل الذى لقيته على أيدى المهدية . كما أن الاسلام غطى المجتمع السودانى كله فقد دخل كثير من الجنوبيين ، والمسيحين واليهود الاسلام « ويمكن القول أنه كانت هناك « أسلمة » كاملة للمجتمع وتعريب كبير فيه . فالدين واللغة الى جانب التجارب المشتركة التى تكون تاريخا مشتركا كانت من أسس الأمة السودانية الحديثة (٢) » .

كذلك كان من ضمن نتائج الثورة المهدية « اقتطاع الأطراف السودانية » فانجلترا بعد أن أجبرت مصر على اخلاء السودان أعلنت أن هذا الوطن مشاع لا صاحب له رامية من وراء ذلك الى تمزيقه ، والقضاء على وحدته (٣) .

ففى عام ١٨٧٦ كانت أوروبا لا تملك فى افريقية الا بقاعا صغيرة مستطيلة على بعض نقط الساحل بينما كانت مصر تملك فى هذه البقاع امبراطورية ضخمة ، وقد دخلت انجلترا مع الدول الأوروبية فى مفاوضات لاقتطاع أراضى السودان ففى عام ١٨٨٦ سمحت انجلترا لايطاليا باحتلال

---

(١) محاضرة فى مشكلات المجتمع السودانى للدكتور محيى الدين صابر .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) يقظة السودان للدكتور العدوى ص ٥٥ .

بيلول فى شمال خليج عصب ، وبالاستيلاء على المنطقة الساحلية قرب « مصوع » ولم تقف ايطاليـا عند هذا الحـد لأنها عادت فانتزعت من السودان القسم المعروف باسم أريتريا ، وحددت حدودها مع انجلترا فى ١٥ ابريل عام ١٨٩١ بحيث أصبح الحد الشمالى خطا يبدأ من « رأس قصار » على ساحل البحر الأحمر . ثم يسير فى اتجاه جنوبى غربى نحو عطبرة مخترقا كسلا . وفى هذه المعاهدة سمح للايطاليين بالاستيلاء على كسـلا متى اسـتطاعوا وكانت فى هـذا الوقت واقعة فى يد الخليفة عبد الله (١) .

كما سمحت لمنليك ملك الحبشـة بالاستيلاء على هرر ، ونجح فى الاستيلاء عليها عام ١٨٧٧ بعد أن قتل أميرها المسلم عبد الله ، وما كاد يتم له النصر حتى أرسـل برقيـة الى الحاكم الانجليزى فى عدن جاء فيها « .. اننى بحمد الله فى حالة جيدة . ان عبد الله حاكم هرر كان لا يطيق مسيحيا فى مملكته .. ولكننى بعون الله قد هزمته ، ورفعت رايتى فى عاصمته » وكانت مساحتها تبلغ حوالى ٢٠٢٫٠٠٠ كيلو متر كما كان يبلغ عدد سكانها ١٤٠٠٫٠٠٠(٢). ثم انتزعت انجلترا لنفسها الجهات المطلة على بحيرة فيكتوريا ووضعت فيها نواة لمستعمرة أوغندة ، بحيث تطل منها على مستعمراتها من حولها ، ولتسبق باستعمارها نفوذ فرنسا وألمـانيا بعد أن اتجهت أنظارهما الى أواسط افريقية ، وقد وصلت انجلترا الى عقـد اتفاق مع المـانيا لتحديد مناطق نفوذ كل واحدة ، ولمـا لم تستطع وقف النفوذ الفرنسى أو ارضاءه عقدت مع بلجيكا معاهدة فى ١٢ مايو عام ١٨٩٤ تنص على أن يستولى البلجيكيون على القسم السودانى من مديرية بحر الغزال غرب خط ثلاثين ، وأن يحكم ملك البلجيك حوض بحر الغزال طول حياته . ولمـا تأكدت من أطماع فرنسا عزمت على اعادة الفتح باسم مصر (٣) .

---

(١) الامبراطورية السودانية ص ٢٥٤ — ٢٦٠ .

(٢) يقظة السودان ص ٥٦ ، الوضع القانونى للدكتور زهير جرانة ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) يقظة السودان ص ٥٨ ، ٥٩ .

٤ — ثم بوفاة المهدى فى ٢٢ يونيو عام ١٨٨٥ تولى الخلافة « عبد الله التعايشى » ، اذ سرعان ما دعا قاضى الاسلام أحمد على ، وبعض الأمراء والأعيان ثم عقد مجلسا معهم بعد الدفن قال فيه « أيها الاخوان ان المهدى الآن قد مات ولكن مات النبى من قبله وقام الخلفاء بعده فأتموا عمله ، وقد ترك المهدى خلفاء يتولون الأمر بعده وأنا خليفته الأول فمن أحبه وآمن به فليبايعنى الآن على السبيل الذى خطه لنا لنقتفى أثره وتتم عمله (١) » .

ثم دعا لتجديد عقد البيعة له . ومع أن موت المهدى المفاجىء قد أثر فى اعتقاد الناس بمهديته الا أن الخليفة قد أصر على هذه المهدية . ذلك لأن الناس قد رأوا منه أشياء لا تتفق ومهديته كقتله « عجيل ود الجنقادى الرزيقى » بعد أن أتاه مسلما ، وقتله « المنة اسماعيل » بعد أن نصره فى كردفان ، ومع أن انتصاراته المتوالية قد هدأت الكثير من هذه الشكوك الا أن الناس بعد موته أخذوا يقولون لقد وعد بالصلاة فى مصر ، والشام ، والاستانة ، ومكة ، وان الذئب سيرعى مع الغنم ، وستأمن الناس الآفات ولم يتحقق شىء من هذا . وقد قيل ان الملك « أبو جحل » ملك الرباطاب حين عاد الى بلاده من مبايعة الخليفة عبد الله سأله أهله عن البيعة الجديدة فقال لهم « البيعة أس » أى اسكتوا .

ولما عاد الشيخ أبو خرس من مبايعة الخليفة الى قومه بالمسلمية قال لهم « اشفقوا على أنفسكم أيها الناس ، واستغفروا ربكم عما فرط منكم فانها مصيبة عامة وقد حلت فى السودان وليست من المهدية فى شىء(٢).»

وعلى الرغم من هذه الشكوى قبض الخليفة على الأمر بيد من حديد ، وأخذ يؤكد هذه المهدية تأكيدا حادا فقد جاء فى منشور الوفاة « ان المهدى ليلة وفاته حصلت له « حضرة » ظهر له فيها الشيخ القرشى ومعه

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٤ .

جمع من الأولياء فقال له النبى صلى الله عليه وسلم قد استعجل انتقالك الى الدار الآخرة فاجعل لك وكيلا من خلفائك يقوم بالأمر فقال المهدى أوكلت الخليفة عبد الله (١) » .

وذهب فى كل رسائله يؤكد هذه المهدية ، ومهما يكن من شىء فقد قامت سياسته على ركائز هى :

١ — المحافظة على شعائر المهدية مع علمه بمروق الكثيرين منها اذ لا جامعة لانصاره الا بها ، ولا حجة له فى الملك سواها .

٢ — مراقبة المنكرين حقــه فى الملك والمزاحمين له على السلطة مراقبة دقيقة ، والبطش بهم بالقتل أو النفى .

٣ — حصر المناصب الكبيرة فى التعايشة ، وتفريق كلمة سائر القبائل واذلالهم حتى لا تقوم لهم قائمة .

ثم بدأ يتوسع فى مملكته ففتح كسلا بعد حصار مرير لها وقد تم تسليم الحامية له فى ٢٩ يوليو عام ١٨٨٥ . وسلمت سنار فى ١٩ أغسطس عام ١٨٨٥ ، وأقر الأمور على حدود الحبشة ودارفور وخط الاستواء ، ووجه النجومى الى غزو مصر عام ١٨٨٩ بعد أن كتب الى مشايخ العبابدة ، وبعض أهالى الصعيد للخروج من سيطرة الأتراك ، وكان من أثرها غزوة (طوشكى) الواقعة غربى النيل على نحو ٦٠ ميلا من حلفا ، والتى وقعت فى ٣ أغسطس عام ١٨٨٩ وقتل فيها النجومى وانهزم جيشه ، وبعد هذه المعــركة مدت الحــدود المصرية جنوبا الى سرس فى ١١ أغسطس عام ١٨٨٩ (٢) .

ووجدت انجلترا الفرصة سانحة لاستعادة الفتح .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ص ٣٩٧ .

(٢) تاريخ السودان لنعوم ص ٥٢٤ وما بعدها .

استرداد السودان

١ — التنفيـــذ

كانت انجلترا مصممة على وضع يدها على السودان ، ولكنها كانت لا تتعجل الأحداث ما دام السودان لن يفلت منها . كما كانت ترى عدم البدء فى العمليات الحربية حتى الانتهاء من خط حديد « أوغندة » ،وبذلك يكون التقدم الى السودان من الشمال ومن الجنوب ، وحتى يمكن فى الوقت نفســه تكامل استعداد مصر ماليا وحربيا ، مادامت ستكون مخلب القط بالنسبة لها ، ولكن تحركات فرنســا ودولة الكونغو فى وسط افريقية (أعالى النيل) قد أزعج البريطانيين .

كما أن ازدياد نفوذ الأنصار بحيث وقف عدد كبير منهم يبلغ عشرة آلاف أمام كسلا ، وقيــامهم بهجوم فى ٨ مارس عام ١٨٩٦ ، وقطعهم للمواصلات مما اضطر ايطاليا الى طلب النجدة ، كل ذلك أرهب الانجليز وجعلهم يفكرون بسرعة فى الاستيلاء على السودان . وهل يتم عن طريق سواكن أو طوكر أو وادى حلفا (١) ؟ .

حتى لقــد وجدت الحكومة البريطانية حرجا فى تفسير أسرار هذا التقدم المفاجىء ، وبخاصة أنه قد أذيع فى ١٣ مارس تقرير كرومر السنوى عن عام ١٨٩٥ وليس فيه ما يفيد قيام خطر فى هذه المنطقة حتى انه حين تكلم كيرزون Curzon باشفاق على الايطاليين من الأنصــار لم تقتنع بكلامه المعارضة فسخر لابوشير La Bouchère من منطقه وقال للحكومة : ان السبب الحقيقى لهذا العمل هو الرغبة فى الاستحواذ على السودان ، وهكذا يكون لديها عذر آخر فى البقاء فى مصر ، وأشار السير تشارلس دلك Sir Charls Dilke الى أن التقدم الى دنقلة لا أمل منه فى مساعدة

---

(١) المنافسة الدولية للدكتور على ابراهيم عبده ص ٢١٩ — ٢٢٢ .

الايطاليين فى كسلا ، ولقد شك الايطاليون كذلك فى قيمة هذه المساعدة البريطانية ولكنهم كانوا يعتزون بمحالفتهم لبريطانيا .

ولقد وافق الامبراطور الألمانى على استرداد السودان خوفا من أن توثق انجلترا علاقاتها مع فرنسا أو تنضم الى الاتفاق الثنائى بين فرنسا وروسيا ، ومن جهة أخرى لارضاء حلفائه الايطاليين ولذلك نرى انجلترا تبرر استرداد السودان أمام دول التحالف الثلاثى ألمانيا وايطاليا والنمسا برغبتها فى مساعدة الايطاليين ، وكانت لموافقة ألمانيا قيمة خاصة لأنها كانت عضوا فى ادارة صندوق الدين ، وكانت النمسا تسير فى تيار سياسة ألمانيا . فلما تقدمت انجلترا بطلب تخصيص مبلغ ٥٠٠ر٥٠٠ جنيه من احتياطى صندوق الدين عارضتها فرنسا وروسيا وأيدتهما المحكمة المختلطة بالقاهرة .

ولكن انجلترا تقدمت فى ١ فبراير عام ١٨٩٧ الى الخديوى مطالبة باعطائها قرضا بفائدة ٥ر٢ ٪ فلما احتجت فرنسا وألمانيا استنادا على مرسوم بتاريخ ٢ مايو عام ١٨٧٦ ، وبقانون التصفية بتاريخ ١٧ يوليو عام ١٨٨٠ وكلاهما لا يبيح لمصر التعاقد على أى قرض من غير موافقة سابقة من صندوق الدين ، أجابت الحكومة المصرية بأن لها مع انجلترا حسابا جاريا مما لا يتعارض مع القانون (١) .

ولكن هذه العوائق لم توقف انجلترا فطلبت من مصر اعداد الحملة بقيادة سردار الجيش المصرى اللورد كتشنر ، وقد بلغ الاستهتار بالحكومة حدا وصل الى أن رئيس الوزراء لم يعلم شيئا عن هذه الحملة الا فى مساء اليوم الذى ذهب فيه الى الخديوى ليقول له ان كرومر بلغه أن حكومته قررت ارسال حملة الى السودان ، وفى اليوم التالى أقرت الحكومة ارسال الحملة فى ١٢ مارس عام ١٨٩٦ وكانت حملة منظمة ، فقد أعيد نظام الجيش ،

---

(١) المنافسة الدولية للدكتور على ابراهيم عبده . ص ٢٢٤ — ٢٢٩ ، السودان فى قرن ص ٢٨١ .

وأعد من مدة ليلقى به فى نار هذه المعركة ، كما وضعت على رأسه قيادة انجليزية تسبب عنها أن الشعب لم يتحمس لها أو يتابعها بقلق ، لأنه كان يعلم تماما أنه سيحقق انتصارا على اخوان له ، وأن ثمرة هذا الانتصار ستكون للانجليز .

وهكذا سار الجيش الى السودان ، وأسس نقطا عسكرية بين عكاشة وبين حلفا ، وأخذ يعمل على مد خط السكة الحديدية — وقد روعى أن يكون اتساعه أقل من اتساع الخطوط الحديدية بمصر . وفى ٢٩ مارس وصل السردار الى حلفا وأعد العدة للقضـــاء على عثمان دقنة فى شرق السودان .

كما تغلبت الحمـــلة فى موقعـــة « فركة » ولكن انتشار « الكوليرا » وتفشى الحمى التيفوسية فى الجيش قد أنهكه ، ومع ذلك فقد انتصر فى واقعة الحفير فى ١٩ سبتمبر عام ١٨٩٦ ، واحتلت دنقلة فى ٢٣ سبتمبر ، والدبة فى ٢٤ ، ومروى فى ٢٦ سبتمبر عام ١٨٩٦ .

وقد كانت مع الجيش المصرى قوة انجليزية تضم ٨٧٠ رجلا ، وبعض المهندسين ، والبحارة ، كما كان فى سواكن « آلاى » من الهند بقيادة الجنرال اجرتن (١) .

ومهما يكن من شيء فبعد الاستيلاء على دنقلة رجعت القوة الانجليزية الى مصر . ثم انهارت بربر ، وأبو حمد دون مقاومة تذكر ، أما واقعة عطبرة فقال عنها نعوم شقير « وقد كا نرصاص الدراويش كعادته عالى المرمى حتى انه اخترق كثيرا من خوذ العساكر ، ولولا ذلك لكان فتكه بالجيش أشد وأعظم حتى لقد قتل منهم فى هـــذه المعركة نحو ثلاثة آلاف قتيل وأسر نحو ألفين (٢) » .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٥٧٦ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٠٥ .

ثم بدأ العمل فى الزحف على الخرطوم فى جيش منظم قوامه المصريون وبعض الانجليز الذين استنجد بهم ، وبعض السودانيين ، بينما كان الخليفة يستعد لدرء هذا الخطر فى أم درمان ، وفى فجر أول سبتمبر عام ١٨٩٨ تدفق الجيش على أم درمان ، وجاوز جبال كررى ، ووقف فى أبى عنجة على بعد ثمانية أميال من أم درمان . ثم تقدم الجيش مرة أخرى وأخذ يدك أم درمان بالقنابل ، وقد أصابت هـذه القنـابل قبة المهدى فجزع الناس .

ولما كان فجـر الجمعة الموافق ٢ سبتمبر عام ١٨٩٨ تقدم الخليفة بجيشه ، واصطدم الجيشان أكثر من مرة ، ولكن قوة الخليفة لم تكن متكافئة مع القوة المهاجمة التى أجبرته على الفرار . ثم تتبعته حتى قتلته فى واقعة « جديد » فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٩٩ .

وبعد واقعة أم درمان بيومين توجه السردار الى الخرطوم ، وأقيمت صـلاة على روح غوردون ورفع على أطلال سراى الحاكم العام العلمان المصرى والانجليزى فغضب الضباط المصريون ولم يقوموا بعمل ايجابى « اذ كان المفهوم أن استرداد السودان كان لحساب مصر ، وبجنودها وأموالها ، وجهودها ، ولكن ولاء وزارة مصطفى باشا فهمى للاحتلال ، واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يمعنون فى الاعتداء على حقوق مصر . فان رفع الراية الانجليزية على الخرطوم كان ايذانا بوضع السودان تحت الحماية البريطانية ، ولم تحرك الوزارة ساكنا أمام هذا الحادث الجلل بل مر كأنه حادث عادى (١) » .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ص ٦٤٥ ، المنافسة الدولية ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

أزمة فاشودة

— ٢ —

لقد وضع مجلس الوزراء الانجليزى فى لندن خطة كاملة لاسترداد السودان . فقرر المجلس فى هذه الجلسة أن يرتفع العلم الانجليزى الى جانب العلم المصرى فى السودان ، وأن كلمة بريطانيا يجب أن تكون الأولى فى السودان ، وأن يتغلغل كتشنر فى النيل الأزرق بقوة صغيرة الى فاشودة ، وألا يعترف لفرنسا والحبشة بحق هناك .

ونفذ كتشنر هـذا الأمر فأسرع بعد سـقوط الخرطوم بقوة الى فاشودة ، وهناك تقابل مع مارشان الفرنسى وتحرج الأمر بينهما ، ولكنه استقر أخيرا على ترك حامية من جنوده هناك ورجـع ليرفع الأمر الى حكومته ، وازداد الموقف بين البلدين تعقيدا حتى لقـد أخطر الرعايا الانجليز فى فرنسا أن يكونوا على استعداد دائم للرحيل (١) .

فقد أرادت فرنسـا بمعاونة الحبشـة تحطيم المشروع الانجليزى الذى يعمل على السيطرة من القاهرة الى الكاب ، واجبـار الانجليز على اعادة بحث المسألة المصرية محاولة ما استطاعت كسب الوقت لاتمام استعدادها البحرى الذى كان دون استعداد انجلترا ، وللعمل على ضم روسيا الى صفها ، ولكنها حين رأت صلابة انجلترا واستعدادها للمجازفة بالحرب تراجعت أمام ساسة الانجليز الذين يذكرون أنهم يعيدون أرضا من أملاك الخديوى ، وهكذا رأوا أنه لا داعى للنزاع مع انجلترا بينمـا هم واقعون تحت تهديد ألمانيا التى تجاورهم (٢) .

أما رأى مصر فتوضحه رسالة بطرس غالى وزير الخارجية المصرية

---

(١) المنافسة الدولية ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، السودان فى قرن ص ٢٩٠ .

(٢) المنافسة ص ٢٨٢ ، السودان فى قرن ص ٢٩٠ .

الى المعتمد البريطاني ففيها « ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغب عن نظرها فى حين من الأحيان العودة الى استئناف احتلال الأقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة ذاتها لمصر ، ومصر لم تنسحب من تلك الأقاليم الا تحت ظروف القوة القاهرة ، وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد لمصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة ، ولعلم الحكومة المصرية ان مسألة فاشودة فى هذا الأوان هى موضوع مفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا . فانها تكل الى أن أطلب من سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى لورد سولسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لاتقبل نزاعا ، ولكى تعاد اليها الأقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد أحمد (١) » .

وقد أزعج المصريين تخلى الفرنسيين عن فاشودة اذ كانوا يحسبون أن فرنسا ستسير الى نهاية الشوط فقوى عزمهم على الاستقلال ، ولكن تخلى فرنسا عن دورها الذى كانت قد هيأت له الأذهان أضعف الحركة الوطنية فى البلاد . كما أضعف بعض صغار النفوس فتراموا على عتبات الاحتلال لأنهم اعتقدوا أن انجلترا بتخلى فرنسا قد ثبتت أقدامها فى البلاد ، ومما هو جدير بالذكر أن « مصطفى كامل » كشف عن هؤلاء المنهارين فى رسالة كتبها لأخيه « على » الذى كان من ضباط حملة السودان . كما وضحت هذا الجو الذى خلفه فى مصر انسحاب الفرنسيين مدام آدم فى مقال لها عن أغلاط السياسة الفرنسية فى فبراير عام ١٩٠٤ « فاشودة انها الضربة القاضية . لقد قلت فى رسائلى قبلا ان غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديوى والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعا ، وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة مارشان هى الحاملة لراية استقلال مصر . فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .

---

(١) الامبراطورية السودانية ص ٢٣٨ .

وانضم الخديوى الى صفوف المنهارين فصار يتقرب الى الانجليز، وينفذ رغباتهم . ثم كانت زيارته للندن عام ١٩٠٠ ممــا أزعج مصطفى كامل فكتب الى مدام جوليت آدم فى ٢ يونيــو عام ١٩٠٠ « أبعث اليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديوى فى لندن تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا ، وما ذلك واأســفاه الا نتيجة فاشودة » .

فموضوع فاشودة له أهمية من الناحية الاستعمارية العامة ، وهذا التنافس الشديد الذى كان قائما بين فرنسا وانجلترا خلال الســنوات العشر الأخيرة فى القرن التاسع عشر . ثم أخيرا لارتباطه بالمسألة المصرية ، ومسألة وادى النيل « ولذا فالموضوع مهم من حيث التــاريخ الدولى العالمى ، ولكنه يهم المصريين بصفة خاصة لمــا كان له من أثر فى تحديد مصر السياسى لمدة ربع قرن من الزمن تقريبا ، ولمــا كان له من أثر فى تقوية دعائم النفوذ الانجليزى فى وادى النيل (١) » .

---

(١) المنافسة الدولية ص ٢٩٧ — ٢٩٩ .

احتلال كردفان

— ٣ —

بعد مقتل الخليفة ، وهدوء الحال فى البلاد فكر الحاكم العــام فى احتلال كردفان فوجه اليها حملة بقيادة الكولونيــل ماهون على رأس فرقة من الهجانة ، فاحتلها فى ١٧ ديسمبر عام ١٨٩٩ وكانت البلاد قد تعرضت لتخلخل سكانى بسبب الحياة فى السودان ، ومن هنــا نرى الحاكم العام يوجه منشورا الى الأهالى المنتشرين فى الجزيرة وغيرها من انبقاع السودانية للعودة بهم الى بلادهم ، ويعمل على مساعدة العائدين، وامدادهم بالتقاوى للزراعة . وازاء هذا نراهم يعودون ليخلقوا حيــاة جديدة بعد أن خاض رجالها مع المهدى والخليفة حربا مدمرة .

دافور

— ٤ —

ذكر السلطان « على دينار » تاريخ هذه البلاد فقال انهـا كانت خرابا حينما كان طفلا صغيرا ، ويعلل ما صارت اليه بكثرة المعاصى ثم ذكر أنه شاهد السلطان يوسف ثم السلطان أبا الخيرات ، وكيف أنه بعد مقتله تولى الملك « .. توليت بحكمهم بما حكم الله ولمـا أنفذ الله أمره أذلنى لحكمة يعلمها هو لايعلمها غيره فاجتمعت أهل البلد وقالوا لى توجه الى المهدية افداء دمنا بدمك . قلت لهم خيرا بجاه النبى فقمت متوكلا على ربى وطلبت راحلتى وركبت عليهـا توجهت الى الفـاشر فوجدت فيه عبد القادر دليل وأبو جودفات ، ومحمد فضل الفوجاوى .. ذلنى الله من كرسى مملكتى وجئت لهم بقيت معهم عبـدا حقيرا ذليـلا فمكروا على » .

ذلك لأنهـم وصموه ظلمـا بشرب الخمر ، واجتمعوا عليه ، وأوثقوا كتفيه ثم أرسلوه الى السجن فقضى فيه ثلاثين يوما حتى دخل عليه أحد المخلصين له فأطلق سراحه .

« .. بقيت عبدا مملوكا لا أعرف لنفسى نفعا ولا ضرا .. فعلمت أن الملك ملكه والعظمة لله .. وفوضت أمرى الى الله ورسوله ، ثم سـلط الله عليهم الدولة الانكليزية وشـتت الله شـمل الخليفة وقومه وفرق الله جمعهم وأذاقهم من الذل والنكال أضعاف ما أذاقنى وأعطى الله كل ذى حق حقه بعد ما كنت مظلوما نصرنى الله وأعادنى الى موطن جدودى وآبائى فوجدتا (فوجـدت) دارفور فيافى وقفار (وقفارا) وبقيـو (وبقى) أهلها يأتوا (يأتون) اليها من كل فج عميق . يخرجون من

الأحجار والأشجار مثل نفخة الصور ومع ذلك أقول أنا ظالم لنفسى بارتكاب المعاصى حتى أذاقنى الله جزاء ما فعلته [1] » .

وقد أقرته الحكومة الجديدة على بلاده بعد أن أذلته المهـدية ، ولكنها رأت أن تمده بالخبراء والمستشارين وأن يظل معه معتمد من قبلها ؛ ولكن حينما تمكن من أن بلاده أصبحت ملك يديه لم يقبل أى تدخل من الحكومة ، وكل ما كان يقره من علاقة بالحكم الجديد هو «الاعتراف بسيطرته على البلاد مقابل أن يرفع العلمين وأن يدفع جزية سنوية[2]». وسوف نرى جانبا من نشاطه فيما بعد .

(١) ديوان المديح تأليف : حضرة جلالة أمير المؤمنين فى دارفور السلطان على دينـار ص ٤١ ــ ٤٥ .

(٢) السودان فى قرن ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

معاهدة (١٨٩٩)

(أ) وقعت مصر وبريطانيا فى ١٩ ينـاير ١٨٩٩ اتفاقيـة السـودان التى أعطت لانجلترا حق الاشتراك فى ادارة حكومة السودان ، وفى رفع العلمين المصرى والانجليزى معا ، وتعيين حاكم عام بناء على طلب انجلترا وكانت من قبل ذلك تعترض على فرنسا لأنها احتلت أرضا مصرية ، وأعلنت أكثر من مرة أن السودان شىء مكمل لمصر ، ولكن ما كادت فرنسا تتخلى عن موقفها حتى أكرهت الحـكومة المصرية الضعيفة على توقيع اتفاقية السودان .

وقد كانت هذه المعاهدة فى أول أمرها سرا على الشعب لأنها لم تذع عليه إلا بعد توقيعها من اللورد كرومر نائبا عن انجلترا ، وبطـرس غالى باعتباره وزيرا للخارجية المصرية فلم تثر كقضية شعبية ولم تقم بشـأنها مفاوضات لأنها كانت شروطا أملاها كرومر ، ونفذها مصطفى فهمى رئيس الوزراء فى ذلك العهد (١) .

وهذه هى المعاهدة :

وفاق بين
حكومة جلالة ملكة انجلترا وحكومة الجناب العالى
خديوى مصر بشأن ادارة السودان فى المستقبل

« حيث أن بعض أقاليم السـودان التى خرجت من طاعـة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صـار افتتاحها من جديد بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانجليز والجناب العالى الخديوى، وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل ادارة الأقاليم المفتحة المذكورة ، وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليـه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن ،

(١) المنافسة الدولية ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

وتستلزمه حالة كل جهة من الاحتياطات المتنوعة ، وحيث انه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى الآنف ذكره وفى اجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل وحيث انه تراءى من جملة وجوه اصوبية الحاق وادى حلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لها .

فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ماياتى وهو :

المادة ١ — تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الاراضى الكائنة الى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

اولا — الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ أو :

ثانيا — الأراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو :

ثالثا — الأراضى التى قد تفتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدا .

المادة ٢ — يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصرى فقط .

المادة ٣ — ستفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عالى خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل من وظيفته الا بأمر عالى خديوى برضاء الحكومة البريطانية .

المادة ٤ — القانون وكافة الأوامر واللوائح التى تكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان أو تقرير حكومة الملكية فيه بجميع انواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام ، وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه „ ويجوز أن يترتب عليه صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ اى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة ، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة أو الى رئيس حكومة مجلس نظار الجناب العالى الخديوى .

المـادة ٥ ـ لا يسرى على السـودان أو عـلى جزء منه شيء ما من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصـدر من الآن فصاعدا الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها .

المـادة ٦ ـ المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السـودان ببيـان الشروط التى بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية بحرية التجارة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لايشمل امتيازات خصوصية لرعايا اى دولة أو دول

المـادة ٧ ـ لاندفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها الى السودان ، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية . الا أنه فى حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن او اية ميناء اخرى من موانى ساحل البحر الأحمر لايجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج ويجوز أن تقرر عوائد على البضـائع التى تخرج من السودان بحسب مايقدرها الحاكم العـام من وقت الى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن

المادة ٨ ـ فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على اية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها بوجه من الوجوه .

المـادة ٩ ـ يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

المـادة ١٠ ـ لايجوز تعيين قناصل أو وكلاء او مأمورى قنصـليات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

المـادة ١١ ـ ممنوع منعا مطلقا ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسينشر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

المـادة ١٢ ـ قد حصل اتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظـة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسـل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سـنة

١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربيــة والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها وتشغيلها (١)

تحريرا بالقاهرة فى ٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

الامضاءات كرومر . بطرس غالى

(ب) نقد اتفاقية السودان :

تلك هى نصـــوص الاتفاقية التى استخلصتها بريطانيـــا من مصر ولكنها تعتبر باطلة من وجهة النظر القانونية وذلك للأسباب الآتية :

١ — ان أساس سلامة المعاهدات والاتفاقيات الدولية توافر عنصر الرضا الحقيقى من جانب الذين يعقدونها ، وذلك بأن يكونوا فى الوضع الذى يتيح لهـــم أو لبعضهم فرصـــة التوقيع على المعاهدة أو الاتفاق فى حرية وطبقا لمصالحهم ، وهذا الأمر لم يكن له وجود فى حالة مصر حينذاك لأن أرضها كانت محتلة بواسطة القـــوات البريطانيـــة ، وكانت الادارة الفعلية فى أيدى انجلترا ، وليس أدل على هذه الحقيقة من أنه حين رفض محمد شريف عام ١٨٨٤ اخلاء السودان بناء على « نصيحة » بريطانيـــا بذلك ، وردت برقية اللورد جرنفل تحمل طابع التهديد ، اذ أشار الى أن على الوزراء المصريين الاستماع الى نصائح الدولة المحتلة أو مغـــادرة كراسى الحكم ، وكان من أثر هذا الانذار غير المبـــاشر أن قدم الوزير المصرى استقالته للخديوى .

٢ — ينطوى عقد الاتفاقية على مخالفة صريحة لمعاهدة لنـــدن عام ١٨٤٥ والفرامانات الصـــادرة لولاة مصر ، والتى صدقت عليها الدول .

(أ) نصت الاتفاقية على الغاء الامتيازات الأجنبية فى السودان مع أنه جزء من أرض مصر التى نصت معاهدة لنـــدن ، والفرامانات الصادرة

(١) مجموعة الوثائق السياسية للدكتـــور راشـــد البراوى جـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٦ ، المنافسة الدولية ص ٣٠٤ — ٣٠٨ .

لمحمد على عام ١٨٤١ ولخلفائه على أن تسرى فيها المعاهدات والقوانين العثمانية ، وهذه الامتيازات الأجنبية كانت سارية فى مصر نفسها .

(ب) ان اتفاقية السودان اتفاق سياسى وهو مالا تجيز الفرمانات لمصر عقده فالباب العالى يقول فى فرمان ١٨٧٣ « قد أعطيناكم الرخصة الكاملة فى عقد وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية فى حق الكمرك وأمور التجارة وكافة المعاملات الجارية مع الأجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها بصورة لا تستلزم اخلال معاهدات الدولة العلية البوليتقية » وأكد فرمان عام ١٨٧٩ المعنى نفسه كما يتضح من النص التالى « يكون خديوى مصر مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية فى خصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع ، والتجارة واتساعها ، ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والأجانب » .

(حـ) يحرم فرمان عام ١٨٧٩ الصادر لمحمد توفيق باشا « ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية الى الغير مطلقا » فالتحريم هنا صريح وقاطع ، والأراضى المصرية الواردة فى النص تشمل الى جانب مصر الأقاليم السودانية كما يتضح من الفرمانات الصادرة من السلطان الى ولاة مصر منذ عهد محمد على ، واتفاقية السودان اذ حددت الاقليم ، قد أخرجت المناطق التى استولت عليها الدول بطريق غير مشروع فى وقت أجبرت فيه مصر على اخلاء السودان وموافقة مصر على هذا التحديد هو تنازل عن قطعة أرض من الأراضى المصرية مما يتعارض مع نص فرمان عام ١٨٧٩ بصفة خاصة ويتدرج هذا الأمر كذلك على اشراك انجلترا فى حكم الأقاليم السودانية لأنه تنازل عن أرض مصرية واهدار لحقها ولسيادة الدولة العثمانية على الأراضى المصرية كلها .

٣ — لقد وقعت انجلترا معاهدة لندن ، وصادقت على الفرمانات المختلفة التى صدرت الى محمد على وخلفائه ، واذن فاستيلاؤها على بعض

مناطق السودان اثر اخلائه . ثم الاشتراك فى ادارته طبقا لنظام الحكم الثنائى الذى أقامته اتفاقية سنة ١٨٩٩ يعد اعتــداء غير مشروع على ممتلكات الغير . كما أنه يخالف مانصت عليه معاهدة باريس (٢٠ مارس ١٨٥٦) من حيث المحافظة على سلامة ممتلكات الدولة العثمانية ، وكذلك معاهدة برلين المعقودة فى ١٣ يوليو عام ١٨٧٨ وهذه وثائق دوليــة كانت انجلترا احدى الدول الموقعة عليها .

٤ — جاء فى ديباجة الاتفاقيــة العبارة التالية « حيث ان بعض أقاليم السودان التى خــرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخــديوية قد صار افتتاحها من جديد Reconquerd وهذه العبارة تخالف الحقيقة لأن الروابط بين مصر والسودان لم تقطع بسبب الاخلاء الاجبــارى للأقاليم السودانية عام ١٨٨٤ ، واذن فما حدث عام ١٨٩٨ انما هو اعادة الأمور كما كانت عليه .

وتحدثت الفقرة الثالثة من الديباجة عن وجوب اشتراك انجلترا فى وضع النظام الادارى والقانونى فى السودان بنــاء « على مالها من حق الفتح » وهو مالا يتفق مع الواقع اذ أن خسائر انجلترا خــلال حملات (١٨٩٨ — ١٨٩٩) الحربية لم تتعد ١٤٠٠ رجل بينما بلغت خسائر مصر فى العسكريين والمدنيين خلال الثورة ٢٧٠٫٧٠٠ رجل .

٥ — تنص المادة الثالثة من اتفاقية الســودان على تركيز الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى أيدى حاكم عموم السودان بنــاء على طلب بريطانيا كما أنه لا يجوز عزله الا برضاها .

ومن ثم يبدو أن الادارة الثنائية غير ذات مفعول من الناحية الواقعية اذ أن تعيين الرجل أو عزله بمرسوم مصرى مشروط بالموافقة البريطانية فى حالة العزل والطلب البريطانى بالنسبة الى التعيين ، ولهــذا الموظف البريطانى السلطات المطلقة (المــادة ٤) .

وكل ما يلتزم به انما هو ابلاغ الأمر الى « وكيل وقنصــل جنرال

الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى ، وللترتيب فى ايراد الطرفين مغزاه ودلالته ، وأكثر من هذا » لا يسرى على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا الا مايصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام (المادة ٥) فهذه المادة تعامل السودان على أنه جزء متميز عن بقية أراضى الدولة المصرية ، وهذا اهدار للوحدة القائمة بين البلدين والتى أقرتها الاتفاقيات والفرمانات .

ولقد علق الاستاذ « باركرتوماس مون » على هذه الأوضاع التى فرضتها بريطانيا فقال : «كان السودان من الوجهة الفنية ادارة ثنائية يخضع لسيادة كل من مصر وبريطانيا ، ويرفع علم كل منهما على ربوعه . أما فى الحقيقة فان الحاكم العام ومجلس مستشاريه ، ومعظم حكام المديريات من ضباط الجيش البريطانى ، واقتصر نصيب مصر فى الحكم على وظيفة سد العجز السنوى فى ميزانية السودان ، ومن هنا يتبين فى وضوح وجلاء أن اشتراك انجلترا فى ادارة شئون السودان بمقتضى اتفاقية عام ١٨٩٩ — حينما كان هناك اشتراك — انما هو مخالفة صريحة لتلك المعاهدات الدولية وللفرمانات التى صادقت عليها الدول ، واعتداء على ممتلكات الغير .

وقد ذكر الدكتور عبد الرزاق السنهورى (١) « ان اتفاقية سنة ١٨٩٩ اذا أراد الانجليز اعتبار أنها تشركهم فى السيادة على السودان تعتبر باطلة . فمصر كانت لا تملك التعاقد على السيادة وتركيا صاحبة السيادة احتجت على الاتفاقية ، ومعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ تفرض على انجلترا ألا تعتدى على حقوق الدولة العثمانية — هذا الى أن الشكل الذى صبت فيه الاتفاقية والعبارات التى استعملت فيها كلها تتضافر على أنها لم تعرض

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للدكتور راشد ص ١٠٧ — ١١٠ .

للسيادة وكذلك الحال — ولنفس الأسباب — اذا أريد اعتبار انها تشرك الانجليز فى حق مصر القانونى فى ادارة السودان .

فلم يبق اذن الا أن تعتبر أنها قد اشركت بريطانيا فى ادارة السودان الفعلية وتكون بهذا الاعتبار ضربا من ضروب التسوية الموقوتة (١) .

وقد احتج مصطفى كامل على هذه الاتفاقية ، ونشرت له جريدة (الجولوا) الفرنسية بالعدد الصادر فى ٦ فبراير عام ١٨٩٩ خطابا جاء فيه « ان اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهانا جديدا على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات ، الشىء الذى يعتبره المصريون جميعا باطلا لأنه مخالف للنظامات الأوروبية والقوانين الدولية .. عارضت الحكومة الفرنسية فى فرض تجريدة السودان ، وقد كان حكم المحاكم المختلطة وهى الممثلة لجميع الدول موافقا لرأيها فجاءت انجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت اليه من المال . ثم ماذا جرى بعد ذلك ؟ أدخل الانجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا فى العير ولا فى النفير ليسوغوا هذه النتيجة السيئة التى ليست فى نظرنا الا اغتيالا للحقوق القومية فى رائعة النهار ، وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء .

ان الجنود الانجليزية اشتركت اسما فى حملة دنقلة ليسوغ للانجليز هذا العمل بعد أن صرح سواسهم أمام العالم كله بأنهم لا يقصدون بارسال جنودهم الى السودان صحبة الجنود المصرية الا ليردوه الى مصر تنفيذا للخطة التى رسموها من احتلالهم مصر ، واجابة لصوت شرفهم ألم يقل اللورد سولسبرى بأعلى صوته « اننا نعمل لرد السودان الى مصر » انتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد فكانت فظاعة

(١) قضية وادى النيل للدكتور عبد الرزاق السنهورى ص ٢٢٨ .

انجليزية متناهية اذ نبشوا القبور ، وبعثروا الجثث ، وأهانوا الموتى ، وخالفوا فى ذلك تاريخ المتقدمين والمتأخرين من المتحضرين ثم قامت معضلة فاشودة بين كتشنر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية ، وانتهت بتقهقر فرنسا ، فطمع الانجليز طمعا كبيرا ورفعوا رايتهم على الخرطوم بجوار الراية المصرية وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد على غوردون ، وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية وأخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك حتى اذا خلا لهم الجو ونضج الطعام بين كراسى الوزراء المصريين أكلوا أكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشئومة . هذا ما جرى وانا ننتظر ان تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التى لا بد لها أن تحتج احتجاجا شديدا على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة . نعم ان أوروبا اذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها ، وأتت من المنكرات فى وادى النيل مالا يكون السودان بجانبه شيئا مذكورا . فان المسألة لم تكن مسألة السودان فقط بل هى مسألة مصر نفسها بل مسألة افريقية أيضا فان مصر لا تكون بلدا غنيا قادرا على القيام بدفع ديونه الا اذا كان مالكا لينابيع النيل التى هى فى صميم السودان ، وان مشاركة انجلترا لمصر فى تملكه وهى الشرهة الطامعة التى لايكفيها نصيب أو نصيبان لمما يهدد المصالح الأوروبية ويجعل المستقبل مظلما ، وتصبح الدول التى تظن بها اليوم خيرا فى مقدمة الساخطين على جشعها .

كذلك فان لكثير من الدول الأوروبية أملاكا فى افريقية وهذه الأملاك تصبح لا محالة تحت رحمة الدولة الانجليزية التى لا تريد أن تضع يديها على كل افريقية ليكون لها منها هند ثانية ، وان الحملات العديدة التى حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترنسفال والأورنج ليست الا دليلا قويا على حقيقة مطامعها الافريقية .

أما فرنسا فانها بسبب هذه السياسة قد أساءت الى نفسها كثيرا . أما من جهتى فانى لا أيأس أبدا من مستقبل بلادى (1) » .

تلك وجهة نظر « مصطفى كامل » نقلناها بنصها لأنها كانت فى الوقت نفسه وجهة نظر الشعب .

---

(1) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية للرافعى ص ١٣٦ – ١٣٩ .

الحيــاة العقلية

التعليم فى السودان

(١)

(أ) التعليم الدينى :

اعتمد التعليم الدينى فى السـودان على المسجد والخلوة ، وقد شجع هذا النوع من التعليم الفتح التركى المصرى فى أول عهده . أى أنه كان امتدادا للتعليم الذى كان سائدا من قبل وان كان قد تطور فى هذا العهد وادخلت عليه ألوان لم تكن موجودة فيه من قبل .

ذلك لأن أهل البلاد كانوا مسلمين ، ودخول محمد على الى هـذه البلاد كان بفتوى تبيح الدخول الى هذه البلاد ، وتجعـله مشروعا ومقبولا (١) وقد صحب الجيش ثلاثة من كبار العلماء وهم : القاضى محمد الأسيوطى الحنفى ، والسيد احمد البقلى الشافعى ، والشيخ السلاوى المغربى المالكى ، وقد وهب محمد على كلا منهم « خلعة سنية وخمسة عشر كيسا وأوصاهم أن يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجـة أنهم مسلمون وأن الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب دينى (٢) » .

وهكذا نرى أن السياسة التى كانت توجه هـذا النوع من التعليم كان سياسة تدعيم الثقافة العربية الاسلامية فى السودان (٣) ، ومن هنا أعفى الفقهاء من الضرائب وبدىء فى انشاء المساجد فبنى فى عام ١٨٣٠ مسجد فى الخرطوم ، وأقيم مسجدان كذلك فى سنار ، وطلب قاضى الشرع

---

(١) الشرق الاسلامى فى العصر الحديث للدكتور حسين مؤنس ص ٢٠٠ .
(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٤٢٣ .
(٣) يقظة السودان ٣١ .

والعلماء بدنقلة من محمد على بناء مسجد وخلوة تجاوره فأمر لهم بذلك فى خطاب بتاريخ غرة جمادى الثانية عام ١٢٥٢ هـ ، وحين سافر محمد على الى السودان قرب العلماء ، وأنعم عليهم ووافق على انشاء مسجد للتعليم وجعل مرتب الفقيه ١٥٠ قرشا ، وفى مصر اعتنى بالوافدين منهم فتأسس فى عام ١٨٤٦ رواق للسنارية . كما رأينا أروقة للتكارنة وأهل صليح غرب السودان ، ولطلاب دنقلة ، وطلاب دارفور (١) .

واستمر هذا التشجيع فى عهد ابراهيم ، وعباس ، وسعيد ، ولكنه كان تشجيعا هادئا لا يتفق وحاجة البلاد الى المعرفة ، ولكن لفتات اسماعيل كانت أكثر ازدهارا وخصوبة ، حتى انه صرف على اصلاح مسجدين بمديرية كردفان أكثر من ألف جنيه ، وذكر فى رد له على خطاب « .. حيث ان أمانينا تعمير مثل هذه المساجد الشريفة فاتنا نأمركم ببناء هذا المسجد وتعميره بحسب المقايسة الموضوعة وخصم المبالغ التى ستصرف فى هذا السبيل من الديوان بصفة احسان من لدنا (٢) » .

كما أعان كثيرا من المساجد ، والزوايا مثل زاوية الشيخ ابراهيم الأصونلى التى كان بجوارها كتاب يضم اثنين وعشرين طفلا ، وكان لهذا التشجيع أثره فأقبل الكثير من العلماء على انشاء وتعمير المساجد والخلاوى حتى ان الكثير من السودانيين طمعوا فى هذا النوع من المكافآت فطلبوها دون أن تكون لهم مساجد أو دور للتعليم (٣) .

وقد جاء فى الوقائع المصرية بتاريخ ٢٥ شوال عام ١٢٨٦ هـ « ان درجة العلوم الشرعية والعبادات الدينية لما كانت قليلة الجدوى بين الأمة السودانية صدر أمر الجناب الخديوى الأعظم فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٦ نم ٣ تركى بالتكرم بانشاء جملة مساجد ومدارس ومكاتب متسعة لاحياء العلوم الشرعية والمعالم الدينية ، ورتبت اليهم المدرسون والمعلمون

(١) التربية فى السودان جـ ١ ص ١٢ وما بعدها ، السودان لعبد الله حسين جـ ٢ ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

(٢) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٩ .

وما يلزم لهم من مئونات وكسوات ، وعدل ما كان قبل ذلك ولم تظهر نتيجته » .

ولا بد أن بعض هذه المساجد والمكاتب قد أقيم وان كانت لا توجد تلك الوثائق التى تدل على اقامتها (١) .

وتعطينا رسالة جعفر باشا حكمدار السودان المرسلة الى القاهرة فى ١٠ جمادى الأولى عام ١٢٨٦ أكثر من ضوء على التعليم فى السودان فقد جاء فيها : —

حضرة صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية

« تفتقر الأقطار السودانية الى السلك الدينى والتقدم الفقهى لانعدامه فيها كما أنه لا يوجد فيها طلبة علم يليقون لوظائف القضاة والنيابة والامامة ونشأ من عدم الالتفاف الى هذا السلك فيما مضى ومن عدم اعارته الاهتمام الواجب أن أكثر أهالى السودان الى وقتنا هذا لم يتمكنوا من تصحيح دياناتهم وشرائعهم ، ولما كانوا لايرجحون كفة الدين على الملاعب والملاهى غير المشكورة أصبح من المتعذر وجود قضاة ونواب وواعظين ومدرسين ، ومن العسير احضار مثل أولئك المدرسين والعلماء من مصر بمرتبات قليلة ، وقد تمكنا بكل صعوبة من ايجاد ثلاثة فقهاء لتعليم أصول الدين وتلقين الاسلام الى أهالى سبعة حلل من أهالى جبل الداير أحد جبال كردفان الذين تشرفوا بشرف السودان فى هذه السنة المباركة فى ظل الحضرة الخديوية وارسالهم الى تلك المنطقة ، ولا ينقطع ورود نفوس كثيرة من سكان الجبال المتوحشة الموجودة فى وجهة البحر الأبيض المتوسط للتشرف بشرف الاسلام وازاء ذلك نرى لزاما علينا تحويل البصر الى الطريق الدينى ، وقد كان المتبع فى العهد القديم صرف مرتبات ومئونة الى بعض الجهلة من الفقهاء فى سبيل التقدم العلمى وكانت تصرف اليهم شهريا ، ونظرا لأن أكثر أصحاب المرتبات جهلاء فانهم استحقوا تلك

---

(١) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦٥ .

المرتبات بالشهادات الكاذبة ، واغتالوا المرتبات المنصرفة اليهم والى طلبتهم بدون وجه حق فأصبحوا بدون طلبة لأنهم لم يصرفوا شيئا من تلك المبالغ فى تعليم الطلبة ، ولو وجد لدى البعض طلاب فانهم لا يزيدون عن بضعة أطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة الى العاشرة ، وهؤلاء يتركون المكتب قبل أن يكملوا قراءة جزء عم ، ويذهبون للعمل كرعاة أو حمالة أو مزارعين .

لذلك ألتمس اعطائى تصريحا لأقوم بالتفتيش على أعمالهم والبحث فى مؤهلاتهم العلمية وقطع مرتبات من لا علم له . ونقلها الى من يفوقهم علما لأنى أخاف أن يزعجوا المعية بشكاواهم الكثيرة . بدعوى أن الحكمدار قطع عنهم احسانات ولى النعم الجارية عليهم منذ سنين عديدة بموجب أوامر عالية .

ويجب انتخاب مدرس الامتحان لكل من بربر ، دنقلة ، الخرطوم سنار ، التاكة ، كردفان ، فاشودة ، وربط مرتب لهم علاوة على المرتب القديم من ٢٠٠ الى ٣٠٠ قرش شهريا ، وصرف مئونة من الذرة من أردب الى ثلاثة ، وتحديد عدد الطلبة لكل معلم ، واعفاء من دفع الضرائب والأموال والمطلوبات الأميرية الأخرى اذا ما تركوا الاشتغال بالتجارة والزراعة ، وتعيين أحد العلماء المبرزين من الخرطوم بعد امتحانه ليكون ناظرا وملاحظا على الجميع بعنوان شيخ العلماء واعطائه مرتبا قدره ٥٠٠ قرش شهريا وثلاثة أرادب من الذرة وتعيين أحد الفقهاء المتقدمين ليكون قارئا وحافظا بعنوان شيخ الفقهاء بمرتب قدره ٣٠٠ قرش شهريا واردبين من الذرة ..

فاذا وافق الجناب العالى على ذلك التمس استصدار الأمر العالى اللازم لذلك (١) » .

---

(١) محفظة رقم ٤٦ معية تركى ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٠ نقلا عن التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦٢ — ٦٤ .

وهكذا توضح لنا هذه الرسالة الحالة الثقافية للبــلاد والرغبة فى تحويل التعليم الأهلى الى حكومى ، وفى اختيار الأساتذة ، والاغراء على التعليم بالاعفـاء من الأموال الأميرية ، وقد استحسن الخديوى هـذا المشروع ، ولم يعترض الا على كلمة شيخ العلماء فقد اقترح مكانهـا « رئيس الأساتذة » وأعطى أمرا بالمبادرة لاجراء اللازم (١) .

ومع أن قوة الدفع التى دفعهـا أسـماعيل للتعليم فى عهـده لم تشبع حاجة البلاد الى التعليم ، الا انها كانت بلا شك أقوى الدفعات فى عهـد هذا الفتح .

وقد استمر التعليم بقوة الدفع هذه فى عهد توفيق . فقد أنشىء فى عهده مسجد بمدينة « اللادو » عاصمة خط الاستواء (٢) .

ولم تتوقف قوة الدفع هذه الا بقيام الثورة المهدية على أن العلمـاء من أهل البـلاد قد أسهموا مسـاهمة فعالة فى نشر هـذا التعليم بالبلاد وبخاصة فى المدن الكبيرة ، وقد كان التعليم يدور حول الدين ، وعلوم اللغة العربية ، ومبادىء العلوم ، وشىء من علم التصوف ، كما كان بجوار هؤلاء العلماء الذين تعلموا فى الأزهر .

وقد أسهمت الطرق الصوفية هى الأخرى فى التعليم . فاذا ضربنا مثلا بطريقة محمد المهدى السنوسى نرى نعوم يقـول عنه « وله الآن فى تلك البلاد كلها وفى مصر والحجاز نحو ٣٠٠ زاوية وفى كل زاوية خليفـة من قبله يدير شئونها ، ويبايع الناس فيها بدلا عنه ، ومدرسة لتعليم القرآن ومبادىء العلوم (٣) » .

ويمكن أن نرى هذا الأثر فى الطريقة المرغنية ، والقادرية ، والسمانية ،

---

(١) دفتر رقم ٥٨٣ معية سنية تركى ترجمة المكاتبة رقم ٣ ص ١٤ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية عام ١٢٨٦ عن التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦٢ — ٦٤ .

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية ص ٣٢ لعام ١٨٨١ .

(٣) تاريخ السودان جـ ١ ص ١٢٧ .

والتيجانية وفى تلك الطرق التى شجعها محمد على للدخول فى السودان كالسعدية ، والرحمانية ، والبدوية والدسوقية (١) .

ذلك لأن النظام كان قد دخل على هذه الطرق فى هذا العهد ، وكان بعض الصوفية علماء أثمرت دعواتهم فى ادخال الكثير من الناس الاسلام .

وفى هذا العهد أقيم الجامع العتيق بالخرطوم فأصبح قبلة المتعلمين ، ومقام الذاكرين ، ومن بين الذين تلقوا العلم فيه الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية ، والمشايخ محمد أحمد نور السرورابى ، والأمين الضرير ، وشاكر المفتى (سورى) ، ومصطفى السلاوى (مصرى) ، والشريف السيد حسين المجدى (مغربى) ، والمحروقى الشاذلى (من مكة وهو مصرى الأصل) (٢) .

وكذلك أصبحت كسلا فى شرق السودان مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية (٣) .

وها هى ذى بعض الخلاوى ومساجد العلم التى كانت معروفة عند ظهور المهدية :

مسجد الفقيه أحمد بيوضة البرعى بالمليحة بالقرب من بارة .
مسجد الفقيه عبد الله أبارو بالمليحة بالقرب من بارة .
مسجد الفقيه بدوى أبو صفية بالقرب من الأبيض .
مسجد الفقيه ولدسوار الذهب بالقرب من الأبيض .
مسجد الفقيه القاضى عربى بالأبيض .
مسجد الفقيه ولد دوليب بالأبيض .
مسجد الفقيه الضو بأبى غريرة .
مسجد الفقيه محمد ولد دوليب بخرس .

---

(١) تاريخ الثقافة العربية ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١٥ .
(٣) الاسلام والثقافة العربية ص ٣٥٩ .

مسجد الفقيه محمد عثمان قزح بباره .
مسجد الفقيه السيد محمد عثمان الميرغنى بسواكن .
خلوة الشيخ العبيد بأم ضبان .
منزل الشيخ الأمين الضرير بأم درمان .
خلوة الفقيه أحمد خليفة بالرباطاب .
خلوة الفقيه أحمد المجذوب بالدامر .
خلوة الشيخ المضوى عبد الرحمن بكركوج .
خلوة الشيخ محمد خير (أستاذ المهدى) بالغبش .
خلوة الشيخ القرشى بالحلاويين .
خلوة الشيخ حسين الزهراء بوادى شقير .
خلوة الشيخ محمد شريف نور الدايم بأم مرحى قرب الخرطوم (١).

وفى هذا يقول رفاعة الطهطاوى « فان اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعليم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد الأجنبية المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بقدر الاستطاعة . فكل انسان من الأهالى يخصه الواحد أو الاثنان فيقومون بشئونهم مدة التعليم (٢) » .

(ب) الأزهـــر :

كان الأزهر معروفا فى هذه البلاد قبل الفتح التركى ، وزاد اقبال الناس عليه بعد الفتح وبخاصة بعد أن توفرت الأروقة الخاصة بهم ، والجراية ، وأمن الطريق ، ولم يقف الأمر عند رغبة الأهالى التى كانت شديدة وانما تعداها الى الحكام ، وكان من أكثر الحكمداريين تشجيعا جعفر باشا حتى انه حين حضر الى مصر فى ذى الحجة عام ١٢٨٣ اصطحب معه مواطنين اثنين من أبناء كسلا ليدرسا فى الأزهر .

---

(١) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٩٦ .
(٢) مناهج الالباب المصرية ص ٢٦٢ .

وتدل بعض الوثائق على أن السودانيين كانوا مقبلين على الأزهر برغبة وشغف ، ومنهم من تتلمذ هو وابنه وأبوه على شيخ واحد أو عدة شيوخ ، ومنهم من استوطن وتزوج بمصر وزاول فيها مهنة التدريس بالأزهر كالشيخ أحمد بن محمد بن عيسى السنارى ، وابنه الشيخ محمد ، والشيخ عبد الرحمن بن أحمد البدوى ، وكأفراد من أسرة الشيخ اسماعيل الأزهرى .

جاء فى الوقائع المصرية نمرة ٢٢٠ بتاريخ ١٨ جمادى الأولى عام ١٢٨٦ مقال عن تعليم السودانيين بمصر جاء فيه « .. ولقد تردد علينا أناس منهم مشتغلون بالعلم فى الأزهر المعمور فى غاية التهذيب والنجابة والاستقامة فى كل الأمور تحسبهم من خطط الأمصار لا السودان (١) » .

ومما يؤكد ذلك أن مندوب « بال مال جازيت » سأل الشيخ محمد عبده فى العدد الصادر فى ١٧/٨/١٨٨٤ عن العصبية بين السودانيين فكان جواب الامام « ليس السودانيون أكثر تعصبا منى فحينما كنت أعلم الفلسفة فى القاهرة كان كثيرون من الطلبة المصريين يخشون حضور دروسى بينما كان أربعة وثمانون طالبا من السودان يحضرون جميعا ليستمعوا الى انهم ليسوا متعصبين (٢) » .

(حـ) ولم يقف تشجيع مصر على الدين الاسلامى فقط بل تعداه الى المسيحية كذلك فقد جاء فى احدى الوثائق « حيث ان عمران جزيرة سواكن فى اطراد وقد أخذ الكثيرون من الأحباش يتجولون فى أنحائها ، وحيث ان أكثر الأحباش على المذهب القبطى ، ومن المناسب أن تشاد هناك كنيسة للأقباط أسوة بالمسلمين الذين لهم جامع فى الجزيرة فاننا نأمر أن تقوموا بما يجب (٣) » .

---

(١) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦١ .

(٢) تاريخ التربية فى السودان جـ ٢ ص ٩٧ .

(٣) دفتر نمرة ٥٨٣ معية تركى ترجمة لوثيقة تركية نمرة ٢٠ ص ٢٢ بتاريخ ٢٨ شوال عام ١٢٨٦ عن تاريخ التربية فى السودان ص ٦٨ .

التعليم العـام

(٢)

(ا) بدأت الثنائية فى التعليم فى عهد الفتح التركى سـدا لحاجات البلاد وتمشيا مع التطور ، وكانت نواة هذه الثنائية بعثة الخبراء الزراعيين والصناعيين الذين أرسلوا فى أوائل الفتح لتجريب زراعة الأفيون والبن ، وللقيام بعمليات الجبس والجير ونشر البلاط والدباغة ، وان كانت هـذه الأشياء لم تأت بالثمرة المرجوة(١) . وقد أرسلت الى مصر بعثة مكونة من أولاد السادة فى البلاد يبلغ عددهم ستة تلاميذ ، وحينما عرض أمرهم على « محمد على » رأى تعليمهم علم الزراعة فأرسلوا الى المدرسة التجهيزية ثم نقلوا الى مدرسة الألسن بعد ذلك « ليذوقوا طعم المعارف التمدنيـة لينشروها فى بلادهم (٢) » .

ثم نقلت تجربة التعليم هذه الى السودان نفسه حين ذهب رفاعة الى الخرطوم مغضوبا عليه لفتح مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، ومعه اثنا عشر مدرسا من خيرة رجال التعليم فى مصر ، ومعهم ما تحتاجه المدرسـة من طرابيش ، ومراكيب عام ١٢٦٧ هـ ، وقـد كان يمكن أن يؤدى دوره فى التربية هناك وهو صاحب نظرية تعميم التعليم فى القـاعدة الجماهيرية ، واعطاء العناية للتعليمين النظرى والعملى معا ، وايجاد صلة بين المـدرس والتلميذ ، والسماح له باللعب ، ومنع عقابه .

كان يمكن أن يؤدى دوره — رغم أن صحته لم تتفق وجو السودان ، وكذلك بعض زملائه الذين مات ثلاثة منهم — لو أنه لقى المعـونة من الحكام ، ومن السودانيين أنفسهم . ذلك لأن هذا النوع من التعليم كان

---

(١) محمد على الكبير لشفيق غربال ص ٩٨ .

(٢) مناهج الالباب لرفاعة ص ٢٦٣ .

جديدا عليهم . اذ أن التعليم عندهم من قبل كان يتحـرك فى اطار دينى « .. وكان السودانيون يتعصبون له تعصبا قويا لدرجـة أنهم كانوا فى بادىء الأمر يرفضون ارسال بنيهم للمدارس الحكومية لأنهم لم يكونوا يثقون بأنها ستربى أبناءهم التربية الدينيـة الصحيحة وكانوا يعتبرونها مدارس « تركاوية » ربمـا تعمـل على تنصير أولادهم وتربيتهم تربية فاسـدة (١) » .

وقد جاء فى رسالة رفاعة الطهطـاوى لمدير المدارس « .. ان أغلب التلاميذ يتهربون فى الجبال البعيدة وغير ممكن الحصول على حضورهم وفضلا عن ذلك انهم غلائظ العقول » ثم يقول بعد ذلك : ان المدرسـة صارت اسما بلا جسم(٢) ، وأما قول الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : ان رفاعة تراخى فى فتح المدرسة ، وتصرف فى الأشـياء والمهمات التى أخذها « حتى وزعت على الأليات الجهادية بمعرفة لطيف باشا (٣) » فيرد عليه أنه باعتباره موظفا فى الخرطوم ما كان له أن يتصرف فى شىء بدون أمر الحكمدار ، وأن هذا التراخى جاء من عملية البطء فى قيام المدرسـة ومن نفور الأهالى وهروب التلاميذ . فرفاعة نفسه كان أحد ضحايا هذه المدرسة ، وأما شعره فى التشوق ، والضيق بالغربة فحالة نفسية يسوغها اهماله وظلمه ، ولعل اللبس الذى وقع فيه الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد كما وقع فيه الدكتور حسن أحمد محمود (٤) من أن المدرسة قد فتحت عام ١٢٦٩ ، مع أن رسالة رفاعة السابقة فى ٥ شـوال عام ١٢٦٨ تؤكد غير هذا .

---

(١) التعليم فى الجمهورية السودانية للسيد عوض ساتى بالأيام ١٩٥٦/١/٣١ ، مقال عن رفاعة لعبده بدوى بالشعب ١٩٥٨/٥/٢٧ .

(٢) دفتر ٢٣٢ مدارس عربى من ناظر الخرطوم فى ٥ شوال عام ١٢٦٨ عن تاريخ التربية جـ ٢ ص ٣١ .

(٣) تاريخ التربية فى السودان جـ ٢ ص ٣١ .

(٤) الاسلام والثقافة العربية جـ ١ ص ٣٥٢ .

فقد كانت هناك قبل الفتح الرسمى عملية تجميع التـــلاميذ ودراسة هروبهم ، ومعرفة قدراتهم وقد توهم الكثيرون أن رفاعة ظلم هذه البـــلاد بما أصدر من أحكام سريعة عليها فيما قال من شعر أو نثر ، ولكن ظروفه النفسية ، وابعاده عن مجاله الحقيقى فى مصر ، وما قاساه فى انشاء مدرسة الخرطوم فى تلك البلاد التى لم تعرف ، ولم تقبل على هـــذا اللون من التعليم ، كل هذا كان له أثر فى تلك الأحكام السريعـــة وفى رغبتـه فى مغادرتها . حتى اذا هدأ أنصف هذه البلاد ، وحكم بدقة أذهان أهلها لهذه العروبة الغالبة على البلاد ، وبدورهم الكبير فى التعليم الدينى وأن أسباب التأخر فى هذه البلاد كلها ظواهر خارجية يمكن القضـــاء عليها بازالة أســـبابها (١) .

وقد قسم رفاعة الخلق الى مراتب ثلاث أدناها « همل بلاد السودان الذين هم دائما كالبهائم السارحة » ، وأوسطها عرب البادية .

أما المرتبة الأولى فتتمثل فى « بلاد مصر والشام واليمن والروم والعجم والافرنج والمغرب وسنار وبلاد أمريقه على أكثرها ، وكثير من جـــزائر البحر المحيط فان جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وســـياسيات وعلوم وصناعات وشرائع وتجارات ولهم معارف كاملة فى آلات الصنايع والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق ولهم علم بالسفر فى البحـــور الى غير ذلك (٢) » .

فهو هنا يذكر سنار فى المرتبة الأولى ، وقد توهمت وزارة الثقـــافة والارشاد القومى فى اعادتها لطبع كتاب تخليص الابريز(٣) أن رفاعة يقصد بكلمة السودان السودان المعروف ، مع أن الحقيقة أنه يطلق على قطاع كبير فى افريقية بما فيه السودان الفرنسى ولذلك نرى كلمة « همل السودان » تستبدل بكلمة « المتوحشين » وفى هذا اعتداء على الأمانة العلمية .

---

(١) مناهج الالباب المصرية ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٢) تخليص الابريز ص ٧٥٦ ط بولاق ١٢٦٥ .

(٣) تحقيق الدكتور مهدى علام ، الدكتور أحمد أحمد بدوى مطبعة الحلبى ١٩٥٨ .

ومهما يكن من شيء فلو أن الحكومة المصرية « فكرت جديا فى نشر التعليم بالسودان منذ تلك العصور الغابرة فأنشأت المدارس ، واختارت لها مدرسين غير هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أنهم منفيون لكان العلم قد اشتد عوده فى تلك الديار (١) » .

وقد كتب موسى حمدى باشا لسعيد يطالب بادخال أولاد العمد ، والأعيان والأهالى ديوان الحكمدارية ، ودواوين المديريات ليتعلموا الكتابة ، والحساب على أن تخصص لهم ماهية من ٣٠ قرشا الى ٧٥ قرشا ، وقد رد اسماعيل بعد أن آل اليه الأمر على الحكمدار برسالة جاء فيها « .. فلذلك قد سنح لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم بحيث يترتب به خوجات تركى وعربى ممن يثبت مهارتهم فى ذلك ليعلموا قدر خمسماية نفر تلاميذه من أهالى تلك الجهات » قاصدا بهذا العمل تعيين أهالى البلاد فى « وظائف الكتابة والمعاونين بحسب اللزوم ليكونوا أوفق ممن يطلبون من جهة المحروسة (٢) » .

واستدرك اسماعيل فى خطابه فطلب انشاء مكتبين ، ولكن الحكمدار يقترح انشاء خمس مدارس موزعة على البلاد الآتية : الخرطوم ، بربر ، كردفان ، دنقلة ، التاكة ، وقد خضعت هذه المدارس لديوان المدارس بمصر ، وعوملت كالمدارس المصرية فى البرامج ، وخطط التدريس ، والاجازات والامتحانات . ثم أضاف اسماعيل الى هذه المدارس مدرسة فى مصوع ، وأخرى فى سواكن « ومن المدارس التى توج بها عهد اسماعيل بالسودان مدرسة للطب هناك وان لم تفتح الا فى عهد توفيق (٣) » .

والوقائع المصرية تلقى ضوءا على هذه الحياة التعليمية فى هذا العهد ، فقد جاء فيها أن طلبة السودان يتعلمون اللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية والطليانية بحسب رغبة كل تلميذ ، وامتدت هذه التجارب

---

(١) رفاعة الطهطاوى للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٥٢ .
(٢) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٤٥ ، ٧٢ .
(٣) المصدر نفسه ٧٣ – ٨٧ .

التعليمية الى جنوب السودان ، فقد وضع مشروع لنشر العربية ، وازالة الأمية فى منطقة النيل الأبيض ، والعناية بتعليمهم الصناعات الحديثة . كما اهتمت الحكومة اهتماما خاصا بالرقيق المحررين فأدخلت أبناءهم المدارس المصرية ، وكذلك أنشأ محافظ شرق السودان وسواحل البحر الأحمر مدرسة فى سواكن لمن حرروا من العبيد ، والظاهر أن مدرسة أخرى أنشئت فى سنار ، وقد استمرت هذه المدارس تؤدى دورها حتى انتهت أمام الثورة المهدية (١) بما فيها المدرسة التى فتحت فى عهد « توفيق » بمدينة اللاد عاصمة مديرية خط الاستواء (٢) .

(ب) البعثات الى مصر :

كان يوجد فى مدرسة المبتديان عام ١٢٨٥ مائة تلميذ سودانى وهؤلاء قد سبقوا بآخرين وكان من أوائلهم الوفد المكون من ستة تلاميذ فى عهد محمد على ، والذى استقر به الأمر أخيرا فى مدرسة الألسن . كما أرسل ممتاز باشا مائة شاب سودانى الى مصر ليتعلموا بمدارس العمليات الميكانيكية والزراعية (٣) .

والمشاهد أن عملية التعليم بالسودان كانت مرتبطة بعملية التعليم فى مصر . فالتقتير فى مصر يقابله تقتير فى السودان ، والازدهار فى مصر يقابل بازدهار هناك ، كما حدث فى عهد اسماعيل .

على أن المعروف أن التعليم فى السودان كان لا يقصد به تكوين المواطن الصالح — كما كان الحال فى مصر تقريبا — وانما كان يقصد به تغطية فراغ الحاجة الى موظفين يسيرون جهاز الحكومة . فقد ربط بمصر فى كل كبيرة وصغيرة ، ولم يربط ببيئة البلاد واحتياجاتها وقدراتها من قريب أو بعيد ، ومن هنا فلم يأت بالثمرة المرجوة .

---

(١) الاسلام والثقافة العربية ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦٤ ، ٨٧ .
(٢) مجلة الجمعية الجغرافية « فبراير ١٨٨١ » .
(٣) التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦٨ ، ٨٤ .

التبشـــير فى السودان

(٣)

لقد كان انتشار الاسلام فى السودان — كما كان فى كل مكان — سهلا لا يحتاج الى معاونة حكومية أو تنظيم هيئة لأنه كان يعلن عن نفسه ببساطته ، وقيمه ، وصلاحيته لكل زمان ومكان .

أما المسيحية فى هــذه البــلاد فقد استعانت بالحكومات والهيئات والامكانيات الضخمة ، وبخاصة فى الأماكن التى لا تقف فيها على قدم المساواة مع الاسلام ، فالمسيحية لم تعرف الانتشار فى افريقية « الا بعد دخول جيوش المستعمرين وأفواج المستغلين (١) » .

فحينما فتح السودان باسم السلطان وجه الأجانب وجهتهم اليه فقــد كانت لهم امتيازات فى الممتلكات العثمانية ، وكانت العادة جارية على أن الأجانب اذا أرادوا السياحة أو الانتقال فى مصر أو البلاد التابعة لها عليهم أن يحصلوا على « فرمان » من الوالى يبيح لهم هذه الرغبة بعد توضيح أغراضها ، وقد نجح البطريق « موريفاستر » أحد أعضاء البعثة التبشيرية التى قررها البابا فى الحصول من محمد على على فرمان يبيح له دخول مصر والسودان بواسطة قنصل انجلترا فى مصر . وسمح له بالذهاب الى الوجه القبلى ثم السودان ، ووصل الخرطوم فى فبراير عام ١٨٤٨ ضمن ارسالية تبشيرية مكونة من أربعة أفراد . ثم لحق بهم ثلاثة من غير رجال الكنيسة ، وما كادت هذه البعثة تستقر فى الخرطوم حتى اشترت قطعة أرض بهــا « تمهيــدا لبنــاء كنيسة ومكاتب لتعليم الرجال والنســاء وتنصــيرهم (٢) » .

---

(١) الديانات فى افريقية السوداء ص ٨ .

(٢) التربية فى السودان جـ ٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

وقد أزعج هذا الأمر الحكمدار خالد خسرو باشا حينما أخذوا ستة من الصبيان أمهاتهم من الرقيق وآباؤهم من المسيحيين الذين ماتوا عنهم بقصد تنصيرهم . ولم يقف هذا الحد من الازعاج عند الحكمدار وانما تعداه الى الأهالى فأفتى الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتى السودان بأن كل مولود يولد على الفطرة ، وأن من يكمل السابعة يستطيع أن يستفتى فى دينه ، ولكن البطريق لم يقبل هذه الفتوى لأن الأولاد فى نظره تجاوزوا السابعة .

كما ضاق بهم عبد اللطيف باشا الذى خلف خالد باشا ذلك لأن عهده شاهد نشاطا من التجار الأوروبيين فى السودان بعد انشاء القنصليات ، فشدد على كل الأجانب ، وضيق عليهم مما جعل قناصل الخرطوم يقدمون ضده شكاوى معتمدين على حرية التجارة ، وأن لهم امتيازا فى الممتلكات العثمانية ، وقد ذكروا فيما ذكروا أنه أساء الى رهبان الكاثوليك ، وظلمهم متجاهلا أوامر محمد على بحسن معاملتهم .

وقد استجيبوا الى طلبهم ، وتمكنوا من اقامة كنيسة ، ومدرسة ضمت أولاد المسلمين وغير المسلمين . ثم انتشروا فى البلاد فمنهم من ذهب الى بنى شنقول على النيل الأزرق ، ومنهم من ذهب الى أعلى النيل الأبيض « وكانت الامتيازات الأجنبية تقف فى سبيل معارضة الوالى لرغبات الأجانب دينية كانت أو غير دينية . من أجل هذا لم يجد النشاط التبشيرى أو التعليم التبشيرى مقاومة من الحكومة أو الشعب (١) » .

فالكنائس كانت بالقرب من المساجد ويقصدها أبناؤها بكل حرية(٢).

ولكن المهدية حين قدمت أوقفتهم وصادرت نشاطهم . فحينما تسلم المهدى الأبيض فى ١٨٨٣/١/١٩ وجد بها كنيسة بها خمس راهبات ، وثلاثة من الرهبان منهم الأب « روسينيولى » الذى روى هذا الحادث

---

(١) التربية فى السودان جـ ٢ ١٠٦ ــ ١١٠ ، السودان فى قرن ص ٥٦ .
(٢) سلاطين ص ٣٣٨ .

« لما دخل العرب الحامية كنت فى الفراش مريضا بفقر الدم فدخل بعض الدراويش على فكسروا الصلبان والصور وأحرقوها ، ثم تقدموا الى وشرعوا يضربوننى بحد السيف ويقولون أين مالك يا كافر قلت : كان عندى ألف ريال وهى كل ما أملك فأقرضتها لسعيد باشا فوزعها على العساكر . ثم التفتوا فرأوا القبر الذى دفن فيه الأب لوزى فظنموه مالا مدفونا فنبشوه فرأوا جثة بالية فجمعوا عليها ما وجدوه من ورق الدخان وأحرقوها به ، أما أنا فأخذونى مع رفاقى الى ديم الجنزارة وضمونا الى جماعة كنيسة الدلن (١) » .

ثم ان المهدى كان قد أرسل الملك عمر من فقهاء التكارنة بسرية من الأنصار الى جبل الدلن فوجد بها كنيسة للمرسلين النمساويين بها قسيسان ، وأخان ، وثلاث راهبات فخربوها وساقوا الجميع الى المهدى فى الجنزارة وتم تسليمهم فى ٢٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، كما وجد قبل ذهابه الى الأبيض محطة مسيحية تبشيرية بالدلنج فتخلص منها (٢) .

وحينما اعتقلت الحكومة جماعة من أقارب المهدى بدنقلة أرسلت كتابا الى المهدى تساوم عليهم بما عنده من الأوروبيين والقسس ، فما كان من المهدى الا أن رد على اللورد ولسلى وكافة عسكره برسالة جاء فيها « .. وان ضربتم عن نصحنا هذا صفحا وبقيتم على اختيار كفركم فاعلموا أنه يحل بكم النكال والوبال ما حل بمن قبلكم كهكس وغردون ولن تغنى عنكم عدتكم من الله شيئا وستعلمون غدا من الكذاب هذا .

وليكن بعلمكم أنه قد ورد لنا خطاب من الجماعة الذين أسرتموهم فى شأن القسيسين والافرنج والأقباط يلتمسون فيه ارسالهم اليكم لكى تفرجوا عنهم ، وما ذلك الا من باب حيلكم ومخادعتكم التى لا تجدى نفعا . وحيث أن هؤلاء الجماعة الذين هنا قد أنابوا الى الله ودخلوا فى

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٥٨ ، ١٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦١ ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٢٠٠ .

الاسلام فقد صاروا أكرم الى الله وأعز عندنا من الجماعة الذين معكم وأسرتموهم ولا نرضى لهم الرجوع ليد الكفر بعد دين الاسلام ، كما انهم لا يرضون ذلك ولا يمكن ارسالهم اليكم ولو قطعتم الذين بطرفكم اربا اربا ، وجميع ما أجريتموه عليهم فهو أقل من جزائهم ، وأنتم وهم أسوة عندنا ولا فرق فيما بينكم ، ولا بد من وقوعكم الجميع فى قبضتنا باذن الله وتذوقوا السوء بما صدكم عن سبيل الله ان لم تنيبوا اليه وهذا انذارى اليكم والسلام على من اتبع الهدى (١) » .

وقد آزرهم بيكر وشد من أزرهم فحينما وصل الى غندكرو فى ١٨٧١/٤/٢١ وجد بها كنيسة فسره ذلك بلاشك ، وحينما حوصرت الخرطوم فى عام ١٨٨٤ نقل غردون ذخيرة الحامية الى كنيسة المرسلين الكاثوليك بالخرطوم (٢) .

وكانت آخر جماعة وصلت الى السودان تلك الجماعة التى جاءت مع الأب أروفالدر فقد وصل قبل الثورة بشهور ، واستطاعت الثورة أن تضع يدها عليهم وعلى كنيستهم (٣) .

وهكذا بدأت هذه الحركة التبشيرية برغبة البابا جريجورى السادس عشر عام ١٨٤٦ فى قيام مركز تبشيرى بالخرطوم تتلخص مهمته فى التنصير ، والغاء الرق ، والاتصال بمن يقيمون فى أعالى النيل من الكاثوليكيين ، وقد اشتدت حركتهم باشتداد نفوذ الأجانب فى السودان ومصر حتى انهم فى عام ١٢٠٩هـ طلبوا من الحكومة وابوروا لاحضار المبشرين « واذا فقد صار وجود الكنائس للتبشير والتعليم بالسودان أمرا مقررا ولا اعتراض عليه بل بالعكس كانت الحكومة تقدم ما يمكن من مساعدة (٤) » .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ص ٣١٧ ، ٣١٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٥ — ٢٥٣ .
(٣) التربية فى السودان جـ ٢ ص ١١٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٥ — ١٠٩ ، السودان فى قرن ص ٥٦ .

وقد تسترت أغراضها الدينية فى ظلال عملية التعليم فدخل مدارسها المسلمون وغير المسلمين ، ولم يقتصر تعليمها على الذكور فقط وانما تعداه الى الاناث . فقد كان القائد « لبتن » أحد قواد الحكومة متزوجا بجارية جنقارية تعلمت فى مدارس المرسلين بالخرطوم (١) .

ومن المبشرين الذين تركوا آثارا مازالت بارزة الى الآن فى السودان المطران دانيال كمبونى الذى وصل الخرطوم فى ٤ مايو عام ١٨٧٣ وشيد الكنيسة الكاثوليكية ، وغرس حولها حديقة غناء وأنشأ الكثير من المدارس فى الارساليات . كما أنشئت باسمه كلية الكمبونى التذكارية عام ١٩٢٩ بالخرطوم ، ومازالت لها مكانة علمية فى السودان الى الآن (٢) .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١١٧ .

(٢) النداء فى دفع الافتراء ص ٢٥١ .

الحياة العقلية فى عهد المهدية

(٤)

(ا) لقد كان للدعوة المهدية أثر كبير على الحياة العقلية فى السودان، فقد غطت الحياة بمعتقداتها ، وثورتها . ذلك لأن البلاد مرت فى عهدها بتجربة عميقة حركت جذورها ، وعمقت وجدانها ، وحقا لقد حملت الناس على التفكير سواء من دخل فيها أو من يقف يعارضـها ، أو من وقف على الحـافة متأرجحا . بحيث قد أصبحت هذه الثورة شيئا نفسيا عميقا فى السودان .

وقد مهدت لنفسها بأنها شيء خارق للعادة ، وأنها دعوة جديدة للخروج بالناس من القيود ، كما أنها شحنة روحية تتفق وعواطف الجمهور ، ويمكن أن تتعرف على أسرار هذه الدعوة من كتاب للمهدى فى أوائل دعوته فقد تضمن أنه منح الخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأن الرسـول أخبره بمهديته واستخلفه بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء الأربعـة والأقطاب والخضر ، وأن الله أيده بالملائكة والأوليـاء من لدن آدم الى اليوم ، وبالجن وقذف الرعب فى قلوب الأعداء ، وأنه قد أعلم أن النبى يحضر فى حروبه مع الخلفاء الأربعة والأقطـاب والخضر ، وأنه منح « سيف النصر » من الرسول ، وأن علامة مهديته خال على خده الأيمن ، وراية من نور يحملها عزرائيل فى حروبه .

ثم نراه يؤكد مهديته بأقوال الشيخ أحمد بن ادريس ، ومحيى الدين ابن العربى ثم يختم رسالته بأن النبى أخبره أن من شك فى مهديته فقد كفر ، وأن هذه المهدية موجهة للانس والجن فمن سيتعرض له فستشتعل النار فى جسمه بأمر السماء ، وأن اسمه قد نقش على بيض الدجاج وورق

الأشجار ، وأنه سيملك جميع الأرض ، وأنه من نسل الرسول ، وأخيراً فعلى الناس جميعا أن يهاجروا اليه (١) .

وقد استجابت الجماهير الى هذه الدعوى بحب كبير ، وتناقلوا فيما بينهم بعض الخوارق فقالوا انهم رأوا اسمه منقوشا على بيض الدجاج ، وأوراق الأشجار ، وأنهم حينما نزلوا بمنهل « فرتنقول » لم يجدوا من الماء ما يكفى عشرين منهم ، ولكن المهدى نزل الى المنهل وصفر فتدفق الماء غزيرا بحيث زاد على حاجة جيشه الذى كان يبلغ خمسين ألفا ، كما تناقلوا أن الجنة مفتوحة الأبواب لكل من يستشهد معه ، وأن الحور تسابق بجامات الفضة والذهب الى كل من يلقى الموت فى سبيل دعوته ، وقد ذكروا أن الهدندوين كانوا من أشد الناس ايمانا بدعوته وأن بعضهم تجمعوا حول رجل يموت وهم يتصايحون « هل ترى الحور العين مقبلة لتحملك الى الجنة » ولكن الرجل كان يصيح هو الآخر « حورية كاكا حورية كاكا » أى لا أرى الحور لا أرى الحور (٢) .

وقد ذكر الدكتور محمد صبرى أن الدراويش والفقهاء والأعراب الذين كانت تتألف منهم كتائب المهدى كانوا يتسابقون الى الموت تحت وطأة فكرة روحية سيطرت عليهم ، وألهبت تعصبهم وتحمسهم للقتال ، وأن منشورات المهدى اذا حللت كلها فلن توجد فيها اشارة الى الادارة المصرية والى الضرائب (٣) .

ونحن وان كنا نوافق الدكتور محمد صبرى على تحمس أنصار المهدى الا أننا لا نوافق على رأيه بأن منشورات المهدى لم توجد بها اشارة الى الادارة المصرية والى الضرائب . كما لا نوافق الدكتور جلال يحيى الذى ذهب الى هذا الرأى بقوله « ولم يحاول محمد أحمد أن يقوم بدعاية سياسيةمباشرة ضدحكام السودان ورجال الادارة والنظم القائمة فيه(٤)».

---

(١) تاريخ السودان لشقير جـ ٣ ص ١٢١–١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٩٦ ، ١٨٤ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧
(٢) المصدر نفسه ١٨٠ ، ٣٣٢ .
(٣) الامبراطورية السودانية ص ١٢٥ .
(٤) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ص ٢٤ .

والدليل على ذلك منشورات المهدى نفسه وكتبه فقد جاء فى رده على يوسف الشلالى باشا « وقولكم ان الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونسأل عن دمائهم بين يدى الله تعالى باطل ، لأن القطب الدرديرى قد نص فى باب المحاربة على أن أمراء مصر وجميع عساكرهم وأتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرها فيجوز قتلهم ، كما قال تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا » الى آخر الآية على أن النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا صريحا بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفار .

وقد جمع أصحابه فى « أبا » وقال لهم « أيها الناس ان الترك رجعوا لطلب المدد ، وسيعودون الى حربنا » .

وجاء فى منشوره الذى تضمن معظم تعاليمه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كما أجلسنى على كرسى المهدية قد أمرنى بجهاد الترك وقال لى ان الترك كافرون بل هم أشد الناس كفرا ونفاقا ... وقد أظهروا كتبا يريدون بها طفى نور الله تعالى ويسمونها كتب القانون مع شتم الاسلام وقهره ، أما ترونهم يسحبونكم فى الحديد والسلاسل لأجل أخذ أموالكم لا يوقرون كبيركم ولا يرحمون صغيركم ويحملونكم المشاق القوية ، وان أرواح الترك اشتكت الى وقالوا يا الهنا ويا خالقنا ان الامام المهدى قتلنا من غير انذار فقلت يا الهى أنذرتهم وخالفونى وصالوا على وسيد الوجود شاهد علينا . وقال سيد الوجود ذنبكم عليكم وانكم خالفتم وصلتم فقتلتم » وقد مر بنا قول المهدى . « ان سيد الوجود أمرنى بالتوجه الى كردفان فان الترك فيها آذوا المسلمين وضيقوا عليهم الخ » (١) .

ومهما يكن من شىء فقد ساعدت المهدى على خلق هذه الحياة الجديدة عوامل متشابكة منها شخصيته الذكية التى تلقفت احتياجات عصره الى

---

(١) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ص ١٥٥ — ١٩٥ .

منقذ ، ومعرفته بفنون الحرب ، وقدرته على الخطابة ، وتوفره على دراسة ما دار حول المهدى المنتظر واسقاط هذه الرغبات فى نفسه ، وقد ساعده الناس على هذا فقد كانوا يطلقون المهدية على كل رجل صالح .

ثم لقد استفاد من الطرق الصوفية ، والثقافة الشرعية فرسائله ومنشوراته وقوانينه تشهد بأنه كان عميقا فى معرفة القرآن والسنة وقول السلف . كما نرى تأثره غير المباشر بالوهابية لأن الوهابية أثرت فى السنوسية تأثيرا واضحا ، وما من أحد ينكر تأثير السنوسية الضخم فى السودان « ولاشك أن حركة محمد أحمد المهدى قد تأثرت بالدعوى الوهابية على الأقل عن طريق السنوسية ، ونلحظ مشابهة بين تعاليم السنوسية التى ذكرناها وبين ما صنعته المهدية (١) .

وقد راعى فى أحكامه وتشريعاته البساطة حتى يكون الدين فى متناول الرجل العادى فاختلاف المذاهب والنحل والفرعيات والشروح شىء لاقيمة له ، ومن هنا نراه يفتح باب الاجتهاد ، ويحرض عليه ، ويوجه الناس الى القرآن والسنة ، ويبطل العمل بالمذاهب الأربعة ، ويستخرج منها مذهبا اجتهاديا جديدا (٢) .

روى عن عبد الصمد حاج شرفى قوله « الحاج مرزوق رجل شايقى عالم كان قابل المهدى فى قدير « وسأله مرة قائلا معلوم أن المذاهب هى أربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى فما هو مذهب المهدى ، فقال له هؤلاء الأئمة جزاهم الله قد درجوا الناس ، ووصلوهم الينا كمثل الراوية وصلت الماء من منهل الى منهل حتى وصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيرا . فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لا تبعونا وان مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ » كما روى ود البدرى عن المهدى أنه قال فى مجلس له « أيها الفقراء والمهاجرون والأنصار ان كل من كان عنده مذهب أو نص

---

(١) تاريخ الثقافة العربية ص ١٢٧ – ١٢٨ .

(٢) مهدى الله لتوفيق البكرى ص ١٠٠ .

أو شيخ فيترك مذهبه ونصه وشيخه لأن هذا أخذ من هذا فقد أبعدوا من نور النبى صلى الله عليه وسلم ، ونحن جئنا نحيى نور النبى صلى الله عليه وسلم »

وروى كذلك عنه « اتركوا الكتب لكتاب الله فانها حاجبة عن فهم معناه » وقد أخذ عليه أنه قال « ان أقل أنصاره مرتبة يتفوق على الشيخ عبد القادر الجيلانى » وعندما سئل عن تفسير هذا قال « ان مناقب الشيخ عبد القادر كثيرة وهى أكثر من أن تحصى ولكن الشيخ عبد القادر لم يزل المنكر من غيره ولكن أدنى أصحابنا اذا رأى منكرا يزيله حالا بسيفه وقد قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم ... الخ » وقال الفكى (الفقيه) جلال الدين للمهدى « يا سيدى العلماء يسألون عن طريقنا وعن مذهبنا فما نقول لهم ؟ قال « قل لهم طريقنا لا اله الا الله محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب ، ما جاء من عند الله على رءوسنا ، وما جاء من النبى صلى الله عليه وسلم على رقابنا ، وما جاءنا من الصحابة ان شئنا عملنا به وان شئنا تركناه » .

ولم يقف الأمر عند هذا بل تعداه الى الطرق وحينما سئل عن ذلك قال « لو فرضنا أن كل قبيلة حفرت تمدة (ينبوع ماء) لتشرب منها ، واعتادت أن تشرب منها زمنا طويلا ، فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون به هل يكتفون بأن يشربوا من البحر أم يبحثوا وراء تمدهم ليشربوا منها » فأجابوه « اذا بحثوا عن التمد فلا يجدونه لأنه عمه النيل وصار جزءا منه » فقال لهم « هكذا الحال الآن » ولذلك نراه يبطل العمل بجميع الأوراد ، ويؤلف لأنصاره راتبا جديدا يقرأ يوميا وهو مكون من الآيات والأحاديث والأدعية (١) .

ثم نراه يقيم الحدود ، ويفتح باب الاجتهاد ويؤكد أن انكار المهدية كفر ، ويقيم حكومته على أسس سلفية فينشىء بيت المال ، ويفرض

---

(١) السودان فى قرن ص ٢٣٧ وما بعدها .

الزكاة والعشور ، ويقسم الغنيمة والفيء ويحذر من الغلول . كما يقسم رايات الجيش تقسيما اسلاميا ، ويمنع زيارة القبور ، وتدخين التبغ ، وييسر العبادات ، ويجدد فى المعاملات فينهى عن زواج البالغة بلا ولى ولا مهر ، ويحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر اذا لم يترك لها الزوج ما يعينها على الحياة اللهم الا اذا كان غائبا فى مواطن الجهاد (١) ويمنع النساء من لبس الذهب والفضة وشعر العارية ، وخروج الحديثات السن منهن بين الناس . كما أبطل الرقص والغناء وضرب الدلوكة (٢) .

هذه هى ثورة الفكر التى أحـدثها بين مريديه ، والتى ترتب عليها وجود الأصول الأولى للكتابة فى منشوراتهم فكانوا هم المؤسسين الأولين للنماذج المبكرة من الكتابة النثرية فى السودان (٣) .

وقد قام مؤلفـون باسم المهدية كاسماعيل عبـد القادر الكردفانى صاحب كتاب « المستهدى الى صراط الامام المهدى(٤) » ، كما قام شعراء سنذكر دورهم بعد ذلك .

ويعتبر أهم منشور عبر عن تعاليم المهدى هو هذا المنشور الذى ذكر فيه بعد البسملة أن النبى أمره بجهاد الترك ، وأن الجهاد أصبح مشروعا ، ومن أنكر مهـديته فهو كافر ، وأنه مأمور باظهار الكتاب والسنة . . وقد أمرنى سيد الوجود صلى الله عليـه وسلم أن زواج الثيب بخمسـة والبكر بعشرة ريالات تخفيفا لأمته ، ومن نقص الصداق عن ذلك فهو أقرب الى من بيـاض العـين الى سوادها ، واياكم والزيادات ، فامنعوا نساءكم عن النوح والتسنيم ، وذبح الأموال سرفا ، وأما كيفية الحافرين

---

(١) مهدى الله لتوفيق البكرى ص ١٠٠ .

(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، السودان فى قرن ص ٢٤٥ .

(٣) القلم الجديد (العدد ٧ — ١٩٥٣) مقال الادب السودانى فى القرن ١٩ للدكتـور احسان عباس .

(٤) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٥٥٩ .

والحاملين النعش فلا بد من ماله اذا كان له مال والا فمن بيت مال المسلمين فمن بكت أو سودت الباب أو ناحت أو حدت على غير زوجها فتؤدب حتى تظهر توبتهـا بالضرب والسخط بما يناسبها ، ونهيتكم عن التنباك الخبيث فمن شربه منكم فليؤدب حتى يموت أو يتوب ، وأن الجهاد فرض فمن تخلف عنه فهو عاص الله ورسوله ولا تقبل صلاته ولا صومه ولا صدقته بل أمره كله هدر فمن تركه من غير عذر باين فحكمه كذلك .

أطعموا طعامكم المجاهدين فمن لم يأخذ البيعـة من الأمراء أصحاب الرايات الذين يخرجون من عندنا لأجل الجهاد فهو منافق ملعون . فأما العالم التابع الى فى مهديتى فهو كالنبى المرسل ، والعامى التابع لى كرتبة الشيخ عبـد القادر الجيـلانى ، والعالم المخالف لى كفرعون ، والعامى المخالف لى كهامان .

ومن علامة مهديتى أن النار تخرج من ثقب السلاح ، أى يخرج دخانا ، وأن الله قوانى بالملائكة الكرام ، وعزرائيل حامل لواء نصرتى ، وأن الخضر وسيد الوجود والأولياء من عهد أبينا آدم الى هنا معى ، ومؤمن الجن كذلك معى ، وقد أمرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن يخرجوا الأحراز ساعة الملاقاة كون الجان تنفر منـه ، وأمرنى بأن أتوكل على الله كيف يهتم العبد بالرزق حيث ضمن الله رزقه لقوله تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون ، وقوله تعالى وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ... ومن سرق منكم سرقة قل أو كثر فاقطعوا يده لأنه يوم القيامة بلا يد ، ويتخبط كما يتخبط العبد فى الدنيا بجس الشيطان ، لا بارك الله فى ولى تركه أو أمير استعان به ، وكذلك الزانى يرجم اذا كان محصنا ويجلد البكر ، وأما المرأة فاذا دخلت بالأجنبى الذى يخشى عليها منه فيؤدبان بالاجتهاد لأن الشـاب والشابة اذا تلاقيـا يكون الشيطان وليهمـا فلا بأس بمقاضاة الحـاجات بحضرة واسطة من النـاس ، ومن ترك الصلاة أو تهاون بها قتل حدا فى ضرورية ، وأما من تعدى منكم على أخيه ببسط

لسانه فى عرضه أو ماله فهو ليس منى وأنا لست منه ، وان ادعيتم أنكم أتباعى ولم تفعلوا فعلى فانكم منافقون لقوله تعالى « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » فاذا لم تتحـابوا كالأخوين من الأبوين فليس أنتم أتباعى ، ومن ستر على سرقة رآها أو شرب خمرا أو زنى فكتمه رأفة عليهم فهو كالفاعل ، ومن تخلف عن الجهاد بصحة جسم لابارك الله فيه ، واذا أخذتم ذنب الأبقار والأغنام والابل والزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم . اتركوا التفاهات ، وفراوى الريف لأن موت النفوس حياتها ، والبسوا الجبب والمرقعات ، ولبسوا نساءكم الثياب الخلقة . . وان الشخص اذا أخذ البيعة وعاد الى فعله الخبيث فهو كالمرتد ، ولا تمنعوا الأراضى لأنها لا تملك بل محوزة لبيت مال المسلمين ... اننا نظهر بالمشرق ويملأ الله لنا البلدان عدلا كما ملئت جورا ، ويدر الله لنا الأرزاق درا ، ويفيض الماء فيضا ، وتتآنس الذياب .. ويأمن كل مؤمن من سم الحية ، وهـذا كله بعـد وصولنا لبيت الله الحرام ، والبيعة الثانية هى الكبرى وتسمى بيعة الفوز والرضوان .

أيها الأحباب قد أمرتكم أن من ترك منكم عقيقة ابنه فليدعها لأن الروح تشكى الى وتقول والدى لم يدعنى فاعطنى اسما أو عرية ، فيقول الله لها سمى نفسك بنفسك وكذلك من لم يسمه أبوه فليسم نفسه ولو بعيد الشيب والهرم ، فيا حسرة أب لم يسم ابنه . كذلك تجب اعادة الزكاة لمفرطها والصوم والكفارة فتفحصوا من الذنوب . . وحكم الناس أن المرأة الناشزة لزوجها احبسـوها فى الأوكار والبيـوت المظلمة حتى ترجع أو يتوفاها الله تعـالى كالزانية ، فمن ثبطت نفسها عن زوجهـا فمالها غنيمة لزوجها ، وان راضاها فماله غنيمة للمسلمين ، فان فعلوا ذلك فلا تعودوهم ان مرضوا ولا تشيعوا جنائزهم ولا تعينوهم عنـد الشدائد .. واعلموا أن الوقت قد أزف وربما قام كالشمس تكون فى أوكار غروبها ، وتجنبوا عن النساء واللذات العديدة التى تورث صاحبها الكبر والبطر .. وأموال

الغنيمة وإن قلت كابرة فانه لا يدخل الجنة الا من أخذها بقسمة أو شراء أو استحق شيئا من بيت مال المسلمين . . ليتعلم بعضكم من بعض وليتأدب بعضكم لبعض وليكسر طرفه لأخيه المجاهد وألا يعلو عليه وأن يساويه فى الفراش والأكل الا الضرر المبين وان الأمراء والعاميين فكلهم على حد سوى الا فى الأمر والنهى ، فليحبوهم ولا يتفاضلون عليهم فى المركب والملبس والأكل ، فمن فعل ذلك فهو مردود منا .

أيها الأحباب كونوا ربانيين وفوضوا أمركم الى الله فان النصر لكم وإن القتل الذى ترونه امتحانا لكم وليس يريد به تضعيف المسلمين ، وان الله مع المؤمنين والسلام (١) » .

هذه هى الاثارات العقلية التى هزت بها المهدية وجدان المجتمع الجديد . فقد حطمت قواعد كان متفقا عليها ، وأضافت جديدا مخالفا لمعتقدات الناس ولما هو متعارف من الدين . فهى قد أشاعت جوا عقليا جديدا يفكر الناس من خلاله ، ويطبعهم بطابعه الجديد .

ومما لا شك فيه أن هذه العقلية كانت نتاجا طبيعيا لظروف الحياة فى السودان ، وللعقلية السودانية التى كانت تتسم بالبساطة والتأثر بالغيبات . ثم لعقلية المهدى نفسه ، ولوجهة نظره فى الحياة ، ثم لثقافته التى استمدت مقوماتها من الطريقة السمانية التى تأثر بها تأثرا كبيرا وللخلوتية ، ثم الى الوهابية والسنوسية . وقد ساندته مدرسة واكبت دعوته ، وامتصت مقوماتها ، ووقفت تذود عنها باخلاص وعمق ، ومن هؤلاء المشايخ محمد الخير ، والحسين الزهراء ، والأمين الصويلح ، وودبقار (٢) ومحمد جبريل من كبار رجال الحبشة الذين هاجروا الى المهدى (٣) .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣٦١-٣٦٧ .
(١) السودان فى قرن ص ٢٤٥ .
(٣) بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٦ .

(ب) موقف المعارضة من المهدية

كان من الطبيعى أن تلاقى هذه الحركة الجديدة معارضة قوية . فانها اذا كانت قد لقيت ترحيبا من الشعب فانها ستلاقى المعارضة الشديدة من الحكومة ومن المثقفين وأشباههم وسيكون نتاج هذا كله صراعا ضخما بين العقول ، وثمرة فكرية تنضجها حركة الحياة الجديدة ، وتقدمها كدليل على حركة الصراع الفكرى الذى ساد المجتمع السودانى فى هذه الفترة من الزمن ، وسنرى الدور الذى قامت به الحكومة فى هذه الفترة .

١ — حين وصل أمر هذه الدعوة الى رءوف باشا حكمدار السودان عن طريق الشيخ محمد شريف لم يعطه شيئا من العناية فقد حسبه ضربا من ضروب التنافس بينهما ، ولما شاع أمر منشورات المهدى خشى أن تكون مدسوسة عليه فكتب اليه فى شأنها ، وقد رد المهدى برسالة جاء فيها : « ولكن المعلوم أنه أتانى من الحضرتين النبـوة وحضرة الأقطاب سيف وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ، ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله اما بالخسف أو الغرق . . وكل ذلك لم أعمل فيه بشىء من نفسى ولا لغرضى ، وانما هو من الله — ١٢٩٨ هـ » .

وحين وصلت هذه الرسالة اطلع عليها الحكمدار وعلى بعض المنشورات طائفة من العلماء « فالتمس له بعضهم عذرا فى أنه قد حصل له جذب سماوى من انعكافه على الزهد والعبادة » ولكن الجميع اتفقوا على أمر القبض عليه قبل أن يستفحل خطره ، وهكذا وجه اليه الحكمدار حملة لتعود به الى الخرطوم (١) .

ونحن نرى هنا أن رءوف باشا عالج هذا الأمر بضعف ، وعدم مبالاة ولكن حينما قويت شوكة المهدى ازداد اهتمام الحكومة فأصدر السلطان

---

(١) السودان فى قرن ص ١٣١ ، تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

عبد الحميد منشورا الى جميع البلاد الاسلامية يكذب فيه هذه الدعوى ، وكذلك استفتى رجال الأزهر فى أمره فاتفقوا جميعا على تكذيبه ، ونشر مجلس النظار منشورا بذلك ، وقد ذكر نعوم « أن الحكومة لم تستفت علماء الأزهر فى أمر المهدى الا فى شهر محــرم سنة ١٣٠١ هـ أى بعد مباشرتها الحرب سنتين وأربعة أشهر وعجزها عن القيــام باستمرار الحرب فكان رجوعها بعد ذلك الى الاستفتاء رجوع فرعون الى الايمان (١) .

ثم ان الدعوة الى التكذيب لم تأخذ طابعها الجدى فى البلاد الا حينما ذهب عبد القادر باشا الى السودان كحمدار له فنراه يجمع علماء الخرطوم ، ويطلب رسائل فى التكذيب ثم يأمر بطبعها وتوزيعها على البلاد .

ومن هذه الرسائل رسالة السيد أحمــد الأزهرى واسمها « النصيحة العامة لأهل الاسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الامام » مهد فيها بهذه الدماء التى تراق من أجل هذه الدعوة التى تلاقى هوى فى نفوس العوام ، وأن فى هذا الأمر خروجا على طاعة الحكام الذين تجب طاعتهم ، ولا يمكن نبذ بيعتهم ، وطرح عهدهم ، ولو اتصفوا بالفسق ما لم يكفروا ، وأن المهدى فى دعوته لا يستند على الأدلة العقلية والنقلية لأنه مولود فى بلاد السودان ولم يذهب الى مكة أو المدينة « والذى ذكره العالم المحدث شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى نزيل مكة فى كتابه الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة نقلا عن الامام على كرم الله وجهه أنه قال مولد المهدى بالمدينة » .

ثم ان الأحاديث الواردة « ليبعثن الله رجــلا من عترتى أفرق الثنايا أجلى الجبهة . . . » ، « المهدى من ولدى وجهه كالكوكب الدرى اللون لون عربى والجسم جسم اسرائيلى » ، وما ورد فى وصــفه من أنه شاب أكحل العينين . أزج الحاجبين . أقنى الأنف . كث اللحية ، على خده الأيمن

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ص ٣٧٤ .

خال . . هذا ليس فى المهــدى شىء منه سوى الخال ، فان ثبت مع انتفاء الصفات الأخرى فلا قيمة له .

ثم ان العلماء ذكروا أن ظهور المهدى سيكون بعــد كسوف القمر فى أول ليلة من رمضان وأن الشمس تكسف فى النصف منه وهذا شىء لم يحدث وبخاصة اذا عرفنا أن المهدى أثار دعوته فى شعبان .

ثم ان الشــيخ الشعرانى ذكر فى مختصره أن المهدى يخرج فى آخر الزمان من أقصى المغرب وأن النصر يمشى بين يديه أربعــين ميلا ، وأن راياتها بيض وصفر وبها رقوم واسم الله وأنها لن تهزم أبدا ، وأنها ترفع أول ما ترفع من ساحل البحر بموضع يقال له ماسة من جبل المغرب . فان قال قائل ان جبــل باقدير بالسودان يقال له ماسة يرد عليه وأين هو من المغرب والبحر ، وأن من يحملون راياته يقتلون .

ثم ان الامام الذى هو خليفة النبى موجود الآن ، ولم يقم اختلاف فى أمر الخلافة حتى يدعيها محمد أحمد . فدعواه بالخلافة الكبرى والمهدوية مع وجود الخليفة وطلبه من الناس مبايعته شىء يخالف النص الذى أخرجه ابن عساكر عن على ، زيادة على أن نبذ عهد الخليفة الحالى وطرح بيعته مع أنه لم يكفر لا يجوز شرعا .

ومما ذكرناه يعلم رد جميع الأدلة التى تنقل عنه بأنه يستدل بها على ايجاب طاعته والزام موافقته لأنه لم تثبت امامته مع وجود الامام فجميع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المعزوة اليه بأنه يستدل بها مسوقة فى غير موضعها .

وما رواه الامام أحمد وغيره « المهدى منا أهل البيت يصلحه الله فى ليلة » يخالف ما عرف عنه من اتباعه السمانية على الشيخ محمد شريف ، والخلوتية على الشيخ القرشى ، وحضوره لمجالس العلماء ، ثم ان الحاكم روى فى صحيحه يحل بأمتى فى آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاء أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلا من عترة أهل

البيت يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ، يحبه ساكن الأرض وساكن السماء ، وترسل السماء قطرها وتخرج الأرض نباتها كله .. وشيء من هذا لم يحدث فى حكومة الدولة العثمانية ، والذى يحدث أن من يقع فى قبضة محمد أحمد يسخط عليه لأنه يقتل وينهب .

ثم لقد ذكر انه حينما يبعث المهدى ينادى ملك على رأسه بهذه المهدية فيقبل الناس عليـــه ، وأن أول مبايعة له بين الركن والمقـــام ، وأنه مؤيد بثلاثة آلاف من الملائكة ، وأن أهل الكهف من أعوانه . . الخ لا ينطبق عليه .

واذا كان قد ورد أن السماء ترسل قطرها ، وأن الأرض تخرج نباتها ، وتفتح الكنوز ويكون الغنى غنى القلوب ، وأن الأموال تتدفق تدفقا . فان شيئا من هذا لم يشاهد فى السودان ، بل ان الذى يشاهد فيه دائما هو قلة الأمطار وغلاء الأسعار وتكالب الناس .

ثم أخيرا ان كل ما ذكره المحققون لا ينطبق عليـــه ، وقد تمت هـــذه الرسالة فى عام ١٢٩٩ .

ومن أهم الرسائل التى ألفت لهذا الغرض رسالة المفتى شاكر الغزى مفتى مجلس استئناف السودان ، وقد بدأها بحمد الله والثناء على رسوله ، وبيان الغرض من رسالته . ثم تعرض فى المقدمة لوجوب طاعة السلطان وولاة الأمور ، وبين فى الفصل الأول بطلان دعوة محمد أحمد وأن العلماء فى أمر « المهدى » قد انقسموا الى قسمين قسم يقول بخروجه وقسم يقول بعدم خروجه « وعلى القول بخروجه فهذا ليس زمانه ، ومحمد أحمد ليس هو المهـــدى المنتظر لمخالفته له فى أوصـــافه وفى مكان مولده ، ومكان خروجه ، ووزرائه ورجاله » ثم نهى فى الفصل الثانى عن اتباعه ونصيحة من اتبعه ، وذكر فى الخاتمة وجوب قتل الخوارج ونصرة السلطان ثم يقول عن الحكومة « فكم للحكومة عليكم من الاحسان الجليل والغفران الجزيل

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣٨٣ — ٣٩١ .

فانها ربتكم فوق مهد عدلها ، وأدرت عليكم وافر فضلها ، وخلصتكم من ملوككم الأولين الذين اتخذوكم عبيدا وخولا ، وعمرت بلادكم وأمنت أوطانكم وكثرت زراعتكم بعد أن كانت بلادكم بغاية الخراب .. وما نأخذه منكم من المطاليب الميرية ينفق مع زيادة عليــه منهــا فى مصــالح بلادكم الضرورية (١) » .

كما كتب الشيخ الأمين الضرير شيخ الاسلام فى عموم شرق السودان رسالة سماها « هدى المستهدى الى بيان المهدى والمتمهدى » ولم يقف أمر الرد على المهدى بالنثر فقط ، وانما تعداه الى الشعر .

كما سنرى فى قصيدة الشيخ محمد شريف .

وقد أرادوا تعجيزه ففى رده على رسالة يوسف الشلالى باشا يستفاد أنهم قالوا له « لم ترسل طليعة والمهدى يعلم الغيب ضرورة » فكان رده ان الرسول كان يرسل الطلائع كحذيفة والزبير ولم يناف ذلك رسالته كما قالوا له « أرسل الينــا ملكا من الملائكة » الذين كان يذكر أنه مؤيد بهم فكان أن رد عليهم بقوله تعالى فيما يختص بالرسول « وقالوا لو لاأنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » .

وقد واصلت عمليات التكذيب التى لم يكن لها أثر يذكر طريقها حتى كان « غردون » فكان من المفــارقات أن يجمع العلمــاء فى الخرطــوم ويستكتبهم نصحا شرعيا حول بطلان دعوة المهدى وتكذيبه (٢) .

(ج) موقف المعارضة غير الحكومية

كان من معارضى المهدى أســتاذه الشيخ محمد شريف فقد ذكر أن المهدى حين بدأ ذكره يشيع كبرت نفسه ، وسول له الشيطان أنه المهدى المنتظر ، وأنه أسر فى أول الأمر بهذه الدعوة اليه ورغبة فى أن يكون وزيره

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣٧٥ — ٣٨٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٣٧٤ ، ٢٣١ .

ومستشاره ، وكان ذلك فى (١٢٩٥ ـــ ١٧٧٨) ولكن محمد شريف غاضبه ونهاه أكثر من مرة ثم عقد له مجلسا فى « أبا » من القضاة والنظار وبعض الأخيار ، وطالبه فيه بالرجوع عن دعواه وأنه ان قبل هذا الرجوع فيشاطره ما يملك من مال وعقار . فطلب الخروج لمشاورة أصحابه ولكنه لم يعد فأخرجه من طريقته ، وقال لأصحابه ان جاءكم فاضربوه . ثم تحدث فى أمره الى قائمقام الكوة مطالبا بالقبض عليه ، ولكن القائمقام ذكر له أنه رجل صالح وصاحب الخضر ولن يمسه بسوء فقد كان قبل دعوته مشهورا بالصلاح وباقبال الناس عليه .

وقد بدأت دعوته فى أول أمرها بالسرية الى خلصائه . ثم أخذ يكاتب أصحابه من الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق والقبائل مطالبا بتصديقه والقيام معه .

وحين ذهب اليه الجنود فى « أبا » وجدوا فى منزله الردود على رسائله التى كتبها من قبل ، وأكثرها يتضمن تسليما بدعوته واستعدادا لنصرته ما عدا الشيخ حمد النيل شيخ العركيين فى ابى حراز ، والشيخ محمد السقا فى الخرطوم ، والشيخ أحمد الكنانى فى الأبيض فقد سفهوا فى ردهم على المهدى رأيه قائلين له « ان المهدى عند ظهوره يظهر كالشمس فان كنت نائما فاصح » .

وقد هاجر اليه الشيخ المضوى عبد الرحمن أحد الذين درسوا فى الأزهر فوجد عنده فى جبل قدرير ١٥٫٠٠٠ مقاتل من أخلاط الناس بينهم عدد كبير من العلماء « ووجدت العلماء معه فريقين فريقا اعتقد أو تظاهر بالاعتقاد بأنه المهدى المنتظر لا ريب فيه وجميع العامة من رأى هؤلاء ، وفريقا قالوا انه ساحر وأنه انما فاز بالحرب بسحره لا بمهديته ، وأما أنا فقد رأيت منه ما حملنى على الارتياب بأمره . فأولا انى رأيته يؤثر أقاربه واخصاءه بالغنيمة على بقية جيشه ولا يقسم بينهم بالتساوى كما يطلب الشرع ، وثانيا انى رأيت بعض أنصاره نزلوا على تجار سائرين فى تجارتهم

فقتلوهم وأخذوا أموالهم ووزعوها بينهم ولم ينكر عليهم ذلك ولا قاصهم، وثالثا انى رأيته يقول ان من أنكر مهديتى فقد كفر مع أن أركان الايمان فى الاسـلام التى اذا انكر الانسان ركنا منها يعد كافرا هى ستة والايمان بالمهدى ليس منها ، ورابعا انى لم أر فيه شيئا من العلامات الاجمالية التى أعرفهـا عن المهدى ولكنى أردت التخلص منه فأظهرت له الاعتقاد التام بمهـــديته (١) .

وقد كتب الى السلطان رابح يأمره مستحثا اياه على العودة بجيشه القوى الى السودان ولكن رابح لم يقبل .

كما كتب الى السنوسى ليستعين به ، وليهدد به مصر فلم يرد ، ثم عاد فكتب اليه ثانية فى (٥ رجب ١٣٠٠ — ١٢ مايو ١٨٨٣) مذكرا له بمهديته وأن رسالته الأولى ربما لم تصل اليه « جاءنا الأخبـار فيك من النبى (صلعم) أنك من الوزراء ثم ما زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبى الخضر عليه السلام بأحوالكم وبما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عن النبى (صلعم) فيما خلفه من أصحابه من أصحابى فاذا جلس أحد أصحابى عـلى كرسى أبى بكر الصديق وأحدهم على كرسى عمر وأوقف كرسى عثمان فقال هذا الكرسى لابن الســـنوسى .. ولا زالت روحانيتك تحضر معنا فى بعض الحضرات مع أصحابى .. فاذا بلغك جوابى هذا اما أن تجاهد فى جهاتك الى مصر ونواحيها ان لم يسلموا واما أن تهاجر الينا ولـكن الهجـــرة أحب » .

ولم يرد السنوسى على هذه الرسالة وانما اكتفى بقوله للرسول الذى كان يحملها « قل لمحمد أحمد اننا لا نساوى التراب الذى كان يطـؤه عثمان بن عفان » .

ومن العلماء الذين لم يجرفهم تيار المهدية الشريف محمـد الأمين بن

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٤٦ .

الشريف يوسف الهندى فقد اجتمع مع المهدى الذى حدثه فى أمر مهديته ولكن الشريف لم يستمع اليه .

كما كتب الشيخ محمد الزاكى الى المهدى بالأمور التى خالف فيها الشريعة بالتفصيل قائلا له انى أكتب اليك ناصحا فلا تطلع أصحابك على نصيحتى والا قتلونى فاذا لحقنى شر بسبب ما كتبت فستكون « كلمة حق عند سلطان جائر » .

ومن الذين ثاروا على تعاليمه الشيخ محمد نور أحمد فقد كان يصلى كثيرا بالصلاة الجزولية فلما أمر المهدى بمنع القراءة الا بأوراده تميز غيظا وقال لن أستطيع ترك هذه الصلاة ، وأنا راض بما يصيبنى من قراءتها فما كان من المهدى الا أن أقره على طلبه .

وقد حاول المهدى بعد موقعة الأبيض أن يعتنق محمد سعيد باشا ورجاله فكرة المهدية ولكنهم لم يقبلوا فقتلوا .

وقد ذابت الطرق الصوفية جميعا فى المهدية ما عدا « الميرغنية » فقد وقفت ضد المهدية فى صلابة وجرأة ، وكان السيد محمد عثمان من الذين كتب لهم المهدى ولكنه لم يستجب اليه ، فقد وقف مع أنصاره وفى ظل تأييد الحكومة موقفا عنيدا من الحركة المهدية فلما شددت المهدية على منطقة كسلا الحصار خشى الوقوع فى أيدى رجال المهدى فخرج قاصدا مصر فى ٣٠ يونيو عام ١٨٨٤ ، وظل بها حتى دفن ومقامه مشهور فى باب الوزير وقد تولى أمر الطريقة من بعده السيد البكرى ، ولكنه لم يستطع الوقوف فى وجه المهدية التى سرعان ما احتلت قرية الختمية ، وحاصرت كسلا ، وهدمت قبة السيد حسن الميرغنى وجامعه فى عام ١٨٨٥ (١) .

ومع أن بعض الأفراد قد تنبهوا الى حقيقة هذه الدعوة الا أن اعتناق الجمهور لها كان جارفا . وقد وصل هذا الاعتناق الى حد الايمان المطلق

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ .

بالدعوة وصاحبها فكانوا يرددون عند القتال « الجنة جت قريبة تحت المدفع والزريبة » ، وروى أن جعليا قدم صديقا له الى المحكمة لأنه قال له عند وداعه « الله يكتب سلامتك » حتى انهم سموا التجار « كلاب الدنيا » لتقاعدهم عن الجهاد (١) .

وهكذا صهرتهم هذه الدعوة الجديدة بحيث أصبحوا جميعا جبهة واحدة من الايمان المطلق بها .

هذه هى الحياة العقلية فى عصر المهدى فالناس بحكم ظروفهم ورغبتهم فى التخلص من القبضات الدخيلة مضطرون لقبول أية دعوة جديدة ولا سيما اذا كانت دعوة تتكىء على وجدانهم الدينى ، وعلى ميراثهم المحدود فى الثقافة . فالثقافة التى كانت تسيطر عليهم فى هذا الوقت ثقافة دينية سطحية ، وصوفية غيبية وكلتاهما لا تنكران ظهور المهدى . حتى ان العامة كانوا يطلقون على كل رجل صالح لقب المهدى .

وقد استفاد المهدى بذكائه من هذه العوامل ، والى ما سوله له الخليفة عبد الله التعايشى من أنه المهدى المنتظر ، والى عكوفه على أخبار المهدية والأحاديث التى رويت فيها ، وما قاله فيها المتصوفة كابن العربى ، والشعرانى فرسائله ومنشوراته مستوحاة من كل ما قيل فى المهدية ، وتعتبر تطبيقا حيا لهذه الفكرة كما كانت معروفة فى هذا العصر ، مما يدل على أنه كان مؤمنا بتبسيط مظاهر الحياة من حوله ، وبالتشيع ، وربما كان معتمدا على نظرية « الفيض الالهى » التى يذكر اخوان الصفاء انها تكون على الأئمة أقوى فيض ، وأن لها مظاهر دورية قد تتفوق فيها على رسالة الأنبياء ، وكما تحركت الأفلاك بتحريك النفس والعقل والطبائع كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبى والوصى فى كل زمان (٢) .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣٧٣ .

(٢) اخوان الصفاء للاستاذ عمر الدسوقى ص ١٤٦-١٤٩ ، المهدى والمهدوية ص ١٩ .

فالامام عندهم له صلة روحية بالله من جنس الصلة الروحية التى تكون للأنبياء والرسل حتى لقد صرح اخوان الصفاء بأن علم آل البيت ليس الا علما الهيا وتأييدا ربانيا (١) .

هذه هى المدرسة العقلية الكبرى التى طبعت العصر بطابعها والتى اعتمدت على جذور ضاربة فى أعماق الشعب . أما مدرسة الانكار عليه فكانت خافتـــة ضعيفة لا تهتم بدحض الدعوة الجـــديدة قدر اهتمامها بالدعوة للسطان وولى الأمر ، كما كانت تمثل الطبقة العليا من المجتمع .

وفى خلال هذا الصرع أغلقت المدارس والخلاوى ، وتعطلت دروس العلم وتكونت أجهزة جديدة للتعليم تصدر عن المهدية وتعاليمها ، وقد قدم الفكى (الفقيه) أحمد ولد حمدان العركى قائمة كتب للمهدى راغبا فى أن يأذن له فى تعليمها للناس ، ولكن المهدى رأى الاكتفاء بتفســير القرآن ، والحديث ، والسير المســنودة الصحيحة ، وأما كشف الغمة للشعرانى فهو مقبول (٢) .

ومهما يكن من شىء فدور المهدية فى هذه الفترة لم يكن محليا ، وانما تجاوب صداها الى أكثر من مكان حتى وصلت الى الهند ، وبخاصة بعد وقعة « هكس » فقد حذر الانجليز مغبة هذه الدعوة ونشروا فى أرجاء الهند مئـــات الألوف من فتاوى العلمـــاء المنكرين لها ، وقد ذهب بعض ساستهم الى الزعيم المصرى « أحمد عرابى » فى منفاه بسيلان يسألونه عن مهدى السودان ولم يقف الأمر عند الهند وانما تعداه الى كثير من الدول الآسيوية كالصين (٣) .

---

(١) اخوان الصفاء للاستاذ عمر الدسوقى ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) السودان فى قرن ص ٢٣٨ ، السيف والنار تعريب جريدة البلاغ ص ١٠١ .
(٣) الاسلام فى القرن العشرين للاستاذ العقاد ص ٧١ ، ٧٢ ، ١٤٢ .

الحياة العقلية فى عصر الخليفة

لم يطرأ شيء جوهرى على الحياة العقلية فى عهد الخليفـة عبد الله التعايشى فقد كانت امتدادا للحياة العقلية فى عهـد المهـدى . ذلك لأن الخليفة قد حافظ على المهدية وتقاليدها ، وبدأ دوره بقوله « أنا جار على أثره ومقتف أثره » .

وادعى أن الله يتجلى له ومعه النبى والخضر والمهدى ، وقد روى هذه الحضرة لأنصاره فى الجامع فقال « .. حصلت الى حضرة عظيمة بين اليقظة والمنام ، وهى أنه حضر الى واحد من الجن وطلب البيعة فسألته عن اسمه فقال كان اسمى السـابق ماشى لأنى كنت لا عقل لى وأما الآن وقد حضرت الاسلام فاسمى خاشى .. فقلت له قل آمنا بالله والرسـول وآمنا بالامام المهدى وبك فقال ثم أعطيته البيعة .. وطلب الاذن فى الذهاب الى أهله ليدعوهم الى حضور الصـلاة هنـا وملازمة الصف فأذنت له وذهب .. وبعد انصرافه حضر جن بكثرة طالبين البيعة ورافعين أصواتهم بلا اله الا الله محمد رسول الله . فلقنتهم البيعة ثم حضر نساؤهم فبايعننى أيضـا . ثم طلبوا الانضمام الى الأصحاب فى الرايات . ثم طلبوا محـلا يسكنونه فى المدينة فخيرتهم فاختاروا الجبال التى بقرب المدينة (١) . ثم قال لى الخضر أخبرنى المهدى أن أخبرك أن فى ساعة الحرب النبى معك والمهدى والخضر معك والملائكة معك فقلت من هم الملائكة الذين معى فقال جبريل ومكائيل واسرافيل وعزرائيل ومنكر ونكير ورقيب وعتيد ومالك ورضوان وأرواح جميع المؤمنين من أبينا آدم الى الآن ، وكذلك جميع المؤمنين من الجن وقد جعل الله روح من يعاديك فى رءوس حراب الانصار وسيوفهم » .

---

(١) كانوا سبعين الفا .

ولقد كتب الى عامله حمدان أبي عنجة يخبره أن الأنوار ظهرت على أسلحة الأنصار وأن بعض الحراب سمعت تنطق بالشـهادة وأن احدى الرضيعات نطقت بلسان فصيح « لا اله الا الله محمد رسول الله » مع أن عمرها لم يتجاوز الشهرين(١) .

فخلق الخرافة وتشجيعها بين النـاس ما زال موجودا ، والانتصار للمهدية والدعوة باسمها ما زال قائما . فقـد كتب الى الخديوى توفيـق مؤنبا لأنه اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ولم يعترف بالمهدية ، وكتب انذارا للملكة فيكتـوريا ملكة انجلترا طالبها فيـه بالدخول فى الاسلام ، كما كتب للسلطان عبد الحميد متوعدا وساخرا منه لأنه يتعاون مع أهل الكفر والعدوان مع أنه سلطان الاسلام ، ولم يقف الأمر عنـد هذا الحد بل تعداه الى قبائل نجد والحجاز وملك الحبشـة ، والشيخ محمد السنوسى ، والسلطان رابح . حتى لقد استجاب رابح الى دعـوة الخليفـة وسار بجيشه الى السودان لولا أنه قابل عنـد بلدة « ربو » بالكنغو الشيخ نوح المحسى ، والشريف أم دارفور والسرناوى فصوروا له الارهاب الذى يعيش فى ظلاله السودان « وذكروا له فيما ذكر أن أول تكريم سيقابل به عند وصوله هو تجريده من ماله وابعاده عن جيشه(٢)»

فالبيئة العقلية هنا هى البيئة العقليـة هنـاك مع شيء من الغلظة ، والحنكة السياسية والتمييز بين عشيرته من البقارة وغيرهم .

ويرجع اليه الفضل فى أنه أثار العقلية السودانية حين جعل التعليم اجباريا فقد أصدر أمرا الى الأمراء بأن يجتمعوا بعد الغروب . ثم توقد النار ، وعلى ضوئها يعلمون الناس القرآن ، وقد ظل الناس على هـذا الحال عامين والخليفة يراقبهم ، ويتفقد أحوالهم ، ويقـرب بينهم نفسيا واجتماعيا . فقد أدرك قيمة التعليم ، وقيمة فهم الناس لدينهم مباشرا من

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ٦١٢ ـ ٦١٥ .

(٢) الســودان فى قرن ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، مقال عن السلطان رابح لعبده بدوى « عـدد اغسطس ١٩٥٨ » من مجلة نهضة افريقية .

الكتاب والسنة والمنشورات ، وهكذا نراه يعترف بالمنشورات كأصل ديني ، ويأمر القضاة بأن يحكموا بالكتاب والسنة .

ومهما يكن من شيء فقد ظل متحمسا لهذا النوع من التعليم الاجبارى ، وسعيدا به ، وبخاصة حينما كان يسير بين العامة فترتفع أصواتهم بالقرآن ذلك لأنه لم ييأس من تعليمهم على كبر لانه تعلم هو الآخر القراءة والكتابة على كبر (١) ، ولذا نراه يحب أن ينتفع الناس بما انتفع به ، ونراه من ناحية أخرى أول من وضع بذور التعليم الشعبى العام فى هذه البلاد ، ولقد شهد له أعداؤه بأنه خصص حجرات مجاورة للمسجد بأم درمان لتعليم البنين بل ولتعليم البنات على أيدى شيوخ أوقفهم على هذا العمل . وبعد هذا اللون من الدراسة كان يرسلهم بعد ذلك الى بيت المال ليمارسوا نوعا من الدراسة التجريبية ، وليتقنوا الرسائل (٢) .

وقد قام بهذا المجهود وسط المشكلات المتعددة التى كانت تحيط بملكه من حرب الى حصار الى مرض الى مؤامرات الى انقسامات ، والحق ان هذا الرجل كان عقلية سياسية وحربية فى غاية القوة ، وأكثر الذين كتبوا عنه شوهوا تاريخه لأن قبضته كانت شديدة على البلاد وقد اضطر الى هذا لأن المهدى ترك البلاد بدون سياسة منظمة ، ولأن رءوس الشك قد ارتفعت من حوله تهدد النظام القائم .

ومن هؤلاء الذين تحاملوا عليه ابراهيم فوزى باشا (٣) فقد ذكر أنه كان أميا يجهل القراءة والكتابة ، وأنه حين كان يؤم الناس فى الصلاة الجهرية يسر حتى لا يسمع أحد من وزرائه قراءته التى يرجع الأكثرون أنها لم تكن قرآنا » .

كما سخر من عملية التعليم الاجبارى وكانت حجته أن الأمراء ومن

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٢ ص ٦٢٧ ، ٦١٢ .
(٢) السيف والنار لسلاطين باشا ص ٢٥٤ .
(٣) لاقى صنوفا من التعذيب فى عهد المهدية .

حولهم الناس كفقهاء يعلمون الصبية ، وان الخليفة كان ينتشى بالتبختر حول الناس الذين يتكلفون القراءة ورفع أصواتهم . ثم يقول « . على أنه ربما كان الباعث له على هذا الأمر هو أن والده (التعايشى) كان يعلم الصبية القرآن وقد كانت نفسه قبل نيله الملك تتوق لأن يكون معلم صبيان كأبيه وكان بينه وبين تلك الأمنية صعوبة تعلم القراءة والكتابة فلما قدر له أن يكون ملكا رأى أن يقضى وطره من تلك الأمنية (١) » .

ويقول سلاطين باشا « .. واذا حكمنا على التعايشى بما وصل الينا من الروايات المكتوبة والشفهية أمكننا أن نقول ان الرجل كان يجهل الفقه الاسلامى ، ويعرف الشيء القليل من قواعد الدين وأصوله(٢) ».

ففى هذا شيء من الحقد على الرجل ، ومحاولة متعمدة لتشويه أعماله فقد كان الخليفة متدينا يلازم الخمس فى الجامع ، ويلوم من يتأخر عنها ولو مرة واحدة ، وكان يتولى الخطابة فى المسجد فى كل الأمور بما فيها خطبة الجمعة . كما أنه تعلم القراءة والكتابة على يد أخيه يعقوب (٣) .

(١) السودان بين يدى غوردون وكتشنر لابراهيم فوزى جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ .
(٢) السيف والنار ص ٢٥٤ .
(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٦١١ ، ٦١٢ .

الطبـــاعة

— ٦ —

لم يعرف السودان الطباعة فاعتمدوا على أنفسهم فى الكتابة فى هـــذه الفترة فهم « يهتمون بنسخ الكتب العربية لعدم وجود المطابع عندهم فأكثر كتبهم خطية وخطهم جميل نظيف ، وهم يكتبون بمداد من السجم (الكتن) والصمغ فى دويات من فخار وأقلام من البوص » .

والمطبعة الوحيدة التى دخلت السودان فى هذه الفترة كانت مع الفتح التركى ، وكانت تستخدم فى طبع المنشورات والأوامر الخاصة بالحكومة . ثم لمـــا طلب عبد القادر باشا حكمدار السودان من العلماء اصدار نشرات فى تكذيب المهدى أمر بطبعها فى مطبعة الحجر بالخرطوم ثم وقعت هـــذه المطبعة فى يدى المهدى فسر بها لأنه كان يبث تعاليمه ووصاياه فى مناشـــير يتوفر عليها النساخ فلما وقعت بين يديه أخذ يطبع مايحتاج اليه فى مطبعة الحجر ، ومن ثم توزع على أنصاره فى كل مكان ، وقد جمـــع الخليفـــة عبد الله التعايشى هذه المناشير فى جزءين وأمر بطبعهما فى مطبعـــة الحجر وجعلها أساسا لأحكامه ، ومما هو جدير بالذكر أنه أسقط عدة منشورات مثل منشور المهدى للسنوسى ، ومنشوره الذى صرح فيه بفتح مكة خوفا من الفتنة .

وهكذا ظلت هذه المطبعة تخدم ثقافة العصر حتى استرجعتها الحكومة حينما فتحت أم درمان (١) .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ج ١ ص ١٤٢ ، ١٧١ ، ج ٣ ص ٣٦٦ ، ٣٧٤ .

الصحـــافة

— ٧ —

لم تعرف الصحافة فى السودان الا بعد الفتح الثنائى . أما قبل ذلك فلم تكن هناك صحافة . اللهم الا اذا اعتبرنا تلك المناشير والرسائل التى كانت فى عهد الفتح التركى من وسائل الصحافة ، وكذلك رسائل ومناشير المهدى والخليفة فقــد كانت تتضمن الرسائل كما تتضمن المناشير آراء الطبقــة الحاكمة ، وتوجيهاتهم ، وتعليماتهم ، وكانت تعطى من دونهم من الحكام كما كانت تعطى الشعب ألوانا من فلسفة الحكم الموجودة ، وقد عرفت « الجوائب » ، وكذلك الجرائد التى كانت تصدر فى مصر فى السودان .

خريجو المعاهد المصرية

— ٨ —

ذكرنا من قبل أن بعثة سودانية أرسلت فى عهـد محمد على الى مصر وأن الأمور استقرت بها فى مدرسة الألسن ، وأن وفودهم أخذت تتوالى حتى انه كان يوجـد منهم عام ١٢٨٥ مائة تلميذ سودانى . كما أرسـل ممتاز باشا مائة سودانى لدراسة العمليات الميكانيكية والزراعية .

وذكرنا أن السودانيين كانوا مقبلين على الأزهر ومنهم من تتلمذ هو وأبوه وابنه على شيخ واحد بعد أن أعدت لهم الأروقة ، ونظمت الجراية ، وصار الطريق آمنا ، وقد أسهم كل هؤلاء مساهمة فعالة فى نشر الثقافة فى السودان فتولوا بعض المناصب الدينيـة ، وفتحوا الخلوات ، وألفوا الكتب ومن هؤلاء الذين توهجوا فى هذه الفترة من الأزهريين الشيخ أحمد ود عيسى صاحب مسجد ود عيسى بالجزيرة ، والسـيد أحمـد الأزهرى صاحب رسالة الرد على المهدى ، وعبد الرحمن المضوى ، والشاعر الحسين الزهراء ، والشيخ البشير نعمة زميل الشيخ محمد عبده وغيرهم (١) .

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ١٤١ ، تاريخ التربية جـ ٢ ص ٩٧ .

الترجمة

— ٩ —

لم يكن الفتح التركى فى حاجة الى ترجمة حين دخل البلاد التى تتكلم العربية كما يتكلمها ، ولكن حينما تعددت القنصليات فى الخرطوم ، وكثر وجود الأجانب طلب الحكمدار لطيف باشا من مصر ايفاد مترجم يستعين به على المراسلات مع الأجانب ، ولكن محمد على رد عليه بأن المكاتبات يجب أن تحرر باللغة العربية كما هو الحال فى مصر .

واستمر الحال كذلك فى عهد المهدى والخليفة ، وقد استعمل المهدى سلاطين باشا كمترجم من الفرنسية الى العربية حينما حضر اليه بالسودان « آوليفرباين » من فرنسا فلم يحسن الكلام بالعربية فقال له المهدى تكلم بلسانك مع سلاطين ثم يترجم لنا سلاطين فقال : « أنا فرنساوى واسمى أوليفرباين وقد أحببت السودان منذ صغرى وأهل بلادى أيضا يحبون السودان مثلى ونحن فى أوروبا على خلاف مع الانكليز الذين احتلوا مصر ، وأرسلوا غوردون الى الخرطوم وقد أتيت اليكم لأعرض عليكم مساعدتى ومساعدة أمتى ، فقال له الخليفة : وما هى هذه المساعدة فأجاب أما أنا فأساعدكم برأيى وأما أمتى فتساعدكم بالمال والأسلحة » وأخيرا قال له المهدى « لقد علمت ما تقول ولكن لا أعتمد على الناس بل على الله ورسوله وأنتم قوم كفار فلا يمكننى محالفتكم وفى الكفاءة على قهر جميع أعدائى بأنصارى هؤلاء » .

وقد أظهر أوليفرباين الاسلام وظل بالسودان حتى مات به .

كما كان مع الحملة الانجليزية التى جاءت لاسترداد السودان كثير من المترجمين المصريين والسوريين . وكان لغوردون قلم ترجمة كما كان يوجد فى عصر الخليفة بعض المترجمين (١) .

أما الترجمة بمعناها الثقافى فلم يظهر لها وجود فى هذه الفترة ولم يؤثر عن سودانى أنه ترجم عن لغة من اللغات . اللهم الا هذا الاحتكاك بالثقافة المترجمة التى ظهرت فى مصر .

---

(١) السودان فى قرن ص ٦٦ ، تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٦٤ ، ٢٣١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٤٥٧ .

الحيــاة الاجتماعية

١ ـ *الحياة القبلية* :

النظام القبلى شىء عريق فى السودان ، وما زال ضاربا بجذوره القوية فى الحياة السودانية الى اليوم ، وقد كانت تكسر حدته نوعا ما فى عصور الممالك التى ظللت السودان ، وبخاصة تلك الفترة التى تولد فيهـا المـد العربى بعد سقوط المسيحية .

ومهما يكن من شىء فنظام القبلية لم يقض عليه لأنه لم تكن هنـاك الأجهزة العامة التى تشكل المجتمع بحياة واحدة وفلسفة معترف بها . ثم ان طبيعة المجتمع نفسه كانت تحتم هذا النوع من الحياة .

وقد أضعف الغزو التركى الاحساس بهذه الحياة القبلية الى حد ما ، بما أقام من نظام ادارى على غرار النظام الذى كان قائما فى مصر فقـد أحس الأهالى أنهم تحت نظام موحد ، وأن السلطة العليا لم تعد للقبيلة ، كما كان لحركة التجديد التى مست الأهالى أثرها فى هـذا فقام الأهالى ببناء دور متقاربة بالجالوص ، والطين ، والطوب ، والأخشاب بدل القش والغاب ، وحول كثير منهم من بدو رحل الى مزارعين مقيمين بعـد أن حضر من مصر اخصائيون للقيام بتدريبهم على الزراعة والصناعة ، فقد زرع السودانيون فى هذه الفترة القطن ونسجوه الى « دمور » وزرعوا التيل والكتان والنيلة كما أنشئت مصانع للنسيج وأحواض ، وخوابى للصباغة وتم استخراج الأصباغ النباتية والألوان المعدنية « كالحرتة » أى أكسيد الحديد لتثبيت الأصباغ ولازالت بقايا هذه المصانع فى سـنار وكسـلا وكركوج وشندى والقضارف والبجراوية والكاملين (١) كما أصـلحت أراضى دنقلة واستخدمت وسائل منظمة للنقل (٢) .

---

(١) تاريخ السودان كما يرويه أهله لمحمد أحمد الجابرى ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) الاسلام والثقافة العربية ص ٣٥٤ .

كل هذا وغيره أضعف من النظام القبلى ، ولكنه عاد فى المهدية كأقوى ما يكون عليه هذا النظام . ذلك لأنها أذكت الروح القبلية فكان لكل قبيلة قائد ولواء وشاعر ، وأكد صراعها فى غمرة الأحداث ابراز خصائص كل قبيلة ومحاولة كل واحدة كسب الشهرة فى عالم الحرب (١) ، ومع أن هذه القبائل دخلت فى تنظيمات كبيرة كجيش الراية الزرقاء الذى كان مؤلفا من ٤٣ قبيلة ، وكجيش الراية الخضراء ، وجيش الراية الصفراء ، وجيش الملازمية (٢) . الا أن الأثر القبلى كان واضحا ، وقد استشرى مداه أخيرا بالصراع الذى قام بين قبائل الغرب وبقية القبائل فى عصر القبيلة .

ولكن شعورا عاما كان يسيطر على هذه القبائل هو شعور القومية العربية الاسلامية ، وان كان يجاوره شعوره ملموس بالجنس لم يستطع الذوبان فى الحركة العربية العامة . فقد كان هناك البجة وهم ينقسمون الى أربعة أقسام رئيسية . فالبشاريون فى الشمال بتلك البيئة الصخرية الجدباء وفى صحراء العتباى ، ويليهم من الجنوب « الامرأ » الذين يمتدون بانحراف فى اتجاه من الجنوب الغربى فى مسمار على الخط الحديدى الى الشمال الشرقى فى اتجاه بور سودان ، ويليهم جنوبا الهدندوة وهم أكثر البجة فى السودان عددا ، ويمتدون من سواكن الى سنار وفى الأرض المجاورة للخط الحديدى الممتد بين البلدين ، ثم نجد الى الجنوب الشرقى جماعة بنى عامر الذين يمتدون من طوكر شمالا الى داخل حدود أرتريا فى الجنوب .

كما توجد جماعات أخرى من البجة مثل الأشراف والأرتيقا والكميلاب والحلانقا وغيرهم وهؤلاء لهم لغتهم الحامية الخاصة بهم ، ولهم وجود عقلى خاص ، وحياة اجتماعية متميزة .

كما يتشكل السودان كذلك من النوبة وهم شعب قديم عريق فى

---

(١) مشكلات المجتمع السودانى « محاضرات » .

(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ٢ ص ٦١٨ .

القدم لهم لغتهم وثقافتهم الخاصة ، وتمتد أوطانهم من أسوان فى الشمال الى الدبة فى الجنوب ، وينقسمون الى خمسة أقسام رئيسية هى الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبى فاطمة ، ثم المحس والسكوت فى اقليم الشلالات والجنادل ، ثم الفريحة ما بين وادى حلفا وكرسكو . أما الكنوز ففى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو الى أسوان (١) .

والى جانب البجة والنوبة يوجد السود وترد جميع قبائلهم وفصائلهم الى القبائل الآتية :

١ ـ الشلك ٢ ـ الدينكا ٣ ـ النوير ٤ ـ البـاريا ٥ ـ اللاتوكا ٦ ـ الزاندى وهؤلاء يمثلون السودان الجنـوبى (٢) . كما ان هناك أشباه السود Negroid وهم الذين يمثلون أكثر سكان دارفور ، وعدة قبائل فى أماكن متعددة (٣) .

وأخيرا توجد فى السودان جماعات « الأجانب » وهم الذين قدموا من عدة دول أجنبية ، كما كان هناك جماعة من المصريين تركـوا بلادهم وذهبوا الى السودان قبل الفتح التركى الأول ، وأولاد الريف ويكنى بهم عن كل البيض من مصريين وأتراك ومغاربة وشوام ، وأوروبيون وهم الذين دخلوا البلاد بعد الفتح الأول ، والمكادة وهم الأحباش النصارى ، والجبرتة وهم الأحباش المسلمون ، والتكارنة وهم من هاجر من السودان الغربى من فلاته وبرنو وباجرمى وغيرهم ، والحلبة وهم ما نسميهم بالغجـر فى مصر ، والمولدون وهم الذين كانوا نتيجة هذا الاختلاط (٤) .

أما العرب فقد ذكرناهم من قبل . وكل هؤلاء كان يتنـازعهم عاملان هما ١ ـ القومية المحلية ٢ ـ القومية السودانية ولم ينصهر الجميع فى الكيان السودانى الا فى وقت قريب جدا .

---

(١) السودان الشمالى ص ٢٦ ، ٢٠٢ .
(٢) الفاكهة المحرمة ص ٤٧ .
(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ٤٨ .
(٤) تاريخ السوادن لنعوم جـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

٢ – طبيعة المجتمع السوداني :

(أ) تتلاقى على أرض هذه البلاد عدة أجناس أهمها الساميون والحاميون والزنوج ولكل منهم لغاته وعاداته وثقافته وأساليبه الخاصة بمواجهة الحياة حتى أصبح يتكون من كل هذا محصول حضارى معقد هو فى روحه ومضمونه افريقى ، وفى شكله وتعبيره عربى اسلامى (١) .

واذا كان السودان فى الفترة السابقة للفتح التركى مكونا من مجموعات منعزلة فان هذا الفتح قد أضعف هذه العزلة بقضائه على السلطنات ، والامارات ، والمشيخات ، وبادماجها جميعا فى كيان موحد مترابط الى حد ما . فقد وجدت القبائل نفسها حرة بحيث تستطيع التنقل فى المكان الذى يطيب لها فيه المرعى ، وممارسة الحياة ، فالمواصلات أصبحت سهلة ، والأمن صار مستتبا ، وتشهد بهذا رحلة (بالمر) الذى لم يكن يصحبه سوى خادم واحد فى كردفان ، ورحلة الأمير الألمانى « بكلرمسكاو » وكذلك رحلة « كوتشى » عام ١٨٣٩ حتى لقد جاءت أسرة المسيو مولى فى عام ١٨٥٠ الى الخرطوم للنزهة . كما لو كانت تنتقل فى أرجاء ايطاليا .

وقد ترتب على هذا أن اختلطت الدماء والأنساب وبخاصة الدماء العربية التى كانت تمتزج بالسكان فى سرعة مذهلة ، كما ترتب عليه تهيئة السودان الموحد لأداء دوره كاملا فى المحيط الاسلامى الكبير مستعينا فى ذلك بحركة التجميع السياسى الى جانب حركة التجميع الصوفى ، وازدهار البعث العلمى فى البلاد (٢) .

وقد احتفظ النظام التركى فى السودان بالتنظيمات المحلية « فى صورة شبه رمزية » فظل النظام القبلى بفلسفته مستقرا فى أعماق البلاد ، وظلت

---

(١) محاضرات فى مشكلات المجتمع السودانى للدكتور محيى الدين صابر .

(٢) الاسلام والثقافة العربية ص ٣٦٠ ، التربية فى السودان جـ ٢ ص ٤ .

سيطرة رئيس القبيلة كما هى وكل تطوير لحق هذه الوظيفة هو أن صاحبها قام الى جانب رعايته أمور القبيلة بتنفيذ قوانين الحكومة « ومع أن جوهر التنظيم السياسى قد أصابه تغير أساسى الا أن الشكل استمر واستطاع أن يؤثر بايحاءاته النفسية وخصائصه الثقافية على المضمون الاجتماعى (١) بل واستطاع هذا الشكل أن يعود الى الظهور كأقوى ما يكون عليه الظهور بعد ذلك فى عصر المهدية لأن جوهر التنظيم السياسى كان مختلا . فبينما ازدهرت تجارة الرقيق نراها تقف فجأة فتحدث هزة كبيرة فى المجتمع باعتباره كان شيئا من صميم الاقتصاديات فى البلاد ، ومن الغريب أن الحكومة التى حررت الرقيق الذى كان يؤدى اليها فى أكثر الأحيان كضريبة ظلت تطالب الأهالى بنفس الضريبة مما أرهق المواطنين .

وقد قامت الحكومة بعملية احتكار العاج مما ترتب عليه الاضرار بفئة كبيرة من الناس . كما ان الحكومة كذلك أثارت القبائل بعضها على بعض فنراها تنزع أرض الميرفاب وتسلمها للشايقية وتثقل بالضرائب على الجعليين ، بينما تعفى منه الشايقية ، وتعمل على ازدهار الميرغنية بينما تهمل غيرها من الطرق .

ويفرض الرؤساء بها ضرائب خاصة زيادة على المقرر وقد يكون جمع هذه الضرائب بواسطة الجنود الذين كانوا يعاملون الأهالى بقسوة بالغة (٢) .

مما تقدم نرى ان المجتمع لم يتكيف بهذا الوضع الجديد ، وأن ثقافته ونظرته الخاصة بالحياة ظلت عميقة فى نفسه بحيث لم تستطع التنظيمات الوافدة كأشكال التعليم الحديثة ، واستخدام الوسائل العلمية لاستنباط الثروات ، والاحتكاك بسيل الأجانب الممثل فى الرواد والرحالة ،

---

(١) محاضرات فى مشكلات المجتمع السودانى .

(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١١٠ — ١١٢ .

والمكتشفين ، والتجار ، والقناصل ، والحكام ، ونقل بعض الأنظمة من مصر .. لم يستطع كل هذا أن يؤثر فى غير الشكل الخارجى للمجتمع .

ومع كل هذا ظهرت تحولات سكانية نظرا لنشأة بعض المدن التى كان من أهمها مدينة الخرطوم ، كما ظهر شىء من تنظيم المشاعر نتيجة لتوحيد الأجهزة المكونة والموجهة لها من لغات وأنظمة سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية . كما ظلت التركيبات الطبقية كما كانت من قبل مع تطويرها وظهور طبقات جديدة كطبقة كبار التجار ، والوسطاء ، والعملاء . والخلاصة ان المجتمع السودانى لم يتكيف بهذه الحضارة الوافدة ، وأنه ظل كما هو فى أعماقه امتدادا لماضيه ، وما ظهور المهدية الا رجوع سريع لنفسه ، وتقاليده .

فقد عادت المهدية مرتكزة على عاملين عميقين فى المجتمع السودانى هما الاسلام من ناحية ، والدعوة الى المهدية فى ظلال العصبية القبلية من ناحية أخرى ، ومن خلال هذين النبعين ظهرت القومية الاسلامية بعد أن تطورت تطورا طبيعيا من القومية السودانية .

فقد طبقت الأنظمة الاسلامية على المجتمع السودانى ، وبولغ فيها حتى لقد انحرفت فى هذا التطبيق ، وترتب على هذا وجود حكم صارم يكبت المخالفين وينكل بهم . كما ترتب عليه ظهور طبقات جديدة فى المجتمع نظرا لتغير المثل العليا فيه فالشجاعة قد حلت كقيمة اجتماعية مكان الثروة وتغير نظام الملكية بدخول فكرة الفىء والغنيمة وتجريد بعض الناس من أملاكهم وتوزيعها على آخرين . وهكذا رأينا فى المهدية طبقات الأمراء والقادة وكبار رجال الدين والتجار ، ورأينا فى ظلالها احتقار الأعمال المهنية ، واحتراف الصناعات والتجارة ماعدا مايتصل من كل ذلك بالحرب فقد تغلب المجتمع المحارب على كل ألوان الحياة هناك .

وقد نتج عن كل هذا أن قل عدد السكان وانخفض الى أرقام مخيفة

كثمرة لهذه الحروب المتوالية ، ولعدم التنظيم الاقتصـادى ، الذى رحب بالهجرات الى حيث الجهاز المشرف على الدول ، ومن هنا أهملت الزراعة ، وغيرها من الأعمال التى لايستغنى عنها المجتمع ممـا ترتب عليـه تخلخل سكانى فى كثير من المنـاطق بل والقضاء على مدن تجارية كبيرة كبربر والمسلمية .

كل هذا تحت سيادة تنظيم سياسى اسلامى يجعل الاعتراف بالمهدية أصلا دينيا وسياسيا للحركة كلها بحيث شمل هذا التنظيم التكوين الادارى، والضريبى ، والاقتصـادى ، كالزكاة وبيت المـال ، والتـكوين الحربى كالجهاد ، والتكوين الثقافى الذى ينبع من الاصول الاسـلامية المقررة ، ويمتد بجذوره الى المذهب الشيعى .

والخلاصة أن الحركة المهدية خلقت من السودان أمة موحـدة تلتف حول مثل عليا مشتركة « فقد تبلورت ملامح المجتمع السودانى متمثلة فى الخصائص الخلقية والثقافية التى نتجت عن صراع الأمـة السـودانية للقوى الأجنبية ، ويمكن القول بأن اللغة العربية لم تلق انتشارا أوسع من الذى لقيته أثناء هذه الحركة التى كان يقوم عليها العرب . كما أن الاسلام نفسه قوى لدرجة اجتماعية بحيث لم يعد فى الوطن السودانى أى دين آخر فالجنوبيون أدخلوا فى الاسلام ، والمسيحيون واليهود فى البلاد أسلموا ، ويمكن القول بأنه كانت هناك « أسلمة » كاملة للمجتمع وتعريب كبير فيه فالدين واللغة والتجارب المشتركة من أسس الأمة السودانية الحديثة(١) »

ونحن لانوافق الدكتور محيى الدين صابر على قوله « بالأسـلمة » الكاملة للسودان لأن الجنوبيين لم يدخل منهم فى الاسلام الا القليل مما

---

(١) محاضرات فى مشكلات المجتمع السودانى .

نرى آثاره الى اليوم ، ولأن الذين اعتنقوا الاسلام كانوا فى خوف على حياتهم فاضطروا الى اتخاذ هذا الستار . فالتسليم بأمر المهدية لم يكن يتفق مع عقليات الأجانب ، كأمر حامية الأبيض التى خرجت لمبايعة المهـدى فى ٩/١/١٨٨٣ وكان منهم محمد سعيد باشا ، وعلى شريف بك ، واسكندر بك ، وأحمد بك دفع الله وباقى الضباط ، والسناجق ، والعساكر (١) .

وكما حدث مع سلاطين باشا واوليفرباين ، ولم يقل أحـد بأن رجال الارسـاليات الذين قبض عليهم المهدى قد أسلموا ، وأما الرسـائل التى أرسلت الى محمد أمين مدير خط الاستواء وفيها التسـليم بأمر المهـدية وتعديد لانتصاراتها ، وطلب التسليم والتى كانت هذه الرسائل من جورج استمبولى ، وبولس صليب وسلاطين باشا . فقد كان موعزا بها من الخليفة ، والذى حملها الى محمد أمين هو أحد المهديين (٢) .

ب ــ ظهرت فى المجتمع السودانى عادات خاصة به وفد أكثرها من بلاد العرب لأنهم كانوا يمثلون الطليعة الاجتماعية فى البـلاد ، وكان النـاس ينقلون عنهم عاداتهم باحترام واكبار ، ومن هذه العادات ماهو محلى ونابع من صميم البيئة السودانية . فمن العادات العربية فى السودان تلك العادات الآتية :

١ — ايقاد النار ليلا حتى يهتدى بها الضال ، ومن ثم يقـدم له المـأوى والطعام والمؤونة ، وهذه عادة عربية قديمة فقد قال الشاعر

أوقد فان الليـــل ليـــل قر والريح يا غـــلام ريـــح صر
عـل يرى نـارك من يمـر ان جلبت ضـــيفا فأنت حـر

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٠٠ .

وتكثر هذه العادة فى الصحراء ، ومن معانى شعرهم العامى فى هذه العادة « أجمل دفء لنا اذا أوقدنا نارنا ، وقدمنا لها الوقود ليرتفع لهيبها فيهتد به السارى فى الليل حيث يجد المأوى والقرى (١) »

٢ — حماية الجار ، والسودانيون يعتزون بهذه العادة ، ويحرصون عليها كل الحرص بحيث يعاب من يفرط فيها ، وللعرب تاريخ طويل فى التمسك بهذه العادة حتى لقد كانوا يجيرون قاتل الولد ، ويفدونه بالابن ومن أقوالهم فى هذا :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل
هم يمنعون الجار حتى كأنه   كثيبة زور بين خافيتى نسر
هم يمنعون الجار حتى كأنما   لجارهم بين السماكين منزل (٢)

٣ — كراهية البنات نظرا لظروفهم فى حياتهم القاسية التى تقوم على الرعى والصيد والحروب والمغالاة فى المحافظة على الشرف ففى شعرهم الشعبى :

البنوت باريدن   وأتمنى ليهن موتن

وهذا قريب من قول ابن الغدير :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم   وهن البواكى والجيوب النواصح (٣)

***

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا   تالله ما ذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا

---

(١) من لهجات الجزيرة .
(٢) نهاية الارباط دار الكتب ج ٣ ص ٢٠٢ ، العقد الفريد ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ١ ص ١٦٠ .
(٣) المؤتلف والمختلف للآمدى ص ١٦٤ .

٤ — بكاء المقتول بعد الأخذ بثأره . فمن عاداتهم المرتبطة بالشجاعة ان المقتول لا يبكى الا حين يؤخذ بالثأر من قاتله والا اعتبر دمه مطلولا ، وهذه عادة غريبة قديمة كما جاء فى هذه الظاهرة بعد الأخذ بالثأر :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهـــار
يجد النساء حواسرا يندبنـه يلطمن حر الوجه بالأســحار

٥ — العقيرة وهى ذبح الماشية والضأن مما يتفق وجلال الميت على القبر فى الليلة الأولى وكثيرون من الناس يهتمون بهذه العــادة ، ونحن نرى صداها فى قول زياد الأعجم :

فاذا مررت بقبــره فاعقــر به كرم الجـلاد وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها فلقــد يكون أخــادم وذبائح

حتى لقد كانت الابل تتهيب القبور كما قال حســان وآخرون نسب هذا الشعر اليهم :

نفرت قلوصى عن حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفــرى ياناق منـــه فانه شريب خمر مسعر لحــروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه لتركتها تحبــو على العرقوب

٦ — الكرم : فالسودانيون يهتمون به اهتماما واضحا حتى لقد خصصوا فى كل قرية مكانا لاستقبال الضـــيوف يسمى أحيـــانا « الخلوة » وكان للقرويين الي عهد قريب ما يعرف فى المدينـــة « بالمنزلة » ولكى يشـــعر السودانى ضيفه بأنه ذبح له خاصة نراه يقدم له «المرارة» ومن شعرهم

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ط ٢ تحقيق السندوبى جـ ١ ص ١٦٣ ....
(٢) نهاية الارب جـ ٢ ص ١٢٢ .
(٣) بلوغ الارب للالوسى ط القاهرة عام ١٩٢٤ جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٤) العقد الفريد جـ ١ ص ١٣٦ .

الشعبى فى هذا « ضيفان هجعة مالامونى » ،ومن قول العرب فى هـذا قول مضرس بن ربيعى :

وانى لأدعو الضيف بالضوء بعدما كسا الأرض نضاح الجليد وجامده
لأكـرمه ان الكـرامة حقــه ومثلان عنـدى قربه وتبـاعده
أبيت أعشـيه السـديف واننى بما نال حتى يترك الحى حامده (١)

٧ — الصر : وهو لف شىء حول طرف الثدى لتنفر منه صغار البهائم ، ولئلا يضيع لبنها ، وهى عادة عربية قديمة تظهـر من قول عنترة لأبيـه « العبد لا يحسن الكر وانما يحس الحلاب والصر » وقد جاء فى الشـعر الشعبى السودانى « عان عربيكم البحلب كمان بيصر »

٨ — القسمة بالأعواد والتصافن ، ويقـوم بعمليـة الأعواد شخص أجنبى فيضع الأعواد على الأقسام والتصافن هو وضـع حجر فى الاناء الفارغ ثم يصب ما يراد قسمته ، وقد سمى العرب هذا الحجر بالمقلة أو حصاة القسم .

٩ — عمليات التجميل . فمن عاداتهم فى التجميل وشم اللثة ، والشفة السفلى ، وربما شملت الشفتين معا ، ويسمون هذه العملية فى السودان « دق الشلوفة (٢) » على ان هذه العـادة ليست عامة فالكبـابيش ، والكواهلة ، والشنابلة لا يستخدمون هذا اللون من هذا التجميل ، وقد قال النابغة الذبيانى فى هذا اللون من التجميل :

تجلو بقـادمتى حمـامة أيكة بردا أسـف لثـاته بالاثمـد

وقال طرفة :

سـقته اياة الشـمس الا لثـاته أسف ولم تكدم عليـه باثمـد

---

(١) الحماسة لابى تمام جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٢) تدق الشفاه بسائل مستخلص من كبد التمسـاح لونه أخضر ، وهو من الالوان الثابتة التى تبقى طول الحياة .

ومن مظاهر التجميل أيضا الوشم فى ظاهر اليد ، والذراع والنساء مولعات بهذا النوع وقد عبر عنه طرفة قديما بقوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد(١)

وهن يلبسن التنورة ، والقرباب ، والرهط وهو نقبة من جلد أحمر مشقق سيورا ليس له حجزة ولا ساقان يشد كما تشد السراويل تلبسه الجوارى قبل ادراكهن فاذا أدركن أو زوجن خلعنه وهو عام فى جميع السودان عدا البقارة كالمسيرية والهبانية والتعايشة والزريقات فانهم يستغنون عنه بالتنورة وكانت العرب تلبس الرهط كالسودان قال الهزلى :

بضرب فى الجماجم ذى فروع   وطعن مثل تعطيط الرهاط (٢)

وقد شبه الشاعر الشعبى صوت سيور الرهط على العجز والأفخاذ بصوت جماعة الأوز عند نزولها الى الماء (٣) .

والتنورة التى تلبسها البقارة تسميها العرب النقبة وتشد كما تشد السراويل ، والقرباب قطعة من الثياب كالتنورة بدون حجزة وقد عرفها العرف بالنطاق . كما ان هناك اتفاقا فى الحلى بين النساء هنا وهناك فمن حلى النساء الأسورة والحجول والخروص والتلال وكلها أسماء عربية لها ما يقابلها فى الحياة هناك ، ومن الحلى أيضا « الفدوة والكسكى » وتقابلان عند العرب « الشنف » وهما ما يلبس فى أعلى الأذن (٤) .

والنساء فى السودان يستعملن الاحتفاف وهو ازالة الشعر من على الجباه والخدود بالخيوط والرماد للمتزوجات وغير المتزوجات وقد وصف شاعر عربى امرأة سارعت بالقيام بهذه العملية حين علمت بمقدم زوجها بعد سفر بقوله :

---

(١) المعلقات السبع ص ٤٦ ، ٤٩ .
(٢) العربية فى السودان ص ١٨ .
(٣) من لهجات الجزيرة
(٤) العروبة فى السودان ص ١٩–٢١ .

فلما مضى شهر وعشر بعيدها وقالوا تجيء اليوم قد حان حينها
أمرت من الكتان خيطا وأرسلت جريا الى أخرى قريبا تعينها
فما زال يجرى السلك فى حر وجهها وجبهتها حتى ثنته قرونها

١٠ — القيافة وهى قص الأثر والاستدلال بالأقدام والحوافر بحيث يستطيعون التمييز بين قدم الشاب والمرأة البكر من الثيب ، والغريب من المقيم ، والحر من العبد ، والحامل من غيرها والأعور من السليم والأسود من الأبيض (١) وهى عملية تقوم على الذكاء الخارق ومعروفة عند العرب .

جـ — العادات الاجتماعية عند البجة

١ — من العادات الاجتماعية عند البجة أنه حينما يولد طفل توقد النار أمام منزله عدة أيام قد تصل الى أربعين يوما ، وقد يوقد مصباح أمام البيت ، وقيل ان هذا الضرب من النور يقصد به الائتناس ، وقيل انه لطرد الجن عن الأم النفساء . ومهما يكن من شيء فاذا كان المولود طفلا تخرج النساء بعد الولادة مباشرة يغنين ومعهن المشيمة ، والخرق الملوثة ، ويلقين بكل هذا بين فروع شجرة . أما اذا كان المولود طفلة فانهن يخرجن صامتات بعد أسبوع من الولادة ويقمن بطرح ما معهن فى فروع شجرة ، وقد يدفن الخلاص بالارض (٢) .

وهن يحتفلن مع أزواجهن « بالسبوع » ، وبتسمية الطفل ، ويقمن بذبح شاة فى يوم التسمية هذا ، وتسمى هذه الشاة عقيقة وهذا تقليد عربى معروف فقد جاء فى مختار الصحاح « العقيقة والعقة والعقيق الشعر الذى يولد عليه المولود ومنها سميت الشاة التى تذبح عند المولود يوم أسبوعه عقيقة ، وقد مر بنا رأى المهدى فى العقيقة (٣) وهكذا نرى البجة أخذت هذه العادة عن العرب .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٢٧٠ .
(٢) السودان الشمالى ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ٢٤٢ .

٢ — والختان شائع عند البجة كما هو شائع عنـد العرب والنوبة بالنسبة للذكور أما الفتاة فاما أن تختن كالتختين العادى المعروف ، واما أن تختن بالطريقة الفرعونية وهى طريقة بدائية رهيبة تقطع فيها الأشفار العليا من الفرج ، وجزء من الأشفـار السفلى ، وقد آكد هـذه العملية المقريزى (١) على انه لم يقف عند البجة وانما تعداه الى الكثيرين من أهل البلاد . على ان نسبة هذا الخفاض الى الفراعنة ليس له سند تاريخى (٢) .

٣ — كان هذا المجتمع يقر ميراث ابن الأخت للرجل ، وقد انتقلت الرئاسة الى العرب فى بلاد البجة ، وفى دارفور عن هذا الطريق كما وضحنا من قبل . فالفتى يعلو شأنه بعلو شأن خاله ، وللخال احترام خاص فى هذا المجتمع .

٤ — وبالنسبة للزواج تبنى نساء « الحلة » بيت الزوجية من الأبراش والشملات ، ويحلى مدخل المنزل بحلية تصنع من ألياف أشجار الدوم . فتربط فوق المدخل ويعلق بها حبل على صورة مقود الناقة ، وخف صغير مما يليه الأطفـال الذكور ولا يحضر العريس عروسـه الى بيت أهله الا اذا ولدت .

٥ — يشبه الطلاق عندهم الطلاق عند العرب ما عدا عادة التعليق « وهو الطلاق بشرط يفرض على المرأة » فاذا لم تقـم بأدائه فلا يحق لها الزواج مرة أخرى . كان يشترط عليها مثلا عدم الزواج من رجل شك أنه عشيقها ، وهم ينظرون الى الولد غير الشرعى نظرة فيها تسامح ويلحقونه بأمه ، وتدل البنت على الرجل الذى أغواها وحينئذ يتزوجها بمهر مخفض قلما يزيد على بعير .

٦ — لا يدق الطبل ويسمى (النحاس) الا فى مناسبات ثلاث هى :

(أ) وفاة رجل عظيم

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٣١٥ ط مصر ١٣٢٤ هـ .

(٢) السودان الشمالى ص ٤٣ .

(ب) الدعوة الى الحرب

(جـ) حضور حفل يهم القبيلة كلها ولكل قبيلة نغمة مصطلح عليها فى دق طبـــولها (١) .

٧ — يقوم الرجال بعملية الحلب ، ولا يجوز للحالب شرب قطرة مما حلب قبل أن يقدم عليه غيره ومن أكبر الوصمات قولهم « فلان حلب وشرب » .

د — العادات الاجتماعية عند النوبة

من عادات هذه البلاد الايمان بعملية الختان الفرعونى للبنات الذى مر ذكره ، والنوبيون يحبون الزواج المبكر ، ويقرون مبـدأ رؤية الفتى والفتاة ، واسترضاء أمها قبل الخطبة فاذا تمت الموافقة زف الناس العريس الى بيت العروس حيث يولم أهلها لهم ثم يكتب الكتاب . ثم يذهب العريس الى حجرة العروس فيجـد الباب مقفلا ، ودونه رجل لا يفتح له الا اذا منحه شيئا من المال ، فاذا فتح الباب دخل العريس ورفاقه فترشهم امرأة من أهل العروس بقرعة ماء ، ويصـلى العريس ركعتين . ثم يلمس جبين عروسه بيده ، ويقبل يده . ثم تأخذ النســاء العروس الى حجرة أخرى وينام العريس وحده فاذا جاء الفجر نزل الى النيل ثم يعود ومعه غصن أخضر من الذرة أو نحوها ، ثم يدخل فيضرب عروسه بهذا العود ويعود الى غرفته ، ويستمر الحال كذلك سبعة أيام ، الا أنه بعد الليلة الثانيـة تذهب العروس الى مضجعه بالليل ثم ترجع حتى تنتهى الأيام السبعة ، فاذا انتهت أولموا لأهل البلدة ، وتزف العروس رســميا الى العريس ، وعند وصولها اليه يعطيها شيئا من الفضة أو الذهب ويسمى « فتح اليد » ثم يأتون بشىء من الحب فيضـعونه فى كف أحدهما ثم يتبادلانه سـبع مرات ، ومن يقع فى يده الحب للمرة السابعة يطرحه فى وجه الآخر .

---

(١) السودان الشمالى ص ٤٣ . تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ٢٠١ .
(٢) السودان الشمالى ص ٥٨ ، ٥٩ .

هذا فى منطقة المحس والسكوت أما فى منطقة حلفا فبعد دخول العريس على عروسه بثلاث ساعات يتوجهان معا الى النيل فيغسلان وجهيهما . ثم يرش أحدهما الآخر بالماء ويعودان ، ويظل العريس فى بيت عروسه شهرا أو أكثر حسب الاتفاق . ثم يعمل على العودة الى أهله بعروسه .

ومن العادات المعروفة هناك أن الزوجة لا تنطق باسم زوجها حتى الموت ، ولا يقوم بالرقص فى هذه البيئة سوى الفتيات . فاذا رقصن تجمع الشباب حولهن فى حلقة يصفقون ويضربون الأرض بأرجلهم على وقع الربابة أو الطبلة ، ولكل من الطبلة والربابة رقص معلوم .

ولمآتمهم ضجة صاخبة تستمر أربعين يوما ، ويمتنع أقارب الميت عن اقامة الأفراح والتطيب والتزين ولبس الفاخر من الثياب لمدة عام .

وهم معروفون بحب الضيافة ، والمحافظة الشديدة على العرض كما أنهم شعب نهرى يلتزم النيل التزاما شديدا لاشتغالهم بالزراعة ، ويعتبرون من أمهر سكان السودان فى ملاحة النيل والخبرة بالشلالات (1) ، واجادة التصويب وقد مر بنا أن العرب أطلقوا عليهم رماة الحدق .

هـ — العادات الاجتماعية فى غرب السودان .

من عادات الناس فى هذه المناطق أنهم يحبون الزواج المبكر ، والميل الى الزواج بأربع وقيل ان من عادة بعض القبائل التى لم تتمكن من الاسلام فى غرب دارفور أن الشبان والشابات حينما يتجولون فى المراعى الخلوية يقيمون لأنفسهم قرى صغيرة حيث يتعاشرون فاذا حملت المرأة بنى بها الرجل ، واذا لم تحمل فهى حرة ويقول التونسى « .. فيأخذ كل فتى فتاة ويذهبان الى محل ينامان فيه الى الصباح ولا عار فى ذلك على احدى منهن وليعلم أن الرجال فى دارفور لا يشتغلون بأمر البتة الا الحرب فليس للنساء دخل فيه وما سوى ذلك فهم والنساء سواء بل أكثر

---

(1) تاريخ السودان لنعوم جـ 1 ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

الأشـغال وأشقها على النساء (١) » كما يصان المـال بواسطة الدمزوقة بحيث ان تجرأ لص تكسر رقبته (٢) وهذا يدل على تأثرهم بالخرافات .

وبعض هذه القبائل فى هذه الفترة كان اذا مات واحـد منها حمله أولاده للمقبرة ، وبعد الدفن يقف الأولاد صفا ثم تعطى لهم اشارة بالعدو الى البيت فمن وصله وغرز رمحه فيه قبل الآخر كان الوريث الوحيـد لأموال والده ونسائه ، واذا أرادوا أن يحلفـوا أحضروا رمحا وسرج فرس ونارا فى وعاء ثم يتقدم صاحب القسم رافعا يده فوقها ويقول « لا تمس فخذى السرج العمر كله ويطعن جسمى بالحراب وأحرق بالنار ان حنثت بحلفى هذا »

ولكل قبيلة رقصة خاصـة بها . وهناك رقصـة تسمى « التنديقة » يشترك فيها الجنسان فيرقصون زوجا زوجا « فيطوق الشاب ظهر الشابة بيده اليسرى ويأخذ فى يده اليمنى سيفا يلعب به وتطـوق الشابة ظهـر الشاب بيدها اليمنى وتطلق يدها اليسرى ويسير الاثنـان رويدا وهمـا يرقصان على صوت الطبل الى أن يتعبا فينضمان الى حلقة المتفرجين »

ولمـآتمهم جلبة عظيمة فاذا كان الميت فارسا تركب احدى جواريه فرسه ، وتلبس لباس حربه ، وتركب معها بعض الجوارى ثم تجتمع عليهن النساء فى طوافهن حول البلد « بالزغاريد والندب » وتظل مآتمهم من ثلاثة أيام الى أربعين وحدادهم عام كامل ، ويسكنون فى أكواخ هرمية أو أخصاص كظهر الثور مبنية بالبوص وأغصـان الشجر ، ولكل منهم سلاحه الذى لا يغفل عنه .

والنساء يرسلن الشعر فى جدائل رقيقة ، ولكل قبيلة جدلة خاصة (٣) . وتوجد فى غرب السودان قبيلة كنين المسلمة ويرجح أنهم من البربر

---

(١) تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان للتونسى ص ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ ، والدمزوقة قرعة بها لبن يحل فيها واحد من الجن .

(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ١٩٣ — ١٩٥ .

الذين وفدوا على البلاد ، ويشتهرون بالشجاعة حتى ان الأهالى فى شمال دارفور يطلبونهم لقتال الآساد التى تروع أبقارهم فيخرج الرجل منهم الى الأسد ويضربه ضربة تطيح برأسه ، ومن عاداتهم أنهم لا يتزوجون على نسائهم ، وتتحلى النساء بالصلبان فتلبس المرأة صليبين مع اسلامهن (١) ، ، ولعل هاتين الظاهرتين من بقايا المسيحية فى النفوس ، ومن عاداتهم لثام الرجل وسفور المرأة ، ولا يرتدى اللثام شاب دون سن الرشد . فاذا بلغ انسان سن الرشد احتفل بوضع اللثام فى حفل كبير ، يقوم فيه بوضع اللثام رجل صالح وفى أثناء ذلك يحذر الشاب من الكذب والغيبة والنميمة والشتم وادمان المسكرات ، وارتكاب السيئات ، وفى الأعياد الاسلامية والأفراح يرقص الجميع رجالا ونساء على أنغام خاصة لكل رقصة (٢) .

و — عادات محلية عامة

١ — من العادات المحلية العامة عادة « انتظار الموت » خوفا من وصمة الفرار ، وتتجلى هذه الصفة خاصة فى الزعماء فحينما هاج تكارنة القلابات على الملك عمر فى عهد عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١) لم يجنح الى الفرار وقد وصف هذا نعوم بقوله « .. فافترش فروته وانتظر الموت فاجتمع عليه السعداب وقالوا له : أتعطى التكارنة فأل الجعليين فتمكنهم من نفسك ليكون لهم الفخر بقتلك ولك من ذلك مهرب فقم بنا نجمع شتاتنا ونعود الى طرد الأعداء من ديارنا فان الرجال شرادة ورادة — ثم حملوه بالرغم منه ووضعوه على بغلة وساروا يحاربون من خلفه حتى انتصروا » ، ولما قام الشريف أحمد طه بمناصرة المهدى أرسل اليه جيكلر باشا الملك يوسف من سناجق الشايقية ومعه مائة جندى نظامى وباشبوزق ، ولكن الشريف أحمد بدد هذه القوة فلما رأى الملك يوسف رجاله يتساقطون لم يجنح الى الفرار وانما افترش فروته وقتل عليها .

---

(١) النداء فى دفع الافتراء ص ٢٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ٢٣٨ .

وقد تم مقتل الخليفة عبد الله التعايشى على هذه الصورة فحينما تفتت جيشه فرش فروته وجلس الخليفة وعلى ود حلو عن يمينه ، وأحمد فضل عن يساره ، وجلس باقى الأمراء حوله فى شكل حلقة ومكثوا ينتظرون الموت حتى قتلوا عن آخرهم (١) .

ولا شـك أن تلك صفة جديدة فى الشجاعة تكشف عنها نفسية السودانيين الأبية التى ترضى الموت ولا ترضى ذل الفرار ، وقد تشبه بهم فى هذا القائد المصرى محمد على فى واقعة « أم ضبان » فى ١٨٨٤/٩/٤ فانه حين انهزم أبى الفرار ، وافترش فروته فاجتمع عليه الدراويش وقتلوه (٢) .

فى حين أننا نرى بعض فرسان العرب كأوس بن حجر يفر متعللا بأن ماضيه فى الحرب يشهد له .

أجاعـلة أم الحصين خـزاية	على فرارى اذ لقيت بنى عبس
ورهط أبى شهم ، وعمر بن عامر	وبكرا . فجاشت من لقائهم نفسى
مطاعين فى الهيجا مطاعيم للقرى	اذا اغبر آفاق السماء من القرس
كأن جـلود النمر جيبت عليهم	اذا جعجعوا بين الاناخة والحبس
فضموا علينا حجرتينا بصـادق	من الرأى حش النار فى الحطب اليبس
وليس الفرار اليوم عارعلى الفتى	اذا جربت منه الشجاعة بالامس (٣)

وحين فر الحارث بن هشام يوم بدر تاركا أخاه أبا جهل نرى حسانا يعيب عليه هذا ، ولكنه يرد قائلا :

الله يعـلم ما تركت قتـالهم	حتى علوا فرسى بأشـقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم	فى مأزق والخيـل لم تتبـدد

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٨ ـ ٣٠ ، ١٤٣ ، ٦٦٦ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٣) حماسة البحترى المطبعة الرحمانية ص ٥٢ .

وعلمت أنى ان أقاتل واحـــدا اقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبـة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مرصد (١)

ومن هؤلاء الذين فروا حيان بن الحكم ، وعتيبـة بن الحارس (٢) وآخرون حتى لقـد اعترف عمرو بن معدى كرب الزبيدى بجبن حلفـائه وضعف قومه فى القصيدة التى يقول فيها :

ظللت كـأنى للرمـاح دريئة أقاتل عن أبنـاء جرم وفـرت
فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولـكن الرماح أجـرت

٢ — ومن عاداتهم الشبيهة بهـذه العادة أنهم اذا أصـابهم قحط أقفلوا الأبواب عليهم واستسلموا للموت دون أن يمدوا أيديهم الى أحد فحين قامت مجـاعة فى عهد الخليفة عبد الله التعايشى عثر على قرى كانت تقفل الأبواب عليها ثم تموت ، ومن هذه القرى قرية تسمى ولد عشيب « وأخبرنى من أثق به أنه دخل منزلا فى المتمة من أهل البيوتات فرأى صاحب المنزل ميتا على سريره وأولاده موتى بجانبه وقد ربطهم الى قائمة السرير لئلا يفلتوا ويضطرهم الجوع الى التسول فيعير بهم (٣) » .

٣ — ومن عاداتهم عدم النطق باسم المحبوبة فى مجتمعهم الانفصالى فاذا كان لا بد من ذكر الاسم رمزوا اليه بالاعداد التى تدل على حروفه ، وقد يرمز الى الحب بالعدد أيضا ، ويكنون عن الاعداد بالحروف كما جاء فى قصيدة الشيخ محمد شريف فى الرد على المهدى « لقد جاء فى عام (زع) قاصدا بكلمة (زع) ٧٧ بعد الألف والمائتين ، ومن الرمز الى اسم الحبيبة بالحروف قول الشاعر الشعبى :

« واحـدا وأربعين واحد تمامة الميـة
اسمك ماباجيبه الناس تدله على

(١) المصدر نفسه ص ١٦٤ ، ١٧٦ .
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٦٥ .
(٣) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٥٣٦ .

مشيرا بهذه الاعداد الى « حب آمنة »

وحين كان المهدى واجفا من الحملة الانجليزية عام ١٨٨٥ أعطاه أمين بيت المال سيفا كتب عليه « نصر من الله وفتح قريب » . وسرعان ما جمع بعض الحاضرين أحرف الآية ولما وجدت ١٣٠٢ وكانوا فى هـذه السنة وثقوا من النصر واستبشر المهدى

٤ — والسودانيون يحتقرون بعض الصنائع التى تتصل بالأعمال الحقيرة وبخاصة فى عهد المهدية فقد استنكفوا من الأعمال المهنية اللهم الا ما يتصل بالحرب .

٥ — وحينما يموت رجل عظيم يضرب الناس (الطبـل) وترقص النساء بالسيوف ، وتأتى العامة « بطستين » يوضع فى الأول ماء وتغرق به قرعة يابسة ويترك الآخر ثم يضرب على « الطستين » ضربا محـزنا ويشرعن فى ندب الميت وتعديد مناقبه واذا حضر المأتم نساء حديثات عهد بالحزن ندب النادبات موتاهن أيضا .

٦ — واذا أرادوا غلى شيء يضعونه فى آنية من الخشب ثم يوقدون النار على حجارة ملساء فاذا حميت مسحوها بخرقة ثم يلقونها فى الماء أو اللبن بوساطة خشبتين وتكثر هذه العادة عند البدو ، وقـد يدهنون القرب من الداخل بالقطران حتى لا يفسد طعم الماء بالحر الشديد .

٧ — والمرأة فى السودان تتحلى بوضع حلقة فى الأنف كما تتحلى بالدشمة التى تربط الزمام بالشعر . والعروس ترقص أمام المدعوين رقصا فيه خيـلاء وكبرياء ، ويعتبر من تكريم الأصدقاء دعوة العريس عروسـه للرقص أمامهم ، ولكنها فى أول الأمر لن تحضر الى عريسها الا بعد بكاء مطرز بالدلال والخجل ، وهى لا تترك فى أيام فرحها بدون عمل ، وانما تقوم بكل ما يستلزمه الزواج من عمل ، وتقدم الهدايا من النقود فى طبق

خاص يوضع فى مكان واضح ويسمى « الشعقيبة » ويقيم العريس فى بيت عروسه مدة قد تصل الى حد الانجاب .

٨ — ومن عاداتهم أن المرأة لا تكشف عن وجهها الا عند الخطب العظيم ، وهم يتعاونون جميعا على دفن الميت ، ويقدمون ما يستطيعون من المساعدة كما يقدمون بعض المال لأهل الميت ويسمون هذه العملية « هدية البكا » .

٩ — كما أن من عاداتهم « البطان » فعندما يتنازع شابان يدعو أحدهما الآخر للبطان فان رفض اعتبر جبانا وعير فلا تقبل الفتيات الزواج منه .

وعملية البطان تقوم على سرير (عنقريب) يوضع بين المتخاصمين ثم يضرب أحدهما الآخر بالسوط دون أن يتوجع الى أن يقع من شدة الألم فاذا وقع حمل الى بيته ، وذهب الآخر الى بيته ليصالحه .

وقد يكون البطان لاظهار القوة فيدخل أكثر من واحد هذه المعركة على ضرب « الدلوكة » بعد أن يذهب كل واحد الى الضاربات على الدلوكة هازا سوطه فوق رأسها وهو يقول « أبشرى بالخير أنا أخ لبنات عشر » فاذا أعجبت فتاة بشاب نزعت سوارها وألبسته اياه فيتوجه اليها الشاب هازا سوطه فوق رأسها وهو يقول : أبشرى بالخير أنا أخ لبنات عشر فاذا كان له منافس فى حب هذه الفتاة تصدى له وقامت جولة قاسية بالسياط .

وقريب من هذا ان أحد الشبان اذا كان يحب فتاة ورأى واحدا من الحضور يميل اليها يستل خنجره ثم يهزه فوق رأسها قائلا : « أبشرى بالخير أنا أخ لبنات عشر » ثم يمزق ساعده وصدره الى أن يلطخ رأسها وثوبها بالدم . فاذا فعل ذلك أوقفه الحضور ، وأسرعت النساء الى الدم فلطخن به جبين الحبيبة التى تكون فى قمة النشوة ثم تصدقه الحب .

وبعض العشاق لا يأكلون لحم الغزلان حبا فى حبيباتهن . فاذا رأوا غزالة فى يد صائد أسرعوا فافتدوها « وفارسهم يتكنى باسم حبيبته

ويتباهى بحبها وعند اللقاء فى الحرب يقتحم غمرات الموت بجواده وسيفه مسلول فى يده وهو ينادى لعينى فلانة (١) » .

١٠ — وقد انتشرت عادة « الشلوخ » فى السودان الى حد يحمل الانسان على التفكير فى هذه العادة ، وهى تنتشر فى الحواضر اما البوادى فتقل فيها ، والغرض من هذه العادة الجمال (٢) .

والرد على هذا أن الجمال لا يكون بتشويه الوجه فلا بد أن يكون وراء هذا شىء أخطر من مسألة الجمال هذه ، وقد قيل ان الغرض منها دينى ويقصد بها الوقاية من العين لأنها اسم من أسماء الله تعالى « كافى » فاذا حسبت حروفها وجدت ١١١ « وهى عادة عربية تمت الى الاسلام بالمعنى الصحيح (٣) . » ونحن نتساءل اذا كانت تمت الى الاسلام بصلة فلماذا اقتصرت على السودان ، ولماذا أفتى العلماء بتحريمها ؟ ؟ فلقبائل الشايقية ثلاثة خطوط أفقية على كل خد ، وللجعليين ثلاثة خطوط عمودية ، وللعبدلاب ثلاثة خطوط عمودية ترتكز على خط رابع أفقى من الأسفل يسمونه « عارضا » ، وقد يوضع العارض تحت خطين اثنين « وهناك شلوخ تنسب الى مشايخ الطرق كما يفعل اتباع الشيخ الطيب ود البصير ولا سيما السروراب — ويسمونه « سلم الشيخ الطيب » وهو عبارة عن خطين متوازيين مائلين على الخد لو وصل طرفا كل منهما بطرف الآخر لكان متوازى أضلاع ، وهناك شلخ « النقراب » وهم شعبة من الجعليين على هيئة حرف T ويوجد عادة عند النساء بجوار الشلخ الأصلى (٤) » ، والمرأة التى يموت أبناؤها تشلخهم شلوخا رفيعة .

وقد قيل ان هذه عادة استحدثها العرب الذين دخلوا الى السودان للمحافظة على أنسابهم ، ولئلا يذوبوا تماما فى أهل البلاد « ومن عاداتهم

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .
(٢) نفثات اليراع ص ١١٧ .
(٣) النداء فى دفع الافتراء ٣٨/١ .
(٤) من لهجات الجزيرة ص ٢٢٤ .

أنهم يتخذون سمة يسمون بها ابلهم فى أفخاذها وأيديها ، وهــذه السمة متنوعة اذ لكل قبيلة سمة خاصة بها يعرفون بها ابلهم ان ضلت أو سرقت ولا تزال سمات الابل مستعملة الى اليوم بينهم . فلما استوطن العرب على ضفاف النيل مع النوبة اختلطوا بهم وعاشروهم ثم صاهروهم ، وخشوا ان ينقرض نســلهم بالاندماج فى النــوبة ، ولم يكن هناك ما يميزهم عنهم فتواطئوا على تشليخ أبنائهم ، واختلفت الشلوخ باختلاف القبائل ، كما اختلفت سمات ابلهم (١) » .

ولعــل ما يؤكد هذه العادة أنها لم تظهر الا فىالسودان ، وقد خطأ الأستاذ محمد عبد الرحيم أبا حيان النحوى لأنه اختلط عليه بين السودانية المشلخة والحبشية التى لا تشلخ فقال :

وبى حبشــية سلبت فؤادى فليس يروق لى شىء ســواها
كأن لعــــوطها طرق ثلاث تسير بها القلوب الى هواها (٢)

ومما يؤكد هذا ما جاء فى وثائق آثان الراوى « ففى احــدى الوثائق « فرخة سداسة مكادية حمراء اللون من غنائم الحبشة سنة ١٢١٠ هـ دون ذكر للشلوخ . بينما تتحدث الوثائق عن السودانيات فتقول : فرخة تسمى الزين كله سداسية زرقاء اللون مشلحة الخدين بلدى ســنــة ١٣١٢ » ، وتقول آدمية تسمى صافية مولدة صفراء اللون مربوعة مشــلخة بلدى سنة ١٣١٠ » وهذه الوثائق من عصر المهدية (٣) . غير أنى أميل الى القول الذى يقرر أن هذه العــادة ترجع الى العهــد الذى كانت فيــه الزراعة عماد البلاد ، وكانت الغارات تتكرر فتجمعت كل قبيلة لرد المغيرين ، ولكى يميزوا أنفسهم عند اللقاء وسموا أنفسهم فكانت الشلوخ (٤) ، ذلك لان القول بأن التشليخ كان لمحافظة العرب على نسلهم فى النــوبة يتنافى مع الحقائق التى تقــرر أن العــرب كانوا يمزجون أنفســا مزجا فى القبائل

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان عن مجلة النهضة ص ١٦٠ .
(٢) النداء فى دفع الافتراء ص ٣٨ .
(٣) العروبة فى السودان ص ٨٦ .
(٤) مجلة ام درمان ١٩٥١/١٢/٦ .

الســودانية ، وأنهم كسبوا من وراء هذه المزية الملك فى أكثر من مكان فى السودان ، ولأن هذه العادة لم تقف عنــد العرب فقط وانمــا ظهرت فى المسلمين وفى غير المسلمين ، والمواطنين والمستوطنين ، ولأن العــرب قد خالطوا عناصر أقل نقاء من النوبة ومع ذلك لم يميزوا بين أنفســهم وبين غيرهم بهذه الطريقة .

١١ — ومن هذه العادات أنه اذا سافر لهم حبيب أخذوا ترابا من مواطىء قومية وحفظوها فى كيس حتى يعود ، وقد يكتبون على يد المسافر « لا اله الا الله » ، وعلى يد المقيم « محمد رسول الله » ، واذا أقبل عليهم شخص يكرهون محضره كرروا قولهم « ستة فى ستة ستة وثلاثون » وقد يكررون هذه العبارة اذا أرسلوا رسولا وتوقعوا من تأخيره شرا ، واذا فارقهم الرجل الثقيل ألقوا وراءه عودا وقالوا « جدعناك بعود ان شاء الله ما تعود » ، واذا لعبت القطة بيديها توقعوا ضيفا ، واذا فقدوا شيئا بحثوا عنه قائلين « يابليس يابليس لك الكيس ولى كيس ، ابليس ادينى وأديك ، أدبح لك دجاجة وديك » ، واذا شــاهدوا حب الأذرة ملقى فى الطريق التقطوا من حباته سبعا وأكلوها ، واذا رأوا لقمة التقطوها ثم قبلوها وأكلوها لاعتقادهم أنها تضىء الجوف كالشمعة ، ومن أمثالهم « لقمة الغنا تورث الغنى » ، وهم يبقون قطعة من النقــود القديمة فى الكيس لتظل البركة ، واذا كانت الدجاجة تبيض فى غير مكانها شكوا أنفها بريشــة ، واذا مرت سنة على شجرة بدون أن تثمر حمل صاحبها فأسا وأخذ يدور حولها متوعدا فيأتيه صاحب له ويمنعه من قطعها ويذكر أنها ستثمر فى العام القادم ، ويقولون ان الحائض اذا صعدت شجرة أيبستها ، واذا ركبت دابة حكمت عليها بالموت ، واذا خطت فوق طفل أوقفت نموه فاذا فعلت أخذوا الطفل ومرروه فوق رأسها سبع مرات ، وأن زوج الحامل لا يذبح طائرا ولا يضرب حيوانا ، فاذا كان جزارا استأجر من يذبح له ، وان النوم على جلد الضبع يمنع وجع الظهر ، والركوب على جلد النمر يمنع مرض البواسير ، وان أيام النحس عندهم هى التى توافق الأرقام الآتية

٣ ، ٨ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ما دام ينتهى عدد بالأصـبع الوسطى ، وأن بعض الأيام تحسن فيها أعمال خاصة فالسبت للصيد والأحد للبناء والاثنين للسفر والثلاثاء للحجامة والأربعاء للشراب والخميس لقضـاء الحاجات والجمعة للزواج (١) .

كما أن تقاليدهم الخاصة أنهم يهزون السيوف والرماح للتكريم ، وأن كبد الأسد يسمم الماء اذا ألقى فى حـوض ، لذلك يهتم بعض السكان بارسال مندوب عنهم لحرقه حتى لا يقع فى يد عدو لهم ، ويعتقد بعض السودانيين وبخاصة سكان الغـابات أن فى بعض العـروق قوة تنفع وتضر ومنها :

١ — عرق العقرب — لا يلدغ حامله العقرب ويداوى به الملدوغ ، ومثله عرق الثعبان .

٢ — عرق المحبة — وتهفو لحامله القلوب .

٣ — عرق قضاء الحاجة — وتقضى الحاجات لحامله .

٤ — عرق الأثر — اذا طعن به أثر انسان أو حيوان وقف المطعون مكانه بحيث لا يتحرك الا اذا سحب العرق من أثره .

٥ — عرق المرض — اذا طعن به اثر غريم أصيب بما يريد به الطاعن من مرض .

٦ — عرق السحر — لا يؤثر فى حامله سحر ولا عروق ضارة أخـرى

٧ — عرق الخراب — اذا دفن فى بيت صار خرابا .

٨ — عرق الفيل — اذا حرقت قطعة منه أقبلت الأفيال ومن هذه العروق ما يسدد المرمى ، ويعالج الامراض (٢) .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم ١/٢٤٠ — ٢٤٢ .

(٢) الصيد فى غابات السودان لجاد الله طانيوس ص ١٠ وما بعدها .

٣ ــ تأثر المجتمع بالزعامة الدينية :

حين دخل الفتح التركى السودان وجد عالما ضخما تمرح فيه الصوفية ، وكتاب « الطبقات » يلقى لنا ضوءا على هذا العالم الذى يقدر فيه الصوفى على كل شىء فهو يرد الغائب ، ويخبر بالغيب ويعالج من الصرع والجان . . ثم ان لهم قدرة على الطيران فى الهواء ، والمشى على الماء ورؤية الرسول والخضر ، وهكذا نحس أننا أمام عالم خرافى ، ولم يحارب الأتراك هذه المعتقدات بل نراهم يشجعون المتصوفين ويدخلون طرقا أخرى كانت سائدة فى مصر كالدسوقية والبدوية .

ومن أوائل الطرق التى اشتهرت فى السودان الطريقة القادرية والجيلانية وكان هذا فى عهد مملكة الفونج . ثم دخلت الطريقة الشاذلية التى اشتهر بها مجاذيب الدامر ، وعرفت باسم « الطريقة المجذوبية » وقد وفدت على السودان من الغرب ، ومن مشاهير الذين اتبعوها الشيخ محمد المجذوب ابن قمر الدين .

ومن الطرق المشهورة الطريقة السمانية ، وقد أسسها فى الحجاز الشيخ محمد السمان المتوفى عام ١٨٢٣ ، ودخلت الى سنار فى آخر مملكة الفونج على يد السيد أحمد الطيب ود البشير وهى الطريقة التى اعتنقها المهدى على يد الشيخ محمد شريف ثم أخرج منها حين قال بالمهدية .

أما الطريقة الميرغنية فقد دخلت من بلاد الحجاز الى السودان فى آخر مملكة الفونج على يد السيد محمد عثمان الميرغنى ، وتقع منطقة نفوذها فى شرق السودان ، ومر بنا أنها ساعدت الحكم التركى ، وأنه فضلها على غيرها من الطرق . وتفرعت عنها الاسماعيلية التى لا تختلف عنها فى شىء الا فى اختصار بعض الأذكار ، وتطويل بعضها الآخر ، وكان رئيسها من أكبر أنصار الخليفة التعايشى .

ومن الطرق التى دخلت البلاد فى آخر الحكم التركى الطريقة التيجانية

التى تعتبر فرعا من الخلوتية ، ومؤسسها الشيخ أحمد التجانى المدفون فى فاس ، وأنصارها من مهاجرى العرب كالفلاتة والهوسة .

ومن هذه الطرق كذلك الطريقة الادريسية التى أسسها رجل من فاس يسمى أحمد بن ادريس الذى كان متأثرا بالاصلاحات الوهابية ومن فروعها الطريقة الرشيدية .

هذه هى الطرق الرئيسية فى السودان فى هذه الفترة ، والتى ساعد على تنظيمها الحكم التركى وأفسح لها مجالا (١) .

ولكن حينما جاءت المهدية رأت أن تكون مصدر الاشـــعاع الروحى فى البلاد . فقد وجدت البلاد مقسمة بين الطرق . كما وجدت بين هذه الطرق خلافا لا ينتهى ، وما كان لها وهى تقوم بتعبئة روحية لها فلسفتها الخاصة أن تطمئن الا الى نفسها بعد أن لاقت من العلماء الذين وقفوا يفندون فكرة المهدية درسا قاسيا ، ومن هنا فقد أمر المهدى بالغاء الطرق الصوفية وغير أسماء أتباعه من الدراويش الى الأنصـــار ، ولكن بذور التصوف ظلت مستقرة فى نفسه ، وظهرت واضحة فى الدعوة الى الزهد ، والرغبة الملحة فى الآخرة ، والبساطة التى فرضت على الجميع لبس الجبة المرقعة ، والغاء الرتب ، والألقاب (٢) .

٤ ــ مدى تأثر السودان بالحضارة الدينية :

كان السودان يعيش فى شبه عزلة عن العالم الخارجي . فلما أظله الحكم التركى قضي على هذه العزلة ، ووصله بدنيـــا البحر الأبيض المتوسط ، وبقية العالم الاسلامى ، والعالم الأوربى (٣) ، ولكن هذه الصلة لم تكن عميقة فى حياة البلاد . فكان عليه أن يسير شوطا كبيرا حتى يمكنه التفاعل

(١) تاريخ السودان لنعوم ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، السودان الشمالى ص ٢٠ ، ٢١ ، التربية فى السودان ص ٢٤٢ ، ٢٤٧ .
(٢) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٢٠ ، ١٢٣ .
(٣) الاسلام والثقافة العربية ص ١٨٠ .

التام مع هذه الحضارة التى تختلف فى مضمونها عن المضمون الحضارى المحلى الموجود بالبلاد .

وقد نجح الحكم التركى فى خلق وحدة للبلاد بعد أن كانت شيئا متناثرا لا يحس بعضه ببعض ، ولا تتفاعل أقسامه فى خلق حياة موحدة ، ووجود متكامل . كما أنه قام بعملية تنظيم للكيان السياسى فى البلاد بحيث شمل هذا التنظيم الادارى والاقتصادى والتعليمى . . الخ .

فقد أدخل التعليم الحديث الى البلاد ، وشجع الذهاب الى القاهرة حيث الأزهـــر ومدرسة الألسن ، ومدرسة الزراعة ، ومن هنا تطورت الأفكار ، وتفتحت نوافذ جديدة على الحيـــاة هناك . وقد كان لدخول الطباعة لأول مرة فى السودان أثره ، ذلك لأن الحكومة المصرية فى عهد محمد على أنشأت فرعا من المطبعة الأميرية فى السودان فعرفت لأول مرة مطبعة الحجر هنـــاك ، وظلت تقوم بدورها فى عهـــدى الفتح التركى ، والمهدية ، والى جوارها أقيم مصنع للورق ليمد فرع المطبعة الذى كان يشرف عليه ابراهيم أفندى أحمد (١) .

وقد دخلت البلاد كما قدمنا أساليب الزراعة الحديثة ، وأنشئت عدة مصانع ، وتعلم الناس الأساليب الحديثة للبناء والكثير من طرق الحياة حتى لقد شمل هذا التنظيم الطرق الصوفية ثم كان هذا التنظيم العسكرى المستوردة أساليبه من الغـــرب والذى استطاع أن يخضع البلاد ويظل شاهرا قواه فى وجوه الناس ومتسلطا على نفوسهم وأرزاقهم .

كما عمل الحكم التركى على الغاء الرقيق ، ولكنه أسند هذا الأمر الى طائفة من الأجانب اشتطوا فى عملية التنفيذ ، ولم يراعوا عملية التدرج فى حل المشكلة حتى لا تتوقف مصالح الناس الذين كانوا يعتمدون على الرقيق فى عمليات الزراعة والرعى ، وتسديد الضرائب .

---

(١) السودان بين عهدين لسعد ميخاليل ص ٢٨٦ .

وقد تم التقاء السودان بالثقافة الغربية عن طريقين « طريق غير مباشر قامت به الحكومة المصرية بتوسعها فى التعليم ومحاولتها استخدام الوسائل العلمية الحديثة فى استغلال ثروة البلاد والافادة منها ، وطريق مباشر وسيلته الرواد والرحالة والمكتشفون والتجار والقناصل الذين تدفقوا على البلاد (١) . »

على أن النظام التركى لم يتكيف فى حقيقة الأمر تكيفا حضاريا مع الغرب . فبينما نراه يجارى العالم الغربى فى التسلح نراه يهمل الاقتصاد ، ومن هنا بدأ فى التخلف حتى سمى بحق الرجل المريض ، ونحن نراه فى السودان لا يعطى هذه الجوانب حقها فلم يقم بعملية تغيير فى المجتمع . فمازال رؤساء القبائل يقومون بدورهم ، والثقافة القديمة تضرب بجذورها فى أعماق المجتمع ، والطرق الصوفية تجاهد فى ادخال الناس جميعا اليها .

ومهما يكن من شىء فقد كان التأثر بالحضارة الحديثة شيئا قشريا لم يتفاعل مع أعماق الأمة ، ولم يؤد دوره كاملا على هذا الأساس . فلما أظلت المهدية الناس زالت هذه القشرة وبدا المجتمع السودانى على حقيقته الشرقية فلم يترك المهدى للحضارة الحديثة بابا تدخل منه اذ عكف على ثقافة دينية تمتد جذورها الى الشيعة ، ولم يقبل المعاونة من الخارج حتى لقد اضطر الى وقف الحج حتى يبتعد السودانيون عن الذين كانوا يتربصون لدعوته خارج السودان (٢) وهكذا أقام ستارا حديديا بين السودان والخارج ، وعاش الجميع فى ظل النظام الذى دعا اليه .

وكل الذى يقال انه استفاد من الحضارة الحديثة هو اتقان صناعة الذخيرة ، وادارة الآلات البخارية ، وكل المهن المتعلقة بالحرب وكان هذا بوساطة الأتراك والأجانب الذين وقعوا فى قبضة المهدية .

٥ ــ المرأة السودانية فى هذه الفترة

حين دخل الحكم التركى البلاد لم يجد المرأة متمتعة بأية حقوق مثلها

(١) الاسلام والثقافة العربية ٣٥٧/١ .

(٢) المهدى والمهدية ص ٨٣ .

فى ذلك مثل النساء فى مصر . فلم تكن تشارك فى الحياة بصورة عملية . ومن قبل ذلك لم يترجم لها صاحب الطبقات ، وان كنا نجد من خلال الكتاب بعض اهتمامات بالمرأة .

ونحن نرى أن دور المرأة لم يكن واحدا فى كل بلاد السودان . اذ أنه رغم وجود نظام سياسى عام ، ورغم توحيد الأجهزة الثقافية فى البلاد بمعنى أنها تصدر عن فلسفة الحكم التركى نرى أن النظام الجديد لم يوحد أنماط الناس فى هذه الفترة .

على أن المرأة فى شرق السودان قامت بدور ايجابى فى التعليم الدينى فقد كان هناك عدد كبير منهن ينتسب الى الطريقة الميرغنية ، ويحضرن مجالس السيد محمد عثمان ، وقد رآهن فى احدى المرات الفقيه عيسى خارجات من عنده فهجم عليهن بجيشه الذى كان قد أحضره من « فلوسيت » وجردهن من الحلى ، وسبى بعضهن ، وقطع آذان وأنوف بعضهن ، وقامت بين أنصاره وأنصار محمد عثمان معركة هزم فيها الأخير (١) .

وكانت الطريقة القادرية السمانية تسمح لهن بالاشتراك فى مجالس الطريقة ، وكذلك كانت المرأة يسمح لها فى حضور حلقات الصوفية فى غرب السودان فكان الرجال يذكرون والنساء ينشدن (٢) .

غير ان نعوم يصف بعض قبائل غرب دارفور كالقمر ، والتامة ، والمساليت ، والبقارة وغيرها بالانحلال ، ويبالغ التونسى فى أكثر من صفحة من كتابه فى تصوير هذا الانحلال فى غرب السودان ثم يذكر انهن يقمن بأقسى الأعمال وأشقها « وللرجال اختلاط عجيب بهن بالليل والنهار فى جميع الأعمال (٣) » والمرأة تتمتع بمكانة طيبة عند البجة لانها تقوم

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٣٢٤ ، ٣٣٥ .
(٢) تاريخ الثقافة العربية ص ١١٢ ، التونسى ٢٢٤ .
(٣) تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان لمحمد بن عمر التونسى ص ١٤٤ ، تاريخ السودان جـ ١ ص ١٩٤ ، ٢٢٨ .

بأعمال كثيرة زيادة على عملها بالبيت . فالمرأة لها امتياز عند القبائل الحامية . وقد لاحظ ابن بطوطة هذه الظاهرة عند الطوارق فى الصحراء الغربية ، كما لاحظها الكثيرون عند الحاميين الشرقيين ، وما عادة الميراث بين الرجل وابن أخته ، وتقدير الخال الا بعض مظاهر من تقدير المرأة ، ومن هنا فلا تعاقب المرأة بصرامة مهما فعلت ، وأقصى درجات عقابها « قص الشعر وطحن الحبوب والمرأة عند البجة — وخاصة البشاريين — لا تحلب الماشية وقلما ترعاها ، ولا تضرب ، وتنحصر أعمالها فى بعض الصناعات بعكس ما هو متبع عند جيرانهم من العرب الرشايدة الذين يضربون النساء ، وما أكثر ما ينكرون على الزبيدية والرشايدة — من عرب اليمن — قيام النساء بعملية الحلب ، وعرب السودان يرفهون النساء غالبا فكانوا يحضرون لهن الجوارى للقيام بأعمال البيت ، والمرأة تحلف برأس أبيها لا برأس زوجها ؛ ولا تنطق باسم زوجها فهى تكنيه باسم ولده فاذا لم يكن له ولد كنته باسم أبيه فتقول « ياود فلان » ، ولا تقابل حماها الا لماما ، وكذلك الحال بالنسبة لحماة الرجل ، والمرأة لا تتناول طعامها أمام زوجها (١) » .

ولم تفتح مدارس اسلامية للبنات فى هذه الفترة ، ولكن مدارس ارساليات كانت تعلم الفتيات فقد تزوج القائد لبتن « من جارية » جنقاوية متعلمة فى مدرسة المرسلين النمساويين فى الخرطوم (٢) .

ولكن كانت توجد فى هذه الفترة بعض المتعلمات فقد ذكر رفاعة فى مناهج الألباب المصرية أن « أمونة » بمديرية دنقلة قامت باقراء القرآن والمتون ، وادارة مكتبين : واحد للذكور والآخر للبنات ، وكانت تنفق على عملية التعليم هذه من كسبها فقد كانت تغزل القطن وتنسجه . كما كانت هناك بناحية « شركيلة » امرأتان اسم الأولى عائشة واسم الثانية آمنة ، وكان لهما مسجد لتعليم القرآن (٣) .

---

(١) السودان الشمالى ص ٤٤ — ٤٦ .

(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٣) التربية فى السودان جـ ١ ص ٢ .

وقد شاهدت هذه الفترة شاعرة شعبية تسمى « بنت مسيمس » من بلدة المسلمية « التى كانت منها شاعرة اخرى تسمى « عشة » ، وقد تغنت « بنت مسيمس » هذه ببطولة الزبير وأبطاله ، وابنه سليمان ، ومن قولها فيه

« فى السودان قيل ما يشبهوك الناس .

يا جبل الدهب الصافى ماك نحاس .

ياباروود النصارى عن غمزة الكباس .

سموك الزبير الرجاله خلاص » .

والمعنى « أن السودان لم ينجب قبلك من يشبهك فأنت الذهب الخالص الذى لم يخالطه معدن آخر ، وأنت الشجاع الذى ينطلق كقذيفة الانجليز المعروفة بقوتها وسرعتها ، وقد سموك الزبير تشبيها لك بالبطل المعروف والقائد المبرز الزبير بن العوام وذلك لكمال رجولتك التى لا تدانيها رجولة (١) .

وقد لمعت فى عهد خورشيد باشا نصرة بنت الشيخ ادريس التى طلبت من زوجها اطلاق السرارى فلما أبى اشترت لها عبيدا فرضخ لرأيها ، واشتهرت فى عهد المهدية الشاعرة الشعبية « بنت المكادى » التى تغنت بأمجاد المهدية (٢) .

ومهما يكن من شىء فقد فرضت المهدية تقاليدها الصارمة على المرأة فذكرت أن الناشز تحبس فى الأوكار والبيوت المظلمة حتى تتوب أو تموت « كالزانية » وان من « ثبطت نفسها عن زوجها فمالها غنيمة لزوجها وان راضاها فماله غنيمة للمسلمين فان فعلوا ذلك فلا تعودوهم ان مرضوا ولا تشيعوا جنائزهم ولا تعينوهم على الشدائد ... وتجنبوا من النساء اللذات العديدة » .

---

(١) من لهجات الجزيرة ص ١٧٩ .

(٢) نعوم ٣/ ٢٠ ، ٣٧ .

وحرمت المهدية الاسراف فى احتفالات الزواج فجعلت مهر البكر عشرة ريالات ، وحلتين وجعلت مهر الثيب خمسة ريالات وحلتين ، وعاقبت من يخالف ذلك بمصادرة أمواله ، وأبطلت الرقص والغنـــاء وضرب الدلوكة ، وجازت من يخالف ذلك بالجلد ومصادرة ماله ، ومنعت البكاء وراء الميت ، وأبطلت السحر والتعزيم وكتابة الأحجبة ، وكذلك منعت النساء من التحلى بالذهب والفضة وشعر العارية ، ومن خروجهن مكشوفات الرءوس ، وخروج حديثات السن بين الناس وعاقبت من يخـالف ذلك بالجلد . ولكنها سمحت لهن بالتحلى فى منازلهن بالسوميت والمرجان والصدف واللؤلؤ (١) .

وسبق أن ذكرنا أنها نهت عن زواج البالغة بلا ولى ولا مهر ، وحكمت بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر اذا لم يترك لها ما يحفظ رمقها الا اذا كان فى الجهاد .

من كل هذا نرى أن المرأة قد ضيق عليها فى عهد المهدية ، وأنها صارت شيئا مهملا فى المجتمع السودانى بالاضافة الى عادات قاسية كالحجاب ، والوشم ، والتشليخ ، والخفاض الفرعونى ، وضفر الشعر ، ولبس الرهط والكنفوس والقـرباب ، والى نظام السرارى الذى كان معترفا به كحق للرجل بحيث يصل به الى أى عدد يختاره .

٢ — الخرافات والتقاليد الخاصة بالسودان :

من الخرافات العربية التى وفدت على البلاد مع العرب القادمين من بلادهم بحيث أصبحت منتشرة فى السودان خرافة اختلاج العـين بحيث يعلقون بها عمليتى الخير والشر . فاذا اختلج الجفن الأعلى توقع صاحبه خيرا ، واذا اختلج الجفن الأسفل توقع صاحبه شرا .

وقد كان العرب يتوقعون رؤية الحبيب اثر اختلاج العين .

---

(١) نعوم جـ ٣ ص ٢٧٠ ، ٢٦٧ .

اذا اختلجت عينى تيقنت أننى أراك وان كان المزار بعيدا [1]

كما انهم يعتقدون فى « الخدر » ، وأن من يصاب به يشفى اذا ضربه على مكان الألم بكر أبويه ، وهذا الاعتقاد يمت بصلة الى الاعتقاد العربى الذى يقول ان المصاب بالخدر اذا ذكر أحب الناس الى نفسه ذهب عنه الألم ، وقد تأثر بهذه الفكرة « شوقى » فى مسرحية مجنون ليلى ، وقد قال كثير فى هذا :

اذا مذلت رجلى ذكرتك أشتفى بدعواك من مذل بها فيهون [2]

وقالت امرأة من كلاب :

اذا خدرت رجلى دعوت ابن مصعب فان قلت عبد الله أجلى فتورها [3]

وحينما ذكر ذلك لابن عمر فى حالة اصابته بالخدر قال : وامحمداه [4] .

ومن عاداتهم أن من دخل بلدة لم يدخلها من قبل فأحدث صوتا كنهاق الحمير أمن على نفسه وباء هذه البلدة وأمراضها .

ومن العادات الخرافية التى ترجع الى أصل عربى أن الطفل اذا شب فسقطت واحدة من أسنانه ورمى بها فى عين الشمس بسبابته وابهامه طالبا ابدالها بأحسن منها رزق بواحدة جميلة وقال فى هذا طرفة :

أبدلته الشمس من منبته برا أبيض مصقول الأشر

ومنها اعتقادهم فى الشياطين والسعالى وأنها توقد النار بالليل لتضلل السائرين ، وأن فى الاعصار شيطانا ، وأنهم يخشون على الطفل من « القرينة » ما لم يبلغ عاما ، وأنهم يتقون الجن بالأحجبة ، ومن أنواع الجن التى يخوفون بها أولادهم الشكلوته ، والدودو ، وأم بعلو .

---

(١) بلوغ الأرب ٢/ ٣٢١ ، ٣٢٠ .
(٢) نهاية الأرب ٣/ ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) العربية فى السودان ص ٤٠ .
(٤) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣١٨ .

وقد نسب العرب الى الجن أعمالا أخذت منها أسماؤهم « فهى تهدى الضالين فى الفلوات كما هدت عبيد بن الأبرص ، وترشد الى الايمان بالله والى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أرشدت سواد بن قارب ، وخنافر بن التوءم . أما شرها فينتسب اليها الجنون ، واضلال الناس فى الصحراء ، وقتلهم ، والأخذ بالثأر منهم لقتل ثعبان أو قنفد مثلا .. وهم يطرقون الناس كما طرقوا شمر بن الحارث ، ولها أصوات تسمع فى الليل وفى الفلوات عند هبوب الريح ويسمى صوتها العزف والعزيف (١) .

وهذه هى الخرافات التى تمت من قريب أو بعيد الى العرب ، والى جوارها توجـــد خرافات تمت الى الحياة الافريقية بصلة ، ومن هذه الخرافات خرافة « شجرة الاكسير » وهى شجرة ذات فرعين فى كل فرع ورقتان فاذا وضع منها شىء على قصدير أصبح فضـــة ، واذا وضع شىء منها على فضة صيرها ذهبا ، وهذه الشجرة مجهولة المكان فمن عثر عليها أصابه حظ كبير ، وربما تحصـــل عليها الغنم وهى ترعى فاذا أكلت منها در لبنها (٢) .

ومنها أن الميت من قبائل « تيموركة » غرب السودان يقوم من قبره بعـــد ثلاثة أيام من موته ، ثم يتوجـــه الى بلد ليعيش ويتزوج وأن لهـــم قدرة على ترك انسانيتهم ، والظهور بأى شىء يريدون حتى ان الرجل منهم اذا ضيق عليه تحول الى ريح (٣) .

وأن « الزبالعة » عندهم القدرة على التحكم فى الأمطار ، والتحكم فى السائرين بحيث لا يستطيعون التقدم أو التأخر ، وكذلك يفصلون بين الأبقار وعجولها بخط يرسم على الأرض ، ويتحكمون فى التماسيح باقامة تمساح من الطين على الشـــاطىء على أن يربط فكيه خط عليه تعـــويذة (٤) .

---

(١) شياطين الشعراء للدكتور عبد الرزاق حميدة ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ٢٣٨ .
(٣) تشحيذ الأذهان للتونسى ٣٠٥ .
(٤) النداء فى دفع الافتراء ص ١٢٠ ، ١٢١ .

وتكثر في دارفور وكردفان الخرافات الافريقية ففى دارفور اماكن معروفة تقدس فى كل منها شجرة أو صخرة ، وهذه الأماكن تسمى عندهم مرجتى Sirgitte لأنه يوجد تحت كل واحدة شيطان يتصورونه على هيئة حيــة قصــيرة وسمينة ولونها أبيض وتقــوم على خدمتها عجوز وفى تلال تجابو فى دارفور أو قريبا منها تقام الطقوس مرة أو مرتين فى السنة لنوعين أو ثلاثة من الأشجار والأحجار ، وتبدأ عادة قبل نزول الأمطار أو فى موسم الحصاد قبل نضوج الثمار أملا فى الحصول على ثمار جيدة وغلال طيبة ، ويقوم بطقوس الاحتفال نساء عجائز يأخذن الحق بالوراثة (١) .

على أنه يغلب على الظن أن الفور قبل دخولهم الاسلام كانوا يعبدون الحجر والشجر (٢) ذلك لأنهم لا يعتنقوا المسيحية ، وهم لا يختصون بهاتين العبادتين فقد عرفهما كذلك العالم العربى القديم فعبد بعض العرب الحجر ، والشجر . فقد عبد الاله عثتر « مذكرا ومؤنثا بوصفه اله سقى النخل وجنى الثمار ، وبوصفه الهة الخصب والنتاج ممثلة فى النخل والماء ، وقد سمت فى شمال الجزيرة بأسماء أخرى منها العزى » (٣) .

وكما قدست الحية فى دارفور قدست فى كردفان فقد ذكر أن بها حية تسمى « حميدة أم كما أبيض » ، وأنها تخبر عن المستقبل ، وأن هذا الأمر يتم عن طريق امرأة يقال لها « الأرتية » ، وأن « آدم أم دبالو » استعان على تنصيبه ملكا بهــذه الأرتية . فقد استدعت له ملوك الجبــال الذين اشتركوا جميعا فى حلق رأسه ، ومعنى هــذا البيعة بالملك له وخلع الملك ناصر ، ولكن الملك ناصر لم يخضع لهذه البيعة ودافع عن ملكه بشاعة ، وحين علم الخديوى اسماعيل بهذه الحرب استدعاه الى القاهرة ، ثم أذن له بالعودة الى الخرطوم ، واقطاعه أرضا بعيدة عن ملكه (٤) .

---

(١) تاريخ الثقافة العربية ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) مكميكل جـ ١ ص ١٠٠ .

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص ٣٢٨ .

(٤) النداء فى دفع الافتراء ص ١٢٧ - ١٢٩ .

وقد تكون هذه الخرافات منقولة عن بلد افريقى ، كالقاء جارية مزينة حين يفيض النهر فى اقليم برنو فان صحت هذه الرواية فلا بد أن تكون الفكرة مأخوذة من عروس النيل التى كانت تلقى فى النيل ثم أبطلها عمرو بن العـــاص (١) .

وقد تختلط هذه الخرافات بمعتقدات أخرى فقد تحدث الى نعوم شقير تاجر من الأقباط الذين كانوا يترددون على جبال النوبا بالغرب أن الناس هنـــاك اذا بلغ الطفل عندهم أربعين يوما يحمـــلونه الى الرئيس الدينى (الكجور) ويطلبون اخراج الأرواح النجسة منه ، فيقوم الكجور بالقائه فى الماء واخراجه (٢) وهذه العملية تقرب من عملية التعميد المسيحية .

ومن الخرافات أن « الرزيقات » استأجروا عبد الله التعايشى عام ١٨٧٣ ليقرأ أسماء الله فى خلوته حتى لا تنطلق النار من بنادق رجال الزبير باشا ، وتعهدا له ببقرة من كل مراح (٣) .

أما فى الجنوب فتزدهر الخرافة وتتشكل بمعتقداتهم ، وظروف البيئة من حولهم (٤) .

ثم لقد أسهمت المهدية مساهمة فعالة فى خلق الخرافة فذكر المهدى أن النبى يتجلى عليـــه وأن مهديته للانس والجن ، وأنه مؤيد بالله ورسوله والملائكة والخضر والخلفاء والجن أحياء وأمواتا ، وبالرعب يقذف فى قلوب الأعداء . فقـــد رأى النبى كما يقول بعينى رأسه « فأجلسه على كرسيه وقلده سـيفه وغســل قلبه بيده وملأه ايمـــانا وحكما ومعارف منيعة وأخبره بأنه الخليفة الأكبر والمهدى المنتظر وأن من شك فى مهديته فقد كفر ومن حاربه خذل فى الدارين » .

وأن من علامة مهديته أن تخرج معـــه راية من نور يظل يحملها له فى

---

(١) مكميكل جـ ١ ص ١١٧ .
(٢) تاريخ السودان لنعوم جـ ١ ص ١٠٩ .
(٣) المصدر نفسه ٣ / ٧٠ .
(٤) المصدر نفسه ١ / ١٩٢ .

الحرب عزرائيل ، وأن النار تضرم تلقائيا فى أجسام أعدائه ، وأن اسمه وجده منقوشا على بيض الدجاج وورق الأشجار ، وأن الله سيملأ البلاد عدلا ، وستدر الأرزاق ويفيض الماء وتتآنس السباع الضارية مع الأنعام ، ويؤمن كل مؤمن من سم الحية (١) .

هذا بالاضافة الى الخرافات التى أطلقها مريدوه ، وبخاصة الخليفة عبد الله الذى ذكر أن الله والنبى والمهدى يتجلون له ، وأنه بايع الجن ذكورا وأناثا وأذن لهم بالسكنى قرب أم درمان ، وأنه مؤيد فى الحرب بحضور النبى والمهدى والخضر والملائكة وأرواح المؤمنين من آدم الى اليوم ، وأن روح من يعاديه فى حراب وسيوف الأنصار ، وأن الحراب سمعت تنطق بالشهادة . كتب اليه عامله على القلابات يقول ان ابنته التى لم تتجاوز الشهرين تكلمت بلسان فصيح قائلة «لا اله الا الله محمد رسول الله» (٢) .

من هذا نرى أن الخرافة كانت تسيطر على عقول الناس وتتشكل برغباتهم كما تتشكل بالبيئة وأنها اعتمدت على نبعين غزيرين هما العالم العربى والعالم الافريقى ثم أصبحت شيئا مستقلا له ملامح المجتمع السودانى .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ص ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ٣٤٨ .
(٢) المصدر نفسه ٦١٤ ، ٦١٥ .

الطبقات فى السودان
خلال هذه الفترة ، وحال المجتمع

(٧)

(أ) لم تكن الطبقات فى هذا المجتمع مثل الطبقات فى عهدنا الحاضر ، ذلك لأنها كانت طبقات تقوم على النظام القبلى . فالممالك قبل هذه الفترة كانت مجموعة من القبائل تدين على نحو من الأنحاء بتلك الممالك . فلما جاء الحكم التركى ربط رئيس القبيلة بالحكومة باعتباره مسئولا عن تنفيذ القوانين . أما علاقة الفرد فى القبيلة فلم يتعرض لها الحكم التركى .

وقد نصب الحكم التركى رئيسا عاما من السودانيين ليكون القمة العليا التى تصل رؤساء القبائل بالحكومة . فحين حضر خورشيد باشا (١٨٢٦ ــ ١٨٣٩) قدم اليه محوبك الشيخ عبد القادر قائلا « ان عمران البلاد برءوسها أهل الرأى ، فخذ برأى هذا » فعمل برأيه ، وحين جمع مشايخ البلاد وسألهم أن يختاروا شيخا لينوب عنهم عنده فى تعديل الضرائب اختاروا الشيخ عبد القادر هذا ، وهكذا استعان به خورشيد باشا على تعديل الضرائب ، وقلده المشيخة على جميع البلاد من « حجر العسل » الى « جبال الفونج » ، وخلع عليه كسوة وأهداه سيفا .

كما أقر خورشيد الشيخ ادريس على جبال الفونج . فهؤلاء السودانيون يمثلون الطبقة العليا من المجتمع . ثم تليهم طبقة العلماء وطبقة مشايخ الطرق . ثم طبقة التجار . ثم طبقة العامة ، فالمجتمع فى هذه الفترة كان مجتمعا قبليا تقوم حياته على الزراعة والرعي والتجارة على مستوى بدائى ، فلم تعرف هذه الفترة طبقة « ارستقراطية » متميزة ، أو عدة أفراد فى يدهم مصير البلاد الاقتصادى .

وقد تتميز قبيلة على أخرى بالمهارة فى الزراعة ، أو الاقامة فى منطقة صالحة للرعى أو بمساهمتها فى عمليات التجارة ، ولكن هذا لم يترتب عليه وجود فوارق كبيرة منبعجة لأن الوجود الاجتماعى كله للبلاد كان « مسطحا » ان صح هذا التعبير ، وكل انسان فيه كان يجد من أسباب الزراعة والرعى والتجارة ما يمسك عليه حياته البسيطة .

على أن الحاكم التركى لم يعامل الناس معاملة واحدة فقد أغدق العطايا والامتيازات على رجال الدين والأعيان ، وشملت امتيازات الفقهاء القائمين على التعليم الدينى الاعفاء من الضرائب (١) وقد تقرب الأعيان من الرؤساء بالرشوة فأسقطت الضرائب عن كثير منهم . ثم ان « المأمورين » كانوا يفرضون على الأهالى «دخول» غير رسمية يحصلونها مع الضرائب (٢) وقد وصل الحد الى أن الحكم التركى فى هذا الجو القبلى ميز بعض القبائل على بعضها كما فعل مع قبيلة الشايقية التى أعفيت من الضرائب ، وسلمت لها أرض الميرفاب ، قد ساق الينا الأستاذ الشاطر جدولا مفصلا بما كانت تدفعه القبائل فوجدنا تفاوتا كبيرا بين ما كانت تدفعه كل قبيلة وأخرى بدون مسوغ وقد استمرت عملية التفرقة هذه حتى عهد غوردون الذى أسهم هو الآخر فى هذه التفرقة (٣) . ، وقد ميز الحكم التركى كذلك الطريقة الميرغنية على غيرها من الطرق مما ترتب عليه وجود طبقة متميزة بعض الشىء هى الطبقة اللاصقة بالحكام فى نهاية الحكم التركى .

أما الطبقة التى تميزت بغناها بعد استقرار الحكم التركى فكانت طبقة التجار الذين كانوا يشقون طريقهم الى الجنوب فقد كان فى « بحر الغزال فى ذلك الحين تجار كثيرون ــ غير أبى عمورى ــ متفرقون فى جميع أنحاء البلاد ، ولكل تاجر منهم زريبة يأوى اليها ويضع فيها تجارته ، وأهم الأصناف الرائجة فى تلك البلاد الخرز على اختلاف أنوعه وألوانه والودع والقصدير ، وكله مما يتميز به الأهلون نساء ورجالا ويفضلونه على الذهب

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٤١ .

(٢) نعوم ١١٠/٣ .

(٣) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٤٢ .

والفضة فيأخذونه من التجار مقايضة بسن الفيل والخرتيت وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس وغيرها من محاصيل البلاد (١) » .

كل هذا الى جانب تجارة الرقيق التى كانت نامية فى هذه البلاد ، ومن الحق أن نقرر أن السودان مارس هذه التجارة كوسيط لا كأصيل . فالرقيق لم يكن له دور حاسم فى الانتاج كما كان الحال فى أمريكا حيث كان الافريقيون هناك يقومون بزراعة المحاصيل النقدية الكبيرة كالقطن والتبغ وقصب السكر ... الخ ذلك لأن الرقيق فى السودان كان يقوم فى الغالب على خدمة المنازل ويدفع كضريبة للحكم القائم (٢) .

ومهما يكن من شيء فقد اشتد ساعد هؤلاء التجار ، وأصبحوا طبقة رأسمالية ضخمة حتى استطاع الزبير وهو واحد منهم أن يكون له ملكا فى الغرب ، وأن يعين حاكما على شكا وبحر الغزال عام ١٨٧٣ ، ومن بعده ظهر قائدان عظيمان ابنه سليمان الذى قتله جسى ، ورابح الذى ترك السودان وكون له مملكة فى منطقة الغرب ، ولكن نفوذ هؤلاء التجار قد تبدد على يدى صمويل بيكر ، وغردون . ثم لما جاءت المهدية جعلت للنظام القبلى قيمته فى نصرة الفكرة التى دعا اليها المهدى . وقد رتب أنصاره ترتيبا جديدا ، وكان لهذا الترتيب أثر كبير فى القيمة الاجتماعية بالبلاد . فالمرتبة الأولى لتلاميذه الذين صحبوه قبل ادعاء المهدية ويسمون « أبكار المهدى » ، والمرتبة الثانية للرجال الذين نصروه فى « أبا » ، والمرتبة الثالثة للذين هاجروا اليه فى قدير ويطلق عليهم « أنصار قدير » والمرتبة الرابعة للذين خرجوا اليه من الأبيض الى « كابا » ويسمون « أنصار كابا » ثم يلي هذا الترتيب عامة الأنصار وهم طبقات كذلك بحسب أقدميتهم فى نصرة المهدى . فأهل بارة أكرم من أهل الأبيض ، وأهل الأبيض أكرم من أهل الخرطوم وهكذا « قيل ان اللواء ابراهيم باشا فوزى اجتمع

---

(١) نعوم ٣/٦١ .
(٢) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٥٩ ، محاضرات فى مشكلات علم الاجتماع السودانى .

بالملازم يوسف أفندى منصور فى بيت الحاج خالد العمرابى بعد سقوط الخرطوم فلما حضر الخادم بالقهوة قدمها الى يوسف منصور وقال لماذا ترد القهوة وتقدمها الى ابراهيم فوزى قال ياسيدى لأنه أكبر منى مقاما فقال الحاج خالد لا بل أنت أكرم منه الآن ، لأنك أسبق الى صحبة المهدى ، وكان الخادم قد قدم القهوة الى ابراهيم باشا فلما سمع كلام سيده أخذ الفنجان من يد ابراهيم باشا وأعطاه ليوسف منصور (١) .

من هذا نرى أن النظام الطبقى الجديد قام على فكرة واحدة ، هى الاسراع الى اتباع المهدى ونصرته . فبهذا المقياس الجديد رتبت الطبقات فى هذا المجتمع ، واستحق الخلافة من بعده رجل من المبشرين له بالمهدية وهو « الخليفة عبد الله التعايشى » فقد قدم على أقرباء المهدى . وعلى كل فقد طبق هذا النظام الاجتماعى بكل دقة حتى ان الأشراف من أهله حينما تعالوا على الناس نراه يقف بعد خطبة الجمعة فى ١٢ يونيو عام ١٨٨٥ ثم يقول أيها الناس انى مللت النصح والمذاكرة لأقربائى الأشراف الذين تمادوا فى الطيش والغواية وظنوا أن المهدية لهم وحدهم . ثم أمسك ثوبه ونفضه ثلاثا وقال : انى برىء منهم فكونوا أنتم شهودا على بين يدى الله تعالى . فلما سمع الأشراف ذلك أطرقوا رءوسهم (٢) .

أما الخليفة عبد الله فقد حطم هذه القيم ، وأذل الأشراف من آل المهدى ، وأحل أهله المكانة الاجتماعية الرفيعة . فقد جعل الأمر كله فى يد أخيه من أبيه يعقوب الذى صار وزيره ، ووكيل رايته ، ورئيس مجلس شوراه . كما جعل من أخيه من أمه السنوسى أحمد أميرا ، وقد ذكر نعوم أربعة عشر أميرا من أقاربه ، كما مكن أقاربه من التغلغل فى شئون الجيش .

من هذا نرى أن الخليفة عبد الله ساعد على تكوين طبقة حاكمة من أسرته فى الوقت الذى أضعف فيه نفوذ الأشراف وأصدقاء المهدية

---

(١) نعوم ٣٧٢/٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٤ .

المخلصين . كما كانت سياسته تقوم على التفرقة بين القبائل ، وتحطيم المستويات الاجتماعية المتعارف عليها . ذلك لأنه وضع مقياسا جديدا هو « الاخلاص للحكم القائم » ومن هنا ارتفعت قيمة « البقارة » الاجتماعية .

وقد أوصدت المهدية البلاد فى وجوه الغرباء أما من بقى فقد أرغم على السير فى ركابها .

على أنه كانت تلى طبقة المحاربين الذين ذكرناهم طبقة العمال الحربيين أى الذين يتصل عملهم بالحرب . ثم طبقه الزراع والرعاة . أما التجار فكانوا يطلقون عليهم اسم « كلاب الدنيا » ، وكانوا يحتقرونهم لعدم انخراطهم فى سلك الجندية فى سبيل المهدية .

ومما لا شك فيه أن العلماء الذين أقروا المهدية كانت طبقتهم الاجتماعية تلى طبقة القواد مباشرة .

(ب) نستطيع أن ندرك من حديثنا عن الطبقات ذلك الثراء الذى توفر لها . فقد كانت تقف على قمة الهرم الاجتماعى طبقة الحكام وقد عرفنا أنهم كانوا يفرضون لأنفسهم ضرائب خاصة بهم وأن أكثرهم لم يكن يرفض الرشوة ، وقد ذكر أن ممتاز باشا (١٨٧١ — ١٨٧٣) قد أخذ رشوة من سنار وحدها مائة وخمسين ألف ريال ونيفا .

ثم تلت ذلك فى الحكم التركى طبقة الحكام من أهل البلاد ، والعلماء ، ومشايخ الطرق ، والتجار ثم الناس على اختلاف درجاتهم .

أما فى المهدية فيتدرج التنظيم الطبقى من أصحاب المهدى الى أقربائه الى عمال الحرب ثم الى باقى الناس بما فيهم التجار ، وفى عهد الخليفة نرى أن الطبقات تبدأ من أقرباء الخليفة ، وتنتهى بغير المخلصين له . وفى ضوء هذا التنظيم نستطيع أن نعرف حال المجتمع من الثراء والفقر اذا عرفنا أن المخلصين الى الدعوة كانوا من المتقشفين فى عصر المهدى .

وقد كان من مظاهر الثراء اقتناء الرقيق ، والسرارى فالمهدى

المتقشف قد مات عن مائة امرأة منهن أربع شرعيات هن « أمهات المؤمنين » . وبالغ الخليفة مثل المهدى فى نظام السرارى ، وحين أمــر بمصادرة ثروة الزاكى طمل وجد أن عنده كثيرا من الرقيق ، وقيل وجدت عنده مائة من النساء . ومن الذين وصلوا الى مرتبة ضــخمة من الثراء الزبير باشا ، وعثمان دقنة ، والشيخ ادريس الذى كان واليا على جبال الفونج والذى كان يسير مع جاريته « تام الزينة » ومن حوله الجــوارى يحملن أذيال ثوبه ، ويقال ان السودان فى عهد أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٩ — ١٨٤٤) قد زادت عمارته ، وخصبت أرضه حتى أصــبح أردب الأرز بخمســة قروش (١) .

(ج) هذه هى القشرة الظاهرة من المجتمع أما الملامح الرئيسية له فقد كانت مجهدة صلبة ، وقد حدد عثمان بك (١٨٢٥ — ١٨٢٦) الضرائب ، ووكل أمرها الى الجنود فهرب الناس الى القضارف وغيرها من المنــاطق البعيدة عن نفوذ الحكومة . حتى قيل ان نصف السكان فى عهــده مات نتيجة المرض والقحط والقتل (٢) .

ثم تطور هــذا النظام الضريبى مع الزمن فشمل المظــاهر الاقتصادية المختلفة « ومن ذلك العشور على السواقى والنخيــل والزراعة وعوائد الأملاك « والويركو » على أصحاب الحرف والصناعة والجمارك والتجارة والعقبة على المراكب كما أدخل نظــام الالتزام ــ اعطاء بلد نظــير مبلغ معين — « وكانت فى حالات بعض القبائل التى يكثر فيها التعــدى على غيرها بالسلب والنهب أن يعين لها بعض الخيالة والجنود والمشاة لحفظ الأمن ، وكان على القبيلة أن تدفع تكاليفهم اما كاملة أو مناصفة (٣) » .

ثم لما أصبح الحال قاسيا على البلاد جعل موسى حمدى باشا (١٨٦٣ — ١٨٦٥) الضرائب على ثلاثة أقساط ، وكانت كما قلنا غير موزعة توزيعا

(١) تاريخ السودان لنعوم جـ ٣ ص ٥٩ ، ٥٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ .
(٣) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٣٩ .

عادلا حتى لقد كانت الدافع لعدة ثورات كثورة الأمير هارون فى دارفور .

ويمكن أن تتبين الهوان الذى وقع على النـاس من كلمـة موسى الكاشف باشا أمام مجلس المشورة « .. أما الحكام الذين كانوا هنـاك منذ مدة عثمان بك لغاية الآن فلم يبحثوا عن شىء ما ولم يقـوموا بأى عمل . فلم تعمر البلاد وظلت آخذة فى الخراب (١) » .

ولقد أصاب البلاد القحط فى عهد عثمان بك ، ومحو بك ، وخورشيد باشا ، وحول أحمد باشا أبوودان مجرى القاش عن الهدندوة فتسبب عنه جفاف أشجارهم وعطشهم ، وفى عهد جعفر صادق باشا قامت ثورة الجهادية السود فجرت على البلاد الخراب ، وحين قدم جعفـر مظهر باشا اشـتد بالناس الغلاء حتى ضجوا .

وقد أرغم حصار المهدية الناس فى بارة على أكل الحمـير والكلاب والجلود ، وكذلك كان الحال فى حصـار الأبيض وسـنكات والخرطوم وأم درمان ، وقد خربت المهدية كثيرا من البلاد مثل سنار ، وكسلا .

وفى عهد الخليفة لم يقع مطر كاف فى السودان ، وشح النيل ، وفى عام ١٨٩٠ أكل الجراد معظم الزرع ، وأحضر الخليفة البقارة من الغرب فوقع الناس فى مجـاعة مدمرة ، وأصبحوا يتسـاقطون من الجوع ، وقد قص علينا نعوم حديث حلة « ولد عشيب » التى رأى أهلها جميعا يموتون من القحط (٢) .

فاذا أضفنا الى هذه الحروب التى كانت تنـدلع فى أكثر من مكان ، وظلم الحكام وقسوتهم أدركنا أن الناس عاشوا فى بؤس ومسكنة .

(د) ولقد قاست البلاد كثيرا من الأوبئة والأمراض . ففشا فى عهد عثمان بك ومحو بك الجدرى ، وفى عام ١٨٣٧ أصـاب النـاس الهواء الأصفر فمات بسببه خلق كثير ، وحين اشتد المرض فى الخرطوم تركهـا

---

(١) الحكم المصرى فى السودان ص ٣٢٤ ، تاريخ السودان جـ ٣ ص ٣٣ ، ٨٣ .

(٢) نعوم ٣ ص ٥٣٥ وما بعدها .

خورشيد باشا وأقام بشندى . كما أصاب الناس فى هذا العام حمى سميت « أم سبعة » لأن من أصابته لم تكن تمهله سبعة أيام ، وفى زيارة عبـد الحليم بن محمـد على انتشر الهواء الأصـفر مرة أخرى وقضى على الكثيرين ، وفى حصار المهـدية للأبيـض أصيب الناس بفقـر الدم والدوسنتاريا حتى كان يبلغ عدد الموتى فى اليـوم من عشرة الى عشرين انسانا ، وفى عام ١٨٨٥ فشا الجدرى فى أم درمان مدة شهرين .

ولقد مات المهدى نفسه فى ٢٢ يونيو عام ١٨٨٥ بحمى خبيثة تعـرف فى السـودان باسم « أم دم » « وهى الالتهـاب السحائى الشوكى » كما أصيب الجيش العائد لفتح السودان بالكوليرا ثم الحمى التيفودية ، وقد كان أثر الجدرى ظاهرا فى وجه يعقوب شقيق الخليفة (١) .

---

(١) نعوم جـ ٣ ص ١٧ وما بعدها .

الفصل الثانى

الشِعْـر
فى هذه الفترة

- موضوعاته
- معانيه
- اساليبه والفاظه واخيلته
- الخصائص الفنية

(أ) موضوعاته :

تعرض الشعر فى هذه الفترة لعدة موضوعات كانت تتفق وحاجات العصر ولكنه لم يعبر عن الحياة المتكاملة لهـذا القطاع من الحياة . فقد شهد السودان فى هـذه الفترة حادثين لهما أعمق الأثر فى وجوده وهما ــ الفتح التركى ١٨٢٢ ــ والدعـوة المهدية ١٨١٨ . ومن هنـا لم تكن الحياة مستقرة بالناس وبالشعراء ، فقد تحول المجتمع فى الحادث الثانى الى تمرد على الحياة السائدة ، وانصراف الى التعبئة العامة فى جو خرافى بعيد عن الثقافة ، والقراءة .

ومن هنا سنشاهد ألوانا خافتة من الشعر اعتمدت فى التقليـد على نماذج سيئة من هذه النماذج التى كانت سائدة فى البلاد العربية وبخاصة فى مصر .

ومن هذه الموضوعات التى ازدهرت فى هذه الفترة : ــ

١ ــ المدح :

وقد تلون المدح هنا بالحالة السياسية التى كانت قائمـة ، وبالحـالة الدينية التى كان الشعور بها قويا . فمن هذه الألوان .

(أ) مدح النبى عليه السلام . فقد مدح الشيخ الأمين الضرير النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة لا أعرف أن أحدا سبقه اليهـا وذلك لأنه ضمن قصـيدته أسـماء سور القرآن بحسب ترتيب المصحف . وقد يرمز للسورة ، أو يذكر أول كلمة منها :

يا رب صـل على من كان فاتحـة	بكر الوجود به عمراننا اتصـلا
ما للنسـاء كمثـل المصطفى ولد	اذ منه مائدة الأنعـام والعقـلا
أعرافه المسـك والأنفـال وافدة	لمن به توبة كى تذهب الوجـلا
به ليونس أنس ثم هود هـدى	ويوسف حسنه من أجله كمـلا
وبالردى أرعدت أعضاء قاصـدة	بالسوء اذ قصد ابراهيم قد حصلا

به عن الحجـــر رد الله أبرهـــة | أيجلب القتل مثـل النحل لو عقلا
ســبحان جاعله كهفـا لنـا وبه | عيسى بن مريم بالتبشير حاز عـلا
انعم بطـه جميع الأنبيـاء بـدا | تبشـيرهم طبق ميثاق بذاك خـلا
وحجـة للوداع المؤمنـــون به | فازوا بنور تمام الدين حين عـلا
فرقانه أعجزت آياته الشـــعرا | كالنمل فى قصص بل حطمهم حصلا
والعنكبـوت لها نسج به نكبـوا | عن نسجهم كمرام الروم اذ بطـلا

.. ثم يسير الى أن يستوعب سور القرآن جميعها

اخلاصـه فلق الاشراك اذ وضحت | للناس أخلاق هـذا الخاتم الرسلا

.. ثم يذكر فى القصيدة الأنبياء ، وأصحاب الرسول المقربين ثم يذكر الآل ، والأزواج ، والعلماء والأولياء « ومن فى حـزبهم دخلا » ثم يذكر أصحابه ، وأهله ، ومن حضر « الانشاء ممتثلا » ثم يختم القصيدة قائلا :

والآل والصحب والأزواج كلهـم | وكل متبـع من قدرة كمـلا (١)

.. كمـا أن لهـذا الشـاعر منظومة نبوية تمكن قراءتهـا من البحر الكامل ، ومن مجزوئه وهى تبدأ هكذا :

حمدا لمن أبدى لنـا سـبحانه | من أمنا بهـداه اذ قد صـانه
نسـبا صريحا عن خنى ومكانه | فى القرب لم يدرك رسولذوثنا(٢)

وقد تبدأ قصـيدة مدح الرسـول عليه السلام بالغزل كما فى قول الشيخ « أبو القاسم أحمد هاشم » :

ليلى بدت لما أضـاء الكوكب | فمحت ضـياه وزال عنا الغيهب

الى أن يقول

أمحمد ولأنت أكـرم مرســل | وأحـق من بمديحـه يتقـرب

---

(١) شعراء السودان لسعد ميخائيل مطبعة وصبيس بالفجالة ص ٢٢ — ٢٥ .

(٢) نفسه ص ٢٥ .

أمحمـد ما أنت الا رحمـــة   وبشـارة لك كل خـير ينسب

. . ثم يطلب اجازة المديح بالقبول . ثم يعود فيصلى على النبى (١)

عمـر فؤادك بالتقى يا صـاح   فعساك تحظى بالمنى يا صـاح
واذكر ذنوبك فى الصباح وفى المسا   وأطـل بكاك ولا تخف مـن لاح
وكن الرقيب على عيوبك واستعد   قبل الممـات بغـدوة ورواح

ثم يختم القصيدة بالدعاء لنفسه و « لخوجلى » .

كما مدح الرسول بقصيدة بدأها بالغزل فقال :

مالى اذا ما الليـل طـا   ل أصـاب جفنى السـهاد
وهـوى الكواكب ضـلنى   وأزال عـن قلبى الرشـاد

ثم يختم القصيدة قائلا :

ارحـم لابراهيـم أحـ   ـمد هاشـم يوم المعـاد
وعليـك صـلى الله ما   رحـم المهيمـن مـن أراد
وعـلى صـحابتك الألى   قـاموا لنصرك باجتهـاد (٢)

. ومن القصائد المتماسكة تلك القصائد التى مدح بها الشيخ عمر الأزهرى الرسول فى القصائد التى أولها

تألق البرق من نجـد فأشجـانى   قرب البعـاد وهاج اليوم أشجانى
(و) بادٍ هـواه وزائد خفقـانه   صب تفـرق بالنـوى أخـدانه
(و) فؤادعن التبريح والوجدما كلا   علام يقـول العاشقون له كلا (٣)

(ب) وقد يكون المدح للحكومة القائمة ممثـلا فى الخديوى بمصر والحكمدار بالسودان ، ومن ذلك قصيدة الشيخ الأمين الضرير فى مدح الخديوى توفيق وجعفر ومظهر باشا حكمدار السودان .

---

(١) شعراء السودان لسعد ميخائيل مطبعة رمسيس بالفجالة ٣٢ – ٣٥ .

(٢) نفسه ص ٥٦ – ٦١ .

(٣) نفسه ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ .

الود مأدبة والصـدق أخوان (١) والصادقون لدى الآداب اخـوان
أشـعارهم ذات اشـعار بحالهم فهي الشعار حظوا بالوصل أو بانوا
فقلت قد لاح لى والله ذو كـرم وجعفر الفيض بالخيرات ملآن
أما حويتم بتوفيـق العزيز حمى أبعد توفيـق رب العز خذلان ؟

ثم يختم القصيدة بقوله :

صان المواطن توفيق العـزيز كما حمى أولى العلم مهما كان أو كانوا
لذاك حسن ختام القـول أرخه صون المواطن توفيق وعرفان (٢)

.. وقد هنأ الشيخ أحمد محمد هاشم الخديوى توفيق بمناسبة عيد ميلاده ونشرت هذه القصيدة فى الوقائع المصرية عدد ٢٤/٧/١٨٨٠

اليمن أقبل بالاحسـان طائره والكون ناد وقد زادت بشـائره
والبشر أبدى سرورا من عجائبه لما بدا طالع الاسـعاد نائره
والكون قد رقصت فيه محاسـنه والغصن أعلن بالتغـريد طائره
محمد من بتـوفيق الاله سـما فوافق الاسم معنى طاب ذاكـره
لمولد منـه كل الكون فى طرب لا سـيما مصر تعـلوها أوامره
قد ضاء سـوداننا من حسن رأفته وصب فى بربر منها جواهـره (٣)

(ج) وقد يكون المدح لمن لهم بالشاعر صلة . حيث تزدهر القصيدة بنضارة الجد الذى يربط الشاعر بالممدوح فمن ذلك قول السيد أحمد الأزهرى فى والده سنة ١٨٥٩ وهو صاحب الرد المشهور على المهدية .

أدر ذكر اسـماعيل بين المحـافل ولو هازلا وأطرب به قلب غافل
وقل لزنيم كان يجهـل أمره أتاك أتاك الخزى اتيـان وابل
.. ألم تر أن الله ميز خلقـه بتأخير مفضـول وتقديم فاضل ؟

---

(١) لغة فى خوان .
(٢) شعراء السودان ص ٢٠ ، ٢١ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٠ ، ٢١ .

فقـــال رفعنا بعضـكم فوق فادكر ترى رفع بعض فوق بعض المقابل
نعم درجات خصـــــها الله بالذى تقرب بالمفروض ثم النـــوافل (١)

ومن ذلك قول محمد راسخ المولود بمدينة بربر ســـنة ١٨١٨ مادحا الشيخ أسماعيل الولى الكردفانى :

ألا يا طالبا أقصى المقـــام بوصلك للحبيب بلا انعـــدام
عليك بصـــــدق قول واهتمام دع الدنيـــا وطف نحو الكرام
تنل شرفا وتحظى بالمرام

ثم يختمها بذكر الرسول :

محمد راسخ قد قال نظما لأستاذ الحقـقية فى المقـــام
فصـــل يا الهى ثم ســـلم على طه المظلل بالغمـــام
كذا آل وأصحاب كرام (٢)

.. فالمدح يغلب عليه الفتـــور ، والأسلوب التقريرى السردى بدون اضافة انسانية اليه ، من هنا لم يضف اليـــه شيء جـــديد حتى انا نرى أن مدح الرسول لم يخرج عن تهويمات لا يختلف عنها الممدوح العادى أما هذا الشعور الدينى الذى يدفع الى الابداع الفنى فى رسم الشخصية الدينية فلم يوجد . فالرسول شخصية عادية كشخصية أى رئيس فى كثير من الأحيان ، ومن هنا فقد جعلنا المدح كله فى قطاع واحد .

فالشخصية فى المدح كانت غائبة ، ذلك لأن المقصود كان اظهار مهارة فى عمليـــة الشكل ، أما المضمون فقد كان شيئا فضفاضا يمكن أن ترتديه أكثر من شخصية .

فالشيخ الأمين الضرير لم يهمه فى مدحه للرسول الا أن يرتب سور القرآن . والا تمكين القارىء من قراءة الشعر فى قصيدة واحدة من البحر

---

(١) نفثات اليراع ص ١٠٤ ـ ١٠٦ .

(٢) نفسه ١٠٧ .

الكامل أو من مجزوئه . وكل واحـد من الأمرين مهارة عقلية لا تتفق مع الشعر .

ومن المهارات العقلية أيضا قصيدة الشيخ عبد الله أبى المعالى التى مدح بها اسماعيل الولى . فقد كتب بيتا بالحبر الأحمر ، وبيتا بالأزرق فان قرأت الأحمر وحده كان من مصطلح الحديث ، وان قرأت الأزرق وحده كان فى رجال الحديث ، وان جمعت بين ما كتب بالأحمر والأزرق وجدته فى مدح الشيخ اسماعيل (١) .

(د) .. على أن هنـاك بعض القصـائد الجادة كمدح الشيخ يحى السلاوى للسيد محمد سر الختم الذى أعانه على السفر الى الآستانة بعد أن دخل اللورد « ولسلى » الى القاهرة بجيشه وأخذ يقبض على دعاة الثورة وقد بدأ هذه القصيدة بقوله :

بليت وطـرفى للمحـاسن يقظان	وطرف الليالى عن ذوى المجد وسنان
عفا الدهر بعد الأكرمين وما عفى	كمالى ولكن للسـعادة ابان
.. صبرت على خطب سبرت الورى به	فلم يخف عن علمى من الناس انسان
.. سليل رسـول الله طه كفى به	فخارا وحسبى منه ما نال حسان

وله أيضا فى مدح السيد محمد سر الختم الميرغنى

بمثل فخـرك هذا الدهـر يفتخر	والمجـد يؤمر أو ينهى فيأتمـر
ونور علمك لا تخفاه خافيـة	من الأمور وهـذا مدرك عسر
فغـاية الأمر أن أدعوك محتشما	يا حبر يا بحر يا ضرغام يا قمـر
والناس صنفان مدحـور ومدخر	وأنت ذخر لريب الدهـر مدخر
والمجد عقد نفيس أنت جـوهره	فى سلكه انتظمت اخوانك الغرر (٢)

فقلما ارتبط الشاعر بموقف جاد فى شعره .

ومن هذا الشعر المرتبط بموقف قصيدة الشيخ المضوى عبد الرحمن

---

(١) نفثات اليراع ص ٥٢ .

(٢) نفثات اليراع ٥٢ ، ٨٥ وما بعدها .

الذى كان أول دعاة الثورة المهدية فى ضاحية الخرطوم كما كان له دور كبير فى حصار المدينة . فقد أسيئت معاملته ففر الى مصر ، وما كاد يصلها حتى قبضت عليه الحكومة لمحاكمته بالتمرد وبسابق ولائه للمهدية ، ولكن « الزبير باشا » سعى له لدى الحكومة مذكرا بأن الثورة كانت عامة ، فلما أفرج عنه مدح الزبير بقوله :

أوميض برق أم سنا مصـبـاح ... أم ضوء فجر صادق الاصباح
أم بدر تم فى الدياجى ناشــر ... بيض الملاء على ربا وبطــاح
.. أم تلك عارفة الزبير أخى الندى ... لألاؤها يجـــلو دجى الأتراح
ضخم الدسيعة ما خلت أبوابه ... من قاصـديه فى مسا وصباح
من دوحة العباس عم المصطفى ... أكرم به من ســـيد جحجاح
.. يا من يباريه بلا فضـــل أفق ... أيسابق البازى بغير جناح ؟ !
فالله يبقيــه ويجعـــل سعيه ... فى كل ما يهوى قرين نجــاح
ويمتع الأوطان منه بعـــــودة ... تهب الدواء بها لكل جــراح (١)

(١) نفثات اليراع ص ٩٧ ، ٩٨ .

المهـــدية

(٢)

ليس موضوع المهدية فى الشعر شيئا جديدا ، فبعد أن كانت الكلمة تستعمل فى معنـاها اللغوى المحدد كقول الرسول « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » ، وبعد أن وردت على ألسنة عدد من الشعراء كحسان والفرزدق فى نفس المعنى المرسوم لها لغويا نراها تأخذ بعد ذلك شكلا آخر فتطلق على الامام على ، وأبنه الحسين،ثم تربطها فرقة الكيسانية بمحمد بن الحنفية وبأنه لم يمت « وانما هو وأصحابه يقيمون فى جبل رضوى وهو فى الحجاز . . وأنه وأصحابه أحياء يرزقون وعنده عينان نضاختان تجريان عسلا وماء لأنه يرجع الى الدنيا فيملؤها عدلا (١) » .

ثم تضاف الى « المهدى » كلمة « المنتظر » فى عقول الناس . ولذلك نرى الشيعة يخرجون بين وقت وآخر لطلب الحكم باسم المهدى .

وقد اعتقد هذه الفكرة « العاطفية » كثير من الشعراء مثل بهاء الدين العاملى ، وكثير عزة الذى يقول :

وسبط لا يذوق الموت حتى   يقود الخيل يقدمهـا اللواء
تغيب لا يرى منهـم زمانا   برضوى عنده عسـل وماء

وديوان ابن هانىء الأندلسى غاص بمصـطلحات هـذه الفكرة مثل الدعوة ، والداعى ، والعهد والتأويل ، والوصى ، وضرورة وجود الامام فى كل عصر ظاهرا أم مختفيا ، وأنه علة وجود الدنيا وشخصية متكاملة تجب معرفتها .

---

(١) المهدى والمهدية ١١ .

كما أن رسائل اخوان الصفا تقول بنظرية الفيض الالهى على من يختار من عباده ، وأن لها مظاهر دورية .

وقد تأسست دول باسمها كدولة الموحدين فى الغرب ، ودولة المهديين فى السودان والفاطميين فى مصر « فان نحن قلنا ان كل الحضارة الفاطمية ، والعلم الفاطمى ، والقـــاهرة الفاطمية نتاج غير مباشر لفكرة المهدى لم نبعـــد (١) » .

ونحن نرى أن الشعر فى هذه الفترة قد جعل من أغراضه بل من أهم أغراضه الدعوة الى المهدية ، ومحاولة تثبيتها فى الأذهان ، وخلق جو عام شعرى متأثر بهذه الدعوة .. كما أنه كان فى مقابل هذا التيار الجارف تيار آخر معارض ولكنه كان خافتا أمام التيار المنتصر للدعوة ، والمؤيد لها .

(ا) من المنشورات التى سبق أن مرت بنا عرفنا أن الدعوة المهدية امتـــداد طبيعى لأفكار الشيعة ، وأن الأذهان كانت مهيأة لهذه الفكرة نرفع الظلم عن رقابهم حتى انهم كانوا يطلقـــون على الرجـــل الصـــالح « المهدى المنتظر » . ثم ان المنـــاخ الثقافى الذى كان يخيم على الناس كان منـــاخا بعيدا عن الفكر الصادق ، والثقافة الصحيحة فجذور التفكير الاسلامى لم تكن عميقة فى هذه البـــلاد المترامية الأطراف التى يسيطر الجهل على مساحات كبيرة منها . والطرق الصوفية قد قامت بدور خرافى غيبى يستغل ميل الناس فى هذه البلاد الى العاطفة ، والتأثر السريع . فالرصيد الفكرى السابق لهذه الفترة كان معدوما . والبلاد كانت منطوية على نفسها اللهم الا حينما كانت تفتح بعض النوافذ الثقافية من الشرق ، والشمال ، والغرب ، فيقـــدم بعض العلماء ، أو يسافر بعض السودانيين الى الحجاز أو الى مصر . ثم تثمر جهودهم الفردية ، أو بمعاونة الجهاز القائم فى نشر أشياء سطحية من الثقافة لتضعف التنظيمات المحلية القائمة ،

---

(١) المهدى والمهدية ص ٤٠ .

وتعمل جاهدة على خلق سلوك ، واتجاهات فكرية على طراز ما يدور فى رؤوس القائمين على الأمر . فاذا أضفنا أن القائمين على الأمر لم تكن فى ذهنهم فلسفة لنظام الحيـاة عرفنا مقدار التخبط الذى أصاب هذه البلاد .. ومهما يكن من شيء فقد قامت المهدية فى السودان على حياء . ولم تكن لها فلسفة مستقرة فى الجو العاصف الذى سيطر عليها . فقد اعتمدت أساسا على قراءات المهدى الخاصة حول هذه الفكرة الخرافية فى الأحاديث الموضوعة ، وقد كان للكلمة المكتوبة أثرها فى هذه الفترة — التى لا تقوم على التحقيق — وفى كل المصادر التى كتبت عنها والتى وقعت تحت يديه ... ثم يرجع شيء كبير من نجـاح هذه الفكرة الى استعداده الخـاص والى ثقافته الصوفية ، والفقهية ، وهذه التيارات الجديدة التى زحفت على السودان كالسنوسية والوهابية .

خاصة وأن بعض الذين ذكروا أوصاف المهـدى قالوا ان له خالا على الخد الأيمن وقد كان للمهدى هـذا خال . وقالوا انه من السلالة المحمدية ، ولقد ذكر أنه ينتمى الى السلالة المحمدية .

والذى يهمنا هنا أن الشعراء تأثروا بكل ما قيل عن المهدية ، وتعمقوا هذه المنشورات والخطب حتى أصبحت شيئا متوترا فى نفوسهم ، وأنه أمكنهم التعبير الصادق — فى حدود طاقات ابداعهم — عن هذه الدعوة .

فالمهدية أمر من الله والرسول . فقد جاء فى بعض كتبه « . انى لا أعلم بهذا الأمر حتى هجم على من الله ورسوله من غير استحقاق فأمره مطاع وهو يفعل ما يشاء وتختار » كما ذكر أيضا « وحيث ان الأمر لله والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدى فيجب بذلك التصديق لارادة الله (١) » .

وقد عبر عن هذه الفكرة الشيخ الحسين الزهراء فقال :

---

(١) نعوم ٣/١٢١ ، ١٢٣ .

أنعم بأمر كان من جـد القضـا جار وقد حكمت به الأسـماء
وله الاشـارة من ألست بربكم طوعا له وليسـمع العلمـاء (١)

.. وقد صور المهدى المراسيم التى تمت فى حفل مهديتـه فقال : انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم « بعينى رأسه يقظة فأجلسه على كرسيه وقلده سيفه وغسل قلبه بيده وملأه ايمانا وحكما ومعارف منيعة (٢) » وهذه الصورة منقولة عن حديث رواه النبى عن نفسه . وقد عبر الشيخ ابراهيم شريف الدولابى الكردفانى عن الفـكرة التى رواها المهـدى فقـال عنه :

ورقى الى كرسـيه متسـنما خلعت عليـه ملابسـا من نور
وأقامه المختـار عنه خليفـة فى مشـهد بالأوليـا معمـور
فدعا الى الدين الحنيف مجاهـدا بالسيف ، والانذار ، والتبشير (٣)

وحين ذكر المهدى الأحاديث والأخبـار التى وردت فى المهـدية قال الشيخ الحسين الزهراء :

به أخبرت من قبل وقت ظهوره صحاح رواها هبرزى موضـع

ثم لقد ذكر المهدى القوى التى أيد بها فقال « .. وأيدنى الله تعالى بالملائكة والمقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن (٤) » .

وقد ترجم هذا الشيخ الحسين الزهراء فقال :

لم لا وأملاك السموات العـلا فى جيش مهـدى الورى أجنـاد
والجن والانس الذين عهـدتهم سوى (٥) الذين وما لهم أعداد (٦)

(١) شعراء السودان ص ٨ .
(٢) نعوم ٣/١٢١ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٨ .
(٤) نعوم ٣/١٢٢ .
(٥) البيت مكسور على هذه الصـورة الا اذا شددت الواوا والسودانيون يميلون الى التشديد دائما ، أو تكون هناك واو قبل كلمة سوى .
(٦) شعراء السودان ص ١٤ .

وذكر المهـدى فى كتـابه الى الخديوى عن الجنود الذين يحاربونه « وأحرقت النار أجسامهم عيانا كالذين من قبلهم اظهارا للحقيقة وتعجيلا للعقـوبة (١) » .

فذكر هذا الشيخ الحسين الزهراء :

ما النار شأن النار أعجب ما أرى تجرى بهم وجسومهم سوداء

وذكر الشيخ عبد الغنى السلاوى :

وقتيله يوم الطعـان معجل احـراقه وبذاك لى أنبـاء (٢)

ويذكر المهدى أن النبى قال له : « من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله » وأن النبى كرر هذه الكلمة ثلاث مرات . وهو هنا متأثر بصور الأحاديث التى ذكرها الرسول . وقد عبر عن هذه الفكرة الشيخ ابراهيم شريف فقال :

ومن اهتدى بهداه أصبح داخلا سور الرضى أعظم به من سـور
ومن انتمى لسواه أمسى حائرا ضل الطريق بليـلة ديجور

ويظهر هـذا التأثر واضحا بتسمية الشاعر للمحاربين بأنهم كفار فى قوله :

فتح الفتوح ودمر الكفار فى كل البـلاد بجيشه المنصـور (٣)

..وقد كان يبشر أصحابه بأن الحور تنتظر من يقتل وقد عبر عن هذه الفكرة الشيخ محمد عمر البنا فى قوله :

والحور تنتظر اللقا فرحا لهم وتزينت لقدومهـم جنـات (٤)

وقد ذكر المهدى أن النبى « قلدنى سيف النصر وأيدنى بقذف الرعب فى قلوب أعدائى » .

فعبّر عن هذه الفكرة الشيخ محمد عمر البنا فى قوله مادحا جيش الأنصار :

---

(١) نعوم ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٢) شعراء السودان ص ١٢ ، نفثات اليراع ص ٨٢ .
(٣) نعوم ١٢٣/٢ ، شعراء السودان ص ٢٨ .
(٤) شعراء السودان ص ٢٧٨ .

وأمدهم جيش الملائك ناشرا   رايات نصر للبلاد تجوب
فسيوفهم مسلولة ، ورماحهم   مسنونة ، وعدوهم مرعوب
فعدوهم دوما يغص بريقه   والرعب منهم للقلوب يذيب
ان نوزلوا كانوا الليوث معاركا   دوما وعقل عداتهم مسلوب (١)

وحين فتح المهدى باب الجهاد ذكر الشيخ محمد عمر البنا تصديقا لهذا فى قوله :

ان الجهاد فضيلة مرضية   شهدت بمحكم أمرها الآيات (٢)

وحين ذكر أنه يرجع بنسبه الى الرسول دار الشعراء حول هذه الفكرة فقال الشيخ الحسين الزهراء :

يا ابن النبى محمد ووليه   وأمينه ماذا اليك مراء

وقال الشيخ اسماعيل عبد القادر :

خلاصة صفو المجد عن آل هاشم   وأفضل من فى الخير راح أو اغتدى
امام له فى كل مجد وسؤدد   مآثر فضل ما أجل وأمجدا

وحين توفى قال الشيخ ابراهيم شريف :

يا آل بيت المصطفى صبرا وان   جل المصاب وعز عن تعبير (٣)

.. وفى رسالة المهدى الى السنوسى الذى طلب منه أن يكون بمثابة عثمان لديه « .. ثم حصلت حضرة عظيمة عن النبى (صلعم) فيما خلفه من أصحابى فاذا أجلس أحد أصحابى على كرسى أبى بكر الصديق وأحدهم على كرسى عمر وأوقف كرسى عثمان فقال هذا الكرسى لابن السنوسى الى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابى على كرسى على » ولما كان المهدى قد وزع هذه المراتب على ثلاثة من أصحابه(٤)وبقى

---

(١) نعوم ٣٤٨/٣ ، شعراء السودان ٢٧٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٧٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٠ ، ٢٩ ، ٤١ .
(٤) الثلاثة هم : عبد الله التعايشى خليفة أبى بكر ، والثانى على ودحلو من عرب دغيم خليفة عمر ، والرابع محمد شريف بن عم المهدى خليفة على (نعوم ١٤٠/٣) .

مكان السنوسى شاغرا .

فقد ذكر الشيخ محمد الطاهر المجذوب فى رثائه :

عزاء الى الصديق نائبه الذى ... به الملة الغراء شد انتصابها
عزاء الى الفاروق من كان رأيه ... لديه يهاب الباترات دبابها
عزاء الى الكرار ذى الناصر الذى ... لديه يهاب الباترات دبابها
عزاء الى الآل الكرام أولى التقى ... على الله هاتيك الرزايا احتسابها (١)

وقد رسم لنا الشعراء صورة واضحة للمهدى فقال الشيخ ابراهيم شريف الدولابى :

هو مجمع البحرين بحر شريعة ... طام وبحر حقيقة مسجور
سر الوجود وترجمان الحضرة العليا ومظهر غيبها المستور
والله أكرمه بطيب تحية ... يحذو بها موسى كليم الطور
قد كان قوام الدجى متبتلا ... متواصل الاحسان غير فخور
طلق المحيا خاشعا متواضعا ... كهف الفقير وجابر المكسور
وتفيض بالجود الكثير يمينه ... أبدا بلا من ولا تكدير
ويبيت طاوى الكشح جوعا وهو قد ... أعطى الكنوز بجمعها الموفور
لا يبتغى جاها ولا مالا ولا ... عز الملوك و لاارتفاع الدور
ما همه الا اجتذاب الخلق من ... درك الشقاوة عيهم والعور
والدين عز وأهله بلغو المنى ... وتقلبوا فى نعمة وحبور
تاقت الى الذات العلية روحه ... وسعت لمقصد صدقها المذخور

وقال الشيخ الحسين الزهراء :

عماد الهدى أس الجدى معدم العدا ... بدا واليه الناس فى الأرض نجع
ملاك أساطين الخلافة كفوها الـ ... . معدلها الحصن الحصين المنع
امام الهدى الهادى لكل مرشد ... بهامته التاج النفيس المرصع

---

(١) نفثات اليراع ص ٩٥ .

به أخبرت من قبل وقت ظهـوره صحاح رواها هبرزى موضع (١)

وقال الشيخ عبد الغنى السلاوى :

ما قس ما سـحبان ما أحزابهـم فى بحـره أبـدا لهـم ادلاء
الله أكبر لا ارتيـاب لهـديه والجاحـدون له اذن أعداء
والآخذون به لقـد أعـلاهم أوج العـلا فخرت بهم عليـاء
أمسيت فيـه حليف ود لا أرو م به بديـلا لـو بـدت بدلاء
من أين تبـدو والختـام ختـامه والروح شاهدة وفيـه كفـاء
والعقـل قبـلا فيه يشـهد أنه بعث الهـدى يأيهـا العقـلاء
هلا رأيتم موجبـات الصدق فيـما يدعى أو ليس فيه خفـاء
ولنا عليه نتـائج بالفـكر أن لأعين النظرا له أضـواء
اذ نصره من ربه مشـهود كـل العـالمين وليس فيـه مراء (٢)

من هذا وغيره نرى أن للمهدية أدبا ، وأن هـذه الفكرة العاطفية تغرى الشعراء فهى تقوم على أساس عاطفى . ويلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، ومن هنا نرى أن شعرها يتميز عن الشعر الذى يقال فى عالم التصوف ، وعالم الدين . لأن الفكرة فيهـا تقوم على الوراثات المتراكمة من انتظار مخلص . فاليهود يقولون برجوع ايليا ، والمسيحيون والمسلمون يقولون برجوع عيسى ، ومن هنا أحيطت الفكرة بهالة روحية من الحب ، والقداسة، وأخذ الشعراء يدورون حول الأفكار التى أشيعت عنها لتتأكد فى نفوس الناس وتعمق .

(ب) قوبلت دعوة المهدى بالانكار من الحكومة ومن الطبقة المرتبطة بها ، ومن العلماء المثقفين الذين يعرفون حقيقة المهدية . وقد أشار المهدى الى هذا فى رسالته الى الشيخ محمد الطيب البصير التى ذكر فيها « أنه

---

(١) شعراء السودان ١٥ ، ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) نفثات ٨١ ، ٨٢ .

حصلت لنا حضرة نبوية حاضر عليها محبنا الفقيه عيسى .. ثم يقول له الأخ المذكور يا سيدى يا رسول الله الناس من العلماء يستهزئون بنا والخشية أيضا من الترك (١) » .

وقد كان المهدى وأنصاره غضابا على هؤلاء العلماء ويشير الشيخ الحسين الزهراء الى هذا بقوله :

وله الاشـــارة من ألست بربكم	طوعا له وليسمع العلمـــاء
ما حالهم ما بالهم لم يســمعوا	نفسى لهـم مما يشـين فداء ؟ !
من يحفظ التنزيل من يدرى الذى	فيه ومن لم يدر ذاك ســـواء
من يحفظ الأخبار عن أهل النهى	وتعـــين ذلك فطنـــة وذكاء
ويرد أشكال الأمور لشـــكلها	ولها عليه من الثنــاء ســناء
ويرى القبيـــح بداية ونهـاية	ويروم أحسن ما الاله يشـــاء
مثـل الذى فى بحـــر ليل جهله	داج وأشرق ما يراه مســـاء
لاوالذى خلق النوى وهدى الورى	وله وراء ممـــاتهم احيـــاء
علماء أمة أحمـــد ناشـــدتكم	ردوا جوابى انكم علمـــاء
أرضى وترضون الضـــلال بعيد ما	ظهر الهـــدى وانجاب عنه قذاء
ويخيب ظنى فيــكم وعشـيرتى	أنتم وتقمـع جمعنـــا الغـرباء

فقد أصدر هؤلاء العلماء الرسائل والفتاوى فى تكذيبه . وقد أسهم الشعر كذلك فى عملية التكذيب ممثلا فى شيخ من مشايخ الطرق هو الشيخ محمد شريف أستاذ المهدى . فقد نظم قصـــيدة طويلة بايعاز من عبـد القادر باشا حكمدار السودان سنة ١٨٨٢ ليكذب هذه الدعوة الجديدة فقـــال : -

لقد جاءنى فى عام «زع(٢)» لموضع	على جبل السلطان فى شاطىء البحر
يروم السراط المستقيم على يدى	فبايعته عهـدا على النهى والأمر

(١) نعوم ٣/١٢٥ .

(٢) المقصود بها ٧٧ بعد الالف والمائتين .

فقام على نهج الهداية مخلصـــا … وقد لازم الأذكار فى السر والجهر
وأفرغ فى جهد المجـاهد جهـده … فرقيتـه جهـلا بعاقبـــة الأمر
أقام لدينـا خادما كل خـــدمة … تعز على أهل التواضـع فى السير
كطحن وغرس واحتطـاب وغيره … ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا … من الله لا زالت مدامعــه تجـرى
وكم بوضوء الليـل كبر للضحى … وكم ختم القـرآن فى سنة الوتر
لذاك سقى من منهل القوم شربة … بها كان محبوبا لدى الناس فى البر
وكان لدينا عيشــه صدقاتنـــا … وخادمنا عشرين عاما من العمـر
الى الخمس والتسعين ادركه القضا … على ما مضى فى سابق العلم بالشر
بصـحبة شيطان من الانس آيس … وشيطان جن وافقاه على الشـــر
ولا تنس داعى الاحتيـاج فثالث … وكم ساقط فى الشر من ألم الفقر
فقال أنا المهــدى فقلت له استقم … فهذا مقــام فى الطريق لمن يدرى
وخادعنى بالقــول كالمهـد ابنكم … ومحسوبكم فى الحب فى عالم الذر
فقم بى لنصر الدين نقتل من عصى … فأنت لك الكرسى ولى دول الغير
فقـلت له دع ما نـــويت فانه … وتالله شر قد يجـــر الى الخسر
وقال له الشيطان بشر ولا تخف … فانك منصـــور على البر والبحر
وقد فهم القولين فهم أولى النهى … ومال الى حب الرياسة والجبـــر
فقال أنا كالماء فى الطبع بـــارد … واما يسخن كان كالنـــار فى الحر
وان يستخفوا بى وان «يقتلوننى» … فقبلى على والحسـين ولى أمرى
ومن ذلك النادى أبى وأبيتـــه … وأفتيت فيه بالضـــلال وبالكفر
وانى أذنت الجيش يضربـــوه ان … أتاهم بما يهواه من واضح الفكر
وقد جاء للعلوب (١) فى سفهـــائه … وقد رده الأتباع بالجبر والقهــر
وكان من الأسرى لديهم بنـــاقة … وراياته والجيش قد صار فى البحر

---

(١) مكان غربى « أبا » يسمى « قوز العلوب » .

وكنت نصحت القيمقام بجيشه فماجاءني من غير دع صاحب الخضر(1)

ففي هذه القصيدة تصوير كامل للثورة المهدية ، ووجهة نظر معارضة للفكرة التي صبغت البلاد بألوانها ، وتتبع لنموها ، ورصد دقيق لتطورها ، وقد جاءت فيها التعاليم التي أحدثها على حد ما ذكره شقير .

أكاذيب أبداها فمنها عن النبي ومنها عن المولى ومنها عن الخضر
كأخباره بالخسف والمسخ للعدا! وكم في قدير (2) من سلاح ومن تبر
ومن بعضها تحليل كل جميلة ولو ذات بعل دون عقد ولا مهر
ومنها روى عن زوجة المتخلف بما لم يكن في المسلمين و لا الكفر
ومنها أصلي في الجوامع كلها الى المسجد الأقصى ولم يدر ما يجري
ومنها أنا المهدي منتظر الورى ولم يستح من عالم السر والجهر
وينهى النسا عن حليهن وان بدت بها كان منه الحكم بالنتف للشعر
وينهى عن التمباك نهيا كأنما أتى منعه في الذكر من شدة الزجر
وينهى عن الأرباح في الأخذ والعطا ويمنع عن حرث وعن سبب الخير
وينهى عن التعليم عن كل واجب ويأمر بالمنهى وينهى عن الأمر
ويمنع عن حج وينهى عن النبي ويمنع عن درس وينهى عن الذكر
يبيح حرام الدين كالمال والزنا وسفك الدما والبيع للمسلم الحر
وينسخ حكم الله بالرأى والهوى ويقضى بالقاء الشريعة في البحر
ويزعم بالجهل المركب فضله عن الأنبيا الا الرسول فذو شطر (3)

. . ومع أن هذه القصيدة تبالغ في ذم المهدية للعداء المكين بين صاحبها وتلميذه محمد أحمد المهدي الا أنها تعتبر وثيقة حية لنوع الحياة التي كان يعيش في ظلها السودان لا في عصر المهدية فقط بل وفي عصر الأتراك كذلك .. ففي القصيدة وصف للمظالم التي كانت تقع على الناس من الحكم التركي ومن ذلك قوله :

---

(1) نعوم ١١٧/٣ .

(2) جبل قدير .

(3) نعوم ٣٧١/٣ ، ٣٧٢ .

وما أبت السودان حكم حكومة　　الى أن أتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير وحـده　　وللشيخ والنظار أضـعافه فادر
بضرب شـديد ثم كتف مؤلم　　ومن بعده الالقاء فى الشمس والحر
وأوتاد ذى الاوتاد من بعض فعلهم　　وأشنع من ذا كله عمل الهـر

فقد كانوا يضعون هرا فى سراويل الرجل ثم يأخذون فى ضربه حتى يتمزق جسم الرجل « قال وقد رأيت ذلك فى قسم الخرطوم نظارة أحمد أغا أبو زيد » (١) .

وقد كانت التركية تعامل بعض العلماء بقسوة . فحينما استفتى الشيخ ابراهيم عبد الدافع فى عزل الشيخ عثمان عربى عن قضاء كردفان فأفتى بعزله أخذ مخفورا الى سجن طره وهناك عومل بقسوة فقال فى استغاثته المشـهورة :

أما رأيتم حين جئنا مصـرا　　ومن حماكم قد أخذنا جهـرا
الى مكان الذل والنكـال　　والأسر والقهـر وسوء الحال ؟ !

وقد كان زميله فى السجن الشيخ مصطفى السـلاوى قاضى قضاة السودان والذى تلاعب بمنصبه وشرع الرشوة ويقال انه عين قاضـيا لدارفور وطلب منه مالا فلما قال القاضى « ما عندى » ما أعطيه فى الوقت الحاضر » وقع الشيخ مصطفى بأسفل رده

عزلنـاك لمـا قلت مـا　　وولينـا من بـذل
فهـلا علمت أن مـا　　نافيـة للعمـل (٢)

ولقد كان القائمون على الحكم فى البلاد فى نظر بعض الشعراء كفارا خاصة وأنه قد كان يستعان عليهم ببعض المسيحيين فالشـيخ الحسـين الزهراء يقول :

فسل الطلول هناك عن أسـيافهم　　ورماحهـم فى الكافـرين رواء

---

(١) نعـوم ٣ ، ١١١ .

(٢) النداء فى دفع الافتراء ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ .

والشيخ ابراهيم شريف الدولابى الكردفانى يقول فى رثائه للمهدى :

فتح الفتــوح ودمر الكفــار فى كل البــلاد بجيشه المنصـــور

والشيخ محمد عمر البنا يقول :

ورهبتم العلج الكفور بسـيفكم والدين تصلح شأنه الرهبـــات
فانهض الى الخرطوم ان بسوحه أهل الغــواية والمفاســـد باتوا
بطروا وراءوا ثم صــدوا معشرا فى الله لم تعرف لهم رغبـــات
وتكبروا وعتــوا عتــوا فائقــا والله أكبر والســيوف هــداة
نبذوا الشريعة من وراء ظهــورهم عن دينهم شــغلتهم الشــهوات

وهم الى جانب ذلك طغاة ، وجبــابرة ، ومتمردون ، وخارجون عن الدين ، وكذابون (١) وقد مدح بعض الشعراء الخديوى والقائمين على الأمر فى البلاد كما وضحنا من قبل وقد رحب الشيخ على الشامى — أحد الشوام الذين تأقلموا بالبلاد — بالفتح فقال :

بشرى لجيش بالفتوح لقــد ظفر بالصبر من زمن فبشر من صــبر
وبتركنا الســودان لسنا أن نرى الا التعدى والعتو كما اشـــتهر
حتى رأى ملك البـــلاد بأنه لاشىء غير الحرب عجل وابتــدر
بقيـــادة الشهم اللوا سردارا رجل السياسة فى الحروب الكتشنر
قل للخليفة فز بعمـــرك ناجيا من قبل أن يأتى زمان لا مفر (٢)

---

(١) شعراء السـودان ص ١٢ ، ٢٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ١١ ، ١٤ ، ٤٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

التصــــوف

(٣)

لم يتعمق الشعراء فى هذه الفترة ظاهرة التصوف . فمع أنهم استعملوا ألفاظها ، وداروا حول أفكارها ، الا أن أمرها اختلط عليهم . فهى تدخل فى المدحة الدينية ، أو المدحة المهدية ، أو فى تعاليم تنشرها هنا وهنــاك ، أو ترنيمات تساعد على الايقاع فى حلقات الذكر ، ومن هنا فقد كان للشعر الذى قيل فى هذا الباب أكثر من وجه .

فقد يكون ابتهالا متضرعا كما فى قول الشيخ محمد المجذوب :

نور بدا من قبــل نشـــأة آدم ... منــه الوجــود جميعه متخلق
فأبو الحقيقة أحمــد ان رمتــه ... وأبو المجاز آدم قــــد حققــوا
سبق الوجود جميعه فى الفضل بل ... فى الحشر أيضا قد يسود ويسبق
وهو المنير اذ القيــــامة أظلمت ... وهو الشــفيع اذا الرءوس تطرق
وهو الشجاع اذا العدا قد أقبلت ... وهو الجــواد اذا الورى يتضيق
يا سيدى انى مدحتك قاصـــــدا ... من فيض جاهك أننى قــد اعتق

وقد يكون ابتهالا واصفا كما فى قوله أيضا :

سلام على رأس الرســول محمد ... لرأس جليــل بالجـــلال معمم
سلام على وجه النبى محمـــــد ... فيانعم وجه بالضـــــياء ملثـم
سلام على طرف النبى محمـــد ... لطرف كحيل أدعج ومعــــلم

ثم يستمر الشاعر فى ذكر الأنف ، والخد ، والفم ، والعنق ، والصدر ... الخ

« ومن الطريف أن الابتهال فى الشعر الصوفى السودانى قد تطور فى بعض مظاهره الى طريقة تذكرنا بأغانى «سلام» الحبشية . وهى أغان يذكر الشاعر الحبشى فيها كلمة « سلام » فى أول كل بيت من أبيات الأغنية ،

ويأخذ بعدها فى تعديد أسماء أعضاء الممدوح الجسمانية عضوا عضوا على التوالى ويستنزل عليها السلام (١) »

وقد تكون استغاثة للوقوع فى الشدة كاستغاثة الشيخ ابراهيم عبد الدافع حينما كان فى سجن طره . والذى له قبة تزار فى جنوب حلفاية الملوك

ويعتبر التوسل بها ملازما لأوراد السودانيين حتى ليقال انه ما توسل بها مكروب الا أزال الله عنه كربته وهى تبدأ هكذا .

نحمدك اللهم يا قيوم	حمدا به تفرج الهموم
ثم الصلاة والسلام سرمدا	على شفيع المذنبين أحمدا
وآله والصحب ما فاح أرج	ومادنا وقت السرور والفرج
وبعد أن كنت أخا لأواء	بادر الى مولاك بالدعاء
مستشفعا اليه بالأخيار	لا سيما ان كان فى الأسحار
وناد يا جيش خيار الأمه	لكى بهم عنك تزول الغمه
يا سادة هم الغياث فى الورى	ألا ترون ما بنا الآن جرى
يا نقباء يا رجال الغرب	ألا ترون ما بنا من كرب
يا نجباء يا رجال مصر	ألا ترون ما بنا من أسر
أيا رجال الشام يا أبدال	حل بنا الكرب وضاق الحال
يا من غدوا بين الورى أخيارا	ألا ترون ما بنا قد صارا
يا من هم العمد والأوتاد	ألا ترون كربنا يزداد
يا غوث هذا الوقت يا ملاذ	ألا يكون منك لى انقاذ
أيا أهيل الطرق والسلوك	يا من هم فى الخلق كالملوك (٢)

.. ثم يعدد الأولياء والصالحين ، ويختمها بالصلاة على النبى عليه السلام . وقد يكون هذا الشعر تشوقا متواصلا الى العالم العلوى كقول الشيخ محمد المجذوب :

بانت عن العدوة القصوى بواديها	عيس كأن خوافيها بواديها

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ١٩٤ ، ١٩٥ .
(٢) النداء ١٨٦ .

شامت بروق الحمى من نحو كاظمة   واستنشقت ريح نجد فى بواديها
يزل رعاها الصبا النجدى فانطلقت   تؤم فيحاء نجد طوع حاديهـا (١)

وكقول الشيخ الحسين زهراء :

أظل بذات الضال فى جزع (٢) رامة   أصلى بظل الضال لى الظهر والعصرا
أرى مغـــرب الأغيار أعتم ظلمة   فهيهات هيهات انتقالى ولا بدرا
أراقب نور الشمس من كوة الحمى   طوال الليالى علنى أن أر الفجـرا
أردد فى تلك الطلول عـلى الربا   تردد ذى حاج ليدركها شـهرا
وان هى لم تفتح مغلق بابهـــا   عكفت بذاك الباب أطلبهـا عشرا
وأمكث ان لم ألق من جانب الحمى   رفيق بروق عند ذاك الحمى دهرا (٣)

كما قد يكون هذا الشعر ارشادا وتوجيها كقول الشيخ محمد المجذوب :

تزود للخطـوب السـود صـبرا   جليـدا فيـه للنفس العـــزاء
ولاتأنس بعهــد من أنـــاس   عهـــودهم اختـــلاق وافتراء
وان عثرت بك الأيـام فانــزل   وطنب حيث ســلح أو قبـاء

وكثيرا ما يكون هذا الشعر أورادا تقرأ « كالقصيدة المبتهجة للنفوس المعوجة » للسيد محمد عثمان الميرغنى والتى تقرأ فى السحر

يارب بهـم وبآلهـــم   عجل بالنصر وبالفـرج
اشتد هـــواى على المهج   يا رب فعجــل بالفـرج
وتولت نفسى يا سندى   بدر بخـلاصى من زهج
وخصيم السـوء يعالجنى   لهلاكى زح عنى وهجى
كملنى فى قدم المرقى   وأجب لدعائى زل عوجى
بجمال الوجه سألتك ذا   وبسر جــلال مبتهج

---

(١) ديوان الشيخ محمد المجذوب ص ٣١٥ .
(٢) منعطف الوادى .
(٣) شعراء السودان ١٧ .
(٤) ديوان الشيخ محمد المجذوب ٢٩٥ .

وبنور الكون منوره مختارك أحمدنا البهج
وبما أودعت به ربى من علمك مع سر العلج
وببيت الخلوة عمدتنا وبعرش المجد وكل شج (١)

ولما كان الشعراء فى هذه الفترة متأثرين بالأفكار الصوفية التى كانت شائعة نراهم ينسجون على منوالها أحيانا .

فالعقل عندهم قاصر ، ولهم علم خاص بهم يوصلهم الى مالا يستطيعه العقل

وأرضى بكونى ناسكا غير عارف على حد علم العقل استعمل الفكرا
وان كان علم العقل غير موصل الى شرح علم السر اذ لم يزل قشرا (٢)

وقد تختلط فكرة التصوف بفكرة المدح كقول الشيخ الحسين :

توجه ومنه السير سر فيه تنتهى اليه فلولاه البسيطة بلقع
وعاين ومافى العين الا أشعة لها صورة منه تبدت تشعشع
جمال بريق العين من فرط حسنه فيبهرها اذ بالجلال مقنع (٣)

وقد تأثر هذا الشاعر بقصيدة ابن سينا فى النفس :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع .. الخ

واذا كانت قصيدة ابن سينا تذكر لنا أن النفس قد هبطت من العالم العلوى على كره منها وأنها لا تكف عن محاولة الفرار من العالم الحسى ، وأنها جوهر يظهر للعقل ويخفى عن الحس ، وأن آثارها تظهر فى الوظائف والقوى التى تكون نتيجة اتصالها بالبدن ، وأن هبوطها لحكمة الهية ، اذا كان هذا رأى ابن سينا فانا نجد الشاعر يشوه هذه الفكرة ويربطها بفكرة المهدية .

(١) مجموع الاوراد الكبير للسيد محمد الميرغنى ٥٧ .
(٢) شعراء السودان ١٧ .
(٣) شعراء السودان ١٦ .

رسم ترقرق بالسنا فله الهنا — اذ ناله بعد الفناء بقاء
وكسته أثواب الرضا مهدية — تتلو المضرة اختها السراء
فغدا بها يختال فى حلل البها — ولكل شيء شدة ورخاء
كم أرتعى من روض دانية الجنا — ثمر الرضا تدنيه لى وجناء
طارحتها تحف الكلام فنوعت — تحف الملام وهاجها ادلاء
واذا نسيمات الصبا دعت الصبا — لوصالها تتنصل الأعضاء
ترتاع ان هتفت بها من كوة — سحرا لتجديد السلام رخاء
عاش ابن سينا جهده أوصافها — بشفائه فاذا هى العنقاء
دقت ورقت وارتقت فى سكرة — بلمى شفاه دونه الصهباء
كيف التواصل والقوى نهت السرى — اذ مسها من ضعفها الاعياء
فتنزلت حاجاتها فى سوح من — بحمولهم تتنزل الضعفاء
وتركتها وكفى لقائى مرة — اذ لا يدوم مع الزمان لقاء
تلك التى جهد الزمان لوصلها — وله بذلك غدوة ومساء
حتى بألطاف المهيمن مكنت — أغراضه منها يد بيضاء
فغدا بها متصرفا فى أهله — يعطى ويمنح من يرى ويشاء
ودعا بها لله دعوة قاهر — سمعت بعز مكانها العظماء
فأجابه أهل النهى فى طاعة — سفكت بها قبل اللقاء دماء (١)

وربما تأثروا بنظرية « الفيض الالهى » ومجملها ان لهذا العالم ظواهر جمة ، وهو دائم التغيير ، ولم يوجد بنفسه بل لابد له من علة سابقة هى السبب فى وجوده ، وهذا الذى صدر عنه العالم « واحد غير متعدد » (٢) ، وتعتبر هذه النظرية عريقة فى الفكر الاسلامى فرسائل اخوان الصفاء قامت على أساس هذه النظرية التى ترى أن الله يفيض على من يشاء من عباده ، وأن أقوى هذه الفيوض الالهية يكون على الأئمة ، وأن لهذا الفيض

(١) شعراء السودان ١٠ ، ١١ .
(٢) اخوان الصفا للاستاذ عمر الدسوقى ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

مظاهر دورية ، والشيعة تقول بالتفويض الالهى ، وأن الخلفاء فيهم قبس من الله ينتقل من أب الى ابن (١) .

تبدى لنا من ذيل آفاق غيبه — الى ان تراءى فى العلا بيننا جهرا
وماكان ذاك الغيب من فرط صوته — لذاك السنا من قلبه يظهر السرا
ولكن فيض الفضل من نفحة الرضا — جدير باعطـاء المنى العبد والحرا
ولما تبدى لى وفاض شعاعه — تذكرت من نور الهداية لى ذكرا
وأمكث ان لم ألق من جانب الحمى — رفيق بروق عند ذاك الحمى دهرا
وأرقب من فيض الرحيم مراحما — ونعماءمنضراء لا تنتهى حصرا (٢)

وهم يكنون بليلى ، وزينب ، وسعاد وغيرهن عن الحقيقة ، ويخلعون على المدح حقائق التصوف ويربطون بين الغزل الصوفى والمدح .

---

(١) المهدى والمهدية ١٩ ، ٤٠ .
(٢) شعراء السودان ١٧ ، ١٨ .

الغـزل

(٤)

تأثر شعراء هذه الفترة بالحياة العقلية التى كانت سائدة والتى كانت مصبوغة بلونى الدين والتصوف . ومن هنا فقد جاء شعرهم هامدا ، بعيدا عن التجارب العنيفة ، والعاطفة الصادقة ، وهذا الاحساس المشبوب بعالم المرأة .

ذلك لأن عالم المرأة لم يكن له بريق فى نفوسهم لانصرافهم الى معاناة الحيـاة القاسية ، وبعدهم عن الترف ، ولخطر المراكز التى كانت تسند اليهم ، وعدم وجود النماذج الحية لهذا الشعر تحت أيديهم .

ولهذا نراهم لا يعمدون الى هذا الشعر الغزلى فى أكثر الأحيان وانما يجرون على سنن المـاضين من سبق المدحة بالنسيب ثم يدخلون به الى الحديث عن الممدوح . واذا كان « الغزل » فى أصله حديثا الى النساء . فهذا النوع من الشعر لم يكن يتحدث الى النساء . فتسميته غزلا هنا من باب التجاوز .

ذلك لأنه فى أغلب أمره شىء تقليدى موروث ، وفى الوقت نفسه مثقل بثقافة العصر التى قد تكون قرآنا مثل :

فمن لى بليلى أن ترق لحالتى ... وتمنحنى وصلا وطيب تهـانى
فبى من هواها ما ينوء بعصبة ... أولى قوة لم يستطعه بيـانى

وقد تكون حديثا

ان برد الوصـل منها ليزيـــل حرارات الجفا فى كل حين
مثلما الجنــة حفت بالمكا ... ره لـكن بهـا حـور وعين

أو تأثرات صوفية كقول الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم :

فتزاحمت عشــاق فرد جمــالها كل الحسن وصالهــا يتطلب
لما رآتهم عاكفــين ببــابها وعليهم ثوب التذلل يسحب
قالت لهم حتى أطالع حــالكم وأرى حقيــقة ما اليكم ينسب
ان لاح لائح صدقكم فى عشقكم تجدوا من المعشوق وصلا يعذب (١)

وقد تكون مجرد تقليد لأسماء الحبيبات ، وأسماء الأماكن العربية القديمة ، كما قد تكون شيئا من آثار العلوم التى كانت تدرس فى هــذه الفترة كقول الشيخ عمر الأزهرى :

ولا عيب فيه غير أن جفــونه بنتها على كسر جميع المذاهب
وكم اتقى كسر الجفون لأنهــا أعدت لتفريق السهام الصوائب(٢)

والشعراء يتكلمون عن الحب العذرى ويبعدون ما أمكنهم عن الجنس الا الى مالا سبيل الى تركه كالشعر ، والقد ، واللحظ .

ورقة خصر واحتشــام شمائل حكمن بأسرى واستهن هوانى
وان الهوى العذرى أيسر حاله توقد نيران بغــــير دخان
فما العاشق المفتون الا مكدر عليه صــــفاء العيش بالهيمان

ويتواصون بالوفاء كقول الشيخ أبى القاسم :

يا أهيل العشق جدوا فى الوفا ان صدق الجد فى العقبى يزين

كما يعرفون الرقابة من المجتمع

كيف السبيل الى اللقاء ودون غز لان الصــــريم ضراغم تتبختر

أو قوله

كلما رمت اختــلاس وصلها تتأبى حــذر الواشى اللعــين

---

(١) شعراء السودان ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢٥٨ .

وقد يدعون لوالد المحبوبة ويلتمسون لها العذر :

رحـــم الله أبـــاها انهـــا سلبت عقلى وخلتنى حـــزين
ما عليهـا حــرج فى ذاك انى لهـــارق ومملوك يمـــين

وهم قانعون :

وحسبى أن أحظى بطيف خيالها اذا هى لم تسمح بوصلى تكرما
والا فحسبى أن أنــال كرامة على كتم نار الحب وهى تشعل
ذخـــــرى هــواه وحسبى ان كان فى العشق ذخـــرى
متعفف عن كل فعـــل دنيئة ما رابنى فى عشـــقهن مريب
ما ضرنى أن لو حثثت العيس فى أثر الحمــول وان علا التأنيب

وهم لا يقفون عند صلتهم بالحبيب نفسه ، فقد يكون الحب موصلا الى أشياء كبيرة كقول الشيخ ابراهيم أحمد هاشم :

لا تحسبونى فى الهوى قصدى التواصل للفساد
حاشـــا وكلا انمـــا قصـــدى مسرات الفؤاد
وتشـــوقى لطـــويلع وللعلع والخيف بـــاد
وتلهفى لســـــويقة ولأرض ســلع فى ازدياد
ومدايحى لمحـــــــمد مهـــدى المكارم للعباد

وكقول الشيخ أبى القاسم أحمد هاشم :

والعشق صعب لا يطيق صدوفه الا الذى لعـــذابه يستعذب
وأنا بجـاهك يا رسول الله آر جو أن أكون من الألى لك حببوا
وتحققوا بكمال عشـقك واستنا روا من ضياك فأكرموا وتقربوا

وقد يكون لمجرد الوصول الى الممدوح

بينما أنى أعانى وصلهـــا اذ بدا لى علم الحق المبين
فطويت الكشح عنها والتزمـ ـتمديح الشهموضاح الجبين

---

(١) المصدر نفسه ٣٤ — ٣٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦ .

.. وقد يذكرون العيس ، والديار المهملة ، والحادى وهو يسير بهم الى عالم جديد كقول الشيخ محمد عمر البنا :

ألا يا حادي عيسـهم رويدا   سلمت من الملمات العـوادى
ويا دار الأحبـة خبـرينى   سقتك هوامع السحب الغوادى
متى رحلوا وأين نووا وقاموا   على هجرى أم اقترحوا ودادى ؟

وكقوله أيضا :

ما ضرنى لو حثثت العيس فى   اثر الحمـول وان علا التأنيب
وزجرت للبكرات دامية الخطا   قد مسها نحو الحبيب لغـوب

وكقول الشيخ عمر الأزهرى :

هاجوا وماجو كأن قامت قيامتهم   يا برق مالك قـد فرقت خـلانى
ظلت قبـابهم بالرقمتـين لدى   حى الهـواجر فى أفياء أفنـان
وبعـد ذا قيل أموا الجزع ثم ولا   علم ولا عـلم عن حيهم ثانى (١)

وقد قلدوا الشعر العربى القديم فى التهالك على المحبوب ، واظهار المبالغة فى الوجد والحنين ، والتحسر ، فرأيناهم يقولون :

فان شئت عزا لا يزال مجـددا   لدى أهل هذا الفن مت ذلا

* * *

(و) أو ما كفى منـك النحول فانه   فى الحب أعظم شـاهد لا يكلم
أنا من علمت من الألى كانوا على   دين التصـابى والمحبة خيموا

* * *

(و) أبدا يؤرقنى عبـير شـذاك   ويزيدنى قلقـا دوام جفـاك
ويردنى من حالة العقلا الى   حـال الخيـال تذللى واباك

* * *

(و) وانى مذ علقت ليلى بخاطرى   جفيت منامى وافتقدت أمانى
وصرت أعانى كل هول ولا أرى   بغير وصالى أن يطيب زمانى

---

(١) شعراء السودان ٥٩ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٢٥١ .

فان كان دمع العين يقبل شاهدا فها دمع عينى سح بالفيضان

* * *

(و) فرقى لحالى يابنة القوم اننى عزيز وذلى فيك يحلو ويجمل

* * *

(و) فان أقبلت فالجنة الخلد نزلة وان أعرضت قد حل نزلا جهنما

* * *

(و) فان قلت انى صادق الود والوفا تقول ألامت فى صدودى متيما (١)

* * *

وقد وقعوا بسبب هذا فى المبالغات ، والبعد عن لمس العاطفة الحقيقة للحب ، والاحتراق على وهجها .

وكما رمز ابن سينا الى النفس بورقاء « ذات تعزز وتمنع » نرى الشيخ الحسين الزهراء يرمز الى المهدية بفتاة فيقول فى وسط القصيدة :

رسم ترقرق بالسنا فله الهنا اذ ناله بعد الفناء بقاء
وكسته أثواب الرضا مهدية تتلو المضرة أختهنا السراء
كم أرتعى فى روض دانية الجنا ثمر الرضا تدنيه لى وجناء
طارحتها تحف الكلام فنوعت تحف الملام وهاجها ادلاء
واذا نسيمات الصبا دعت الصبا لوصالها تتنصل الأعضاء

كما يقول فى وسط قصيدة أخرى :

بين الرقاق البيض والسمر القنا بحلومها تتراقص العباد
طربا يفوق على الشمول لمامة لم لا وكيف وفى العيون سعاد ؟
ومحاسن العلياء بين مطارف خضر بها جمع الجمال جواد (٢)

---

(١) شعراء السودان على التوالى ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٣٤ ، ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٠ ، ١٣ .

وقد شطر الشيخ الطيب أحمد هاشم قصيدة لسان الدين بن الخطيب المشهورة ومن أبيات الغزل التى جاءت فيها :

(هل كنت تعلم فى هبوب الريح)	نارا تأجج فى فـؤاد طـريح
(بالله قل لى كيف نيران الهوى)	فى قلب كل متيـم مجـروح
فكأنهـا نار تأجج فى الفضـا	(ما بين ريح فى الفـلاة وشيح)
(وخضيبة المنقار تحسب أنهـا)	ندبت فـراق أليفهـا المذبوح
فبكت وأبكتنى الدمـا وكأنهـا	(نهلت بمورد دمعى المسـفوح)
(باحت بما تخفى وناحت فى الدجى)	تبـكى بمـاء جفونهـا المنزوح
صدحت على غصن الأراك صبابة	(فرأيت فى الآفاق دعوة نوح) (١)

(١) شعراء السودان ص ٤٦ .

الرثاء

(٥)

يدور الرثاء فى هذه الفترة حول الرجال الكبار الذين لهم دور كبير فى الحياة . وقد دار قسم كبـير منه حول شخصـية المهدى وحول هذه المشاركة الوجدانية التى كانت تربط من حوله به فقد جزع الناس لوفاته بعد أن وعدهم بأمانى كثيرة لم يتحقق منها الا القليل ، وقد عبر عن هذا الجزع الشيخ ابراهيم شريف بقوله :

كيف التئام فؤادى المفطـــور ورقوء دمع محاجرى المفجـور ؟
أم كيف ينفك الضـنا من مهجة أحشـاؤها تصلى على تنـور
أسف على المهدى من مهد الصبا قد كان معصوما من المحظور (١)

كما عبر عن هذه الفجيعة الشيخ محمد بن الطاهر المجذوب اذ يقول :

دهتنا دواه يضرس القلب نابهـا ويوقـد فى الأحشـاء نارا منابهـا
.. ألا قد أصـبنا اذا عدمنا حبيبنا وضاقت بنا الأرض الوسيع رحابها (٢)

وقد صوروا لنا أن الفجيعة فيه فجيعة فى كل شىء ، وتصـوروا البكاء ممن لا يملك عليه البكاء :

ليبـك له الدين الحنيف وملة أبان هواها حين تم خرابهـا

* * *

(و) تبكى المساجد والمحارب فقده ومواطن الأذكار والتـذكير

وقد وصفوه بالفضائل النفسـية ، وذكروا سيرته ، والكرامات التى كانت له ، ودوره الكبير فى طرد أعدائه ، ودور المهدية كاملا فى كل هذا ، وكيف أنها حققت أغراضها ، وأنه لم يمت الا بعد أن وضع سبيلها . ثم طالبوا الصبر والتجمل لآل بيت الرسول ، ولخلفائه الثلاثة من بعده . ثم ختموها بالدعاء له وبصلاة الاله « على ضريح ضمه » ومن جملة ما أطلق

---

(١) نعوم ٣/٣٥٩ ، شعراء السودان ٢٧ .
(٢) نعوم ٣/٣٦١ ، نفثات ٩٤ ، ٩٥ .

عليه من صفات قول الشيخ ابراهيم شريف الدولابى الكردفانى :

هو مجمع البحرين بحر شريعة   طام وبحـر حقيقـة مسجور
سرالوجود وترجمان الحضرةالعليا   ومظهـر غيبهـا المسـتور
والله أكـرمه بطيب تحيـة   يحـذو بها موسى كليـم الطور
قـد كان قوام الدجى متبتـلا   متواصل الاحسـان غير فخور
طلق المحيـا خاشعا متواضعا   كهف الفقير وجـابر المكسور
وتفيض بالجود الكثـير يمينـه   أبدا بـلا من ولا تكديـر
ويبيت طاوى الكشح جوعا وهو قد   أعطى الكنـوز بجمعهـا الموفور
لا يبتغى جاهـا ولا مـالا ولا   عـز الملوك ولا ارتفـاع الدور
ما همه الا اجتـذاب الخلق من   درك الشـقاوة عميهم والعور

.. ثم أخيرا كانوا يسلمون أمرهم الى الله

الى الله انا راجعـون هو الذى   اليه نفوس العـالمين ايابهـا

* * *

(و) ولما دعاه الحـق جل جلاله   لدار بها الفـوز العظيم مخلدا
أجاب الندا فالقلب بعـد فراقه   يذوب أسى والصبر عز وأبعدا (١)

وقد كان الشعراء يعددون مناقب الميت ويهتزون كلمـا كان الميت فارسا ، أو موصولا نسبه بالرسول عليه السلام ومن هذا قول الشـيخ محمد المجذوب فى وفاة أحد قواد المهدية الكبـار « حمدان أبو عنجة » فى ١٨٨٩/١/٢٩.

حمـدان انك طالما سمت العـدا   ذلا وذكـرك فى المحـافل يرفـع
ما واجهت رايات نصرك وجهـة   الا وبالظفر المؤكـد ترجـع
فلك الهنـا بلقـاء ربك شـاهرا   سيف الجهـاد وكل قرم تقمـع
فسـحائب الرضوان تغشى تربة   ضمتك ما نجـم يغيب ويطلع (٢)

---

(١) شعراء السودان ٢٨ ، ٤٢ ، نعوم ٣٦١/٣ .

(٢) نعوم ٤٨٢/٣ .

وقول الشيخ أحمد المدنى فى السيد أحمد بن ادريس :

له الولاية قد جاءت مسلسلة — من الأكابر فاسمع واطرح الريبا
لأن أحمد بن ادريس والده — وللنبى وللزهرا قد انتسبا
يا سيدى أحمد يرجو مراحمكم — اذ فضلكم عم كل العجم والعربا (١)

ومن قبل ذلك رثى الشيخ ابراهيم عبد الدافع « شيخ الطريقة الجامع بين الشريعة والحقيقة مربى المريدين ومرشد الطالبين الشيخ أحمد الطيب بن البشير » بقصيدة طويلة جاء فيها :

شيخ السلوك مكمل السر الذى — قطع الزمان مصاحب الديان
هو بحر علم بالغيوب مكاشف — هو بدر تم ضاء فى البلدان
هو أحمد الفعل الامام المرتضى — هو طيب أعطى رضا الرحمن
هو وارث القطب الشهير محمد — كنز الهداية شيخنا السمانى (٢)

وهكذا نرى الرثاء مرتبطا بالطبقة العليا ، وغير متصل تماما بنفسية الرائى ومن هنا يكثر السرد الشعرى ، واسناد البكاء الى ما لا يبكى ، وتجسيم الفجيعة بدون التعرض لفلسفة الموت اللهم الا هذه القدرية التى كانوا يسلمون بها . أما رثاء الزوجة والطفل و « الانسان » فشىء لم تعرفه هذه الفترة

---

(١) نفثات ٩٦ .
(٢) تاريخ ملوك السودان ٢٦ .

الحماسة
(٦)

لقد أغفل نقاد العرب هـــذا الباب اغفـــالا تاما . فلم يذكروه ضمن ما ذكروا من أغراض الشعر « ولعل سر هـــذا الاغفـــال يعـــود الى أن الحماسة وشعرها لم يعـــد لهما مكان فى العصر الذى كتبـــوا فيه أسس نقدهم لأغراض الشعر العربى ، فان العنصر العـــربى كان قد تراجع عن مكان الصدارة فى قيادة الجيـــوش ، وحل محله ـــ منـــذ قامت الدولة العباسية ـــ أجناس أخرى كالفرس والترك والديلم والأكراد والشراكسة ، ولم يعد الشعراء يخوضون غمرات القتال فيصفون احساساتهم فى ميادين الحروب . واذا مجد الشعراء قتالا أدخلوا هذا التمجيد فى أغراضـــهم الأخرى من مدح أو رثاء ، ولهذا لم يكن شعر الحماسة متميزا بين فنون الشعر ، ولكنه مندمج فيها فلم يفرده النقاد بباب خاص يتحدثون عنه » (١)

واذا كنا نوافق الدكتور أحمد بدوى على هذا الرأى فانا لا نميـــل الى ما مال اليه من اعتبار أبى تمام والبحترى ناقدين فى كتابهما عن الحماسة ذلك لأن النقد شىء آخر غير جمع ما يروق الشاعر ويعجب به . فالنقـــد يضيف الى الجانب الذوقى جانبا آخر مقننا له أسسه ومعاييره المعروفة فى كل عصر ، ولقد تعرض السودان فى هذه الفترة الى حرب مريرة داخليـــة وخارجية ، بل لقد تحول المجتمع السودانى فى عهـــد المهدية الى مجتمـــع محارب ، وتغير مثل الناس الأعلى فى هذه الفترة من الرجال القائمين على الدين والتصوف الى الفرسان الذين لهم فى ميـــادين الحـــروب جولات وصـــولات .

وقد تعرض الشيخ الأمين محمد الضرير للحروب التركية فقال :

فالجـــد جد « عليـــا » فى محامده   وسيفه الشهم « ابراهيم » معوان

---

(١) أسس النقد الادبى عند العرب للدكتور أحمد بدوى ٢٦٤ .

لما غدا رافعـــا أعـــلام نصرته	مع نصبه انخفضت للفتـــح بلدان
فسار يكسر بالتقويم شـــوكتها	فلم يعد أهلها للحرب بل دانوا (١)

ولقد أسهم الشيخ يحيى السلاوى فى الحرب الغرابية اذ ما كان يسمع بها حتى تحايل على الذهاب الى القاهرة ، وهناك نظم بائيته المشهورة من تسعة وتسعين بيتا قال فيها :

شغل العدا بتشتت الأحـــزاب	والله ناصـــرنا بسيف عـــرابى
يا ربنـا عجل لدينـك نصـــرة	واجعل له الحسنى بخـير مآب
وبآل بيت محمـد رد العـــدا	وارسل عليهم منك صوت عذاب

وحين دخل الانجليز القاهرة ، آخذين فى القبض على دعاة الثورة لجأ الشيخ يحيى الى السيد محمد سر الختم وقد قال له فى احدى قصائده :

عفا الدهر بعـد الأكرمين وما عفا	كمـا لى ولكن للسـعادة ابـان
رعى الله دهرا كان بالحظ مسعدا	وسامر ليلى العـامرية عمران (٢)
صبرت على خطب سبرت الورى به	فلم يخف عن علمى من الناس انسان

وفى عهد المهدية تحول السودان الى مجتمع محارب ، وقد لون المهدى هذه الطاقة بلون الدين فأعلن فتح باب الجهاد كما ذكرنا من قبل ، وركز شعراء المهدية على هذه الفكرة وتناولوها من كل أطرافها فالشيخ محمـد عمر البنا يقول :

ان الجهـاد فضـيلة مرضـــية	شـهدت بمحكم أجـرها الآيات
قد حاز هـذا الافتخـار جميعه	صـحب الامام السادة القـادات

والشيخ الحسين الزهراء يذكر أن الملائكة ، والجن ، والانس ، وغيرهم جند فى جيش المهدى ، والشيخ عبد الغنى السلاوى يذكر أن نصر جيش المهدى شىء قد وعد به من الله ، وأن أعداءه يحرقون (٣) .

---

(١) شعراء السودان ٢١ .
(٢) نفثات ٨٣ — ٨٧ .
(٣) شعراء السودان ٢٧٥ ، ١٤ ، نفثات ٨٢ .

المهدى على الجنرال هكس وفد عليه الشيخ الحسين الزهراء ، ذاكرا فى قصيدته تلك المعركة ، وكيف فتك الأنصار بهذه الحملة ، كما وصف الحرب النارية التى كانت جديدة على السودان وصفا طريفا فقال :

وقد ذكروا بعض حروبه التى خاضها ضد الحكم التركى فحينما ظهر

والله دمـــر من طغى وأبـاده ... حتى تولى قتـله الضـعفاء
ولقد تبـدد جسـمه برماحهـم ... فكأنه من خلقـه أشـلاء
صالوا به وذويـه بين حصـونهم ... فى خنـدق غـرت به الأذواء
شادوه بالحصن القـوى وأيدوا ... بالنـار من فى النـار فهى جنـاء
فى كل مزغال شـرارة بنـدق ... رام طـوى من فى يديه خـواء

واذا كنا نرى من الصورة السابقة صورة الحرب المنظمة التى تستخدم الأسلحة النارية بين قوم يستعملون الرماح فانا نرى الشاعر فى موقف آخر يصف العزائم فى جيش المهدى وكيف كان هذا الجيش قويا بما يملك من عزيمة لا بما يملك من أسلحة بدائية .

مهج تقعقـع فى شـتات جسومها ... فـكأنها بنشـيدها أعـواد
وكأنهـا يوم الوغى فى كربهـا ... بخطوبه تخطـو بهـا الآسـاد
وعيـونها مغضـوضة بعيـوبها ... والحـق أبلج والورى أشـهاد
بين الرقاق البيض والسمر القنـا ... بحلومها تتراقـص العبـاد (١)

وهناك صورة أخرى للشيخ محمـد عمر البنا نلمح فيها ظل المتنبى ونستطيع من خلالها أن نعرف طبيعة هذه الحرب والمحاربين معا :

الحـرب صبر واللقـاء ثبـات ... والموت فى شـأن الالـه حيـاة
قـوم اذا حمى الوطيس رأيتهم ... شـمم الجبـال وللضعيف حماة
ولباسـهم سرد الحديد وبأسهم ... شـهدت به يوم اللقـا الغارات
وخلوفهم صدأ الدروع لحـزمهم ... قتـل الأعادى عنـدهم عـادات
فى السلم تلقاهم ركوعا سـجدا ... أثر السـجود عليهم وسـمات

(١) شعراء السودان ١١ ، ١٣ .

وتخالهم يوم الجهاد ضراغما		أسداً وأسل رماحهم غابات
ركبوا الجياد وغادروا شلو العدا		رزق النسور ولحمهم أقوات
والخيل ترقص بالكماة كأنها		تختال فى ميدانها فتيات
فأثرن نقع الموت فى عرصاتهم		وأغرن صبحا اذ علت أصوات
وذباب أسياف المنية فوقها		رعفت دما وجلاؤها الهامات
والأرض سالت بالدماء وما بها		غير الجماجم والشعور نبات
ظنوا جبالهم المنيعة تقية		وتوهموا أن الصعود نجاة
يأيها الأنصار ان صنيعكم		شكر الاله له وتلك هبات
أعليتم دين الاله وما بكم		الا الثبات تزينه الوثبات
وشرحتم صدر الرسول محمد		بالفتح وانكشفت بكم ظلمات
ورهبتم العلج الكفور بسيفكم		والدين تصلح شأنه الرهبات
فانهض الى الخرطوم ان بسوحه		أهل الغواية والمفاسد باتوا
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم		عن دينهم شغلتهم الشهوات
خذ جيشك المنصور لا تحفل بهم		ولتقدمن أمامه الرايات
فتسوروا لهم الخنادق وافعلوا		فعل الصحابة اذ أتت غزوات
قوم اذا ما السيف فارق رأسهم		فجروا ولم تصلح لهم حالات

ولم يقف الأمر عند حروب المهدى وانما تعداهم الى قواده كالأمير الزاكى ، وأبى عنجة ، والخليفة ، وعثمان دقنه .

ومن قول الشيخ محمد عمر البنا فى « عثمان دقنه » :

وأميرهم عثمان أهلك ملة		عدم النصير صريخها المكروب
ان صال فالفرسان تحجم دونه		فرق الهلاك وللسنان لعوب
أو جال فى الميدان تحسب أنه		أسدتفرس والرجال تثوب (١)

ومن الواضح أن الشاعر حين يتحدث عن المهدى يذكر هذه التهويمات

---

(١) شعراء السودان ٢٧٥ ـ ٢٨٠ .

الصوفية وأفكار المهدية ، فاذا تعرض للحرب ذكر جنده وبلاءهم ، أما حين الحديث عن قواده فالشاعر يصفهم بالجرأة ، والقوة .

وكما استعان الشيخ يحيى السلاوى بالسيد محمد سر الختم الميرغنى حين فشلت الثورة العرابية نرى الشيخ المصوى عبد الرحمن يستعين بالزبير باشا من وقوعه فى قبضة ذوى الأمر بالقاهرة .

وحين عاد الجيش لفتح السودان نرى الشيخ على الشامى يثنى على كتشنر ، ويذكر موقعة « فركة » ويهاجم المهدية .

فى « فركة » اغتروا بترك فرارهم ... ساووا الذين لهم سنينا بالحفر
تبا لقوم بالسفاهة قد عصوا ... أمر المليك وخالفوا ما قد آمر
كم قد طغوا كم قد بغوا كم أسرفوا ... كم ذبحوا كم جرحوا وهلم جر
فزمانهم قد كان وقتا وانتهى ... ورجالنا انتصروا وطاب المستقر
والجيش حل « بدنقلا » مستفتحا ... خيرا فقلنا أرخوه لقد ظفر (١)

وهكذا قامت للشعر الحماسى فى هذه الفترة قائمة بفضل الحكم التركى ، وقيام المهدية على أن ذروة هذا الشعر تعتبر بحق تلك القصيدة التى قالها الشيخ محمد الطاهر المجذوب حين بلغ الخليفة عبد الله أن جيشا انجليزيا يتقدم نحو سواكن ليباغت « ديم » عثمان دقنة فى هندوب فكتب الخليفة لعثمان يأمره بالانسحاب لاستدراج الجيش المهاجم الى شعاب الجبال . ومن هنا قيلت هذه القصيدة .

هندوب تعرف صبرنا ... كيف ارتكبنا للمصاعب
وهشيم تشهد عزمنا ... كيف ادرعنا للمصائب (٢)
يا طالما صدنا بها ... صيد الغضنفر للثعالب
جيشا يرن سلاحه ... كالرعد اذ ما المزن صائب
وسواكن تدرى بنا ... أنا لدى الهيجا مضارب

---

(١) شعراء السودان ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) هشيم مكان غرب هندوب كانت به حرب عنيفة بين المهديين والجيش الثانى .

بالمشرفى كأنه وقع الصواعق فى المضارب
زمنا رصدنا نحونا نبدى العجائب والغرائب
ونئز فى أرجائها كالليث اذ نشب المخالب
ولطالما برزت لنا منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنة بل يسرة من كل جانب
فتجاذبتهم خيلنا ترمى بهم رمى الشواقب
البيض تلعب فيهم فوق العمائم والعصائب
حتى أتت أخبارنا من مصر تكتبها الجوائب (١)
وأقر ويك بفضلنا الأعضاء فى كل المكاتب
... نحيى لدين الله بل فى شأنه نلقي المعاطب
متوسلين اليه بالمهدى وجهة كل راغب
وخليفة المهدى عبد الله مفتاح المطالب
ما ان رحلنا عنهمو جزعا ولا خوف النوائب
بل طاعة لولينا فليدر ذا كل الأجانب (٢)

وقد يكتبون على السيوف والطبل (النحاس) وقد وجدت فى زيارتى لبيت الخليفة بأم درمان نحاسا مكتوبا عليه « ملك الشيخ على ضبعة بن عبد القادر » وعليه هذان البيتان المكسوران :

« سعادتنا تتجدد كل يوم واقبال على رغم الحسود
ما دامت لك الأيام بيضا وأيام الذى عاداك سود »

---

(١) جريدة أحمد فارس الشدياق كانت تعنى بأخبار السودان ويراسلها السودانيون بمقالات ومن كتابها الشيخ الامين الضرير . وكان متعهدها فى السودان محمد عثمان حاج خالد العمرابى .

(٢) نفثات ٩٣ ، ٩٤ .

أغراض أخرى
(٧)

هناك أغراض أخرى سريعة تعرض لها الشـــعر فى هذه الفترة ومن هـذه الأغراض :

(أ) الحكمـــة

على أنها لم تكن عميقة عن جهد وفلسفة خاصة أو وجهة نظر شاملة للحياة ، وانما حكمة سريعة طافية لا ظلال لها من جهد أو ثقافة أو تجربة حادة ، على أن الشعراء لم يقصدوا اليها قصدا ، ولم تكن لهم قصائد تدور حول الحكمة فقط كصالح بن عبد القدوس . ذلك لأنه لم يكن لهم جهد على هذا الترف العقلى .

فغاية ما كانوا يطيقونه كان حكمة سريعة قد تفتح بها القصيدة كقول الشيخ الأمين محمد الضرير فى مدح الخديوى وجعفر مظهر باشا :

الود مأدبة الصدق أخوان (١) والصادقون لدى الآداب اخوان
فالمرء مختبىء تحت اللسان وما غير الكلام له كشـف وبرهان
ياليت شعرى هل يبدو لنا زمن لا يستوى باقل فيه وسحبان

وكقول الشيخ محمد عمر البنا :

الحرب صبر واللقـاء ثبـات والموت فى شأن الاله حيـاة
الجبن عار والشـجاعة هيبة للمرء ما اقترنت بها العـزمات
والصـبر عند البأس مكرمة ومقدام الرجال تهابه الوقعات
والاقتحام الى العـدو مزية لايسـتطاع لنيلهـا غايات
والعمر فى الدنيـا له أجل متى يقضى فليس تزيده خشـيات
والفخـر كل الفخر بيع النفس لله العـلى وأجرها الجنـات
ان الجهاد فضـيلة مرضـية شهدت بحكم أجرها الآيات (٢)

---

(١) لغة فى خوان .
(٢) شعراء السودان ٢٠ ، ٢٧٥ .

(ب) الوصــــف

وقد وصف بعض الشعراء أشياء من واقعهم المحسوس ولكنهم لم يستطيعوا تقديم نماذج محسوسة ، فليس الوصف عندهم شيئا داخليا ولكنه شيء خارجي لاتتضح ملامحه على لوحات وصفهم ، ويمكن أن نرى هذا فى وصف قبة المهدى للشيخ اسماعيل عبد القادر :

سمت قبة المهدى مجدا وسؤددا ونيطت بها الجوزاء عقدا منضدا
وصيغ من الاكليل تاج لهامهـا وسـال بهـا نهر المجرة مزبدا
وقد نظمت زهر النجوم قلائـدا لجيد علاها حائز السبق مفـردا
بنية مجد شـادها الحلم والتقى يطوف بها الزوار مثنى وموحدا
فلله مغناها ومحـكم صـنعها وروضتها الزهراء بالفضل والندى(١)

وفى زيارتى لبيت الخليفة بأم درمان وجدت هذه الابيات مسجلة به وهى للشيخ حسين الزهراء :

بنى روضة المهدى منتظر الورى الخليفة عبـد الله نجل محمـد
وأتقنها رصفا وصنعا وشـادها الى أن محت آثار كل ممجـد
وتاهت وباهت كل بيت مقـدس وراقت ففاقت كل صرح ممـرد
وصالت فطالت كل ذروة شـاهق ولم لا وفيها كنز أسرار أحمـد
فقف فى حمى حامى الحمى فى رحابها وصله بمنخول السـلام المردد
وكن خاضعا واطلب به كل بغيـة تنل ملء عين القلب والرأس واليد

وقد وصف الشيخ محمد عمر البنا الابل بقوله :

وزجرت للبكرات داميـة الخطا قد مسـها نحو الحبيب لغـوب
أوجعتها سيرا فصارت ضـمرا كهلال شـك ينجلى ويغيب (٢)

وقد مر بنا وصفهم للحرب ، وللمهدى ، وكانوا قريبين من الصدق والغنى فى وصفهم لجيش المهدى الذى كان لاهم له الا أن ينصر أو يستشهد وهناك صور معنوية وردت فى شعرهم خاصة فى الشعر الصوفى كتلك

---

(١) شعراء السودان ٤١ .
(٢) شعراء السودان ٢٧٩ .

الصورة التى ذكرها الشيخ الحسين الزهراء :

ولما تبدى لى وفاض شـــعاعه   تذكرت من نور الهداية لى ذكرا
وسامرت منـــه خير نفس أبيــة   وقدرا تعـالى أن أحاذى به قدرا

(ج) كما قالوا فى التأريخ :

وقد استعملوا التأريخ فى أشياء كثيرة كميلاد طفل .

ويظهر هذا من قول الشيخ الطيب أحمد هاشم :

ولعـــام مولـــده يؤرخ طيب   بشـــرى بحجـاز أيا مـــدثر
١٣١٠

وكقوله أيضا :

طابت لياليـــه وقلت مؤرخـــا   طبنا بوضـــع محمد بن القاســم
١٣١٦

وكقول الشيخ اسماعيل الكردفانى فى قبة المهدى :

وقف خاضعا وارج القبول مؤرخا   بقبة المهدى الامام ترى هدى (١)
١٣٠٦

وكقول الشيخ الحسين الزهراء :

وقد قلت اذ تم الجـــلال مؤرخا   جلال بدا فى جام جـــدر منضـــد
١٣٩٦

وكقول الشيخ على النامى :

والجيش حل بدنقلا مستفتحـــــا   خيرا فقلنا أرخوه لقـــد ظفـــر
١٣١٤

وكقول الشيخ احمد المدنى فى رثاء السيد عبد العال بن السيد احمد ابن ادريس :

بالهاء والصاد ثم الراء بعدهمـــا   والغين بالنقط عام الموت قـــد كتبا

(د) وقد هنئوا بمولود كقول الشيخ الطيب أحمد هاشم :

---

(١) شعراء السودان ٥١ ، ٥٢ ، نعوم ٣/٥٣٠ .

السعد أقبل بالهناء يبشر	واليمن بالفال السعيد يخبر
والبشر عمم بالسرور حياتنا	وسحائب الآمال فضلا تمطر
والسكر جار فى ميادين النهى	بغرائب المنظوم أو ما ينثر
.. ساحات والده بيوم قدومه	نارت وفيها كل خير ينشر

وقد قرظ الشاعر كذلك كتاب الدر المخزون على رسالة بن زيدون بقصيدة منها :

زالت شواغل قلب كان محزونا	لما رأيت كتاب الدر مخزونا
فحين سرحت طرفى فى محاسنه	غدوت منشرحا بالشرح مفتونا
وشمت در المعانى لا ينافسها	در نفيس بجيد ظل مكنونا
فذاك شرح أبى بكر العليمى على	رسالة الفاضل الحبر ابن زيدونا (١)

كما تناولوا العلوم فنظم الشيخ محمد احمد هاشم تاريخ السمرقندى فى قصيدة (٢) ، ونظم الشيخ أحمد الجداوى الأزهرى الذى تولى مناصب قضائية فى السودان ومصر أرجوزة فى الميراث قال عنها نعوم : وهى أسهل أرجوزة رأيتها فى هذا الباب (٣) ، ونظم الشيخ عبد الله أبو المعالى قصيدة كتبت بالحبرين الأزرق والأحمر فاذا قرأت الاحمر وحده كان فى مصطلح الحديث ، وان قرأت الأزرق وحده كان فى رجال الحديث (٤) ، ومدح الشيخ الأمين الضرير الرسول بمدحة ضمنها سور القرآن طبقا لترتيب المصحف (٥) ، ونظم الشيخ ابراهيم عبد الدافع أسماء الأولياء والصالحين فى استغاثته المشهورة (٦) ، ونظم الشيخ محمد شريف قصيدة فى الرد على المهدية (٧) .

---

(١) شعراء السودان ٥٠ ، ٥١ .
(٢) نفثات ١٠٩ .
(٣) نعوم ٧٤/١ .
(٤) نفثات ٥٢ .
(٥) شعراء السودان ٢٢ .
(٦) النداء ١٨٦ .
(٧) نعوم ١١٦/٢ .

معانيه

— ٢ —

اذا كان « محمد على » قد نهض بمصر نهضة علمية وحربيــة ، واذا كانت قد قامت على أساس هذه النهضة نهضة علمية وأدبية فى عهد اسماعيل بفضل المدارس التى فتحت ، والكتب التى ترجمت والبعثات التى عادت من أوربا بأساليب فكرية جديدة (١) . فان آثار هذه النهضة كانت خافتة فى السودان ، وان ما وصل السودان منها كان قشورا لم يتفاعل مع المجتمع السودانى ، بل لقد نفر السودان منه فى أول الأمر بحكم ثقافته الدينيــة التقليدية ، وشكوكه فى كل ما يأتيه من الطبقة الحاكمة ، ولكن المجتمع السودانى ما كاد يقبل على هذه الأفكار الجديدة حتى عاد مرة أخرى الى تقاليده ، ومثله ، فقد عرف السودان فى الفترة التى قبل المهدية نوعا من المدارس الحديثة التى كانت فى مصر ، وبعضا من الذين تثقفوا فى الخارج كرفاعة الطهطاوى وبعض هذه الكتب الحديثة التى كانت شائعة فى مصر فى هذه الفترة :

الم توزع عليــــكم كلكم كتب ... فى العـــلم نافعة بالطبع تزدان
الم يكن جمعكم أدعى لصحتهــا ... ألم تيسر على التـدريج أثمــان
فحاصل القول أن العلم قد سهلت ... أسبابه اذ بدت للخير أعــــوان
فالله يحفظ هــذا الجمع متبعــا ... «توفيقه» وله عز وســلطان (٢)

أما النماذج الأدبية التى عرفها السودان فى هــذه الفترة فقد كانت نماذج منطفئة من الشعر المملوكى ، والعثمانى . الذى كان معــروفا فى مصر فى هذه الفترة ، ومن هنا ألقى الشــعراء بذورهم فى أرض هزيلة ، فكان حصادهم هو الآخر هزيلا .

---

(١) فى الادب الحديث للاستاذ عمر الدسوقى ٣٧/١ .

(٢) شعراء السودان ٢٠ ، ٢١ من قصيدة الشيخ الامين محمد الضرير .

فلما جاءت المهدية قضت قضـاء تاما على هـذا الحصاد الهزيل ، وأبقت ما يمت الى الدين بصلة قوية كالقرآن ، والحـديث ، وان كانت شجعت فى الوقت نفسه الشعر والشعراء ، ولكنها بحرقها الثقافات الأخرى قضت على « الشكل » الشعرى ، وتقاليده . فلم يبق أمام الشـعراء الا الاهتمـام بالمضـمون . والتخلف فى الشكل فى عهد المهدية بسبب عدم الرصيد الشعرى فى البلاد ، والتفاف الناس حول الثورة ـ والثورات تغير الأوضاع الاجتماعيـة والأوضاع أدبيه ـ يقابله صدق عاطفى ، وأداء نفسى صادر عن التجارب المنفعلة التى تخوضها البلاد .

والمعانى الرئيسية التى ازدهرت فى هـذه الفترة تدور حول الدين والسياسة . لأن الشعراء كانوا من الرجال الذين تعلموا فى الأزهـر أو الذين تعلموا الدين على أيدى رجاله فى البلاد بما فيهم المتصوفة ، ومن هنا فقد كان لعامل الدين والخلق التأثير الكبير على الشعر فى هذه الفترة .

وقد أكثروا من مدح الرسول عليه السلام ، وافتنوا فى هذا اللون . فضمنوا مدحه سور القرآن ، وجعلوا بعض هذا المدح يقـرأ كاملا من البحر ، ومن مجزوئه ، وشطروا فى مدحه القصائد وجعلوا هـذا المدح مسبوقا بالغزل ، وبالوعظ (١) ، وقد يجعل الشاعر القصيدة وسيلة لذكر الانبياء ، والصحابة ، وآل الرسول والعلماء ثم يطلب متوسلا بهم « العفو والعافية » لنفسه ولأصحابه ، ولأهله ، ولمن حضر الانشاد (٢) .

وقد يطلب الشاعر من الرسول اجازة المديح ثم يذكر اسمه وأسـماء اخوانه ثم يختم المدحة بالصلاة عليه وعلى أصحابه كقـول الشـيخ أبى القاسم احمد هاشم :

فأجز مديحى بالقبـول تكرما يا من اليه بجـاهه تتقـرب

---

(١) شعراء السودان ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٦ ، ٣٢ ، ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢٤ .

وأنا الذى مالى سـواك ذخيرة ... يوم الميعـاد وحين يخشى المذنب
قل قاسم يا نجل أحمـد هاشم ... لا تخش أنت مكرم ومقـرب
وكذلك اخوانى كيوسف والذى ... يدعى باسـمك فى المـلا والطيب
وعليك صلى الله ما هبت صـبا ... أو ما ترنم فى مديحـك مطـرب
وعلى صـحابتك الأماجـد كلهم ... ما تم بدر أو أضاء الكوكب (١)

ولقد دار الشعر حول فكرة « الاسراء » لما فيها من أجواء شـعرية وأخذوها من جانبها المؤثر ، وان الاسراء كان بالجسم لا بالروح ، وهم فى هذا متأثرين بالأحاديث التى رويت فى هذا المقام ، حتى ليعتبر هذا الشعر نظما تطبيقيا لها بدون اضافات نفسية ، أو ذكر مدلولات انسانية أو رمزية، ومن هذا قول الشيخ عمر الأزهرى :

وهو الذى جازت الجوزا مراتبه ... حتى ارتقى لسمو فوق كيـوان
ونال . ثم دنا منـه وخاطبـه ... من قاب قوسين أو أدنى العلى الشان
فجاء بالخمس من خمسين كاملة ... ثلاثة بالضيا والليل فرضـان (٢)

وقد شرح هذه الفكرة شرحا وافيا الشيخ ابراهيم أحمد :

وأتى خليلك بالبراق فأيقظ ال . ... جسم الشريف لنيل كل نجاح
فطفقت تقطع للفدافد قاصـدا ... رحبا لرسـل مكون الأرواح
فأقام جبريل الصلاة وأنت كنـت ... أمـامهم ومنيلهم لـرباح
وتدل معراج المواهب والعـلا ... فرقيته بمعـونة الفتـاح
حتى خرقت سماء بدر دجنـة ... فلقيت آدم والد الأشـباح
ولقيت فى الثانى ابن مريم والتى ... سادت ، ويحيى عين كل سماح
وبثالث لاقيت يوسف ذا الجدا ... واليمن والحسن الشهى الضاحى
وبرابع لاقيت ادريس العـلا ... وبخامس هارون ذى الافصاح
وبسادس موسى الكليم، وذا الوفا ... والهدى والايعاظ فى الألواح
وبسـابع لاقيت ابراهيم من ... عمر البطاح بابنه السـياح

(١) شعراء السودان ص ٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢٥١ .

لازلت تخترق العلا حتى أتيـــــت بساط قدس جل عن أمداح
فرأيت ربك يقظة من غير كيـــــف بعد ما خاطبته بكفـــــاح

وقد تدور المعانى حول سرد للخوارق :

وأتتك الأشجار ياخير الورى   تسعى على عجل وفى استفراح
وجبال مكة راودتك بكونهـا   ذهبا على ماصح عند صحاح
وعليك ظللت الغمامة فى الضحى   لتقيــــك من حر وفيح رياح
والعضو أبدى ماحواه من الأذى   والجزع حن لفرقة المصـباح
أحييت ابنى جابر ولشـاتهم   وأعدت عين قتادة الوضـاح
وبخمسة الأقراص أشبعت الألى   قهروا العدا بمهند جــــراح
والبئر لمـا قـد تفلت بمائها   صارت بأكمل هيأة الاصلاح
وسحابة وطفاء جادت للورى   لمـا دعوت بوابل ســـياح
ولقد مسحت بضرع شاة خزاعة   والجهد عاق فجاد بالامنـاح
والفحل أعلن بالشكاية فى الملا   والضب أفصح غاية الافصاح
والظبية اشتكت اليهودى الذى   قد ناشـــها فحبيتها بصراح
من جندك السامى ملائكة السما   والرعب ناصر جيشك الجحجاح

* * *

(و) والصخر لان لأخمص المختـــــار من بعـد اشـــتداد
والبـــدر شـــق لأجله   وعليـــــه سلمت الجمـــــاد
ولكفــــه نطـق الحصـــا   وأعاد عينـــــا واســـتزاد
والعـود أضـحى صـــارما   لعكاشــــة وبـه أبــــاد
بيمينــــه ابنـــة عامــــر   شـــفيت ووافاها المـراد

وقد ذكر من هذه الخوارق الشيخ عمر الأزهرى الكثير ومنها :

أيوان كسرى انشق وانهد الذى   قد ساسه فى فرســـه ساسانه
وقصـــار قيصر أنه قد قصرت   عما نواه رمحـه وســــنانه
بعناية فى اليـوم كان يشب مشـــل الطفـل شـهرا دونه أقـرانه

نطق الذراع له وحن الجـذع وانســـكب السحاب اذ أشار بنانه (١)

فالشاعر هنا يتناول الجانب الخارق ليؤثر به على القارىء ، والسامع وهو يروى « السيرة » قد يتعرض لشخصية الرسول فيجلوها من خــلال ما يحفظ من هذه السيرة :

جمعت خصال المرسلين له كمـــا جمـــــع الذى فى كتبهم فرقانه
متواضع ، والزهد فيـه سـجية يطـوى ويعصب والأوان أوانه
يمشى ويكنس داره ويخيط ثوبا قــد عفا والصـفح ذلك شـــانه (٢)

وقد يصفه الشاعر وصفا حسيا فيذكر رأسه ، ووجهه ، وطرفه ، وأنفه وخده ، وفمه ، وعنقه ، وصدره .. وهكذا . كما يختلط هـــذا المدح بالتصوف كما فى قول الشاعر :

نور بدا من قبـل نشـــأة آدم منه الوجـــــود جميعه متخلق
فأبو الحقيقة أحمـــــد ان رمته وأبو المجاز آدم قد حققـوا (٣)

فالمدحة النبوية تعتبر تلخيصا لكل الأفكار التى كانت معروفة لديهم عنه فى جو من التقديس ومحاولة لارضاء الجانب الدينى فى نفس المجتمع . وقد رأى الأستاذ احسان عباس ان المدحة النبوية ليست فى أكثرها « الا صورة للمدح تعمد الشاعر المبالغة فى مدحه كأنه واحد من الأمراء والولاة وذلك كقول الشيخ أبى القاسم هاشم » :

ما نازعتك الفخـر سـادة معشر الا وأنت على الفخــار الأغلب

وهذا خطأ فنى كان أول من أدخله فى الأدب العربى الكميت الشاعر وانتقده الجاحظ فيه انتقادا مرا ذلك لأن مدح الرسول بهذه الطريقـــة

---

(١) شعراء السودان ٥٦ و٥٧ و٦٠ و٢٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢٥٤ .
(٣) ديوان المجذوب ١٢١ و١٢٢ و١٢٩ و١٣٠ .

المباشرة العارية عن التصوير ، لا يميزه عن الأمير أو الخليفة فى نفوس من يرون فيه شخصية « الانسان الكامل » (١) .

ونحن لا نوافق الأستاذ على تعميم هذه القضية على الشعر فى هذه الفترة فالشعراء أحيانا يرتفعون بالرسول الى آفاق لا يتطاول اليها أمير ، أو خليفة وقد ميزوا بينه وبين غيره من الممدوحين ، ولم يبالغوا فى مدح المهدى الا باعتباره خليفة رسول الله ، ولقد أضفوا على شخصية الرسول بعض صفات الألوهية فى بعض الأحيان ، وحسبى أن أذكر له أبياتا من نفس القصيدة التى استشهد بها وهى :

يابن العوالى الشم من مضر ويا ... سر الوجود لك الغناء الأرحب
يا سيدى يا خاتم الرسل الكرا ... م ومن اليك الملتجا والمهرب
المدح فيك وان علت أوزانه ... حسنا ونمقه الأديب الأنجب
لا يبلغ المعشار من أوصافكم ... أنى له والشأن أعظم أهيب

والشيخ عمر الأزهرى يقول :

لولاه ما كان الوجود ولم يكن ... ملك ولا ملك ولا أعوانه

ولما كان آدم ولا غيره من الأنبياء . ولقد نجا الخليل بجاهه من النار وموسى من فرعون وذو النون من الغرق ، وأيوب من المرض (٢) .

فالصفة الغالبة على هذا المدح هى « التأريخ » للممدوح دون رسم محدد للشخصية ، وتعتبر هذه الظاهرة طبيعية اذا عرفنا أن روح الحفظ ، والجمع كانت سائدة فى هذا العصر وقد يمدح الشاعر أكثر من واحد فى القصيدة كتلك القصيدة التى مدح بها الشيخ الأمين الضرير توفيق باشا ، وجعفر مظهر باشا ، والتى سرعان ما تركهما فى مقدمة اللوحة دون توضيح لملامحهما الى الجانب الخلقى منها . فذكر « محمد على » وسيفه «ابراهيم»

(١) القلم الجديد العدد ٧ من السنة الاولى سنة ١٩٥٣ .
(٢) شعراء السودان ٣٣ و٢٥٣ .

وكيف فتحت بلاد السودان . ثم يقفز الى عصر اسماعيل . ثم يعود ثانية الى توفيق مؤرخا :

مخايل الخير فى توفيقـــه ظهرت — أكرم بشهم له التوفيق عنـــوان
لذاك حسن ختام القـــول أرخه — صون المواطن توفيق وعرفان (١)

والشيخ يحيى السلاوى حين مدح السيد محمد سر الختم رأيناه يقفز الى عصر الرسول ليثبت ما بينهما من نسب ، ثم يذكر بالخير شيخه « ابن أدريس » ووالده « سر الختم » وجده « المحجـوب » وآل المـيرغنى جميعا . ثم يتوسل بهم الشاعر فى تفريج كربه :

وهل تتقى من حادث الدهر سطوة — ونحن لسر الختم فى مصر جيران
الهى بهم فرج من الهم كـــربتى — وحقق رجائى والرجا منك غفران
ومن سرهم واحفظ «خديجة» بنتهم — عليهم سلام من علاك ورضوان(٢)

فالشاعر قد كان يستلهم الجو العام للمدوح ، وامتـــداده التاريخى لقداسة الأنساب فى أذهانهم ، وقد تختلط أساليب المدح بأساليب التصوف وبالأحداث الدائرة ، ومن خلال هذا الركام تبدو شخصية الممدوح هزيلة متضائلة .

فالشيخ الحسين الزهراء حين مدح المهدى ذكر المهدية ، وآياتهـــا ، وانتصاراتها على حملة الجنرال هكس ، ودعا العلماء الى مناصرتها ، وعرض بالقائمين عليها . لأنه لم يوضع فى مكانه اللائق به :

جهل الولاة أمات دين محمـــــد — وأهيله ماتوا وهم أحيـــــــاء
وتراكمت ظلمـــاتهم بين الورى — لمـــا اطمـــأن لهم ودام ولاء
ما بى استهانوا بل بشرع محمد — فعليه من أثر الدماء حيـــــاء

ثم نراه يخلط بين المهدية ، وفكرة « النفس » فى قصـيدة ابن سينا ويمدح المهدى ، ويطالب الناس بمناصرة دعوته ، ويذكر أبياتا فى الحكمة

---

(١) شعراء السودان ٢١ .
(٢) نفثات ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

ثم أخيرا يختم القصيدة بالصلاة على النبى وعلى آله ، وبالشطر الأول الذى بدأ به القصيدة .

والشيخ محمد عمر البنا حين يمدح « عثمان دقنة » يمدح معه أعوانه ويبالغ فى الظلال الخلفية للصورة . حتى لتبدو شخصية عثمان دقنة شيئا تائها فى الاطار الكثيف للصورة (١) .

فأكثر المعانى التى يدور حولها المدح معان تاريخية ، تسبح فى جو الدين ، والخلق ، ولعل صورة الممدوح لا تبدو زاهية الا فى الرثاء ، فالصورة المتكاملة للمهدى يمكن أن نحسها مثلا من قصيدة الشيخ ابراهيم شريف الدولابى :

قد كان قوام الدجى متبتلا ... متواصل الاحسان غير فخور
طلق المحيا خاشعا متواضعا ... كهف الفقير وجابر المكسور
وتفيض بالجود الكثير يمينه ... أبدا بلا من ولا تكدير
ويبيت طاوى الكشح جوعا وهو قد ... أعطى الكنوز بجمعها الموفور (٢)

كما يمكن رؤيتها من الجانب الآخر ، جانب النقد فى قصيدة الشيخ محمد شريف .

أما الغزل وبخاصة ما كانت تبدأ به القصائد فقد كان أشواقا تقليدية لا ظلال فيها لتجربة ، أو صدق شعور ، وقد جروا فيه على المذهب التقليدى القديم من « التهالك ، ونهاية الطاعة للمحبوب » (٣) .

فارحم ورق لحال من هجر الكرى ... وترى بجفنيه السهاد الأكبرا

(و) فرقى لحالى يابنة القوم اننى ... عزيز وذلى فيك يحلو ويجمل

(و) أرفق بصب قد جفا ... سعى الأسنة والجهاد

(و) فان شئت عزا لا يزال مجددا ... لدى أهل هذا الفن مت ذلا

كما قد تضمن شعرهم الرحيل ، ومعاهد الهوى .

---

(١) شعراء السودان ٧ — ١٢ ، ٢٧٨ — ٢٨١ .
(٢) المصدر نفسه ٢٨ .
(٣) الصناعتين لابى هلال ١٢٤ .

« ويستجاد التشبيب أيضا اذا تضمن من ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة . بهبوب الرياح ولمع البروق . وما يجرى مجراهما من ذكر الديار والآثار » (١) .

ظلت قبابهم بالرقمتـــين لدى · حى الهواجـر فى أقباء أفنـــان
يا ليت شعرى قــد شطت ديارهم · والدهر أقصاهم عنى وأقصـانى
هل قوضوا بعدنا يوما قبـــابهم · أم طنبوها بأشـــكال وألوان
وحسن ظنى بسكان العذيب فمذ · وردت ماء العذيب العذب أظمانى

(و) ماضرنى أن لو حثت العيس فى · اثر الحمول وان عـــلا التأنيب

(و) ويا دار الأحبـــة خبرينى · سقتك هوامع السحب الغـوادى

(و) أهاجك وصل بالأباطح يلمع · لها فيه ما شـــاء السراب الملمع

(و) أم البرق فى شطر العقيق ولعلع · فهاجك يا هـــذا العقيق ولعلع

وحين جاءت المهدية صور الشعراء طبيعـــة الصراع الذى دار بين الحكومة ، والدعوة الجديدة ، وكيف كان الحكم التركى جـائرا أهدر أرزاق الناس وحرياتهم ، وكيف وقف فريق من الشعراء يعارض هـــذه الدعوة الجديدة ، ويبين كذبها ، وجهل القائمين بها ، بينما وقف الفـريق الآخر يناصر هذه الدعوة ، ويذكر خوارقها ، ويصف حفل منحه المهدية . هذا الحفل الذى حضره الرسول :

وأقامه المختـــار عنه خليفـــة · خلعت عليــه ملابســا من نور
ورقى الى كرسـيه متســـنما · فى مشـــهد بالأوليـا معمور (٢)

والظـاهر أن الشعراء قد عكفوا على ما وصل الى أيديهم من آراء استعملوا مصطلحاتها ، وألقوا الأضواء على امتداد النسب المهـدى الى الشيعة ، وعلى المنشورات المهدية التى كانت غاصة بالأحاديث التى رويت

---

(١) الصناعتين ١٢٤ .

(٢) شعراء السودان ٢٥٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ١٤ .

فيها ، وبالمشاهد الغيبية التي كان يذكر أنه يحضر فيها مع الرسول . فقد استعملوا مصطلحاتهم ، وألقوا الأضواء على امتداد نسب المهـــدى الى الرسول ، ولما كانت الاسـماعيلية ، والاثنـا عشرية تشترط كلاهما أن يكون الامام من نسل فاطمة ، ولا تتخففان كالكيسانية التي تعتبر محمد ابن الحنفية اماما . رأينا الشيخ الحسين الزهراء يحرص على أن يبـين أن المهدى يمتد نسبه الى فاطمة الزهراء .

السابق ابن السابقين الى الهدى   من معشر نتجت بهم الزهــراء (١)

ولمـا كان الشيعة يعتبرون الامامة ركنا من أركان الاسلام حتى ليقول الكلويني ان أثافى الاسلام الصلاة والزكاة والامامة ، فقد أكدت المهـدية هذا المعنى وجاراها الشعراء فيه

ومن انتمى لسـواه أمسى حائرا   ضـل الطـريق بليلة ديجور (٢)

وقد أطلقوا على المهدى الامام متتبعين فى هذا الاسـماعيلية ، التى لا تطلق هذا اللقب الا على خلفاء « على » أما على نفسه فيطلق عليه لقب « وصى » :

وبعـــد كل ناطـــق وصى   يخلفـــه منتخب مـــرضى
مبينـــا تأويل ما أتى بـــه   من ســـنة الله ومن كتـــابه
ثم يقيـم بعـــده أئمـــه   مطهـرين ينشرون الحـــكمه

ومن هنا قال الشيخ الحسين الزهراء :

امام الهدى الهادى لكل ومرشد   بهامته التاج النفيس المرصع (٣)

وقال الشيخ محمد الطاهر المجذوب :

امام الهدى المهدى أفضل من دعا   الى الله مفتاح النجاة وبابهـا (٤)

وقال الشيخ اسماعيل عبد القادر :

امام له فى كل مجـد وســؤدد   مآثر فضـل ما أجل وأمجدا (٥)

---

(١) شعراء السودان ٨ .
(٢) المصدر نفسه ٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ١٤ .
(٤) المصدر نفسه ٩٥ .
(٥) نعوم ٣/٥٢٩ ، ٥٣٠ .

امــام أجل الله فى الكون قــدره وتوجــه تاج القــلوب وأيدا

وكما نسب الشيعة الى الامام كل فضيلة فكذلك نرى الشعراء ألحقوا به كل الفضائل حتى لقد اعتبروه :

سر الوجود وترجمان الحضرة الــــعليا ومظهر غيبهــا المستور (١)

متناسين قول أبى العلاء :

يرتجى النــاس أن يقــوم أمــام ناطق فى الكتيبــة الخرســاء
كذب الظن لا امام سوى العقــل مشــيرا فى صــبحه والمســـاء

ولقــد تعرضوا للحروب التى دارت بين التركية والمهدية ، ووصفوا هذا الصراع الذى كان قائما فى أول الأمر على قـــوى غير متكاملة فى السلاح والعدد ، ولكن العزم الجديد الذى أشاعه المهدى فى السودانيين خلق منهم وعيا حربيــا جــديدا أمكنه أن ينتصر ، وأن يفرض مثله على البلاد . فقد تحولت البلاد الى مجتمع ، وتحول الشعراء الى قوى تعبىء الشعور العام . فذكروا انتصارهم على قوى الحرب الحديثة وخططها (٢) ، وذكروا جيش المهدى القوى بايمانه وبالقوى العلوية التى كانت تؤيده (٣)

والظاهرة العامة أن هــذه المعانى التى طرقها الشعراء فى هذه الفترة معان مستعملة قد فقدت لمعانها ، فلا أثر فيها لابتداع ، أو صدق شعورى قوى ، وانما هو الرصيد الشعرى الهزيل الذى وصلت اليه أيديهم فمعانى المدح التى تعرضــوا لها نبتت فى الأرض الجرداء التى ورثوها ، ومن هنا غامت شخصية الممدوح وراء التقريرية ، والتاريخية وفى الوقت الذى احتفظ لنا فيه هــذا الشعر بملامح عدة أشخاص قليلة . نراه يهمل الجانب الكبير من ملامح الشــعب . هــذه الملامح الحقيقية التى كان يجب أن تتوضح ، وتظهــر .

---

(١) شعراء السودان ٢٨ .

(٢) شعراء السودان ١١ .

(٣) المصدر نفسه ١٤ .

فالشـــاعر هنا لا يمدح ، ولا يرثى ، ولا يصف ولا يؤرخ الا للطبقة العليا من المجتمع . ومن هنا نراه يبالغ ليرضى هذه الطبقة ، وكثيرا ما نراه يهدر كرامته قبل المدحة باعلان الذل فى الهوى ، أو يبدى الخوف والتوسل فى مدائحه النبوية ، والصوفية ، وفى غمار هذا الضياع فقد الشاعر ملكة الابداع الفنى اللهم الا اذا تجاوزنا فى الحكم عن بعض أبيات للشيخ محمد عمر البنا ، وتناسينا فى الوقت نفسه روح « المتنبى » المسيطرة عليه :

قوم اذا حمى الوطيس رأيتهـم ... شم الجبـال وللضـعيف حمـاة
وخلوفهم صدء الدروع لحزمهم ... قتـل الأعـادى عنـدهم عادات
فى السلم تلقاهم ركوعا سـجدا ... أثر السـجود عليهـم وسـمات
وتخالهـم يوم الجـلاء ضراغمـا ... أسـد وأسـل رماحهـم غابات
ركبوا الجيادو غادروا شلو العدى ... رزق النسـور ولحمهـم أقوات
والأرض سـالت بالدماء ومابهـا ... غير الجمـاجم والشـعور نبات

او اذا وقفنـا عند هـذين البيتين وتجاوزنا باقى القصيدة للشيخ ابى القاسم أحمد :

كملت بين الورى أوصـافهـا ... فتصـدت فتنـة للعـالمين
فكأن الله قـد صـورها ... من هوى الأنفس لا ماء وطين (١)

فهم هنا ينطبق عليهم ما جاء فى الموشح من أن شعر الكميت لا يعتد به لأن أى معنى محسوب لمن قبله (٢) لأنهم لا يضيفون الى مايجترونه شيئا من نفوسهم ، ومن تجاربهم الحقيقية ، ومن نبض الحياة من حولهم .

وقد يخطئون فى التعبير عن هـذه المعانى كمحاولة تحويل قصيدة ابن سينا فى النفس الى فكرة المهدية ، وكقول الشيخ الحسين الزهراء فى المهـدى :

---

(١) شعراء السودان ٣٦ .

(٢) الموشح فى مآخذ العلمـاء على الشعراء للمرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (الطبعـة السلفية ١٣٤٣) .

امام الهـدى الهـادى كل مرشد بهامته التـاج النفيس المرصـع
أنادى فلم يذهب ندائى لمذهب شـقائى ولم يجمع شتاتى مجمع
وأثنى لعل الصوت يبلغ أحمـدا فيعـلم ما بى أو يعيـه فيسـمع
تخر له زهـر الدرارى كواسـفا وتنزل من أوج العلا وهى خضع

فالمعروف أن المهدى لم يضع على هامته تاجا نفيسا مرصـعا ، وأن الأحرى بالممدوح سـماع صوت الداعى من أول نداء . أما أن يعيه أولا ثم يسـمع ثانيا فهذا مما يتعجب منـه ، ثم ان صـورة الدرارى وهى تخر كاسفة لها معنى فى الوجدان العربى الاسلامى غير المعنى الذى يقصده الشاعر . حتى انه ليستعاذ من سقوطها ، وتنبت على الفور فكرة رجم الشياطين فى ذهن الكثيرين المعايشين لهذه الفترة .

وقد اخضعوا شعرهم للمعايير الخلقية ، والدينية ، فرأينا مدائحهم الدينية والصوفية ، وتوسلاتهم الكثيرة ، ورأيناهم يناصرون المهدية باسم الدين :

به أخبرت من قبـل وقت ظهوره صحاح رواها هبرزى موضع (١)

ويتأثرون بالمعانى التى وردت فى القرآن والحديث .

فبى من هواها ماينوء بعصـبة أولى قوة لم يستطعه بيـانى
مثلما الجنـــة حفت بالمكـــــاره لكن بهـا حورا وعين (٢)

وقد نظموا عدة أحاديث منها حديث الأسراء (٣) .

وقد ترد بعض التأثرات الفقهية مثل :

أسف على المهدى من مهد الصبا قد كان معصوما عن المحظور (٤)

---

(١) شعراء السودان ١٥ .
(٢) شعراء السودان ٣٤ و ٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ٥٦ .
(٤) المصدر نفسه ٢٧ .

على أن الشعراء أنفسهم يفخرون بهذه الظاهرة فالشيخ الطيب أحمد هاشم يقـــول :

ان سار غيرى للهوان وللهوى فالى العلا والمكرمات أســير
أو سامر الناس الحسان جهالة فسميرى القرآن والتفسير (١)

والشيخ ابراهيم احمد هاشم يقول :

عز الفتى فى طاعـــة الرحمن وكذا التقى شرف الى الانسان
يا نفس حل بك المشيب فراقبى مولاك فى سر وفى اعلان (٢)

والشيخ ابو القاسم أحمد يقول :

وسائل النــاس عنا اننا نجب لناالتقىوسواناااللهوواللعب (٣)

ونحن لا نعيب عليهم هــذا اللون الدينى اذا كان نابعــا من صــدق شعورى ومن عاطفة مؤمنة ، ولكنهم بالغوا فى هــذا اللون حتى صار شيئا بعيدا عن الشعر ، ولعل مبالغتهم هذه هى التى حرمتنا الهجاء فى هــذه الفترة . فنحن لم نعثر فيها الا على قصيدة محمد شريف فى المهدى .

وقد يقعون فى التناقض بسبب التقاليد الشعرية التى تفرض البــدء فى الغزل فبينما الشيخ ابو القاسم يقول :

ما على عشــاقها من حــــرج ان حب الحسن فى الطبع كمين
رحــــم الله أباها انهـــا سلبت عقــلى وخلتنى حزين
ما عليها حــــرج فى ذاك انى لهــا رق ومـمـــلوك يمين
فافعلى ما شـــئت يا أسماء بى فلك الحكم انظرى ما تأمرين

بينما يقول هذا ينتهى الى حقيقة مخالفة ليصل الى المدح :

(١) شعراء السودان ٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ٥٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣٠ .

فطويت الكشح عنهـا والتزمت مديح الشـهم وضاح الجبـين (١)

وقد يقع فى شعرهم التناقض والاحالة كقول الشيخ الحسين الزهراء :

فأجابه أهـل النهى فى طاعـة سفكت بهـا قبل اللقـاء دماء

فمـا دام أهل النهى قد أجابوه فى طاعة فلم تسـفك الدماء منهـم وكيف تسفك الدماء قبل وقوع اللقاء . ولعل هذا البيت يذكرنا ببيت أبى نواس .

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التى لم تخلق

كما يذكرنا بقول عبد الرحمن بن عبيد الله القس :

فانى اذا ما الموت حل بنفسها يزال بنفسى قبل ذاك فأقبـر

وقول قدامة عنه انه شبيه بقولنـا اذا انكسرت الجرة انكسر الكوز قبلهـا (٢) .

وقد يقع فى شعرهم الغموض والتعقيد خاصة ما يتصل بالشـعر الصوفى مثـل :

نهاية أعقال العقـول معـاقل عن الحق فى كن قصرت قصرا
فعش هكذا ما هكذا غير ماترى من الأمر لا ترفع بأمر ترى أمرا
به واحد فيه له وهو صاحب وليس به فيه فلا ترتكب جورا

(و) هم والذى برأ الورى هم لاسوى كل النفوس لهم سواى فـداء
وفدى النفوس انا فانى دونهم بى والذى برأ الورى ادواء

وهكذا نرى الشعر فى هذه الفترة اتباعا ، لايتعمق الوجدان الفردى والاجتماعى ولا يقدم لنا تجارب انسانية صادقة .

فالشعراء جميعا ثقافتهم ضحلة ، وعقلهم متغلب على عواطفهم ومن هنا نراهم قد قصروا فى تصوير واقعهم الاجتماعى والنفسى .

---

(١) شعراء السودان ٣٦ .
(٢) نقد الشعر لقدامه ٨١ .

أساليبه وألفاظه وأخيلته

— ٣ —

(١) حافظ الشعراء فى هذه الفترة على الوزن الشعرى . فهم مأخوذون بالنغمات العربية القديمة ، وهم يميلون الى الترنيم والانشاد ، ويغلب عليهم الانفعال « ويظهر أن الوزن ظاهرة طبيعية للعبارة ما دامت تؤدى معنى انفعاليا . فقد ثبت فى علم النفس أن الانسان حين يملكه انفعال تبدو عليه ظاهرات جثمانية عملية .. فاللغة التى تصور هذا الانفعال لابد أن تكون موزونة . ذات مظاهر لفظية متباينة لتلائم معناها وتكون صداه الصحيح (١) » وهناك من يربط بين وزن الشعر ونبض القلب (٢) ويستطيع الذى يسمع الى موسيقاهم ادراك هذه الحقيقة فهى ليست الا مجموعة من الكتل الصوتية المتشابهة المتكررة . ومن المقرر « أن أوزان الموسيقا والعروض تعود الى أصل واحد من حيث الكم والكيف على تفاوت بينهما فتعقيد وكثرة فى الأولى لكثرة ألحانها ، وبساطة وقلة فى الثانية لقيامها على الكلمات ذات الحركات الواضحة المتمايزة (٣) » .

.. وكما اهتم الشعراء بالأوزان العروضية نراهم قد اهتموا كذلك بالقافية باعتبارها « لازمة موسيقية »

وقد رأينا بعضهم تفتنه الموسيقى فينظم من الشعر ما يمكن قراءته مجزوءا وكاملا مع الاحتفاظ « بالقافية الداخلية » كقول الشيخ الأمين محمد الضرير .

حمدا لمن أبدى لنا سبحانه   من أمننا بهداه اذ قد صانه

---

(١) الاسلوب للاستاذ أحمد الشايب ٥٨ .

(٢) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس ١٧١ .

(٣) أصول النقد الادبى للأستاذ أحمد الشايب ص ٣٢٠ .

نسبا صريحا عن خنـــا ومكانه   فى القرب لم يدرك رسول ذو ثنا

وتمكن قراءة البيتين وكذلك باقى القصيدة هكذا :

حمـــدا لمن أبدى لنـــا   ســبحانه من أمنـــا
بهـــداه اذ قد صـــانه   نسبا صريحـــا عن خنى
ومكانه فى القـــرب لم   يدرك رسول ذو ثنا (١)

وقد أدرك العرب بعض خصائص البحور . ذلك لأن نقادهم قـــد اهتدوا الى أن الوزن الطويل أملأ للفم والسمع ، وأعظم هيبة فى النفس والصدر ، وأن بحر المتقارب مرقص ، وأن الهزج يصـــلح كل الصـــلاحية للغناء ، وأن الرمل يصلح النطق به (٢) وتعتبر أول محاولة جادة لهذه الفكرة دراسة البستانى فى مقدمة ترجمته للالياذة .

على أنا نلمس عادة أن الشاعر فى يأسه وجزعه يتخير وزنا طويلا كثير المقاطيع ، وفى هلعه واضطرابه يتخير وزنا قصيرا متلائما مع سرعة أنفاسه وسرعة خفقان قلبه كما هو الحال فى الرثاء الصادق السريع ، والتجربة الوجدانية العنيفة . وحين يكون بين الهدوء والانفعال يختار وزنا وسطا

« فالطويل يتسع لكثير من المعانى واكمالها فلذلك يكثر فى الفخر والحماسة والوصف والتاريخ ، ومنه معلقات امرىء القيس وزهير وطرفه ولامية الشنفرى . البسيط يقرب من الطويل وان كان لا يتســـع مثله لاستيعاب المعانى ولا يلين لينـــه للتصرف بالتراكيب مع تساوى أجـــزاء البحرين ولكنه يفوقه رقة وجزالة ولهذا قل فى الجاهلية وكثر فى شـــعر المولدين والكامل أتم الأبحر السباعية يصلح لأكثر الموضـــوعات ، وهو فى الخبر أجود منه فى الانشاء وأقرب الى الرقة واذا دخله الحذذ جاء نظمه مطربا مرقصا وكانت به نبرة تهيج العاطفة .. والوافر ألين البحور يشتد اذا شددته ويرق اذا رققته ، وأكثر ما يجود به النظم فى الفخـــر

(١) شعراء السودان ٢٥ .

(٢) اسس النقد الادبى عند العرب للدكتور احمد بدوى ٣٢٠ .

كمعلقة عمرو بن كلثوم ، وفيه تجود المراثى . والخفيف أخف البحور على الطبع وأطلاها للسمع .. والرمل بحر الرقة فيجود نظمه فى الأحزان والأفراح والزهريات .. والسريع يحسن فيه الوصف ، وتمثيل العواطف الفياضة .. والمتقارب يجر فيه رنة ونغمة مطربة على شدة مأنوسة وهو أصلح للعنف (١) والسير السريع .. والمتدارك يصلح لزحف جيش أو وقع مطر أو سلاح والرجز صالح لنظم العلوم » .

ويشترط فى القافية أن تكون متمكنة بمعنى أن البيت ينتظرها وأن تكون عذبة . سلسلة المخرج موسيقية مناسبة للجو العام فى القصيدة ، وللفكرة المنظومة ، ويرى المولدون فيها أن يكون فى البيت ما يدل عليها ، ويسمون ذلك التصدير حينا ، ورد العجز على الصدر حينا آخر (٢) .

فالجمال الموسيقى يخضع للقاعدة العامة فى حقيقة الجمال ، وهى أنه انسجام موضوعى يرتبط به انسجام ذاتى (٣) .

ونحن اذا طبقنا هذه الأصول على الشعر فى هذه الفترة وجدناه يستقيم فى بعضها وينحرف فى بعضها الآخر لأن أكثر الشعر فى هذه الفترة كان شعرا تقليديا لا يصدر عن تجارب صادقة . فأكثر الشعر فى هذه الفترة يظهر فى الكامل ، والطويل ، والبسيط ، وأكثر المدائح تأتى من الكامل ، ومن الطويل .

وقد يأتى الشاعر بالقافية فى كلمة زائدة أو يضعها فى غير مكانها ، أو يكون وجودها خطأ :

---

(١) أصول النقد الادبى ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) أسس النقد الادبى عند العرب ٣٢٢ ــ ٣٢٥ .

(٣) الاصول الفنية للادب للأستاذ عبد الحميد حسن ص ٣٠ .

من يحفظ الأخبار من أهل النهى وتعين ذلك فطنة وذكاء
ويرى القبيح بداية ونهاية ويروم أحسن ما الاله يشاء
وسقته من خمر الهوى بعيونها ولمى ثغور شفاهها لمياء (١)

وقد شطروا (٢) ، وخمسوا ، ومن تخميسهم قول الشيخ محمد طاهر:

ما ان كست بكئوس للهوى يدها ولا ألم بها وجد فأوجدها
ولا الحنين عن الأوطان أبعدها لكنها علمت وجدى فأوجدها
شوقا الى الشام أبكانى وأبكاها (٣)

.. ومهما يكن من شيء فالموسيقى الداخلية والخارجية للقصيدة فى هذه الفترة موسيقى راكدة لا تتلون بالأحداث ، ولا تهيء الجو العام للمضمون الا فى القليل ، لأن الشاعر لم ينضج فى نفسه « التصميم الموسيقى » الذى ينبع من نفس العاطفة الجياشة .

وقد اهتم الشعراء بمطالع قصائدهم ، وتارة كان يسلم لهم حسن التخلص كقول الشيخ « أبو القاسم » :

والعشق صعب لا يطيق صروفه الا الذى لعذابه يستعذب
وأنا بجاهك يا رسول الله أر جو أنأكون منالألى لكحببوا (٤)

وقد لا يوفق الشاعر كقول الشيخ عمر الأزهرى منتقلا من الغزل الى المدح :

يفندنى فيه العزول ومادرى بأن سناه ضوء سود الغياهب
وحبى له لم يخف فى الكون أمره كحب العلا مصباح أفق الجوائب
هو الماجد المفضال أحمد من دعا بفارس ميدان الوغى فى الكتائب(٥)

وقد كانوا لا يهتمون بحسن المقطع أو حسن الخاتمة بسبب دعائهم

---

(١) شعراء السودان ٨ ، ٩ .
(٢) المصدر نفسه ٤٦ .
(٣) ديوان الشيخ المجذوب ٣٠٧ .
(٤) شعراء السودان ٣٣ .
(٥) المصدر نفسه ٢٥٨ .

فى غالب الأمر لأنفسهم فى نهاية القصائد . وبالصلاة على النبى ، وبهـذا التأريخ الذى قد شـغلوا به ، وان كانت بعض القصائد قد سلمت لهـا الخاتمة الحسنة . وقد وفق الشيخ الحسين الزهراء حين بدأ قصيدته التى يقول فيها « برح الخفا ما الحق فيه خفاء » ثم ختم القصيدة بنفس المقطع. وقد اهتموا بوحدة البيت ، والوقوف بالقافية « كالقفل » فى نهايته حتى لا يتعلق معنى بمعنى أما القصيدة نفسها فلم تعرف الوحدة المعنوية الا فى النادر بمعنى أن تكون القصـيدة كلهـا ذات موضوع واحد لا عددا من الموضوعات ، ومن الطبيعى الا نطالبهم بالوحدة العضوية « فطبيعة الشعر الوجدانى أن يكون انفعالات يتلو بعضها بعضا وليس انفعـالا واحدا متصلا ، وذلك لتعدد الانفاعالات وتبيانها نوعا وقوة وضعفا ، ولم تتحقق الوحدة العضوية أبدا فى الشعر الوجدانى لدى أى شاعر من شعراء العالم ، اللهم الا اذا نظمها على طريقة القصة فهنا فقط يجوز أن تتحقق ، وفى شعرنا القديم حتى الجاهلى منه أمثلة عدة لوحدة القصيدة اذا جاءت قصة(١) » .

واذا كان وضوح الأساليب يعتمـد على فهم الشاعر لما يريد أداءه ، وعلى طريقـة الأداء نفسـها ، فانا نرى أن الشعراء قد كانوا فاهمين لما يريدون قوله ما دام يتصل بالحياة البسيطة التى يحيونها . أما ما كان يتصل بأمور ضخمة كفكرة المهدية ، وتصديقها ، وكحقائق التصوف وما يدور حوله فانا نرى أكثرهم لم يستطع توضيح هاتين الفكرتين لأن جل همهم كان يدور حول الأحاديث والأخبار ، والمنشورات التى كانت تتحدث عن المهدى ، والمهدية ، أما حقيقة المهدية والاهتداء الى حقيقتها فقـد كانت شيئا أكبر من عقولهم . وكذلك كان الأمر فى حقائق التصرف .

أما طريقة الاداء فقـد كانت قاصرة عن حمـل ما يحسونه به . لأن رصيدهم الثقافى كان ضئيلا وهزيلا فى الوقت نفسه .

ومن ذلك نراهم لم يلتزموا الدقة ، ووضـوح الفـكرة فى كثير من شعرهم .

---

(١) دراسات أدبية جـ ١ ص ٢٤٩ ، فى الادب الحديث جـ ٢ ص ٢٣٧ للاستاذ عمر الدسوقى

وكذلك نرى أن قوة الأسلوب الشعرى لم تتوفر فى الكثير فيما قاله الشعراء فشعرهم يكاد يكون خاليا من التركيبات الموحية ، والمحددة ، والمصورة ، ونستطيع أن نرى هذا فى قولهم .

يا ابن النبى محمد ووليه — وأمينه ماذا اليك مراء
أنا عبد عبد أستعيذ بذمتى — أبدا اليك ولى هنا أعداء

(و) قرأت كتاب الكائنات مسطرا — فلم استفد منه سوى واحد سطرا!
مجيد القوافى الحاسرات وجوهها — من الذل يا ابن العزيعزى الى (زهرا)

ويا طيبا من طيبة طابت سجا — ياه الى الانشاد والانشاء

لقد صغت نعتا من محاسن وصفكم — أجل على ذاتى وأكبر من قدرى
ويعرف أهل الفضل من هو أهله — ومن لم يكن للفضل أهلا فلا يدرى(١)

ومن هنا فقد كان الأسلوب حائلا ليس فيه هذا التركيب العضوى بين اللفظ والمعنى وليست فيه هذه الموسيقى الممتدة الملائمة للجو العام للقصيدة بسبب أخذهم أنفسهم بألوان من التكلف ، ولضعف هذا الصدق الشعورى الذى يخرج القصيدة المتلاحمة لفظا ومعنى وموسيقى ، وبتركيزهم على اللغة المجردة ووقوفهم عند حد الهندسة الخارجية للقصيدة ، ونستطيع أن نرى هذا فى قولهم :

لهتهم لهى ماليس فيهن طائل — وعلقمها فى كل طبع مقنع
قصور وحور والحبور ونعمة — ومال وآمال وخير منوع
وهاك وخذ منى ودونك واغتبط — بما تبتغى عفوا فأنت مشفع

نهاية أعقال العقول معاقل — عن الحق فى كن قصرت قصرا

ويريكه برا كريما عالما — فطنا وحبرا للعلوم يحبر (٢)

---

(١) شعراء السودان ١٠ ، ١٨ ، ٦١ ، ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ١٥ ، ١٧ ، ٥١ .

(ب)

للشعر لغة خاصة به . فليس كل كلام يصح أن يقال فى الشعر . لأن الكلمة فيه يجب أن يكون لها ايحاء ، وظلال ، فقد تدل على صوت أو لون أو حالة نفسية خاصة .

واذا كنا نعرف أن الكلمة تتلاحم مع المعنى تلاحمـا عضويا ، وأن الشاعر يستطيع أن يحركها وأن يلونها . فليس معنى هذا أن كل كلام يصح أن يكون شعرا . واذا طبقنا هذا الكلام على الفترة التى تتحدث عنهـا وجدنا أن هذا الحس اللغوى المرهف لم يكن موجودا دائما ، ومن هنا فقد استعملوا كلمات لاطاقة شعورية لها ، ولا ظلال ، ولا ايحاء ، ولا صدقا لغويا مثل : كذا ، لم لا ، صنف ، حذافير ، ومزية كما اسـتعملوا بعض الألفاظ الفقهية وأكثروا من الألفاظ المصغرة ، وقصر الممدود ، ومد المقصور ، والاتيان بالأبنية الشاذة وتخفف الهمزة الى ياء ، كمـا قـد تحـذف بعض الحروف ، كما أنها كانت تفقد التركيز والدقة والنضارة وحيوية الايقاع مثل :

كذا آل وأصحاب كرام .

والسـعد خـادمه فى كل آونة	لم لا وذا منبع الاحسـان ماطره
سامت به مصر أفلاك السماء علا	لم لا وفيهـا ملاك الأمر طاهره
والناس صـنفان مدحور ومدخر	وأنت ذخر لريب الدهـر مدخـر
جمعت حـذافير الولاء لنـابه	وعلى الجميع من الامام خباء
ونكون دون الدون من بين الورى	كلتا يدى احسـاتنا خرقـاء
والاقتحـام الى العـدو مـزية	لا يسـتطاع لنيلهـا غايات
جهـل الولاة أمات دين محمـد	وأهيله ماتوا وهم أحيـاء
ورقى الى كرسـيه متسـنما	فى مشـهد بالأوليـا معمـور
ما ان ترى الا جميـلا زاهـرا	بهـرته فى حلل البهـا زهـراء
ان كنت من أنصـار مهـدينا لنا	مهدى الورى من فاض عنه هداء

أرضى وترضون الضلال بعيد ما ظهر الهـدى وانجـاب عنه قذاء

مدايحـــى لمحمـــد مهـــدى المكارم للعبـــاد

هم كالنجوم هدى وفي الجدوى ندى بل الصـدى ما بعـدهم اظماء
ودار أفـلاك العـلا دارت على أقطابهـا فزهت بهـا العليـــاء

أسف على المهدى من مهد الصبا قد كان «معصوما» عن «المحظور»

وقد لا تتبع القافية حالة واحدة من وجهة النظر الأعرابية مثل :

تسقى بعـذب رائق من أبحـر من فيضها ملأ البحـــور الماء
وهمى وجاد على الأنام بما ترى من غيثه الهامى عميم سماء (١)

ولم ينس الشعراء البديع اللفظى ذا الصلة القوية بموسيقى الألفاظ « فهو ليس فى الحقيقة الا تفننا فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى ، وحتى يسترعى الآذان بألفـاظه كما يسترعى القلوب والعقول بمعانيه . فهو مهارة فى نسج الكلمات وبراعة فى ترتيبها وتنسيقها » (٢) ، وقد استعملوه تاما وناقصا مثل :

الود مأدبة والصدق اخوان(٣) والصادقون لدى الآداب اخوان

فجاء غريبا ، لعدم استعمال كلمة اخوان فى خوان كثيرا ، وقد يستقيم لهم مثل :

عمر فؤادك بالتقى يا صـــاح فعســاك تحظى بالمنى يا صاح

ومن الجناس الناقص قولهم :

ويرد أشـكال الأمور لشكلها ولها عليه من الثناء سـناء (٤)

وقد أخذ الدكتور ابراهيم أنيس على عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة أنه لم يعترف لصاحبه بفضل وأن الأمر كله يجب أن يكون مرجعه للمعنى « فهو ينكر الجمـال فى جرس » الألفاظ ويرجـع سر الجمال فى

(١) نفثات ١٠٧ ، ١٠٩ ، ٨٦ ، ٨١ ، شعراء السودان ٨ ، ٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨ ، ٥٩ ، ١٢ .
(٢) موسيقى الشعر ٣٩ .
(٣) لغة فى خوان .
(٤) شعراء السودان ٢٠ ، ٥٦ ، ٩ .

الكلمة أو الكلام الى دلالة الألفاظ . ولا شك أن عبد القاهر قد بالغ فى هذا مبالغة غير محمودة (١) والذى نعرفه أن هذه الزخارف اللفظية مهارات عقلية لا تتمشى فى الكثير من أمورها مع الانفعال ، وأنه لم يوجد البيت الخالد المثقل بهذه الزينة الخارجية وأنها لا تأتى للشاعر الا بانقطاع خيطه الشعورى ، وأن العناية بهذه الألوان الفنية قد أحالت الشعر العربى الى ما يشبه فن « الأرابيسك » القائم على تكرار الوحدة الفنية الواحدة وتعرجها .

.. ومن البديع اللفظى أيضا ما يعرف برد العجز على الصدر ومنه قول الشيخ الطيب أحمد هاشم مقرظا كتاب الدر المخزون :

زالت شواغل قلب كان محزونا لما رأيت كتاب الدر مخزونا

وكقول الشيخ ابراهيم أحمد هاشم :

لك الحمد يا مولاى ما عشت فى الدهر
لك الحمد فى المسعى لك الحمد بالشكر (٢)

وقد نرى فى شعرهم تكرارا مسجوعا مثل :

فالأمر جد والقلوب مريضة والداء داء والدواء دواء
بمكانه الأمن المؤيد وقته والأرض أرض والسماء سماء

وهو ما يسمونه « بالمشطر » .

وقد توجد بجوار القافية الخارجية قافية أخرى داخلية . وهذا ما يطلق عليه اسم « التشريع » ومنه قول الشيخ الأمين الضرير :

حمدا لمن أبدى لنا سبحانه
من أمنا . بهداه اذ قد صانه
نسبا صريحا عن خنى . ولذا جرى
ومكانه فى القرب لم يدرك رسول ذو ثنا (٣)

---

(١) موسيقى الشعر ص ٤٠

(٢) شعراء السودان ٦١ ، ٦٣ ، ٧ ، ٢٨ ، ٢٥

(٣) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ص ٩٨ ، ١٠٣

وقد وجدت فى شعرهم بعض الألفاظ المجهدة التى فقدت بريقها من كثرة الاستعمال مثل الغزال ، واللحظ والصبا ، واللمياء ، وذكاء ، وأسد ، والولاء ، والبرق ، والعقيق ، لعلع ، وقد ترتب على هـذا عدم وجود أسلوب خاص فى هذه الفترة لشاعر من الشعراء ، فلم يكن هناك الشاعر الذى يعطيها دلالات جديدة ، والذى يحركها بحيث يجعلها « محور قصيدة كاملة » ، ويجعل كل شىء فيها يخدم الخواطر والأفكار التى تشع منها ، كما فعل « تنيسون » بكلمة هادى Calm فى القصيدة الحادية عشرة من قصائد الذكرى ، أو الذى يهشمها ويحرقها ثم يخلق منها شيئا جديدا .

(ج) أخيلة الشعر فى هذه الفترة جرت مجرى الأخيلة فى الأدب العربى عامة . هذا الأدب الذى يرفل فى حلل من الخيال البيانى أو التفسيرى Interpretative ويعتمد على تفسير الأشياء أكثر من اعتماده على وصفها . فالشاعر هنا لا يعتمد على اخراج تجاربه فى صورة جديدة ، كما هو الحال فى الخيال الابتكارى ، ولا يجمع بين الأفكار والصور المتناسبة المنتهية الى أصل عاطفى واحد صحيح (١) .

فالخيال هنا يقوم على توضيح لجزئيات الفكرة العامة فى الجملة أو ما يشبه الجملة كما يقوم على المحسنات المعتمدة على تداعى المعانى فى أكثر الأمر كالمجاز المرسل ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية .

وقد ذكر الدكتور احسان عباس أن « من العبث أن يعرض النقد لهذا الشعر عرضا تحليليا من حيث أفكاره وأخيلته وتعابيره ، فانه صورة واضحة للقصور فى كل النواحى (٢) »

ومهما يكن من شىء فيمكن أن نلقى بعض الصور البيانية كقول الشيخ الحسين الزهراء :

وسموا خراطيم الشقا بحـوازم   يبض بكت آثارها بيضـــاء

---

(١) أصول النقد الادبى ٢١٧ .

(٢) القلم الجديد العدد ٧ السنة الاولى سنة ١٩٥٣ .

هم كالنجوم هدى وفى الجدوى ندى　　بل الصدى ما بعدهم اظماء

وكقول الشيخ عمر الأزهرى :

وكم اتقى كسر الجفون لأنها　　أعدت لتفريق السهام الصوائب
اذا ضل عقلى فى ظلام شعوره　　هدانى محيا منه مصباح راهب

وكقول الشيخ محمد عمر البنا :

وخلوفهم صدأ الدروع لحزمهم　　قتل الأعادى عندهم عادات
وتخالهم يوم الجلاد ضراغما　　أسدا وأسل رماحهم غابات
والخيل ترقص بالكماة كأنها　　تختال فى ميدانها فتيات
والأرض سالت بالدماء وما بها　　غير الجماجم والشعور نبات (١)

فمن هذا وغيره نرى الاعتماد على التشبيه والاستعارة المبالغ فيهما ، ومع أن بعضها قد يسلم حين تنظر لكل منهما على حدة ، الا أننا نرى هذه الخاصية سرعان ما تزول حين تنظر اليهما فى الاطار العام الذى سيجتمع فيه الأسد والبحر والخيل والفتيات والشعر والنبات مما تفقد معه المنطق الشعرى ، فاذا أضفنا الى هذا أن هذه « الصور البيانية » تقف عند حدودها عاجزة عن الايحاء والرمز ، وقد تكون متخاصمة مع « الايقاع » .. أدركنا أن أكثرها لا يخدم التدفق الشعرى ، ولا يساعد على التحليق الا فى أماكن قريبة من الأرض .

---

(١) شعراء السودان ١١ ، ٢٥٨ ، ٢٧٦

الخصائص الفنية

(٤)

جرى شعراء هذه الفترة فى مضمار التقليد . فلم يضيفوا شيئا الى التراث الشعرى الا هذه النماذج العليلة . ولكنه يصور لنا ثقافة العصر ويعكسها . فالظلال الدينية ، والصوفية ترى واضحة فى نتاج هذه الفترة . كل النتاج . حتى فى الغزل نستطيع أن نلمح هذه الظاهرة :

فبى من هواها ما ينوء بعصبة   أولى قوة لم يستطعه يبانى

مثلما الجنة حفت بالمكا   ره لكن بها حورا وعين

قديما أرتنا من وراء خبائها   ستور رسوم لم تزل للعلا سترا

وقد وضحوا على قدر فهمهم فكرة المهدية التى تمتد بجذورها الى الشيعة ومن هنا نستطيع أن نقول ان جانبا كبيرا من شعر هذه الفترة شعر شيعى . بعد أن مزجوه بمعتقداتهم الدينية . فهم هنا « شعراء ملتزمون » .

وقد نقل الينا هذا الشعر جانبا من العلوم والأفكار التى كانت سائدة فجاء فى شعرهم مصطلح الحديث ، ورجاله ، وتاريخ السمرقندى ، ودراسة فى الميراث ، وتعداد سور القرآن ، وذكر لأسماء الأولياء ، ومصطلحات الفقه كما بينا من قبل .

ولما كانت الثقافة التى تصل الى أيديهم هى ثقافة التخلف الشعرى رأيناهم يحاكونها فى ضروب المحسنات ، والتأريخ ، والتشطير ، والتضمين ، وذكر أسمائهم .. الخ هذه الأغراض الدخيلة على الشعر فالثقافة الخصبة للنماذج العربية لم تصل الى أيديهم ، واذا وصلت فشىء هين لا يستطيع احياء هذا الجمود النفسى الذى كان يسيطر على البلاد ، والذى كان المثل الكامل للقصيدة فى هذه الفترة أن تكون موزونة مقفاة ..

(١) شعراء السودان ٣٦ ، ٣٧ ، ١٧ .

وقد كان لجفاف عواطفهم ، وجفاف الحياة من حولهم أثر لهذه النماذج التقليدية المشوهة التى لا تستطيع أن تلمح من خلالها شيئا لامعا يضيف الى التراث الشعرى شيئا جديدا ، فالمضون تقليــدى فى كل شىء يدور حوله ، والشكل أعمق فى التقليد . فالتراث فى هذه الفترة عصير للتراث القديم المشوه ، لا شخصية له ، ولا حرارة ولا عمق ولا سند من علم أو فلسفة . ومن هنا فلا تحس لشاعر منهم طعما خاصا . ولا شخصية متميزة عن شخصية معاصرة له .

وقد تميزت قصائد هذا العصر بالطول الممل ، ووحدة البيت ، وحشد أكثر من فكرة فى الاطار العام للقصيدة .

أشهر الشعراء

في هذه الفترة

- الشيخ الحسين الزهراء
- الشيخ يحيى السلاوي
- الشيخ عمر الازهري
- الشيخ محمد الطاهر المجذوب

الفصل الثالث

(١) « الشيخ الحسين الزهراء »

ولد حوالى (١٢٤٨ – ١٨٣٣) بقرية « واد شعير » بالقرب من « المسلمية » جنوب الخرطوم . من أبوين عباسيين وتوفى عام ١٨٩٥ ، وقد حفظ القرآن ، وتلقى مبادىء التعليم الدينى التى كانت شائعة فى هذه الفترة ، ولكنه كان طموحا فى مواصلة تعليمه . فما كاد يبلغ العشرين من عمره حتى سافر الى القاهرة والتحق بالأزهر . وظل يباشر الدروس التى كانت تلقى فى الأزهر مدة سبع سنوات . وقد أبدى استعدادا طيبا فى التحصيل مما جعل علماء الأزهر يثنون عليه حتى ليقول أحدهم انه لم ير سودانيا يماثله فى الذكاء (١) .

وحين رجع الى بلاده أسهم فى عملية التعليم بها فجعل من قريته كعبة لطلبة العلم الذين تكاثروا لتلقى العلم عليه . فلما قامت الثورة المهدية جعل نفسه داعيا من دعاتها حتى لقد أصبح من أهم الدعاة فى جزيرة « سنار » . فقد أصدر عدة نشرات سرية للحض على الثورة والالتفاف حول فكرة المهدية ، وجعل من شعره لسانا للثورة . وقد كان طموحا يريد أن يتبوأ المكان اللائق به ، ولكن الثورة كانت تضم الكثير من الانتهازيين . فناصب هؤلاء « الزاحفين » العداء وعرض بمن بيدهم الأمر .

جهل الدعاة (٢) أمات دين محمد وأهيله ماتوا وهم أحياء
وتراكمت ظلماتهم بين الورى لما اطمأن لهم ودام ولاء

واستقر به المقام فى قريته ، ولكن الخليفة حين آلت الأمور اليه استقدمه ليقرأ درسين فى الحديث ، والميراث . وظل يباشر هذه المهنة التعليمية الى

---

(١) شعراء السودان ص ٦ .

(٢) فى رواية أخرى جهل الولاة ...

أن تولى القضاء خلفا للقاضى أحمد بن على ، ولقب بقاضى الاسلام . وظل فى منصبه الى أن أفتى فى احدى القضايا بما يتفق والشرع ويخالف الخليفة وسياسته . فوقع بينهما الجفاء ، وزج به فى السجن الى أن مات ويقال ان الخليفة منع عنه الطعام والشراب حتى لاقى حتفه (١) .

ويعتبر شعر الشيخ الحسين خليطا بين السياسة ، والدين ، والتصوف . وقد كان يهتم بالمضمون أكثر من اهتمامه بالشكل ، ومن هنا فلم يثقل شعره بهذه المحسنات التى كانت شائعة فى عصره ، وان كان قد راعى النغم الموسيقى مضحيا فى سبيل ذلك بالكثير من القواعد النحوية والصرفية كما سبق أن بينا .

ومن أشهر قصائده تلك القصيدة التى تبلغ ١١٢ بيتا ، والتى ختمها بنفس الشطرة الاولى ، وتنقل فيها بين الحكمة ، وفكرة المهدية ودعوة العلماء المعاندين الى دخولها ، والسخرية من بعض القائمين بأمور المهدية والتسجيل لحملة الجنرال هكس ، والتصوير لأسلحة الحرب الجديدة ، ومدح المهدى ، والصلاة على النبى ، والتى بدأها بقوله :

برح الخفا ما الحق فيـه خفاء	وتوالت الآيات والأنبـاء
فالامر جد والقلوب مريضـة	والداء داء والـدواء دواء
والحادثات مصـاعق بمنابر	بعظاتهـا تتواضـع الأشـياء
والحق أظهر أن يرى بشواهد	لم لا وقـد قامت به الأسـماء

فالشاعر وان سلم له الوزن والقافية . وان كان قد أتى بها مكسورة فى أحد أبيات هـذه القصيدة الا أن العاطفة فيه هادئة ، ومرفودة بثقافة جامدة ، وقد تكرر بعض الحروف فى قصائده فيتعثر النطق بها مثل قوله :

مجيد القوافى الحاسرات وجوهها	من الذل يابن العز يعزى الى (زهرا)
نهـاية أعقـال العقول معـاقل	*عن الحق فى كن قصرت قصـرا*

كما قد تتعثر عليه الفكرة فيصعب جلاؤها

---

(١) شعراء السودان ٦ ، ٧ ، نفثات ٨٨ ، ٨٩

(٢) شعراء السودان ٧ .

هم والذى برأ الورى هم لاسوى   كل النفوس لهم ســـواى فداء
وفدى النفوس أنا فانى دونهـــم   بى والذى برأ الــورى أدواء (١)

وقد يخلط بين فكرة وفكرة كما خلط بين المهدية وقصيدة ابن سينا فى النفس كما ذكرنا من قبــل ، كما كان يخلط بين فكرة التصــوف ، وفكرة المدح

توجه ومنه السير سر فيه تنتهى   اليــه فلولاه البسيطة بلقــع (٢)

وقد ينقل المدحة النبوية ، والاشارات الصوفية ويمزجهما معا كما فعل فى مدح المهدى « ولو سلم له قسط كبير من قوة الأسلوب ــ فهــو على حظ لابأس به من الثقافة ــ لكان شعره هذا أول استقلال فى الطابع العام للشعر السودانى » (٣)

ومما يدل على هذه الظاهرة مدحته التى رفعها الى المهدى والتى مطلعها

أهاجك وصـــل بالأباطح يلمــع   لهـــا فيه ماشـــاء السراب الملمع
أم البرق فى شـــطر العقيق ولعلع   فهاجك يا هذا العقيــق ولعلع (٤)

وقد ينجح فى رسم جوانب من اللوحة فى بيت أو بيتين ولكنه مايلبث أن يقفز الى صـــورة أخرى أو يسترسل فى رسم الصـــورة فى ضحالة ، وسردية ويظهر هذا فى وصفه لجيش المهدى :

مهج تقعقع فى شتات جســـومها   فكأنها بنشـــيدها أعـــواد
قضب يحــرك معبـــد أوتارها   يزهى به الانشـــاء والانشـــاد
وكأنها يوم الوغى فى كربهـــا   بخطوبه تخطــو بهــا الآســاد
بين الرقاق البيض والسمر القنـــا   بحلومهـــا تراقص العبـــاد
طربا يفوق على الشـــمول لمامة   ثم لا وكيف وفى العيون سعاد (٥)

وهكذا أدى الشيخ الحسين الزهراء دوره بامكانياته المتواضعة ويعتبر

---

(١) شعراء السودان ١٧ ، ١٨
(٢) المصدر نفسه ١٢
(٣) القلم الجديد ع ٧ س ١ سنة ١٩٥٢
(٤) نفثات ١٤ ــ ١٩
(٥) شعراء السودان ص ١٣

من شعراء العصر الأول فى هذه الفترة . هؤلاء الشعراء الذين كانت طاقتهم خامدة ، وكانوا يعيشون فى قلق دائم ، ومن هنا ظهر هذا القلق فى شعرهم وما هذا الانتقال السريع من غرض الى غرض الا بعض آثار هذا العصر القلق . وما هذه الضحالة فى العواطف والأفكار الا صدى لهذا المجتمع الخالى من التقدم فى العلوم ، والفنون والأداب ، ذلك لأن الثقافة التى كانت تصبغه كانت ثقافة دينية صوفية غير خالية هى الأخرى من الكثير من الخرافات ، والتقاليد الجامدة .

الشيخ يحيى السلاوى

(٢)

ولد هذا الشاعر بالخرطوم (١٢٦٢ ـ ١٨٤٦) فى بيت مشهور بالعلم والتدين . فوالده الشيخ عبد الغنى قاضى مديرية دنقلا فى عهد الحكم التركى والذى انضم الى المهدية وله فى مدح المهدى شعر كثير ، والذى يقال ان له حاشية على تفسير البيضاوى . وقد تلقى العلم على والده ، وأصبح من المبرزين فيه . ولما قامت الثورة العرابية بمصر (١٢٩٨ـ١٨٨١!) أسرع الى مصطفى باشا « ياور مديرية دنقلا » مطالبا اياه بترحيله الى مصر ليكون بجانب هذه الثورة . فلما لم يهتم به مصطفى باشا أبرق الى محمد رءوف باشا حكمدار السودان بالبرقية الآتية :

مولاى عـــز ترحـــلى وغدوت مقصـــوص الجناح
فأرش جناحى مثلمـــــا عودتنيه ولا جنـــــاح

وما كادت تصل هذه البرقية الى الحـكمدار حتى أبرق بدوره الى مصطفى باشا ليخلى سبيله ، ويقوم بترحيله على نفقة الحكومة الى القاهرة وما كاد يصل الى القاهرة ، ويشاهد الحماسة التى تدور فى أعماق المصريين حتى ألقى بنفسه فى غمارها ، واتصل بأحمد عرابى فأحبه ، وقربه اليه وطلب منه مناصرة الثورة بشعره . فما كان من الشيخ يحيى الا أن نظم قصيدته البائية المشهورة من ٩٩ بيتا « وقد كان من أهمية هذه القصيدة أن طبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة كل نسـخة منها بجنيه

ذهبا (١) » ويجمل بنا أن ننقل بعضها لأنها تعتبر وثيقة حية لتأريخ الثورة العرابية ، وانفعالا قويا بها . حتى لنعتبرها من الشعر الجيد الذى قيل فى الثورة العرابية .

شغل العـدا بتشتت الأحزاب ... والله ناصرنا بسيف عرابى
والقطر فيه من الرجال كفاءة ... للحادثات فهم أولوا الألباب
وحمية الاسلام تقضى بالوفا ... حتما على كل امرىء أواب
ومحبة الوطن العزيز تحثهم ... والفتح اذن باتباع صواب
والمشركون خواسر فى سعيهم ... هزموا وقد نكصوا على الأعقاب
هيا بنا يا أهل مصر الى الرضا ... والفوز فى العقبى بغير حساب
أنتم أولو الهمم التى بسهامها ... كم من عدو آب شر ايـاب
أنتم ولاة المجد أرباب النهى ... والحر يظهر عند صدم مصاب
لاتشغلنكم الحياة فانها ... ذل لمن يرضى بهتك جناب
ولقد يرى اخواننا فى حالة ... تحتاج للاعوان والأصحاب
أعنى عساكرنا الكرام ومن أتوا ... متطوعين لهم من الأعراب
والعاملين لهذه الخيرات من ... عمد البلاد وسائر الأحباب
حسب الاعانة فى الأفاضل قدوة ... شمس المفاخر شيخنا «الانبابى»
فعل الجميل ولم يكن فى فعله ... هذا بمفتخر ولا مرتاب
وجناب قاضى مصر سيف شريعة ... يسطو على كل امرىء متغابى
ومحقق الفتوى محرر مذهب النعمان بالايضاح للطلاب
والسيد البكرى تاج نقابة الأشراف ... أهل المجد والأنساب
والخيرة السادات بيت مناقب ... عقدت لها العليا رفيع قباب
والهجرسى له سوابق همة ... جمعت نظام الفخر والآداب
أنعم بطائفة التجار وقل لهم ... شكرت أياديكم كغيث سحاب
واذكر لتميم الكرام فتى من الجيزا ... وذاك محمد بن عرابى

---

(١) نفثات اليراع ٨٢ .

وأفاضل بذلوا الاعانة غيرهم ... فى حصرهم نصب على الكتاب
نعم «البرنسات» الكرام ومالهم ... فى الدهر من شرف ومن آداب
جمعوا بتنظيماتهم شمل الورى ... من بعد ما انحلت عرى النواب
.. هو من علمت مجاهد بمهند ... ترك الرءوس مواطىء الأذناب
وسيوفهم مسلولة بأكابر ... فى المجد من علمائنا الأقطاب
يكفيك قدوتنا «عليش» وشيخنا ... حسن الوفا العدوى خير مثاب
والشهم ابراهيم فوزى انه ... فى ضبط مصر أصاب خير صواب
وعلى الروبى الرضا وسميه ... يرضيك فهمى فى سديد جواب
يا ربنا عجل لديننا نصره ... واجعل له الحسنى بخير مآب
وبآل بيت محمد رد العدا ... وارسل عليهم منك سوط عذاب
وبعبد غفار أبد شمل العدا ... وارحم برحمى معشرى وصحابى
وامدد عساكرنا بأعظم قوة ... يا عالما بالقانت الأواب
واشدد عراهم بالخليفة انه ... متكفل بالنصر للأحزاب
يا ناصر السلطان دونك والعلا ... فجنابها بك ثابت الأطناب
هذى مآثرك الجميلة زينت ... رمضان بالترغيب والارهاب
لثمان عشر منه قد أرختها ... بالله نصرتنا وسيف عرابى

وحين دخل اللورد « ولسلى » بجيشه القاهرة ، وامتدت الأيدى تقبض على دعاة الثورة لجأ يحيى الى السيد محمد سر الختم الميرغنى فساعده على السفر الى الآستانة . وهناك عين فى زارة المعارف التركية مفتشا للغة العربية . وقد شكر السيد محمد سر الختم ومدحه بالقصيدة التى بدأها بقوله :

بليت وطرق للمحاسن يقظان ... وطرف الليالى عن ذوى المجد وسنان
عفا الدهر بعد الأكرمين وما عفا ... كمالى ولكن للسعادة ابان

وهو هنا كعادة شعراء هذه الفترة يؤرخون للمدوح ، يذكر مآثر والده « سر الختم » وجده المحجوب وشيخه « ابن ادريس » ثم يختم القصيدة بالدعاء .

الهى بهم فرج من الهـم كربتى — وحقق رجائى والرجا منك غفران
وصن سرهم واحفظ (خديجة) بنتهم — عليهم سلام من علاك ورضوان

وله فيه مدحة أخرى يقول فيها :

بمثـل فخرك هذا الدهـر يفتخر — والمجـد يؤمر أو ينهى فيأتمـر
ونور علمك لا تخفـاه خافية — من الأمور وهـذا مـدرك عسر
فغـاية الأمر أن أدعوك محتشما — يا حبر يا بحر يا ضرغام ياقمر (١)

فالشاعر هنا موفق فى الشكل الشـعرى محافظ على تقاليد الشعر المعروفة ، سائر على النمط الأسلوبى السائد فى عصره ، ولكنه يصدر عن أحاسيس خارجية كالسياسة والتأريخ للممدوح ، أما هذا الشعور الداخلى الذى ينفعل به الشاعر ثم يصدر عنه فلا يوجد فى هذه الفترة . فالشعراء هنا ينظمون على وعى منهم معتمدين على ذاكرتهم ، ومذاهبهم السياسية البسيطة ، كما نراهم يدورون حول الطبقة العليا من المجتمع ، فاذا كانت هذه الطبقة ممتدة الجذور الى البيت النبوى أشبعوا عاطفتهم الدينية .

ومهما يكن من شىء فقـد أدخل الشيخ يحيى على الشعر السودانى هذا الجانب الكفاحى الذى يناصر ثورة عرابى ، والذى تطور بعد ذلك على أيدى شعراء المهدية .

الشيخ عمر الأزهرى

(٣)

ولد فى الصوفى من أعمال « القضارف » عام ١٢٧٠ هـ ، وينتهى نسبه الى عقيل بن أبى طالب ، وقد درس فى السودان مبادىء الشريعة واللغة العربية ، وحين بلغ العشرين من عمره توجه الى مصر للدراسة فى الأزهر وفى الفترة التى قضاها فى مصر اندمج فى الحيـاة المصرية ، وتعرف على الكثيرين من ذوى الرأى بها ، وكان من أعز أصدقائه شفيق باشا . ولما

---

(١) نفثات ٨٣ ــ ٨٨ .

أتم دراسته توجه الى بلاده فقوبل فى الفترة التى أظلت أواخر الحكم التركى بالترحاب ، وزوجه الشيخ الأمين الضرير شيخ العلماء من ابنته ، فلما أنجب سمى ابنه « شفيق » على اسم شفيق باشا صديقه فى القاهرة ، وأقبلت عليه الوفود لتلقى العلم على يديه ، وقد كان يعنى فى دروسه عنـاية خاصة بالفقه ، والنحو ، والبلاغة .

وقد وكلت اليه المهدية أمور القضاء ، ثم أقر فى منصبه حين أظل البلاد الحكم الثنائى ، وما زال فى منصبه حتى توفى عام ١٣٣٣ وهو كشعراء عصره يعنى بالمدح عناية خاصة فى ظل تقاليد الشعر القديمة ، وفى ظل القيم السابحة فى وجدان عصره ، وهو يعنى عناية خاصة بالمحسنات البديعية ، ويبالغ فى ادخال مصطلحات العلوم ، ويبدأ شعره بالغزل ثم يسلم له الانتقال الى جو المدح فمن قوله فى مدح الرسول :

فؤاد عن التبريح والوجد ما كلا ... علام يقـول العاشقون له كلا
وعين نجيع الدمع خـدد خدها ... ففى أى شرع صاح تأنيبها حـلا
فان شئت عزا لا يزال مجـددا ... لدى أهل هـذا الفن مت ذلا
فأيقنت أن الحب شىء مذاقه ... أمر من الصبر وصبر الفتى أولى
لئن كنت فى دعوى التصابى مقصرا ... فقد فاق حبى للذى ختم الرسلا
محمـد المحمود فى الأرض سيره ... وفوق الطباق السبع فى الملأ الأعلى

وهو فى شعره مثقل بآثار الثقافة العربية التى انتهت اليه ، فهو يذكر البرق ، ونجـدا ، والبان والرقمتين ، والجـزع ، والغور ، والعذيب ، وحزوى ، والعقيق ، والجـرعاء ، وسلعا ، والربع ، والفلا ، والظعن ، والحمى . فشعره متحف لكل هذه « المخلفات اللفظية » التى فقدت قيمتها الشعورية .

وهو فى شعره يؤرخ لشخصية الممدوح ، ويأخذ نفسه بالجانب الخارجى المؤثر للشخصية ، فشخصية الرسول عنده ركام من الخوارق ما صدق منها وما لم يصدق .

محمـــد صفوة البارى وخيرته الـ   ـمختار من رسله للانس والجان
ذو المعجـزات التى أعجزت عددا   من رام عــدا بألفى ألف ديوان
أضحت منكســة فى يوم مولده الأصـنام والشرك قد أمسى بخسران
وانهد ايوان كسرى والبحيرة قد   غاضت فغاظت جميع القاصى والدانى
وجـاءه عصـبة اما ثـلاثة أم   لاك لدى سرحه (1) بل قيل اثنان
فأضجعته وشقت قلبـــه وأزا   حت عنه ما كان من حظ لشيطان
وبعـــد ذا ملأته حكمة وكـذا   علما وسرا خفيـــا كان ربانى
والجذع حن ونطق الضب شاع و   فاه الطفل فى مهده من غير كتمان
فى الصخر أقدامه يبـدو لها أثر   ولا يرى بالنقا مع طول امعـان
ولا يرى الظل يمشى معه فى زمن   فكيف يمشى وأصل الجسم نورانى
والشمس ردت له بعـد المغيب كمـا انشـق المنير له نصـفين فى الآن

. . . ثم يختم القصيدة بالدعاء لنفسه ولذويه وبالصلاة على النبى

واشمل بفضلك أهلى والبنين مع الز   وجات ثم ذوى القربى واخوانى
صلى عليـك الهى يا ابن مدركة   والآل والصحب ما كر الجديدان
يا رب واختم بخير فى الممات لنا   والمسـلمين كذا واختم بايمـان

وهو مولع بذكر اسمه فى القصائد فهو يقول :

الأزهـرى بن عبد الله ذا عمـر   الصـاردى فعامله باحسـان
الأزهرى الصـادرى عمر الذى   زانت بمـدحك فى الورى أوزانه
صلاة بها ترضى عن الازهرى فتى الصوارد فى الاخرى وترضى العلا الاعلى

ولهذا الشاعر وزن خاص عند السودانيين حتى انهم ليعتبرونه أعظم شعراء هـذه الفترة فى العـالم العربى ، ويحتجون على ذلك بأن مجلة « الجوائب » التى كانت تصدر فى استامبول حتى أواخر القرن التاسع عشر لصاحبهـا أحمـد فارس الشدياق قد نظمت مسابقة شعرية للشعراء

---

(1) صحتها بالتاء وقد جاء فى مختار الصحاح « السرح أيضا شجر عظام طوال الواحدة سرحة » .

فى هذه الفترة ، ورصدت لها جائزة ، فاذا بقصيدة هـذا الشاعر تفوز بالمرتبة الأولى ، وتعتبر هـذه القصيدة وثيقة لقيـاس الذوق الشعرى « الزخرف » الذى كان سائدا فى البلاد العربية فى هذه الفترة ، وقد بدأ القصيدة بهذه الأبيات :

سلوا عن فؤادي مسبلات الذوائب ... فقد ضاع من بين القلوب الذوائب
فلا سلمت نفس من الحب قد خلت ... ولا كان جفن دمعه غير ساكب
سبا مهجتى لدن المعاطف أهيف ... له لفتـات دونها كل ضـارب
ولا عيب فيه غير أن جفـونه ... بنتها على كسر جميع المـذاهب
وكم أتقى كسر الجفـون لأنها ... أعدت لتفـريق السهام الصوائب
اذا ضل عقلى فى ظلام شـعوره ... هدانى محيا منه مصـباح راهب
رقيـق رحيـق خصره ورضابه ... رمانى بسهم من قسى الحـواجب
تجـر فؤادى سين طـرته وما ... سمعنا بجـر السين يعزى لذاهب
فلا تحسبوا أنى تصنعت فى الهوى ... فوجدى قديم لم يزل غير كاذب
بنفسى لويلات الوصـال وحبذا ... زمان وصال كان عذب المشـارب

.. وقد تخلص من هذا الغزل المتكلف المثقل بالظواهر الدخيلة على الشعر الى مدح صاحب الجوائب .

يفندنى فيه العـذول وما درى ... بأن سناه ضوء سـود الغياهب
وحبى له لم يخف فى الكون أمره ... كحب العلا مصباح أفق «الجوائب»
هو الماجد المفضال «أحمد» من دعا ... بفارس ميدان الوغى فى الكتائب
له الله من مولى تفـرد فى الورى ... بأوصاف مجـد لا تعد لحاسب
سجيته نصـح العبـاد لأمرهم ... وهمته أضحت بهـام الكواكب
فتى كلما أجـرى يراعا بنانه ... لتحرير ألفاظ اصطلاح التخاطب
ترى الدر يزهو من سموط سطوره ... على صفحات الحسن من دون حاجب

ثم يختم قصيدته بقوله :

فياسيدا قد طاب فى الناس سيره ... كما أنه من نسـل قوم أطايب
بفضلك فاقبـل بنت فكر تزينت ... بمدحك لا مما حوت من عجائب

ودم سالما فى بسـط عيش مؤيد   بأمن وحفظ من جميـع النوائب
ولا زلت أصـلا للجميل ومحتدا   حميد المساعى فى الورى والعواقب

فهو متأثر بثقافة عصره ، وبالعلوم الشائعة فيه ، بل وبمنصبه القضائى أيضا ، فهو يقول فى تقارب ممل للحروف :

مستفتيا جئت فتيـانا فتنت بهم   فما فتى فات بى عنهن أفتـانى
وحسن ظنى بسكان العذيب فمذ   وردت ماء العذيب العذب أظمانى

أفتى الغرام بهجر أرباب الهـوى   فقضى بمـا أفتى به سـلطانه
ما هكذا يا دهـر تظلمنى فهـل   أفتى فتـاك بذاك أو شيطانه

وتأثره بالدين واضح فهو يورد فى مدحه للرسول قطاعات كاملة مما ورد عنه فى القرآن والحديث والأخبار كما يظهر هذا من قوله (١) :

واذا وعى لكتـابة يلقى غـدا   معـه كتابا منـك فيـك أمانه

واذا ذكر اسم الله يقـرن باسمه   لتعظيمه فى كـل كتب أتت تتلى
وفى قصة المعـراج كم آية أتت   بسورة سبحان الذى كالذى يتلى

وادى سماوة فاض يوم ظهـوره   وغدا الرجيم من السما حـرمانه
يمشى ويكنس داره ويخيط ثو .... با قد عفا والصـفح ذلك شأنه

وخيبر من أخبـارها برء تفلة   لعينى «على» اذ غدا الطرف معتلا
وقد صح أن المصطفى قال فى غد   ستفتح حقا ثم صـدقه المولى
وزينب لما سمت العضو لم تسم   سوى نفسها للذل ساءت اذا فعلا

وحتـام لم تنظـر الى واننى   أنا (الجار ذو القربى) بعين المراقب

فالشاعر هنا مشدود لثقافته الدينية ، والأدبية ، ويكاد يكون منفصلا تماما عن واقع الناس من حوله ، وعن الاخلاص للمضمون الفنى للقصيدة فهو مأخوذ بالشكل ، وبالجزئيات الصغيرة ، ولكنه يعتبر ألمع شعراء عصره .

---

(١) شعراء السودان ٢٤٩ — ٢٥٩ ، نفثات اليراع ٩٨ ، ٩٩ ، مجلة « هنا أم درمان » .

الشيخ محمد الطاهر المجذوب

(٤)

ولد بضاحية سواكن عام ١٨٤٢ وتوفى سنة ١٩٢٩ ببلدة « الحمرى » ، وقد تلقى العلم على والده وعلى الشيخ محمد المدنى السواكنى ، ولما أراد لنفسه التكامل الثقافى توجه الى الحجاز ، وحضر على صفوة من العلماء هنـاك ، فثقافته مدنية ، مكية لأنه لم يحضر كشأن علماء هـذا العصر الى الأزهر .

وقد أسهم فى مناصرة المهدية مساهمة فعالة ، وتبوأ فيها مكانة رفيعة فكان مشيرا للأمير عثمان دقنة . ومما يدل على مكانته ما جاء فى مدح الشيخ محمد البنا « لعثمان دقنة » :

عثمان دقنة من رقى أوج العـلا   بفخـاره والطـاهر المجـذوب
ومحمد بن الطاهر المجذوب خل م   نجـابه وابن النجيب نجيب

وقد جمع الشاعر بين شعر التصوف والشعر التقليدى ، وقد مرت بنا قصيدته التى وصف بها الرسول عضوا ، فعضوا ، والتى جاء فيها :

سـلام على طرف النبى محمـد   لطرف كحيـل أدعج ومعـلم
سـلام على أنف النبى محمـد   لأنف عديل أنور ومقـوم

وتظهر تأثراته الصوفية فى قوله :

نور بدا من قبـل نشأة آدم   منـه الوجود جميعـه متخلق
فأبو الحقيقـة أحمد ان رمته   وأبو المجـاز آدم قـد حققوا

كما تظهر فى قصيدته التى يقول فيها :

بانت عن العدوة القصوى بواديها   عيس كأن خوافيهـا بواديهـا

وفى تخميسه :

ما ان كست بكئوس للهوى يدها   ولا ألم بهـا وجد فأوجـدها

ولا الحنين عن الأوطان أبعدها   لكنها علمت وجدى فأوجدها
شوقا الى الشام أبكانى وأبكاها

وقد تطور الشعر الصوفى على يديه الى آفاق رحبة واسعة بعد أن كاد يكون قاصرا على مدائح شيخ الطريقة ، والشطح ، وأساليب الأذكار ، والتعاليم الفجة ، كما قد اهتم باللغة فى هذه الفترة فلم « تكن اللغة الفصحى بمهمة لديهم بقدر اهتمامهم بالانشاد ، والانحراف فى نشوة الترنيم قد جعلهم يحطمون قوانين اللغة دون اكتراث (١) » .

وقد اعتنق المهدية ، ودافع عنها بحرارة ، وتشرب مبادئها ويظهر هذا فى رثائه للمهدى :

دهتنا دواه يضرس القلب نابها   ويوقد فى الأحشاء نارا منابها
غداة نعى الناعون مهدينا الذى   به ملة الاسلام جل مصابها
امام الهدى المهدى أفضل من دعا   الى الله مفتاح النجاة وبابها
ألا قد أصبنا اذ عدمنا حبيبنا   وضاقت بنا الأرض الوسيع رحابها
ليبك له الدين الحنيف وملة   أبان هداها حين تم خرابها
فقدناك يا هديا يتمنا بفقده   فقدناك يا شمسا دهانا غيابها
الى الله انا راجعون هو الذى   اليه نفوس العالمين ايابها
هو الفاعل المختار باق وانما   نفوس الورى جمعا اليه انقلابها

ويظهر تأثير منشورات المهدية وأفكارها فى قوله :

عزاء الى الصديق نائبه الذى   به الملة الغراء شد انتصابها
عزاء الى الفاروق من كان دأبه   لدى نعم الدنيا الغرور اجتنابها
عزاء الى الكرار ذى الناصر الذى   لديه يهاب الباترات ذبابها

ثم يختتم رثاءه بقوله :

ألا أبلغوا عنا ضريح أبى الهدى   تحايا الى الله الكريم انتسابها

ومن أجمل الشعر فى هذه الفترة تلك القصيدة التى قالها حين علم أن

---

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ١٩٨ ، ١٩٩ .

الجيش الانجليزى يتقدم الى سواكن ، وقد بدأها بقوله :

« هنـدوب » تعرف صبرنا   كيف ارتـكبنا للمصـاعب
« وهشيم » تشـهد عزمنـا   كيف أدرعنـا للمصـائب

ثم يختم قصيدته بقوله :

نحيى لـدين الله بـل   فى شـأنه نلقى المعـاطب
متوسلين اليه بالمهـدى (م)   وجهـة كـل راغب
وخليفـة المهـدى عبـد الله   مفتـاج المطـالب
ما ان رحلنـا عنهمـو   جزعا ولا خـوف النـوائب
بل طاعـة لولينـا   فليـدر ذا كل الأجانب (١)

... وهكذا عبر الشاعر عن تجربة حية من تلك التجارب التى عاشها المجتمع السودانى وقد وفق فيها الى حد كبير فقد عاش فى حومة الصراع ، وعبر عما أحس به فى هذه الفترة .

---

(١) ديوان المجذوب ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، نفثات اليراع ٩٤ ، ٩٥ .

الباب الثـانى

الفترة الثانية

١٨٩٩ - ١٩٢٤

- الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية
- الشعر فى هذه الفترة
- اشهر الشعراء فى هذه الفترة

الفصل الأول

الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية

- الحياة السياسية
- الحياة الاجتماعية
- الحياة العقلية

الحكم الثنائى

(١)

حين تم القضاء على المهديين فى الخرطوم أقيمت صلاة على روح « غوردون » وأقيمت حفلة رفع بعدها « كتشنر » العلمين المصرى والانجليزى على سراى الخرطوم التى كانت قد خربت . وكان هذا بناء على تعليمات تلقاها من اللورد كرومر بالقاهرة .

وقد قابل هذا العمل الجيش المصرى بغضب سلبى ذلك لأن العلم المصرى فقط هو الذى كان يرفع وحيدا على البلاد التى فتحت من قبل مثل دنقلة ، وكسلا ، وبربر . وقد تم هذا يوم الأحد ٤ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ (١) أى فى نفس اليوم الذى قدم فيه المستر رينل رود مذكرته فى القاهرة والتى قال فيها « انه بالنظر الى المساعدات المادية التى قدمتها الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية من الناحيتين الحربية والمالية ، فقد قررت حكومة جلالة الملكة رفع العلم البريطانى بجانب العلم المصرى فى الخرطوم ، وأن هذا الاجراء لا يقصد به تحديد كيفية ادارة الأراضى المحتلة فى المستقبل وانما يرمى الى التأكد بأن حكومة جلالة الملكة تعتبر أن لصوتها الغلبة فى جميع المسائل المتعلقة بالسودان وأنها تبعا لذلك تنتظر أن تلتزم الحكومة المصرية كل نصيحة تقدمها اليها الحكومة البريطانية فى شأن المسائل السودانية » (٢) وهكذا كان رفع الراية الانجليزية على الخرطوم ايذانا بوضع السودان تحت الحماية البريطانية وبسبب ولاء وزارة مصطفى فهمى للاحتلال مر هذا الأمر الخطير على البلاد من الوجهة الرسمية « كأنه أمر عادى » (٣) .

---

(١) السودان فى قرن ٢٨٩ ، نعوم ٦٤٥/٣ .

(٢) السودان مجلد صادر عن رئاسة مجلس الوزراء ص ٥ .

(٣) مصطفى كامل للرافعى ٣٣٢ .

.. ثم تحددت أسس هذا الحكم فى الميثاق الذى ذكرناه قبل ذلك بشأن ادارة السودان فى المستقبل ، والمحرر فى يناير ١٨٩٩ والذى ركزت فيه السلطة المدنية والعسكرية فى يد الحاكم العام الانجليزى والذى يكون نصيب مصر منه الامضاء على أمر تعيينه .

ثم وقع الطرفان أيضا « بطرس غالى وكرومر » وفاقا فى ١٠ من يولية ١٨٩٩ وقد جاء فيه « تعتبر ملغاة من الآن النصوص الوارة فى وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩؛ التى كانت بموجبها مدينة سواكن مستثناة من أحكام النظام الذى تقرر فى ذلك الوفاق لادارة السودان فى المستقبل (١) .

وقد مهد « كرومر » للوفاق الأول حين وقف فى ٤ يناير سنة ١٨٩٩ بأم درمان يخطب فى حشد كبير من الناس بأن السودان سيحكم من انجلترا ومصر . بعد أن كانت حجته فى طرد الفرنسيين من فاشودة أنها من الأملاك الخديوية « .. وكان على كرومر والحالة هذه أن يخترع أداة ادارية تكفل السيطرة الانجليزية وتبعد دعوى السيادة التركية وشبح الامتيازات لأجنبية وفوق ذلك ترضى بعض الشىء الأمانى المصرية ، والاحتجاجات الدولية ، وكان عليه أن يضع الوثيقة التى ترضى كل هذه الاعتبارات فى لغة واضحة نوعا ما ، وأن يكون اشتراك انجلترا فى الحكم مبنيا على أساس قوى لا كمثل مركزها الضعيف من الوجهة الشرعية فى مصر ، واذن فمقدمة الاتفاقية تبين بوضوح أن انجلترا لها أن تشارك فى ادارة السودان بحق الفتح حتى لا تنشأ اشكالات فى المستقبل ، وحتى لا تتلقى فى المستقبل الضربات والهجمات على مركزها مثلما ظلت تعانيه فى مصر ، وأن السيادة تتركز فى انجلترا ومصر ، وعلى ذلك فالسيادة التركية قد أزيلت قانونيا (٢) . . . ومعنى هذا أن الحكم المشترك :

(وهى تترجم عندنا عرفا بالحكم الثنائى) لم يطبق عندنا تطبيقا قانونيا فهو فى عرف فقهاء القانون الدولى العام اشتراك دولتين أو أكثر فى مباشرة

---

(١) السودان ٩

(٢) السودان فى قرن ٢٩٦ ، ٣٠١

اختصاصات الدولة على اقليم معين ، ومقتضى هذا أن يقع ذلك الاقليم ضمن نطاق السيادة المشتركة للدولتين أو الدول الحاكمة .

وبناء على هذا يمكن أن نلحظ أن السودان قد ظل منذ سنة ١٨٩٩ حتى تاريخ سريان أحكام فترة الانتقال ضمن نطاق السيادة المشتركة لمصر وبريطانيا ، وهذا من ناحيــة السيادة القانونية De facto على أكثر تقدير .

أما عن السيادة الفعلية De Jure فقد بوشرت على النحو المعروف (١)

---

(١) السيادة والحريات للاستاذ محمد توفيق مصطفى ٤٠ مطبعة مصر — الخرطوم .

موقف مصر والانجليز فى السودان

(٢)

عين اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى حاكما عاما على السودان فى ١٩/١/١٨٩٩ على أن يبقى فى وظيفته كسردار للجيش المصرى وقد بدأ عهده بفتح باب التجارة فى ٢٢ ديسمبر ١٨٩٩ مع الدول، ولكنه مالبث أن ندب لحرب « الترنسفال » ومن هنا فقد حل مكانه الفريق « فرنسيس رجينلدونجت باشا » كسردار للجيش المصرى وحاكم عام على السودان الذى كان قد اشترك بدوره فى الفتح الأخير، وقد بدأ عهده بمنشور جاء فيه « .. اعلموا أن أساس الملك هو العدل، ولهذا لم تقم للسودان قائمة لأن ملكه تأسس على الجور والاعتساف واغتصاب الحقوق وظلم الرعية وانحراف الحكام عن جادة العدل واتباعهم طرق الغواية والضلال وعدم مراقبة الله وترك الرفق بالعمل، فأراد الله أن يسبغ عليكم رحمته بعد ذلك العذاب، فأزال أولئك الظلام، ومحا أثرهم، وقرض ملكهم فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم، وخلف بعدهم رجالا ملأ قلوبهم رفقا وعدلا وهم حكامكم الآن، فأخلصوا لكم العمل وتيقنوا أنكم كالجسد وهم كالرأس فلا يصلح الجسد الا بصلاح الرأس، ولا يصلح الرأس الا بصلاح الجسد ولقد صرفت عنايتى الى انتخاب الحكام الأكفاء وأمرتهم بالرفق وتنفيذ الأوامر العادلة التى أصدرها الحاكم لخير بلادكم، فعليكم بطاعتهم لأن طاعتهم هى طاعتى ومن عصاهم فقد عصانى ومن عصانى فقد عصى أولى الأمر ومن فعل ذلك فقد أغضب الله ... » (١).

وقد بدأ يعزز موقف بلاده فى السودان فقصر مناصب المديرين والمفتشين على الانجليز من العسكريين، كما ولى مناصب القضاء والمساحة والمالية وشئون السكك الحديدية والتلغراف والبوستة للانجليز أيضا،

---

(١) نعوم ١٦٢/١ .

أما المصريون فقد وضعوا فى المناصب الثانوية فعملوا « كمأمورين » ، وقضاة شرعيين ، وكتبة .

حتى وكالة الحكومة فىالقاهرة سلمها للانجليز وعلىرأسهم «الكولونيل الكونت جلايخن » (١) ، كما قد استدعوا طائفة من خريجى الجامعات البريطانية للعمل فى البلاد مع منحهم سلطات واسعة جعلتهم أشبه بأصحاب الاقطاعات الواسعة فى هذه البلاد (٢) .

ولقد كان كل هذا يثير المصريين فى السودان حتى لقد أدى الى عصيان بعض الجنود المصريين فى أم درمان . وساعد على هذا العصيان أن الانجليز طلبوا سحب بعض المدافع فى الجيش المصرى لارسالها الى جنوب افريقية ، وما تواتر من أن « الأورطة » السودانية بالجيش المصرى سيبعث بها الى ميادين القتال . فلما طالب « ماكسويل باشا » بجمع الذخيرة ، حرض الضباط الجنود على عدم التسليم ، وهجموا على الثكنات لاستردادها وامتنعت تماما « الأورطة » الرابعة عشرة عن الرضوخ لأوامر الانجليز ، ولكن الحركة تميعت حين لم تجد من الجيش المصرى مساندة ، فترتب على هذا أن أنشئت محكمة لمعاقبة المحرضين على هذه الحركة ، وما كان أسرع الخديوى فى ارسال رسائل الاستنكار ، وتأييد السر ونجت باشا ، وقد حكمت المحكمة باعفاء بعض الضباط من الخدمة ، كما حكم على بعضهم « بالتوبيخ » وأرسل المحكوم عليهم مخفورين الى القاهرة « وانتهى تمرد لو لم يكن محصورا فى (أورطة) واحدة لأدى الى زعزعة أركان الحرب الثنائى وهو علامة ظاهرة لروح السخط السارية بين الضباط المصريين من عدم اسناد وظائف كبيرة لهم فى الادارة الجديدة ومن عدم اجابة بعض مطالبهم فيما يختص بالماهية (٣) » .

وقد ظلت الأمور فى يد الحاكم العام حتى أنشىء فى عام ١٩١٠ ما يسمى بمجلس الحاكم العام لمشاركته فى ادارة البلاد ، على أن يكون

(١) نعوم جـ ١ ١٦٣ — ١٦٩ .
(٢) السودان ٦١ .
(٣) السودان فى قرن ٣٠٨ ، ٣٠٩

رأيه قاطعا فى سن القوانين ، والموافقة على الميزانية ، واستشاريا فى كل ما يتعرض له فى شئون السياسة (١) .

وقد تصرف الانجليز وحدهم فيما يتعلق بشئون الحدود فأقنعوا فرنسا بألا تكون لها منطقة على النيل « وأخيرا وقع اتفاق بين الدولتين فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ وبموجبه رسمت الحدود بين السودان وافريقية الاستوائية الفرنسية بحيث استبعدت فرنسا من حوض النيل كله ، ولكن ترك لهم اقليم « واداى » وكل منطقة السودان من دارفور شرقا الى بحيرة تشاد فى الغرب . . وهكذا فقدت فرنسا أملها فى الوصول الى شاطىء النيل وامتداد ممتلكاتها من الصومال الى الكونغو ، بينما تحقق حلم « رودس » بتوصيل الممتلكات البريطانية من جنوب افريقية الى شمالها فيما عدا الممر الضيق بين بحيرتى ادوارد وتنجانيقا (٢) .

كما قاموا برسم حدود الحبشة مع « منليك » تلك الحدود التى تفصل بين السودان والحبشة ، وقد استبشر منليك بهذا الفتح فكتب الى السردار مهنئا له بازالة هذه الدولة الاسلامية وباطلاق أسارى الأحباش . وقد حوبى فى رسم الحدود وسلمت له منطقة « بنى شنقول » .

كما عقدوا اتفاقا مع البلجيكيين يقضى بتأجير منطقة « اللادو » الكونغو طيلة حياة الملك ليوبولد الثانى فى ٩ مايو ١٩٠١ ، وحينما مات الملك تسلمتها الادارة فى ١٦ يونية سنة ١٩١٠ ، وقد أصدروا عدة قوانين تثبت من أركان حكمهم مثل قانون ضرائب الأراضى ، وحمل الأسلحة النارية ، وعوائد الاملاك ، والابنية ، والمراكب ، ورخص الدلالين ، والدوارين ، والبحث عن المعادن والجزية على القبائل (٣) ووضعوا بذور مشروع الجزيرة الذى يجعل من البلاد مزرعة قطنية لمصانعهم .

كما تم « كوبرى » النيل الأزرق ووضعوا الخط الحديدى الى

---

(١) السودان فى قرن ٣١٨

(٢) المنافسة الدولية ٣٢٨ ، ٣٢٩

(٣) السودان فى قرن ٣١٠ : ٣١١ ، المنافسة الدولية ٣٥٦ .

الخرطوم ثم مده جنوبا الى سنار وغربا الى كوستى بحيث شيد «كوبرى» آخر ، ووصل ما بين عطبرة والبحر الأحمر بخط حديدى ، كما أنشىء بورت سودان وافتتحه الخديوى عباس الثانى سنة ١٩٠٩ وقد تمت هذه المشاريع بأموال مقترضة من الخزانة المصرية (١)

من هذا وغيره نرى : أن مقدرات الحكم فى السودان كانت بأيدى الانجليز ، وأن المصريين كانوا سلبيين الى أقصى حدود السلبية ، وقد حاول الانجليز محاولة الفصل تماما بين القضية المصرية والسودان فقد جاء فى تقرير اللورد ملنر « أن المشروع الذى تتضمنه المذكرة يتناول مصر فقط ولا ينطبق على السودان ، البلاد التى تختلف كل الاختلاف عن مصر فى أوصافها وتركيبها وكون حالتها السياسية محدودة تحديدا جليا فى الاتفاق الانجليزى المصرى المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ » كما تحدثوا باسمه كأنه كان يخصهم فقط فقد جاء فى مذكرته عن السودان « أن الغرض الذى ترمى اليه السياسة البريطانية يجب أن يكون اخلاء جانب مصر من كل مسئولية مالية للسودان ، وتقرير العلاقات بين البلدين فى المستقبل على قاعدة تضمن ارتقاء السودان ارتقاء مستقلا ومصالح مصر الحيوية فى مياه النيل فلمصر حق لا ينازع فيه فى الحصول على ايراد كاف مضمون من الماء لرى أراضيها الزراعية الحالية ، وعلى نصيب عادل من كل زيادة فى ايراد الماء يتيسر للبراعة الهندسية أن تأتى بها » (٢)

وقد تنبه عدلى باشا الى أن سيادة مصر فى السودان قد أصبحت اسمية فقد جاء فى مفاوضات « عدلى — كيرزن » قوله لمستر لندسى « على أنك لا تجهل أن نصيب مصر من تلك الشركة فى حكم العدم ، فان الادارة أصبحت انجليزية محضة ، وكل ما لمصر الآن هو أن القرارات التى يصدرها حاكم السودان تبلغ الى رئيس مجلس الوزراء مجرد تبليغ ،

---

(١) نعوم ١/١٧٠ .

(٢) مجلة الفجر ١٩٣٥ العدد ١٩ نظرة فى كتاب السير هارولد مكمايكل ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ٢٣٥ .

وليس لهـذا أن ينقض أمرا أو يبرم حكما ، والذى يعنينـا الآن من أمر السودان هو أن يقرر من جديد حقوقنا فيه ، وأن يصبح لهـذه الحقـوق مظهر خارجى ، وآية ذلك أن يكون لمصر يد فى ادارة السودان » (١) .

على أن احكام القبضة الانجليزية على السودان لم يتم طفرة واحدة وانما تدرج بحيث أصبحوا كل شيء فى السودان ، وهم فى الوقت الذى يؤكدون فيه أن السـودان كان ملكا لمصر يعقبون بذكر الدور الذى قاموا به فى الفتح ، ويظهر هذا من خطبة ونجت باشا حاكم السـودان أمام الخديوى حين أقيم له حفل تكريم سنة ١٩٠١ بالخرطوم « لقـد نلنا أعظم الشرف بأن سموكم تجشمتم السفر الطويل الشاق من مصر لقضاء بضعة أيام فى الخرطوم عاصمة السودان التى خربها الأشقياء الذين شقوا عصا الطاعة لحكومة سموكم ، بعـد أن كانت عامرة زاهـرة وهى الآن تتدرج فى الحضارة والعمران على مبادىء نؤمل أن ترقى بها رويدا حتى تصير عامرة فاخرة ومركزا مهما لتجارة السودان ، مضى الآن ثلاث سنين على انتشالها من ذلك الطاغية عبـد الله التعـايشى ببسالة جيش سموكم وجنود المملكة البريطانية العظمى » (٢) .

.. بينما نرى صوت الخديوى ضعيفا متهالكا يقـدم فيه الانجليز وعلمهم على أهل البلاد وعلم بلاده فقد بدأه بقـوله « يا سعادة السردار وحاكم السودان العام ويا حضرات الضباط والعساكر والموظفين وعلمـاء ومشايخ وأعيان وأهالى السودان كافة ، انى أشكر لكم الخطاب الذى حييتمونى به » ثم يقول « العلمان الانكليزى والمصرى اللذان يخفقـان الواحد بجانب الآخر هما اشارة الى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حمـاية الأهالى من الوقوع فى شرك أهل الظلم والفسـاد (٣) ،

(١) السودان ـ رئاسة مجلس الوزراء ١٠ ـ ١٦ .

(٢) نعوم ٣/٦٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ٦٧٦ .

والخطبة اقرار للاتفاقية ، ولنظام الحكم الذى قضت به (١) ، بينمـا نرى صوت الخديوى على هذا الضعف نرى صوت السردار قويا مجلجـلا لا ينسى تقديم أحد على ملكته ، ولا علم على علمه ، ونرى نفس هذه القوة فى الكلمات التى قالها اللورد كرومر فى زياراته الثلاث للخرطوم وقد جاء فى خطابه فى ٢٤ ديسمبر ١٩٠٠ « عند زيارتى لهذه البلاد منذ ســنتين أوضحت لحضراتكم أنكم ستكونون فى المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة انكلترا وسمو الخديوى المعظم ، ولقد صدرت لى الآن أوامر خصوصية من صاحبة الجلالة ملكتى العظيمة التى تحكم فى غير هذه البلاد على ملايين من المتدينين بدينكم الشريف ، لأعرب لكم عن مزيد اهتمـام جلالتها بكل ما يئول الى سعادتكم ، وانى الآن باسم جلالتها سأقلد فردا من أشرف أهالى السودان المسلمين وساما انجليزيا نظرا الى ما عرضه عنه سعادة الحاكم العام لجلالتها . . وهو السيد على الميرغنى بن السيد محمد عثمان الميرغنى الشهير » (٢) .

ونستطيع أ نستشف من هذه الكلمات البذور الأولى التى ظهـرت ثمارها الشريرة فى السنين التى تلت ذلك .

---

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ٢٣٥ .

(٢) نعوم ٦٧٨/٣ .

سياسة الانجليز نحو عزل السودان

(٣)

ظهرت نوايا الانجليز نحو عزل السودان فى أوائل الفتح ، فاذا أخذنا مثالا على ذلك خطبة اللورد كرومر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٣ حينما زار السودان رأيناها تحمل أدلة اتهام جديدة ، فقد أكثر من اهتمام بلاده بالسودان ، ولمح بأن التبشير سيأخذ طريقه فى السودان الشمالى ، وقرر أن المصريين أجانب عن البلاد تماما .

« ولكنى أود أيها السادة أن يتسع لى مجال الكلام فأقول قبل رجوعى الى مصر لكم وللغائبين عنا بواسطتكم ان المساعى التى يبذلها جميع موظفى السودان من ملكيين وعسكريين فى سبيل ادخال النظام والتمدن الى هذه البلاد نها عند حكومة جلالة الملكة وسواد مواطنيكم وعندى أنابا لأكثر قيمة عظيمة وشأن رفيع » .

« ان وقت السماح للمرسلين بالتبشير بين مسلمى السودان لم يزل بعيدا ، ولكن المساعى التى تبذل بين القبائل الوثنية فى المقاطعات الجنوبية تستحق كل ما يمكن من التشجيع والمساعدة » .

« والهيئة الحاكمة فى السودان الآن هى أجنبية محضة لأن المصريين كما لا يخفى هم أجانب كالانكليز » (١) .

فالانجليز قد فسروا الوفاق بينهم وبين مصر على نحو يرضيهم واذا قيل ان حق مصر فى الاشتراك مغموط أمكن الرد على هذا بأن الاشتراك ليس معناه تشكيل مؤتمر من الدولتين بل كان الغرض منه (بنص المعاهدة) فناء السيادتين فى سيادة واحدة جديدة هى سياسة الحاكم العام وهو بريطانى حتما بحكم المعاهدة أيضا ، واللورد كرومر صاحب هذا المبدأ ما كان لينسى أن حكومة الجناب العالى الخديوى والتى نص لها

---

(١) نعوم ٣/٦٨٠ — ٦٨٣ .

على الاشتراك فى السيادة هنا كانت ذاتها تعتمد فى وجودها الدولى على نفوذ « شريكتها » فى السودان ، وعلى حمايتها العسكرية والدبلوماسية من تدخل الدول الأخرى (١) .

ومن هذا فقد عزلوا المصريين عن احتلال الأماكن القيـادية الموجهة ، وقصروا أكثر نشاطهم على الجانب الذى يؤثر فى نفسية الأهالى وهو جمع الضرائب .

وحين قامت الحرب العالمية الأولى عزلوا البلاد عن العالم الخارجى ، وأجبروا الناس على تأييدهم وقد جمع هذا التأييد فى كتاب سمى (سفر الولاء) ، بحيث لم يتأثر بالنغمة الاسلامية التى كانت تذيعها تركيا سوى دارفور التى كانت بعيدة عن السيطرة الانجليزية وكانت لا تعترف بأى نوع من السيطرة الأجنبية سوى رفع العلمين ودفع جزية سنوية (٢) .

كما عملت من جانبها على عزل الوعى السودانى عن الارتباط بالأحداث المصرية والثورة فيها ، فأرسلت وفدا لملك بريطانيا « يبايعه ويهنئه بالنصر » وأوعزت الى جريدة (الحضارة) لتحاول اخفاء معالم الكفاح فى مصر ، ولتشير من جانب خفى الى أن الخير كل الخير فى الابتعاد عن كل ما يهم مصر ، وما يدور فيها من صراع وقد طلعت هذه الجريدة على الناس بسلسلة من المقالات تحت عنوان « النهضة الوطنية » .

فلما وقف أمين هديب يحض النـاس على الثورة . كتبت الجريدة فى العـدد ١٥ بتاريخ ٨ يونيو سنة ١٩١٩ مقالا تحت عنـوان « ولاء السودان » تسفه فيه الثورة التى تطل برأسها ، وتشيد بالانجليز « منذ ما عرف السودانيون الانكليز وبدت لهم النوايا الصالحة منهم مالوا اليهم وتعلقوا بهم فما زال الأخيرون ينعرون لصنائعهم وجه حكومتهم والأولون يزدادون لوفائهم فى محنتهم حتى قويت بينهم الرابطة واستحكمت الثقـة واستحال على الدسائس والأوهام بل الليالى والأيام أن تنقضى مرائر حبل

---

(١) مجلة الفجر العدد ١٩ .

(٢) السودان فى قرن ٢٣٧ .

ابرمته السنون والأعوام ، فقد أسكنت شعب الهنـد وأزالت اضطراب مصر وقضت على كل فتنة مدة رأسها ، وعلى كل يد حاولت خرطها ثم خرجت من كل ذلك ورأسها فوق الرءوس ، والناس معجبون بها موقنون بأنها أبرع الأمم فى الاستعمار وأقدرهم على سياسة الممالك وأبعدهم عن ارتكاب المظالم ، وأعرفهم بطبائع الشعوب ، وأميلهم الى خير البلدان ، وسعادة بنى الانسان ، دعانا لكتابة هذه الحقائق الخطبة بل السخافة التى نقلها أحد المهووسين على مجموع المصلين بجامع أم درمان يوم الجمعـة الموافق أول رمضان وذلك أنه قصد الجامع الأكبر بالسوق ، وأراد أن يلقى خطبته فطلب اليه رئيس العلماء وبقية العقلاء معرفة ما تحتوى عليه الخطبة ، أو لم يدركوا حقيقة الأمر . ان أهالى السودان قد رأوا بأعينهم الخطيب ، أو لم يدركوا حقيقة الأمر . ان أهالى السودان قد رأوا بأعينهم كما رأى غيرهم الأضرار التى عادت على مصر من جراء تعاليم مثل هـذه مما أحدث فى نفوسنا نحن علم الله جرحا داميا » كما منعوا الوفد الذى كان مسافرا الى مصر للاعراب لها عن ولاء السودانيين (١) واذا كانت السياسة البريطانية قد عزلت السودان عن العالم الخارجى ، فانها عزلته عن بعضه باصدارها قانون المناطق المقفلة فى عام ١٩٢٢ بحيث أصبحت هذه الجهات موصدة أمام الأجانب والسودانيين الا باذن خاص وهذه المناطق هى :

١ — مديرية دارفور .

٢ — مديرية بحر الغزال .

٣ — مديرية منجلا .

٤ — السوبات ومركز بيور .

٥ — ما يقع من مديريتى حلفا ودنقلة الى الغرب فى حدود ٣٠ ميلا من النهر ، وبين وادى حلفا والدبة الى الغرب ، ومن خط مرسوم الى الجنوب من الدبة حتى الحد الجنوبى من المديرية .

---

(١) جريدة الايام السودانية ١٩٥٧/١/١ .

٦ — جميع مديرية كردفان ماعدا الجزء الواقع شرق وشمال الخطين الآتيين :

(أ) خط مرسوم من أبى حراز الى الأبيض . ثم الى بارا ثم الى كجمار ثم جبل حراز ومنه شمالا الى حد المديرية .

(ب) خط مرسوم من أبى حـــراز الى باروكى ثم الى الشركيله ومنها شرقا الى الحد الشرقى من المديرية .

٧ — جميع مديرية جبال النوبة ما عدا الجزء الواسع شرقى خط مرسوم من ملاكال ومنها شرقا الى حد المديرية .

فهذه المناطق تشمل مناطق لم تغلغل فيها العروبة ، ومناطق قد تغلغلت فيها مما يدل على أنها كانت تنوى القضـــاء على العروبة فى دار فور ، وكردفان ، وجبال النوبة .

وقد وصل حد التطبيق الى أن السودانى الشمالى حرمت عليه الاقامة الدائمة فى الجنوب ، والقيام بأى عمل حضارى ، كما حرمت عليه العودة بأطفاله اذا ما تزوج جنوبية .

فالحكومة شجعت النظام القبلى ، وعدم الانصهار فى مجموعات كبيرة وصورت الشماليين فى هيئة أعدائهم الذين شرعوا الرق فى بلادهم ، كما حاولوا الوقيعة بين أقاليم كردفان ودارفور فى الغرب ، وبين المناطق السهلية التى تحيط بالنهر (١) .

---

(١) يقظة السودان ٦٢ — ٦٦ .

شعور السودانيين ازاء هذا الحكم

(٤)

قامت فى هذه الفترة عدة ثورات تحمل فى طياتها غضبا على هذا العهد الجديد ، وتلك الأنظمة التى أتى بها ، ففى سنة ١٩٠٤ قامت ثورة الشريف محمد الأمين فى جبال تعتى ، كما قام الأهالى فى تالودى بثورة سنة ١٩٠٦ قتل فيها عدد كبير من الجنود والبوليس .

وفى سنة ١٩٠٨ قامت ثورة بقيادة « ودحبوبة » فى الجزيرة ذهب ضحيتها المفتش الانجليزى « مونكريف » والمأمور المصرى اليوزباشى محمد شريف ، وقد أزعجت هذه الثورة الحكومة أيما ازعاج لقرب عهدها بالثورة المهدية ، ولأن « ودحبوبة » كان أحد تلاميذ المهدى ، ولكن الحكومة قضت على هذه الثورة ، وتمكنت من القبض عليه وشنقه مع عدد كبير من أنصاره .

وفى سنة ١٩١٧ امتنع أهالى مركز الدلنج عن أداء الضرائب ، ولم تخمد هذه الحركة الا بعد حصار دام عدة شهور .

وهناك حوادث بين ١٩٠٩ ، ١٩١٧ منها حادثة فى الرماش بجوار سنجة والثانية فى كسلا .

وفى عام ١٩٢١ قام الفقيه عبد الله السجينى بدعوته فى مركز نيالا ، وسرعان ما أخمدت هذه الحركة (١) .

على انّ أهم ألوان الصراع فى هذه الفترة هو هذا الصراع الذى قام بين حكومة الخرطوم وحكومة دارفور ، فقد كان السلطان « على دينار » أحد المغضوب عليهم من المهدية ، وأحد المعتقلين سياسيا فى أم درمان « ثم سلط الله عليهم الدولة الانكليزية وشتت الله شمل الخليفة وقومه وفرق الله

---

(١) معالم تاريخ سودان وادى النيل ٥٦ ، ٥٧ ، جريدة الايام فى ١٩٥٦/٣١ .

جمعهم وأذاقهم من الذل والنكال أضعاف ما أذاقنى وأعطى الله كل ذى حق حقه بعد ما كنت مظلوما نصرنى الله وأعادنى الى موطن جـدودى وآبائى فوجدنا دارفور فيافى وقفارا وبقيوا أهلها يأتون (١) اليها من كل فج عميق يخرجون من الأحجار والأشجار مثل نفخة الصور » (٢) .

وقد عرف السلطان كيف يستعيد مملكته ، وقد كان عزم الحكومة فى أول الأمر على اللهو به ، واحتلال مملكته داخليا بالمستشارين ، وبمعتمد يقيم فى هذه البلاد ، ولكن الأمر ما كاد يتم له حتى امتنع تماما عليهم ، من مملكته احتج على سلوك الحكومة وحذرها وأصبح يراقب كل قادم من الشرق بعين الحذر(٣) فتوجست منه الحكومة خيفة وصارت تتحين الفرص له بعد أن كانت راضية عنه فى أول الأمر فقد جاء فى تقرير ونجت باشا عنه فى ١٨ يناير ١٩٠٣ قوله « أما على دينار سلطان دارفور التابع لنا فقد كان سلوكه مرضيا من كل وجه فانه دفع الجزية السنوية الصغيرة المفروضة عليه بأكملها » (٤) . وقد بلغت قمة خوفها منه حين دخل مع فرنسا فى مكاتبات من أجل حدود مملكته ، ومن ثم فقد وقفت منه مواقف عدائية فمنعت عنه ارسال الأسلحة ، وآزرت تآمر « موسى ماديو » زعيم الرزيقات عليه ، ولم ترجع « الزيادية » حين هربوا من بلاده الى كردفان ، ولم تؤدب الكبابيش الذين تعدوا على مملكته ، ولم تسمح لمندوبه بالسفر الى الحجاز لاحضار الأسلحة من هناك ، ولم تقم بعمل حاسم فى رد الفرنسيين عن بلاده .

كل هذا جعل صدر « على دينـار » يغلى بالغضب على الانجليز ، وجعله يتصل بالسلطان فى تركيا آملا — وقد كثرت الاشاعات عن اندحار الانجليز فى الحرب وأنهم سيتركون السودان — التقدم شرقا ، وتكوين دولة اسلامية كبرى ، وتطهير البلاد من هؤلاء الأجانب ، وقد جاء فى

---

(١) هكذا فى الاصل .

(٢) ديوان المديح « لحضرة جلالة أمير المؤمنين فى دارفور السـلطان على دينار سنة ١٣٣١ ص ٤

(٣) السودان فى قرن ٣٣٧ .

(٤) نعوم ٦٨٧/٣ .

رسالته الى السلطان « ... وقد أحاطت أيدى النصارى الكلاب الكفار بالمسلمين من يميننا وشمالنا وورائنا وأمامنا ، وحازوا ديار المسلمين كلها ، وممالك البعض سلطانها مقتول والبعض سلطانها مأسور ، والبعض سلطانها مقهور ، يلعبون بأيديهم كالعصفور ماعدا بلادنا دارفور حفظها الله من ظلمات الكفار ، والداعى أنهم حالوا بيننا وبين الحرمين الشريفين الذين حرسهم (١) الله ومنحكم بخدمتهما ، ولم نر حيلة نتوسل بها لأداء الفرض الذى فرضه الله علينا من حج بيته الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، انجبرنا على مواصلة دولة الانجليز ، وصرنا نعاملهم تارة بالمشاحنة معهم ، وتارة فى حفظ ايماننا واسلامنا فى بلادنا (٢) » .

فالسلطان هنا من معاملاته ومن حديثه نلمح غضبه على هؤلاء الدخلاء وعزمه على محاولة تحرير السودان عامة ، وجعلها بلادا اسلامية للدين فيها السيطرة وللمسلمين فيها العزة .

---

(١) هكذا فى الاصل .

(٢) ديوان المديح للسطان على دينار ص ٤ ، ٥ .

تأثر السودان بالأحداث فى مصر
وسياسة الحزب الوطنى

(٥)

لقد كان السودانيون ينظرون الى مصر فى هذه الفترة نظرتهم الى الأخ الشقيق ، وكانوا يدركون أن وجود مصر فى الحكم مهما يكن نوعه يخفف عنهم أعباء الحياة ، وأن الأمل فى خلاصهم قريب ، ومن هنا فقد كانوا شديدى الحساسية فى كل ما يتصل بمصر ، فكل حادث يقع فى مصر يجد له صداه عندهم . وقد حملت بعض الصحف المصرية لواء هذا التقريب ولم يقف الأمر عند الصحف الجادة كالأهرام ، واللواء بل تعداه الى الصحافة الشعبية أيضا ، ومن هذا ما كتبه يعقوب بن صنوع شيخ الصحافة الشعبية فى مصر اذ ذاك سنة ١٨٨٩ .

« لابد بلغكم ياخلان ، ما فعلته القساة الانكايشان بمدينة أم درمان بجثة محمد أحمد بطل السودان . . الى متى تحلم على الانجليز يا رحمن .. ياما هم وحوش ، يا سلام عليهم متى قدروا ما يعفوش .. نراهم اليوم يقتحموا مقابر الأبطال ، ويخرجوا الميت ويفعلوا به أشنع الأفعال ، وفعلهم ده المشئوم أجروه فى المهدى المرحوم ، أخرجوه من قبره ، وأمام أهله وناسه ، بيدهم النجسة قطعوا رأسه ، وأعطوه لابن أخى غردون الجنرال الخسيس اللى فى عهد المهدى مات فى أم درمان فطيس (١) » .

ذلك لأنه لما قامت ثورة عام ١٩١٩ أكبر السودانيون زعماءها ، وانتصروا لها ، ولقى قادتها من السودانيين الحب والتقدير ، وقد كان لهذا تأثيره فظهرت الجمعيات السرية فى البلاد (٢) ، كما رأينا السودانيين يسيرون فى اتجاه مصطفى كامل ويتأثرون بكل خطاه .

---

(١) مكانة السودان فى العالم العربى للدكتور ابراهيم العدوى ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) كفاح جيل ص ٦١ .
(٣) كفاح جيل ص ١٢ ، ١٤ ، ٦١ .

فقد كانوا معجبين بشخصيته أشد الاعجاب « .. ولكن الشعر لايطول بنا كثيرا ، ولا نصبر على صحبته ، وسرعان ما نلجأ الى مجموعة خطب الزعيم الشاب مصطفى كامل باشا ، نقرؤها فى نبرات خطابية ، ونستظهرها عن ظهر قلب ، ونحسب أنا مكانه من الجموع الحاشدة ، تستمع الينا فى اعجاب ، وتقاطع جملنا بالتصفيق والهتاف (١) » .

وقد حمل مصطفى كامل الأمانة كاملة نحو هذه القضية ، فبدأ يحرض على الانجليز ويعرض بانتصارات « البوير » عليهم .

فلما كان يوم ١٩٠٠/١/٢٠ كتب مقالا ناريا باللواء بمناسبة مرور عام على الاتفاقية جاء فيه « وان أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر ، وأسوأ تذكار يهيج فى نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكار اتفاقية السودان ذلك اليوم المشئوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للامة المصرية وللعالم كله ان السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل ... وما أذكركم بالسودان الا لتفكروا فيه صباحا ومساء ، وتعتبروا الاتفاقية المشئومة اتفاقية باطلة (٢) » .

ومن قبل ذلك نشرت جريدة « الجولوا » الفرنسية خطابا فى ١٨٩٩/٢/٦ لمصطفى كامل جاء فيه « ان اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاء برهانا جديدا على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات ، الشىء الذى يعتبره المصريون جميعا باطلا لأنه مخالف للنظامات الأوربية ، والقوانين الدولية ، فانه أولا ليس لحكومة مصر أى حق فى عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية ، لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة الى خديوى مصر ، واذا قال قائل أن السودان سلخ من مصر بقرار وزارى أو بأمر عال فى سنة ١٨٨٤ ، وأصبح السودان خارجا عن أملاك مصر ، ولا يصح أن تطبق عليه الفرمانات السلطانية ، فاننا وكل رجال القانون نعتبر هذا السلخ غير قانونى .. كذلك فان لكثير من الدول

---

(١) موت دنيا ٣٥

(٢) السودان فى قرن ٢٠٧

الأوروبية أملاكا فى افريقية هذه الأملاك تصبح لا محالة تحت رحمة الدول الانجليزية التى لا تريد الا أن تضع يدها على كل افريقية ليكون لها منها هند ثانية ، وان الحملات العديدة التى حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترنسفال والأورنج ليست الا دليلا قويا على حقيقة مطامعها الافريقية » كما تكلم مصطفى كامل عن السودان فى حفل احتفال الشرقيين به فى لندن فى ١٩٠٦/٧/٢٤ فقال « وانه لكى يدرك الانسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الانجليزى يجب عليه أن يتذكر أولا أن السياسة البريطانية نزعت منا ظلما السودان وهو روح وطننا ، وكم ضحينا فيه من الأموال ، والرجال ، فليس لمصر الآن فيه الا مهمة واحدة ، وهى اعطاؤه جيشا لتسكينه وتنظيمه ، والمال اللازم لارادته ، وان فؤاد كل مصرى ليمتلىء حزنا وأسى عندما يفكر فى هذا الجزء من وادى النيل المحكوم على حدة ، المسلوب من مصر ، السائدة فيه انجلترا (١) » .

وقد ظل هذا الحزب وفيا لهذه المبادىء فكان دائم الاحتجاج على هذه المعاهدة ومن هذه الاحتجاجات ذلك الاحتجاج الذى قام به الحزب فى ١٩٠٩/١/١٩ وأرسلت صورة منه الى بطرس غالى باشا الذى كان قد وصل الى رئاسة الوزراء ، والذى وقع المعاهدة من قبل بصفته وزيرا للخارجية ، وقد جاء فيه :

تتشرف بارسال هذا الاحتجاج لعطوفتكم ضد اتفاقية السودان التى وقعتم عليها بصفتكم نائبا عن الخديوية المصرية ، لمخالفة هذه الاتفاقية للفرمانات السلطانية ، والمعاهدات الدولية وأقر بها معاهدة ترابيا الصادرة فى ٢٥ يونية سنة ١٨٨٢ ، وذلك بناء على ما قررته لجنة الحزب الوطنى الادارية فى هذا العام ، الذى هو تذكار عقد تلك الشركة فى سنة ١٨٩٩ وتفضلوا بقبول احترامات (٢) رئيس الحزب الوطنى : محمد فريد .

---

(١) مصطفى كامل ١٣٦ — ١٣٨

(٢) محمد فريد للرافعى ٨٩

وقد نشطت الدعاية للقضية فى أوروبا فى عهد محمد فريد . فقد ألقى فى مؤتمر الشبيبة المصرية فى جنيف الذى انعقد فى سبتمبر ١٩٠٩ بحثا بالفرنسية عن السودان للأستاذ على الشمسى ، وبحث بالعربية للأستاذ مصطفى الشوربجى كما ألقى الأستاذ محمد زكى على بحثا عن تطور المسألة السودانية فى مؤتمر بروكسل الذى انعقد فى سبتمبر ١٩١٠ (١) .

ولقد كانت هذه الاتفاقية أحد الدوافع لمقتل بطرس باشا فى ٢٠ فبراير ١٩١٠ فقد قرر ابراهيم ناصف الوردانى أن الدافع لقتله « هو ما عده خيانة من تصرفات بطرس باشا غالى وأخصها اتفاقية السودان ، ورئاسة المحكمة المخصوصة فى حادثة دنشواى ... الخ » (٢) .

ولقد كان للأحداث التى مرت بمصر وقع خاص فى السودان لأن السودانيين كانوا يرون فى مصر رائدة يرتبط مصيرهم بمصيرها ، ومن ثم رأينا كل انتفاضة فى الشمال تعقبها انتفاضة فى الجنوب كما رأينا من قبل ؛ ومع أن هذا الصدى لم يكن سريعا وحادا الا أن الحوادث قد برهنت على أنه كان عميقا بحيث يمكن القول أن ثورة ١٩٢٤ فى السودان كانت وليدا شرعيا لثورة ١٩١٩ فى الشمال ، ومن الأحداث التى كان لها صدى فى السودان قانون منع التجمهر فى ١٨/١٠/١٩١٤ ، واعلان الأحكام العرفية ، ووضع الرقابة على الصحف فى ٢/١١/١٩١٤ ، واعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٨/١٢/١٩١٤ ، وخلع الخديوى عباس ، وتولى السلطان حسين فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ ، ثم اضطهاد الحزب الوطنى « فضبطت أوراقه ، ودفاتره ، وسجلاته ، وشتت شمل أعضائه ، أو الذين اشتبهت بأنهم من أعضائه أو أنصاره ، واعتقلت الكثير منهم .. وممن نفوا الى أوربا الدكتور نصر فريد بك ، والى مالطة الدكتور عبد الغفار متولى » .

---

(١) المصدر نفسه ١٥٤ ، ٢٠٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٥٤ .

وتظاهر طلبة الحقوق ، ومحاولة مقتل السلطان حسين ، وتعطيل الجمعية التشريعية ، وتدفق الجنود الانجليز على مصر ، وانفجار الثورة وامتدادها الى كل البلاد [1] .

ولقد كانت السنوات « التى قضاها الحزب الوطنى فى الكفاح من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٨ على عهد مصطفى كامل ، ومنها الى سنة ١٩١٩ على عهد محمد فريد بمثابة المدرسة التى تلقت الأمة فيها مبادىء الوطنية الحقة [2] » فان هذه الثورة نفسها وما سبقها من أحداث قد دفعت الى ثورة سنة ١٩٢٤ فى السودان .

ولقد كان لحافظ رمضان دور ايجابى فى هذه الثورة ولنستدل على هذا الدور نذكر ما جاء فى شهادة على أحمد صالح فى محاكمة رجال جمعية اللواء الأبيض فقد سئل بعد أن حلف اليمين « هل تعرف حافظ بك رمضان ؟ » .

قال : قابلت حافظ محمد رمضان فى جراند أوتيل فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ وأتذكر أنه قد جاءنى على عبد اللطيف حيث بيتى قريب من بيته ، وذهبنا سويا الى شاطىء البحر ، وبعد ذلك لحق بنا توفيق وهبى فدخلنا الثلاثة فى اللوكاندة ، وقد تقدمنا توفيق فعلى عبد اللطيف فأنا ، وقد اجتمعنا فى الجناح الشرقى فى الفرندة شرق اللوكاندة فقال توفيق وهبى لحافظ بك هذا هو على عبد اللطيف صاحب الموقف سنة ١٩٢٢ لأنه كان كتب مقالة يطعن فيها على حكومة السودان فسجن بسببها ، وقد نشرت نفس المقالة فى الأخبار وجرائد مصرية أخرى .

فقال رمضان بك : ها هو البرلمان المصرى قد فتحت أبوابه فيجب عمل مساعدة من السودان لمساعدة المفاوض المصرى ، وان المصريين الموجودين هنا يساعدونكم بواسطة توفيق أفندى وهبه لأنه كان يشاع اذ ذاك أن سعد على وشك الذهاب الى لندن للمفاوضة ، وبعد ذلك انصرفنا .

---

(١) ثورة سنة ١٩١٩ للرافعى ١٠ – ٣٠ .
(٢) نفسه ٤٧ .

أما كيفية المساعدة فهي أن توفيق أفنـــدى وهبى يجمع من موظفى المواصلات ليكونوا واسطة تبليغ بين مصر والسودان رأسا بدون واسطة الحكومة ... ومعنى مساعدة المفاوض المصرى هى أن يجمع عـلى عبـد اللطيف والآخرون عددا كبيرا ليعملوا مظاهرات واحتجاجات بقصد التنفير من الحكومة الحاضرة ، وبعد ذلك ذهبنا لحالنا ، ولمـا نزلنا من « الجراند أوتيل » كنا نتكلم حتى وصلنا الى الحقانية فكان وهبى يشجع على عبد اللطيف ويفهمه أن المصريين يساعدون السودانيين بأى طريقة كانت (١) .

وقد جاء فى أجوبة على عبد اللطيف فى جلسة ١٦ مارس سـنة ١٩٢٥ « .. وأنا كنت قد ذهبت قبل ذلك مرتين لحافظ رمضان بغرض الاستفهام عن السودان ، وغرض المصريين لأن بذلك الوقت كان الـكلام كثيرا عن السودان » (٢) .

وهكذا كانت مصر بأحداثها ، ورجالها وراء الحوادث فى الســودان على أن أبرز هؤلاء كانوا من رجال الحزب الوطنى ، حتى صحفهم كانت تقف نفس الموقف المشرف من السودان ، وقد جاء فى رسالة للمجاهد عبيد حاج الأمين قوله « أرسلت الكلمة لمصر لتنشر فى الأهرام ولا أدرى لمـاذا لم تنشر حتى الآن ، وقد شكا الى بعض الاخوان من أن الجرائد لا تنشر لهم الا قليلا . ولقد نشرت « اللواء » ما بعثت به اليها أخيرا .

عقد لى مجلس تأديب لأنى أرسلت (تلغرافا) للصحف المصرية دون أن أعرضه للمخابرات وقد قرر مجلس التأديب رفتى »(٣) .

---

(١) اللواء الابيض أمام القضاء ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ٣٤ .

(٣) مجلة الحياة ١٩٥٧ .

تأثر السودان بالحرب العالمية الأولى

أحكم الانجليز قبضتهم على السودان حتى لا يتأثر بالأحداث الخارجية وبثت عيونها فى كل مكان فيه حتى لا تقوم حركة تناوىء حكمها فى هذه الفترة . وأوقفت كل المشروعات العمرانية رغبة فى الاقتصاد ولتوجيه الطاقات الى الحرب (١) ، وأحبطت انشاء فكرة نادى الخريجين التى نادى بها جماعة من المدرسين سنة ١٩١٤ لانشغال الحكومة بالحرب ، فقد كانت هذه الدعوة النواة الحقيقية لقيامه فى سنة ١٩١٨ (٢) .

على أن ما كانت تفرق منه انجلترا هو خشية تأثر السودان بالدعاية التركية التى كانت تعتمد على رابطة الدين ، ومقام السلطان ، ومن هنا فقد قام « السر ريجنلد ونجت » فى أكتوبر سنة ١٩١٤ بالطواف فى الأقاليم ، والاتصال بزعماء القبائل ، والأعيان ليشرح القضية الأوروبية بعامة ، ودور انجلترا فى هذه الحرب بخاصة ، وأهمية قيامها بهذا الدور .

« وكانت التقارير ترد من الأقاليم منبئة بأن الحالة على ما يرام ، وأن الناس كان مسلكهم مؤيدا للحكومة ، وأن ليست هناك دلائل شعور دينى فى صالح تركيا » (٣) .

وقد هيأت جريدة « السودان » ومحررها آنذاك لبيب جردينى الأذهان لدخول تركيا الحرب ، مشيدا بالقضية الأوروبية ، وداعيا لمثل ما كان يدعو اليه الحاكم العام .

وحين وصلت الأنباء بدخول تركيا فعلا ، دعا الحاكم العام فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٤ عددا من كبار الضباط فى الجيش المصرى ، وشرح لهم الأسباب التى دخلت من أجلها انجلترا الحرب ، ومقدار ما تتمتع به بلاده من

---

(١) الفجر نظرة فى كتاب هارولد مكميكل أول أغسطس سنة ١٩٣٥ .

(٢) كفاح جيل ١٠ .

(٣) السودان فى قرن ٣٢ .

الاستعداد للحرب ، ودعاهم الى الولاء ، والاخلاص لانجلترا ، وانه على استعداد ليعفى من الأعمال الحربية الضباط الذين ينحدرون من أصل تركى ، ولا تسمح لهم أنفسهم بقتال بنى جلدتهم .

ثم دعا اليه فى نفس اليوم طائفة من العلماء ، وشرح لهم ما أتوا من أجله ، وأن عليهم أن يخلصوا لبلاده .

وفى ٨ نوفمبر دعا اليه فى « السراى » المشايخ ، والعلماء من المدن الثلاث ، ووضح لهم الثمار التى جنتها البلاد من الحكم الحاضر ، وأن حكومته تناصر الاسلام والمسلمين ، وما كاد العلماء يسمعون هذا حتى تحمسوا لانجلترا ، ووقعوا وثيقة ولاء واخلاص للحكومة ولانجلترا وسرت هذه العدوى فى الخارج فقام بمثل ما قام به العلماء أعيان العاصمة المثلثة ، وأعيان الأقاليم ، وزعماء العشائر ، ورجال الدين ، وكبار الموظفين فى كل السودان ، وقد جمع صاحب جريدة السودان عبارات التأييد وطبعها فى كتاب أطلق عليه « سفر الولاء » .

وهذا بعض ما جاء فى عرائض التأييد :

« وسترون بلادنا هادئة رائعة تحت ظل العلم البريطانى الظافر بالنصر على أعدائه ان شاء الله » .

« حكومتنا العادلة التى لم ير الاسلام والمسلمون منها الا كل خير دينى ودنيوى وجميعنا فى استياء من قيام تركيا فى هذه الحرب التى تتبرأ منها فانه لا مصلحة فيها للمسلمين بوجه من الوجوه » .

« دولة العدل والشرف على سائر رعاياها فى جميع أنحاء المعمورة وخصوصا فى السودان بعد أن خلصته من المظالم والاستبداد وسهلت لنا طرق الحج وزيارة قبر النبى » .

« اننا قد شاهدنا عيانا ما كان وجرى فيما سلف مدة الأتراك من الجور والفجور والاستبداد فى الأحكام بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والسجن

والقلاقل والاهلاك والاهانة وامتد ذلك الظلم الى أن الحق يظلم العرب من الأذية » .

« أما نحن فراضون بالحكم الحالى فانه من خير الأحكام » .

« تركيا التى حاربنا ظلمها من قبلكم » .

« ان هذه الحرب التى تقوم بها تركيا اسما والألمان فعلا انما هى حرب ألمانية بكل الوجوه » .

« نرفع لحكومتنا العادلة ولاءنا واخلاصنا قلبا وقالبا اذ لم نر منها سوى احترام ديننا ، وتوظيف القضاة الشرعيين للفصل فى أمورنا بموجب الشريعة المحمدية ، وتشييد المدارس لتربية أولادنا وتعليمهم وتسهيل طرق الحج والزيارة النبوية ونشر العدل والأمان فى جميع أنحاء بلادنا وحسن معاملتنا » .

.. وقد بلغ بهم الانهيار النفسى ، وضياع القيم أنهم لم يرحموا حتى حكم آبائهم من المهدية .

« تغلبت علينا أدوار كثيرة وحكمنا الأتراك والدراويش وغيرهم ولم نجد عدلا ما مثل ولاة أمورنا الانجليز الحاضرين الوفيين العاملين » .

« ويكفينا ما شهدناه ورويناه عن آبائنا السالفين من أعمال الحكومات السابقة من الاستبداد أو الجور وسوء المعاملات والتهافت على أكل الرشوات وهتك الحرمات ولا سيما حكومة الترك ورجالها » .

« .. هذه مقتطفات وردت فى سفر الولاء من تلك « العرائض » ، و « التلغرافات » والخطابات التى سجلها العلماء والأعيان وزعماء العشائر التى يستشف منها الباحث الروح التى كانت سائدة آنذاك أو التى أريد لها أن تسود وأن تنتشر دعايتها بين الأهالى بواسطة قادتهم وزعمائهم . وهذه نتيجة لدعاية واسعة النطاق قام بها رجال الحكومة ، وترتكز على أن الحرب التى خاضت غمارها تركيا زعيمة العالم الاسلامى لم تكن بالحرب الدينية فى كثير أو قليل ، وانما انقادت تركيا لالمانيا لمطامع الدنيا لا جهادا

فى سبيل الله ، وأن الشباب الأتراك الذين بهرتهم المدنية الأوربيـــة قادوا الخليفـــة ورجال الدين الى هذا المصير ، والانصياع لالمانيا وقد نجحت الدعاية ، وساعد على نجاحها ما يعرفه وما خبره أهل السودان عن تركيـــا والأتراك . فهم لم يعرفوا الأواصر الروحية التى تربطهم بالخليفة بل عرفوا عن الحاكم والجندى التركى القسوة والفظاظة والجلد بالسياط (١) » .

على أن السودان قامت به عدة حركات تدل دلالة قاطعـــــة على أن الشعور العام فى السودان لم يكن كله متجها نحو انجلترا فقد قام تشكيل مناهض لانجلترا فى البلاد من الذين يرجعون بأصولهم الى الترك ، أو من تغلبت عليهم عاطفة الرابطة الاسلامية ، ومع أنه كان تشكيلا سلبيا الا أنه استطاع توزيع منشورات على رجال الدين تذكرهم بعدوهم الحقيقى ، كما كانت تشيع دائما أن الانجليز قد انهزموا مما كان يحـــدث بلبلة فى الرأى العام السودانى .

كما قامت حركات عصيان فى البلاد كتلك الحركة التى حدثت فى جبال النوبة ، واستدعى اخضاعها انشغال الجيش المصرى عدة شهور ، وكحركة « عجبنا » فى مركز الدلنج فقد سيطر على مجموعة من الجبال هنـــــاك ، وجاهر بعصيانه ، وطالب بالضرائب بدلا من الحكومة حتى تم القبض عليه سنة ١٩١٧ ، وكحركة « الفكى على » فى جبال ميرى بمركز جلى ، الا أن الحركة الجماعية الوحيدة فى البلاد الاسلامية ، والتى لا تمثل الشـــــعور الاسلامى فى السودان فقط بل فى العالم الاسلامى كله .

كانت تلك الحركة التى قام بها السلطات « على دينار » فى دارفور ، فقد استجاب — الى جانب كرهه لهؤلاء الدخلاء والرغبة فى اســتخلاص السودان من أيديهم — الى نغمة الجهاد المقدس التى كانت تهيب بالمسلمين فى كل مكان لحمل السلاح ضد أعداء تركيا ، فأعلن انضمامه الى تركيـــا وأرسل الى السلطان رسالة مرت بنا .

---

(١) السودان فى قرن ٣٢ — ٣٥ .

وقد كتب اليه أنور باشا رسالة من تركيا فى ٣ فبراير سنة ١٩١٥ يذكره فيها بحركة الاعتداء التى قامت بها روسيا وانجلترا وفرنسا على تركيا ، وأن « الخليفة » أعلن الجهاد المقدس ضد هؤلاء المعتدين ، وأن المشيخة الاسلامية أفتت بأن الجهاد قد أصبح فى هذه الفترة فرض عين على كل المسلمين ، ويذكر له أنه أرسل نورى بك للسنوسى ، وأنه أرسل اليه جعفر بك ويخبره بارسال تجريدة لانقاذ مصر وأنه وحلفاءه الألمان منتصرون .

وما كادت هذه الرسالة تأتى للسلطان على دينار حتى رد له « ونخبر جنابكم أنه منذ انتشاب الحرب بين جلالة سلطان الاسلام وبين الألداء الكفار والفساق الانجليز وفرنسا وما يليهم ، فمن وقته قطعت ما كان بينى وبين الكفار الملعونين من العلائق الودية وجاهرتهم بالعداوة وأعلنتهم بالحرب واستعديت لهم بقدر ما يستطيعنى من القوة غيرة فى دين الله وحمية للاسلام (١) » .

ولقد كان عزم السلطان مستقرا على السير شرقا لتخليص البلاد من هذا الحكم الأجنبى ، ووضع أمور السودان جميعه بين يديه . وما كادت الحكومة تعلم بهذا العزم حتى استقرت نيتها على مبادأته . ومن هنا حشدت له قوة جبارة أكثرها من الجيش المصرى بقيادة « كلى باشا » وقامت ضده بحركة دعاية فى الخرطوم ، حتى لقد تأثر بها رجال الدين فأرسلوا اليه طالبين منه الخضوع للحكومة « غير أنه رأى فيها فرصة سانحة يستطيع تصفية حساباته نهائيا مع الانجليز ولذلك مضى فى سبيل الحرب والجهاد » (٢) .

غير أنه هزم فى موقعة « برنجيه » فى ٢٢ مايو سنة ١٩١٦ بعد أن قتل من رجاله خمسمائة محارب . وقد التجأ السلطان الى معتقله بين جبل

---

(١) السودان فى قرن ٣٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ٣٤٤ .

« مرة » ودارسلا الا أن هدلستوبك طارده وأخيرا لاقى حتفه برصاصة فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ .

.. ثم أعلن انضمام « دارفور » الى السودان بعد ثمانية عشر عاما من فتح كتشنر (١) .

وقد كان على دينار يمثل البقية الباقية من سلاطين البلاد الأقوياء ، وكان يحكم بلاده حكما مطلقا على أساس الشريعة الاسلامية ، كما كان يرسل الى الحجاز محملا سنويا شأنه فى هذا شأن كبار ملوك المسلمين ، ولقد كان كاتبا وشاعرا مجيدا وله ديوان يسمى « ديوان المديح فى مدح النبى المليح » .

والمشاهد أن الحركات المناوئة كانت دائما على أطراف البلاد كتلك الحركات التى قام بها جماعة السنوسية فى الشمال ، والجرعان بالغرب ، والنوير فى الجنوب ، والترخانة بجوار بحيرة رودلف أما حالة أواسط بلاد السودان وشمالها حيث يوجد خير السكان مدنية وأكثرهم تعقلا وحيث يوجد رأى عام على نوع ما فقد كانت على ما يرام من الهدوء اذ أن الأهالى فى هذه البلاد كانوا يعطفون عطفا فعليا على الحكومة .

ومن الأمور التى قامت بها بلاد السودان اختراع قنابل « غارلند » اليدوية وصنع ١٧٤٫٠٠٠ قنبلة منها للقوات العاملة فى البحر المتوسط وتقديم ١٤٫٠٠٠ جمل و ٢٠٠٫٠٠٠ برش لاستعمالها فى الدفاع عن قناة السويس ، وتقديم « أورطة » كاملة من العمال فى الدردنيل ، واشتركت قوات من الجنود التى كانت تعمل فى السودان فى المعارك التى جرت عند قنال السويس ، وفى فلسطين ، وضد السنوسى فى مصر الغربية ، وفى حكومة السودان لمصر ، وفى الكنغو الفرنساوى ويوغندا وقدمت

(١) السودان فى قرن ٣٤٤ لمكى شبيكة ، ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعى ٣٠ .

٠٠٠ر١٦٩ طن من الحبوب و ٠٠٠ر٦١ رأس من الماشية و ٠٠٠ر٣١٨ رأس من الغنم تقدر قيمتها بنحو ٠٠٠ر٥٩٥ر٣ جنيه وهذه الأعمال وغيرها من الخدمات المتعددة لم يكن بوسع البلاد عملها لولا ولاء زعماء البـــلاد ومشايخها وتلبيتهم كل طلب » (١) .

.. فالى جانب حكم الســـودان بيد من حديد ، ووقف مشروعاته العمرانية ، والقضاء على روح التحرر فيه نراهم قد اســتنزفوا خيراته ، وأفسدوا ضمائر البعض من رجالاته .

(١) مرآة السودان فبراير سنة ١٩٥٧؛ عن جريدة الحضارة فى ذكرها لتقرير الحاكم العام عن السودان والحرب ، والايام ١/١/ ١٩٥٧ .

تأثر السودان بثورة عام ١٩١٩

أحدثت الثورة المصرية فى الوجدان السودانى رجفة عميقة . فقد كان ينظر اليها السودانيون فى هذه الفترة على أنها المخلص لبلادهم وكانوا الى جانب اعجابهم بها يرون فيها صورة من الكفاح من أجل بلادهم ، وأنه قد آن لهم التخلص من الحكم الذى يضغط على آمالهم ومستقبلهم ، فلم يكن تأييد بعض السودانيين للحكم الحالى عميق الجذور ، ولم يكن الذين ساندوا هذا الحكم بشدة يمثلون المصير العام لبلادهم فقد كانوا مدفوعين بعدة دوافع كاستجلاب النفع المباشر ، وكراهية المصريين لعوامل وراثية ، وقد احتاطت الحكومة فعملت من جانبها على عدم تسرب أخبار الثورة ، فصادرت بعض الصحف المصرية ، وحرمت على صحافتها ذكر انتصاراتها ، وقد حوكم البكباشى خلف الله خالد سنة ١٩٢٢ فى كوستى بتهمة توزيع صحف مصرية ممنوعة (١) ، وحين ارتفع أول صوت يدعو الى الجهاد متأثرا بما يدور فى مصر ، أسرعت جريدة الحضارة فكتبت فى مقالها الافتتاحى بتاريخ ١٩١٩/٦/٨ ، تشيد بمزايا حكم الانجليز ، وبتفوقهم الحربى ، وتصف الخطيب الجرىء بالهوس والخطبة بالسخافة . ثم ختمت المقال بقولها « ان أهالى السودان قد رأوا بأعينهم كما رأى غيرهم الأضرار التى عادت على مصر من جراء تعاليم مثل هذه » ولكن الخطباء تكاثروا فى أكثر من مكان بالسودان يذكرون بالأغلال التى يعيش فيها السودان ، ويحثون على مساعدة مصر فى جهادها الذى هو فى الوقت نفسه جهاد من أجل السودان (٢) كما خطب الشيخ الحسن الأمين امام جامع الخرطوم خطبة حث فيها على مساعدة المنكوبين السياسيين فى مصر بحوادث سنة ١٩١٩ (٣) .

---

(١) أسرار وراء الرجال ١٥٣/٢ .

(٢) يقظة السودان ٦٧ .

(٣) اللواء الابيض امام القضاء ٣٨ .

وقد وصف أحد المعاصرين صدى هـذه الثـورة على نفسـه بقوله « وكانت الثورة المصرية على أشدها ، وعقابيلها مستمرة ما بقينا نحن فى الدراسة الابتدائية ، وشعراء مصر أمثـال شوقى وحافظ يسـجلون تلك الوقائع والحوادث فى شعر رصين ، ونحن نلتهمه التهاما ولا يزال الكثير منه عالقا بأذهاننا ، وكانت نفوسنا المتفتحـة للحياة تسـتوعب الحوادث وتأخذ منها العبر (١) » .

وقد تطورت هذه الانفجارات الصغيرة ، وأصبحت هتافا قويا بحياة مصر ، ومنشورات تحض على الثورة ، حتى لقد كانت الصـبية تردد فى الشوارع « السجن ما يهمنا سعد باشا عمنا (٢) » .

وقد اصطفى الحكام فى هذه الفترة طائفة من السادة ، والعلماء وزعماء العشائر وأرسلوهم الى انجلترا عام ١٩١٩ لتهنئة الملك .

كما تجاهلت السودان فى معاهدة فرساى (١٩١٩/٦/٢٨) وحاولت فى مشروع اللورد ملنر أن تبقى الحـال فيه على ماهو عليه ، وحرصت فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعطى مصر استقلالها أن تبقى كذلك الحال فى السودان على ما هو عليه فقد جاء فيه .

(ا) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع على مصر ضد كل اعتـداء أو تدخـل أجنبى بالذات أو بالوساطة .

(ج) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهـذه الأمور على ما هى عليه (٣) .

ولا شك أن الذى حملها على هذه التحفظات ، هو هذا الروح القوى

---

(١) موت دنيا ٨٧ .

(٢) الايام ١٩٥٧/١/٣ .

(٣) مجموعة الوثائق للدكتور البراوى ١٢٠ ـ ١٣٨ .

الذى رأته ملتصقا بمصر ، والذى لو لم يحول تدريجيا عن مصر لارتبط بها من وقت بعيد ، وقد نفذت فعلا هذه السياسة وكونت رأيا عدائيا فى البلاد ، وظهر هذا الشعور العدائى فى الاجتماع الذى عقد فى منزل السيد عبد الرحمن المهـدى فى أم درمان ، والذى انتهى بقرار موقع عليه ثم أرسل الى الحاكم العام وكان فى هذا القرار

« ان الرأى العام فى البلاد مجمع على اختيـار الانجليز ليكونوا أوصياء على الأمة السودانية ليعلموها كيف تحكم نفسها بنفسها » .

وقد أدت الثورة المصرية بتشكيلين عدائيين للانكليز أحدهما عرف بسريته وهو جمعية الاتحاد ، والثانى عرف بجهريته وهو اللواء الأبيض .

من أبرز أعضاء التشكيل الأول ابراهيم بدرى ، وخلف الله خالد ، وعبيد حاج الأمين ، والامين على مدنى ، وتوفيق صالح جبريل ، ومحيى الدين جمال ، وسليمان كشة ، وعابدين عبد الرءوف ، وعثمان محمد هاشم .

وقد تمثل نشاط هذه الجمعية فى ارسال المنشورات السرية الى كبار الزعماء والمواطنين « منذرين ومحذرين من السير وراء الخدعة الانجليزية وهى فصل السودان عن مصر والانفراد بحكمه والوصاية عليه »

وفى بث الوعى الجماهيرى بنشرات تعلق فى الأماكن العامة ، وتلصق على الأعمدة والجدران .

وفى مراسلة الصحف المصرية كالأهرام ، واللواء ، والكتابة اليها بأغراض الجمعية ، وفى أخذ مواقف عدائية من الانجليز ، وقد كان يفرح الحزب بتساند المصريين فحين شارك الأمير عمر طوسون المصريين آمالهم أرسلوا هذه الرسالة التى نشرت فى الأهرام .

« حضرة الفاضل رئيس تحرير جريدة الأهرام
سلاما واحتراما . تناشدكم بحق الاخلاص وواجب الصحافة ، وبما

يترتب أو ينتج من توثيق عرى الرابطة السودانية المصرية اثبات هــذا الكتاب المفتوح بجريدتكم لاطلاع سمو الأمير والشعب المصرى عليه !

الى سمو الأمير الجليل عمر طوسون ان ما بذلتموه من المجهود العظيم فى سبيل مصلحة السودان وما أتيتم به من سديد الآراء ومحسوس البرهان لضمان المستقبل الزاهر لنا ، وما أثبتموه من أن السودان ومصر قطر واحد لا يقبل التجزئة ولا التدخل الأجنبى ، حدا بحزب الاتحاد السودانى أن يقرر فى جلسته المنعقدة يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢ تبليغ سموكم والأمة المصرية بأسرها بأن فى السودان حركة وطنية أساسها القومية الصادقة ، وغايتها تأييد الشعب المصرى ، والا ينفصل السودان عن مصر بأى حال من الأحوال .

ورغما عن سعى الانجليز المتواصل وكثرة جواسيسهم وبحثهم للقضاء على تلك الحركة فان الجمعيات السياسية كل يوم فى ازدياد فى الأعضــاء ونشاط للعمل وقد لا يمر يوم الا ويتلقى فيه المواطن منشورا عن الدسائس الاستعمارية واستبداد الانجليز .

فاقبل يا سمو الأمير سلوكنا على نهج الحق والعمل لصالح السودان ومصر بدل تنميق عبارات شكرنا وأبناء مصر المخلصين .

فليحى وادى النيل حرا من اسكندرية شمالا الى ما بعد بحيرة البرت جنوبا وليحى الاخلاص .

أم درمام فى ١٩٢٢/١١/١٠ سكرتير جمعية الاتحاد بأم درمان (١)

وحين زار « اللورد اللنبى » الخرطوم ليبشر بسياسة الوصايا الانجليزية على السودان حشد له الحاكم العام أعيان البــلاد ، والزعماء ، ورجال العشائر ، وتلاقى صوته بصوت المنادين بالوصاية الانجليزية على السودان وقد أثر هذا فى الشاعر توفيق صالح جبريل فأرسل الى الدكتور محجوب ثابت قصيدة يناوىء بها هذا الاجتماع ويطلب منه نشرها ، وقد جاء فى الاهرام بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٢٢ ما يلى :

---

(١) مجلة الحياة السودانية ١٩٥٧/٤/٢٨ .

تلقى حضرة الأستاذ الكبير الدكتـور محجوب ثابت قصيدة من أحد شعراء السودان صدرها بالكلمة الآتية :

« سيدى الدكتور لقد قرأت ما تخطه يداكم الكريمتـان بخصـوص مسألتنا الحيوية وهى المسـألة السودانيـة ، ولعمرى ان عملكم لعمـل المجاهدين الأبرار فرأيت وأنا أحد أبناء السودان أن أخصكم بما أستطيع من الشعر الذى لا يمكننى أن أسميه شـعرا الا لمـا نعرفه نحـن معشر السودانيين من تجاوز اخوانـنا المصريين عن غلطاتنـا ، وانى لأرجو أن تتكرم بنشرها فى احدى الجرائد اليومية وتقبل فائق احترامنا (...) »

« عزيزى الفاضل رئيس تحرير الاهرام .

أرسل اليك هذه القصيدة المعبرة عن وجدان منشئها أخينا السودانى الذى حيل بيننا وبين معرفة اسمه بالقوانين العرفية التى يعيش تحت نيرها هو وأقرانه منذ ربع قرن ، لتسـاعدونى على بلوغ طلبـه بنشر صوته الشعرى ليتردد صداه فى أسفل الوادى وأعلاه ، ساعد الله الكنانة على جمع الشمل بين القطرين الشقيقين اللذين لا ينفصلان أبدا مهمـا حاول المستعمرون ، ومن غالب الطبيعة قهر ..

فليحى اخواننا السودانيون أحرارا ، وليعش النيل حرا ولتحى مصر والسودان .

« الدكتور محجوب ثابت »

أيهـا القـوم لا تجروا الذيولا ... يأنف الحـر أن يعيش ذليـلا
سمتمونا العذاب ضيقتم الأرض عل ... ينا حتى هوينـا الرحيـلا
ويح قلبى ماذا يـروم « اللنبى » ... يوم وافى يجـر سـيفا صـقيلا
جمع الجمـع أرهب القـوم حتى ... أصـبح السيد النبيـل ذليـلا
أتراه يريد يفصـم حبـلا ... بين مصر وبيننـا موصـولا
جل من ملك الدخيل فجـر الذ ... يل واستمطر العـذاب وبيـلا

.. وما يكاد يسمع الانجليز بهذه القصيدة حتى ينشطوا للبحث عن

الحزب ولكن بدون أمل (١) ، وقد ساعد الحزب على كل ما يشجع الصلة بمصر ، ولما كان الانجليز يحولون دون سفر الراغبين فى تلقى العلم بمصر . نرى ثلاثة من أعضاء الحزب هم عبيد حاج الأمين ، عثمان محمد هاشم وسليمان كشه يشجعون الطالبين توفيق أحمد البكرى ، وبشير عبد الرحمن على الذهاب الى مصر ويكونون فى وداعهما سرا عند الرحيل ، وقد وصل هذان الطالبان وضمهما منزل الشيخ محمد نور الحسن ، وحاول الانجليز فى مصر ترحيلهما وحرموا الاتصال بهما ومعاونتهما — لولا ما كان يصل اليهما سرا فى أوقات متباعدة من أعضاء الحزب (٢) .

وقد استمر ارسال المنشورات السرية وتعليقها بحيث يراها الجمهور فتصدت لهم جريدة الحضارة ، وكتبت تحت عنوان « النشرات المبتذلة » فى ٢٦ مايو سنة ١٩٢١ ما يأتى :

« بلغنا أن بعض الحمقى المتهوسين أباحوا لأنفسهم أن يذيعوا فى بعض الأنحاء منشورات سخيفة لا معنى لها الا الدلالة على مبلغ علمهم وحقيقة أدبهم ، وأننا لا نكلف أنفسنا عناء الرد عليهم سوى أننا نصرح بأن مساجد السودان المعمورة ، وشعائر أهله الدينية المصونة من كل عبث ، وانتشار المدارس فى طول البلاد وعرضها مما يشهد بأن الحكومة السودانية لم تأل جهدا فى الأخذ بيد الأهلين وبالقيام بكل ما يقضى به الدين الحنيف ، أما الأراضى فقد كتبنا عنها ما يكفى ، ونعيد اليوم القول بأن الحكومة تحرص كل الحرص على أملاك الأهلين ، ولا تفكر الا فى جعل السودان جنة ناضرة من حيث ريه وزراعته متحملة فى سبيل ذلك المشقات الجسيمة ، والنفقات العديدة من الأموال البريطانية الصرفة التى لا ينبغى أن يشار الى مساعيها الا بما تستحقه من الثناء والحمد ومقابلة الجميل بمثله ، وأنه لا يشكر الله الا من يشكر الناس » .

---

(١) الحياة ١٩٥٧/٤/٢١ .

(٢) الحياة ١٩٥٧/٣/١٠ .

كما تصدى لهم ثالث زعماء البلد مكانة وهـو الشريف « يوسف الهندى » فقد كتب فى الحضارة مقالا بتاريخ ١٦ نوفمبر تحت عنـوان « نصيحة عامرة ظاهرة » جاء فيه :

« ما هذه المقالات والانشقاقات ؟ أتريدون بها تعكير المياه أم الخلاص مما أنتم فيه ؟ رأى الله شيئا حسنا ففعله « ألا الى الله تصير الأمور » أما الملك فله يؤتيه من يشاء ، فاتقوا الله يا عباد الله واملئوا مراكزكم وانزلوا نفوسكم حيث أنزلكم الله ، وأنزلتكم الحكومة ، واستعملوا حسن الظن وشكر الجميل .

وقد وردت علينا منشورات كثيرة ملعونة لأن النصح لا يدخل فى باب الجهالة . وقد عجز صاحب المنشورات أن يكتب اسـمه فهل علم الناس بناصح مجهول وأمين معدوم ؟ ان كان ناصحا وأمينا فيلقابلنا وينصحنا ويسمع ما عندنا ، وهل من النصح والأمانة أن يرمى المسلم أخاه بالخروج من الدين ؟ وهل بعد ذلك من الأحكام ؟ فليحضر أصحاب المنشورات موضع النصح والاصلاح .

أما الأمة السودانية سوادها الأعظم وملأها الأكبر مرتاحـة ومطمئنة بما لم يسبق له مثيل ، وشاكرة بما تراه من العدل والحرية والأمن .

فهل يسمع أصـحاب المنشورات بمتظلم من الحكومة ، أو متـأفف ونطوف بهم على كل حى وبلد ، فان وجدوا خلاف ما قلنا فنحن الكاذبون ، والى الله ترجع الأمور واليه المصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ...

« الشريف يوسف الهندى »

وقد رد عليهم كذلك الشريف بعد أن تدفقت عليه المنشورات ويشاء القدر أن يتحول حبه عن الانجليز حين أنعم فى حفل افتتاح خـزان سنار ــ الذى حضره المندوب السامى فى مصر ، وسرى باشا ، والدكتور محمد حسين هيكل (١) ــ على السيد عبد الرحمن المهدى ، والشيخ على التوم

(١) استوحى من هذه الرحلة كتابة « عشرة أيام فى السودان » .

ناظر الكبابيش بنيشان القديسين ميخائيل ، وجورج مع لقب سير . أما هو فقد أنعم عليه بوسام دون وساميهما وقد ترتب على هذا أنه قطع أسلاك التليفون بقصره رمزا لقطع صلته بالحكومة فى الخرطوم (١) .

كما قام اثنـان من الجمعية هما توفيـق صالح جبريل ، وعابدين عبـد الرءوف بازالة مظاهر الزينة التى كانت فى « أم رؤابة » بمنـاسبة عيد ملك الانجليز . وقد أثر هذا فى نفسـية الانجليـز ، وأحال فرحهم حزنا وضيقا (٢) .

وقد أسهم خليل فرح الشاعر ، والمغنى ، والملحن السودانى فى نشاط هذا الحزب ، وقد أزعج الانجليز بأغنيته التى أصبحت جماهيرية يتغنى بها كل مناوىء للحكومة ، ويقال ان أحد الذين كانوا مصممين على انزال العقاب بصاحبها ــ وهو عميل الانجليز صمويل عطية ــ حين سمعها منه عفا عنه ولم يرفع أمره الى المسئولين وهذه هى الأغنية .

نحـن ونحن الشرف البـاذخ   دابى الـكر شـباب النيـل
نحـن فدايتـك نحن حمايتـك   نحـن نمـوت ويحيـا النيـل
نحن الصـوله نحن الـدوله   نحـن كنـانة اسـماعيل
نحـن بـرانا نحـمى حمـانا

يا نزلانا امرقـوا الرمـه   كيف ينطاق هـوان الأمـه
زروا حلوقنـا وشالوا حقوقنـا   ديل عاوزين دمـانا تسـبل
ما فيش تانى مصر سـودانى   نحن الـكل ولاد النيـل (٣)

ولعل أقوى المنشورات التى حارب بها الانجليز هذا المنشور .

« حضرات الاخوان أبناء وطنى السودانيين .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد لبثتم طويلا وأنتم خاضـعون لأحكام سياسـة الاستعمار

---

(١) الحياة ١٩٥٧/٥/١٢ .

(٢) الحياة ١٩٥٧/٤/١٤ .

(٣) الحياة ١٩٥٧/٤/٢١ .

الانكليزية تلعب لكم أهواء القوم كل ليلة فتارة تفرق بين القبائل بغير ذنب ، غير غضب المفتش أو المدير ، وتفرق بين السادة رؤساء الدين فتارة تقرب واحدا منهم دون الآخر ، وتمد بالمال واحدا وتسجن سواه ، وهكذا يذيقكم الانجليز من صنوف العسف والجور ألوانا منها نزع ملكية الأراضي من أصحابها الشرعيين ، ويعطونها للشركات الانجليزية . ثم حرمانكم من حقوقكم المشروعة ، ويحجز على حريتكم الشخصية .

وليس أدل على ما وصلت اليه البلاد من الضيق من أن المدارس بالخرطوم وأم درمان ترغم أبناءها على تعلم الانجيل كما ترغم أهالي الجنوب على التدين بالنصرانية ، ووجود ست كنائس فى الخرطوم كاملة فى حين يوجد جامع واحد لم يتم منذ عشرين عاما .

عليكم أن تجاهروا القوم بما تكنه ضمائركم لأنهم مغرورون فى سكوتكم ، وفى هذا من الضرر عليكم ما فيه . لقد بدأ الانجليز يعملون للتفرقة بين المسلم والقبطى طويلا ، وأقاموا الفتنة بالبلاد وكانت الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ، وقد اتحد العنصران مع بعض والحمد لله .

ان الانجليز يودون أن يجعلوكم مستعبدين لهم أبد الدهر كغيركم من الذين فى مستعمراتهم منذ مئات السنين ، وأنتم ما زلتم خارج الشرك المنصوب فعليكم أن تهبوا مع شعب مصر لطلب الاستقلال التام لمصر والسودان ، هدانا الله واياكم لما فيه الخير والسعادة لبلادنا ونصرة الدين والسلام (١) » .

وأخيرا وضع « صمويل عطية » يده على سر الجمعية باغرائه اثنين من رجالاتها ، وما كاد هذا الأمر تظهر رائحته حتى انقسم الأعضاء الى قسمين : قسم يرى حل الجمعية والمسالمة ، والقسم الآخر يطالب باعلانها وقد انضم هذا القسم الأخير الى جمعية اللواء الأبيض وعمل باخلاص فى تشكيلها .

---

(١) الحياة ١٩٥٧/٥/١٢ .

وحين وصل نبأ الحل الى الشاعر ابراهيم بدرى وكان بعيـــدا عن الخرطوم أرسل الى الجمعية قصيدة مؤثرة جاء فيها :

من أجـــل فـــرد خـــائن   تبغـــون حـــل الاتحـــاد
مهـــلا عليـــه فســـوف يـــر   ســـف فى قيـــود الاضـــطهاد
ويـــرى نتيجـــة مـــا جنت   كفـــاه من ضرر العبـــاد

وهكذا انتهت عند هذه الغاية السلبية جمعية « الاتحاد » ، ووجهت الحكومة نشاطها الفعلى نحو جمعية « اللواء الأبيض » وقد كانت هناك جمعيات أخرى تقوم بالدور الذى قامت به « الاتحاد » مثـــل جمعيتى الشبيبة الناهضة ، والاخوان الخمسة (١)

ولكن الأثر الايجابى كان لجمعية « اللواء الأبيض » .

(١) اللواء الابيض ٣٥ .

أسباب حوادث ثورة ١٩٢٤
وموقف السودان منها ونتائجها

لقد كانت السياسة الانجليزية تضغط بعنف على الحياة فى السودان ، وتقطع الأواصر بينه وبين مصر ، وتحرمه الكثير من حرياته ، ولقد كانت عواطف الكثيرين يومئذ ملتصقة أشد الالتصاق بمصر وكفاحها ، فكانوا يعتبرون ثورة مصر ثورة لهم ، وأنهم لن يتخلصوا الا على أيديهم ، ولقد عبرت عن هذه الأواصر جمعية « اللواء الأبيض » ولقد كانت الحركة فى مجموعها صدى سودانيا للحركة التحريرية التى نهض بها المصريون فى الشمال ، وكانت ترمى لاشراك السودانيين على مرأى ومسمع من العالم فى نضال وادى النيل ضد الاستعمار البريطانى (١) .

ونستطيع رؤية أسباب هــذه الثورة فى تلك النشرة التى أصدرها المجاهد على عبــد اللطيف وزملاؤه سنة ١٩٢٢ والتى سموها « مطالب الأمة المصرية » فقد جاء فيها :

١ — ان الانجليز يسعون لفصل السودان عن مصر رغما عن ارادة أهله .

٢ — ان الذين خطبوا ووقعوا على عرائض الولاء للحــكم لا يمثلون الا أنفسهم .

٣ — ان السياسة الانجليزية لم تجلب للسودان أية منفعة تعود على أهله

٤ — انها أثقلت كاهل الأهلين بالضرائب .

٥ — انها لم تنصف سكان المديريات ، ولا سيما أهل الجزيرة فقد أخذت أراضيهم وسلمتها للشركات الانجليزية .

٦ — احتكرت القطن والسكر .

---

(١) كفاح جيل ١٧ .

٧ — احتكرت جميع الوظائف الممتازة وحرمتها على أهالى البلاد المتعلمين الأكفاء .

٨ — ان أموال البلاد تصرف جزافا فى بناء واصلاح المنازل الفخمة لسكنى الموظفين الانجليز .

٩ — ان الموظفين الوطنيين يسكنون فى بيوت من القش والطين على حسابهم من مرتباتهم الضئيلة ، وهذه المساكن عرضة للتدمير بسبب الحرائق أو السيول الجارفة .

١٠— ان التعليم ناقص فى كلية غردون والمدارس الأخرى (١) ..

وقد قبض على المجاهد على عبد اللطيف بسبب هذه المطالب فى يونيو ١٩٢٢ وحكم عليه بالسجن سنة كاملة ، وحاولوا بعد خروجه قطع معاشه ، ولكن عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء فى هذا الوقت أبى عليهم ذلك .

ولقد كان من الأسباب أن الانجليز أصروا فى مشروع ملنر ومفاوضات (عدلى — كيرزن) على تجاهل السودان ومحاولة استئثارهم به ، وقد حدث فى سنة ١٩٢٤ أن أقيم معرض عام لمستعمرات الامبراطورية الانجليزية فى « ومبلى » بالطرف الشمالى الغربى من لندن ، فأشرك الحاكم العام السودان فى هذا المعرض دون عرض هذا الأمر على مصر . وقد أثار هذا المشاعر لأن السودان قد مثل فى هذا المعرض باعتباره مستعمرة بريطانية ، وقد احتج سعد زغلول على هذا بتلك البرقية التى أرسلها الى السير لى ستاك فى أواخر ابريل سنة ١٩٢٤ ، ثم فى الوقت الذى كانت فيه السياسة الانجليزية توجه حركة انفصالية فى السودان ، نراها تقوم بحركة مضادة فتمنع الوفد الذى اختير للسفر الى مصر ليؤكد لها اخلاص السودان لمصر ، فقد اعتقلت بعض أعضاء الوفد ومنعتهم جميعا من التوجه الى القاهرة ، وقد أثار هذا أزمة فى مجلس النواب فى جلسة ٢٣/٦/١٩٢٤،

(١) الزعيم على عبد اللطيف للاستاذ عبد الحميد ابراهيم عبد الرحمن ٢٣ .

ورد سعد زغلول على تلك العــاصفة التى أثارها عبد الرحمن الرافعى ، وعبد اللطيف الصوفانى ، والباسل ، ومحمود علام ، وأحمد رمزى بقوله : « يمكننى أن أصرح لحضراتكم بأن الحكومة تشارككم كل المشاركة فى شعوركم بالنسبة للسودان ، بل تنظر بعين المقت لكل عمل من شأنه أن يفصل السودان عن مصر » (١) .

وقد أثار رجوع الوفد ضجة كبيرة فتجمهر الأهالى وأخذوا يهتفون بحياة مصر ، وسعد زغلول والملك فؤاد ملك مصر والسودان (٢) ..

ونستطيع أن نقول ان السبب المباشر لهذه الثورة أن سـعد زغلول حينمــا تولى الوزارة ســنة ١٩٢٤ ودعا للمفــاوضات ، افترض بعض السودانيين أن انجلترا قد تتساهل فى شيء من أمور السودان ، فأرادوا قطع الطريق أمام المفاوض المصرى ـــ مدفوعين بالاتجاهات الانجليزية ـــ برفع « العرائض » الى السير لى ستاك ذاكرين فيها انه يجب أن يظل السودان تحت رعايتهم وحدهم .

فقد اجتمعوا فى مساء الثلاثاء ١٠ يونيو سنة ١٩٢٤ فى منزل السيد عبد الرحمن المهدى من أجل هذه الغــاية ، وقد وصف لنا السيد حسين شريف رئيس تحرير الحضارة هذا الاجتماع فى مقاله الذى صدر فى ١١ يونية سنة ١٩٢٤ تحت عنوان « اجتماع سياسى كبير » فقال :

« لم تكد الأمة السودانية يقـــرع سمعها جرس التنبيه بأن زمن المفاوضات فى مسألتها أطل . . . الا وأخذ ممثلو قبائلها وطبقاتها فى كل مديرية ، وفى كل ناحية يجتمعون .. فأخذت العرائض فى هذه الأيام الأخيرة تتوارد ، وتترى على معالى الحاكم العام من جميع الأقاليم ، أما العاصمة المثلثة فلأنها فى مركز يمكنها من الاطلاع على الأخبار ومراقبة الأحوال بقيت متريثة حتى الآن .

---

(١) الزعيم على عبد اللطيف ٢٦ ــ ٣٥ .

(٢) اللواء الابيض ١٢ .

ولما انتظم عقد المجلس افتتح سيادة الحسيب النسيب السيد عبد الرحمن المهدى بكلمته « المجال حر ليبدى كل منكم رأيه حسبما يعتقد » وتلاه صاحب الفضيلة الطيب أحمد هاشم مفتى السودان وتكلم قائلا : « انه مرت عليه الحكومات الماضية ، واستطاع أن يرى حكامها ، ويزن بعقله أفعالها فلم ير عهدا أعدل ، وأصلح من عهد الحكومة الحاضرة » . ثم تناول الكلام صاحب الفضيلة الشيخ اسماعيل الأزهرى مفتش المحاكم الشرعية ، وأخذ يسرد فى أعمال الحكومة وكونها سائرة بالبلاد فى سبيل التقدم سيرا يظهر منه فى كل سنة خطوة جديدة . . ثم تكلم عمدة توتى وأبان أنه حضر الحكومتين السابقتين فلم ير عهدا ارتاحت فيه البلاد ، وأخذت تتكلم مثل هذا العهد ، وبعد ذلك قال المجتمعون انه لا أحد يختلف فى صحة الرأى العام الذى أجمعت عليه البلاد وهو « اختيار الانجليز أوصياء على الشعب السودانى يدربونه على حكم نفسه بنفسه » ، وأخيرا تليت نصوص القرار . وبعد الفراغ منه أخذ الحاضرون يوقعون عليه واحدا بعد واحد لرفعه لمعالى الحاكم العام .

وقد اعتذر بعض المدعوين عن الحضور وطالبوا أن يرسل اليهم القرار حتى يوقعوا عليه مع الموقعين .

فاجتماع يونيو كان السبب المباشر للموقف العدائى السافر الذى وقفته الجمعية من الحكم فى السودان ، ويدل على هذا اجابة المجاهد على عبد اللطيف على التهم الموجهة اليه فى جلسة محاكمته الموافقة ١٦ مارس ١٩٢٥ فقد قال « هتاف لملك مصر والسودان . أعلله لكون مكدونالد قال وجريدة الحضارة قالت ان السودان يعد جزءا من انجلترا فذلك هيج الناس ، وقلنا نقاوم السودانيين القائلين باستئثار الانجليز بالسودان ، هذه كانت طريقتنا لابداء رأينا . فى حالة عدم ثبوت الحالة الحاضرة كما نفضل المصريين على الانجليز ونريد ضم السودان لمصر » (١)

---

(١) اللواء الابيض ٢٥ ، ٣٧

وقد ذكر المجاهد عبيد الحاج فى جلسة ١٧ مارس سنة ١٩٢٥ « أنا عضو غاوى وغرض الجمعية هو ضم السودان لمصر لأن مسألة الســودان معلقة بين مصر وانجلترا ومصيره اما يلحق بانجلترا أو بمصر .

قد نشرت جريدة حضارة السودان فى ١٤ مايو ١٩٢٤ تعبر عن رأى بعض السودانيين بأن ينضموا الى أحد الشريكين فلم يبق عندنا شك بأن الموقف قد حان للفصل فى مصيرنا ، وكنا نفكر بأنا ســنتبع اما مصر أو انجلترا وأن لا خطة ثالثة أمامنا فعملنا ما عملنــا لنظهر رأينــا كما أظهر الفريق الآخر رأيه (١) » .

كما ذكر المجاهد صالح عبد القادر فى جلسة محاكمته : وعندما ظهرت تصريحات « الحضارة » ، وعرائض الثقة وأعطى لنا حق التصريح بالآراء رأينا الارجاء لنا بالحياة الحاضرة . واذا كان لا أمل لنا بالحالة الحاضرة فالأحسن لنا أن ننضم لمصر (٢) .

فالسودانيون لم يكن لهم فى هذا الوقت رأى خاص بالتحرر الخالص وانما كانوا يريدون الخلاص فقط من واحدة من دولتى الحكم الثنائى .

.. وقد بدأت الثورة الحقيقية بوفاة الصــاغ المصرى « عبد الخالق حسن » مأمور أم درمان فى يوم ١٩ يونيو ١٩٢٤ . فقد احتشدت المدينة لتشييع جنازته ، وبعد الدفن ذكر أحد المصريين أنه لو مات فى بلاده لمــا لاقى مثل هذا التكريم . فكان الرد عليه أن قام الشــيخ عمر دفع الله من كبار التجار بأم درمان ، وأحد أعضاء جمعية اللواء الأبيض ثم قال « أيها الناس . من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فليهتف معى . فلتحى مصر ولتسقط بريطانيا »

ثم اندفع من ورائه الجميع يهتف بحياة مصر وسقوط انجلترا ، وظل هتافهم يدوى حتى غروب الشمس (٣) ، ثم أثار الناس فى اليوم التــالى

(١) اللواء الابيض ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ٣٦ .
(٣) الزعيم على عبد اللطيف ٤٥ ، مجلة هنا أم درمان فبراير سنة ١٩٥٦ .

الشـيخ الحسن الأمين امام الخرطوم وقد تعرض فى خطبتـــه لمشروع الجزيرة ، وضريبة السكر وابعاد المصريين بدون ذنب جنـوه ، وحرمان الأهالى من مياه النيل ، وعدم اعطاء رخصة « وابور » فى مدنى لحرمان الأهالى من مياه النيل (١) .

ثم تعددت المظاهرات وانتقلت الى المدن الأخرى كبور سـودان ، والأبيض ، وأصبحت الجمعية ذات كيان فى التوجيه السياسى ، فاتخذت لها فى اليوم الثالث والعشرين من يونيو علما مكونا من قطعة بيضاء من القماش عليها خريطة نهر النيل ، وعلى جانبها الأيسر هلال ، وعلى جانبها الأيمن كلمة « الى الامام » وقد بلغ عدد أعضاء الجمعية فى هذه الفترة نحو ألفين من خيرة المثقفين ، ولكن الانجليز ما لبثوا أن قبضوا على رئيسها على عبد اللطيف ، وعلى البارزين من أعضائها (٢) .

وقد ظلت البلاد تغلى ثم نفست عن نفسها بتلك المظاهرة التى قام بها طلاب المدرسة الحربية فى الخرطوم فى صباح السبت الموافق ٩ أغسطس ١٩٢٤ والتى زاروا فيها منزل على عبد اللطيف ثم ذهبوا لتحيتـــه فى السجن (٣) .

وقد نبعت هذه الثورة من نفوس الطلبة ، وكان السبب المبـاشر لها أن الانجليز أعلنوا أنه قد تمت ترقية عشرة من طلبة المدرسة الحربيـــة بالقاهرة الى رتبة الملازم الثانى ، وترقية ثلاثة فقط من طلبـة المدرسـة الحربية بالخرطوم محاولين ايهام الطلبة أن المصريين لم يقدروهم « فقـرر زعماء الطلبة فى جلسة قصيرة أن يتظاهروا فى شكل طابور يهتف بحيـاة ملك مصر . ليكون ذلك من جانبهم ردا سريعا حاسما على أن مثل هذه المسائل الفرعية الصغيرة لن تؤثر على القضية الكبرى أو تمسها (٤) » .

---

(١) اللواء الابيض ٣٨ .
(٢) يقظة السودان ٧٠ ، ٧١ .
(٣) الزعيم على عبد اللطيف ٤٧ .
(٤) كفاح جيل ٢٥ .

ولقد لجأ الانجليز الى الخدعة حين عادوا الى المدرسة ودخلوها على كره من القوة المحاصرة ، ولما كانت المدرسة ملأى بالأسلحة فقد استعانت بآبائهم على تسليمهم الأسلحة ، وعدم التعرض لهم فى مقابل هذا التسليم ، ولكن الأسلحة ما ان أصبحت بأيدى الانجليز حتى اعتقلتهم ثم أرسلتهم الى سجن قسم الأشغال « بخرطوم بحرى » وبعض السجون الأخرى ، ثم ألقتهم أخيرا فى سجن « كوبر » ، وعاملتهم معاملة المجرمين مما اضطرهم الى الثورة فى السجن ، وقد انضم اليهم جميع المعتقلين السياسيين ، وقد منعت عنهم القوة الانجليزية ارسال أى طعام لهم ، كما منعوا عربة من الجيش المصرى كانت فى طريقها اليهم لتزويدهم بالطعام ، وأخير استسلموا مع أعضاء جمعية اللواء الأبيض الذين اشتركوا معهم فى التظاهر داخل السجن ، وحكم بسبب هذه المظاهرة على المجاهد على عبد اللطيف بسبع سنين أخرى زيادة على السنين الأولى (١) .

وقد خرجت فى نفس اليوم ٢٤/٨/٩ « أورطة » السكة الحديدية بعطبرة فى مظاهرة ضخمة فاصطدمت بالانجليز ، واستمرت المظاهرة ثلاثة أيام (٢) .

وقد اهتزت الحكومة المصرية لهذه الأحداث فأبلغت فى ٢٥ يونيو ١٩٢٤ رئيس الوزارة البريطانية بواسطة مفوضية مصر بلندن أن بعض الموظفين الانجليز يشجعون حركة تقوم على انفصال السودان عن مصر ، وأنهم يحبطون المظاهرات بقسوة . كما أرسلت برقية الى الحاكم العام بنفس المعنى ، وكذلك أرسلت الحكومة المصرية فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٢٤ مذكرة أخرى ، وأتبعتها بمذكرة فى ٢٢ أغسطس جاء فيها « .. وترى الحكومة المصرية أنه ليس لحاكم السودان العام أن يتخذ من تلقاء نفسه قبل الرجوع الى الحكومة المصرية قرارا بابعاد جنود مصرية من

---

(١) كفاح جيل ٢٥ ، يقظة السودان ٧٣ .

(٢) الزعيم على عبد اللطيف ٤٩ .

السودان ، أو تعزيز الحاميات الموجودة فيه ، ولما كانت الحكومة المصرية تعلق أكبر أهمية على تقدم السودان وطمأنينته أهله ، فهى لم تتأخر أبدا و لاتتأخر عن اتخاذ جميع الوسائل الناجعة لحفظ النظام ، وابدال أية وحدة مصرية اذا دعت الحال الى ذلك فى السودان (١) » .

ثم انتقمت انجلترا لنفسها وقضت تماما على الحركات التحررية بالبلاد حين اغتيل السير لى ستاك فى الأربعاء الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ بالقاهرة فقد خرج اللورد اللنبى فى موكب حربى فى مساء ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ليسلم للحكومة المصرية انذارا قاسيا جاء فيه

« فبناء على ذلك تطلب حكومة حضرة صاحب الجلالة من الحكومة المصرية :

١ — أن تقدم اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .

٢ — أن تتابع — بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص — البحث عن الجناة ، وأن تنزل بالمجرمين — أيا كانوا ومهما تكن سنهم — أشد العقوبات .

٣ — أن تمنع من الآن فصاعدا وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية .

٤ — أن تدفع فى الحال الى حكومة حضرة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه .

٥ — أن تصدر فى خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ، ووحدات الجيش المصرى البحتة من السودان مع ما ينشأ عن ذلك من التعديلات التى ستعين فيما بعد .

٦ — أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الأطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠٠٫٠٠٠ فدان الى مقدار غير محدود تبعا لما تقتضيه الحاجة .

---

(١) السودان — مجلس الوزراء ٢١ — ٢٤ .

٧ — أن تعدل عن كل معارضـــة لرغبات حكومة صاحب الجلالة فى الشئون المبينة بعد المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية فى مصر واذا لم تلب هذه المطالب فى الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة على الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها فى مصر والسودان .
وانى أغتنم الفرصة لأجدد لدولتكم عظيم احترامى

اللنبى (فيلد مارشال) (١)

ولما لم يوافق سعد باشا على الفقرة الخامسة والسادسة رد المندوب السامى عليه برسالة فى ٢٣ نوفمبر جاء فيهــا « نظرا الى رفض الحكومة تلبية مطالب حكومة حضرة صاحب الجلالة الواردة فى الفقرتين الخامسة والسادسة من بلاغى المتقدم أمس أرسلت التعليمات الى حكومة السودان بما يلى :

أولا : ان تخرج من السودان جميع الضباط المصريين والوحــدات المصرية البحتة فى الجيش المصرى مع التغيرات المعينة التى تترتب على ذلك .

ثانيا : أنها مطلقة الحرية فى زيادة المساحة التى تروى فى الجزيرة من ٣٠٠ر٠٠٠ فدان الى مقدار غير محدود تبعا لمـا تقضى به الحاجة (٢)

ثم أمروا بانشاء قوة دفاع سودانية تكون نفقاتها على ميزانية حكومة السودان ، على أن تشترك مصر فى النفقات . وقد اشتركت فعلا بمبلغ ٧٥٠ر٠٠٠ جنيه سنويا ثم عدلت فى معاهدة ١٩٣٦ (٣) وقد نفذت كل ذلك وزارة زيور باشا أما سعد فاستقال فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٤

هذا ما كان فى مصر أما فى السودان فقد حاصرت القوات الانجليزية القوات المصرية التى أعلن قائدها القائمقام « أحمــد رفعت بك » أنه لن

---

(١) السودان — رئاسة مجلس الوزراء ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ٣٢ .
(٣) المصدر نفسه ٣٢ — ٣٨ .

يتلقى الأوامر من حكومة السودان ، وأنه لن يرحل عن السودان ، وقد هز من شعور السودانيين ، وعادت العواطف للظهور من جديد ، فلما كان يوم الخميس ٢٧ نوفمبر توجهت فصيلة من الكتيبة الحادية عشرة السودانية بضباطها ، ومعداتها قاصدة الجيش المصرى بالخرطوم لتنضم الى الجيش المصرى .. فاعترضهم هدلستون بك فذكروا له أن القيادة الشرعية أصبحت فى يد أحمد رفعت ، فأمر الحامية الانجليزية بالتصدى لها فقامت معركة حامية انجلت أخيرا عن فوز الحامية الانجليزية (١) .

ومما آخذه على الحامية المصريةأنها لم تحرك ساكنا لمساعدة هؤلاء الذين قاموا اليها لمناصرتها .. ثم انه قد يتبادر الى الذهن أن هذه الجمعية قد كسبت السودانيين جميعا الى صفها ولكن الحقيقة أنه كانت هناك حركة مناهضة لها تتمثل فى السيد عبد الرحمن المهدى ، وفى بعض الخريجين من السودانيين أكثرهم من المشايخ القضاة والمدرسين وبعض الضباط والموظفين المدنيين وكان نشاط هؤلاء مركزا فى جريدة « حضارة السودان » فوصفوا القائمين على الحركة بالطيش ، وصغر سن القائمين ولم تقف عند هذا بل نقلت ما كانت تكتبه « الوطن » المصرية عن سعد زغلول وقد كانت تهاجمه فى عنف . مما اضطر حكومة السودان الى شراء كميات كبيرة منها ثم توزيعها بالمجان على المدن والأقاليم . وقد حرروا مذكرة الى الحاكم العام يستنكرون فيها هذه الحركة ، ويقترحون ادخال اصلاح على الوضع الادارى (٢) .

وقد كان من نتائج هذه الثورة القضاء على النفوذ المصرى ، ووضع خطة طويلة الأجل لانفصال السودان عن مصر ماديا وأدبيا .

ثم نراها قضت على المدرسة الحربية ، ومدرسة البوليس ، والادارة ، وروح النمو التحررى التى كانت تشق طريقها ، ومع أن المصريين كانوا

---

(١) كفاح جيل ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٧ ، ١٨ .

يحتلون المناصب الثانوية الا أنهم كانوا يعرقلون السياسة القبليـــة ، ويعرقلون الادارة الاستعمارية فى أول الأمر فلما خلا لهم الجو فرضــوا سياسة جديدة تعمل على فصل البلاد

ثم نراها بعد أن وعدت المواكبـين لســياســتها بمشروع الحكومة المحلية ، والمجلس الاستشارى تتراجع من جديد . وتحكم البلاد حكما مطلقا (١) .

---

(١) كفاح جيل ٣١ .

الحياة العقلية

التعليم فى السودان

١ — حين تم تدخل الانجليز فى السودان سيطروا على مصائر التعليم ، ومنعوا مصر من الاسهام فى اقامة المدارس ، ومن المشاركة الجادة فى هذا المضمار . وكان قد بقى لمصر من التعليم هناك بعد الثورة المهدية مدرستان احداهما فى « سواكن » والأخرى فى « حلفا » ولم يترك الانجليز لمصر هاتين المدرستين . فقد ضموهما الى ادارة معارف السودان فى أوائل سنة ١٨٩٩ (١) ومن هنا فقد شكلوا الحياة التعليمية بالطريقة التى تخدم بقاءهم فى هذه البلاد ، وضربوا حصارا على الذين فروا الى مصر ليتلقوا هناك التعليم « وقد اضطربت الكلية لهذا الحادث وازداد الضغط والتعنت ، وكان بعضنا يدرس اللغة الفرنسية مع بعض الأساتذة فمنع منها ، واذا التحقيق يدور مع البعض الآخر ممن كانوا وثيقى الاتصال بمن سافروا (٢) » .

وفى الوقت الذى سلبت فيه مصر هذا الحق ، كانت فى السودان مدرسة للبنين ومدرسة للبنات الأقباط ، ومدرسة للبنين ومدرسة للبنات للمرسلين النمساويين ، وعدة مدارس للمرسلين الأمريكان (٣) كما رحب الانجليز بالبعثات التبشيرية خاصة تلك البعثات التى كانت الفاتيكان دائمة الارسال لها . فقد كانت تسهل سبل الاقامة فى السودان كما تمدهم بالكثير من مال الدولة (٤) .

---

(١) نعوم ١٧٢/١ ، ١٧٣ .

(٢) موت دنيا ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) نعوم ١٧٣/١ ، ٦٩٤/٢ .

(٤) النداء ٢٥٣ .

٢ — ثم بدأ الانجليز يرسون قواعد التعليم الاستعمارى فى البلاد . فتقدم اللورد كتشنر بندائه المعروف للشعب البريطانى سنة ١٨٩٨ وقد جاء فيه :

« .. وان تسألونى عن نوع التعليم الذى أريده ، وعن نوع الشخص الذى يجب أن نعلمه أقول ان خطتنا يجب ان تبنى تدريجيا ، وأن نبدأ الآن بتعليم أبناء زعماء القبائل ، ورؤساء الأقاليم ، ومشايخ القـــرى ، والأعيان لأن هؤلاء ينتمون الى جنس يتوفر فيه الاستعداد العظيم للتعليم، والمقدرة على الافادة منه ، ويجب أن نحصر التعليم فى مراحله الأولى فى المواد الأولية ، كالقراءة ، والكتابة ، والجغرافيا ، واللغة الانجليزية .

ثم يأتى الطور الثانى بعد أن تتركز هذه المرحلة فيوضع منهج أرفع يدخل فيه التعليم الصناعى بما يناسب وحاجات سكان الجزء الأعلى من وادى النيل ، وسيكون كبار المدرسين بالكلية من البريطانيين ، ويكون الاشراف على جميع الاجراءات من اختصاص الحاكم العام » (١) .

وقد أشرف على تنفيذ الخطة السير يونهام كارتر السكرتير القضائى ، ثم خلفه السير جيمى كرى بعـد أن تمت اجراءات نقـله من مصر الى السودان حيث بقى به مديرا للمعارف مدة خمسة عشر عاما (٢) .

وقد وضع مهندسى الخديوى التصميم الخاص بمبنى الكلية ، وفى ٥ يناير سنة ١٨٩٩ وضع اللورد كرومر الحجر الأساسى لكلية غردون باسم الملكة فيكتوريا .

وقد ذكر فيما ذكر « ستكون هذه المدرسة عمومية اصلاحيـة غير مختصة بطائفة دون أخرى ، ويكون التدريس فيهـا على قدر الامكان باللغة العربية (٣) . »

---

(١) الايام فى ١٩٥٦/١/٣١ .
(٢) نفسـه .
(٣) السودان فى قرن ٢٢٨ ، نعوم ١٧٢/١ .

وفى أول أغسطس ١٨٩٩ أصـــدر البرلمان الانجليزى أمرا يقضى بوضع الكلية الجديدة فى يد لجنة تنفيذية ، ولجنة أمناء مقــرها لندن ، واستمر هذا الأمر حتى سنة ١٩٤٣ حينما تنازلت اللجنة عن كثـــير من اختصاصاتها للحاكم العام .

وقد تم انتقال الطلبة من أم درمان ، والخــرطوم الى المبنى الجديد فى أكتوبر سنة ١٩٠٢ ، وكانت تضم فى هذا الوقت مدرسة ابتدائية ، ومدرسة للمعلمين والقضاة الشرعيين ، ومدرسة صناعية ، ومعملا للتحاليل الكيماوية والبكترولوجية ثم أنشئت بعد ذلك مدرسة ثانوية كجزء من الكليـــة للهندسة والرى ، وقد التحق فريق من هؤلاء بمصلحة المساحة سنة ١٩٠٧ والتحق الفريق الآخر بالرى ، والمصلحة القضائية سنة ١٩٠٩ . كما أنشىء قسم أدبى لتخريج مدرســين يتقنــون الانجليزية ، وقد تم تخرجهــم سنة ١٩١٢ .

وحينما غادر المستر كرى البلاد ترك بها الكلية بأقسامها الابتــدائى والثانوى ، والصناعى ، وتدريب المدرسين ، والقضاة الشرعيين ، وخمسا من المدارس الابتدائية ، وعددا من المدارس الأولية ، ومدرسة حربية ، ثم قصرت الكلية على التعليم الثانوى فقط (١) .

كما وجــدت مدارس أخرى فى حلفــا ، وبربر ، ودنقــلة ، ومدنى وسواكن وغيرها

أما تعليم الفتاة السودانيــة فقد تأخر بعض الشىء ، وأول مدرســة خصصت لها هى تلك المدرسة التى أنشأها الشيخ بابكر بدرى فى رفاعة سنة ١٩٠٧ ، ثم وصل عدد مدارس البنات الأولية الى خمس سنة ١٩٢٠ . ثم أنشىء قسم عال لتدريب المعلمات سنة ١٩٢٠ فى أم درمان (٢) .

---

(١) الايام ١٩٥٧/١/١ ، السودان فى قرن ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

(٢) الأيام ١٩٥٧/١/١ ، تاريخ السودان من أقدم العصور ١٦٥ .

من هنا نرى أن مصر فى هـــذه الفترة لا تنافس الانجليز فى هذه الحياة التعليمية لأن مقدرات الأمور كانت فى يدهم ، ودورها الســلبى الذى قامت به هو ارسال هذا العدد القليل من المدرسين مثل أحمد هدادت ، وعبد الرءوف سلام (١) .

٣ — أما جنوب السودان فقد ترك أمره للبعثات التبشيرية (٢) .

وقد ظل التعليـــــم فى أول أمره قاصرا على القطاعات التى حددها كتشنر ، ثم لما بدأ الناس يقبلون عليه فرضوا ضرائب خاصة على التعليم الأولى حتى يظل فى الطبقات التى يمكن أن تواكب حكمهم ، والتى يمكن الاستفادة منهم ، كما حرصت على أن يكون التعليم سطحيا بحيث يميع الشخصية السودانية ، ويخضعها نفسيا واجتماعيا للهيئة الحاكمة ، وفى الوقت الذى نراها فيه قد توسعت بعض الشىء فى التعليم الأولى نراها تضيق فى التعليم الثانوى ، وتمنحهم ما يسمى « بالصلاحية المحلية » التى لا يعترف بها فى أى مكان آخر . فقد كان الغرض من هذا التعليم « هو خلق حالة من الولاء الفكرى والعاطفى بين المتعلمين الوطنيين . يمكن أن نعدها من جانبنا ضربا من الاسترقاق الذهنى . لتكون دعامة نفسية وثقافية تشد أزر الدعائم الأخرى التى تقوم عليها ادارة المستعمرة (٣) .

وهكذا بقى التعليم محصورا فى طبقات خاصة من مجتمعـات المدن أما القرى فلم يقدر لها حظ من التعليم

٤ — الصحافة والطباعة والنشر :

كانت الحكومة هى المسيطرة تماما على هذه الجوانب الثقافية ، فلم تشجع على احتراف « الكلمة » ولم تعمـــل على نشرها ، وذيوعها . حتى ان الصحافة الى سنة ١٩٣٠ لم يكن لهـــا دور ايجابى بسبب الرقابة الضاغطة

---

(١) السودان فى قرن ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، مجلة مصر والسودان ٥٦ .

(٢) تاريخ السودان من أقدم العصور ١٦٥ .

(٣) مجلة مصر والسودان ٥٦ .

وسيطرة الجهاز الحاكم تماما على هـذه الألوان من الحياة . ومن هنـا نستطيع أن نقول انها كانت صحافة حكومية أكثر منها صحافة شعبية (١) .

وأول صحيفة صدرت فى السودان هى « الغازيته السودانية » وقد استهلت أول عدد لها بنشر اتفاقية سنة ١٨٩٩ .

ثم منحت الحكومة فى سـنة ١٩٠٣ الدكتـور فارس نمر وشركاءه امتيازا بنشر جريدة فى الخرطوم تحت اسم « السودان » وتعتبر امتدادا لصحيفة « المقطم » التى كانت تصدر فى مصر ، وقد سلمت أمورها الى خليل ثابت أحد خريجى المدرسة الكلية السورية ، كما كانت تصـدر مرتين فى الأسبوع ، وظلت تقوم بدورها فى خدمة الحكومة حتى توقفت عن الصدور سنة ١٩٢٥ ، وفى سنة ١٩٠٨ أصدرت الغـرفة التجـارية السودانية مجلة باسمها للشئون الاقتصادية .

وفى سنة ١٩٠٩ أنشأ الأستاذ أسعد يسى المساح جريدة « الخرطوم » ثم لما توقفت أنشأ « كشكول المساح » الذى توقف أيضا .

وفى سنة ١٩١١ صدرت جريدة « رائد السودان » وكان أصحابها من اليونانيين وتولى تحريرها الكاتب السورى عبد الرحيم قليلات حتى سنة ١٩١٥ ، ثم تسلمها منه السيد حسين شريف وما زال يحـررها حتى توقفت سنة ١٩١٩ ، وقد قامت بدور كبير فى محاولة صرف النـاس عن اتباع الملكية فى مصر حين نادت « بالجمهورية الاشتراكية » (٢) .

ثم صدرت بعد الحرب العالمية الأولى « حضارة السودان » بجهود جماعة من السراة فى السودان وعلى رأسهم السيد عبد الرحمن المهدى ، والشيخ عثمان صالح ، والشيخ محمد عكاشة ، وقد حملت على الذين كانوا يريدون الانضمام الى مصر ، وحاولت الوقيعة بين الشعب ورجال جمعيتى الاتحاد ، واللواء الأبيض ، وسخرت من الثـورة فى مصر ، وأشـادت

---

(١) الايام ١٩٥٦/١/٣١ .

(٢) تاريخ الثقافة العربية ١٤١ ، ١٤٢ ، نعوم ٦٧٤/٣ ، كفاح جيل ٢٠ .

بالانجليز وحكمهم ولم يكن يكفيهـا ما كانت تطعن به مصر من طعنـات مبـاشرة ، فكانت تنقـل الى الشعب ما كانت تنشره جريدة « الوطن » المصرية من حملات ضد سعد زغلول وحركته .

وقد وجد الحكم الثنائى فى أول عهده مطبعـة الحجر التى كانت فى أول أمرها فرعا من المطبعة الأميرية ، ومعملا من الورق ، وأشهر المطابع التى قامت فى هذه الفترة مطبعة السودان لأصحاب المقطم ، ومطبعة لأحد اليونانيين ، ومطبعة جريدة الحضارة ، ومطبعة ماركو كوديل (١) .

٥ ـ البعثات الى مصر وانجلترا وأثرها :

لم تكن فى نيـة انجلترا فى هـذه الفترة توسيع مدارك السودانيين ، فقـد كانت تقف بهم عنـد حد معين ، وكانت تعرف خطورة العـلم على أهل هـذه البلاد ، ومن هنا فقـد حاربت بقسوة الذهاب الى مصر لطلب العلم ، وقد مر بنـا كيف أنها أقامت الدنيا وأقعدتها لفرار بعض الطلبة الى مصر لتلقى التعليم ، وقد أجرت تحقيقا شاملا مع كل من يمت بصلة الى هؤلاء الطلبة فى عام ١٩٢٤

وقد عملت على تحويل التيار الثقافى عن مصر بانشاء «المعهد العلمى» عام ١٩٠١ فقد كان الغرض من قيامه منافسة الأزهـر فى مصر ، وتحويل الطلبة عنه الى هذا المعهد الجديد ، وقد أنشأت به قسـما للمعلمـين ، والقضاة سنة ١٩٠٣ على غرار دار العلوم ، ومدرسة القضاء بمصر حتى اذا تمكنت تماما من السيطرة على البلاد وقفت فى وجه هذه الثقافة العربية

كما كانت ترسل بالطلبة الى جامعة بيروت ، وقد استمر هذا الى ما بعد سنة ١٩٣٢ (٢) . أما ذهاب بعثات علمية من السودان بمعنى الكلمة الى انجلترا فلم يعرف فى هذه الفترة .

---

(١) تاريخ الثقافة ١٤٢ ، كفاح جيل ١٧ ، السودان بين عهدين ٢٨٦ .

(٢) تاريخ الثقافة العربية ١٣٧ ـ ١٤٥ .

٦ ـ مدى التأثر بالثقافة الحديثة :

لقد أراد المثقفون فى أول الأمر السير فى صف واحد فعملوا على تأسيس نادى الخريجين ولعلهم قد استوحوا هذه الفكرة من نادى المدارس العليا بمصر ، وقد حاولت هذه الطبقة بحكم ثقافتها لمدة كبيرة انتزاع القيادة الشعبية من الزعماء الدينيين ، كما عملوا على وقف الحركات الصوفية « واعتمدوا فى نضالهم على سلاح المنطق ، والجدل العقلى وكانوا ينادون بتحرير الفكر وانطلاقه من قيود العادات ، ورواسب التقاليد الفاسدة ، وأوهام الخرافة التى ليست من الدين فى شىء » (١) .

كما واكبت هذه الطليعة المثقفة القضية السودانية ، وأسست الجمعيات ، وبثت المنشورات وتردد صوتها على أكثر من منبر فى مصر والسودان ، والتفت حول الثورة المصرية فكريا ثم تطور بها الأمر الى القيام بالثورة من أجل البلاد .

وكما كان للصحف المصرية ، والكتب دور هام فى تجديد الحياة الثقافية فى البلاد فكذلك بدأ السودان يعرف الثقافة الغربية ، فسمع (السمفونيات) ، وقرأ ثمار الثقافة الغربية « فما كان أحب سيريلوتارخ وغيره من كتب التراجم الينا ، وقضينا على الحزن بقراءة روائع الشعر العربى والشعر الانجليزى » وقد كانت بالسودن مكتبة خاصة تعرض الكتب الانجليزية (٢) ، وعلى كل فلقد أثرت الثقافة السائدة على السودانيين ، وفتحت أذهانهم على قضاياهم ، وجعلتهم يقفون من الرجعية مواقف مشرفة ، وحولتهم عن بعض القيم الجامدة التى كانت سائدة فى عصرهم ، وشككتهم فى كثير من العادات ، والخرافات التى كانت تطبع العصر بطابعه .

---

(١) كفاح جيل ص ١١ .

(٢) موت دنيا ٥٢ ، ٥٦ .

٧ — على أنه لم يعرف لهم فى هذه الفترة دور فى ترجمة بعض التراث الأجنبى ، وانما كانوا مشغولين بالقراءة فى الأدب العربى ، وحينا فيما تصل اليه أيديهم من الكتب الأجنبية .

٨ ـ التعليم الدينى :

لقد اهتم الوضع الجديد فى السودان بالتعليم المدنى ، ولم يقبل على التعليم الدينى ، ولكن رغم ذلك ظل هـذا النوع من التعليم منتشرا بين الأهالى ، ولكن الظاهرة البارزة فى هذه الفترةهى انشاء « المعهد العلمى » بأم درمان سنة ١٩٠١ على أنه لم ينهض النهضة الحقيقية الا فى سنة ١٩١٢ حينما قام بأمره الشيخ أبو القاسم هاشم الذى أحضر لائحـة الأزهر ، ووضع المنهج الدراسى فى المعهد على شاكلتها ، وكذلك المراحل الدراسية وعن طريق التبرعات والحـكومة أنشئت مكتبة ضخمة ، وأقيمت دار للمشيخة ، ومسجد كبير وضع أساسه سنة ١٩١٧ ، وانتقلت الدراسة اليه من جامع أم درمان الكبير سنة ١٩٢٣ ، وقد تخرجت أول دفعة منه حاملة شهادة العالمية سنة ١٩٢٤ (١)

---

(١) تاريخ الثقافة العربية ١٢٧ ، مجلة معهد أم درمان ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

الحياة الاجتماعية

١ ـ اتصال السودان بالمدنية الغربية :

بذهاب عصر المهدية دخل المجتمع فى طور جديد يختلف جوهريا عن كل المراحل السابقة له . فقد أظلت المجتمع ظروف جديدة عملت على تغيير الكثير من آلوان الحياة الاجتماعية فقد تلاقت مدنيتان احداهما موجبة ، والثانية سالبة ، وعملية التكيف الحضارى تكاد تكون نتيجة طبيعية فى البلاد التى دخلتها انجلترا فى افريقية ، ذلك لأنها تقبض على مصادر القوى فى المجتمع من وراء ستار ، ثم توجهه فى حذر حتى لا يتعرض للهزات أمام تغيير الاطار الاجتماعى العام .

ومن ذلك نراهم يبقون فى الظاهر على النظام القبلى ، ولا يسارعون بنشر أفكار الديمقراطية الغربية ، ولا يتعرضون للقيم الدينية المتوارثة ، وقد تكونت كنتيجة للتعليم طبقة خاصة من الموظفين سطحية التفكير ، سريعة التنفيذ لكل ما يطلب منها ، بعد أن أقبلت على المدارس الجديدة ، وتركت التعليم الدينى الذى كان شائعا ، ومن هنا تكونت طبقة جديدة هى طبقة الموظفين تعمل من جانبها على تقليد الانجليز ، والى جانبها كانت الطبقات التى ترتبط بالوضع الجديد ، وتستفيد منه ، ومن ثم رأينا تأثرات جديدة بين هذه الطبقات فى الآداب العامة ، كاقامة الحفلات ، وطريقة التعامل الاجتماعى ، كما ظهر التقسيم الثلاثى (الافطار والغذاء والعشاء) فى مواعيد ثابتة ترتبط بنظم العمل ، ورأينا أطعمة جديدة وطرقا حديثة لطهيها تأخذ طريقها الى بيوت الكثيرين .

وعرف المجتمع السودانى كثيرا من أساليب الحياة التى لم تكن معروفة من قبل ، والتى قلدوا فيها الأجانب كاقامة حفلات الشاى ، ولعب الورق ، وسباق الخيل ، والاستمتاع بالموسيقى ، وحلق اللحى والشارب ، وتناول « شاى العصر » .

كما أن المنزل السودانى قد تشكل تشكلا جـديدا من حيث تقسيم الحجرات ، وقيامها بوظائف جديدة .

وقد رأينا المجتمع يستعين بالمخترعات الحديثة ، ويعتمد على نفسه فى ألوان الحياة بعد أن كان يعتمد على الرقيق فى كثير من شئونه ، كما طمح الى الثقافة الغربية ، فرأيناه يقبل على القراءة بالانجليزية ، وقد مر بنا أنه كانت هناك مكتبة قاصرة على الكتب الانجليزية ، ومن هنا رأينـا بعض الكلمات الانجليزية تدخل فى أحاديثهم فى شيء لا يخلو من التعمـــد ، ورأيناهم يتساقون وراء التزين بالأوسمة ، والنياشين ، ودعوات الحاكم ، وقد عرفنا من قبل أن « الشريف الهنـدى » حينما كان ترتيبه الثالث فى تلقى النياشين ذهب الى بيته مغاضبا ، وقطع أسلاك الهاتف كرمز لقطـع صلاته بالحكومة .

والى جانب هذا نرى جانبا من المجتمع يتمرد على الغيبية والتصوف ، ويعارض فى قبول دار لنادى الخريجين من أحد الزعماء الدينيين (١) .

... والحقيقة أن هذه التأثرات لم تعم المجتمع السودانى فقـد كانت قاصرة على طائفة خاصة فى المدينة ممن لهم اتصال بالوضع الجـديد . أما بقية الشعب فظل يمارس حياته المحلية ، ويتمسك بها .

٢ ـ حالة المجتمع من حيث الفقر والغنى والصحة والمرض :

لقد بينا أن المجتمع قد ظهرت فيه طبقة الموظفين ، وطبقة الذين ترتبط مصانعهم وأعمالهم بالوضع الجديد ، ولا شك أن هؤلاء قد استفادوا ماديا من الوضع الجديد . أما بقية البلاد فقد استمرت على ما كانت عليه .

فالانجليز لم يقوموا بعمل حاسم من أجل البلاد قبل الحـرب العالمية الأولى ، فقد اقتصر جهدهم على البحث ، ودراســة المشروعات المتنوعة ،

---

(١) محاضرات فى مشكلات المجتمع السودانى ، كفاح جيل ص ١٣ .

كما قاموا بتجارب زراعة القطن فى أكثر من مكان ، ذلك لأن البلاد كانت تعتمد ماليا على مصر . فماليتها لم تتوازن الا فى سنة ١٩١٣ .

فبعد سنة ١٩١٣ سارت الأمور فى السودان لصالح الميزانية ، ففى سنة ١٩١٥ زادت قيمة الصادر على الوارد عام ١٩١٥ وقد أخـــذت التجارة تزدهر فى سنوات الحرب بسبب غلاء الأسعار ، فبلغت قيمة الصادرات سنة ١٩١٧ : ١٧١ر٧٢٩ر٣ جنيه مقابل الوارد ١١٧ر١٠٢ر٣ جنيه حتى لقـد ارتفعت سنة ١٩١٩ قيمة الصادرات الى ٧٨١ر٥٠٠ر٧ من القطن وبذرته والصمغ والبلح والذرة والفول السودانى والجلود وغيرها .

وقد كان من المشروعات العامة التى قامت بها الحكومة مشروع خزان سنار الذى تم فى سنة ١٩٢٥ والذى مهدت له من قبـل بتشجيع الزراعة المطرية ، واستخدام الآلات الرافعة بوساطة الحكومة والشركات والأفراد .

أما الاشراف الطبى على البلاد فقد قام به أطباء الجيش المصرى لعدد من السنين ، وفى سنة ١٩٠١ أقيمت مستشفيات للمدنيين فى الخرطوم وأم درمان وحلفا وبربر ودنقلة وسواكن وكسلا كان الاشراف عليهـا كذلك لأطبـــاء الجيش المصرى ، وفى سنة ١٩٠٤ أنشئت مستشفيات فى مدنى وكدوك والأبيض ، وفى سنة ١٩٠٩ ظهرت مستشفيات عطبرة والخـرطوم وبورت سودان (١) الكبيرة ، وقد استمر الاشراف المصرى حتى أنشئت المصلحة الطبية سنة ١٩١٥ فزاد عدد المستشفيات .

من هنا نرى أن البلاد قد انتشر فيها وعى صحى ، وأن كثـــيرا من الأمراض قد حوصرت تماما مثل مرض النوم الذى امتـــد الى أطراف « منقلا » (٢) .

---

(١) مجلة الفجر أول اغسطس سنة ١٩٣٥ ، تاريخ السودان من أقدم العصور ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) الفجر اغسطس سنة ١٩٣٥ .

٣ ــ العادات والتقاليد وماطرأ عليها :

لقد تغير الكثير من العادات والتقاليد فى المدن . أما القطاعات الاجتماعية المنعزلة فى القرى والبوادى فقد ظلت تمارس حياتها . ومن هنا فقد اختفت الى حد ما عمليات الكى والأحجبة ، والرقى ، والتعاويذ ، والسحر .

وقد رأينا بعض العلاقات تتقلص وتأخذ علاقات أخرى جديدة دورها ، من ذلك نرى أن التنظيم العائلى القديم للأسرة فى المدينة قد أصبح واهيا فالمدينة كانت تمثل الى حد ماقرية كبيرة فرب الأسرة كان مسئولا عن كل القرابة من الجانبين وكان البيت يضم الكثير منهم ولكن بمرور الزمن أصبح البيت قاصرا على القرابات القريبة لا البعيدة ، ومزودا بحاجات العصر ، ومواكبا التطور فى بيوت الأجانب .

ولكن بجوار هذا التغيير السطحى ظل المجتمع غاصاً بهذه الألوان من الحياة ، خاصة هذه المجتمعات الشعبية التى لا تحتك كثيرا بالتيارات الحالية فى البلاد .

فقد عرفت هذه الفترة أنه فى حالة الوفاة تملأ « طشوت » الغسيل بالماء ، ثم يوضع فوقه « القرع » الأجوف ، ويضرب عليه بالعصى . فيحدث أصواتا حزينة تعرف « بالنقارة » ، بينما تصيح النساء ، ويضعن على رءوسهن الرماد المتخلف عن النار وهو ما يسمى « بالهبول » ، فاذا كان المتوفى هو الزوج فان الزوجة تحبس نفسها مدة كبيرة دون أن يدخل عليها أحد سوى النساء ، ومحارمها من الرجال ، وفى مدة الحداد تحرم عليهن الزينة والاستحمام وتسمى هذه الفترة عندهن « شيل الوسخ » .

وتستمر هذه الفترة خمسة عشر يوما ، وفى هذا اليوم يجدد البكاء وتوزع الصدقة ، وتذهب النسوة فى يوم الأربعين الى القبر ، وفى رمضان توزع « الرحاميت » وهى صدقة توزع فى المساجد ، والخلاوى ، كما يدعو أهل الميت أهل « الحلة » لتناول ما يسمونه « شراب الموية » وقد

استمر الاعتقاد بالفقيه ، وقدرته على الشفاء من العقم ، وجلب الأزواج لمن فاتهن السن ، والحاق الأذى بمن يريد ، والمساعدة على اجتياز الامتحانات .

وبعض الناس حينما يقدمون على الزواج يتوجهـــون الى النهر ثم يمسحون وجوههن بمائه ثلاث مرات ، ثم يحضرون جـــريدة من نخلة ويعلقونها فى منازلهم على أن يكون هذا قبل المقابلة الأولى للزوجة ، ومن لم يقم بهذه العملية تضار زوجته بالعقم .

كما يعتقدون أن الانسان اذا دخل على نفساء بعد أن يكون قد عبر نهرا ، أو رأى جنازة يجف لبنها ويتورم ثديها ، وأن المرأة تأخـــذ الحيطة لنفسها فيحضر لها ماء فى وقت مبكر دون أن يراه أحد ، ويوضع لها تحت « عنقريبها » بعض الطماطم ، وجريدة من النخل ويعلق فى حجرتها عقــد من الصدف .

وهم يتيمنون بالأيام الفردية فيما يقبلون عليه من شـــئون الحياة ، فتسمية المولود عندهم فى اليوم السابع ، و « الصدقة » فى اليوم الثالث ، وزيارة القبر بعد تسعة أو أحـــد عشر شهرا ، واذا ذبح زوج الحـــامل حيوانا أو طائرا يعتقدون أن أثر هذا الذبح يظهر فى المولود ، وحينما يعزم شخص على السفر يخطو عدة خطوات أمام البيت ثم يجمع التراب الذى خطا عليه ، ويوضع فى قطعة من القماش ، ثم يلقى تحت الزير ليرجـــع الى أهل بيته سالما ، ويعتقد من يرى فردة من حذائه مقلوبة أنه سيقوم بسفر ، فاذا كان هذا الحذاء لغيره تشاءم ، ويرون أن من يضرب قطة أو يحـــرمها طعاما يلحق به أذى لاعتقادهم فى تشكل الجن .

وفى ولائم الأعراس يقدمون لافتتـــاحها من لم يفقـــد والديه ، فاذا صادف يوم الوليمة سقوط مطر تراهم يعتقدون أنهم اذا أحضروا قطـــة وكحلوها ثم وضعوها تحت « طشت » يمتنع المطر فى الحال .

وحينما تخاف المرأة على ولدها تسميه اسما غريبا ، وتشلخه فى جزء خاص من وجهه ، كما تعتقد أنها اذا مرت فوق رأســـها بومة أن ولدها

سيموت فى بطنها أو فى وقت الولادة ، وأن الطفل اذا أكل من « الحلة » فان الرياح ستهب حين يقيم ولائمه ، وتفسد حفل زواجه .

ويعتقدون أن الشخص اذا حمل اناء به لبن مكشوف ووضع على سطحه « قشة » فأنه لن يسقط منه لأن الشيطان الذى يتبعه ينفر منه ، كما يؤمنون بالودع ايمانا كبيرا ، ومن عبارات الوداعات المشهورة « بنات الصرة ما يدوقن المرة ، الوظيفة جاية حمدها عليكم .. الراجل الطويل سيد الحقيبة المليانة بيدق بابكم ... الخ » .

... على أن هذه العادات وغيرها لم تكن عامة بين جميع السودانيين ولم تعترض عليها الطبقة الحاكمة ، وكل ما جد عليها أن كثيرا من الناس الذين ارتبطت حياتهم بالأوضاع الجديدة لم يقروا هذه الأوضاع ، ولذا نراها تنحصر فى القطاعات الشعبية من المدينة ، وفى القرى .

٤ ـ المرأة :

ظلت المرأة فى السودان فى هذه الفترة حبيسة بيتها ، محافظة على تقاليدها ، وملابسها وزينتها التقليدية ، هذا اذا استثنينا المرأة فى غرب السودان سواء كانت فى المدينة أو القرية فهى ترعى الأبقار ، وتجمع الصمغ ، وتزرع السهول ، وتكافح من أجل لقمة العيش ، الى جانب عملها المنزلى « ولا أكون مغاليا اذا قلت ان المرأة هناك تعمل عملا متصلا يفوق عمل الرجل ، وهى بذلك لا تعتمد على الرجل اعتمادا كليا بل تكسب رزقها بمجهودها الفردى ، وبذلك تسهم من ناحية المعيشة بالنسبة للأسرة . بعكس المرأة فى أغلب جهات السودان الأخرى ، أو فى أغلب المدن بالذات » (١) .

والمرأة هناك أسيرة عادات ضارة تقف فى طريق تقدمها ، واثرائها للحياة ، ومن أمثال هذه العادات :

---

(١) الوثبة النسائية ص ٥٠

الخفاض الفرعونى وهو عملية « طهارة » قاسية يبتر خلالها جزء كبير من عضوها التناسلى ، والقيام بعمليات الزار ، والشلوخ التى تشوه بها وجهها ، ودق الشلوفة ومعناها « دق الشفة » بلون أزرق يغرز بقسوة بواسطة الابر ، وعملية « الحضانة » بين بعض القبائل الرحل ومعناها اطلاق الحرية للشاب فى اختيار الفتاة التى تلائمه ، واطلاق سراحه فى صداقتها ، والرقاد معها فى « عنقريب » واحد بدعوى « أن هذه العادة تقوى من شخصية الفتاة وتجعلها تحافظ على شرفها وبكارتها بالرغم من الاغراء المحيط بها » (١) وقد أدى هذا اللون من الحياة الى سقوط عدد كثير من الفتيات واهمالهن .

ومن هنا فقد عاشت المرأة فى هذه الفترة على هامش الحياة ، ولم تسهم فى تطوير المجتمع ودفعه الى الأمام . فقد كانت معزولة عن كل مظاهر الحياة فى أكثر أنحاء السودان .

---

(١) الوثبة النسائية ص ٢٠

الفصل الثانى

الشِعْر

فى هذه الفترة

- موضوعاته
- معانيه وأخيلته
- ألفاظه
- خصائصه الفنية

١ — موضوعاته :

المدح

— ١ —

ظل المدح فى هذه الفترة هو الملامح الواضحة للشعر ، وقد جاء فى أكثره دينيا متعرضا لحياة الرسول وأصحابه ، حاضا على التمسك بالدين ، وبناء مساجده ، واستنباط العظة من عصوره الماضية .

وقد يكون هذا الشعر مدحا خالصا للرسول كتلك القصيدة التى بدأها الشيخ أحمد يوسف نعمة بالغزل ثم انتهى الى المدح :

ها قد رغبت عن التشبث بالهوى ورعا وزهدا فالهوى فضاح
وشغلت قلبى بامتداح المصطفى مهما يكن بسواه لا يرتاح (١)

وتعتبر قصيدة الشيخ عبد الله محمد عمر البنا من أقوى القصائد التى قيلت فى هذا المجال فقد تعرض فيها للملامح النفسية والجسمية للرسول فى قصيدة طويلة منها :

محمد الهاشمى الأبطحى له كان الوجود وجودا وانتهى العدم
أتى قسيما وسيما فالجمال له خدن وآياته العظمى له خدم
قد كان أحسن خلق الله كلهم وجها وأحسنهم ثغرا اذا ابتسموا
وأبيض اللون ممزوجا بحمرته مورد الخد فى عرنينه شمم
والوجه أبلج وضاء تلألأ من أنوار غرته الدنيا وتبتسم
زج حواجبه من غير ما قرن سوابغ دونهن النون والقلم
يدر بينهما عرق لدى غضب لله وهو له يعفو وينتقم
مفلج الثنايا زانها شنب على بريق بها تجلى به الظلم
وخاتم الحسن مختوم به فمه فم به تبدأ التقوى وتختتم
وأحسن الناس صوتا زانه صحل والصوت مع حسنه فى جهرة كرم

(١) شعراء السودان ٩٠

في حسن عنقك حار الناظرون فلا طول ولا قصر كلا ولا ضخم
في عرض صدرك سر أنه حرم ما عاقه الضيق عن قصد ولا السأم
وفي استوا الصدر بالبطن الدليل على أن ليس عندك لا حرص ولا نهم
ترضى وتغضب طوع الحق متخذا حلا من الله مقرونا به العصم
ومجلس لك محفوف جوانبه برحمة الله محفوظ به الكرم (١)

ولكن أكثر هذا الشعر كان يقال في ذكرى الميلاد ، وذكرى الهجرة كقول البنا في تحية الميلاد :

عيد النبي غدوت أشرف موسم لهداية الغاوي وللمسترحم
لبست بك الأيام عرسا بعد أن لاقت بك الآثام أشأم مأتم
رفعت لك الأعلام أعلام الهدى يا دين فاحي ويا خليقة فاعلمي
رفت كأجنحة الملائك حينما علمت بأن ولد النبي الهاشمي

وكقوله في قصيدة أخرى :

وافاك مولده فاذكر على جذل أياديا منه عمت كل موجود (٢)

وكقول عثمان هاشم :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام وبحسن يومك تزدهي الأيام
ياليلة الميلاد حسبك مفخرا نور عليه من النبي تمام

وكقوله في تحية العام الهجري :

بدا كفم الحسناء في الأفق يبسم هلال تجلى والظلام مخيم

وكقول الشيخ عبد الله عبد الرحمن :

اذا ابتهجت بمولده البرايا فذاك لذكراها سنن النبي (٣)

وكقول الشيخ البنا :

يا ذا الهلال عن الدنيا أو الدين حدث فان حديثا منك يشفيني

---

(١) ديوان البنا ٤٣ ، ٤٦ .
(٢) ديوان البنا ٥٢ ، ٥٤ .
(٣) شعراء السودان ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ١٩٢ .

طلعت كالنون لا تنفك فى صــغر طفلا وانك قد شاهدت ذا النون
ســايرت نوحا ولم تركب سفينته وأنت أنت فتى فى عصــر زبلين
حدث عن الأعصر الأولى لتضحكنى فان أخبار هذا العصر تبكينى (١)

ولم يقف الأمر عند الشعراء المسلمين ، فرأينا الشاعر المسيحى (صالح بطرس) يشارك فى مثل هذه المناسبات فيقول فى مناسبة الهجرة قصيدته التى أشاد فيها بالعرب وبدأها بقوله :

يا من رأى طوق الهلال وقد بدا يهــدى لنــا عاما أغر مشــهرا
أكرم بطلعتــه وبهجــة نورهــا اذ بشرتنــا أن ســتحمد مخبرا
.. هم أنهجوا سنن الفضيلة واضحا هم أنبعوا علمــا غدا متفجرا
أخذوا بأعنــاق المكارم أخــذة وتربعوا من عزهم فوق الذرا (٢)

وقد يتصل بهذا ء الأخذ بأمور دينية كقول البنا فى الشريعة :

يا من شريعته كل الضلال محت ومن شــفاعته للمــذنبين محت

وكتشطيره بردة الامام البوصيرى :

أمن تذكــر جــيران بذى ســلم سهرت ليلك ترعى النجم فى الظلم
وكلما اضطرمت نار الأسى ونمت مزجت دمعا جرى من مقــلة بدم

وكتخميسة قصيدة الشهاب محمود الحلبى التى بدأها بقوله :

يا مغفــلا للنفس فى شــهواتهــا وممتعا للعــين من ســهواتها

وتعتبر قصــيدته عن عثمان من أقوى القصائد . فهى تقف مع عمرية حافظ وقد بدأها بقوله :

مارمت صفوا من الدنيا وسلوانا الا وأهدت لك الأيام أشجانا
ولا نظرت لهــذا الدهــر مدكرا الا رأيت به للظــلم برهانا

---

(١) ديوان البنا ١٠٧ .
(٢) شعراء السودان ١٠٩ .

ثم تكلم عنه فى آله وعشيرته ، وعن اسلامه وآثاره فى الاسلام ، وعن منزلته عند الرسول وأولياته فى الاسلام ، وأياديه البيض عليه ، وخلافته ، وأسباب تفضيله على غيره فى الخلافة ، وخلائقه وسيرته فى الحكم ، والفتنة وأسبابها ، وثباته ، وما نشأ عن قتله من الأحزان (١) .

وكقول الشيخ عبد الله عبد الرحمن فى وصف القرآن :

مثانى حارت الشعراء فيها ... وردت كل جبار عنيد
متى ما يتلها أحد بناء ... يقول المنتدى هل من مزيد
أدين لها اذا تليت غراما ... كهمام بن غالب بالسجود

وقريب من هذا قول الشاعر صالح بطرس فى جامع أم درمان :

يا مسجدا مطلت بنوه بعهده ... حتى غدا وهو الحسير المعدم
بدءوك جودا بالصنيع وأحجموا ... ما كان أولى أن ذاك يتمم
أترى المساجد فى القديم تشاد فى ... أبهى الشكول فمذهب ومرخم ؟
أمنارة الدين الحنيف تحية ... من شاعر لك قد غدا يترحم (٢)

أما الجانب الآخر من المدح فيدور حول الطبقة العليا فى نظر الشعراء ، وأهم شخصيتين دار حولهما المدح هما السيد على الميرغنى ، والسيد عبد الرحمن المهدى . فمن ذلك قول الشيخ أحمد يوسف نعمة فى مدح السيد على :

سر الحقيقة فى زواياك انزوى ... ومحيط كنهك لايحيط به السوى
لعلاك دان علا الأكابر هيبة ... وبساط رفعتهم لرفعتك انطوى
يسرى سموك فى سماء الكشف عن ... سر الحقائق فوق عرش الاستوا
قم بى وخذ بيدى على مابى وصل ... وصلى ففصلى الداء والوصل الدوا

وكقول عبد الرحمن شوقى :

بكم آل طه ما حييت متيم ... وفيك مديحى دون غيرك يا على

---

(١) ديوان البنا ٢١ ، ٢٢ ، ٥٥ ، ١٢١ ، ١٢٩ .
(٢) شعراء السودان ١٩٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

طلعت على الأقوام والنور ساطع   بوجه وسيم بالجلال مكمل
فكم شاخص . كم واله ومكبر   وكم ساجد لله كم من مهلل
يودون تقبيل الركاب تبركا   وأنت ورا ستر من النور مسبل(١)

وكقول البنا :

ومن اتبع الهوى شرقا وغربا   فان هواى أصبح مرغنيا
نزلت بنسبتى لهم مكانا   وزت قريع مجدهم عليا
ولما أن لجأت الى ذراه   نبذت له الدنية والدنيا
عرفت الشمس منه فما أبالى   اذا استخفى سهيل والثريا (٢)

وكما يأخذ مدح السيد على جانبا تصوفيا ودينيا نرى مدح الشعراء للسيد عبد الرحمن المهدى ملونا بالجوانب التاريخية ، وبالعراك السياسى ، ومن ذلك قول أحمد محمد صالح :

أبوك أقام الدين والفسق ضارب   بأطنابه والناس للحق تجهل
به عاد دين الله أبلج واضحا   مقيما فلا يبلى ولا يتحول
حباك مليك (٣) القوم نيشان رفعة   وأنت بنيشان الجلال مكلل (٤)

وكقول البنا :

قد سار ذكرك فى البلاد جميعها   فالدهر عبد والأنام رواة
حشد الوفود به عظيم نداكم   فكأنما بدياركم عرفات

وكقوله :

أتى الدهر طائعا يتهلل   يسير كما ترضى وتوصى فيفعل
ووافاك وجه المجد يختال ضاحكا   يحى الذى يحى ويعلى ويسفل

وكقوله فيه أيضا من قصيدة طويلة :

يا واحدا قد لم من شعث الندى   ما لا يلم بفطنة الآلاف

---

(١) شعر السودان ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(٢) ديوان البنا ١٥٦ .
(٣) ملك الانجليز .
(٤) شعراء السودان ٧٣ .

للمـــكرمات على ذراك تزاحم   كتزاحم الآمـــال والأضـــياف

وكقوله فيه كذلك :

يا بن الذى خضعت ميل الرقاب له   وأتعب السيف والأرماح والقلما
يود كل عــــزيز أن هامتـــــه   نالت بعــزتها ما يوطىء القــدما
لما غــدا فى مجــارى جوده علما   صاغ الأنام له من رحمة علما (١)

على أن الشعراء لم يقفوا عند هذين المعلمين ، وانما رأيناهم يمدحون أناسا من نفس الطبقة العليا فى المجتمع .

ومن ذلك قول الشيخ أحمد المرضى فى مدح الزبير باشا :

كنف الزبير الهـــاشمى اصالة   غوث الأرامل عصمة المستعصم
أو ما كفى فيما فعلت مآثرا   علوك (فور) فى الزمان الأقدم
أرقصت خيلك فى ربا مغناهم   وغناؤها صوت الحديد الأعجم
شربوا فما شربوا كئوس مدامة   بل أشربوا بالحتف كاسات الدم

ونلاحظ أن الشعراء فى مدحهم للسيد على ، والسيد عبد الرحمن ، وللزبير باشا يحرصون على ذكر أنسابهم التى تصلهم بالرسول .

وقد نرى الشعراء يمدحون المصلحين ، من ذلك قول الشــاعر أحمد المرضى فى « هدايت بك » ناظر كلية غردون :

ان المعارف قد تحلت وانجلت   لمــا طلعت لها بوجـــه مقمـــر
شرفتهـــا فتراقصت أعطافهـــا   فكأنها سمعت غنــاء المزهـــر (٢)

وكقول البنا فى الشيخ أبى القاسم أحمد هاشم الذى كان شيخ علماء السودان

يا قاسم الجود فى بدو وفى حضر   حتى روى الشعر فيك البدو والحضر
ما ناضر الروض ممطــورا لمنتشق   يحلو اذا فاح يوما خلقك العطر

---

(١) ديوان البنا ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ .

(٢) شعراء السودان ٦٦ ، ٩٧ .

وكمدائحه فى السيد عبد الله الفاضل ، والسيد حسين شريف ، والسيد محمد شريف ، وفؤاد الخطيب والشيخ عبد الباقى حمد النيل (١) .

(ج) وقد رأيناهم فى هذه الفترة يمدحون الانجليز ، وينظرون اليهم نظرة اكبار ، فحينما ذهب الملك جورج الخامس الى بورت سودان فى ١٩١٢/١/١٧ استقبله الشاعر عبد المجيد وصفى بقصيدة قال فيها :

ما الشمس مشرقة بصحو نهار ... والأفق فيه سوافر الأقمار
والروض حين تفتقت أكمامه ... وتضوعت بعواطر الأزهار
يومها بأبهج من (مدينة)(٢)اذعدت ... تختال بين مهابة ووقار
وتميس تيها كونها « يختا » الى ... خير الملوك الباسل المغوار
رب الجلالة «جورج» من تعنو له ... كل الملوك بذلة وصغار
هو شبل «ادورد»العلا وحفيد من ... بين الأنام لها عظيم فخار
« فكتوريا » ذات المآثر والتى ... شهد الوجود بفضلها المدرار
وافيت للسودان سعدا طالعا ... فغدا بزورتكم رفيع منار
أوليته نعما غزارا قبل أن ... تأتى وقد أردفته بغزار
وله انتخبت من الرجال أخايرا ... بالعدل شادوا دارس الآثار
عرفوا الدواء لكل داء اذ هم ... حكماء فينا ثاقبوا الأفكار
. . نادى الملوك مؤرخا لن ترتقوا ... كرقى «جورج والمليكة مارى» (٣)

١٣٣٠ هـ

والشاعر البنا يعجب بالأم الانجليزية وبما أنجبت

تلك التى رفعت بنى التاميز فى ... أفق العلاء فأوغلوا واستوعبوا
ملكوا البسيطة شيدوا عمرانها ... نشروا السلام فقربوا وتقربوا
رفعوا منار العلم فى أوطاننا ... وجروا على ما يرتضيه ودربوا

---

(١) ديوان البنا ص ١٤٥ ، ١٥٤ .
(٢) اسم اليخت .
(٣) شعراء السودان ٢١١ .

ويعجب أشد الاعجاب باللورد اللنبى فيقول فيه حينما زار السودان

اذا ما قيـل قد أوفى اللنبى — تطامنت الأمور الجـامحات
وان قلوبنا الملأى سـرورا — بقربك فى المفـاخر طامعات (١)

وقد ذكر حمزة الملك طنبل هذه الزيارة فقال حينما زار « الدويم »

يا أجل القـواد فى الحرب شرف — فوق عين من البـلاد ورأس
اسعدونا فقـد شـقينا بجهـل — مطبق كالدجى وفقـر وبؤس
وادفعـونا الى الأمام فأنتم — أقدر العـالمين من غير لبس
وخـذونا برأفة وبـأس — يثمر الحـكم بين لين وبأس
عشت يالورد للبـلاد وعاشت — أمة متعت بأفخـم كـرسى
وليدم بيننا التعاون والاخـلاص — والود وهـو أطيب غـرس
ثم لو تنطق البـلاد لقالت — ألف شتان بين يومى وأمسى (٢)

وقد فخر الشاعر أحمد محمد صالح بالنيشان الذى أنعم على السيد عبد الرحمن المهدى من ملك الانجليز فقال :

حباك مليك القـوم نيشان رفعة — وأنت بنيشان الجلال مكلل (٣)

وقد فصل الشاعر البنا رحلة السيد عبـد الرحمن المهدى الى لندن وكيف أنعم ملك الانجليز عليه

وعمت ملكا طال بالعـدل ملكه — وكفاه يوم البذل والفضل أطول
وجردت عزما دونه السيف صارما — اذا سـل يوم الروع لا يتفلل
ركبت سليلا للبخـار بغـربة — فكاد وقد شـام انصلاتك يذهل
وأنزلت فوق البحـر منك مهابة — تراها البحـار الطامحات فتخجل
وواصلت هذا السير ترجي وتتقى — وتبذل ما تحوى وتعفو وتفضل
الى أن وضعت الرحل فى ظل ماجد — مليـك مهيب للرغائب يبـذل

---

(١) ديوان البنا ٧٢ ، ١٧٧ .

(٢) ديوان الطبيعة لحمزه الملك طبل ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) شعراء السودان ٧٣ .

فجاد وكان البـــذل منه سجية　　وأيقن أن الشـــكر بالملك أجمـــل
وصـــاغ لك النيشان قربا وحلية　　وان كان صاغته الفضـــائل أول
وطرز فى صـــدر يطرزه العـــلا　　ويعمـــــره عرفانه والتفضـــــل
ورتلت آى الشكر حفظا ولم تزل　　لذكرى امرىء يوليك خيرا ترتل
وقدمت سيفا حالف النصر وحده　　اذا سل قام الدين شـــكرا يهلل
فحاز لدى نفس المليـــك مكانة　　تخبر أن الفضـــل عندك يقبـــل
كذا الحر لا يدفعه بطش وشـــدة　　ولكنـــه باللين والرفق نعـــفل
ورد عليـــك السيف لا عن زراية　　ولكن جمع السيف بالسيف أشكل
فخـــذه من المولى حبـــاء فانه　　حباء الذى عن أمره ليس يغفل(١)

وقد رأينا الشاعر عبد الله حسن الكردى يتعرض لمصر فى القصيدة التى ودع فيها أحد أصدقائه عند ما نقل من حكومة السودان الى الجيش المصرى سنة ١٩٢٢ .

يا راحـــلا يزجى لمصر ركابه　　كم للكنانة للنزيل جـــــدار
سلم على قوم هنـــاك أماجد　　لهم الفضيلة والكمال شـــعار
أهرامهم فوق الســـماء مكانة　　وهم ميامين الورى أخيـــار
ما فيهم الا خطيب مصـــقع　　أو شـــاعر لبنـــاته أخيـــار
أنى يحيد الفضل عن أوطانهم　　والفضل ليس له ســـواهم دار
عرب لهم بالضـــاد نطق معرب　　ما فيه من عوج اللسان عثار
حيـــا الاله ربوعهم وخيـــامهم　　بمصـــبح ثجـــاجه هـــدار (٢)

---

(١) ديوان البنا ١٣٦ .
(٢) شعراء السودان ١٧٧ ، ١٧٨ .

الغــزل

— ٢ —

(أ) قصد الشعراء فى هذه الفترة الى الغزل مباشرة ، ولم يتغزل فى صدر المدحة الا القليل منهم . على أن الشاعر لا يخلص لعاطفة نفسه وانما يدور فى القيود المجتمعية من حيث ان الحب اثم .

فالشـــيخ الطيب السراجى نراه يكثر من ذكر اللوم ، والغـــزل ، والتعذيب وخوف الوقوع فى الخطيئة :

من ذا يلوم على الصبابة صـاح   ان الصـبابة شـيمة الجحجاح
ما أشبه التعذيب فى سـنة الهوى   بالراح ممـــزوجا بمـــاء بطاح
ظبى تربب فى النعيـــم مـدللا   فالذر يعلم جســـمه بجـــراح
كزالدمالج مشـــبع خلخـاله   نفج حقيبتـــه هضيم وشـــاح
متعطف فى مشـــيه من ثقـل ما   هـــو حامل كتعطف الأرمـاح
فكأنه نشـــوان من خمـر أجل   خمر اللمى عصرا من التفـــاح
يحبو مضاجعه ســـلاف مدامة   مختـــومة بمعنبـر الأرواح
ماذاك أنى ذقتـــه لـــكنما   ثقتى به من وجهـه الوضاح (١)

وقد يقع الشاعر فى تجربة صادقة فيحسن التعبير عنها فى حدود طاقته ، ومن ذلك هذه التجربة البسيطة التى وقعت للشاعر صالح بطرس ، والتى تريناً الى جانب توفيق الشاعر فى تصويرها شيئا من حياء المرأة السودانية وشدة انفعالها :

نثرت درارى عقـــدها فتحيرت   فى جمعهـــا ثم انثنت بتلفت
فكأنهـــا والدر يلمع حـــولها   بدر بدا بين النجـوم ببهجـــة
فطفقت أرمقها أملى حســـنها   فتلهبت كبدى وجـــدت لوعتى

---

(١) شعراء السودان ٨٦ .

واذا بها لحظت وقوفى موهنـــا فبكت لفرط حيائها والدهشـــة
فحكت مدامعها على وجنـــاتها قطر الندى فوق الورود بروضة(١)

وقد حاول بعض الشعراء محاكاة عمر بن أبى ربيعة فأجهد نفسه ، وظهرت آثار التكلف على شعره ، ولكن يحمد له القرب من معالجة الأقصوصة الشعرية ، ومن ذلك ما قاله الشاعر عبد المجيد وصفى :

لقـــد فتنت قلبى فتـــاة بلفتة وأصمت بسهم اللحظ عمدا فؤاديا
ولما رأت أنى غـدوت مجنـدلا وليس حراكا بى ولم آك جانـيا
على مصرعى قامت وقالت تحسرا على ودمع العـــين ينهـل جاريا
فلا عاش من أرداك يا خير عاشق ويا صـــائنا للسر اذ كان فاشـيا
قضيت وما قضيت منـــا لبـانة فليتك عنـــا يا فتى كنت ســاليا
فهذا مصير العاشقين فمن يشـــأ يمت فى هوانا أو يجانب تفـاديا
قطاة وريم ان مشت بل وشـادن وقامتها تذرى الرماح العواليـــا
خليلى عوجا واقصدا صوب أرضها وان لكما لاح الخباء فنـــاديا
وقولا فدتك النفس يا أم ماجـد فجودى وعودى مغرما فيك فانيا
فلمـــا ألما بلغـاها رســـالتى اجابتهـــا « لا زال ودى باقيـــا
ولكننى مأســـورة فى شراك من يرى العار ان يوما سواه يرانيا »
فعادا وقصا لى الحديث الذى جرى نقمت وبعد السقم نلت شفائيـــا
وجبت الفيافى فى الدجى نحو حيها وكان أنيسى ذكرها ثم هاديا
وحيث خبـاها قد أنخت مطيتى وأنزلت فى رحب السماح رحاليا
على منظر منهـا وقفت ومســمع أنادى بذل كى تجيب ندائيـــا
ولو كان يدرى أن لى منك سبعة ومنى بلا ريب اليـــك ثمانيـا
فمنك الجفا والصد والبعد والعنا وهجر واعراض وطول سقاميـــا
ومنى الرضا والصبر والصفح والوفا مآلى وآمالى وجهـدى وما ليـــا
لمن قد رأى وصلى حراما وقتلتى حـــلالا وظلما يستبيح دمائيـــا

(١) شعراء السودان ص ١٤٤

رضينا بما يرضيك يا بهجة الورى ويابدر قد فاق البدور الزواهيا(١)

واذا كانت العيون مشهورة بالجمال فى السودان فانا نرى شفيق فهمى مينا يعبر عن هذه الفتنة بقوله :

تلكـم العيـــون تجـذب قلبى مثلما يجذب الحديد الحـديدا ..
رب أى قــدرة فيهـــن أود عتفسدن وأذللنقاسيا وعنيدا(٢)

(ب) أما الغزل الذى يسبق المدحة فشىء يفتعله الشاعر ، وقد نرى فيه الكذب واضحا كقـول الشيخ أحمـد يوسف نعمـة الذى يصف السودانيات ببياض الوجوه ، وأنهن يجلسن فى الحدائق يتعاطين الخمر ، ويبرزن سافرات .. الخ

وكل هذا مدخول على البيئة السودانية

فبـــرزن يوما للتنـــزه حسرا وخـدودهن كأنهـا التفـــاح
ودخلن معـرضهن بين جنينـــة فيجاء روح رياضـها فيـــاح
حييتهـــن مسـلما بتحيـــة وسـقاتهن تميلهـــا الأفـراح
والراح فى راحاتهن كئوسـها ذهبيــــــة ترتاحهـا الأرواح
خالسـتهن فلم يكن منى سوى أشـياء مازجها هناك مزاح (٣)

وقد يتوج الشاعر بالغزل قصيدة يتحدث فيها عن نفسه وعن مفاخره فيقول بعد أن يذكر وقوفه على الأطلال كما قال العباسى

وليل كمنقـار الغـراب ادرعته وما صحبتى الا المهنـد والكوما
طرقت به من آل ســلمى محلة شغفت بها على ألاقى بها سـلمى
فيا فرحتى لما التقينا فقـد جرت أحاديث وجد ما ستطعنا لها كتما
نزلنا على حكم الصبابة والهـوى على رغم عزال لنا أكثروا اللوما
تمتعت من لهـــو شـهى ومنطق رخيم وخد كدت أقطعـه لثمـا

---

(١) شعراء السودان ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) نفسه ١٣٥ .

(٣) شعراء السودان ٩٠ .

نعمت بهـا دهرا فحـول حالهـا — نوى قذف قد أعقبت وصلها صرما(١)

وكثيرا ما يكون هـذا الغزل فاترا لا نبض فيه كقول البنا فى صدر مدحه :

يا غزال الحمى أطلت سـقامى — أنت دان لكن بعيـد المـرام
أنت الزمتنى السـهاد وأضرمـ — ت الغضا فى مفاصـلى وعظـامى
أنت حـدثتنى فحللت رقى — وتملكتنى بحسن ابتسـام
لك وجه مثل الصـباح صـبيح — لك فرع ضـاف كداجى الظلام
وفتـور فى مقلتيـك اعترانى — فى الحشا فالحشا لهجرك دامى (٢)

وهكذا جنى التقليد على كثير من الشعر العربى ، وجمده بحيث أصبح كلمات بلا نبض ولا لون ولا ظلال .

الرثاء

— ٣ —

(ا) ما زالت عيون الشـعراء فى هذه الفترة مشـدودة الى كبار الرجال فى المجتمع السودانى أو الذين لهم صلة بهذا المجتمع . ومن هنا رأينا البنا يرثى الزبير باشا ، ويعكف على تأريخ قسم كبير من حيـاته ويصف فضائله النفسية . ثم يدعو له ..

عجب ومن عجب الزمـان بـلاء — شمس النهـار تكنهـا الغبـراء
يا من يرد الجيش وهـو عرمرم — ويرده عن جانبيـه حيـاء
الحـلم فيـك سجية أحـرزتها — يزهـو بها بعـد الدهاء ذكاء
ما من سـنا الا ومنـه بوجهـه — وبعقـله وبطـرفه سـيماء
يا قبر كيف ضممت بحـرا زاخرا — عجبـا أما أربى عليـك المـاء ؟!
أبقية العباس فى السـودان قد — عبثت بقـائد سرحها الدهيـاء

---

(١) شعراء السودان ٢٩١ .

(٢) ديوان البنا ٤٨ ، ٤٩ .

ان كان صدرك روضه مملوءة شرفا فقبرك روضة غناء
لا زالت الرحمات تترى فوقه ما أحسنت برثائك الشعراء

وكقوله فى رثاء الشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن ناظر الشكرية :

أصبح الجو بيننا أكلف اللو ن وأضحى نهارنا مستحيلا
ما فقدنا بمن فقدناه فردا بل فقدنا بمن فقدنا قبيلا
فانع للجود بحره والمنايا سيفها المخذم الحسام الصقيلا
ثم عز البلاد واندب فتاها شيخها الأروع الجليل النبيلا
رب عزم لديه لو أم طودا لاغتدى عنده كثيبا مهيلا
خلف الراحل الكريم لديكم سيفه العضب لا أصاب الفلولا
شبله الأكبر الذى طال حتى رامت الشمس عن مداه النزولا
فصلوا حبله ودكوا عداه واحفظوا وده وزموا الحمولا (١)

وكقول صالح بطرس فى رثاء كتشنر واصفا موته ، ومعجبا بأمته ، وذاكرا أياديه على الخرطوم :

خان اللسان وعقنى الانشاء ما فى المقال من المصاب عزاء
أودى الحمام بكتشنر من بعد ما كنتم رجوتم أن يطول بقاء
ضنت بجثته البحار على الثرى كى لا تعفر خده الغبراء
حرصت عليها من فساد عارض فغدت تجدد طهرها الأمواء
من كان يفخر بالجدود فمجدكم مجد نمته الهمة القعساء
ألقوا مقالدهم اليك وطمأنوا من جأشهم اذ حازهن كفاء
فنهجت فى الحرب الزبون بخطة عقدت عليها نصرها الحلفاء
صعقت بنى التاميز نبأة هلكه فغدت لها تتراجف الأنحاء
بل هل ترى الخرطوم قائدها الذى أعلى اسمها هيهات منك رجاء
أحييت فيها معهدا متعهدا فيه لناشئه البلاد شفاء (٢)

---

(١) ديوان السودان ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٣ .
(٢) شعراء السودان ١٤٢ .

على أن ظاهرة جديدة شهدها الرثاء فى هذا العصر ، وهى رثاء الأهل ، والأصدقاء فقد أحس الشعراء بالتحول الداخلى فى نفوسهم نحو ما يحيط بهم بعد أن كانوا لا يحسون إلا بالطبقة العليا من المجتمع ومن هنا رأينا الشاعر البنا يرثى والده الذى توفى ٣/٣/١٩١٩ وهو الشيخ الشاعر محمد عمر البنا الذى مر بنا من قبل طرف من شعره . .

عين الكمـال لهول يومك تذرف ... والمجـد يرعد والشريعـة ترجف
لا در در الدافنيك فانهـم ... هالوا عليك من التراب وأسرفوا
أو ما دروا ان المكارم فى الثـرى ... أو ما دروا دفنـوا بأنك مصحف
قد كنت تؤثر أن تقول الصدق لا ... تبغى به بدلا ولا تتخـــوف
فى موقف فيه الخليفة (١) غاضب ... والبيض ترجف والعوامل ترعف
هذا أبى غيظ العدو وملجأ الـ ... ـعافى وسيف الحـادثات المرهف
فقد الكتاب سميره وبكى التقى ... وافتر من شوق اليـــه الموقف
فامدد بميـزاب القـــريض فاننى ... من بحر جودك أستمد وأغرف
قد كنت أسرف فى تليـدك لاعبا ... وتغض طرفك بل تجـود وتخلف
والآن قد أخـــذ الزمان بمخنقى ... وغـدا على حنـق يضر ويتلف
رحمات ربك بالعشى وفى الضحى ... بحيـــال قبـرك خالدات عكف
نـم فى جـــوار الله مسرورا به ... فلقـد تجير اذ تشـــاء وتسعف
ثمرات ما قدمتـه من صـــالح ... تختـار من نعمائهن وتقطف (٢)

وقد يرثى الشاعر ولده . فيصف أحزانه وخوفه من حساب الله له على هذا الجزع ومن هنا لا يحسن الانطلاق النفسى ، ثم يذكر أن له أسوة بالرسول ومن هذا قول الشيخ أبا بكر بدرى فى رثاء ابنه الحسين .

---

(١) الخليفة عبد الله التعايشى .
(٢) ديوان البنا ١٧٨ ، ١٨٠ .

سهام المنـــايا للعبـــاد بريد | قـــلوبا تملت بالسرور تريـــد
فلمـا أناخت عنـــد رحبى ركابها | وأمسى عمود البيت وهو حصيد
يريد أخلائى عزائى وســـلوتى | بضرب لأمثـــال وأين تفيـــد
يقولون لى لا بأس والبأس واقع | وكيف لعمرى والحسين فقيـــد
فلولا احتســابى ما تصبرت ساعة | ولولا اصطبارى عن هداى أحيد
يذكرنى ليـــلى تســـلل روحـــه | وشمس ترينى ذاك وهو لحيـــد
واما أناس يأنســـون بصــــبية | تكون بقلبى بالولوع خـــــدود
وان اسمع الداعى ينـــاديه باسمه | أذب وكأنى بالجحيـــم وقـــود
و لاتنكروا شـــعرى رثاء وسلوة | ولا دمع عينى انه لجمـــــود
فقد دمعت عينا النبى على ابنـــه | ولى أسوة أن الفقيـــد وليد (١)

وقد يرثى الشاعر عمه ، أو شقيقه أو صديقه (٢) ، وقد يرثى جماعة من مواطنيه كما فعل عبد الله حسن كردى حين رثى من تكبتهم الأمطار فى عطبرة سنة ١٩٢١ فى تلك القصيدة التى بدأها بقوله ..

صبر الكرام على الخطوب جميل | والحادثات بقـــاؤهن قليـــــل
يا آل عطبرة تعهـــــد حيــــكم | وبل بســـارية الدموع هطول
وافاكم والليـــل أســـود حالك | طمس النجوم ظلامه المســـدول
فأراعكم وتقطعت أصـــواتكم | من ضـــجة هى زفرة وعويل
جرف المنـــازل ثم طوح بعضـــها | فاذا بهـــا فوق الفضــــاء طلول
قـــد ظن طوفانا طغى أو أنه | غرق عليكم قد جنـــاه النيـــل
لو كف حينا ما فجعتـــــم بالأسى | أو خف طاب لكم هناك مقيل (٣)

وقد يرثى شيئا عزيزا على نفسه كما فعل الشيخ على عبد الرحمن حين كسرت ساعته ..

---

(١) شعراء السودان ٨٥ ، ٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ٧٦ ، ٩٤ ، ١١٢ ، ١٨٩ .
(٣) المصدر نفسه ١٨١ .

لى ســـاعة معـــروفة　　بالصـــدق فى جنح الظلام
لا البـــرد يوقفهـــا ولا　　يودى بسرعتهـــا الغمـــام
اغتـــالها الدهر الخئو　　ن وليس ســـلما للكرام
لم يغن عنهـــا حصـــنها　　جيب القبـــاء أو الحـــزام
أحفيظـــة الوقت الثمـ　　ين وخـــير ســـاعات الأنام
أمسيت بعـــدك فوضويا　　لا أســـاس ولا نظـــام
أبكيـــك أن قطـــر همى　　أبكيـــك ان وقب الظـــلام
أبـــدا تحث عـــلى المضى　　الى الأمـــام الى الأمـــام
مـــا لليبيـــا ســـمان أو　　ساعات نيـــل مع حـــذام ؟
تبكيك ســـاعات تقـــد　　م أو تؤخر أوتـــام (١)

والشاعر فى كل هذا لا ينجح فى تقديم الحزن الهادىء أو العميق ، أو فى تقديم حيرة الانسان وقلقه وفى بعض الأحيان افتتانه برغبة الموت ، لأنه يقف عند حد سرد فضائل الموتى فى ضوء علاقته بهم .

الوصف

— ٤ —

وقد بدأ الشعراء يحسون بالحياة من حولهم .. وبالرغبة فى وصف الحالات التى تمر بهم .. ومن هنا أخذ بعض شعرهم ينصرف الى الطبيعة من حولهم . ويبتعد عن الارتباط بالطبقة العليـــا فى المجتمع الى أشـــياء بسيطة تهمهم وتعيش فى وجدانهم .

ومن هنا رأينا الشيخ ابراهيم محمد المدنى يصف دارا . ومع انه يعبر هذه الحالة سريعا الى المدح . ويعرضها فى صورة غزلية ، ويتحـــكم فيه التقليد فيذكر ليلى والرباب وزينب الا أن هذه الحالة تدل على أن الشعراء أعطوا ما حولهم بعض فنهم فى هذه الفترة .

وقد يصف الشاعر قطاعا من الأرض حوله . فلا يعطيك ســـماته ولا

---

(١) شعراء السودان ص ١٩٥ .

ينفعل به ، وانما يتعداه الى أشياء خارجية عن نفس الموضوع ومن ذلك وصف الشيخ حسيب علي حسيب لمكان يسمى « عديد النحل » مشهور بالخصب والروعة ..

« عديد النحل » جادتك الغوادى — وحيـــاك الحيا يا خـــير واد
أدار الخــلد أنت وذا جـــزاء — بما أني صبرت على « رشاد » (١)
وهذى الحور والولدان حــولى — أم الأملاك تخطــر فى البـــلاد
اذا كانت جنان الخلد هذى — فكيف اذن ينـــازعنى فـؤادى
أجــل هى جنـــة لــكن نفسى — تنـــازعنى الى أهـــــل الوداد

وقد يقف الشاعر عند طلل ليصفه . . فلا يسمح لنفسه باستحضاره فى لوحته ، وانما يتخطاه سريعا الى ما مر من التاريخ . ثم يختم قصيدته بدعوات اصلاحية كما فعل الشاعر شفيق فهمى مينا فى قصيدته التى بدأها بقـــوله ..

هـــذى ديار القـــوم خالية قفر — يروح بها طير ويغدو بها طير (٢)

وقد يوسع الشاعر « المشهد » فيتعرض لمنطقة بأثرها كتلك القصيدة الجميلة التى وصف فيها البنا « البطانة » خلال قصيدته « أنا والاعرابى » التى تظهر فيها بعض الملامح للحياة السودانية ..

فلو ســكنت معنـــا البطـــانه — لمـــا رأيت مثلهـــا مــكانه
يكفيك من دنيـــاك كلب صيد — يكون للغـــزلان مثـل القيـد
تمتـــع النفس مــن الأرانب — ومـــن حليب لبـــن ورايب
انا اذا أمطـــرت الســـماء — فأرضـــنا جميعهـــا خضـــراء
ابلنـــا من حـــولنا عظـــام — كأنهن رتعـــا نعـــام
وبقـــر الحى لهـــا دوى . . . . — كأنمـــا قرونهـــا العصى
والضـــأن والمعزى تبيت حولنا — نحبهـــا كحبنـــا أطفالنـــا

---

(١) بلدة صغيرة تسمى « جبل رشاد » .
(٢) شعراء السودان ٧٨ ، ١٢٦ ، ١٣١ .

اذا ثغين مغربا فى الساحة　　فكالنساء صحن فى نياحه
والناس عندنا جميعا أخوه　　وهم لذى المرعى الجميل أسوه
نحن ألفنا سكن البريه　　لحسن ما فيها من الحريه (١)

وقد وصف الشيخ عبد الله عبد الرحمن النيل بمدنى ، فوصف منه تلك الأشياء القريبة المتناولة .

رف فيه النبات حتى كأنى　　من وراء الزجاج أرنو اليه
وكأن المياه صفحة خد　　وكأن الظلام شام عليه
وكأن الدخان من جانب الشط　　مشيب يلوح فى عارضيه
وظلال الجميز والطلح والسد　　ر ترامى على المروج الوسيعه
ووجوه النبات تحلو وتبدى　　صورا للحياة كانت بديعه
ليس أدعى الى السرور كروض　　خلعت حسنها عليه الطبيعه (٢)

و « الخريف » فى السودان هو الفترة التى يهلل لها الشعراء ، ويتغنون بالطبيعة فيها . ومن ذلك قصيدة البنا فى الخريف ..

أما رأيت البرق كيف لمعا　　وحوله السحاب كيف اجتمعا
سحابة سوداء مثل الحبر　　بقربها بيضاء مثل الفجر
بجنب صفراء كلون الكركم　　جوار حمراء كحوض من دم
سحائب انتشرن فى السماء　　كابل رتعن فى فضاء
وأنبتت لنا نباتا حسنا　　وكثر الخصب باذن ربنا
وظهر النبات كالغيوم　　وارتفع النوار كالنجوم
ورتعت ابلنا والشاء　　وارتاح من أتعابها الرعاء
وطاب للكبار منا الزرع　　ودر للصغار منا الضرع
ورخصت من عيشنا الأسعار　　واخضرت الساحات والأشجار
ان الخريف زينة البلاد　　يعم بالخيرات كل واد

---

(١) ديوان البنا ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) الفجر الصادق ١٢٢ .

وقد تمتد رؤى الشاعر فتصف باريس ، وما فيها من ظباء (١) . وقد يصور الشاعر تجربة عاطفية كتلك التجربة التى عاناها محمد سعيد العباسى فيدخلها داخل قصيدة تتضمن أكثر من غرض ...

مرت بالحى ضـــحى ... أروض مهـــرا أدهمـــا
مرتديا من الثيـــا ... ب ضـــافيا منمنمـــا
لقيتـــــه فى أربع ... بيض كأمثـــال الدمى
وقفت فاســـتسقيته ... وشـــد ما بى من ظمـــأ
جاء بمـــاء قلت هل ... حاجة مثلى منك « ما »
أنشدته من فاخر الشعر ... رصـــينا محكما . . .
فـــرق لى مستسلما ... ومال نحـــوى منعمـــا
طويتـــه طى الردا ... متعت من فم فمـــا (٢)

وقد ظل الشعور الدينى قويا ، وظل تسلله الى الأغراض الأخـــرى ، ومن ذلك قول البنا فى زينة المولد ...

وانظر الى زينة زادت بنسبـــتها ... اليك فخرا ، وحازت كل تمجيـــد
كم راية خفقت فوق النجوم كما ... يرف قلب جبان اللب مطـــرود
من كل هيفاء حمراء تخـــال بهـــا ... وردا على الغصن أو نارا على العود
وكل بيضاء قامت فى السماء كمـــا ... قامت أياديه تحيى كل مجهـــود
وكل صفراء فى لون الأصيل الى ... حمراء من لازورد غير مبـــدود
وانظر مصابيح تمحو للظلام كمـــا ... محا من الشرك طه كل معبود (١)

ولعل كلمة « الوصف » هى خير تعبير عما قدمنا ، لأن الشاعر لا يتنفس أو تتنفس الحياة من خلاله فى تجربة متوترة ، ذلك لأن كل جهده يقف عند حد « وصف الحياة » أو المشاعر ، ولمسها من الخارج لمسات بصرية سريعة .

---

(١) ديوان البنا ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) ديوان العباسى ٧٥ .

الاجتماعيـــات

— ٥ —

اهتمم بعض الشعراء بالاجتماعيات فى هـــذه الفترة . وقد وفـق السودان الى قيام نادى الخريجين سنة ١٩١٨ بأم درمان . وكان مما قاله رئيسه الفخرى الأول المستر سمبسون مدير كلية غردون فى خطبة الافتتاح « ان هذا النادى سيلعب دورا هاما فى التاريخ » (١) .

وقد احتفى الشعراء بهذا النادى فقال البنا من قصيدة له ..

الفضــل يشهد والعـــلاء ينادى ... للمجد أجمع فى انتظام النــادى
أدعو الى النـــادى وما النــادى ... سوى دار الى ربط القلوب تنادى
كم فيه من قوميـــة أخـــوية ... وفكاهة ونزاهة وســـــداد
وطن الغــــريب وداره وقبيله ... ومقيـله فى الأهـــل والأولاد
نادى المـــدارس لا يحط كرامة ... منه سوى الجهال والأضـداد (٢)

وقال محمود أنيس فى احدى حفلاته سنة ١٩٢٢ ..

حى الشـبية وابدأ منهم الهمما ... حى المكارم حى المجد والشـمما
هم الأولى أدركوا الآمال وامتلكوا ... أزمة الفضل فاقتــادوا بها الأمما
فصل الخطاب اذا قالوا وان فعلوا ... فالحزم والعزم فى تاريخهم علما (٣)

ولقد قام النادى بأكثر من نشاط كان منها التمثيل ..

يا حبذا حجج التمثيل دامغــة ... معالم الوهم بالبرهان تزجيـــه
وحبـــذا أثر النـــادى وفتيته ... اذا هم ازدحمــوا فيما يرقيه (٤)

وقد تعرض الشعراء فى هذه الفترة لقضايا المرأة فدعـوا الى تعليمها وأشادوا بقيمة الفتاة المتعلمة ..

---

(١) كفاح جيل ١٠ ، ١١ .
(٢) ديوان البنا ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) شعراء السودان ٣٢٨ .
(٤) ديوان البنا ٨١ .

فعليك بالأم الرفيقة انها — هي مرشد ومعلم ومهذب
واهجر سبيل الجاهلات فانما — بالجهل تمتهن البلاد وتخرب
هن اللواتي جارهن مروع — مما يقلن وقولهن مكذب
هن اللواتي زوجهن مهدد — بالفقر ينفق ماله أو ينهب
هن اللواتي دينهن مضيع — هن اللواتي طفلهن مترب
وعليك بالمتعلمات فانما — ترجو ملائكة السماء وتخطب
يجررن أذيال العفاف تحنفا — فالريب يبعد والفضيلة تقرب
ويرى بهن الطفل في أطواره — ما يرتقي بخلاله ويهذب
يغذونه بالعلم قبل فطامه — والعلم أقرب للعلاء وأجلب
يقصدن في مشي وفي عيش وفي — لبس وكل فعالهن محبب (١)

ومن هذا قول الشيخ مدثر البوشي ..

ولا بد للمرء الذي صان عرضه — وأقفى نبي الله في الفعل والعهد
من الغادة الحسناء تفري همومه — وتطرد جيشا قد تكاثف كالجند
من القارئات الكاتبات اذا رأت — فقيرا جرى ذاك المداد ليستجدي
من الحافظات المرشدات اذا أتت — بطفل أبرت قومها سيدا يسدي (٢)

وكما تعرض الشعر لقضية تعليم المرأة تعرض للسفور كذلك ويظهر صدى المعارك في قول محمود أنيس ..

قالوا هراء علموا الفتيات — وتسابقوا في القول غير هداة
والله يعلم أنهم لمقلدو — ن سواهم في النسج والغايات
ما بين داع للسفور وطالب — للاختلاط يبوء باللعنات
هذا هو السودان يهتف قائلا — لو تسمعون القول غير طغاة
يا قوم اني في بداية نشأة — لما أزل أحبو وبدء حياة

(١) ديوان البنا ٧٠ ، ٧١ .

(٢) شعراء السودان ٢٤١ ، ٢٤٢ .

الدين يأمر بالحجاب وأنتم تتآمرون عليه بالشبهات (١)

وقد آثر بعض الشعراء السلبية تجاه هذه القضية فقال الشيخ حسيب على حسيب ..

دعوا فى خدرها ذات الدلال فقد أرهقتموها بالجدال
ومسألة السفور غدت قديما لدى الكتاب مشكلة النضال
دعوها فهى تؤلمها كثيرا سهام المصلحين بلا اعتدال
عجبت لحلمها فى كل خطب وان ذكر البنات دعوا نزال (٢)

وقد دعوا الى نبذ التفرق ، والتذكير بالعروبة ، ودعوات الاصلاح ، ومساعدة المنكوبين ، كما دعوا الى التمسك باللغة العربية . ومن هذا قول البنا ..

أم اللغات عويلى غير منقطع حتى أرى الدهر عبدا من رعاياك (٣)

وقوله . . .

وساءنى أن ميدان « الكلوب » لهم اذا دجى الليل أوراد الضحى نزل
وساءنى أن للخمار بعض يد عليهم وهو عبد الذلة السفل
وساءنى أن هذا القطر أصبح من فراغه وله من سعيهم شغل
وساءنى أن رايات رفعن على قوم الضلال بها اعوجوا فما اعتدلوا (٤)

---

(١) نفثات ١٦٧ .
(٢) شعراء السودان ١٢٧ .
(٣) ديوان البنا ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٥ ، شعراء السودان ج١٨ ، ٣٣٨ .
(٤) ديوان البنا ٧٧ .

السياسة

— ٦ —

لقد آثر أكثر الشعراء فى هذه الفترة السلامة فلم ينفعلوا بأحداث البلاد وقضاياها . ذلك لأن قبضة الانجليز كانت تضغط بعنف على مشاعر المواطنين ، ولم يكن مسموحا بنشر ما يخالف سياستهم ومن هنا رأينا بعض قصائد هذه الفترة فى الصحف المصرية ففى أهرام ١٩٢٢/٥/٢٦ قصيدة للشاعر توفيق صالح جبريل تدور حول زيارة « اللنبى » للخرطوم للتبشير بسياسة الوصاية على السودان ، وكيف واكبه بعض الزعماء . ومن هذه القصيدة ..

أيها القوم لا تجرو الذيولا ... يأنف الحر أن يعيش ذليلا
سمتمونا العذاب . ضيقتم الأرض علينا حتى هوينا الرحيلا
ويح قلبى ماذا يروم « اللنبى » ... يوم وافى يجر سيفا صقيلا
جمع الجمع ، أرهب القوم حتى ... أصبح السيد النبيل ذليلا
أتراه يريد يفصم حبلا ... بين مصر وبيننا موصولا ؟
جل من ملك الدخيل فجر الذيل ... واستمطر العذاب الوبيلا

وحين وشى بجمعية الاتحاد أحد أعضائها لصمويل عطية استقر رأى الأعضاء على حلها ، ولكن الشاعر ابراهيم بدرى لم يوافق على هذا فكتب هذه القصيدة ..

عهد قوى لم تزده ... الحادثات سوى ازدياد
ويحوطه القصد الشر ... يف وأشرف القصد الجهاد
من أجل فرد خائن ... تبغون حل الاتحاد ؟
والمرء يقطع زنده ... خوف التسمم والفساد
أعماه حب الأصفر الر ... نان عن نهج الرشاد
خان البلاد وما درى ... أن الخيانة شرزاد

مهـــلا عليه فسوف يـر ... سف فى قيود الاضطهاد
ويرى نتيجـة ما جنت ... كفاه من ضرر العبـــاد

كما أنه كانت هناك دعوات واهنة مر بنا بعضها فى مدح بعض الشعراء للانجليز ، وقد كان الشعراء حين يمدحون السيد عبد الرحمن المهدى يسترجعون ذكرى « المهدية » ويعتبرونها من مفاخرهم :

ألا أفخر فبالمهـــدى يفخر نسله ... ويفتخر السودان والدين يجمل (١)
أوصاكم«المهدى»بالتقوى وما المهدى ... الا عصـــــمة . ونجـــاة

رجـــل تفـــرد بالاله وحبـــه ... والنـــاس عمهم عمى وسبات
جاس الديار وقال يا دهـــر التفت ... فارتاع مرعى لهـــا . ورعـــاة
نشر العظـات فمن رعى روعى ومن ... ولى دهتـــه بليـــة وممـــات
ســل خيله الجرد اللواحق صـهلا ... تطـأ الرجـال قلوبهم فـــزعات
وســل الرماح السـمهرية كم لها ... فى جـــوف ذى جبـرية نهـلات

رضـعوا الهدى بمواعظ المهـدى ... واختاروا على النعماء عيش كفـاف
رفعـوا على التكبير أس بنـائهم ... فأناف بالتهليـــل أى منـــاف

يابن الذى قال يا دهـــر اتبع فأتى ... له الزمان مطيـــع الأمر متبعـــا
وبالمغيرات صـبحا جال جـــولته ... فلم شمل الهدى والكفر قد صدعا
وكم هجير تصـلى فى الجهـاد فما ... خارت قواه ولا استسقى ولا جزعا
وكم رمى الجيش بالمنشـور يكتبه ... ففل جيش الهوى واستأصل الشيعا (٢)

فالمهدية ظلت فى ضمير الأفراد ، وكانت الوسيلة الى الالمام بها فى شيء كبير من الزهو هى المدحة التى توجه الى السيد عبد الرحمن المهدى الذى كان يتمتع بصـداقة الحكام فمن خلالها كان الشعر يتنفس بأمجاد هـذه الفترة التى استطاعت أن تقيم مجتمعـا سـودانيا صميما ـ لفترة ما ـ فى البلاد .

(١) شعراء السودان ٧٣ .
(٢) ديوان البنا ١٣٢ ، ١٤٢ .

أغراض أخرى

(٧)

وقد كانت هناك أغراض أخرى ثانوية ، ولكنها مع ذلك توضح بعض ملامح الحياة فى هذه الفترة ومن هذه الأغراض :

(أ) الفخر

ومن هنا قول عثمان هاشم :

وأنا ابن من لتليد عز أصـــولهم   حقا تواضـــع أصـــل كل شريف
الضـــاربين عـــدوهم يوم اللقـــا   بالرأى ضرب صـــوارم وسيوف
قـــوم لقـــد طابت سرائرهم فلم   ترغير بذل ندى وبســـط كفوف
هم أفضـــل العرب الكرام عشيرة   وأعـــز أنســـاب وشم أنوف

وكقوله :

انا لمن معشر طابت أصـــــولهم   فطاب فرعهم والنسل والنسب

وكقول العباسى :

وكم نعمـــة لك عنـــدى عظيمـــة   حطمت بها أنف المساجل لى حطما
فلا أمنـــع المـــولى ولاذا قرابتى   ولا الطارق المعتر معروفى الجما
وان ذكروا حـــر القـــوافى فاننى   ملى بابراز المحبـــرة العصـــما
اذا أنشدت فى محفل الفضل عدها   لحسن معانيها لسامعها غنما (١)

(ب) الخمر

وقد صرحوا بحبهم للخمرة فى هـــذه الفترة ومن ذلك قول عثمان :

أدر الراح علينـــا باليمـــين   تحت ظل الورد بين الياســـمين
واسقنيهـــا من ســـلاف عتقت   تخـــرج الهـــم من القلب الحزين

---

(١) شعراء السودان ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٢٩٣ .

ضن رب الحــــان للشرب بهــا   واصــطفاها اذ رآنا قادمــين

وكقول صالح عبد القادر :

اســكب الراح وناول من طلب   وأدر كأســك فالدنيــا طرب
واســقنيها بنت كــرم عتقت   تطرد الهم وتشـفى من تعب
يا رفــاقى لا تلومونى عــلى   حبهــا فالعيش فى بنت العنب
ما علينـا ان شربناها وقــد   كتب الله علينــا ما كتب
نحن فى مجلســنا طبنا وقــد   نزح العاذل عنـا واحتجب (١)

(حـ) التأريخ وهو هنا لون هزيل من ألوان البديع وليس غرضا شعريا كالحديث عن سير الرجال :

نادى الملوك مؤرخا لن ترتقــوا   كرقى «جورج» والمليكة «مارى»
١٣٣٠
الجيش حل بدنقــلا مستفتحــا   خبرا فقلنــا أرخوه لقــد ظفــر
١٣١٤
وزهت به حلفــا فأرخــها على   من كامــل البركات ذان فتــورا
١٣٤٠
فلسان حال الصــدق قال مؤرخا   حــقا بحلفا كان أصــلح قاضى
١٣٤١
وقال صــدقا صــديق حين أرخه   لمصــطفى لجوار المصطفى انتقلا
١٣٤١
وزهت به حلفــا فأرخهــا على   نارت بعودة طيب الاســعاد (٢)
١٣٢١

(د) ملامح القصــــة

لقد أورد البنا قصة عثمان بن عفان فى قصيدة طويلة ، وكذلك قصة الرســول غير أنه قد أبدع فى فصيدة عثمان فى أبيات فوق المائة وقافية واحدة ، وقد بدأها بالمقدمة ، ثم عثمان فى آله وعشيرته ثم اسلامه وآثاره فى الاسلام ، ثم منزلته عند النبى ، ثم أولياته فى الاسلام ، ثم أياديه البيض

---

(١) شعراء السودان ١٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢١١ ، ٣٣٧ ، ٦٢ .

ثم خلافته ، وأسباب تفضيله ، وخلائقه وسيرته بعد الخلافة ، والفتنـة ، وثباته ، وما نشأ عن قتله . فهو هنا يعتبر واضع بذرة القصيدة التاريخية بحق فى السودان ، وأول من اتجه الى الانتفاع بحكايات « كليلة ودمنة » فنراه يورد قصة « السلحفاة والبطتان » وهى تدور حول غدير معشب كانت به سلحفاة وبطتان . فلما جف الغدير حزنت فقالت البطتان :

وقالتا « لا تحزنى يا صاحبـه ... ان الوفى ليس ينسى صاحبـه
الماء فى واد قريب من هنـا ... تمشى اليه بالسرور والهنا »
قالت « وكيف استطيع السيرا ... ولم أكن أمشى ولست طـيرا »
فقالتـا « نحمـل فوق كتفنا ... عـودا متينا يابسا أو لينـا
ثم تعضـين بذاك العـود ... ونبتـدى فى الحـال بالصعود
لكننـا نوصيك والوصـايا ... من الصـديق أنفس الهـدايا
اياك والـكلام فى الطريق ... فتصـبحى فى كـربة وضـيق
مهما سمعت الناس قالوا فاسمعى ... ولا تقولى كلمـة فتصرعى »
ومرتا من الطريق بالقـرى ... فأكثر الناس اليهـا النظرا
وعجبوا من أمـرها ونطقـوا ... واجتمعوا من خلفها وصـفقوا
فغضبت لمـا يقول النـاس ... وارتفعت من غيظها الأنفـاس
وفتحت فاها لتشـفى بالكلم ... ماقر فى ضمـيرها من الألم
فسقطت قتيـلة النسـيان ... ولم تنل شـيئا سوى الأحزان
وهكـذا من نسى النصيحـه ... يرجع بالحرمان والفضيحه (١)

ثم يقص الشاعر قصة أخرى تدور حوادثها حول مقابلة فى سفر لأعرابى من البطانة ، وبعد التعارف سخر الأعرابى من الحياة فى المدينة وأشـاد بالحياة فى البطانة ، فتصدى له الشاعر ، وذكر له ما فى المدن من أمجـاد حتى كسب الأعرابى الى صفه . وقد سمى هذه القصة « أنا والأعرابى »(٢)

---

(١) ديوان البنا ١٦٦ ، ١٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ٦٨ ، ١٦٩ .

وقصة « الناسك والأوهام » التى تدور حول ناسك تعرف برجل كريم فأقبلت عليه الحياة وأخذ يجمع السمن فى جرة . ثم استرسل فى حلم من أحلام اليقظة فقال سأشترى معزى ، ومن نسلها اشترى البشر ثم الدار . ثم أتزوج فتاة جميلة ثم تأتى لى بولد

أعمه تربية وأدبا — حتى ينال فى صباه الرتبا
فان أبى موارد الاعزاز — ضربته فى الرأس بالعكاز
ورفع العكاز يومى للفتى — فكسر الجرة حتى شتتا
فنزل السمن برأس الناسك — والناس بين هازل وضاحك
وليس نسكا مايسوق الفقر — لكنه معجزة وقهر (١)

ثم قصة « ابن الملك وأصحابه » والتى يقوم ببطولتها ابن ملك ومعه ابن تاجر ، وابن آكار ، وثالث على شيء كبير من الجمال . وقد ظلموا جميعا من أهلهم وعزموا على السير فى الأرض . وصار كل واحد منهم يفخر بما عنده من مزايا.وظلوا سائرين الى أن شارفوا احدى المدن ثم ألقوا عصاهم وقالوا لابن الاكار استخدم مزاياك فى حصولنا على طعام فدخل المدينة واشتغل فى حمل الحطب

وباع ما جاء به بدرهم — ثم انثنى لصحبه بالمطعم
من بعد أن سطر فوق الباب — بدرهم يومى واكتسابى

وفى اليوم الثانى قالوا لزميلهم الجميل وفر لنا طعامنا اليوم . فسار حزينا وغلبه النوم على نفسه فمر به رجل غنى أعجب به ومنحه خمسمائة درهم

فزان بالقصة وجه الباب — وعاد طلق النفس للأحباب

ثم قالوا لابن التاجر هيا وفر لنا ما يمسك علينا حياتنا فقام واستعمل ذكاءه

---

(١) ديوان البنا ١٦٩ ، ١٧١ .

مائة ألف درهـم حـــواها بســـاعة من عقله قضـــاها
وخط فى البـــاب صريح القصه وعاد للصحب بنجح الفرصـــه

وأخيرا قالوا لابن الملك الآن جاء دورك . فما كاد يسير حتى ظنه حارس بيت الملك من الأعداء فحبسه . وكان الملك قد مات واجتمع من بيدهم الأمر لانتخاب ملك جديد فاختلفوا فيما بينهم فذكر البواب السجين فطلب احضاره ، فسمحوا له وقص عليهم قصته فنصبوه عليهم فسار فى موكب عظيم

حتى اذا أبصر فـوق البـاب ما خطـه ثلاثة الأصـــحاب
سجل أن الجـــد والجمـــالا والعـــقل والحنكة والجـلالا
ان لم يكن فى عونها القضـــاء فانهـــا جميعها هبـــاء (١)

فالشاعر يقدم هنا قصصا بسيطة ساذجة ليخدم أحد الأغراض النبيلة . فهو يقدم فى هذه القصص القصيرة أحد الألوان المدرسية التى يسر بهـــا التلميذ ، ويخرج منها بمضمون مفيد فهو هنا يخضع الشعر لقواعـــد التربية .

وشبيه بهذا ما ألفه الشيخ بابكر بدرى لبنات مدرسة رفاعة

أصون لزوجى ماله كل لحظـــة وأحفظـــه فى عرضـــه وعياله
وأرعى له حق الاله وحقـــــه وأجعـــل سمعى مصغيا لمقـــاله
وان سامه عسر وان عضه أسى أكون له عونا لاصـــلاح حاله
وان يؤذنى فى غير ما منه سبة تحمـــــلته لله أو لخـــلاله
بذا والذى أوصى وانى بنتـــه أوافقـــه فى قوله وفعاله (٢)

(هـ) الاخوانيات :

وقد ظهر هذا اللون بعـــد أن اهتموا بأنفسهم وأحسوا بمواطنيهم فكأنما انصرفوا الى أنفسهم والى الناس بمقدار انصرافهم عن الطبقة العليا

---

(١) ديوان البنا ١٧١ ، ١٧٥ .
(٢) شعراء السودان ٩٨ ، ٩٩ .

فى المجتمع ؛ خاصة وأن هذه الطبقة كانت شيئا غريبا عليهم . ومن هنا سمعنا الشاعر عثمان هاشم يتشوق الى اخوانه فى أم درمان :

شغلت بكم عن حب كل خريدة وأصبحت لاترجو مواصلتى دعد
وما حبكم أبقى قليل مودة بقلبى حتى تستبد به هند

كما سمعنا الشعر يقال فى وداع الأصدقاء ، وفى نقلهم ، وذكر أيامهم وحجهم (١) وفى التهانى بالزواج ، والاعجاب بالمؤلفات .

وقد جاء فى ديوان البنا أربع عشرة رسالة شعرية تدور حول الاعجاب بالديوان (٢) .

(و) السياسة العالمية :

ظهر أثر هذه السياسة خافتا فرأينا عثمان هاشم يتعرض لمصر والترك فيقول :

وبمصر أقوام يطاحن بعضهم بعضا ففيم يطاحن الأقوام
والترك قد تركوا بغير معونة وهم الألى حاطوا الثغور وحاموا
قد فوجئوا فى عقر دارهم التى هى للخلافة مركز ودعام (٣)

كما تعرض العباسى للحرب الطرابلسية ، ولعلاقته بمصر (٤) وقد مر بنا الشعر الذى دار حول الانجليز .

---

(١) شعراء السودان ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٢١ ، ١٨٨ ، ١٣١ ، ٣٣٩ .

(٢) ديوان البنا ١٥٢ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ .

(٣) شعراء السودان ٢١٩ .

(٤) المصدر نفسه ٢٨٧ ، ٢٩٦ .

معانيه وأخيلته

(٢)

لقـــد كانت هذه الفترة ضاغطة على الشعور السودانى ، وكانت طرق النشر لاتسمح الا بما يرضى عنه الحكم الحالى ، كما كانوا يحســـون بفداحة الهزيمة التى لا تزال تخيم على أجواء البلاد . وبأنهم يقفون وحدهم أمام الانجليز . فالمصريون كانوا يعيشون فى سلبية تامة ، وافريقية من حولهم خانعة ذليلة ، وانجلترا تخرج من الحرب منتصرة وتنكل بالوطنيين فى مصر ، والبلاد كلما قامت فيها ثورة أخمدت بعنف وقسوة .

وأمام هذا رأينا الشعور السودانى ينقسم الى قسمين : قسم ينضم صراحة الى الانجليز فيهادنهم ويعمل على تثبيت أقدامهم ، وقسم يرتبط بمصر روحيا ويستند اليها فى تحركاته بعد أن يدرك تماما أنه لا يستطيع الوقوف باسم « سودانيته » أمام الحكم البريطانى .

وقد انعكست هذه الحياة على الشعر السودانى فرأيناه لا يخوض بحق فى الشعر السياسى ، ولا يحس بقوميته ، ولا يندفع بايجابية تامة الى الحياة .

ومن هنا رأيناه يعيش فى الاطار التقليدى القديم ، ويبتعد عن كل ما يثير المشكلات ، ويستمد معانيه وأخيلته من تراث العربية فهو فى هذه الفترة يخرج من دائرة الشعر المملوكى والتركى وهى الدائرة التى كانت تعتبر المثل الأعلى فى الفترة السابقة .

فالشاعر هنا يهتم بالتضمين ، والتضمين لا يقف عند حد البيت أو الشطر المضمن لأنه يتعداه الى الجو العام . فالشاعر لا يستوحى البيت أو الشطر الفرد ، وانما يستوحى الجو العام للقصيدة ، أو الشاعر ، وربما العصر . ونستطيع أن نلمح هذا فى قول الشيخ أحمد المرغنى فى مدحته للزبير :

وتلوح لى بين المرابع أبرق | « لمعت كبارق ثغرك المتبسم »
فشددت رحلى واتجهت ميمما | جرعاءها فى جنح ليل مظلم
أخذت تصوب ناقتى كسحابة | أو أنها طارت بريش القشعم
طورا تغور وتارة فى هضبة | حتى انخت على الجناب الأكرم
.. أو ماكفى فيما فعلت مآثرا | بسلوك «فور» فى الزمان الأقدم
فضربتهم حتى نثرت رءوسهم | نثر العريض المرجحن المتهم
أرقصت خيلك فى ربا مغناهم | وغناؤها صوت الحديدالأعجم(١)

وشتان بين هذه الجاهلية فى قصيدته وبين ماله من شعر .

وقد يضمن الشاعر بيتا لشوقى ، فيشبع المعنى العام للقصيدة المضمنة فى قصيدة الشاعر ومن هذا قول محمود أنيس :

وثابروا فى طلاب العز لا تهنوا | أو يضعف العزم أو تأخذكم الريب
لاتدخروا عن دراك المجد وسعكم | فالعجز منقصة للمرء تجتنب
وهذبوا بعظيم الخلق أنفسكم | فبالفضيلة كل الخير يجتلب
« وانما الأمم الأخلاق ما بقيت | فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا (٢)

وكقول عثمان هاشم :

بالامس كانت دولة العزالتى | «صال الرشيد بها وطال هشام»
واليوم أطفىء نورها وجلالها | والمسلمون مفرقون نيام (٣)

وقد اهتموا فى هذه الفترة بالتخميس وأكثر ما كان يدور هذا اللون حول الغزل ، والمعانى الدينية فمن هذا قول محمد حافظ :

شغفت بحب كثير العجب | رقيق الحواشى سريع الغضب
فقلت اتئد واستمع قول صب | « وحقك أنت المنى والطلب »
وأنت المراد وأنت الأرب

---

(١) شعراء السودان ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ٣٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ٢١٩ .

وكقول الشيخ بابكر بدرى :

أيهــا المبلو صـــبرا   لا تضق بالكرب صدرا
لم تحط بالغيب خبرا   « لا تدبر لك أمرا »

فأولوا التدبير هلكى (١)

وكقول البنا مخمسا قصيدة طويلة للشهاب محمود الحلبى :

يا مغفلا للنفس فى شـــهواتها   وممتعـــا للعين فى ســـهواتها
ان رمت لا تلغى خدين غواتها   « أعمل حساب النفس عن هفواتها

واستدرك الطاعات قبل فواتها

ويظهر هذا الاهتمام بالتخميس من تلك القصيدة التى خمسها محمد فاضل وقال من خمسها خيرا من تخميسى فله كتاب من خـيرة كتبى ، وسيكون الحكم فى هذا للشيخ عبد الرءوف سـلام وقد جرى فى هذا المضمار ثمانية وعشرون شاعرا ، كان أسبقهم الشيخ محمـد عبد الله البنا ، ومن هذا التخميس :

حبيبى يشوب الرضا بالغضب   تجنى على رقـــة وانقلب
وقالوا ســـوانا عليــك غلب   « وحقــك أنت المنى والطلب

وأنت المراد وأنت الأرب »

لاهليك ان زرتكم جفـــوة   وأنت تـرى أنهم أســـــوة
فرقوا لحــالى فى نشـــوة   « ولى كل يوم بكم صـــبوة

تحير فى وصفها كل صب »

فؤادك يافتنــة النــاظرين   شهيــــــد بأنى محب أمين
فما بال طرفك فى الغاضــبين   « أما والذى زان منك الجبين

وأودع فى اللحظ بنت العنب »

وســـواك ذا غـرة كالهـلال   وذا طـرة كسواد الليـــالى

---

(١) شعراء السودان ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٩٨ .

وذا مبسم كنظيم اللآلى « وأنبت فى الخد روض الجمال
ولكن سقاه بماء اللهب »

لرقى يقينا قضاها الوداد وذلى يقينا قضاه البعاد
فكن كيف شئت فداك العباد « لئن جدت أو جرت أنت المراد
وليس سواك حبيب يحب » (١)

وكذلك رأينا الشعراء يهتمون بالتشطير ؛ فيجترون معانى القصيدة المشطرة ويعتصرونها . فيجيء التشطير هزيلا ، ومن ذلك تشطير الشيخ على الشامى لأبيات ابن الفارض :

« ان كان منزلتى فى الحب عندكم» نحول جسمى وآلامى وايلامى
أو أن يكون جزا روحى التى زهقت « ماقد رأيت فقد ضيعت أيامى »

وتشطير محمد حافظ الأمين للقصيدة نفسها .

«ان كان منزلتى فى الحب عندكم» شهود غيركم يا طول أسقامى
أو كان ما أرتجيه من وصالكم «ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى »

وكتشطير محمود أنيس للنابلسى

« أنا دائما يا نور كل مليح فى شاغل جسمى عليك وروحى
أبدا بذكراك اللسان محدثا « بين الكناية فيك والتصريح» (٢)

ولعل أقوى تشطير فى هذه الفترة هو تشطير البنا لبردة الامام البوصيرى (٣) .

وقد أوحت همزية البوصيرى همزية أخرى للشاعر مدثر البوشى أختصر فيها سيرة الرسول (٤) .

وهكذا نرى الشعر يرسف فى قيود قديمة أجبرته على بعث هذه المعانى ،

---

(١) شعراء السودان ٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢٣٨ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ .
(٣) ديوان البنا ٢٢ .
(٤) نفثات اليراع ١٧٥ .

واعادة صياغتها ، وقد أخذ عليهم هذا اللون من النظم حمزة الملك طنبل (١) .

ثم ان المعانى الدينية لا تزال سابحة فى وجدان الشعراء فهم زيادة على اهتمامهم بالمدح الدينى الخالص ، نرى أن المعانى الدينية تتسرب الى شعرهم مثل :

يرنو بناظرتين تنظر فيهما هاروت أو ماروت نظر كفاح

كتعذيب أهل النار فى النار كلما تبيد جلود تستجد جلود

وما رأيت الاشفاق حلا بشرعها ولكن بقتلى شرعها كان قاضيا
لأنى قد ضحيت نفسى لمالكى ومن بالأضاحى قد يقود المواليا (٢)

من عق والده أهبت بأنه كخدين جارته فليس بمسلم

وتقطع الليلة الليلاء منتحيا خوفا من الله تسبيحا وقرآنا

رب عزم لديه لو أم طودا لاغتدى عنه « كثيبا مهيلا » (٣)

وقد نرى بعض بذور للصوفية مثل :

سر الحقيقة فى زواياك انزوى ومحيط كنهك لا يحيط به السوى
يسرى سموك فى سماء الكشف عن سر الحقائق فوق عرش الاستوا (٤)

والوعتا جن ليل العاشقين فلو عتا البعاد على أحشائهم فصما (٥)

فليست هناك تجربة تهز أعماق الشعراء ولا فلسفة واضحة تجعل لعواطفهم كيانا ذكيا ، وانما هو التقليد للتراث القديم من الشعر فى اطار الدين .

---

(١) الادب السودانى ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) شعراء السودان ٨٧ ، ٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ .
(٣) ديوان البنا ٥٣ ، ١٢٧ ، ١٨٢ .
(٤) شعراء السودان ٨٩ .
(٥) ديوان البنا ١٤٤ .

ومع أنهم قد التفتوا الى الطبيعة من حولهم ، والى أنفسهم ، واخوانهم ومدوا عيونهم الى بعض الأحداث الخارجية الا أن كل هذا لا يمثل الوجه الحقيقى للشعر فى هذه الفترة . ذلك لأنهم كانوا يعيشون بقلوب غيرهم . ومن ثم رأيناهم يقعون فى الأخطاء ، فهذا الشاعر الذى يقلد عمر بن أبى ربيعة يقول :

ولما رأت أنى غدوت مجندلا ... وليس حراكا بى ولم آك جانيا
على مصرعى قامت وقالت تحسرا ... على ودمع العين ينهل جاريا
فلا عاش من أرداك يا خير عاشق ... وياصائننا للسر اذ كان فاشيا
قضيت وما قضيت منا لبانة ... فليتك عنا يافتى كنت ساليا
فهذا مصير العاشقين فمن يشأ ... يمت فى هوانا أو يجانب تفاديا (١)

بينما يقول الشاعر هذا ، نراه يكمل فيذكر أنه أرسل خليلين له يقولان لها :

« فجودى وعودى مغرما فيك فانيا »

فردت عليهما بأنها لولا قسوة زوجها لحضرت . فلما قصا عليه قصتها قام اليها ثم أناخ مطيته حيث الخباء ثم أخذ يناديها .

والشيخ عبد الله عبد الرحمن لا يراعى المطابقة الفنية بين المشبه والمشبه به ، كما يشتت عناصر الصورة حين يقول :

وكأن المياه صفحة خد ... وكأن الظلام شام عليه
وكأن الدخان من جانب الشط ... مشيب يلوح فى عارضيه (٢)

والشاعر البنا يقول :

معنى الحياة هو النادى ولست أرى ... حرا كريما اذا نادى يلبيه (٣)

---

(١) شعراء السودان ٢٠٩ .
(٢) الفجر الصادق ١٢٢ .
(٣) ديوان البنا ٨١ .

فمن الذى يلبيه اذا لم يستجب الحر الكريم لندائه .

ويندر الوقوف فى هذه الفترة على معنى مبتكر ، أو يزيد بالتوليد عن الأصل المأخوذ منه ؛ على أن الشىء الذى يستحق الذكر فى هذه الفترة هو الاهتمام بالقصة الشعرية التى سبق أن تحدثنا عنها .

(ب) أما الخيال الذى يلون هذا الشعر فهو الخيال البيانى أو التفسيرى الذى يصور الأشياء على أساس اضافتها الى أشياء أخرى تقويها وتظرها ، مستعينا على ذلك بالفنون البلاغية المتوارثة (١) .

ومن ثمة رأينا بعض الفنون البلاغية تظهر فى هذا الشعر كالجناس والتورية ، والتقسيم الايقاعى ورد العجز على الصدر ؛ والاستعارة المستهلكة :

عشقت غانية بالفضل غانية ... عن أن تحيط بها الأقوال والكلم (٢)

ولست بخائف حصرا وعيا ... « وشوقى » فيه عليني نشيدى

غر جحاجحه شم غضارفه ... صيد جهابذة بل سادة نجب

يا دار نلت سعادة وحبورا ... بعد البلى من ذا بناك قصورا

أخذوا بأعناق المكارم أخذة ... وتربعوا من عزهم فوق الذرا (٣)

فالخيال هنا قائم على الفكرة الجزئية ، ويستمد حياته منها . أما استخدامه كطريق من طرق الاقناع بالحقائق النفسية والكونية بتصويرها نابضة فى صور متكاملة ؛ وأن الصورة تستلزم ضرورة كون الألفاظ نابضة فى صور متكاملة ، وأنها لا تستلزم ضرورة كون الألفاظ أو العبارات مجازية (٤) ، فشىء لم تعرفه هذه الفترة ، وهكذا نرى أن الشاعر كان يتعامل مع الألفاظ بدلا من التعامل بالصورة .

---

(١) فى الادب الحديث جـ ٢ ص ٢٤٨ .

(٢) ديوان البنا ٤١ .

(٣) شعراء السودان ١٩٣ ، ٢٣٢ ، ٧٨ ، ١٣٩ .

(٤) المدخل الى النقد الادبى ٣٩٠ « ٣٩١

الفاظه

(٣)

لم تصبح للكلمة قيمتها الشعورية فى أكثر ما جاء فى شعر هذه الفترة ، فالشاعر كان مأخوذا بالوزن والقافية لا بمشاعره ، ولا بالجو النفسى الخاص الذى يسيطر على القصيدة ، ومن هنا نراه يسوق الألفاظ تلو الألفاظ دون أن تكون لها حاجة

قطاة وريم ان مشت بل وشادن ... وقامتها تذرى الرماح العواليا
فسمعا وسمعا ثم سمعا وطاعة ... الى ما قضته ان ذاك منائيا (١)

وقد يعمدون الى تكرار الألفاظ فتصبح القصيدة شيئا مهلهلا ، والتكرار نفسه مغالطة من الشاعر الذى لا يتوفر لديه الخصب والتدفق الشعرى فيدور حول أفكار جزئية تستلهمها الشطرة بعد الشطرة ، وهى فى حقيقة أمرها دليل على فكرة جامدة فى نفس الشاعر بحيث لا يستطيع الانتقال الى غيرها ،فقد يكرر الشاعر كلمة أيام (٢) ، أو كلمة ساءنى فى عدة أبيات تصل الى العشرة

وساءنى أن أعراض الرجال غدت ... لبعضهم وهى فى أجوافهم أكل (٣)

واذا كانت أية كلمة يمكن أن يضفى عليها الشاعر شيئا جديدا من نفسه ومن الجو العام للقصيدة بحيث تصبح مقبولة . فان الشعر فى هذه الفترة لم يمنح كلمة واحدة الحياة ، بحيث تستطيع أن تتألق بين أخواتها بصرف النظر عن قيمتها الذاتية ومن ذلك قول البنا :

فحاز لدى نفس المليك مكانة ... تخبر أن الفضل عندك يقبل
كذا الحر لايدنيه بطش وشدة ... ولكنه باللين والرفق يعقل (٤)

---

(١) شعراء السودان ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٢) ديوان البنا ٩١

(٣) ديوان البنا ٧٦ ، ٧٧ .

(٤) ديوان البنا ١٣٦ .

ففى البيتين كلمات يمكن الاستغناء عنهـا ، وانتقال من الأقوى الى الأضعف وكلمات هامدة لا تستقر حول المعنى ولا تعمقه

وقد تكون الكلمة لها معنى محدد فينتقل بها الشاعر الى غير المراد منها كما أنه قد لا يراعى تلك الصلات الصوتية بينها وبين اخوانها . فتجىء متنافرة غير مستقرة .

نعمت بها دهـــرا فحول حالها نوى قذف قد أعقبت وصلها صرما[1]

قم بى وخذ بيدى على ما بى وصل فصلى ، ففصلى الداء والوصل الدوا
انت السـنى الميرغنى عـلى من رفعت لك العلياء فى الشرف اللوا[2]

فالمجـد يبتسم ابتهاجا حينمـا مـدت له للأكـرمين أيادى

وكم لحظت لحظى لحظـة تركت فينان عود هواه ذاويا ضرما[3]

وقد لا نجد هذا التلوين اللفظى الذى يعطى اللحظة اللونية أو الحركية للفظ . فتجىء الكلمة معجمية جافة

والرعد يرعد والسـحاب مظلل والبرق يلمع والأوان صـباح

والناس فى القطر اشـياء ملفقة فان تكشفت فعن ضعف وتوهين[4]

بل قد نجد بعض الكلمات قائمة بذاتها بوفرة لا تتفق مع الأداء النفسى للتلاعب الموسيقى

منعم . خفر . ألفـاظه درر فى ثغـره أشر من ريقه سكر
مبتل . خنث فى وعـده حنث بصـبه عبث ماخانه قـدر
سود غدائره . بلج محاجـره دعج نواظره فى طبعه خفـر[5]

ثم هنـاك كلمات قديمة تأخذ طريقها الى شـعرهم لا تتفق والحالة الشعورية المعبرة عنها

---

(١) شعراء السودان ٢٩١ .
(٢) شعراء السودان ٨٩ .
(٣) ديوان البنا ٦٧ ، ١٤٤ .
(٤) شعراء السودان ٩٠ ، ١٧٢ .
(٥) المصدر نفسه ٨٣ .

ويلمهم أين هم ممـا حييت به　　من البيان الذى يعنو له الخطفى
لادر در بـــلاد ذل عالمهـــا　　وعز فيها جهــول ماله خطــر
هدرت دمى تلك الحسان بحبهـا　　لا غرو حيث دم المحب مبـــاح
هيهـــات فى الهيجاء تجبن مرة　　أو يستطيبك للنجـــاة فـــرار
ويزعجه ذكر الاراك ولعـــلع　　ونعمـان والجرعا وعذب المناهل
أقطب الرحا فى درء كل ملمـــة　　وشمس الضحى فى مدلهم المعاضل(١)

وقد يحذفون بعض حروف الكلمة فيسلم المعنى وقد لا يسلم من ذلك :

وتطلب منى أن أغير مبـــدئى　　فيا بعدمطلوب به طارت العنقا (٢)
تزور ضعفا هم برا ومرحمـــة　　كما تعود على شوق مريضهم (٣)
لو كنت مطلوق العنـــان لما ثنت　　شـــوقى اليـــكم شـــقة الاحزان
أو ذو جراجر ترتمى أمواجـــه　　بشقائق الجمل العتيق الحاق (٤)

فالألفاظ لم تتحول الى بلاغة البناء ، ولم تتحرك طاقتها الكامنة بذكاء ولكنها ظلت فى كثير من الأحيان مجرد هندسة خارجية مملة ــ تشير الى معمـــار قـــديم .

(١) شعراء السودان ٨١ ، ٨٣ ، ٩٠ ، ١٧٨ ، ٢١٢ .
(٢) المصدر نفسه ١٤٨ .
(٣) ديوان البنا ٤٧ .
(٤) شعراء السودان ٨٣ والحاق هنا معناها « الحاقد »

خصائصه الفنية

(٤)

ظل شعر هذه الفترة سائرا فى طريق التقليد القديم ، وقد اكتسب فى هـذه الفترة جزالة لفظية للنماذج الخصبة التى وضعت بين يديه ، أما المضمون فلم يتغير كثيرا عما كان عليه من قبل ، وان كانت الظاهرة التى تلفت النظر فى هذه الفترة هى الشعر القصصى للشاعر البنا ، على أنه قد اكتسب نوعا من الواقعية والفهم العميق للحياة ، وللعمل بعد أن كان من قبل يسبح فى ضباب الاتكال والجبرية . فهذا هـو الشاعر العباسى يقول :

أثقلت كاهلى مذاهب أشـيا ... خ كرام شم العـرانين زهـر
لا أمل السرى ولا اترك السعى ... اتكالا على المقـادير تجـرى
ومرامى احـدى اثنتين فاما ... عيش حر أولا فسوتة حـر (١)

ثم انهم لم يقفوا عند السرد التاريخى وانما استخلصوا عظات فى بعض شعرهم وهذا لون من اعتداد الشاعر بنفسه .

وقد اهتموا بطول القصائد ، وبالقافية المرنة ، وبالأغراض الشـعرية المتوارثة .

وتحت هذا الركام من التقليد تضيع منك الملامح الدقيقة لحياة هذا الشعب وآماله وصراعه ومن ثم نستطيع القول ان خصائص شعر هذه الفترة هى الخصائص المعروفة للقصيدة العربية القديمة .

---

(١) ديوان العباسى ٣٨ .

الفصل الثالث

أشهر شعراء هذه الفترة

- عبد الله البنا
- محمد السعيد العباسى
- عثمان هاشم

عبد الله محمد عمر البنا

(١)

ولد الشاعر فى رفاعة يوم الخميس ٢٤ شوال سنة ١٣٠٨ .

وهو ابن الشيخ محمد عمر البنا أحد أعلام المهدية وشعرائها .

وقد تعلم شاعرنا القرآن ثم دخل مدرسة رفاعة الأولية ثم التحق بقسم المعلمين بكلية غردون وما زال بها حتى تخرج منها سنة ١٩١٢ ليشتغل بمهنة التدريس . وكان من أهم المدارس التى قام بالتدريس فيها مدرسة أم درمان وكلية غردون .

ثم انقطع عن التدريس مدة كبيرة وأقام فى « البطانة » وأخيرا عاد الى حياة التدريس مرة أخرى بمدارس الأحفاد بأم درمان سنة ١٩٥٦ ، وما زال يرفد الحياة الأدبية بشعره الذى وقف به عند تقاليده القديمة .

وقد اهتم الشاعر بالأغراض الدينية فشطر بردة البوصيرى ، وخمس قصيدة الشهاب محمود الحلبى ، واحتفل بأيام الاسلام الخالدة وبالمدائح النبوية ، وقد أعجب بعثمان وذكر فيه مطولة تستطيع أن تقف بجانب عمرية حافظ . ذكر فيها أن كل الحوادث التى ألمت بالحياة العربية نبعت من مقتله :

ماذا جنوا بعد أن أردوا خليفتهم ... وعفروا خـده ظلمـا وعدوانا
تفرقوا شـيعا فى شأنه وجـرى ... من ذلك الدم أنهـارا وغدرانا
من أجل ذلك عم الخطب طلحة والزبير ... ثم أبا السـبطين مولانا
من أجـل ذلك كانت كربلاء بلا ... على الحسـين فعم الكرب من رانا
من أجل ذلك فر الملك متخـذا ... غير الحجـاز له مأوى وأوطانا
من أجل ذلك لم تبد الحضارة فى ... أرض الحجاز ولم ترفع لها شانا
من أجل ذلك عم الجهل ساكنها ... وان تكن خير أهل الأرض سكانا
لو لم يكن ذاك ما نال الخوارج لا ... ملكا ولا طلبوا فى الأرض سلطانا[1]

---

(١) ديوان البنا ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

وقد دعا الى عدم التفرق ، واحتفل بنادى المدارس ، وحرص على تعليم المرأة ، والاهتمام بالتمثيل ، وباللغة العربية ، والأخلاق (١) .

وقد امتدت آفاق شعره فى رفق فذكر مصر ، وانجلترا ، وباريس ، ودار الخلافة(٢)ويحفظ له فى هذه الفترةأنه أعطى صورا جميلة عن الطبيعة فى السودان كقصيدته فى الخريف الذى يحتفل به الشعراء فى السودان وقصيدته أنا والاعرابى (٣) .

وقد اهتم بالطبقة العليا فى المجتمع فمدحهم ورثاهم وهنأهم وأرخ لهم مما يظهر بوضوح فى ديوانه ، أما اهتمامه بالشعب من حوله ، وبالسياسة الايجابية التى كان يخوضها شعبه فلا يظهر شىء منه بوضوح فى ديوانه الذى صدر سنة ١٩٢١ والشىء الذى يضاف له بحق فى هذه الفترة هو هذه القصص التى مر ذكرها من قبل ، وكسر بعض حدة الاطار القديم .

والشاعر مولع بتكرار كلمة بعينها فى أوائل الأبيات ثم يظل يعتصرها حتى يتولد منها نسيج شعرى مفكك (٤) . وقد يردد الكلمة نفسها فى البيت كقوله :

بشراك ها قد ساعد القدر وعاد للقطر قلب المجد والبصر (٥)

أدعو الى النادى وما النادى سوى دار الى ربط القلوب تنادى (٦)

وكم لسان لسان الدين فيه غدا كابن الخطيب مبيدا كل أفاك (٧)

وما للناهضين بها استراحوا وهم فى يوم أزمتها الحماة
وهم فى يوم زينتها وجاء وهم فى يوم شدتها الكماة
وهم فى يوم ظلمتها بدور هم فى نحر حاسدها الرماة

(١) ديوان البنا ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٩١ ، ١١٩ .
(٢) المصدر نفسه ٧٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ١٦٤ ، ١٦٨ .
(٤) ٦٨ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ١٠٠ و ١٠٤ و ١٠٥ و و١١٥ .
(٥) المصدر نفسه ١٤٧ .
(٦) المصدر نفسه ٦٦ .
(٧) المصدر نفسه ١٠٤ .

وهم خـــير يسر لمن قفــاهم
وهم من مجــد ســالفهم رواة (١)

وقد يكرر الشطر الأول كاملا كقوله :

أصبحت أبكى للفضــــيلة كلما   شمت النفـــاق على النفاق يعظم
أصبحت أبكى للفضـــيلة كلما   ذكر الجهــول وأخــر المتعــلم
أصبحت أبكى للفضـــيلة كلما   ظل الكذوب على الكذاب ينعم (٢)

وهكذا يصبح التكرار الذى يلون أكثر شعره لونا من ألوان الخطابة الشعرية . فشعره يغلب عليه الجانب الخطابى . وهذا التكرار هو الحركة الموسيقية التى تعتبر أهم جوانب الشعر الخطابى ، ولهذا يتميز شــعره بالجانب الطولى الذى يؤرخ ، أما الجانب العرضى العميق فلا يظهر عنده . ويكثر فى شــعره التشبيه المرســل عن التشبيه المؤكد ، وتقل الاستعارة العميقة .

ومن ذلك قوله :

كأن كــل جواد تحت راكبـــه   طود وراكبــه من فوقه جبـــل
كأن كــل حســام فى أناملهـــم   برق ولــكنه فى الجوف يشــتعل
كأنمـــا كــل رمح فى أكفهـــم   هيفــاء تنآد فى مشى وتعتــدل
كأنمـــا كل مختـــال ومفتخـــر   على العــدا شارب ذو نشوة ثمل
كأن أعداء هم فى حربهـــم نقـــد   ان آمنوا رتعوا ان طوردوا جلفوا (٣)

والوحدة التى يقوم عليها شعر البنا هى وحدة البيت الواحد أو البيتين ، وقد تتعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة ، وقد يبدأ المدح حينا بالغزل ، وقد يستوحى المطالع القديمة فى أوائل قصيدته وقد جاء فى شعره استعمال « أل » بمعنى الذى وهى لغة شائعة بين جميع السودانيين فقال :

---

(١) ديوان البنا ١١٦ .
(٢) المصدر نفسه ٧٤ .
(٣) المصدر نفسه ٧٧ ، ١٧٩ .

لا در در الدافنيـــك فانهـــم هالوا عليك منالتراب وأسرفوا

وهذا الاستعمال معروف فى اللغة العربية ، وخالف فيه الأخفش ، وابن مالك العلماء فيما ذهبوا اليه من أن ذلك ضرورة قاصرة على الشعر (١) ومن الشواهد على استعمال « ألـ » بمعنى الذى قول الشاعر :

يقول الخنا وأبغض العجم ناطقا الى ربنا صوت الحمار اليجدع (٢)
بل القـــوم الرسول الله فيهم هم أهل الحكومة من قصى (٣)
من لا يزال شـــاكرا على المعه فهو حر بعيشـــة ذات سعه (٤)

وقد لهج الســـودان بشعره فى هذه الفترة لأنه كان قريبـــا بمشاعره البسيطة القشرية من المتعلمين فى هـــذه الفترة ، فقد حافظ على التقـــاليد الشعرية القديمة ولم يتعمق الشكل والمضمون وانمـــا جرى سهلا بحيث أصبح فى متناول الناس ، وأصبح موضع فخرهم .

---

(١) مغنى اللبيب ٤٦/١ .
(٢) المصدر نفسه ، وخزانة الادب ٤٠/١ وما بعدها .
(٣) خزانة الادب ٤٠/١ .
(٤) مغنى اللبيب ٤٦/١ وخزانة الادب ٤٠/١ .

محمد سعيد العباسى
(٢)

هو محمد سعيد العباسى بن محمد شريف بن نور الدائم بن أحمد الطيب العباسى منشىء الطريقة السمانية بمصر والسودان .

ولد بعراديب « فى ٢٣ رمضان سنة ١٢٩٨ » وتلقى تعليمه الأول فى الخلوة . وبعد استرجاع السودان طلب كتشنر من والده الحاقه بالمدرسة الحربية بالقاهرة . فتوجه اليها ودخلهـا فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩ وكان واحدا من ثمانية وأربعين سودانيا بها .

ولكنه لم يواصل تعليمه مع أنه كان أول الناجحين ، ذلك لأن نظـام الترقى للطلبة السودانيين كان بالأقدمية فقط (١) .

وقد ظلت هذه الفترة التى قضاها فى مصر حية فى نفسه فنراه يقول :

يا حبـذا واد نزلت وحبـذا ... ابداع من ذرأ الوجـود ومن برا
مصر وما مصر سوى الشمس التى ... بهرت بثـاقب نورها كل الورى
ولقـد سعيت لها فكنت كأنمـا ... أسعى لطيبـة أو الى أم القـرى
وبقيت مأخوذا وقيـد نواظرى ... هـذا الجمـال تلفتا وتحيرا (٢)

ويقـول :

آه لو كان لى بسـاط من الريح ... أوافيـه أو قـوادم نسر
فأطيرن نحـو مصر اشـتياقا ... انهـا للاديب أحسـن مصـر
هل الى مصر عودة وبنـا شـ... رخ شـباب غض وزهـرة عمر
قد ظمئنـا بنت الكرام (٣) فهاتى ... كأس خمر يزجى فقـاقع خمـر

---

(١) ديوان العباسى ١١ ، ١٢ .
(٢) المصدر نفسه ٢٢ .
(٣) يقصد مصر .
(٤) ديوان العباسى ٣٨ ، ٣٩ .

وتعــالى نعيــد خــدا لخد قــد برانا الجوى وثغرا لثغر (٤)

ثم يقــول

اسفرى بين بهجــة ورشــاقة وأرينــا يا مصر تلك الطلاقه
كلنا ذلك المشوق وهل فى النا س من لم يكن جمالك شاقه
أنت للقلب مستراد . وللعــين جمال يغرى . وللشــم طاقه

أنت عنــدى أخت الحنيفة ما أسماك دينــا . وما أجل اعتنــاقه
أن ذكرتنى ولست بنــاس در ثدى رضعت منــه فواقه
وعراســا نادمت فيهــا الردينيات ، والسيف حمله وامتشــاقه (١)

ونراه يقيم فى السودان على مضض :

صــبرت عــن كــره قــرى الســودان لى مخيما
ولى بمصر شــجن أجــرى الدموع عنــدما
فارقت مصر ذاكــرا أرجاءهــا والهــرما
والنيـــل والجـــزير ة الفيحــاء . . والمقطمــا
ربوع خــير طالمــا أســدت الى أنعمــا (٢)

فالشاعر محب للمدن ، شديد الحنان الى كل من يعرف ، ويمكن أن نرى هذا فى قصائده سنار القــديم والحديث ، ومليــط ــ أحد مراكز دارفور ــ ووادى هور ــ غربى السودان ــ وفى رحلته الى النهــود ، وديبــاجة العباسى عربية خالصــة تقرؤه فتحس فى أغلب شعره انك تقرأ لشاعر جاهلى أو أموى .

ونستطيع أن نرى هذا فى وصف رحلته من الخرطوم الى النهود :

أثرتها وهى فى الخرطوم فاتبذت تكاد تقــذف جلمــودا بجلمود
تؤم تلقــاء من تهوى وكم قطعت بنا بطاحا وكم جابت لصــيخود
نجــد يدفعنــا آل ويحفظنــا آل وتلفظنــا بيد الى بيــد

(١) ديوان العباسى ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ٩١ .

حتى تراءت لحادينا النهـود وقد   جئنا على قدر حتم وموعود (١)

ويظهر هذا الجفاف الشعرى غالبا فى أوائل قصائده :

ضلال لمستجدى الغيوب الرواعد   ومستوقف بين الربا والمعاهد (٢)

فالعباسى مخلص لتقاليد القصيدة العربية القديمة ، كما أنه مولع على عادتهم بالاكثار من أسماء الأعلام والأماكن ، وبأسلوب التثنية ، وله ولع خاص بالتكنية برموز عن الأشخاص والبلدان (٣) .

فهو يقصد بعض السودانيين الذين أثروا دون أن تمتد أيديهم الى ما فيه خير البلاد فى قوله :

وحـــاجة ما يعنينى تطلبهـــا   لولا زمانى ولولا ضيق أصفادى
يا سعد سعد بنى وهب أرى ثمرا   فجـد فديتـك للعـاقى بعنقـاد
وان فى بعض ما قد عاف شاربكم   اعتاب ذى الفضل يحيى وابن عباد

ومن ذلك قـوله :

فيـامارســيرى ولا تخـدعى   فينتزع القـــرط ياماريـــه

فماريه يقصد بها مصر والقرط يقصد به السودان .

وقوله يقصـد مصر :

قـد ظمئنا بنت الكرام فهاتى   كأس خمـر يزجى فقاقع خمر

وقـوله أيضـا :

يا بنت ســاجعة الريـاض   وزين ناضرة الشـجر (٤)

وقوة العباسى تظهر فى الوصف وفى الحنين « فالعباسى انما يبلغ أعلى مراتب شاعريته حين يصول أو يجول فيصور البطولة والفروسية ، أو يعبر عن رحلته وتطوافه (٥) » .

---

(١) ديوان العباسى ٧٥ .
(٢) المصدر نفسه ٤١ .
(٣) تاريخ الثقافة العربية ص ٢٢١ .
(٤) ديوان العباسى ٣٤ ، ٦٠ ، ٣٩ ، ٥٥ .
(٥) مجلة مصر والسودان العدد الثانى نوفمبر ١٩٥٤ .

وقد ظل الشاعر وفيا لذكرياته وللأماكن التى ارتبط بها ، فأهدى ديوانه الى الشيخ عثمان زناتى الذى كان أستاذا له فى الكلية الحربية ، وظلت مصر فى ذهنه صورة مشرقة ، وغراما حيا ، وارتباطه بالأماكن هو الذى جعل بعض الصور المحلية تقفز الى شعره . وهذا شىء جديد فى الشعر السودانى . فنحن نراه يقول فى قصيدته « رسائل الصفا » التى عبر فيها عن اعجابه بالدكتور زكى مبارك .

وخلى التريك وهز البواتر حبسا على العادة الناعيه (١)

ذلك لأن من عادات السودان الى يومنا هذا أن تلبس النوادب على الميت لباس حربه ، ويحملن سلاحه ثم يسرن باكيات فى ساحة الدار ، وتقتصر هذه العادة على العظماء من الرجال ، وقد تستمر خمسة عشر يوما .

وقد روى الأستاذ حسن نجيلة فى مجلة الحياة التى صدرت فى السودان سنة ١٩٥٧ أن الشاعر كان يتأثر بالأجواء المحلية ، وبالغناء الشعبى ، فقد سمع الشاعر فى مضارب أولاد طريف صوتا بدويا شجيا ينشد :

« يا أب لونا سمرى
يا أب حديثا تمرى
الدوار آنى
يا الله تجمع شملى »

أى يا صاحب اللون الأسمر ، والحديث الحلو كالتمر . انى تائه ضال أبحث عنك فالله يجمع شملى .

فأوحى هذا الى الشاعر قوله :

---

(١) ديوان العباسى ٥٧ .

اللــون لون الذهب
والقول حلو الرطب
لى أرب فى ذا الرشا
يا رب فاقض أربى

وقد سمع الشاعر أغنية تقول :

ختــاتة ختى زيدى
بكريكى بى مجيدى
شــوفى لى حبيبى
فى البلد البعيــد »

والمعنى أن البدوية تستنجد بالعرافة ، وتعدها بريال « مجيدى » ان استطاعت أن تكشف لها عن حبيبها الذى غاب فى بلد بعيد .

فقال :

عرافة العرب زيدى
ومن نداى استزيدى
فكيف حــال حبيب
أمسى بفقر بعيـــد

فالشاعر كان مفتح الاحساس على بلاده ومشاعرها حتى ليقال انه كان يهتز وتغرروق عيناه بالدموع كلما سمع هذه الأغنية الشعبية :

« يا طبق الريحــه
الريده ليك صحيحه
انت كان جــافيت
كلمنى بالنصيحة »

ولولا ثقافة الشاعر الجامدة لاستمعنا الى الكثير من هذه الأحاسيس الشعبية ، ومهما يكن من شيء فهــو أول من تشم فى شعرهم رائحة السودان .

عثمان هاشم

(٣)

ولد فى بربر سنة ١٨٩٨ والتحق بالخلوة ليحفظ القرآن . ثم انتقل بعد ذلك الى مدرسة بربر الابتدائية ، وأخيرا التحق بكلية غردون ثم عمل فى سلك الحكومة حتى استقال سنة ١٩١٥ (١) ، ومع أنه دون الشاعرين السابقين الا انه يعتبر معلما للشعر فى هذه الفترة . فهو يعبر عن بقية الشعراء الذين كانوا متقاربين فى الفهم للشعر والتعبير عنه .

ونحن نراه مطبوعا بطابع العصر فلا ينسى أيام الاسلام ، ومن ذلك قوله فى ميلاد الرسول :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام   وبحسن يومك تزدهى الأيام
يا ليلة الميلاد حسبك مفخرا   نور عليه من النبى تمام
ضاءت به الدنيا وأزهر نورها   بالمسلمين وأشرق الاسلام
آه على الاسلام أصبح ضائعا   أودى به وأماته الظلام

ثم يصف البلاد الاسلامية فيقول :

هذى الجزيرة وهى باكية أسى   والهند تندب حظها والشام
وبمصر أقوام يطاحن بعضهم   بعضا ففيم يطاحن الأقوام ؟ ؟
والترك قد تركوا بغير معونة   وهم الألى حاطوا الثغور وحاموا
قد فوجئوا فى عقر دارهم التى   هى للخلافة مركز ودعام

واهتمام هذا الشاعر بالترك واضح ، ويظهر ذلك فى قصيدته الطويلة « بطل الأناضول » التى يقول فيها :

وما منع السودان اظهار عطفه   سوى أن أهليه فقير وجاهل
فيا بطل الاسلام منى تحية   اذا لم تشرفنى بلثم أنامل

ونراه يقول فى تحية العام الهجرى :

بدا كفم الحسناء فى الأفق يبسم   هلال تجلى والظلام مخيم

بدا فى تحـول كاد يخفى طلوعـه   فمـدت له الأيدى اشتياقا تسلم

ثم يذكر فى هذه القصيدة الحرب العالمية الأولى وأهوالها ، وما يتبعها من أحداث وكيف أصبح المسلمون ضعافا مشتتين .

غـدت ملة الاسلام تبكى تأسـفا   كأن لم يكن فـوق البسيطة مسلم
تنـوح على أيامهـا وشـبابها   فيبكى لها البيت العتيق وزمـزم

ومن ثم نراه فى أكثر من مكان يفخر بنفسه وبعروبته :

وأنا ابن من لتليـد عـز أصولهم   حقا تواضـع أصـل كل شريف
هم أفضل العـرب الكرام عشيرة   وأعـز أنســاب وشـم أنوف
كم جمعـوا أشتات كل قبيـلة   عـدلا وكـم بددوا لصـفوف

وهو شاعر خصب نراه يقول فى الخمر ، وفى العتاب ، والتشـوق ، والغزل ، والرثاء . وكثيرا ما تغلب عليـه ثقافته الدينيـة فنرى أثرها فى أبياته مثل :

ولولا كلام الله « فيها نعيـدكم »   دفناك ما بين الجوانح والصـدر

* * *

يا حسن يوسف ان من يهواك قد   ألف النـواح كأنه يعقـوب
أبلى الهوى منه العظام فما اشتكى   فـكأنه فى صـبره أيـوب

* * *

انى لأحـلف مـا رآنـا عـاذل   أو عـاذر من أمـرنا فارتابـا
اذ لا يرى غير العفـاف مع التقى   أخذت عليه يد الوفاء كتابا (١)

* * *

ونحن نرى شعره يسير فى نفس الاتجاه التقليـدى فى لغـة سـهلة ومضمون متناول من قبل، وعدم احتفال بالتجربة .

---

(١) شعراء السودان ٢١٤ ، ٣٢ .

الباب الثاني

الشعر الحديث في السودان

من سنة ١٩٢٤ الى سنة ١٩٥٣

الفصل الأول

الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية

- الحياة السياسية
- الحياة العقلية
- الحياة الاجتماعية

الحالة السياسية

(١) طرد المصريين من السودان

حينما قتل السيرلى ستاك باشا فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤ ، وجدت انجلترا فى مقتله فرصة سانحة لضرب حركة التحرر فى السودان ، ولاذلال مصر وقطع صلاتها بالسودان .

ذلك لأن مد العواصف السودانية كان يتدفق بحب مصر ومن هنا فقد أراد الانجليز القضاء تماما على مصر فى السودان ، فجاء فى الانذار الذى وجه الى مصر ، اخراج الجيش المصرى فى السودان ، وزيادة المساحات المزروعة فى الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠ فدان الى مقدار غير محـدد تبعا لما تقتضيه الحاجة .

« واذا لم تلب هذه المطالب فى الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة على الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها فى مصر والسودان (١) »

وهكذا يتضح لنا أن بريطانيا قد نقضت اتفاقية سنة ١٨٩٩ من جانبها بعد أن أرغمت مصر فى أول الأمر على توقيعها ، ومع أن بريطانيا لم تعمد الى الغاء حق مصر فى السودان الا أنها أوقفت بالفعل ممارسة هذا الحق مما ترتب عليه ضياع السودان من الوجهة العملية فقط ، وان لم يكن من الناحية القانونية ، فضلا عن أن المطالب الرئيسية التى طلبتها انجلترا لا تمت بصلة الى مقتل « لى ستاك » اذ أن الجريمة عادية تحدث فى كثير من البلدان .

---

(١) السودان ــ رئاسة مجلس الوزراء ص ٢٨ .

« ولكن تقدم انجلترا بهذه الطلبات انما يتم عن سياسة مبيتة تنحصر فى الانفراد بالادارة فى السودان تمهيدا لقطع الصلة التى تربطه بمصر (١) »

وهكذا دبر اخراج الجيش المصرى ، والى أن تتحـــول الوحدات السودانية التابعة له الى قوة خاضعة وموالية لسياسة الحاكم العام تكون مصر قد قطعت صلاتها بالسودان تماما .

وقد وقف الجنود فى السودان موقفا مشرفا وعزموا على عدم ترك البلاد رغم قلة معداتهم ، وحين صدر بلاغ رسمى ورد فيه أن البريطانيين أحاطوا بالجيش المصرى ، اجتمع مجلس الوزراء فى مصر وعهد الى وزير الحربية فى مصر فى توجيه رسالة بالانسحاب حقنا للدماء (٢) .

وبخروج الجيش المصرى خفت صوت مصر فى السودان ، فقد آثر المصريون المدنيون الذين تخلفوا فى السودان العزلة والانطواء (٣) .

وكذلك انطوى السودانيون على أنفسهم فصاروا لا يطالعون صحف مصر الا خلسة ، ولا يتبادلون أحاديث السياسة العــالمية والمصرية الا فى نطاق محدود .

فاذا ما تعرضوا لسياسة بلادهم جاء حديثهم همسا لا يكاد يسمع ، وربما استعانوا على هذا بالايماء دون التصريح (٤) .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للدكتور راشد البراوى ١/١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) ماذا فى السودان ١٣٢ .

(٣) أسرار وراء الرجال ٢/١ .

(٤) كفاح أجيال ٣٣ .

الانجليز يحكمون حكما مباشرا

(٢)

مع أن سياسة مصر فى السودان قبل خروج الجيش كانت سلبية وكان الانجليز هم الذين يصرفون مقادير البلاد . فان وجود المصريين كان يقوى الحركات التحررية ، ويشد أزرها ، ويخجل الانجليز بعض الشيء .

ولكن بمجرد خروج الجيش المصرى أخرست الألسن التى كانت تنطق باسم مصر ، ونكلت بأعضاء جمعية الهلال الأبيض . فأعـدمت بعضهم ، وحكمت بالسجن على الآخرين (١) ، وسارعت فأصدرت تشريعات الادارة القبلية ، وعملت على اضطهاد المتعلمين والتضييق عليهم حتى لقد لحق هذا الأمر تلاميذ المدارس ، وفى الوقت نفسه شجعت غير المتعلمين ، ودفعتهم لتقدم الصفوف وتولى الأمور القيادية (٢) « فقـد قرر القائمون بالأمـر اتباع سياسة الشدة والاذلال فقضينا فترة الدراسة الثانوية فى جو بغيض لم تنعم فيه بالراحة ، وقاسينا ضروبا من الشدة والعسف ، وما كدنا نخرج للحياة العامة الا وكانت الصعاب فى استقبالنا كأنما كنا على ميعاد ، ووجدنا المجتمع على غير ما تصورناه . لا يرحب بالفكر الجـديد ولا يقيم وزنا للمثل العليا . تحاك فيه الدسائس ويحجر على الحريات ، وتدور فيـه رحى حرب لا هوادة فيها ولا مهادنة » (٣) .

وفى الوقت نفسه قامت بين طائفة الموظفين منافسة لاسترضاء الانجليز بعد أن أبصروا ما ناله أنصار الثورة الأخيرة ، وقد أقبلت الحكومة عـلى هؤلاء ففى سنة ١٩٢٦ منحت الكثير الأوسمة ، ورتبة فارس ولقبها (٤) .

على أن المصريين لم ييأسوا من العودة الى السودان .

---

(١) الحركة الوطنية فى السودان (الرسالة الثانية) .

(٢) كفاح جيل ٣٣ .

(٣) موت دنيا ١٠٠

(٤) كفاح جيل ٣٤ .

ففى خلال زيارة الملك فؤاد لانجلترا فى الفترة ما بين ٤ الى ٣١ يوليو ١٩٢٧ جرت مباحثات بين عبد الخالق ثروت ، وسير أوستن تشمبرلن وزير الخارجية للوصول الى عقد معاهدة تحالف وصداقة . ثم حدثت مباحثات أخرى فى « لوندرة » ثم حدث الدور الثالث فى القاهرة ، وفى ٢٤ نوفمبر أبلغت انجلترا مشروعها النهائى بشأن هـذه المعاهدة ، وقد أسـفرت المفاوضات (ثروت — تشمبرلن) على مشروع معاهدة أهملت قضـية السودان اهمالا تاما وهذا الاغفال لا يتضمن معنى الاعتراف باتفاقية سنة ١٨٩٩ فقط وانما ينطوى على اقرار الاجراءات التى حدثت أثر مقتـل « لى ستاك » .

والذى لا شك فيه أن الاهمال كان متعمدا ، ووراءه هدف بعيد هو فصل السودان نهائيا عن مصر .

ولكن مجلس الوزراء لم يقر هذه الاتفاقية . فقدم ثروت استقالته فى ٤ مارس سـنة ١٩٢٨ وتولى النحاس الوزارة فى ١٧ مارس سنة ١٩٢٨ ولكنها أقيلت فى ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨ (١) .

وعلى أثر هذه الاقالة تولى محمد محمود الحكم ، وفى المفاوضات التى قام بها « هندرسن » استغرق موضوع السـودان ثلاث مذكرات نصت احداهما صراحة على تسوية الدين الذى لمصر على السودان ، وان عودة الجيش المصرى الى السودان ستكون بعد ذلك محل نظر عنـد سحب القوات البريطانية من مصر (٢) .

وفى مفاوضات (النحاس — هندرسن) رأى الجانب المصرى التمسك بأن ينص فى مادة السودان على الدخول فى مناقشات فى بحر سنة من تاريخ نفاذ المعاهدة وأنه لا يمكن قبول العبارة الخاصة بالنظر بعين العطف الى

---

(١) مجموعة الوثائق ١/١٣٥ ، ماذا فى السودان ١٣٢ وما بعدها .

(٢) مجموعة الوثائق ١/١٣٧ ، ماذا فى السودان ١٥٢ .

عودة أورطة من الجيش المصرى للسودان (١) وعدم قبول تقييـــد حق الهجرة والملكية والتجارة (٢) .

وفى الوقت الذى كانت تقف فيه مصر من الأحداث هـــذا الموقف الخارجى كانت انجلترا تتسلط على كل شىء فى السودان . وتعمــل على خلق طبقة انفصــالية تقف ضــد مصر ، وتساعد فى الوقت نفسه المفاوض الانجليزى ، وقد وجهت سياستها فى الداخل على خلق جبهتين تعمــلان بوحى السياسة البريطانية .

وقد عمل على خلق الجبهة الأولى « مكتب الأمن العام » بقيـــادة ادوارد عطية فتوجه نشاط المكتب الى الشباب فى جمعياته الأدبية ، وحلقات مناقشاته ، ومناظراته ، مستغلا فى تغلغله سلاح الصداقة الفكرية ، والتحرر من المعتقدات القديمة .

أما الجبهة الثانية فقد قام بها كبار الموظفين من الانجليز الذين كانوا يعملون على خلق اندماج بينهم وبين كبار الموظفين السودانيين « فى جــو مجرد عن الكلفة والرسميات . مشــبع بروح الود وانكار فارق الجنس والدين . جو يهدف على حد قولهم الى التعاون على أداء رسالة انســانية خالصــة » .

وقد بدأت تظهر ثمار محاولة التفتيت هذه فى اجتماعات نادى الخريجين وسياسته والخلافات المستحكمة فيه (٣) .

---

(١) مجموعة الوثائق ١/١٤٠ ، ملاذا فى السودان ١٥٤ .

(٢) السودان ــ مجلس الوزراء ٨٤ .

(٣) كفاح جيل ٤٥ ، ٨٠ .

الوعى القومى بالسودان ورد الفعل لحكم الانجليز

(٣)

لقد كان لهزيمة الطلائع التحررية التى كان آخـرها ثورة عام ١٩٢٤ أثر كبير فى نفوس السودانيين فقد انطووا على أنفسهم ، وتقبلوا الضغط الانجليزى بروح سلبية ، وابتعدوا ما أمكن عن السياسة فلم تأخذ جمعياتهم فى هذه الفترة اتجاهات سياسية سافرة ، وانما تلونت بالجانب الفكرى ، ومن هنا تكونت جمعيات صغيرة تقوم على وحدة الحى ، أو الشارع ، أو المدرسة ، أو طبيعة العمل .

وقد تكون بعض هـذه الجمعيات للتمثيل ، وقد تكون للمطالعـة المشـتركة والمراجعة ، كمـا قد تكون للخطابة ، وانشاد الشـعر ، والمناظرات (١) .

وهكذا ظهرت القومية بمعناها الصحيح فظهرت دعوات تنادى بالتعليم الأهلى ، وملجأ القرش ، والرغبة فى التعليم بالقاهرة ، وتشجع الرياضـة

ولمـا كانت الحكومة تعمل على تأريث القبلية . ترتب على هذا قيام ادارات أهلية تعتمد على النظام القبلى كما ترتب عليـه الوصـول الى المناصب الحكومية . حتى لقد أصدرت الحكومة خرائط تعتمد فى تقسيمها على النظام القبلى .

لمـا كانت الحكومة تعمل على هذا نرى فكرة « السودانية » تظهر الى الوجود على أيدى الشباب والخريجين .

وقد امتنع الطلاب فى كلية غردون عن تسجيل أسماء قبائلهم خاصة وأن القبائل قد أحصيت فى أحد الفصول فوجدت اثنتين وعشرين قبيلة ،

---

(١) كفاح جيل ٢٥ .

فكان كلما سئل طالب عن قبيلته رد بكلمة « سودانى » وشجع الخريجون هذا الاتجاه .

وبمرور الوقت أخذ الشعب يسترد قواه وثقته بنفسه ، فلما كانت سنة ١٩٢٩ بدأت الجمعيات السرية تعود للوجود ، وقد ساعد على هـذا الضيق الاقتصادى الذى عم البلاد فى الفترة (٢٩ — ١٩٣٢) ومعالجة هذا الضيق بجعل مرتب الخريج خمسة جنيهات ونصف جنيه بدلا من ثمانية ، وقد ترتب على هذا اضراب الطلبة واعتصامهم ومشاركة الرأى العام لهم .

ولما كان الخريجون على صلة بالطلبة فقد عقدوا اجتماعا انتهوا فيه الى انتخاب عشرة من رجال الصف الأول للنظر فى أمر الطلبة . ولكن اللجنة سلكت طرقا « غامضة ملتوية » وانتهت عن طريق التوسل الى رفع المرتب الى ستة جنيهات ، وكانت العبرة التى خرج بها الشعب من هـذه الأزمة — مع سخطه على لجنة العشرة — أنه بالاتحاد والتضامن يمكنه الوصول الى ما يريد (١) .

ثم بدأ الخريجون ينقسمون على أنفسهم . وكانت الشرارة الثانية بعد الموقف المخزى للجنة العشرة أن أحد الخريجين قرأ مقالا فى « حضارة السودان » ووجد فيه تحاملا على « الأمير عمر طوسون » فكتب على المقال كلمة « واسوأتاه » وثبته على لوحة النادى .

ومما لا شك فيه أنه كان وراء هذا الانقسام أنصار مصر ، وأنصار الانجليز ، وطائفة من مشايعى السيد على الميرغنى ، وطائفة من مشايعى السيد عبد الرحمن المهدى .

وقد ترتب على هذا الخلاف نشاط فى معسكر الفريقين « وقد خرجوا من هذه التجارب بكثير من خيبة الأمل فى رجال الصفوف الأمامية لذلك

---

(١) كفاح جيل ٤٠ ، ٤٢ ، وموت دنيا ٩٠ .

اتجهوا الى ميدان الجمعيـــات الخاصة لعهدهم السابق والى ميـــدان الصحافة » (١) .

وحين رأى الانجليز هذا عملوا على كسب الموقف فنزلوا الى الميدان — كما سبق أن ذكرنا — برجال مكتب الأمن العـام ، وبعملية الاندماج بين كبارهم وكبار الرجال فى المجتمع السودانى . ولم يؤد كل هـذا الى نتائج ايجابية فى الحياة السودانية . ولكن هـذه الفترة السلبية حضنت البذور التى تفرعت عنها وجهات النظر بعد ذلك .

---

(١) كفاح جيل ٤٢ ، ٤٤ .

عودة المصريين بعد عام ١٩٣٦

(٤)

جاء فى المادة الحادية عشرة من معاهدة سنة ١٩٣٦

١ — والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغـاية الأولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين .

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ — وبنـاء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحـاكم العام الذى يختـار المرشحين الصـالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لايتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين .

٤ — تكون هجرة المصريين الى السودان خالية من كل قيد الا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ — لا يكون هنـاك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة أو فى الملكية (١) .

وبعد أن ندب ابراهيم خيرى باشا وكيل الحربية والبحرية لبحث عدد الجنود والأماكن فى السودان ، اقترح حاكم السودان احضار « اورطتين » من المشاة وأقسام منفصلة للدفاع عن الشواطىء ، والأنوار الكاشفة فى بور سودان ، وبطاريات مضادة للطائرات ، « وبلوكات » للأنوار الكاشفة فى الخرطوم وعطبرة وبور سودان (٢) .

---

(١) السودان — رئاسة مجلس الوزراء ٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ٨٩ .

وقد اضطرت انجلترا لهذه المعاهدة مقدمات الحرب العالمية الثانية ، واقترابها من السودان . فقد هاجمت ايطاليا الحبشة عام ١٩٣٥ وتمكنت من الاستيلاء عليها ، وبدأت تهدد السودان .

ومن أخطاء هذه المعاهدة أنها اعترفت باحتلال انجلترا للسودان ، وباتفاقية عام ١٨٩٩ فقد جاء فى المادة الحادية عشرة « مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن ادارة السودان مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين (١) » .

وقد أحس السودانيون أن المفاوض المصرى لم يحسن استغلال الموقف العسكرى الذى تجمع حول « بحر الروم » لمصلحة مصر والسودان بل سمح بأن يرصد هذا العامل لحساب المفاوض الانجليزى ولمصلحة انجلترا »

كما أدركوا أنهم قصروا فى حق أنفسهم ، وأن السياسة المصرية بدأت تتحلل من شعاراتها التقليدية التى تجعل استقلال السودان شرطا لابد منه لابرام المعاهدات (٢) .

وعلى كل فقد حصر الانجليز نشاط الجيش المصرى ، ووضعوا أنظمة لمراقبة رجاله ، وعززت انجلترا رجالها فى السودان فجعلت للمدير نائبا انجليزيا وهكذا جعل الجيش المصرى فى خدمة الحاكم العام (٣) .

---

(١) مجموعة الوثائق ١٦٣/١ .

(٢) كفاح جيل ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) يقظة السودان ٧٩ .

الشعور ازاء عودة الجيش المصرى

(٥)

لقد داخل المصريين شعور بالزهو لهذه العودة ، واعتبرت عودة الجيش خطوة جديدة فى الوقوف أمام الانجليز ، وكسبا لماضيها فى السودان ، ولونا من ألوان الانتصار على السياسة الانجليزية .

« وجاهدت قدر طاقتها على أن تستفيد من عودة الجيش فى منع الانجليز من التمادي فى تحقيق مآربهم فى السودان » (١) .

ولكن الانجليز أوقفوا طاقة الحماسة هذه ، فأقاموا بينهم وبين السودانيين ستارا كثيفا ، وقد أحكمت القبضة بحكم وضع الحاكم العام بالنسبة للجيش المصرى لأنه كان الرئيس الأعلى له ، كما سنت الادارة الانجليزية نظاما جديدا يقضى بأن يكون للمدير الانجليزى نائب انجليزى أيضا حتى تستمر السلطة الانجليزية قائمة اذا ما تخلف المدير لأى سبب عن عمله .

ولكن عودة النفوذ المصرى « الاسمى » أعطى السودانيين بعض الثقة فساروا فى طريقهم للتحرر مما أدى أخيرا الى قيام مؤتمر الخريجين ، الذى أدى دورا كاملا فى الكفاح ضد الحكم القائم ، ثم الى قيام الأحزاب السياسية التى وان تعددت أساليبها الا أنها كانت ترمى دائما الى استقلال السودان ، ثم كان ثمرة هذا كله استقلال السودان .

فمع أن الانجليز كانوا قد قربوا بعض المواطنين اليهم بحيث لم يهتموا بعودة الجيش المصرى ، الا أن الأغلبية الساحقة استبشرت بهذه العودة ، واستندت اليها فى كفاحها ، واعتبرت أنها لا تقف وحدها أمام الانجليز .

---

(١) يقظة السودان ٨٠ .

الوعى السياسى فى السودان وقيام الأحزاب

(٦)

(أ) مؤتمر الخريجين :

كانت أهم ظاهرة قامت فى هذه الفترة هى مؤتمر الخريجين الذى يعتبر ابنا شرعيا لنادى الخريجين بأم درمان الذى فكر فيه سنة ١٩١٤ ثم أعلن ميلاده رسميا فى صيف ١٩١٨ .

وحقا لقد صدق رئيسه الفخرى الأول المستر سمبسون مدير كلية غردون حينما قال فى خطبة الافتتاح « ان هذا النادى سيلعب دورا هاما فى التاريخ » (١) .

ولقد ظهرت الدعوة الى قيام المؤتمر فى شهر يونيو سنة ١٩٣٥ على صفحات جريدة « السودان » ولكنها لم تلق اهتماما من الرأى العام . ثم ظهرت مرة ثانية فى مجلة الفجر فى شهر مايو سنة ١٩٣٧ فلاقت استعدادا من المفكرين فى البلاد .

فلما كان فبراير سنة ١٩٣٨ ظهر المؤتمر كقوة عاملة فى تاريخ البلاد ، والتف حوله نحو ألفين من الخريجين ، وشهد أول اجتماع له ألف وثمانون خريجا ، وتمخض هذا الاجتماع عن « الهيئة الستينية » ثم اجتمعت الهيئة المكونة من ستين عضوا ، وانتخبت من بينها خمسة عشر عضوا باسم « اللجنة التنفيذية » .

وفى ٢ مايو سنة ١٩٣٨ بعث السيد اسماعيل الأزهرى سكرتير المؤتمر برسالة الى السكرتير الادارى وضح فيها أن المؤتمر قام لرفع المستوى

---

(١) كفاح جيل ١٠ ، ١١ .

الاجتماعى للشعب ، والاشتراك مع الحكومة فى مناقشة الأمور التى تهم البلاد .

وقد رد السكرتير الادارى بأنه يعتبر ما جاء فى هذه الرسالة تعبيرا شخصيا عن أعضاء المؤتمر ، وأنه لا يصح له أن يتكلم باسم الشعب .

وقد ثبت أن السكرتير الادارى بعث عقب الانتخابات فى المؤتمر بمنشور سرى الى الحكام يخبرهم فيه بقيام المؤتمر وبأعضائه ، وأن الحكومة ستقف منه موقفا سلبيا حتى تعرف اتجاهاته (١) .

ومن هنا شل المؤتمر أو كاد وتناقص عدد المؤتمرين ، وكتبت الصحافة بعد ثلاثة أعوام تقول مستنكرة « ماذا فعل المؤتمر ؟ » .

ذلك لأن الحكومة كانت تتجاوز عن مطالبه التى لا تؤثر فى سياستها العامة مثل المطالبة باصلاح التعليم ، ومراعاة شئون المعهد الدينى ، ولكن حينما تعرض المؤتمر لتحسين حال الموظفين اعتبرت الحكومة هذا العمل تدخلا غير مشروع .

ورغم أن المؤتمر أعلن تأييده الصريح للدول الديمقراطية ، الا أنه لم يستفد من هذه اللحظة الحرجة ، رغم أنه أثيرت بين صفوفه بعض الأفكار التحررية مثل انشاء جيش وطنى (٢) .

ولكن المؤتمر دب فيه النشاط فجأة حينما قدم « على ماهر باشا » الى السودان ، ودعا باسم المؤتمر الى حفل شاى ، وذكر الخطباء فيما ذكروا أنهم فى حاجة الى معونة مصر المادية ، وأنهم يعلقون عليها الكثير من الآمال ، وكانوا فى أثناء حديثهم سعداء لأنهم وضعوا سابقة فى مخاطبة المؤتمر لرئيس وزراء مصر مباشرة دون الرجوع الى حكومة السودان .

على أن الأمر لم يكن كما صوره الدكتور ابراهيم العدوى (٣) ،

---

(١) كفاح جيل ٥٩ ، ٦٢ ، يقظة السودان ٨٠ ، ٨٣ .

(٢) كفاح جيل ٦٦ .

(٣) يقظة السودان ٨٢ .

اجماعا مطلقا على تأييد سياسة مصر لأنه كان فى المؤتمر من عارض فكرة الاتجـاه الصريح الى مصر ، ومن كان يتعاون تعاونا تاما مع حـكومة السودان ، حتى ان الوفد المصرى حينما غادر القاهرة نشرت الصحيفة الوحيدة فى هذا الوقت وهى النيل سلسلة مقالات بعنوان « بيننا وبين مصر » ذهب فيه كاتبها « مواطن » الى أن كل العـلاقات بين البلدين تنحصر فى « حسن الجوار والمشاركة فى ماء النيل » ، وقد كان الأستاذ « عبد الله الفـاضل » ـــ حزب الأمة ـــ هو صاحب الفـكرة فى هذه الحملة (١) .

فمن الخطأ الذى جرى عليه الكثير ممن أرخوا علاقاتنا بالسودان أنهم كانوا يصورون السـودان شعبا متجهة كل عواطفه الى مصر ، مع أن الحقيقة توضح لنا دائماً أنه كان هناك على الدوام تيار حاسم ضد مصر .

ومهما يكن من شيء فقد خطا المؤتمر خطوات أكيدة فى سبيل قضية البلاد ، وبدأ يعالج أموره بالكثير من الجرأة فاعترض على نقل وحدات قوة الدفاع السـودانى الى جبهة ليبيا دون الرجوع الى الرأى العام فى السودان .

ثم أرسل فى ٣ ابريل سنة ١٩٤٢ المذكرة الخطيرة التى تتعلق بوجود السودان والتى طالب فيها المؤتمر بما يأتى :

١ ـــ اصـدار تصريح مشترك فى أقرب فرصة ممكنة من الحكومتين الانجليزية والمصرية بمنح السودان بحـدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة ، واحاطة ذلك الحق بضمانات تكفل حرية التعبير عن ذلك الحق فى حرية تامة ، كما تكفل للسودانيين الحق فى تكييف الحقوق الطبيعية مع مصر باتفـاق خاص بين الشعبين المصرى والسودانى .

---

(١) كفاح جيل ٧١ ، ٧٢ .

٢ – تأسيس هيئة تمثيلية من السودانيين لاقرار الميزانية والقوانين

٣ – تأسيس مجلس أعلى للتعليم أغلبيتــه من الســودانيين وتخصيص مالا يقل عن ١٢٪ من الميزانية للتعليم

٤ – فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية

٥ – الغاء قوانين المنــاطق المقفولة ورفع قيود الاتجــار والانتقال عن السودانيين داخل السودان

٦ – وضع تشريع بتحديد الجنسية السودانية

٧ – وقف الهجرة الى السودان فيما عدا ما قررته المعاهدة الانجليزية المصرية

٨ – عدم تجديد عقد الشركة الزراعية بالجزيرة

٩ – تطبيق مبدأ الرفاهية والأولوية فى الوظائف وذلك :

(ا) باعطاء السودانيين فرصة الاشتراك الفعلى فى الحكم بتعيين سودانيين فى وظائف ذات مسئولية سياسية فى جميع فروع الحكومة الرئيسية

(ب) قصر الوظائف على الســودانيين أما الوظائف التى تدعــو الضرورة لملئها بغير السودانيين ، تملأ بعقود محدودة لأجل أن يتدرب فى أثنائها سودانيون لملئها فى نهاية المدة

١٠ – تمكين الســودانيين من استثمار موارد البلاد التجارية والزراعية والصــناعية

١١ – وضع قانون بالزام الشركات والبيوتات التجــارية بتحديد نسبة معقولة من وظائفها للسودانيين

١٢ – وقف الاعانات لمدارس الارساليات وتوحيــد برامج التعــليم فى الشمال والجنوب

وقد جاء فى رد المستر د . نيوبون السكرتير الادارى ما يأتى :

« يجد صاحب المعالى الحاكم العام أنه ليس فى استطاعته أن يقبل هذه المذكرة وهى لذلك مردودة اليكم

انه يتحتم على الحكومة أن تصر على أن يحصر المؤتمر نفسه فى الشئون الداخلية ، وأن يقلع عن أية دعوى صريحة أو ضمنية فى تمثيل البلاد تمثيلا عاما ، وانها ستصر على ذلك

وقد جاء فى رده كذلك على رسالة ثانية من السيد ابراهيم أحمد رئيس مؤتمر الخريجين العام قوله :

« ان معاليه غير مستعد لأن يقبل مطالب من مؤتمر الخريجين بخصوص دستور السودان ومستقبله السياسى ، ويرغب معاليه فى أن يعيد توكيد قراره بأن حكومته لا يمكنها أن تقبل الادعاء الجديد من مؤتمر الخريجين بأنه يمثل السودان أو يتكلم باسم البلاد أجمع » (١) .

وفى سنة ١٩٤٣ أعيد انتخاب اسماعيل الأزهرى وفى عهده تقررت مقاطعة « المجلس الاستشارى » لشمال السودان

وفى سنة ١٩٤٤ أعيد انتخاب ابراهيم أحمد رئيسا ، واستمرت فى عهده المقاطعة

وفى سنة ١٩٤٥ أعيد الأزهرى وفسر المؤتمر المصير السياسى للسودان « بقيام حكومة سودانية ديمقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى »

وفى سنة ١٩٤٦ أعيد انتخاب الأزهرى وتقرر سفر وفد يمثل السودان مؤيدا من السيد على ، والسيد عبد الرحمن المهدى ، للعمل حسب وثيقة مشتركة نصها « قيام حكومة سودانية فى اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا » .

وقد ظل الأزهرى رئيسا للمؤتمر حتى سنة ١٩٥٢ وظل ينادى بالوحدة مع مصر تحت التاج المصرى مع وحدة السياسة الخارجية والدفاع على أن

---

(١) كفاح جيل ١٤٤ ، ١٥١ .

تكون للسودانيين حكومة سودانية ديمقراطية ، لها برلمانها الخاص ومجلس وزرائها ، وقد توج هذا الكفاح أخيرا بعد عمليات الصراع داخل المؤتمر وخارجه الى اتفاق الأحزاب السودانية فى ١٠ يناير عام ١٩٥٣ بوساطة مصر التى أعلنت هذا الاتفـــاق فى تلك الوثيقة التى أصبحت أساسا لمفاوضتها مع انجلترا (١) .

(ب) الأحزاب السودانية :

نمت جذور الأحزاب السودانية داخل المؤتمرات منذ عام ١٩٣٢ حينما ظهر الصراع حادا داخل المؤتمر بين الجمعية الأدبية بزعامة الأزهرى ، ويحيى الفضلى ، وجمعية الآداب والفنون بقيادة عرفات محمد عبد الله ــ التى انفصلت فيما بعد وتكون منها حزبا الاتحاديين والقوميين ــ وساعدها على النمو امتداد الزعامة الدينية ، ووقوفها وراء الأحداث وتوجيهها ، مما ترتب عليه ظهور الأحزاب الآتية :

(١) حزب الأشقاء :

تبلور هــذا الحزب على يد الأزهرى متجها صراحة الى السيد على الميرغنى بعد أن شاهد ميلا ومناصرة من السيد عبد الرحمن المهدى الى منافسه ابراهيم أحمد الذى صار رئيسا لجمعية الآداب والفنون .

ففى سنة ١٩٤٢ تفاهم الأزهرى مع السيد على واستقر رأيه على فكرة الاتحاد مع مصر ، وفى السنوات التى أعقبت هذه السنة كان الأزهرى يسافر كل عام للتشاور مع المصريين ، حتى لقد اهتمت مصر بهذه الزيارة ففى سنة ١٩٤٤ بعث الملك فاروق السابق مندوبه لوداع الأزهرى كما استقبله النحــاس باشا بمكتبه فى الاسكندرية عن طريق نجيب الهلالى وزير المعارف ، وفى سنة ١٩٤٥ أعلن شعار « قيـــام حكومة سودانية ديمقراطية مع اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى » وهو العام الذى أعلن فيه قيام الحزب .

---

(١) يقظة السودان ص ١٠٥ .

وقد سمى « بالأشــقاء » لأنه كان يضم مجموعة من الاشقاء مثــل اسماعيل ، وعلى الأزهرى ، ويحيى ، ومحمود الفضلى ، وأحمد ، وحسن يس ، وعبد الرازق ، واسماعيل ، وميرغنى عثمان صالح ، وهكذا قام حزب « الأشقاء » بمعاونة الختمية كحركة مضادة للســيد عبد الرحمن المهدى وسياسته العامة .

وقد استطاع هذا الحــزب السيطرة على مؤتمر الخريجين وتوجيهه حسب سياسته الاتحادية (١) .

(٢) حزب الأحرار :

نشأ هذا الحزب عام ١٩٤٤ على أساس اتحاد حر Confederation مع مصر ثم انشق حينما قبلت أكثريته المشاركة فى اصــدار قرار المؤتمر (ابريل ١٩٤٥) الى أحرار اتحاديين ، وأحـــرار انفصاليين وقد تحول الأخيرون الى حزب الأمة (٢) .

(٣) حزب وحدة وادى النيل :

ظهر هذا الحزب سنة ١٩٤٦ مستوحيا رسالته من العبارة الشعبية التى كانت شائعة فى هذا الوقت وهى « وحدة وادى النيل » .

وقد كانت مبادئه « ترمى فى مجموعها الى تحقيق الوحدة المطلقة مع قيام اللامركزية الادارية » ، كما كانت تنص على عدم الاشتراك فى المؤتمر باعتباره لا يتقيد الا بمبادىء أكثريته (٣) .

(٤) الحزب القــومى :

قام هذا الحزب سنة ١٩٤٤ على أساس من الابتعاد عن مصر فمبادئه تنص على « تحديد فترة انتقال » يتسلم فى غضونها السودانيون الحكم .

---

(١) اسرار وراء الرجال ٣٨/٢ ، ٤١ ، كفاح جيل ٩٢ ، ٩٤ .

(٢) كفاح جيل ٩٥ .

(٣) المصدر نفســه ٩٥ ، ٩٦ ، ونحو سودان جديد ٥٢ ، ٥٣ .

ومن ثم ينتهى الحكم الثنائى ، وتقوم حكومة سودانية ديمقراطية « تحدد الوضع السياسى للبلاد وتعمل على تقرير مصيرها » ، كما نادى بعد فترة معينة بالدخول فى اتحاد مع مصر على أساس المســاواة وهو لا يؤمن بقيام الملكية (١) .

(٥) حزب الأمة :

قام هذا الحزب سنة ١٩٤٥ مستهدفا استقلال السودان وسيادته التامة بحدوده الجغرافية الحاضرة ، مع حفظ الروابط الودية مع بريطانيا ومصر .

ويعتبر هذا الحــزب رد فعل للحركات الاتحــادية التى كانت تدعو للاتحاد مع مصر من قريب أو بعيد ، كما يعتبر فى الوقت نفسه حركة المناوأة ضد السيد على الميرغنى باعتباره لسانا ضد المهديين ، وعلى رأسهم السيد عبد الرحمن المهدى ، واذا كانت الأحزاب الاتحادية قد اتجهت نحو مصر فى كل شئونها فان هذا الحزب قد اتجه نحو الانجليز ، فتعاون معهم فى خلق المؤسسات الدستورية والاسهام فيهــا كالمجلس الاستشارى ، والجمعية التشريعية ، والمجلس التنفيذى .

ولكنه وقف من الانجليز مواقف مشرفة فى بعض الأحيــان . فحين أعلن بروتوكول (صدقى — بيفن) قرر فى ذلك الوقت الانسحاب من المجلس الاستشارى ، ومقاطعة المؤسسات الدستورية ، كما اختلف مع حكومة السودان حين رأى سنة ١٩٥٠ أن تمنح البلاد الحكم الذاتى فورا ، وفى سنة ١٩٤٧ قاوم الحزب مطلب مصر الخاص بسيادتها على السودان ، وأرسل وفدا الى مجلس الأمن .

وفى سنة ١٩٥٢ سافر الى مصر السيد عبد الرحمن المهدى ، وأمكن فى القاهرة عقد اتفاقية (نجيب المهدى) الخاصة بتصفية الحكم الثنائى ،

---

(١) نحو سودان جديد ٥٤ .

وهكذا سار فى السودان بطريقة معادية لمصر ، ومحببة للانجليز (١) .

(٦) الحزب الجمهورى الاشتراكى :

ظهر هذا الحزب رسميا سنة ١٩٥٢ معتمدا على بعض العناصر التى لا تؤيد قيام الملكية أو اتحاد مع مصر ، وقد أشيع عنه أنه يعمل للارتباط بانجلترا ولكن القائمين بأمره ذكروا أن هدفهم هو الاستقلال التام وقيام حكومة ديمقراطية على أساس جمهورى ويكون له مطلق الحرية فى أن يدخل فى تحالف أو ارتباط مع أية دولة لمصلحة السودان (٢) .

(٧) الجبهة الوطنية :

تأسست الجبهة سنة ١٩٤٩ عقب البيان الذى نشره بعض أقطاب الختمية ، وقيل انه يمثل وجهة نظر المجلس الأعلى للختمية ، وكان هذا البيان يدعو الى قيام الحكم الذاتى الكامل فى السودان ، وتخليص الأوضاع الداخلية من سيطرة الأجانب ، وقد حددت الجبهة أهدافها فيما يأتى :

١ — انهاء الحكم الثنائى وجلاء الاستعمار .

٢ — قيام حكومة سودانية ديمقراطية حرة فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى (٣) .

(٨) حزب الاستقلال الجمهورى :

قام فى ديسمبر سنة ١٩٥٤ عقب اقالة ميرغنى حمزة ، وخلف الله خالد ، وأحمد جلى من الوزارة ، ومبادئه تقوم على قيام جمهورية سودانية مستقلة كاملة السيادة على أن تنسق هذه الجمهورية العلاقات مع مصر (٤) .

---

(١) نحو سودان جديد ٤٦ ، الايام ١٩٥٦/١/١ .

(٢) نحو سودان جديد ٥٠ ، ٥١ ، كفاح جيل ١٠٣ .

(٣) نحو سودان جديد ٥٢ ، أسرار وراء الرجال ٤٩/٢ .

(٤) أسرار وراء الرجال ١٨٠ .

(٩) الجبهة المعادية للاستعمار :

تكونت قبل الانتخابات الخاصة بأول برلمان سودانى ، ثم تحالفت مع حزب الأمة وكونا معا ما يسمىٰ « بالجبهة الاستقلالية » [1] .

(١٠) الحزب الوطنى الاتحادى :

قام هذا الحزب فى الأشهر الأخيرة سنة ١٩٥٢ بالقاهرة على يد اللواء محمد نجيب فى أول عهد الثورة المصرية مكونا من الأحزاب الاتحادية التى تتمثل فيما يأتى :

١ — حزب الأشقاء بشقيه فقد كان الأول برئاسة الازهرى والثانى برئاسة نور الدين .

٢ — حزب الاتحاديين .

٣ — حزب الأحرار الاتحاديين .

٤ — الجبهة الوطنية .

٥ — حزب وحدة وادى النيل .

فقد دعت القاهرة زعماء هذه الأحزاب لبحث التطورات الدستورية فى السودان . وقد نصحت لهم مصر بأن من مصلحة الدعوة التى يلتفون حولها ــ وكانت حينذاك الاتحاد مع مصر ــ أن يلتقوا جميعا فى حزب ، وقد استجابوا لهذه الدعوة ، وتكون « الاتحاد الوطنى » برئاسة الأزهرى وسكرتارية خضر حمد .

وقد اشتركت هذه الأحزاب فى مناهضة الحكم الانجليزى ، ومقاطعات التطورات الدستورية التى كان يهدىء بها الانجليز الشعب .

وقد خاض « الوطنى الاتحادى » معركة الانتخابات البرلمانية الأولى سنة ١٩٥٣ فكسبها ، وألف الحكومة الانتقالية التى صفت الحكم الثنائى .

وقد انفصل عن الحزب حزب الاستقلال الجمهورى بدعوى مهادنته مصر ، ثم انفصل جناح نور الدين وكون « الكتلة الاتحادية » حينما أعلن

---

(١) أسرار وراء الرجال ص ٢٠٢ .

الأزهرى أنه يدعو لاستقلال السودان الكامل وسيادته التامة ، ويحترم المصالح المشتركة مع مصر [1] ، فقد ظهر من سياسة الأزهرى أنه -- وقد أصبح الأمر فى يده ـــ يريد انتهاج سياسة جديدة تقوم رويدا رويدا على التنكر لماضيه ، والسير بالبلاد فى سياسة استقلالية بعيدة عن مصر آملا من وراء ذلك الى كسب خصومه ، والى تكوين اتجاه جماهيرى يسانده فى حكمه ، أما نور الدين فقد آثر أن يظل وفيا لمصر ، وكان من الصعب عليه أن يقطع هذه الصلة القوية بين البلدين .

١١ — الحزب الوطنى :

وكان يمثل آراء الطائفة الهندية كما كان ينزع نحو الاستقلال

١٢ — حزب الأحرار الجنوبى :

تكون سنة ١٩٥٣ ودعا الى قيام نظام فيدرالى بين الشمال والجنوب[2] .. وحين انقسم الأزهرى على السيد على قام بعـد ذلك حزب يمثـل المرغنية يسمى « حزب الشعب الديمقراطى »

وفى الحقيقة لقد بلى السودان فى هذه الفترة بكثرة الأحزاب . فقد كان بعضها لا يقوم على أساس من المصلحة العامة ومن هذا النوع حزب السودان الذى ظهر فجأة سنة ١٩٥٢ برئاسة محمد أحمد عمر ، ونادى جهارا بضم السودان الى رابطة الشعوب البريطانية [3] .

---

(١) الايام ١٩٥٦/١/١ .

(٢) اسرار وراء الرجال ٢٠٤ .

(٣) نحو سودان جديد ص ٥٥ .

أثر الزعامات الدينية فى السياسة

(٧)

ولقد كانت الزعامات الدينية قبل المؤتمرات وفى أوائله منصرفة الى شئونها الداخلية ولم تتعرض للسياسة الا بقدر ، وكان السودانيون يدينون لها بالطاعة المطلقة ، فكان للرجل مطلق الحرية فى اختيار الحزب الذى يريد وفى الوقت نفسه يدين باحدى الزعامات الدينية .

ولكن بمرور الوقت استفحل خطر هذه الزعامات ، وأرادت ألا يخرج الأمر من يدها الى يد السياسيين ، فشاركت بنفوذها المطلق فى الحياة السياسية وراحت تؤيد فريقا على فريق ، وفى الوقت نفسه أسرع بعض الزعماء اليها ليستعين بها على خصومه ، ومن هنا جاء خطر الزعامات الدينية التى لونت الحياة السياسية ، وأصبح السياسيون يستلهمون منها العزم ومواصلة النضال ، بل أصبحت دولتا الحكم الثنائى تستعين بهذه الزعامات الدينية .

وقد تعددت فى السودان هذه الزعامات ، وتعتبر أهم هذه الطوائف ١ ـ الختمية ٢ ـ الأنصار ـ ٣ اليوسفية الهندية ٤ ـ التجانية ٥ ـ الاسماعيلية ٦ ـ السمانية ٧ ـ أنصار السنة ٨ ـ القادرية ٩ ـ الادريسية ١٠ ـ الرشيدية ١١ ـ الأحمدية ـ ١٢ المجذوبية .

وتعتبر أخطر الزعامات التى شكلت الحياة فى السودان الطوائف الثلاث الأولى :

١ ـ الختمية ويكثر أتباعها فى الشرق والشمال ، وبعض أنحاء الوسط ، والى حد ما فى مديريتى « كردفان ودارفور » ، وقد رعت الختمية الأحزاب الاتحادية بصفة عامة ، وحزب الأشقاء والجبهة الوطنية

بصفة خاصة (١) .

وقد كانت مصر تعتبرها ممثلة لسياستها فى السـودان ، وراعيها السيد على الميرغنى الذى كان له وزن خاص فى الحياة السياسية هناك ، والذى حينما رأى الانجليز منه هذه القوة ، وهذا الميل الى مصر عمدت الى احياء قوة أخرى مناوئة له وهى « المهدية »

٢ — المهـدية

لقد دخل الحكم الثنائى البلاد على انقاض المهدية ، وفتح عينيه على أسرة المهدى . ومن هنا نرى اقامة السيد عبد الرحمن المهدى تحدد فى البلاد ، ثم يسمح له الحاكم العام سنة ١٩١٢ بتعمير جزيرة « أبا » ، وفى سنة ١٩١٤ سمح له بالتنقل فى أرجاء السودان ، واعتبره الانجليز ممثلا لسياستهم فى البلاد ، فاستعانت به خلال الحرب العالميـة الأولى لاقرار الحالة بين أتباعه ، عام ١٩١٩ فى وفد النصر الذى سافر للتهنئة .

وفى سنة ١٩٢١ دعا لاستقلال السودان (٢) .

وذهب الى لندن بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ للاحتجاج عليها ولكن لم يسمح له .

كما ذهب سنة ١٩٤٦ للاحتجاج على معاهدة « صدقى — بيفن »

وقد رعت هذه الطائفة دعاة الاستقلال بصـفة عامة ، وحزب الأمة بصفة خاصة ، كما كانت سندا للجمعية التشريعية التى قامت خلال الفترة من سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٥٢ .

٣ — الطائفة الهندية :

نزح فى أواخر القرن العاشر الشريف محمد الهندى الى السـودان ، ومع أنه خالص العروبة الا أنه سمى بالهندى نسبة الى مرضعته ، وقـد

---

(١) أسرار وراء الرجال ١٩/١ ، ٢٢ .

(٢) أسرار وراء الرجال ٥٤/١ .

تمت بفضل هذا الرجل أسرة ضخمة كان من أعلامها الشريف يوسف الذى عمل على نشر طريقته عقب الحكم الثنائى فكتب نصيحة فى الدين ، ووضع أذكارا ، وأورادا ، وسيرة الرسول .

وظل يقيم فى سنار حتى سنة ١٩٠٨ حتى استراب فيه الانجليز بسبب ايوائه فلول أنصار « ودحبوبه » فدعته للاقامة فى الخرطوم (١) ، وقربته اليها فكان فى وفد النصر سنة ١٩١٩ الذى سافر الى لندن ، ثم قطع صلته بالحكومة عقب احدى حركات الانعامات ، ثم توفى سنة ١٩٤٢ ، وخلفه ابنــه عبد الرحمن الاســتقلالى النزعة ، والذى كان واحدا من موقعى وثيقة الحرية سنة ١٩٤٦ أمام تمثال كتشنر ، والذين طالبوا بسودان غير منشق (٢) .

وقد مثل رأى هذه الطائفة الحزب الوطنى (٣) .

هذه الطوائف الثلاث بالاضافة الى التجانية التى « بدأ عليها لون انجليزى ومعظم أنصارها فى الغرب من الحزب الجمهورى الاشتراكى(٤) » كان لها أثر مباشر فى توجيه الحياة السياسية فى السودان ، أما الطوائف الأخرى فقد كانت عاكفة على تقاليدها ، ولا يسمع لها أثر بذكر فى توجيه الحياة السياسية فى البلاد

والحقيقة التى لا بد أن تذكر أن الزعماء الذين اعتمدت عليهم دولتا الحكم الثنائى ، لم يقبلوا على هاتين الدولتين حبــا فيهما وانما رأوا أن التعاون معهم يقربهم الى حرية البلاد ، ومن هنا لم نر فيهم الطاعة المطلقة للدولتين ، فمع أن كلا منهم كان يسير فى واحد من الطريقين ، ويناصب

---

(١) أسرار وراء الرجال ٨٥/١ فى شأن الله ص ١١٩ .

(٢) أسرار وراء الرجال ٨٩ .

(٣) أسرار وراء الرجال ٨٩ .

(٤) نفسه ٢٠ .

الآخر العداء ، الا أن كلا منهما كان يسعى جاهدا الى الخلاص من كليهما فى آخر الأمر .

وأستطيع أن أقول ان الرأى العام فى السودان كانت تسيطر عليه — منذ نضج — سياسة واحدة وهى الخلاص من الانجليز أولا ، ثم المصريين . وقد أظهرت الأيام أن الذين عملوا طيلة حياتهم من أجل الوحدة ، قاموا أنفسهم بعملية الانفصال ، وأن هذه الحقيقة قد تجوهلت بين الدولتين خلال الصراع الذى كان قائما بينهما ، وخلال اخلاص الفريقين الظاهرى لكلتا الدولتين

.. ثم أخيرا لهذا التجاهل لعملية النمو الداخلى فى نفسية السودانيين وأن كلمة الحرية لا تقف أمامها مصالح أو عواطف أخوية .

السياسة الانجليزية . . وسائلها وغاياتها

— ٨ —

عملت انجلترا على التمسك بالسودان لاستنزافه ، وللضغط به على مصر ، ولوقوفه كحاجز يحمى سياستها فى افريقية خاصة تلك البلاد التى تشترك مع السودان فى الحدود كيوغندة وكينيا ، ولئلا يصبح وادى النيل « السلسلة الفقرية » للبلاد العربية والاسلامية ، ولأهميته استراتيجيا لسيطرته على المواصلات الجوية والحربية خاصة اذا ربط بخط حديدى مع جنوب افريقية ، ولأنه مورد خصب للتجنيد والتموين وغيرهما من اعتبارات الحرب والتجارة . ذلك وأنه فى منطقة حساسة من البحر الأحمر (١) .

وقد حكمته بقبضة من حديد . فعرقلت نموه ، وصادرت حرياته ، وفصلت شماله عن جنوبه ، وجعلت منه مزرعة لمصانعها البعيدة .

وقد عملت منذ ابتداء الحكم الثنائى على تنحية مصر عن شئونه فحولت طرق التجارة الطبيعية الممتدة على نهر النيل الى موانىء البحر الاحمر (٢) .

وأبعدت رجالها من مناصبه الحساسة ، وشوهت ثورة سنة ١٩١٩ التى قامت بها ، وتخلصت من المصريين عقب مقتل السردار ، وعملت على خلق كتلة للاتحاد مع مصر ، ثم لكل ما هو مصرى . وما تزال أثر هذه السياسة باقية حتى الآن .

وحين اشتد الوعى فى البلاد ، وبدأ الناس يحسون بحرياتهم وظهرت أصواتهم فى « المؤتمر » لم يقفوا مكتوفى الأيدى وانما عملوا على عرقلة

---

(١) رسالة عن السودان ٣ .

(٢) السودان (رئاسة مجلس الوزراء) ٢٠٧ .

سير البلاد ، حتى لا يفلت الزمام من أيديهم وكان من أثر هذه السياسة ما يأتى : ـ

١ — المجلس الاستشارى :

ظهر هذا المجلس كرد فعل لمؤتمر الخريجين ، ولصرف النظر عنه باحياء الرجعية فى البلاد ومن هنا عملوا على احياء القبلية ، والتضارب بين كبار الموظفين ، لصرف البلاد عن اهتماماتها بالحرية . وتكون هذا المجلس من ثمانية وعشرين عضوا برئاسة الحاكم العام فاذا ما تخلف ناب عنه السكرتير الادارى أو المستشار المالى .

وقد تكون المجلس من تلك العناصر الموالية لحكمهم كزعماء القبائل وكبار الموظفين .

وقد قاطع المؤتمر هذا المجلس ، وظل يباشر نفوذه بعيدا عنه ، واستطاع أن يحظى بتأييد شعبى أضعف المجلس الاستشارى حينما طالب سنة ١٩٤٥ بما يأتى :

١ — قيام حكومة سودانية ديمقراطية فى اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا ، على أن تحدد الحكومة السودانية نوع الاتحاد وأن تقرر على ضوئه نوع التحالف مع بريطانيا .

٢ — تعيين لجنة مشتركة نصفها من الانجليز والمصريين ، والنصف الآخر من ممثلى الطبقة المستنيرة من السودانيين ، على أن يتولى المؤتمر تعيين الممثلين السودانيين لوضع مشروع تولى السودانيين مقاليد الحكم فى البلاد فى أقصر وقت ممكن ، بشرط أن تعطى الحكومة لهذه اللجنة كل التسهيلات لأداء مهمتها وأن تلتزم بتنفيذ توصياتها .

٣ — اطلاق الحريات العامة كحرية الصحافة والاجتماعات والتنقل والتجارة .

(١) يقظة السودان ٩٢ ، ٩٣ .

٢ — الجمعية التشريعية ، والمجلس التنفيذى :

أرادت انجلترا اعداد خطة جديدة لتجميع الشعور السودانى فى يدها ، فعملت على خلق الجمعية التشريعية ، والمجلس التنفيذى فى خفية . وحين استفسرت مصر عن هذه السياسة الجديدة رد الحاكم العام فى ١٩٤٦/٦/٤ بقوله « فان حكومة السودان لاتبحث فى انشاء مجلس تشريعى ولامجلس وزراء فى السودان » (١) ثم اذا به يبعث فى ١٩٤٧/٣/٣١ مذكرة تحمل المشروعين (٢) .

وقد جاء فى رد مصر أنها لا يمكن أن توافق على هذه التوصيات الا بعد ادخال بعض التعديلات (٣) لأن ما جاء فى المذكرة لا يفسح المجال لتمثيل السودانيين تمثيلا صحيحا ، ولا باشراكهم اشراكا فعليا فى حكم أنفسهم نظرا لضيق السلطات المخولة للجمعية التشريعية ، ولأن النظام المقترح لا توجد به اشارة الى الحريات الدستورية (٤) .

وبعد أن عرضت قضية مصر والسودان على مجلس الأمن كتب الحاكم العام لمصر فى ١٩٤٧/٩/١٣ أن حكومته « مصممة » على أن تعجل بأسرع ما يمكن بمشروعاتها الخاصة بالجمعية التشريعية الجديدة والمجلس التنفيذى (٥) ، ثم صدر فى ١٩٤٨/٦/١٩ قانون الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى دون مراعاة لوجهة نظر مصر ، وقبل الاستقلاليون العمل فيها ، على أن الجمعية لم تخل من العناصر الطيبة فقد تقدم السيد محمد أحمد محجوب سنة ١٩٤٩ مطالبا بمنح السودان الحكم الذاتى ، كما تقدم باقتراح مماثل فى ديسمبر ١٩٥٠ السيد محمد حاج الأمين . ومن هنا انزعج الانجليز (٦) .

---

(١) السودان (رئاسة مجلس الوزراء) ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٤ — ١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ١٦٥ — ١٦٩ .

(٦) السودان للسودانيين ٥٦ ، ٥٧ ، يقظة السودان ٦٩ .

فقد كانوا يرون فى هـذا التشكيل « خديعة يرمون بها الى استمرار حكمهم فى السودان لأطول مدة ممكنة يتسع لهم فيهـا مجال العمـل به منفردين تحت ستار مشيئة السودانيين » (١) .

ولكن تطورت الأحداث بعد ذلك فألغت مصر العمل بأحكام معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ وملحقاتها ، وبأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير ، ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ وبالقانون رقم (١٧٥) لعام ١٩٥١ عدلت المادتان ١٥٩ ، ١٦٠ من الدستور للسودان ، وتعيين لقب الملك (٢) .

وقد ترتب على هـذا أن قدم السيد ميرغنى حسين زكى الدين عضو الجمعيـة التشريعيـة اقتراحا برفض دستور النحاس ، المتقدم فأجازت الجمعية الاقتراح بأغلبية .

كما أرسل حزب الأمة احتجاجا الى النحاس فى ١٩٥١/١٠/١٧ جاء فيه :

« ان موضوع هذا الخطاب ينصب كله على اعلانكم الملك الجديد ، ذلك الملك الذى رأيت أو تراءى لك أن تفرضه على الشعب السودانى وأنت لم ترجع اليه فى مشورة » (٣) .

---

(١) السودان (رئاسة مجلس الوزراء) ٢٨١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٨٢ ، ٢٨٥ .

(٣) السودان للسودانيين ٨٥ .

السودان خلال الحرب العالمية الثانية

(٩)

لقد شددت الرقابة من جديد على السودان ، ووضعت امكانيات البلاد تحت تصرف انجلترا كما اشترك جيشه فى هذه الحرب على الحدود وخارج الحدود .

فقد كان لقوة دفاع السودان دور فى هذه الحرب سواء كان هذا الدور فى افريقية الشرقية أو فى حرب الصحراء فى الشمال[١] . فقد اتخذوا السودان قاعدة للعمليات الحربية ضد شرق أفريقية الايطالى . ولقد كانت قاعدة حية لوقوعها على أحد جانبى البحر الأحمر الذى كانت تمر منه المهمات الحربية والسفن التى كانت تقل المجهود الحربى للشرق الأوسط بعد أن حرم الانجليز من طريق البحر الأبيض المتوسط [٢] .

وقد احتلوا المدرسة الثانوية الضخمة فى « وادى سيدنا » ووزعوا طلبتها الى مدرسة أم درمان الثانوية ، ومدرسة حنتوب [٣] .

كما استفادوا من موارده الخام ، وكان أكثر شيء استفادوا منه « الخشب » [٤] .

وكان مما قاله الحاكم العام فى المجلس الاستشارى « علينا نحن هنا فى السودان ان نساهم بقدر استطاعتنا فى مجهود الحلفاء وذلك باستعمال قوة دفاع السودان لحراسة مستعمرات العدو السابقة فى اريتريا ، وبرقة وطرابلس ، وبتقديم المساعدة اللازمة لتسهيل مرور الملاحين الجويين

---

(١) صوت السودان ١٩٤٦/٢/٢٥ .
(٢) المصدر نفسه حديث للورد موين ١٩٤٣/٤/١٢ .
(٣) الايام ١٩٥٦/١/٣١ .
(٤) مشكلات المجتمع السودانى ــ محاضرات .

البريطاني والأمريكي عبر السودان الى ميدان الحرب اليابانية ، وبتقديم المعونات الاقتصادية للحلفاء بانتاج ما نقـــدر أن ننتجه من حوائجنا وغيرها ، وبتصدير انتاجنا المحلي من القطن والحيوانات وغيرهما مما يلزم للعتاد الحربي » (١) .

وهكذا توقفت البلاد عن التقدم ، وأصبحت عاطلة تماما .

---

(١) السودان الجديد ١٩٤٤/١٢/١٥ .

الثورة المصرية وأثرها فى السودان

(١٠)

بينما كانت البلاد سائرة فى طريقها الصحيح للحرية . وأعضاء الجمعية التشريعية قد صحت عزيمتهم على أنه لابد من منح بلادهم الحكم الذاتى ألغيت معاهدة عام ١٩٣٦ . وقد ساعد هذا على تمسك السودانيين بحقهم .

وامام هذا ألفت الادارة البريطانية لجنة فى مارس عام ١٩٥١ لدراسة الموقف ، ووضع الخطوات التى تصل بالبلاد الى الحكم الذاتى ، وتكونت هذه اللجنة من ثلاثة عشر عضوا سودانيا عينتهم الادارة البريطانية ، وكان من الطبيعى أن تبعد عن اللجنة هؤلاء الذين كانوا ينادون بالتعاون مع مصر ، وقد تولى رئاستها قاض انجليزى كما عين الاستاذ « فنست هارلو » بجامعة اكسفورد مستشارا قانونيا لهذه اللجنة .

وقد ترك الأعضاء السودانيون هذه اللجنة حينما رأوا أنهم لن يستطيعوا الوصول الى حل مع البريطانيين . وكان أن انفرد القاضى « بوضع تقرير ضمنه رأيه الخاص بمنح السودان حكما ذاتيا وفق القواعد التى ارتضتها انجلترا (١) فبينما ذكر أنه ستكون للسودان حكومة سودانية مسئولة أمام برلمان سودانى نراه يعطى للحاكم العام الحق فى الاعتراض على ماتقرره الوزارة والبرلمان . كما أن له حق التعطيل والسلطة المطلقة على المديريات الجنوبية الثلاث .

وقد أحبت الادارة البريطانية تنفيذ هذه السياسة وسعت جاهدة لاقرارها من دولتى الحكم الثنائى حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (٢)

---

(١) يقظة السودان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٠٢ .

ولكن مصر فى عهـدها الجديد قدمت فى ١٩٥٢/١١/٢ تلك المذكرة التى جاء فيها :

« تؤمن الحـكومة المصرية ايمانا وطيـدا بحق السـودانيين فى تقرير المصير وفى ممارستهم له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب وبالضـمانات اللازمة (١) .

ثم قامت مصر بعملية تجميع وجهات النظر السودانية فأدمجت بعـد جهاد مرير الاحزاب التى كانت تتعاون معها فى حزب واحد سمى « الحزب الوطنى الاتحادى » برئاسة اسماعيل الأزهرى ثم قامت مصر بجمع وجهات النظر جميعـا فى السودان التى كانت تتمثل فى الحزب الوطنى الاتحادى والحزبين الآخرين اللذين كانا يعملان بعيدا عن مصر وهما حزب الأمة ، والحزب الجمهـورى الاشتراكى وقد تم هـــذا الاتفاق بالخرطوم فى ١٩٥٣/١/١٠ .

وهكذا تأكدت فى الاتفاق ضمانات حرية السـودان ، وألا تكـون للحاكم العام سلطات خاصة بالجنوب ، وتشكيل لجنة بالبلاد فترة الانتقال من عضوين سودانيين ، وعضو مصرى ورابع بريطانى ، وخامس هندى ، وأن تكون الانتخابات فى كل السودان ، وقيام لجنة للسودنة وجلاء جيش دولتى الحكم الثنائى قبل انتخابات الجمعية التأسيسية (٢) .

.. ثم كانت الاتفاقيـة بين وفد الاستقلاليين ومصر وجاء فيها الاتفاق على « تقـرير السـودانيين مصـيرهم فى حرية تامة اما باعلان استقلال السودان عن كل من مصر وبريطانيا وأى دولة أخرى أو الارتباط مع مصر على أن يسبق ذلك قيام الحكم الذاتى الكامل فى السودان فورا (٣) كما قامت بين الطرفين اتفاقية « الجنتلمان » وكان الغرض منها أن تقف مصر على الحياد من السودانيين فى السودان (٤) .

---

(١) السودان ــ رئاسة مجلس الوزراء ٢٩٣ .
(٢) السودان ٢٩٧ يقظة السودان ١٠٤ ــ ١٠٧ ، السودان للسودانيين ١١٣ .
(٣) السودان للسودانيين ١٠٤ .
(٤) المصدر نفسه ١٠٨ .

وهكذا نرى أن السودانيين قد تحقق لهم فى ظل الثورة الكثير ، وأنهم قابلوا نوعا جديدا حاسما من السياسة يريد الوصول بالأمور الى نتيجة ، ومن هنا اطمأنوا الى قادتها حين أكدوا أنهم يريدون تهيئة « الفرص الصالحة للحكم الذاتى » ، ودعوا الى اتفاق الأحزاب ثم توجوا كل هذا باتفاقية السودان ، وعلى أن الاجماع على اخلاص مصر لم يكن تاما فقد كان حزب الأمة لا يطمئن تمام الاطمئنان الى مصر ، ويشكك دائما فى اتجاهها .

اتفاقية السودان ١٩٥٣

(١١)

تتمثل هذه الاتفاقية فيما يأتى :

مادة ١ — رغبة فى تمكين الشعب السودانى من ممارسة تقرير المصير فى جو حر محايد ، تبدأ فى اليوم المعين بالمادة التاسعة الواردة فيما بعد فترة انتقال يتوفر للسودانيين فيها الحكم الذاتى الكامل

مادة ٢ — لما كانت فترة الانتقال تمهيدا لانهاء الادارة الثنائية انهاءا فعليا فانها تعتبر تصفية لهذه الادارة ، ويحتفظ ابان فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم تقرير المصير .

مادة ٣ — يكون الحاكم العام ، ابان فترة الانتقال السلطة الدستورية العليا داخل السودان ويمارس سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتى بمعاونة لجنة خماسية تسمى لجنة الحاكم العام .

مادة ٤ — تشكل هذه اللجنة من اثنين من السودانيين ترشحهما الحكومتان المتعاقدتان بالاتفاق بينهما ، وعضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة وعضو باكستانى .

مادة ٥ — لما كان الاحتفاظ بوحدة السودان — بوصفه اقليما واحدا — مبدأ أساسيا للسياسة المشتركة للحكومتين المتعاقدتين ، فقد اتفقنا على الا يمارس الحاكم العام السلطات المخولة له بمقتضى المادة ١٠٠ من قانون الحكم الذاتى على أية صورة تتعارض مع هذه السياسة .

مادة ٦ — يظل الحاكم العام للسودان مسئولا مباشرة امام الحكومتين المتعاقدتين فيما يتعلق بما يأتى .

(ا) الشئون الخارجية

(ب) أى تغيير يطلبه البرلمان السودانى بمقتضى المادة ١٠١ (١) من قانون الحكم الذاتى فيما يتعلق بأى جزء من هذا القانون

(ج) أى قرار تتخذه اللجنة يرى فيه الحاكم العام تعارضا مع مسئولياته ، وفى هذه الحالة يرفع الامر الى الحكومتين المتعاقدتين ، وعلى كل من

الحكومتين أن تبلغ ردها فى خلال شهر واحد من تاريخ الاخطار الرسمى ، ويكون قرار اللجنة نافذا الا اذا اتفقت الحكومتان على خلاف ذلك

مادة ٧ — تشكل لجنة مختلطة للانتخابات من سبعة أعضاء ثلاثة منهم من السودانيين يعينهم الحاكم العام بموافقة لجنته ، وعضو مصرى ، وعضو من المملكة المتحدة وعضو من الولايات المتحدة الامريكية ، وعضو هندى

مادة ٨ — رغبة فى تهيئة الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير تشكل لجنة للسودنة

مادة — ٩ تبدأ فترة الانتقال فى اليوم المسمى « اليوم المعين » بالمادة الثانية من قانون الحكم الذاتى

مادة ١٠ — عند اعلان الحكومتين المتعاقدتين رسميا بهذا القرار ، تضع الحكومة السودانية القائمة آنذاك مشروعا بقانون لانتخابات جمعية تأسيسية تقدمه الى البرلمان لاقراره

مادة ١١ — تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور اصدار قرار البرلمان السودانى برغبته فى الشروع فى اتخاذ التدابير لتقرير المصير ، وتتعهد الحكومتان المتعاقدتان باتمام سحب قواتهما من السودان فى مدى فترة لا تتعدى ثلاثة شهور .

مادة ١٢ — تقوم الجمعية التأسيسية بأداء واجبين

الاول — أن تقرر مصير السودان كوحدة لا تتجزأ

والثانى — أن تعد دستورا للسودان يتوائم مع القرار الذى يتخذ فى هذا الصدد كما تضع قانونا لانتخاب برلمان سودانى دائم

ويتقرر مصير السودان

(أ) اما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة

(ب) واما بأن تختار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام (١) ... الخ

(١) السودان — رئاسة مجلس الوزراء ٣٨٤ .

وهكذا ساعدت مصر فى وضع حد لهذه القضية التى كانت تتحطم عليها كل المباحثات ، ووضعت انجلترا فى موقف حرج لم تستطع من خلاله الا أن تسير فى الطريق السليم لاعطاء السودان حريته كما نجحت هذه الاتفاقية باعلان « وحدة » البلاد بعد أن كان الانجليز يصرون على تقسيمها الى شمال والى جنوب . وبهذه الشروط التى سارت بالبلاد الى استكمال حريتها قامت الانتخابات فى البلاد ، وحاز الأغلبية الحزب الوطنى الاتحادى وكان هذا فى ١٥/١٢/١٩٥٣ ثم اجتمع البرلمان لأول مرة فى ١/١/١٩٥٤ ، وشكل السيد اسماعيل الأزهرى الوزارة فى ٩/١/١٩٥٤ ، وسارت لجنة السودنة فى طريقها كما سارت البلاد واثقة بنفسها ، ولم يعكر هذا الصفو الا حادث الجنوبيين الذين أعلنوا التمرد على الشماليين وأشبعوهم قتلا وتعذيبا وقد بدأت هذه الحوادث فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٥ نتيجة للكراهية والمخاوف التى بثها الانجليز فى قلوب الجنوبيين .

ثم أعلن أخيرا مولد الجمهورية السودانية فى ١/١/١٩٥٦ وتحررت تلك البلاد بعد أن ذاقت الهوان والاغتصاب متخذة لنفسها طريقا تحرريا لم تنشأ فيه الارتباط بمصر .

وهكذا نجح ساستها فى رسم سياسة بطيئة أخذت تنمو حتى أخذت شكل التعاون مع مصر ثم التخلص من انجلترا ، ومصر نفسها ، ومن هنا بدأت تباشر حياتها بنفسها ولنفسها ، لأنها رأت أن خير ضمان لمباشرة حياتها ألا ترتبط الا بنفسها ، وقد ساعد على هذا التيار نشوة الفرح الجديدة بالحرية ، وضرب حزب الأمة بتحقيق المبدأ الذى كا يستند عليه فى مهاجمة الحزب الوطنى الاتحادى ، والجرى وراء اقامة قاعدة شعبية يستند عليها الحزب الوطنى الاتحادى فى ادارة شئون البلاد ، ومواجهة تيارات الأحزاب الأخرى .

الحياة العقلية

١ — انتشار التعليم فى السودان

وضع الانجليز يدهم على مقدرات البلاد التعليمية .
فلم يسيروا بالبلاد خطوات جريئة فى التعليم وقد قسموا التعليم الى المراحل الآتية : —

١ — المدارس الأولية ولم تتجاوز فى عهدهم المائتين . وكان أكثرها يقوم على ضفاف النيل ، وعلى خطوط السكك الحديدية . وقد كان الغرض منه خلق جيل للاندماج فى حياة القرية السودانية ولمساعدة الحكم القائم فى الأعمال الكتابية الصغيرة .

وقد كان هذا النوع مجانيا ما عداه فى بعض المدن الكبرى كالخرطوم وبورت سودان . كما كان يرفد كلية تدريب المعلمين ، والمدارس الوسطى فى البلاد .

٢ — المدارس الوسطى :

وقد كان الغرض منها تخريج جيل من صغار الموظفين ، وامداد « كلية غوردون » بحاجاتها من الطلبة ، ولذلك اهتم فيها باللغة الانجليزية اهتماما كبيرا . وكانت تسمى فى أول أمرها المدارس الابتدائية . ثم غيرت هذه التسمية الى المدارس الوسطى .
ولم تزد هذه المدارس عن العشر الا قليلا . وكان أكثرها قائما فى المدن الكبيرة .

٣ — المدارس الصناعية :

لم يكن فى البلاد حتى عام ١٩٥٦ أكثر من مدرستين صناعيتين اولاهما فى أم درمان ، وثانيتهما فى عطبرة . وكانت كل واحدة من المدرستين

تتلقى تلاميذها من الذين أتموا تعليمهم الأولى ، وكانت تدرس فيهما التجارة والحدادة ، والنحت ، واللغة العربية .. الخ .

٤ — مدارس البنات :

لقد بدأ هذا النوع من التعليم بابكر بدرى بمدرسة واحدة فى رفاعة ، وفى سنة ١٩٢٠ وصل عددها الى خمس ، وفى سنة ١٩٣٢ وصل عددها الى أثنتين وعشرين مدرسة أولية ، ويرفد هذا النوع من التعليم معهد تدريب المعلمات بأم درمان .

٥ — التعليم غير الحكومى :

كلية « كمبونى » وقد تأسست عام ١٩٢٩ ، وتضم أقساما ثلاثة هى التحضيرى ، والابتدائى ، والثانوى ، وأنشئت تخليدا لذكرى المبشر الايطالى « دانيال كمبونى » وقام بالدعوة الى هذه الفكرة آباء الارسالية الكاثوليكية .

وأنشأ الأمريكان مدرستين احداهما فى الخرطوم والثانية فى أم درمان كما أقيمت عدة مدارس تابعة للارساليات ، وللجالية القبطية

وقد كان لرغبة السودانيين فى التعليم ، ولدعوة المؤتمر الى يوم التعليم أن قامت عدة مدارس أهلية كان أهمها المدرسة الأهلية (١)

---

(١) الايام ٣١/١/ ١٩٥٦ ، كفاح جيل ٧٢ ، النداء فى دفع الافتراء ٢٥١ .

كلية غوردون وأثرها

(٢)

وضع كـرومر فى ٥/١/١٨٩٩ الحجر الأسـاسى للكليـة ، وفى ٨/١١/١٨٩٩ افتتحت الكلية رسميا على يد كتشنر ، وقد بدأت بمدرستين أوليتين تضمان ٣٣٤ طالبا ، ومدرسة صناعية تضم ٦٠ طالبا ، ثم أنشىء بهـا قسم للتعليم الثانوى كان يتخرج منه المدرسون والمترجمون والكتبة والمحاسبون والمهندسون والقضاة الشرعيون كما كان الأطباء يتخرجون من مدرسـة كتشنر الطبية وفى سنة ١٩٢٤ فصلت الاقسام الاولية والوسطى وقامت بالتعليم الثانوى فقط ، وفى سنة ١٩٤٥ أطلق اسـم الكليـة على مجموعة المدارس العليا عندئذ .

وقصة المدارس العليا ترجع الى سنة ١٩٣٦ بمدرسة الحقوق التى كان يشرف عليهـا السـكرتير القضائى ، ثم انشئت فى سنة ١٩٣٨ مدرستان للزراعة والطب البيطرى ، وفى سنة ١٩٣٩ انشئت مدرسة الهندسة وفى سنة ١٩٤٧ صارت كلية غردون كلية جامعية ، ودخلت فى عدة علاقات مع جامعة لندن ، كما ادخلت درجات جامعة لندن فى الأدب والعلوم ثم فى الحقوق ، والزراعة والهندسة .

وفى ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٦ صارت الكلية « جامعة الخرطوم » وأصبحت تعطى درجاتها الخاصة فى كل الأقسام ، وكان طلبتها فى العام نفسه ٧٩٢ طالبا .

ومن المعاهد العليا فى السودان التى لم تنضم الى الجامعة معهد التربية للمعلمين ببخت الرضا ، ومدرسة المعلمات الأولية بأم درمان .

وقد بلغ عدد الأساتذة بالجامعة ١١٦ أستاذا أكثرهم من الانجليز كما يتمثل السودانيون فى ٢٧ أستاذا [١]

---

(١) الايام ١/١/١٩٥٧ ، وحدة وادى النيل ٣٠ .

وقد أثار هـذا بعض السودانيين فكتب « يا أبطال جامعة السودان تعاقدوا مع بعض الأساتذة المصريين ، ولا تدخلوا السياسة فى كل شيء فالعلم لا وطن له ولماذا يكتب علينا أن يكون أساتذة جامعتنا كلهم من الانجليز ؟ يقول رجل الشارع لو كان من بين الأساتذة الانجليز من يدرسون الشريعة الاسلامية لجاءوا بهم أساتذة لهذه المادة فى كلية غوردون (١) . »

وقد كانوا يعاملون الطلبة فى بعض السنين بقسوة غريبة فقد قيل للرؤساء « اذا اختلفتم مع طالب أحضروه أمامى وسأجلده » أولا ، ثم أبحث الموضوع (٢) .

وقد أدت هذه الكلية دورها فى حدود امكانياتها ، وفى ظل ظروف قاسية جعلت أكثرهم يقضون حياتهم فى وظائفهم وهم موالون للحكومة وعاملون على مرضاتها .

غير أن شرارات الحرية كانت تنطلق من بين صفوفها بين الحين والحين معبرة عن مطالب الشعب وسائرة فى طريق التحرر .

---

(١) صوت السودان ١٩٥٠/١١/٤ .
(٢) موت دنيا ٧٦ .

انتشار المدارس المصرية

(٣)

لقد حاربت انجلترا التعليم المصرى بقسوة . فنراها تخرج بعد ثورة عام ١٩٢٤ الأساتذة المصريين ، وتمنع السودانيين من السفر الى مصر ليتلقوا التعليم الدينى والتعليم المدنى ، فاذا تمكن واحد من تحطيم هذا الستار الحديدى وعاد بشهادة من مصر لم يجد من المسئولين فى البلاد تقديرا لهذه الشهادة .

وقد حمل راية التعليم المصرى فى البلاد أولئك الذين بقوا فى البلاد بعد سنة ١٩٢٤ ووجدوا عنتا فى تعليم أبنائهم ، فأنشأوا جمعيات ومدارس حرة تسير على منوال التعليم المصرى « وقد قدر لهذه المدارس القبطية أن تكون الصلة الوحيدة بين مصر والسودان » .

وبعد معاهدة ١٩٣٦ مدت مصر يدها الى هذه المدارس بالاعانات ، وأقبل عليها الطلبة السودانيون ، ثم أخضعتها مصر لنظام المجانية فى عام ١٩٤٦ على غرار المدارس الحرة فى مصر .

وقد أقام البريطانيون فى وجهها أكثر من عقبة ، ولكن مصر سارت فى طريقها لا تأبه بهذه الصعاب فقد كانت تنفذ ما يشترطون من اشتراطات مالية وفنية ، كما نفذت قانون المعادلات بينها وبين المدارس السودانية ، وشجعت السودانيين على اتمام دراستهم فى مصر وتهيئة كافة الظروف التى تساعدهم على تلقى تعليمهم (١) .

وقد بلغ عدد التلاميذ فى المدارس الأميرية والحرة فى ٥٢ / ١٩٥٣ / ٣٢٥٠ تلميذا ، وفى العام الدراسى ١٩٥٤/٥٣ بلغ عددهم ٥٢٤٨ وفى العام

---

(١) مجلة مصر والسودان العدد ٣ ابريل سنة ١٩٥٥ .

الدراسى ١٩٥٥/٥٤ بلغ عددهم ٨٣٢٥ ، وفى العام الدراسى ١٩٥٦/٥٥ بلغ عددهم ٨٠٤٦ ، وفى العام الدراسى ١٩٥٧/٥٦ بلغ عددهم ٨٦٩٠ طالبا وطالبة (١) .

ولم تقف مصر عند هذا الحد بل أنشأت فى سنة ١٩٥٦ جامعة شعبية ، ثم فرعا لجامعة القاهرة بالخرطوم .

وكان أكثر السودانيين يعترفون لمصر بهذه الصفحة البيضاء فى تاريخهم ، ولكن هذا لا يمنع بعضهم من اعتبار هذا التعليم قواعد لتثبيت نفوذ مصر ، ولتخريج طائفة من السودانيين تواكب الحكم المصرى وتتعاطف معه روحيا .

وأكثر ما كان يدور هذا الجدل حينما تحتدم الأحزاب ، أو تبدأ المفاوضات ، أو يظهر تصريح من مصرى ، لا يرضون عنه .

ولكن كل هذا لا يمنع من القول بالتأثير العميق الذى أحدثه التعليم المصرى فى البلاد وبخاصة أننا نعرف أن مصر كانت تدفع بخيرة أبنائها فى هذا المجال ، وأنها كانت تلقى عليهم تعليمات مشددة باحترام السودانيين ، وجعل الرغبة فى التعليم هى رائدهم ، والبعد بالتعليم عن السياسة تماما .

وقد أسعدتنى الظروف بالخدمة فى هذا الحقل عدة سنوات ولمست بنفسى اهتماما بالغا بالتعليم يفوق الاهتمام فى مصر نفسها .

البعثات الى انجلترا ومصر وأثرها

(٤)

لم يأخذ الانجليز بارسال بعثات تعليمية الى بلادهم الا فى وقت قريب جدا ، ومن هنا فقد كان يرسل بالطلبة الجنوبيين الى أوغندة لا ليتلقوا دراستهم الجامعية ولكن ليتلقوا دروسهم الثانوية (١) . وهى السياسة التى أراد بها الحاكم البريطانى أن يعامل الجنوب كأنه جزء من أوغنده ويفصل بينه وبين الشمال فى مسائل التعليم والثقافة وفى مسألة العلم واللغة (٢) . أما بالنسبة للشماليين فقد كان يبعث بهم الى الجامعة الأميريكية ببيروت (٣) ، ومن خريجى هذه الكلية اسماعيل الأزهرى .

أما بالنسبة لمصر فقد كان التشديد قائما على تلقى العلم بها قبل معاهدة سنة ٣٦ حتى ان الشاعر ابراهيم عبد العاطى حينما قدم الى القاهرة راغبا فى دخول « دار العلوم » كتب على أوراق الامتحان أنه « سودانى » فتحرجت الكلية من قبوله ولم يظهر اسمه فى كشوف الناجحين أو الراسبين ، وأخيرا طلبوا منه تنفيذا للأوامر الصريحة أن يكتب أنه مصرى الجنسية ، ولكنه أصر على سودانيته ، وكتب الى عميد الدار هذه القصيدة التى كانت سببا فى دخوله ، وفى تواتر سيل السودانيين بعد ذلك على التعليم العالى المصرى .

أرقت ونام أترابى وصحبى ... وكدت أذوب من مضض وكرب
وما وقفت صروف الدهر عنى ... وقد وقفت لها دقات قلبى
اذا « دار العلوم » على ضاقت ... وأبعدنى المعلم والمربى
وأعرض أونأى ابن الشرق عنى ... أيسمح لى بهذا الحق غربى

---

(١) سوت السودان ١٩٤٧/٥/٢١ .
(٢) مطالعات للعقاد ٢١ .
(٣) الايام ١٩٥٦/١/٣١ ، حضارة السودان ١٩٢٧/٣/٣٠ .

لقـــد وسعت بنى الأوطان طرا وغص فنــاؤها من كل شعب
وانى كنت أحسبنى جــــديرا أتصبح نسبة الســـودان ذنبى
لئن لم ألق منك غدا قبــولا فبعد غد آكون قضيت نحبى (١)

على أن مصر لم تقف عند هذا الحد وانما فتحت للسودانيين بعد ذلك كل أبواب جامعاتها ، بل وأرسلت بعضهم للحصول على درجة الدكتوراه من الخارج ومن هؤلاء محيى الدين صابر ، وكامل الباقر ، ولا شك أن هؤلاء الذين أتيحت لهم فرصة السفر الى خارج السودان قد اكتسبوا خبرات جــديدة ، وعادوا بأفكار عن التحرر ، وعزم على تخليص بلادهم من الحكم الثنائى ، وكثير من هؤلاء الذين سافروا الى لندن صار لهم دورهم فى البلاد .

وقد لاحظت أن الشعراء الذين تلقوا تعليمهم فى انجلترا ـــ حينما كان يحتدم الشعور الوطنى فى البــلاد ـــ لم يكونوا فى شعرهم قساة على الانجليز قسوة هؤلاء الذين تعلموا فى مصر فقد كانوا يهاجمون كل ما هو مصرى بقسوة وعنف مما سنراه مفصلا بعد ذلك فى الحديث عن الشعر السياسى فى هذه الفترة .

على أن هذه الحدة ـــ حين صفا الجو السياسى وحين تحققوا من سلامة نية مصر ـــ عادت حبا وثقة ، ومن النادر أن نرى شاعرا عاصر فترة الصراع الأخيرة ولم يقس على مصر ، وقد رأيت كثيرين حينما قاموا بطبع دواوينهم فى هذه الفترة الأخيرة قد رفعوا من شعرهم هذا اللون الحاد الذى قذفوا به ـــ فى فترة ما ـــ فى وجه مصر مما يدل على أن « الانفعالية » التى تغلبت على الشعر السودانى تتعدل بتعدل الظروف المحيطة بها .

---

(١) هنا ام درمان ١٩٥٥/٤/٧ ، الامة ١٩٥٧/٥/٢١ .

انتشار الصحافة والطباعة والنشر

(٥)

ظهرت قبل سنة ١٩٣٤ صحف كثيرة منها الرائد وحضارة السودان ، والسودان ، والنهضة ، ومرآة السودان ، ولكن فى هـــذه السنة ظهرت مجلة أحدثت أثرا ضخما فى حياة البلاد العقلية وهى مجلة « الفجر » لعرفات محمد عبد الله .

وقد جاء فى خطتهـــا أنها « تعنى أولا بالأدب العربى عامة ، والقومى خاصة ، وبما يدخل فى باب التثقيف وزيادة المعارف العـــامة ، مع مراعاة الآداب الأجنبية ما تستحق من عناية » (١) .

كما جاء فى كلمة لعرفات محمد عبد الله « وقد رأينا أن نحذو بقدر ما نستطيع حـــــذو أشهر الصحف الأســـبوعية الانجليزية فى التـــرتيب والشكل » (٢) .

وقد كانت تكتب بعض صفحاتها بالانجليزية ، والى جانب اثرائها الحياة الأدبية فى السودان نراها تناهض معاهـــدة سنة ١٩٣٦ ، وتحث الخريجين على التكتل .

وأول صحيفة سودانية يومية ظهرت فى السودان كانت جريدة النيل التى صـــدرت سنة ١٩٣٥ عن شركة الطباعة والنشر التى يسيطر عليها السيد عبد الرحمن المهدى ، وقد استدعت رئيس تحرير مصرى هو الأستاذ حسن صبحى ، والى جانب عناية الجريدة بالسياسة نراها تخـــرج كل أسبوع ملحقا أدبيا .

---

(١) العدد الاول من الفجر ١٩٣٤/٦/١٦ .

(٢) العدد ١٩ من الفجر ١٩٣٥/٥/١ .

ثم تبعتها سنة ١٩٤٠ صحيفة « صوت السودان » وعملت على احياء الفكرة الاتحادية ، ففى سنة ١٩٤٦ كتبت « سنحارب مصر ان هى رفضت الاتحاد معنا » .

وفى سنة ١٩٤٣ صدرت السودان الجديد .

وفى سنة ١٩٤٥ صدرت الرأى العام والصراحة ، وصدرت التلغراف فى أكتوبر ١٩٤٧ ووادى النيل فى ١٩٥٢/٩/٢٨ ،

وفى عام ١٩٥٣ صدرت الأيام وقد بدأت فى أول الأمر مسائية مستقلة وصدرت عن مطبعة « ماكوركديل » الأجنبية . كما أصدرت دار الأيام أيضا The Morning news فى ١٩٥٣/٢/٢ لسد حاجة الأجانب بعد أن اختفت جريدة Sudan Star التى كانت تصـدرها شركة « متشـل كوتس » بمعاونة حكومة السـودان ، وقد حاربتا فكرة الاتحـاد أشد المحاربة .

ثم صدرت الأخبار أسبوعية تساند سياسة الأزهرى فى ١٩٥٥/٧/٣ ،

كما عرف السودان «العلم» كلسان حال الحزب الوطنى الاتحادي والتى تعتبر امتدادا لجريدة الأشقاء التى صدرت فى ١٩٤٨/٣/٢٢ ، والأمة لحزب الأمة ، والاستقلال لحزب الاستقلال الجمهورى ، والميدان للجبهة المعادية للاستعمار .

والى جانب هذه الصحافة القائمة على السياسة نرى هناك مجلة تربوية تسمى « الصبيان » تصـدر عن مكتب النشر ، ومجلة اقليمية تسمى « كردفان » وتقدم تصويرا صادقا للقطاعات هناك ، ومجلة «هنا أم درمان» تتحدث باسم الاذاعة السودانية ، ومجلة « القارعة » ذات اللون الدينى . كما صدرت مجلة باسم « الرياضة والسينما » ومجلة باسم « الشباب » .

وكذلك أصدرت « الحاجة كاشف » مجلة الثقافة الشهرية ثم توقفت عن الصدور ، والظاهرة العامة أن هذه المجلات والصحف كانت تحتفى

بالأدب ، وتسجل الكثير من ألوانه ، ولكن سوء المواصلات ، وقلة الجمهرة القارئة ، وبعثرة الجهود وفقا لتعدد الأحزاب ، وعدم الدراسة الفنية لمن يجب أن تتوجه اليه فى الحياة السودانية ، واعتماد بعض هذه المحاولات على الجهود الفردية . . كل ذلك كان يساعد على ضمور هذه المجلات ، وعلى انطفائها .

ومن هنا نستطيع القـول ـ باستثناء مجلة الفجر ـ ان كل هـذه المحاولات المتقدمة رغم صدقها لم تعمق الحياة الأدبية هناك ، وان كانت حفظت لنا وجه الحياة الثقافية فى هذه الفترة .

وقد كانت الطباعة فى أول أمرها بطريقة « جمع الحروف » ولكن ظهرت الى جانبها طريقة (المونوتيب ، واللينوتيب) .

ومع أنه ظهرت دور طباعة صغيرة مثل مطبعة المتمدن ، الا أن مطبعة مصر ـ احدى فروع مطابع بنك مصر ـ هى التى ترفد المكتبة هناك .

كما يعمل مكتب النشر على اصدار سلاسل للتعريف بالبلاد والمشاهير من رجالها بجانب اصداره مجلة « الصبيان » .

وقد قامت فى سنة ١٩٥٣ جماعة باسم التأليف والنشر ولكنها فشلت .

.. وقد عرف السودان الاذاعة فى ١/٤/٤٠ وكان المفروض أن تخدم قضايا الحرب الأخيرة وبدأت مرة واحدة فى الأسبوع ثم زيدت الى ثلاث قبل نهاية الشهر ، وفى سنة ١٩٤٢ باشرت عملها يوميا (١) .

وفى ١٩٤٨/١٢/٢٥ بدأ ركن السودان من الاذاعة المصرية .

---

(١) شخصيات من السودان ٢٥٧ وما بعدها .

المعاهد الدينية

(٦)

ظل التعليم فى البلاد سائرا بقوة الدفع القديمة وقد بلغ عدد « الخلاوى » فى نهاية سنة ١٩٣٣ ما يقرب من ١٥٠٠ خلوة تنتشر فى المدن والقـرى ، وتضم ما يقرب من ٦٠٫٠٠٠ طفل ، وقد أعانت الحكومة هذا النوع من التعليم ، وخصصت مكافآت « للفكى » فى نحو سبعمائة خلوة (١) .

ومع ان السـودان به عدة معـاهد ابتدائية ، وان المسجد قام بدور كبير فى احياء التعليم الدينى . الا أن معهد أم درمان ـ أزهر السودان ـ قد أدى دوره كاملا فى الحيـاة السودانية ، ومع أن الانجليز أرادوا به منافسة الأزهر ، وقطع الصلة على من يريد السفر الى مصر الا أنه سار فى طريقه مخلصـا لرسـالته وللأزهر نفسه . فقد أوفد الكثير من طلابه الى الأزهر ودار العلوم .

وقد انشىء المعهـد سـنة ١٩١٢ بخمسين طالبا ، وبلغ عدد طلابه عام ١٩٤٧ ستمائة وستة وأربعين طالبا ، وفى عام ١٩٥٢ بلغ عدد الطلبـة فيه ٨٤٤ طالبا ، وفى سنة ١٩٥٧ بلغ عدد الطلبة فيه ١٣٠٠ طالب .

وهو يضم ثلاثة أقسام الابتدائى ، وثانيهما القسم الثانوى ، وثالثهما القسم العالى ، ودور المعهد لا يقف عند حد تعليم السودانيين ، وانما يتعداه الى طلبة المسلمين فى أكثر من دولة فقـد بلغ عدد البعثـات فيه سـنة ١٩٥٧ ، ٦٥ طالبا من الصومال ، يوغندة ، السنغال ، المملكة السعودية ، المغرب الأقصى ،أثيوبيا ، السودان الغربى ، اريتريا (٢) .

وقد أسهم هـذا المعهد فى الحفـاظ على التراث الدينى ، والعربى فى البلاد ، وخرج كثيرا من الذين يعملون فى هذا الحقل فى السودان الا أن الضغط الأجنبى عليه لم يجعله يستطيع القيام برسالته كاملة كما لم تجعله يحدث تيار عربيا محافظا كهذا التيار الذى قام به الأزهر فى مصر .

---

(١) الايام ١٩٥٦/١/٣١ .

(٢) مجلة معهد أم درمان ديسمبر ١٩٥٧ .

النوادى العلمية والأدبية

(٧)

كان الناس فى أول أمرهم يلتفون حول رجل من الكبار ، فيسمرون عنـده ، ويستمعون منـه ومن هؤلاء الذين لهم دور فى تجميع الناس من حولهم الشيخان ابنا هاشم ، والدكتور السورى سليم عطيـة ، والشيخ ابراهيم تليب (١) .

ولكن بمرور الأيام ظهرت النوادى بمعناها المعروف . فعرف النـاس نادى خريجى المدارس الذى كان قبلة المتعلمين ، ومن أشهر المناظرات التى القيت فيه واحدثت مشادات أدبية فى مجلة الفجر تلك المناظرة التى ألقيت فى مساء ١٩٣٥/٣/٢٣ وقام فيها الاستاذ محمد أحمد محجوب يتكلم فى الجانب الذى يقول « الثقافة السودانية يجب أن تقوم بذاتها منفصلة عن الثقافة المصرية » لأنه رأى أن طبيعة الحياة والناس مختلفة فى السودان عنها فى مصر ، وانه ليست هناك ثقافة مصرية لأن هيكل كشاتوبريان ، وأناتول فرانس ، وسنت بيف ، وجورج صاند ، والعقاد والمازنى كالكتاب الألمان . أو مارك توين وهازلت أوماثيو آرنولد « انهم لايصدرون عن بلادهم .. والثقافة فى مصر لا زالت محاولة وفشلا » .

بينما دعا الصحفى المصرى حسن صبحى الى « قيام الثقافة السودانية مستندة على الثقافة المصرية (٢) . »

وقد كانت هـذه الصيحات تجد صداها فى الأوساط القارئة وبخاصة تلك الأوساط التى تعيش فى المدينة والتى تناصر مصر أو الحكم القائم

---

(١) السودان الجديد ١٩٤٦/٢/٢٢ .

(٢) الفجر فى ١٩٣٥/٤/١ .

فى البلاد باعتبار أن الدافع اليها دافع سياسى ومن ثم نرى هـذه القضايا الأدبية تتحول فى حدة الى قضايا سياسية .

وقد أقام شبان الجزيرة عام ١٩٣٩ سوقا للعلم والأدب والفن . ثم صارت هذه السوق موسمية فى كل عيد من أعياد القطر . فكانت تقام عكاظ أدبية سنة فى الخرطوم ، وسنة فى أم درمان وكانت تلقى فى هذا المهرجان القصائد ، والبحوث الأدبية ،والدوبيت ، وفى عام سنة ١٩٤٣ وزعت الجوائز على الشعر والتاريخ القومى والجنوب واللوحات والتصوير الفوتوغرافى والنحت (١) وقد أقبل الناس فترة كبيرة على « دار الثقافة » التى كان يسيطر عليها المحاضرون الانجليز ، ومن أهم المحاضرات التى ألقيت فيه محاضرة لرتشارد هل بعنوان مستقبل الثقافة فى السودان ذكر فيها ان الثقافة كلما بعدنا عن طيبة جنوبا ، وأن السودان يشبه بلاد المكسيك حيث توجد أقلية من الأسبان ـ تعادل العرب الذين غزوا السودان ـ آخذة فى الاندماج مع الهنود الوطنيين ، وأن من الخطأ أن يقال ان السودان عربى فى تكوينه العضوى ، وأنه اذا كان العربى له طابعه الذى لا يلائم بقاء الثقافة مزدهرة بين أغلبية عربية . فان الزنجى يمده بما يسد هـذا النقص لأن العربى ينقصه الاستقرار السياسى ، وأن العربية لم تتغلب على اللغات الا لأن هذه اللغات كانت هزيلة وأنه سيأتى الوقت الذى سيعبر فيه السودان عن عواطفه باللغة الانجليزية كأحد أبنائها .

ومن هـذه النوادى اجتماع بعض الشعراء فى مكتبة حسن بدرى بحيث يتبادلون الهجاء وان الشرط الوحيد لدخول هـذه الجمعية هو ان يهجو الراغب فى الدخول أحد أعضاء الجمعية .

ولقد كانت دار « فوز » ، التى كانت تحسن الغناء والسمر ، ناديا

---

(١) صوت السودان فى ١٩٤٣/١٠/٣ .

للسياسة والأدب وكان من رواده أعضاء جمعية الاتحاد وأكثرهم من الشعراء (1) .

وقد قامت جماعة الفكر سنة ١٩٥٤ .

كما قامت فى سنة ١٩٥٥ جماعة الأدب السودانى ، والندوة الأدبية بأم درمان .

ومن أشهر النوادى التى كان لها دور كبير فى السودان « النادى المصرى » فقد كانت تلقى فيه المحاضرات ، وتصدر عنه مجلة مسماه باسمه .

وكذلك قام ناد باسم لبنان وسوريا .

وهكذا عملت هذه المنتديات فى ظل ظروف مشددة مرت بالبلاد ومن هنا لم نر لها أثرا حاسما فى قضايا الفكر والأدب .

---

(1) الحياة ١٩٥٧ .

الحياة الاجتماعية

(١)

الحياة الاجتماعية فى ظل الحكم الانجليزى من حيث الصحة والمرض والفقر والغنى

ترك الانجليز المجتمع فى تطـوره البطىء الذى لا يكاد يذكر . فلم يحدثوا فيه هزة ضخمة تزلزل كيانه وتغير مفاهيمه أو تعمقها رغبة منهم فى الحفاظ عليه فى ظروفه الراهنة . حتى لا يصحو فينادى بحقوقه .

ولكنهم فى الوقت نفسه شددوا على ظروفه الصحية فأقاموا المستشفيات، وفرضوا رقابة على المنـازل والحوانيت ، وأنشأوا أسواقا مجمعة حتى تكون خاضعة لرقابتهم بتوسيع المنازل ، وزراعة حدائق من حولها بأنواع من النباتات لها قدرة على امتصاص المياه الزائدة ومراعاة التفتيش الصحى الدقيق بين المناطق التى يكثر فيها نوع من الأمراض ، والدقة المتناهية فى التفتيش الصحى على الوافدين على البلاد وتطعيمهم ان لم يكونوا قـد طعموا فى بلادهم .

ولكن المحافظة على النواحى الصحية حينما نراها تتعلق بأموال تنفقها الدولة نراها تنكمش وبذلك نرى ان نظام المجارى لم يطبق فى البلاد على عهـدهم . وما أشـد ما تمتهن الانسانية حينما يخرج جيش ضخم من المواطنين فى المساء لجمع الجرادل ووضعها فى عربات تسير فى بطء وتنشر روائحها الكريهة كل مساء .

وقد مثل الانجليز فى البلاد بحكم مناصبهم الرئيسية فى كل الأجهزة الحكومية طبقة ثرية تعد لها المنازل « المكيفة » والغاصة بأساليب الحياة الحديثة على حساب الشعب الفقير . كما ان لهم من نواديهـم والأماكن الخاصة بهم ما جعلهم طبقة مترفة مميزة عن الشعب .

وفى الوقت نفســه أطلقت أيدى بعض كبـار القادة فى المجتمع حتى

تضمن ولاءهم وولاء انصــارهم فسمحت للســيد عبد الرحمن المهــدى باستصلاح جزيرة « أبا » ، ولم تتعرض لأمثال هؤلاء الزعماء بقصد خلق طبقة ارستقراطية تعمــل على كبت الشعور الوطنى ، والرغبات الملحة فى الحياة الكريمة بينما تركوا أكثر الشعب يباشر حياته القاسية ، ويعيش على الزراعة الموســمية ، وعلى الرعى . فقد وضعت الحكومة يدها على أكثر الأراضى خاصة تلك الأراضى التى تقع بعيدا عن مجارى الأنهار ، وحينما تولت مشروع الجزيرة لم تكافىء ملاك الأراضى بالعدالة ، بينما عوضتهم . تعويضا اسميا حيث أجرت الفدان بعشرة قروش فى العام باعتبار أن ذلك حيازة وليس ملكية (١) .

ولما كان المجتمع النسائى لا يسهم مساهمة فعالة ، فى هذا النوع من الحياة . نرى الحكومة تسهل دخول العمال الافريقيين من غرب ووسط القارة . مما ترتب عليه انخفاض مستوى المعيشة لدى المزارعين السودانيين

على أنه قد ظهر نوع من العمــل الآلى : الأول قامت به الشركات الأوروبية مثل مشروع شركة أقطان كسلا والجزيرة ، والثانى قام به بعض السودانيين عن طريق تمويل الشركات والبنوك لهم ، وفى كلا الحالين كان هذا على حساب المواطن البسيط فى السودان .

ثم من وراء ذلك كانت عمليــات التسويق ، والتصدير ، والاستيراد مرتبطة بالسياسة البريطانية .

أما التصنيع فلم تشجعه الحكومة ما عدا ما كان يمول برأس مال أجنبى وكان سطحيا لا يمس الأعمــاق الاجتماعية الراكدة فى البلاد ، ومن هنا أنشئت مصانع برأس مال أجنبى مثل مصنع اللحوم ، والبيرة ، والسجائر وقد لوحظ فيها أن تكون من النوع الاستهلاكى حتى تستطيع من خلاله امتصاص المدخرات فى الداخل .

---

(١) مشكلات المجتمع السودانى ـ محاضرات .

ورغم أن الانجليز ربطوا اقتصاديات البــلاد واستثماراتها بحاجتهم وحاجة الظـروف التى تمر بهم كالحرب الا أن هــذا لم يمنع من ظهور النقابات المهنية والمنظمات العمالية . ولكن فى صورة هزيلة بحيث لم تؤثر على مقدرات البلاد .

والحقيقة التى تستخلص من هذا أن الانجليز تمتعوا بثروات البلاد ، واســتخدموها لأغراضــهم ، وتنمية مواردهم ، وسمحوا بخلق طبقــة ارستقراطية لتكون درعا من دونهم . ثم تركت الشعب فقيرا مشغولا بقوت يومه .

مدى تأثر السودان بالمدنية الغربية
فى أساليبه المعيشية وشئون الحياة ، وفى العادات
والتقاليد . . فى القبيلة والمدينة والريف

(٢)

لقد زاد التأثر فى هذه الفترة بالمدنية الغربيـــة فازداد عدد القطاعات التى قسمت وجبات الطعام الى ثلاث ، وفى مواعيد ثابتة ، ودخلت أطعمة جديدة ، وأساليب حديثة للطهى واهتمام بحفلات الشاى ، والكوكتيل ، وسباق الخيل ، ولعب الورق ، ومباشرة الألعــاب الرياضية والاحتفال بالأعياد الأوروبية كالكريسماس .

ولبس الكثيرون المــلابس الأوروبية ، وقلدوا الأوروبيين فى حلق اللحى والشارب ، واتخاذ القبعة وتدخين « البايب » كما حدثت تغيرات فى الفن المعمارى ، وفى خلق وظائف للحجرات ، وفى دخول أساليب الحياة الحديثة فى المنازل كالثلاجات والمراوح ، وكل ما يمكن أن يؤدى وظيفة فى المنزل عن طريق الكهرباء .

وقد دخلت كلمات انجليزية كثيرة فى حديث المواطنين ، بحيث أصبحت تعد زخرفة لكل حديث يلقى .

على أن الانجليز فى بعض الأحيــــان كانوا يفرضون أساليبهم على المواطنين . ومن هــذه الأساليب التى فرضوها « الســير على الشمال » وتصميم العربات بحيث تخدم هذا الغرض ، ولا شك أن هذه عملية ناشئة عن الســلوك التاريخى للبريطانيين ، فقد كان الرجل يمشى فى الشــارع

ويده على سيفه استعدادا للدفاع ، وحين يكون على الشمال يكون أقدر على استعمال السيف (١) .

وقد ظهرت آراء جديدة لتغيير بعض المعـايير السائدة فى السودان ومن هـذا الدعوة الى مساواة المرأة للرجل ، واحترامهـا ، وسفورها ، والتخلى عن الرهط ـ وهو تقليد عربى عبارة عن نقبة من جلد أحمر له سيور تلبسه الفتيات حتى يتزوجن فيقطع بيد العريس ـ وهو عام فى السودان ما عدا البقارة ـ والكنفوس ـ وهو يشبه الرهط من الأسفل والسروال من الأعلى ـ والقرباب ـ وهو عادة مصرية قديمة يشبه سارى الهنـود .

وكذلك النهى عن عمليات التشويه فى بعض أعضاء المرأة كالتشليخ ، والوشم ، والختان الفرعونى .

كما دعوا الى ترك عادة ضفر الشعر فى خيوط رفيعة ، والى ترك العادات والتقاليد البالية كالاحتكام الى الجماد والنبـات ، والاعتقـاد فى تأثير الأرواح ، وعمليات التطير والتفاؤل « وتفسـير أصول الأشياء ونشأتها على أساس الوهم والخرافة ، وكالتأثر بعقائد قديمة كانت قبـل دخول الاسلام ونحو ذلك » (٢) على أن هذا الوعى قد خالطه وعى دينى فقـد جعلت جماعة أنصار السنة التى قامت سنة ١٩٣٩ من مبادئها . القضاء على الخرافات والتقاليد والرجعية ، ودعا بعض رجال الدين الى القضـاء على الكثير من هذه المعتقدات مثل عدم تنـاول قلب الذبيحـة فى الطعام ، والاعتقاد فى المشاهرة ، وفى تبتيك آذان الأنعام ، والتشليخ ، والتشاؤم من صفر ، ويوم الأحد ، والزار ، وحساب النجم ، وتغيير اسم الطفـل

---

(١) مشكلات المجتمع السودانى (محاضرات) .

(٢) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ١٥٨ ـ ١٦٠ ، واعداد مجلة النهضة السودانية لعامى ١٩٣١ ، ١٩٣٢ ، الوثبة النسائية لصلاح الدين كرم الله ٤ ـ ١٠ .

خوفا عليه (١) على أن أساليب الحيـاة الحديثـة لم تجـد صداها الا فى المدن . فبينما ظلت عمليات الكرم وتقديم « المرارة » اشعارا للضيف بأنه قد ذبح له ، ودعوة المضيف الى المنازل . أو « المضافات » التى تبنى لهذا الغرض موجودة فى الريف نرى أن هذه العادات وأمثالها قد كادت تختفى من المدينـة .

فالمدينة سارعت الى اعتناق المدنية الحديثة ، وعملت فى الكثـير من أمورها على الاندماج فى هذه الحياة الجديدة الوافدة عليهـا على أن هناك نوعا آخر من التغير الاجتماعى قد لحق الريف والقبيلة .

ولنأخذ مثلا صلة الناس بشيخ القبيلة أو ناظرها أو « الملك » كمـا يدعى أحيانا . فقد أصبح الناس لاينظرون اليه كهيئة عليا كما كان عليه الأمر سابقا . لأنهم يحسون بشبح الحكومة ، لأنها هى التى تنصبهم وهى التى تأمر بتنحيتهم ، وفى الوقت نفسـه أصبحت التقـاليد المتعـارفة فى القبيلة والريف متجاهلة لأن أنظمة الحكومة هى التى تنفذ بدقة وصرامة .

ومن هنا يتضح أن التحول العام فى التنظيم السياسى أثر على الخلافات القانونية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية فى القرى والمدن السودانية تأثيرا كبيرا . وهذا التحول أقل وضوحا فى القرى منه فى المدن ، وهو فى المدن نفسها يسير بخطى وئيدة نظرا لفقر الامكانيات المادية والفكرية ؛ ولأن المجتمع السودانى فى مرحلة انتقال تستلزم كثيرا من الجهد ، وكثيرا من العمل والانتاج حتى يخرج من هذا الجمود الاجتماعى (٢) .

---

(١) شخصيات من السودان ليحيى محمد عبد القادر ٩٣/١ ، وارشاد البدوى للدين النبوى للشيخ الزبير المحمود الزاكى ٣١ - ٤٧ .

(٢) مشكلات المجتمع السودانى - محاضرات .

خصائص المجتمع السودانى ومميزاته
فى تلك الحقبة

(٣)

ظل المجتمع السودانى فى هذه الفترة محافظا على قيمه وتقاليده الخالدة . فكل الأشياء التى طرأت عليه كانت قشرية لم تمس أعماق سودانيته .

فالسودانى محب للحرية ، معتز بنفسه وبيلاده ، طبيعى يتبع فطرته فى أموره .

والمجتمع السودانى غير مفتوح على مصراعيه للغرباء فهم يتوجسون خيفة من كل غريب ، وينفعلون بكل كلمة يقولها ، ويميلون بها الى الجانب السىء من حياتهم . ومن هنا لم ينفعلوا بالحكم التركى أو الحكم الانجليزى ولم يندمجوا فى كلا الحكمين ومن اندمج منهم فبلسانه ومظهره

ولعل هذا هو الذى يشعرهم بالغربة خارج بلادهم . فما يكاد الرجل يغترب عن السودان أو ينقل الى مكان بعيد فيه حتى يتصبب عاطفة وتشوقا . فهم انطوائيون على أنفسهم وعلى تقاليدهم . فاذا أطلوا على الحياة فبقدر . أما حياتهم الحقيقية فهى داخل أنفسهم وانك لتقابل الواحد منهم فى أى مكان فى العالم فلا تخطئك سودانيته لأنه يحمل بلاده معه فى لغته ، وفى تفكيره ، وفى تأثيراته .

فكل فرد فى السودان الآن تستطيع أن تحكم به على البلاد ، وعلى سياستها ، وظروف حياتها ، فكما أنه يحب بعنف وحدة ، نراه يكره بعنف وحدة ، وبهذا اللون من الحياة تصطبغ سياسته ، فمن يحب منهم مصر يحبها الى حد العبادة ، ومن يحب الانجليز يصعد بهم الى قمة التقدير

وبهذا المقياس النفسى كانت ترتفع أسهم المصريين وكذلك الانجليز ثم تنخفض . على أن هذه الحساسية الدقيقة قد أزعجت كلتا الدولتين .

فقد كانت تمر فترات تستطيع أن تؤكد فيهـا أن الاتحاد مع مصر يستطيع أن يتم فى ساعات وتأتى فترات تبصر فيها أن السودان بعيد جدا عن مصر ، وعن الانجليز .

وقد انتفع السودانيون من هذه الطاقة فعملوا لتحرير أنفسهم تماما بعد استعمار طال مداه ذلك لأن الرأى العـام هنـاك كان يمكن التأثير عليه ولكن أصالة جذور الحرية الضاربة فى الأعماق السودانية كانت دائما تنتصب ، وتدل الشعب على الطريق . حتى ليمكن القول انه شعب يسير بفطرته ، والفطرة لا تكذب وانك لتجد الحياة فيه بسيطة غير متكلفـة . فالسودانى واضح كالضوء فى بلاده ، صريح كالحياة من حوله . حساس الى حد الاحساس بدبيب ما يدور حوله .

وانه ليشبه فى « حلاله » وأطرافه هؤلاء البدو الذين عرفناهم شعرا . وأدبا ، وأصبحنا نفخر بأنا نمتد اليهم ونتصل بهم .

المرأة السودانية الحديثة

(٤)

المرأة فى السودان ما زالت متخلفة الى حد كبير . فما زال المجتمع عاطلا من خدماتها الفعلية ما عدا القليل جدا من فتيات هذا الجيل

وما دمنا نتكلم عن العمل فيجب أن نستثنى المرأة فى غرب السودان لأنها تقوم هناك بدور فى الحياة يتفوق على دور الرجل . فهناك المرأة الراعية ، والمرأة الزراعية ، والمرأة التى تبنى المنزل « قطية » وحدها أو بمساعدة زوجها . كل هذا الى جانب قيامها بأعمالها المنزلية على أكمل وجه « وهنا تبرز حقيقة واقعية يعرفها الجميع وهى أن الرجل فى أغلب جهات الغرب يعتمد اعتمادا كليا على ما تبذله المرأة من مجهودات فى مساعدته فى عمله اليومى الذى يكسب منه رزقه وأذهب الى أبعد من ذلك ولا أكون مغاليا اذا قلت أن المرأة هناك تعمل عملا متصلا يفوق عمل الرجل . (١) .. »

واذا استثنينا المرأة فى الغرب نجد ان باقى النساء خاملات تفرض الحياة عليهن هذه الحياة القاسية ، كما تضع بعض الأشواك فى طريقهن مثل الخفاض الفرعونى ، والتشليخ ، والتغالى فى المهور الى حد يصرف الشبان عنهن .

وقد قمن بعدة تشكيلات قاصرة على نواحى الاصلاح .

فقامت فى سنة ١٩٤٦ رابطة النساء السودانيات كنواة أولى للحركة النسائية السودانية . وتمكنت هذه الرابطة من فتح مدرسة ليلية لمحو الأمية ، ومدرسة أولية فى الصباح للأطفال ، كما أسست مكتبة ، وأقامت

---

(١) الوثبة النسائية الكبرى ٥٠ .

سوقا خيرية ، ونظمت بعض المحاضرات ثم انحلت هذه الرابطة سنة ١٩٤٨ وفى عام ١٩٤٨ قامت حركة المرشدات بعد عدة تنظيمات سابقة وقد دعت اليها البريطانيات فى السودان ، وقد بلغ عدد المرشدات عام ١٩٥٢ حدا وصل الى ٨٠٠ مرشدة فى الخرطوم ، وأم درمان ، والخـرطوم بحرى ، وعطبرة ، وحلفا ، وجوبا ، وفى العام نفسه سافرت مرشدتان سودانيتان لتمثلا البـلاد فى المهرجان الدولى للمرشدات بيكنجهام ، وفى عام ١٩٥٣ ذهب وفد مكون من ست سودانيات لحضور حفل تتويج ملكة انجلترا ، ثم قضين مدة تدريب فى شمال وجنـوب انجلترا ، وفى سنة ١٩٤٨ قامت نقابة للمرضات بالسودان لأول مرة

وفى سنة ١٩٤٩ قام اتحاد المدرسات ، وأنشأت نساء « آل المهدى » جمعية ترقية المرأة .

وفى سنة ١٩٥١ تحول اتحاد المدرسات الى نقابة ، وفى نفس السنة تكونت جمعية المرأة بالأبيض ، وأنشأت فرعا لها بالفاشر

وفى عام ١٩٥٢ تكون الاتحاد النسائى ، وأنشأ فروعا له فى عطبرة ، وسنار ، وواد مدنى ، وحلفا ، خرطوم بحرى ، ومريدى ، وشندى ، قلع النحل ومن أبرز الأعمال التى قام بها دعوته الى أسبوع المرأة عام ١٩٥٦ ومساندة الحكومة له

كما تكونت عام ١٩٥٢ جمعية النهضة النسوية بالخرطوم ثم انحلت بعد عام ، وأنشئت شعبة الهلال الأحمر الخيرية للهلال الأحمر المصرى بالقاهرة

وفى سنة ١٩٥٣ تكونت جمعية الثقافة النسـوية تحت اشراف بعض المدرسات البريطانيات على أن هذه الجمعيات لم تقم بدور ايجابى فى الحياة السودانية لابتعادها عن المجالات السياسية ، وانحصارها فى عدد قليل من المدن ، وتمركز القيادة فى أيدى بعض المتعلمات اللاتى لا يحسسن

احساسا مباشرا بواقع المرأة السودانية (١) .

ومهما يكن من شيء فقد نزل عدد من السودانيات الى ميادين الحياة . فظهرت فى ميدان الصحافة الآنسة « تكوى سركسيان » التى أنشأت مجلة باسم « بنت الوادى » ثم تعطلت عن الصدور بسبب العاصفة التى قوبلت بها . ثم أخرجت الآنسة فاطمة أحمد ابراهيم مجلة « صوت المرأة» الشهرية بمعاونة ست فتيات . وقد ذكرت أن هدف المجلة أن «تدفع عن المرأة وتعمل على تقدمها وانصافها واستخلاص حقوقها وتبصيرها بواجبها »

ثم أصدرت الآنسة سعاد الفاتح مجلة باسم « المنار » وجاء فى شعارها انها تطالب بحقوق المرأة والدفاع عنها والعمل على تقدمها

قد ظهر منهن مؤلفات كفاطمة سعد الدين صاحبة كتاب « السعادة الحقة » الذى يعالج قضايا الأسرة السودانية

ومنهن شاعرات كبنت البرارى ، وعلوية السيد ، وأسماء ، ومنهن قصصيات كخديجة صفوت التى شاركت فىحقل القصة فىالسودان ومصر ، كما رأيناهن فى الاذاعة يقدمن المواد النسائية ، ويشتركن فى التمثيليات ، ويغنين .

---

(١) الايام ١٩٥٦/١/٣١ مقال لفاطمة أحمد ابراهيم ، الوثبة النسائية ٧٤ — ٩٠ .

الفصل الثـانى

الشعـر

فى هذه الفترة

- أغراضه
- الفاظه
- معانيه وأخيلته
- تأثره بالادب المصرى
- خصائصه الفنية

أغراضه

الشعر السياسى

تعتبر هذه الفترة من أخصب الفترات الشعرية التى مرت بالبلاد ذلك لأن آمال الشعب قد تحددت ، وطاقاته قد تحفزت لتطل على حياة جديدة ، ولتكسب أرضا جديدة .. أرض الحرية

وقد تعرض الشعر السياسى فى هذه الفترة للصراع الضخم المتشابك بين الانجليز ، والمصريين ، والسودانيين

١ — الشعر والانجليز

(ا) حينما دحر الانجليز الشعور الوطنى عام ١٩٢٤ ، ووضعوا أيديهم بعنف على مقدرات الأمور . رأينا نموا فى علاقات بعض السودانيين بالانجليز ، ورغبة أكيدة فى السير فى ركابهم ، ومن ثم رأينا بعضهم يترجم عن شعور هذه الفئة بقوله « قد يؤثر الحاكم العادل الصادر من الجنس الذى ليس من أهلك ولا دينه دينك تأثيرا قويا يجبرك على الاقرار بأنه خير من جنسك ، وكثيرا ما يصدر هذا القول من الناس عندما ينصفون فاذا سلمت لى بما قلت وجب عليك أن تحب حكومتك العادلة حبا عظيما » (١)

ورأينا نفس الجريدة تندد بحركة اللواء الأبيض ، وتراها محاولة خطرة وحركة صبيانية ، ومأساة محزنة (٢) .

ولقد كانت هذه الروح امتدادا لتلك الروح التى سادت اجتماع يونيو ١٩٢٤ هذا الاجتماع الذى كان الحلقة الأخيرة فى دفع الثورة الى الظهور ، والذى نودى فيه باختيار الانجليز أوصياء على الشعب السودانى

---

(١) حضارة السودان ١٩٢٥/٢/٢١ .

(٢) المصدر نفسه فى ١٩٢٥/٤/١١ .

لتدريبه على حكم نفسه بنفسه [1]

ومن ثم رأينا بعض الشعراء يعجبون بالانجليز ، ويظاهرونهم على بلادهم .

فالشريف محمد أحمد عبد الرحمن يقول فى الحاكم العام :

أنل الشعب هناء وسرورا   واملأ القطر نعيما وحبورا
واقض بين الناس ما شئت تجد   شعبك المخلص للنعمى شكورا
وارفع الرايات للعدل على   أفق قطر ظل بالعدل فخورا
وارض بالاخلاص منا ثمنا   فلكم كنت به منا جديرا
رجل الاصلاح صلها سبلا   وكن المرشد فينا والأميرا [2]

وحين عبر طلبة كلية « غردون » عن رغبتهم فى الحرية بالاضراب رأينا الشاعر ابراهيم محمد عبد العاطى يتحامل على الطلبة ، ويمجد الحاكم العام :

فكم أسدت حكومتكم عليكم   مبرات وكم بذلت جهودا
وهذا حاكم السودان فيكم   يقلد جيد شعبكم فريدا
سبرناه فألفيناه برا   وبالاحسان متصفا حميدا
وكان زمانه عدلا ويمنا   وخيرات ، ورحمات ، وعيدا
وأنت عميد أهل الفضل فاصفح   وكن لشباب نهضتنا عميدا
وملتمسا لذلتهم سبيلا   جعلت لكل منحرف رشيدا [3]

وهذا حامد أحمد يقول فى الحاكم العام :

دعونى أرمق الآمال فيه   فهذا الركب بالأمل استقلا
أيا « جوفرى أرثر » ته دلالا   وعش ما عشت للسودان مولى [4]

---

(١) صوت السودان ١٩٤٦/٩/٢٢ .
(٢) السودان ١٩٣٧/٤/٢٠ .
(٣) ديوان الراووق ٧٢ ، ٧٣ .
(٤) حضارة السودان ١٩٢٥/١١/٨ .

وهذا « ابن السودان » ينسب كل فضيلة الى « السير جيمس كرى (١) .

كأن ربك أوصاهم بأمته وخصهم بالرضا عن كل انسان

وقد شاعت نغمة اكبار انجلترا ، والاعتراف بسيادتها فى شعر الكثيرين ومن هؤلاء على نور الذى يقول :

قوم على أخلاقهم قامت أواصرهم متينه
ولهم على كل المما لك أن تكون لهم رهينه
وبكل بحر زاخر ما يملكون به متونه
جعلوا شعارهم هزبرا أغلبا يحمى عرينه
ولو انهم جعلوه ثورا وهو أجدر أن يكونه
قلنا الخرافة صدقت فالأرض حملها قرونه (٢)

وقد بارى بهم أحمد محمد صالح كرام قومه :

كرام « انجلترا » باروا بسعيهم كرام قومى ونسل العرب من يمن
فهل رأيت تثارا قبل مؤتلفا من لندن ومن الخرطوم مع عدن(٣)

وأشاد بهم حين انتصروا فى الحرب الأخيرة على الألمان مؤملا انصاف بلاده :

الصليب المعقوف قد لمس التر ب وسوى مع الثرى جباره
تلك عقبى الطغيان يا صاحب الحول وهذا بواره وخساره
قل لشعب يقيم فى ضفة « التمز » منيع الذرا كريم نجاره
قد بلوتم صنيعنا يوم خضنا معكم قسطلا شديدا أواره

---

(١) حضارة السودان ١٩٢٥/١٢/٣٠ .
(٢) مجموعة لم تطبع للشاعر .
(٣) صوت السودان ١٩٤٣/٥/٢٣ .

وانتصرتم على العدا فأرونا كيف لا يبطر الكريم انتصاره (١)

ولعل أقوى تلك القصائد قصيدة عبد الرحمن شوقى بمناسبة الحرب تلك القصيدة التى أعطى فيها الانجليز حق سلب الشعوب واغتيالها :

ملكتم جميع الأرض شرقا ومغربا فطوعا وكرها كل شىء لكم يجبى
وكنتم لهذا الكون شمسا منيرة وقطبا لهذى الأرض ان ضلت القطبا
فأى بحار لم تجبها سفينكم وأى سماء ما وثبتم بها وثبا ؟
وأى بلاد لم تطأها رجالكم ولم يصبحوا فى جسمها الرأس والقلبا
وفى الغرب أم فى الشرق أرض وما بها لكم مخلص اما دعوتم له لبى ؟
وفى البر أم فى البحر لم تعلموا بما يدبر من أمر ، وبالنمل ان دبا
أتشرق هذى الشمس فى غير ملككم وتغرب عن ملك ملا الشرق والغربا ؟
لعمرى هذا الملك حقا أقامه لكم مالك الملك الذى فلق الحبا
فجودوا على الوادى بفضل ونعمة فبعض شعوب الأرض لما تزل غضبى
ولا ترهقوا أبناء ذا الوادى انكم تسوسوننا صدا نبادله حبا (٢)

وهذا شاعر يقول فى ذكرى « الملك طنبل أحمد » :

بيتك السادر فى حرز حريز فهو يرعاه كرام الانجليز
قد أجازونا كما كنت تجيز لم تزل أنت على الناس عزيز (٣)

(ب) وقد رأينا أكثر الشعراء يتفقون مع بلادهم ضد الانجليز ، ويحاولون دائما كشف نواياهم ، ويبذرون دائما فى قلوب الشعب بذور كراهيتهم وهكذا نرى مدح الانجليز وذمهم كمدح المصريين وذمهم يسير فى أكثر الأحيان وفقا للظروف السياسية المستقبلة ، فالشعراء السودانيون عاطفيون يغلب عليهم الانتقال السريع بين الشىء ونقيضه ، وهكذا أعطتنا

---

(١) مجموعة شعره .

(٢) صوت السودان ١٩٤٥/٥/١ .

(٣) ديوان الطبيعة لحمزه الملك طنبل ٧٩ .

هذه الفترة الزمنية القلقة شعرا مهتزا لا يصدر عن فلسفة سياسية ثابتة فهذا الشريف محمد أحمد عبد الرحمن يقول معرضا بهم فى الحرب :

سئمنا الوعود الخاليات وغدرهم ... وخبث مساعيهم وسود المزاعم
وكنا لهم درعا غداة تقهقروا ... يطاردهم جيش العدو المهاجم
وثرنا على الطليان فى غير أرضنا ... ونحن رجال الحرب عند التصادم
فلا تأمنوا للغاصبين فانما ... سموم الأفاعى فى جلود الأراقم (١)

وقريب من هذا قول محى الدين صابر :

أنحن فى كل حرب مرة سند ... للعاجزين يد والحرب هوجاء
فى(طبرق) دمنا يشكو وفى (كون) ... وفى الصحارى حشاشات وأحناء(٢)

وهذا الشاعر حسن طه يعرض بحزب « الأمة » ويتدفق غضبا على الانجليز وعلى سياستهم فى البلاد :

صرتم ضحايا أمانى الانجليز فهل ... قدمتم الشعب للعزى قرابينا
الانجليز عرفناهم ونعرفكم ... كالذئب غدرا وكالحرباء تلوينا
قد قسمونا كما شاءت ارادتهم ... وفرقونا فلم تعمر مغانينا
لئن شكونا لهم فصل الجنوب رأوا ... أن ينشبوا رهبا أظفارهم فينا
وان رأونا نصلى فى الجنوب على ... مرأى من الناس .. ويل للمصلينا
أو قلدونا وساما كان قصدهم ... أن نستكين وأن نحنى نواصينا
وان أفاءوا علينا من مناصبهم ... قد سخرونا على ويلات أهلينا
ولا يفكون أغلالا بأرجلنا ... الا اذا أحكموا تقييد أيدينا (٣)

وهذا شاعر يصور طغيان الحاكم العام :

طغى فأعد للأحرار سجنا ... وصير أرضنا سجنا مشاعا
هما سجنان يتفقان معنى ... ويختلفان ضيقا واتساعا (٤)

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) صوت السودان ١٩٤٧/١٠/١٦ .
(٤) لحظات باقية لادريس محمد جماع ١٣ .

وقد ثار الشاعر عزيز التوم منصور على تمثال كتشنر بالخرطوم — هذا التمثال الذى يمتطى فيه حصانه — فقال :

ترجل أنا ها هنـــا السـيد ترجل فقـــد أزف المـوعد
وهات الحساب حساب السنين فان الجمـوع غدا تحشـــد
ترجل وسر فى زحام العبيـد الى ســاحة عنـــدها تجلد
وتجـدع أنفـك فوق الرغام وتقطع فيما اقترفت اليـــد

* * *

أتيت مع الفـــاتحين الغـزاة كثير الســلاح رهيب العـدد
بسطت القضيب وسقت الحديد الى غاية الخـائف المرتعـــد
ولاقاك فى (كررى(١)) الدافعون يموجـــون فى حـلل من زرد
ترجل أحاسبك أين الشيوخ ؟ وأين النســاء ؟ وأين الولد ؟

* * *

ذعــرت فأطلقت نــار الجحيم وأطلقت من شفتيـــك الزبد
تدمدم باســم التى أرسـلتك وتلك التى نفثت فى العقـــد
ترجل فســـتون عاما مضت وأنت لأعيننــــا كالرمـــد
أرى الله قد وعد الصـــابرين وقد صـــدق الله فيما وعـــد

* * *

تلفت ترى النيـــل طافت به جحافل من شعبه الواحـــد
تســـــيرها عزمة المغضبين وتدفعها رغبـــة الواجـد
تزيل عن النيـــل عار السنين وتكشف عن مجـــده الخالد
وقد أقسمت بالالـه العظيـم وســاعد كل على الســاعد

* * *

تطل على النيـــل فى جـرأة كأنك مرســـــله المنعـــم
كأنك فجــــرت ينبـوعه أو انك حارســـه القيـــم

---

(١) موقعة كررى .

ترجـل والا جـــرى مخنقا ‏ وســال على شاطئيه الــدم
فما ألف الذل عبر الدهـــور ‏ ولا هــزه الأرقــم المعـــلم
ولكنه فيلســـوف الزمان ‏ اذا غيظ فى عـــزة يكظم (١)

ونرى جعفر حامد بشير يغضب لبــلاده ويرد على « السير روبر » فيقـــول : (٢)

مننت علينا « بالرفافة والغنى » ‏ وبالعلم والعمـران ما أعظم المنى
وأردفت أنا قد رفعنــا بلادكم ‏ الى المستوى الأعلى وكانت من الأدنى
تردد معنى من « كرومر » خالدا ‏ فكم قال فى مصر كمـا قلت ممتنا
تقول « تقدمتم كثيرا بعهـدنا » ‏ ونحن نرى أنا كثيرا تأخـرنا
بذرتم بذور الخلف فينا فأصبحت ‏ يسار الذى يدعو تخالفـه اليمنى
طوائف فى طول البـلاد وعرضها ‏ اذا التحمت عشتم ولكننا متنـا
وحاربتمونا فى خصـال كريمـة ‏ غنينا بها دهرا وكانت لنا حصـنا
وقلت «شباب أدمن الخمر ماجن» ‏ فياليت شعرى هل بتحليلها جئنا ؟
وقلت « شيوعيون » حين رأيتهم ‏ شياطين لم يغلق على فهمهم معنى
«أروبر» طف فى ساحة الشعب مرة ‏ وعاين تر الاملاق والسقم والغبنا

كما نراه يشيد بمقال الاستاذ أحمد مختـار الذى دعا فيه الى رفع تمثالى غردون وكتشنر ويحمل على الذين يسيرون فى ركاب الانجليز :

ان الحجـارة ما زالت منصـبة ‏ فاحمل عليها بسيل منك منجرف
القوم ما زال فينا من يهيم بهم ‏ شر الهيــام على جهر وفى شغف
ودوا لو ان العيــون الزرق باقية ‏ تبدو اليهم وتبـدى فاتن الوطف
لا برد الله حـــرا فى جوانبهـم ‏ من حب ليلى ولو عاشوا الى الخرف (٣)

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) ألقيت فى نادى « الروتارى » .
(٣) فساد يصيب العقل .

كما نراه يحمل على أحد أعضاء « الجمعية التشريعية » الذى تقدم باقتراح يطلب فيه زيادة مرتبات الانجليز :

أتشكر من همو بالذم أحرى ... وتمدح من مديحهم معيب
عميت عن الجياع وعن عراة ... وعن مرضى يعزلهم طبيب
تحس ان حولك كل روح ... لها مما تكابده نحيب (١)

وقد حمل بعض الشعراء على النظم الدستورية التى أراد بها الانجليز تخدير قوى الشعب فهذا الطيب محمد خير يقول فى المنظمات الدستورية :

لقد سئم الشعب المجاهد دولة ... أذاقته طعم الجهل والفقر والقيد
وخمسون عاما نصف شعب مشرد ... ونصف مع الأنعام يحيا على الكد
وجاءوا بحزب كى يدعم حكمهم ... وأسموه حزب الخير واليمن والسعد
ألا قاطعوا لا نظم الله عقدها ... مجالس للتشريع واهية العقد
مجالس يقتاد الدخيل ذمامها ... فتنفاد حيرى لا تعيد ولا تبدى (٢)

وهذا أبو طراف النميرى يقول فى هذا المجال قصيدة حوكم بسببها بالمادة ١٠٥ من قانون العقوبات :

يا مجلسا فرض الطغيان شرعته ... بينى وبينك لا قربى ولا نسب
ماذا تمثل غير الظلم تسندكم ... تلك الأسنة والأصنام والخشب
صوغوا السلاسل والأغلال جائرة ... فى مجلس سادهالضوضاء والصخب
بئس اللوائح دستور دعائمه ... هذهالرياح وذاك المنطق الكذب (٣)

وقد ذكر أعضاءه جعفر حامد بشير فى قوله :

قد أجلسوا الأخشاب فى الكراسى
رمزا الى النفاق والافلاس

---

(١) ديوان حرية وجمال ٤٩ و ٣٣ و ٣٤ .

(٢) مجموعة من شعره .

(٣) ديوان الينابيع ٢٢ ، ٢٣ .

من كل وســواس لهم خنـــاس
وكل قـــرد ينتمى للنـــــاس
مجـرد من نعمـــة الاحســاس
ما أشبه الأنجــاس بالأنجـــاس

كما قال :

لن نستجيب الى الدســاتير التى صنع الدخيـل خيوطها والمغزلا

ويسخر بهذه الفئة فيقول :

أدخلوا البرلمان لا ترفعــوا الرأ س خشــوعا ولا تقـول حدادا
واسمعوادرس«هاو»[1] يلقى عليكم احفظوه وقدســوا الأســـيادا

كما نراه يقول :

لا نـــرعوى بأباطيـــل ملفقة فيها علالات أطفـــال وصبيان
المجلس الآفل « الشورى » حدثنا بأنه « وأبا التشريع » ســيان
فذاك أسفر عن ضعف ومهــزلة وذا سيسفر عن عار ونقصان [2]

ونرى الشاعر حسن عزت يقول فى المظاهرة التى قامت فى « الأبيض » احتجاجا على المجلس التشريعى فى ١٥/٣/١٩٤٨ .

فى مجلس التشريع أية خـــدعة صيغت لتحمل فى الحيــاة وبالها
فأبيت موفور الكرامة . . يالها من صرخة أبت التقيد .. يالها [3]

(٢) الشعر ومصر

(١) لقد حظت مصر لفترة كبيرة من الزمن بحب السودانيين وولائهم فقد أحس الكثيرون منهم أن بلادهم لن تتخلص الا على أيديهم ، وأن

---

(١) اسم الحاكم العام .
(٢) حرية وجمال ص ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٨ .
(٣) ديوان الحان ثائر ٦٠ .

مصر هى التى تستطيع — بحكم وضعها فى السودان — أن تخرج الانجليز ، وأن تعمل على خلاص البلاد منهم .

ومن ثمة فقد عمل الكثير من الشعراء تحت راية « الوحـــدة » بين البلدين ، بعضهم عن ايمان بهذه الوحدة ، وأكثرهم عن شعور بأن هذا الشعار وسيلة لغاية هى الخلاص من دولتى الحكم الثنائى ، ومن هنا رأينا « حسن طه » يقول :

يا وحــدة أثبت التـاريخ نشأتها … من عهد(خوفو)ومذ(توت‌عنخ‌آمونا)
ماذا يضــير الأعادى منك ويحهم … لو لم تكونى لهم صابا وغسلينا
وماذا يضير العدى تحقيق رغبتنا … ان لم تكن خنجرا يردى وسكينا
مصر هى الرأس للسودان قل لهم … كلاهما وحدة جسما وتكوينا (١)

ونراه يقول :

من لى بمقـــدام يذود عن الحمى … ذود الغضنفر عن لبـــاة عرين
يدعو بصـوت لا يبح لوحـدة … عبثت بها الأيام منــذ قـرون
ولوحـــدة الأقوام أول خطوة … نرقى بها صـــعدا الى التمدين
سادت بها دول العروبة لا ترى … بعـــد الحنيفة غـيرها من دين
وسما بها السكسون حتى أصبحوا … فى هامة الجـــوزاء خير قطين
نازى « هتلر » قام تحت لوائها … وخطت بها فاشست موسلينى (٢)

والشاعر أحمد على طه يقول :

سيقول الناس والأحجـار والريح انطلقنـا
وسيروى كل معنى خالد فى الأرض عنـــا
قد أردناه « اتحـــادا » والذى شئنا فعلنا

وهذا الناصر قريب الله يقول :

وما بلغت مرقى الى المجد أمة … فتم لها من غـير وحدتها المجد(٣)

---

(١) صوت السودان ١٩٤٧/١٠/١٦ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) مجموعة للشاعر .

وهذا عبد الله عبد الرحمن ــ ولقد كان أشد دعاة الاتحاد ــ يقول :

لا تقبلوا غير الجـلاء ووحدة الوا .... دى والاضاعت السـوادان
النيـل يجـرى للشمال فان جريـ ـنا للجنوب الفصل والخذلان (١)

ويقـول :

سبقت الى أهدافها مصـر ... فشمالها وجنـوبها حـر
واستقبل الوادى موحـدة ... فى النيـل دولته لهـا الأمر
رؤيا تطـالعنى ومن زمن ... هل عند صدقى للرؤى عبر (٢)

ويقـول :

من قال قطر وقطر فهو فى نظرى ... كمن يقول بأن الواحد اثنان (٣)

* * *

انمـا مصر والعـروبة والسـو ... دان شعب أبى الاله انفصاله (٤)

* * *

بلغ النيـل أن بالنيـل شعبا ... همه فى العـلاء هم بعيـد
ربط النيـل والعـروبة منه ... وهـداه بنوره التوحيـد (٥)

وقد ربط بعضهم بين الاتحاد وعيد جلوس الملك السابق :

وتاجـك يا مولاى اشراقة ... من المجـد تقبس أنوارها
يظللنا كحـوانى الرياض ... تنمق بالطـل أزهـارها
نمكن فى ظله « الاتحـاد » ... ونبعث فى الأرض أحرارها (٦)

---

(١) ديوان الفجر الصادق للشيخ عبد الله عبد الرحمن ٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ٩٤ .
(٤) المصدر نفسه ١٠٣ .
(٥) المصدر نفسه ١٠٨ .
(٦) صوت السودان ٥/٥/١٩٤٢ .

وقد أكثروا من القول فى مصر وكان بعضهم يحاول اخفاء هذا الحب للتضييق الذى تعيش فى ظله البلاد كقول عبد الرحمن شوقى فى تكريم خليل مطران :

فارجع الى مصر فى أمن وعافيـة وزر دمشق وزر بغـداد زر حلبا
وقل لهم اننـا لمـا نزل هدفا لكل رام ومن قـد لام أو عتبا
لنا اليهم حنـين دائم وهـوى مهـما نداريه عن عزالنـا غلبا
فهم لنا اخـوة بل هم أشقتنا ومصر لمـا تزل أما لنـا وأبا (١)

بينما كان بعضهم يعلن هذا الحب فى قوة ووضوح . فهذا عبد النبى عبد القادر مرسال يقول :

أنا ان نزلت بمصر أخطب ودها وتركت من شغف بها أوطانى
فلأنهـا أمى ، وان حديثهـا سمرى ، وان كتابها قرآنى (٢)

وهذا على نور يقول فى رسالة للدرديرى أحمد اسماعيل :

واذا رجعت لمصر وهى بما تؤمله رهينـه
بلد لو السودان لاقى الكرب بث لها شجونه
كفلته طفلا . ثم شب فكانت الأخت الأمينه
أولته حبا مثلما أولت «عطيلا» «ديدمونه»(٣)

وتظهر آثار هذا الحب العميق فى شعر التجانى يوسف بشير

ويامهيض الجنـاح كم أمل تبغى وكم فى السـماء تطلب
تود « مصر » الزمان وهى لمـا يأمل منهـا الشبـاب مطلب
مصر دين الشباب فى الحضر الرافه والبـدو من قرى وبقـاع
مصر أم الشعوب ماذا عراها واعترى الشرق من وجى وضياع

(١) صوت السودان فى ١٩٤١/١/٣ .
(٢) صوت السودان ١٩٤٦/١١/١٥ .
(٣) مجموعة للشاعر .

حبذا الموت فى سبيلك يا مصر لنشء عن الحمى دفاع
انما مصر والشقيق الأخ السودان كانا لخافق النيل صدرا
حفظا مجده القديم وشادا منه صيتا ورفعا منه ذكرى
مصر راشت وثقفت وأعدت منه شمسا وأطلعت منه بدرا
هيأت فكره فأزغب فاستشرى فاعيا ركضا وأعجز طفرا
كيف يا قومنا نباعد عن فكرين شدا وساندا البعض أزرا
كلما أنكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا
جئت فى حدها غرارا فحيا الله مستودع الثقافة مصرا (١)

وقد ذكروا لمصر مؤسساتها وثقافتها وحبها لهم فتدفقوا بالشعر حينما سافرت بعثة التعليم المصرية بمناسبة فتح مدرسة فاروق الثانوية «مدرسة الخرطوم الثانوية»

فقال الشاعر محمد محمد على :

أهلا بأبناء مصر ومهجة الشرق مصر
وكل من أنجبته فجر مبين أغر
واذ مررتم بأرض فكل خير يسر
تحسسوا من أخيكم ما يشتكى أو يسر
سنلتقى فى المعالى وشاطىء النيل حر

وهذا محمود أنيس :

لله مصر وأهلها بين العشائر أهلنا
يا فتية النيل السعيد ويا حماة بلادنا
انا على العهد الذى قد تعلمون جميعنا

---

(١) اشراقة للتجانى ٤٣ و٥٠ و٨٦ و٨٧ .

وهذا شاعر يقـــول :

حدا بكم ريح الشمال وهل صبا ... جنـوب كثير الشرق الا لشمأل
أقيموا بهـا حتى تقضى حديثنـا ... ونطرب من ذكرى حبيب ومنزل
وتتحـد الألباب بالعلم مثلمـا ... توحد منا العزم فى كل مشكل (١)

وهم يهتمون بأدبائها أشد الاهتمام فحسن عزت يقول فى العقاد :

يا أمير البيـــان حسبى قولا ... خانتى الشـــعر يا أمير وقصر
عبقرى الزمان حسبى من شـعر ... ك نذرا به أتيـه وأفخـر (٢)

وحمزة الملك طنبل ينظم ص ١٨٧ من كتـابه مطالعـات فى الكتب والحياة (٣) وابو طراف النميرى يذكر هجرة العقاد الى السودان فى الحرب العالمية الثانية (٤) وعبد الله عبد الرحمن يذكر أدباء مصر فيقول :

ولا أكذب الرحمن فى العصر أنجم ... حمـاة لها من غيرة تتـوقد
وصـبابة أدت أمانة قومهـا ... وقامت على ضوء الرسالة ترشد
يطالعنـا العقـاد فيها بنـافع ... من القـول لا يطغى ولا يتقيـد
ونقـرأ للزيات فيهـا رسـائـلا ... هى السحر أومنها الى السحر مورد
وهيـكل مـن أثوابه أى كاتب ... خصيب الى خير الأساليب يعمـد
ولله طـه ابن الحسـين فانه ... على نثره السهل الخناصر تعقد (٥)

ونراهم يهدون القصائد الى الدكتور زكى مبارك ، ويعبرون بصدق عن اعجابهم بأدبه (٦) ويكرمون مصر والشعر فى عزيز أباظة (٧) ومطران (٨) ويستوحون من أفلامها الشعر (٩) ، ويشيدون بمن حاضرهم هناك .

---

(١) صوت السودان ٦ وه و١٠/١/١٩٤٦ .
(٢) دموع واشواق ٨٨ .
(٣) ديوان الطبيعة ٥٤ .
(٤) ديوان الينابيع ٢٣ .
(٥) الفجر الصادق ٩١ .
(٦) دموع وأشواق ٨٣ ديوان العباسى ٥٧ .
(٧) صوت السودان ٦/٣/١٩٥٥ .
(٨) صوت السودان ٣/١/١٩٤٥ .
(٩) ديوان التنى ليوسف مصطفى التنى ٦٤ .

ومن هذا قول الشيخ مجذوب جلال الدين :

رأيت العـــــالمين بكل فن   أجادوه فلم أر كالســباعى (١)

وقد أهدى العباسى ديوانه الى الشيخ عثمـــان زناتى الذى تلقى تعليمه عليه فى مصر ، كما اهتموا بزيارة على الجارم للسودان فتحــدث عنه أكثر من شاعر (٢)

كما تحدثوا عن ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بمصر (٣) ، ووصفوا مصر بعد أن شاهدوها (٤)

(ب) وقد لاقت مصر فى السودان محنة فى هذه الفترة فتطاول عليها الكثير من الأدباء والشعراء فى قسوة بالغة ، ومن هؤلاء من دعا الى نبذ ثقافة الشرق « .. أما اليوم وهذا آخر الزمن تطلع فيه الشمس من مغربها فلا غرابة فى أن تنظر الى هذا الغرب تتلقى عنه دروســا قاســية فى كيف تخدم الأوطان (٥) » ودعا الأستاذ محمد أحمد محجوب الى فصل الثقافة السودانية عن المصرية (٦) ، وتابعــه فى هــذا الأستاذ يوسف التنى (٧) ، وهكذا نرى روح التحامل على كل ما هو مصرى فنرى نقدا للطفى السيد وأنه غير جدير بالسمعة التى يتمتع بها ، وهجوما على البعثــة التجــارية المصرية ، وعلى الفرقة المصرية للتمثيل ، وعلى المجمــع اللغــوى ، وأنه لا توجد هناك ثقافة مصرية (٨) ثم تعرضت مصر لمحنة أشد فى عامى ٥٤ ،

---

(١) صوت السودان ١٩٤٣/٤/١٩ (السباعى بيومى) .

(٢) الفجر الصادق ٥٧ ، ودفع الله عبد الرءوف فى مجموعة له .

(٣) عصارة قلب ٥٣ .

(٤) دموع وأشواق ٨٩ ، ٩٢ ، لحظات باقية ٤٩ ، أصداء النيل ١٥٦ ، صوت السودان ٤٤/٢/٩ ، مجموعة الاستاذ كرف ، مجموعة محمد مهدى مجذوب ، مجموعة الدكتور كامل الباقر

(٥) الفجر العدد ١٢ الصادر فى ١٩٣٤/١١/١٦ .

(٦) الفجر عدد يونيو ١٩٣٥ .

(٧) الفجر عدد أغسطس ١٩٣٥ .

(٨) الفجر عدد مايو ١٩٣٥ .

١٩٥٥ حينما فهم بعض المواطنين أن مصر تقف فى طريق تقدمهم ، وحينما ساعدت أبواق الدعاية الموجهة من الحكم القائم الى اساءة هـذا الفهم ، والى القول بأن مصر ستتدخل حتى يكون « الاستفتاء » فى صالحهـا ، كما ساعد على هذا سوء تصرف بعض المواطنين من المصريين الذين كان لهم دور فى هذه القضية .

وقد رأينا أبا القاسم محمد عثمان يقول فى مصر ومعرضا بالوحدة :

كنت أشدو بهـا هـزارا وفيـا فتسـير الأيـام أيان أذهب
غير أنى صحوت من حلم زاه ومن نومة الضـمير المخضب
لست أرضى اذا استباح كبير كبريائى ولست أعنـو لمنصب
ان فى مصر يا نديمى يا شـيخ حيـاة الى المـذلة تنسب
قد زهدت الغنـاء فى وحدة النيل فما الواحد القـدير سوى الرب
نحن شعب من المنـابع بهـم وبنو مصر فى تهافتهم شعب (١)

وهذا الشاعر منير صالح يخاطب الأزهرى :

فدع عنك فكرة الاتحاد ونحهـا وناد باستقلالنا فهو أكـرم
فشعبك خير من شـعوب كثـيرة وأرقى وأسمى بل أعز وأكـرم
أما قلت ان الاتحـاد وسـيلة وقلنا قبلنـا ما يقـول المعلم
بربك هـذا الاتحـاد حقيقـة له أنت تسعى أم به أنت توهم (٢)

وقد أثارت « مشكلة المياه » كمشكلة الوحدة الكثير من الهجـوم على مصر كما فى شعر أبى القاسم عثمان (٣) .

وكما يقول الدكتور عبد الله الطيب :

وانى لأخشى أن أرى النيل فى غد شريعة مصر علهـا وانتهـالها
ونحن ظمـاء رزح بمفـازة سباسب تقلى الناجيات اعتمالها (٤)

---

(١) العلم فى ١٩٤٩/١/٢٣ .
(٢) السودان الجديد ١٩٥٥/٦/١٥ .
(٣) السودان الجديد فى ١٩٥٥/٢/١٠ .
(٤) أصداء النيل ١٤٧ .

وهذا محمد محمد على يقول للنيل :

أبا الخير عندى من عتابك قصة ... روتها عن البيد الظماء قوافل
نعيش على التأميل منك وتنحنى ... علينا صغارا .. أمهات نواحل
تهضمنا جيراننا وبدت لهم ... مع الغاصب الغربى منا مقاتل
ضعاف تقووا بالعدو على أخ ... وعاشت لهم فيما بناه معاول
أبوا أن يذيقونا من الماء جرعة ... وضاق به من ساحل الروم ساحل
وقد أورقت فى أرضهم كل صخرة ... وفى أرضنا ترب «البطانة» ما حل
أحبك حبى للحياة وان أبى ... لك الجود والأنعام حب مخاتل (١)

وحين ذكر الدكتور محمد النويهى حينما كان بجامعة الخرطوم أن الشعر السودانى تكرار للشعر القديم ، تصدى له محمود النبر ومحمد محمد على ومنير عبد القادر يردون عليه هذا الرأى بقسوة وغضب ، ونستطيع أن نرى هذا فى قول منير صالح

يعيرنا أنا نقلد من مضوا ... ونأخذ من آدابهم ونجاهر
وأنا ولا كفران بالله لم نزل ... نعيش ولكن بالفتات نفاخر
كذبت وأيم الله ما أنت ناقد ... يجوز له حكم ولا أنت شاعر
فلو كان ذا خير لأدرك أهله ... وكان له فى أرض مصر منابر (٢)

وحين تعرض احسان عبدالقدوس لعلاقةالأزهرى بمصر رأينا الشاعر يقول:

ولماذا نهوى الخلاص من القيد لقيد فيه لنا ايذاء
مالها مصر لا يروعها الجرح فلا تمترى بها الأهواء
مالها تطلب الجلاء وتأباه لنا . اننا به أولياء
دون سوداننا القفار ، ودون النهر نهر تسيل منه الدماء
أيكون الرئيس مقصد احسان و«احسان» كذبة بلقاء
فالرئيس الجليل لا يعرف الضيم وفيه عن الصغار اباء(٣)

---

(١) مجموعة لم تنشر .
(٢) السودان الجديد ١٩٥٥/٣/٢١ .
(٣) السودان الجديد ١٩٥٥/١/٨ .

وحينما ينتصر عبد الله عبد الرحمن لمصر نجد من يقول له

ان كنت مشـــتاقا الى مصر فدونكهـــا فهـــاجر (١)

ونجدهم يتهجمون على قادة البلاد (٢) ، ويذكرون معاونة مصر لفتح البلاد فى انفعال وغضب كقول الهادى آدم :

كيف ننسى عهــد غوردون وما جر غوردون علينـــا من بلاء
يوم وافى تتـــولى نصــــره شرذمات من عبيـــد أجـراء
تركوا فى أرضــــهم أعوانه يستبيحون كرامات النســـاء
تركوهـــم وهـــم فى ظمـــأ مســـتهام بدماء الأبريـــاء
وأتوا يحـــدوهم جلادهـــم وهو بين القوم يمشى الخيلاء (٣)

كما يذكرون فى انفعالهم أن مصر هربت من الســـودان عام ١٩٢٤ ، وأن جيشها لم يشترك فى معارك اللواء الأبيض . كأنما كانت مصر تملك من أمرها شيئا . فنرى منير صالح يقول

أين كنتم وكان هـــذا الولاء يوم هانت على البـلاد الدماء
يوم هب الشـــباب ، والتهب القطـــر ، ونادى الى الأمام اللواء
يوم نادى لتحيا مصر ، ويحيـــا النيـــل ، وليربط البـــلاد الاخاء
يوم « استاك » يوم زلزلت الأرض ، وضـــاق العميـــد والزعمـــاء
يوم فاجأتم البـــــلاد برأى لم تزل منه تســـــخر الآراء
يوم بتنـــــا مغللين وباتت تلعن الأرض جبنـــكم والسماء
يوم خانتكم القـــوى وتوارت الوجـــوه القبيحـــة الصفراء
يوم طارت حلومكم فتـــــواريتم وراء النساء يا أدنياء !
وأتمرتم بنا وكان لكم فينـــا مع الغاصب المذل قضـــــاء
أيها المقحمـــــون زورا على التـــاريخ هل أنتم ونحن ســـــواء

(١) السودان الجديد ١٩٥٥/٨/١٥ .
(٢) السودان الجديد ٨/١٠ ، ١٩٥٥/٩/١٤ .
(٣) السودان الجديد ١٩٥٥/٨/٣١ .

أيها المفترون هذا هو التاريخ ينهار عنده الافتراء
قادنا حبنا لمصر فمتنا شهداء وكلكم شهداء
بينما قادكم لمصر ثراها يا صعاليك والغبا والعطاء
والهدايا الجسام والأصفر الرنان والمسكتات والاغراء
فاشترتكم بمالها ، ولها أمر عليكم ، وطاعة عمياء
ولها اليوم بينكم عملاء ولها بين دوركم وكلاء (١)

وهذا أحمد على طه يقول :

أ كذا تكون بلادكم دوما على متن الرماح
هذى لعمرى ضجة قامت على عرض مباح (٢)

وقد جرى بعض الشعراء على النيل من مصر وانجلترا معا

فهذا المهندس على نور يقول :

هذا زمان عجوز فيه القوى يفوز
وللضعيف المعنى يجيز ما لا يجيز
فلو حمينا حمانا وانه ما نروز
فذاك ما تتحاشاه مصر والانجليز
ما قر راع بواد لا ترضيه المعيز (٣)

وهذا أحمد على طه يقول :

بنو التاميز شر حيث حلوا وليس لهم سوى خلف الوعود
فلا للدين عندهم مكان وليس لهم سوى الرأى البليد
أرى مصرا تريد اليوم حكما يطوق بالسلاسل كل جيد
وتذهب فى جهالتها علينا مذاهب كل جبار عنيد (٤)

---

(١) السودان الجديد ١٩٥٥/٦/١٥ .
(٢) مجموعة الشاعر .
(٣) مجموعة للشاعر .
(٤) مجموعة للشاعر .

وكذلك تناولوا معـاهدة عام ١٩٣٦ ، وزيارة على ماهر عام ١٩٤٠ حينما كان رئيسا للوزارة ومعه عبد القوى أحمد وزير الأشغال ، ومحمد صالح حرب وزير الدفاع ، وزيارة الدكتور عبد الرازق السنهورى سنة ١٩٤٦ حينما كان وزيرا « للمعارف » ، واتفاقية عام ١٩٥٢ ومن هـذا قول محيى الدين صابر :

حرية الشعب ليست وعد مغتصب ... يعطيـكه حول بالـرأى دوار
ولا اتفاقية مان الشـريك بها ... أو كاد يضرب تيـارا بتيـار

وقول مبارك المغربى :

بالأمس كنا والشقاق حليفنـا ... واليوم يجمعنـا الوفاق كما نرى
زعماء هـذا القطر يوم تقدموا ... عوذتهم من أن يعودوا القهقـرى
ما كنت قبل اليـوم طالب وحدة ... ماضى الكنانة لا يريد مفسـرا
حتى بدا فى الأفق من تهفـو له ... مصر فقلدها الوسـام الأكبرا
وأتاح للسـودان فرصته التى ... جمعت على رغم العداة المعشرا (١)

وقد شكك محمد المهدى مجذوب فى هذه الاتفاقية ،وأومأ الى الخلاف الضارب جذوره :

صاحوا نجاة ، وهذى صيحة عجب ... فاحذر فؤادى لا يذهب بك الطرب
ألست ذاكر نوارى يحـرقه ... برق تسيل على نيرانه السـحب
هون عليـك فان الصدق آنسة ... مغشية الحى من طراقهـا الكذب
فان جـرعتم من الآمال منسية ... لقد جرعت وما أنسـانى العنب
كل بدف على ظلمـاء يمدحهـا ... صبحا فيضحك من امداحه الكذب (٢)

كما تعرضوا للجنة السودنة ، وأهابوا بالأعضاء السودانيين فيها ومن هذا قول عبد الحفيظ هاشم :

---

(١) الفجر الصادق ٥٢ و٦١ و٧٨ ، وعصارة قلب ٩٥ و٩٦ و٩٧ ، ومجموعة لمحيى الدين صابر .

(٢) مجموعة للشاعر .

وهبتكم بلادكم أمنيـــــات هى تحــريرنا من الدخــلاء
قد وقفتم بنى بــلادى فرســا نا تنادون بالجـــلاء الجــلاء
قد طردتم عنادها فئة المكـــ ـــر بعــزم محقق ومضــاء
ان « ثالوثكم » وقد ضم « ابراهيم » ثالوث أمـــة عذراء (١)

وقد تعرضوا لوقائعهم فى المهــدية ورجالها ولحركة اللواء الأبيض محاولين صب شحنات جديدة فى نفوس الشعب .

فهذا محمد المهدى مجذوب يذكر موقعة « كررى » (٢) :

بالسفح من «كررى» بقية ثورة حملت بسيف كريهـــة مدرار
جبل به أثــر الدماء كأنــــه عطــر بذابل أغصن وغمـــار
أنبوءة فى صــخرة مكتــوبة لبثت وراء تجلد ووقار (٣)

وهذا حامد الضو يقول فى كررى :

أقام كالمغبــون فى عمـــره مصــوبا عينيه على نهــره
فعد الى التــاريخ كيما ترى ماذا شغلت الآن فى ســفره
لتخبر القــوم ها فاقــرأوا حقيقة التاريخ من فجــره (٤)

وهذا كامل الباقر يقول فيه :

أنت فى صــمتك الرهيب خطيب تتجـــلى العظات فى كلمـــاتك
دولة من عوالم أنت ترعاها وتســـــدى الى الــورى موعظـــاتك

وهذا الشاعر خلف يقول فى جبل سرغام الذى شهد المعركة الفاصلة بالقرب من أم درمان :

---

(١) السودان الجديد ٥٥/١/٢٦ ويقصد الاعضاء عثمان أبو عسكر ، ومحمود الفضلى ، وابراهيم يوسف .

(٢) نسبة الى جبال كررى بالقرب من أم درمان وكانت الموقعة الفاصلة التى دحرت المهديين .

(٣) مجموعة لم تنشر .

(٤) مجموعة لم تنشر .

فيك يا سرغام سر حير الشم الجبالا
تلك يا سرغام حرب آه لو كانت سجالا
لا تسل عن ملك قومى بل فسلنى كيف دالا(١)

وقد حظيت موقعة « شيكان » التى انتصرت فيها المهدية على « هكس » بالكثير من الشعر ، فمختار محمد مختار يقول :

فما الشمس من ليل الغبار مضيئة ولا الليل من لمح الصوارم مظلم
فلم تغن فيه «هكس» خرس كتائب وجيش كجنح الليل مجر عرمرم
وهل يخذل الله النصير جنوده ومهديه السيف المجرد منهم
أتى هاديا يمحو الظلام بسيفه ويثبت ما خط النبى المعظم (٢)

وهذا محمد المهدى المجذوب يقول :

أأسمع من«شيكان» رعدا تحددت زمازمه حول النحاس المغرد
فهاج بحلفا قبر « عثمان » لفه كسيف على ثأر يناجيه مغمد
واسمع شيخى غابرا فى نشيده وهاج«ابن‌منصور» قتيلا بمسجد(٣)

وهذا ادريس محمد جماع يقول :

«شيكان» تعرفهم وهاهى لم تزل تتلو نشيد النصر غير موقع
هم قلة لكن هيبة بأسهم لم تبق للأعداء فرجة أصبع
كم نازلوهم فى الظلام وما لهم غير السيوف تضىء بضعةأذرع(٤)

وهم يعتبرون « المهدى » رمزا لقوة السودان ، ولقوة الدين

لك يا بن عبد الله كل تجلة من نفس شعب بالعباقر مولع
صيد وكنت اذا انتدبت رأيتهم ما بين أسرى بالجلال وخشع

---

(١) الفجر فى ١٩٣٤/١٢/١٦ .
(٢) مجموعة لم تنشر .
(٣) مجموعة لم تنشر والمقصود بالنحاس « الطبل » والاسماء التى وردت هى لكبار المهدية عثمان دقنة ، الطاهر مجذوب ، حاج أحمد ود منصور .
(٤) لحظات باقية ٦٥ .

هذا سنا التحرير فى جبهاتهم وحمية الاسلام بين الأضلع
بك يا رسول البعث هبت أمة وخلاص شعب موثق متطلع
أمحرر السودان صانع أمسه أنزلت قومك فى المحل الأرفع
ربيت شعبك والزعيم معلم ليخوض حرب الظلم غير مروع
ألهمتهم حب الحياة كريمة والعيش فى حرية وترفع
ان الذى رفع اللواء بكفه ليحس كفك عند هذا الموضع
للشعب أنت أب بساحة حبه يتجمعون برغم كل تصدع (١)

وقد صور محمد المهدى مجذوب بعد ذلك حقيقة الصراع الذى دار فى زمن المهدية فى قصيدته « النصر » مستوحيا الأفكار الشائعة حول المهدية :

وقد ثار مهدينا المنتظر وسل على الترك سيف العشر (٢)
تحدث عنه الجماد الخلى وطن اسمه فى حفيف الشجر
وسال من « الغار » أنصاره لهم سبح قدحت بالشرر
ووافى « الجزيرة » منشوره لواء يقود اليه الزمر
وجاء « الخديوى » فى عرشه بغاب توثب منه النمر
و «غردون » أمسى لدى شرفة بمنظاره كم يعيد النظر
يرى الغرب نارا على ومضها يهز الرماح رعاة البقر (٣)
وقد أمسك النيل أمواجه وأخفى عليه وجوه الخبر
وجاش « النحاس(٤)» لدى ليلة من الخيل يركب فيها القدر
ظلام و « غردون » فى صدره ظلام الفلا وسكون الحفر
تغنى الرياح بأسماعه هتاف الدراويش بالمنتظر (٥)

---

(١) لحظات باقية ٦٦ .

(٢) نبات يقوم على شواطىء النيل ، وتجلب جذوعه فترقق وتصقل وتؤخذ منها الواح للكتابة فى الخلاوى للحيران ، وقد بلغ من الايمان بالمهدى انهم اتخذوها كسيوف للحرب بها .

(٣) قبائل البقارة غرب السودان .

(٤) الطبل .

(٥) من وحى العروبة (كتاب الجامعة الشعبية) ص ٤٨ .

وقد يتجاوز الشاعر فترة المهدية الى « السلطنة الزرقاء » فيذكر أحد أبطالها . فهذا ادريس جماع يذكر السلطان عجيب الماج :

لواؤك خفـاق اذا قصف الردى ... يدا حملته مد حـــر له يـدا
هنا لك فى الصـحراء نام مجـاهد ... توسـد من أحجارها ما توسدا
وحيدا وفى الآفاق قد كان جمعه ... يجـرد عزما صارما ومهنـدا
تدفق فى الآفاق شرقا ومغـربا ... وصاغ من السودان قطرا موحدا(١)

والعباسى يذكر « بادى أبو شلوخ » ملك سنار فيقول :

عاش ما عاش وهو جـد أبى ... لم يعفـر لغير مولاه خدا (٢)

وقد يجدونها فرصة للنيل من مصر فحسن عزت يقول :

عمرت فى السجن لا ذل ولا عار ... مأوى يسـاق له بالظلم أحـرار
وحولك السيف يبكى همة شقيت ... مع الزمان وتبكى الحـرب والنار
وبت تحت شقاء السـوط مرتكزا ... على الاباء وقد حيتـك أبصـار
نشـكو الى الله أنا أمة عرفت ... كيف الطريق فمالت وهى تختـار
ولو عدلنا لعـدنا من حماقتنا ... نقلب الصحف اذ فيهن أخبـار
ونرعوى عن ضـلالات يزخرفها ... من خاننا أمس . والتاريخ سطار
النيـل والدين والألفـاظ تربطنا ... هـذا هو الحق ما أخفـاه انكار
لكن للسـمر دينا ما يشـابهه ... دين يعـانقه نذل وفجـار (٣)

وقد يصورون عملية الانتقام التى نفذت ضد جماعة اللواء الأبيض ، فتوفيق صالح جبريل يقول :

أودوا بأربعة صـدور فى الوغى ... يا ويلهم ألقوا صـدور رماح
فى حفـرة من بعد أن أصـلوهم ... نارا توقد فى النهـار الضـاحى

---

(١) لحظات باقية ٦٤ .
(٢) ديوان العباسى ٢٩ .
(٣) مجموعة للشاعر .

ومضوا « بسر الختم » بعد صفيه ... رب اللواء الأبيض الوضـــــاح
للسجن للتشــــــريد لا لجريرة ... ما الذود عن أوطانهم بجنـــاح (١)

وصلاح الدين كرم الله يقول :

وأتينا الحقـــل يوما ... لنرى فيه الخـــرابا
فهنا ثارت أســـود ... تبتغى تلك الذئابا (٢)

وقد يطلب شاعر من آخر ذكر هـــذه الجماعة ، فجعفر حامد البشير يقول لتوفيق صالح جبريل :

واذكر «عبيدا» ورهطا من صحابته ... وارفع لهم فى بنى أوطانهم شانا (٣)

ذلك لأنهم أحسوا فى هذه الفترة أنهم بحاجة الى كل طاقات الدفع فى ماضيهم ، وأن هذا الماضى مشرف لهم ، فلهم ممالكهم القديمة ولهم الحركة المهدية ، والحركات الثورية الحديثة ، ومن هنا أرادوا أن يلقوا الى المعركة بكل الأسلحة المدفونة على حقد وغضب . فعملية استرجاع الماضى هذه ليست الا لونا من ألوان الشعر السياسى ، وما كان أجدر هذه الفترة بعملية ايقاظ الشعب ، وتذكيره بأن له ماضيا منزوفا ، وغدا مؤملا .

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) مجموعة الشاعر والمقصود بالحقل المكان الذى أعدم فيه الابطال .
(٣) حرية وجمال ٩٣ والمقصود بعبيد الحاج الامين أحد أبطال جمعية اللواء الابيض .

شعر الطبيعة

(٢)

والشاعر فى السودان مأخوذ بالطبيعة من حوله ، حان عليها ، متخذ منها أدواته للتعبير ولذلك فهو يكثر من ذكر مدنها وقراها وجبالها وكل مظاهر الحياة فيها .

فالتجانى يقول فى الخرطوم :

مدينـة كالزهـرة المونقـة — تنفح بالطيب عـلى قطـرها
ضـفافها السـحرية المورقة — يخفق قلب النيل فى صـدرها
تحسـبها أغنيـة مطـرقة — نغمهـا الحسن على نهـرها
مدينـة السـحر مراح العجب — ومغتـدى أعينـه السـاحره
تنـام فيهـا حجرات الذهب — على رياض نضـــرة زاهره
أضـاءها الفجـر فلمـا غرب — أضـاءها بالأنفس النـاضره
مدينـــة وقعهـا العازف — على رخيم الجرس من مزهره
ذوب فيهـا الوامض الخاطف — سـبائك الفضـة من عنصره
وجـادها المرهـم والواكف — بالكوثر الفياض من أنهره(١)

وجعفر حامد البشير يقول فى الخرطوم وقت الأصيل وهو الوقت الذى يرق فيه الجو وتخرج النساء فيه للنزهة :

حنانيك يا خرطوم كلك روضـة — وحسن فهل فى روضك الحسنات
وما أروع البيض الحسان سوافرا — مشـين فكان الدل والخطـرات
يطفن فى وقت الأصـيل تنزها — فتزدهر السـاحات والطـرقات
جمـال يهـز النفس أنى توجهت — فللنفس فى محرابه سجدات(٢)

---

(١) اشراقة ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) حرية وجمال ٢٢ .

وتحظى جزيرة « توتى » المواجهة للخرطوم بحب الشعراء فالتجانى يصور الحيـاة فيها ومن حولها فى واقعية فنية ، ويستدعى خصبها مصر فى ذهنه فيقول :

يادرة حفهـا النيـل واحتـواها البـر
كم ذا تمـازج فن على يديك وسـحر
يخـور ثور وتثغـو شـاة وتنهـق حمر
والبهم تمـرح والزر ع مونـق مخضر
تجاوب اللحن والطحـن والثغـاء المسـر
وهب صـوت النواعـير وهو فى الشجو مر
ان الجـرار وقـد ضا ق بالقليب الممـر
تكسرت وهى تهـوى فمـا تـلاءم كسر
والفلك فى جانبيهـا كالدهـر ما تستقر
وفى الضـفاف أوز دكن الجـوانح كثر
يا أخت مصر وتفـد يك فى المكاره مصر
حيـا شـبابك فيض من الرخاء ويسر (١)

ومبارك المغربى لا يقف عند جمالها وانما يتعداه الى جهاد أهلها من أجل الحرية فى البلاد :

فكم جلسة فى الروض بين الجداول وكم وقفـة بين الربا والخمـائل
ألا ايهـا النيـل العظيم أهـذه «عروسك»أم مهد الكماة الأماثل(٢)

وجعفر حامد البشير يتحدث عن الدامر ، وعن رحلة طاف فيها بمظاهر الطبيعة فى البلاد وعن تطويفه فى جبيت ، وسنكات ، واركويت ، ثم يعاتب أعضاء المجلسين البلدى والريفى بالخرطوم بحرى ، ويشيد بمهارة المستر

(١) اشراقة ٣٦ ، ٣٧.
(٢) مصارة قلب ٨٠ ، ٨١ .

سمسن أحد مفتشى الخرطوم لأنه كان يعمل على تخليص المنطقة من المطر الذى كان يتدفق عليها (١) فهو يستخدم الطبيعة ليصل الى غرض اجتماعى، وقصيدته هذه تذكرنا بقصيدة المرضى محمد خير والتى بدأها بقوله :

ليس فى الخرطوم شبر لا ترى الأوحال فيه
ضلت الاقـدام فى التيـه . وتاهت أى تيه
كم سـبيل ضل بالوحل وأشقى ساكنيه(٢)

وقد أعطانا جعفر حامد البشير صورة للحياة فى احدى قرى الفاشر :

يا قـريتى لم أنس يا قـريتى ... دارى ولا صحبى ولا اخـوتى
والعمـر فى أيامه الغضـة ... والنار « والحيران(٣) » فى الخلوة
والفـاشر الزاخر بالصـبية ... من لعبـة يمضـون فى لعبـة
والبدر بالضـوء وبالسـطعة ... يبعث فيهـم لذة النشـوة
يا قـريتى لم أنس يا قـريتى ... والنهـر قد هـدد بالثـورة
والمـاء قد عاد الى الكـدرة ... والشـاطىء الرابض كالصخرة
تلطمـه الأمـواج فى جبرة ... والنخـل فى الشـط على كثرة
أثمـر فى خصب وفى وفـرة ... تأكل منـه أحسـن الثمـرة
والمـاء بالكفـين فى غبـرة ... نشـربه بالطين وبالحمـرة
ونلعب « الطاب (٤) » على خبرة ... تحت ظـلال النخـل والسـدرة
أقـريتى لم أنس يا قـريتى ... يوم تركنا العش فى الحـلة (٥)
ثم بنينـا وسـط الخضرة ... « راكوبة (٦) » فى أرضنا البرة

(١) حرية وجمال ٢٣ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٣٠ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) التلاميذ فى الكتاب .
(٤) لعبة محلية .
(٥) قرية صغيرة .
(٦) مظلة من الجريد أو الاحطاب أو من كليهما .

نرقب المحصول فى لذة ونألف الحقل بلا كلفة
ونحرس الذرع مع الصحوة وفى الأصيل الخامد الجذوة
وفى ليالى البرد والغيمة نلتف حول النار فى ندوة
يا قريتى لم أنس يا قريتى أرض المروج السمحة النضرة
بعد الخريف الوافر النعمة ترعى بها الأغنام فى غبطة
وتسرح الأبقار فىفرحة آه لها والريح كم هبت (١)

ونرى الناصر قريب الله يقول فى « أم بادر » بديار الكبابيش :

فكأن الحصباء فيك كرات قد طلاها بناصع اللون طال
وتعالت هضابك المشرئبات الى مورد السحاب الثقال
طالما فيأت حواشيك غابات تذيق النهار بأس الليالى
فهى حسناء تزدهيها المرايا ذات صدر مفوف الوشى حال
قد تحاشى ظلالها السفر لما أطرقت للمياه والأوحال
وتشهت ثواقب النور ملهى بين أحضان مائها السلسال

كما يقدم محمد أحمد محجوب صورة حائلة للبحر الأحمر (٢) وقد قدم لنا يوسف مصطفى التنى صورتين لجبيت والأبيض (٣) والدكتور كامل الباقر صورة عن كردفان (٤) ومحمد سعيد النور صورة عن الريفيرا السودانية (٥) ومبارك المغربى (٦) وأبو طراف النميرى (٧) صورة عن سواكن ، وحسب على حسب صورة عن الطبيعة فى رشاد (٨) وعبد الله

---

(١) اذاعة أم درمان فى ١٩٥٥/٢/٣ .
(٢) السودان الجديد ١٩٤٤/١/١٤ .
(٣) ديوان التنى ٦١ ، ١١٣ .
(٤) مجموعة للشاعر .
(٥) مجموعة للشاعر .
(٦) عصاقر قلب ٨٤ .
(٧) الينابيع ٧٦ .
(٨) مجموعة للشاعر لم تنشر .

عبد الرحمن عن النيل بمدنى (١) والدكتور عبد الله الطيب يقدم لنا لوحات عن مدينة واو وقرية « أم دجاج » ، وعن النيم وهو شجر يكثر فى السودان واصله من الهند ومن هذه القصيدة قوله :

رأيت النيم يبــدو من خـــلال الآل كالغيـم
يمنى الراكب المنهــو ك بالظـل وبالنــوم
ولاحت جـــدر الحلة كالمضنى من الصـــوم
وذاك النيــل مد الطرف قــد يغــريك بالعــوم
وأنكرت اخضرار النيـم بل تقت الى الــدوم (٢)

وقدم لنا ادريس جماع لوحة عن حياة الرعى فى البلاد ، وعن القضارف الخصيبة جاء فيها :

لك يا قضـــارف روعــة تركت شعاب النفس سكرى
جئنا وأطيــار الخريف صـــــوادح ينــين وكـــرا
والصـــيف آذن بالرحيــل فــودع الأيـــام سرا
والأرض حـــالمــة تخبىء للخـــريف ندى وعطـرا
حتى اذا حيــــا غــــدا واختـــال بين رباك نضرا
أفضى الى مجـــرى السرا ب فرده للمـــاء مجـــرى

ويربط الشاعر بين حالته النفسية وبين الطبيعة فيقول :

كانت حيـــاتى كالربا فى الصيف قاحلة وحرى
واليوم صرت خريفهــا فاخضر منها ما تعرى(٣)

ولهم قصائد كاملة فى الخريف كقصيدة دفع الله عبد الرحمن (٤) .

---

(١) الفجر الصادق ١٢٢ .

(٢) اصداء النيل ٣٤ ، ٩٢ ، ٤٢ والدوم شجر يشبه النخيل ويكثر نماؤه عند نهر عطبرة وعلى ضفاف النيل .

(٣) لحظات باقية ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) مجموعة للشاعر .

وهم مولعون بالجبال والهضاب العالية ، والطبيعة من حولهم .

فالناصر قريب الله يقول فى جبل بمنطقة رشاد ، ويربط بينه وبين الحياة السياسية فى البلاد فيقول :

فليس « رشاد » الا طود عز ... يلين لغير جو المستذل
أعاليه ميادين استبدت ... بماء وافر ونعيم ظل
مشاهد نظرة المأخوذ فيها ... مدرجة فمن رأس لذيل
وبين شعابه دوت أياد ... من الوسمى لم توصم ببخل
كفانا البذل . علمنا شعوبا ... بثروتنا ونحن بشر جهل
ومن يعط القوى ولاء عبد ... فلن يجزى سوى قيد الأذل(١)

وحمزة الملك طنبل يذكر جبلا على الشاطىء بدنقلة ، ويقول فى جبل آخر بسهول كردفان :

قد قام فوق السهول أوحد ... كأنه القاهر المقيد
تزيله كثرة المراود ... لو كان هذا الجمال أثمد (٢)
نخاله كلما اقتربنا ... فى سيرنا من حماه أبعد
نما عليه النبات فأعجب ... على حياة سرت من الصلد

ويقول فى قصيدة أخرى :

الشمس خلف الجبال ... غابت ولاح الهلال
والكون فى العين أمسى ... حقيقة كالخيال
كأنما كل شىء ... مكون من ظلال
تلوح فى القفر نار ... ضئيلة الاشتعال
وخلف كوخى طيور ... وخلف كوخى غزال
وحول كوخى نبات ... من حسكنيت ونال
وغرب كوخى واد ... نما عليه السيال (٣)

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) ينظر الى المثل العامى « جبال الكحل تفنيها المراود » .
(٣) الحسكنيت والنال والسيال نباتات معروفة فى السودان .

وقد أنيخت جمــال لتستريح الجمــال
وطال تســريح طرفى من فوق أعــلا التلال

ثم يفلسف الشاعر الموقف فيقول :

لكن نفس تفــانت فى حيرة وانفعــال
أواه ممـا تقــاسى لجهلهـا بالمـــآل
فهل ترى الموت يشفى من مثل دائى العضــال
هــذا ســؤال ولكن ماذا! جواب السؤال (١)

ومحمد المهدى مجذوب يقول فى جبل الختمية بكسلا :

جبــل المرغنى محــرابك العــاتق . آثار قدرة فى جــلال
كلمــا درت حــوله . يتلقــاك بشتى الوجوه والأشكال
فتــلاقيه لانشــعاب . وجنباه لصــدع . وشــيده لانهلال
هو كالشـــعر رجلته المدارى جامدا فى انســيابه المنهــال
أى ضعف كضعفه يرهب النفس وســد يسد أفق الخيـــال
هيكل نابت من الأرض كالغاب وشيج الســفوح والأهوال
صحت فى صدره فرجع ما قلت فهل صاح سائلا عن ســؤالى
عز فى ذلة . أميرا على الأسر طويلا على الرماح الطـــوال
أين كونى ؟ وكونه طبق الجو ، وصاد الغمام مثل الرئال (٢)

وأدريس محمد جماع يقول فى هضاب القضارف :

قامت حواليك الهضاب فأظهرت تيها وكبرا
زفت من الأفق البعيــد لأعين الرواد بشرى
زرقاء تحسب أنها غيم تجمـــد بعد مسرى
حتى اذا انحسر القنــاع تجسمت للعين صخرا (٣)

---

(١) ديوان الطبيعة جـ ١ ص ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) لحظات باقية ٩٦ .

وقد تعرض الشعر لطبيعة الجو فى البلاد ولبعض الظواهــر الأخرى فعلى نور يخاطب الدرديرى أحمد أسماعيل بقوله بعــد أن عاد من انجلترا

ماذا تؤمل أن ترى فى هـــذه البلد الحـــزينه
من عاش فى حر النسائم كيف يحتمل الســخونه
لترى العقول ضعيفة وترى الجسوم غدت سمينه (١)

وادريس جماع يقول :

نشر الصيف فى الأثير جناحا   يصفع الوجه من لظى لفحاته
وجرى فى الوهاد موج سراب   وعلى المرج صفرة فى حياته
حشد الناس فى الظلال عطاشى   وأطار السحاب من وكناته (٢)

وقد كان البريطانيون يوقعون العقاب على من لا يسايرهم من الموظفين بترحيلهم الى الأماكن الشديدة الحرارة . ومن هذا النوع من العقــاب ما أمر به المفتش الانجليزى من نقل الشـــاعر خلف من « الأبيض » الى « الترابى » ، وقد عبر الشاعر عن هذه التجربة بقوله :

لك فى الأبيــض وقفـــة   تركت غريمك فى اضطراب
واليوم قد شقوا لك اللحــد المغيب فى « التـــــرابى »
وهنـــا مكانك للجــدال   وللنضـــال وللصـــعاب
وهنـــا رأيت الزارعــين   الحاصدين جنى العــذاب
يا هابطــا أرض الجــزيرة   كيف خلفت الـــروابى
يالوزة القطــن العـــزيز   على الدخيــل أثرت ما بى
يا ثــروة فى جيب أفـــاق   وفى كيس المـــرابى (٣)

والسودان مشهور بالعواصف التى تحيل الجو الى شىء يقلق النفس

---

(١) مجموعة للشاعر .

(٢) لحظات باقية ٨٣ .

(٣) الراى العام ١٩٥٧/٤/١١ .

ويعذب الروح ، وبالأمطار التى تنصب فى قسوة فتعرقل سير الحيـاة فى كثير من البلاد ، وقد تعرض لهذه المشاهد محمد المهـدى مجـذوب فى قصيدته العاصفة ، وليلة ممطرة (١) ، كما تعرض لها الشاعر حمزة الملك طنبل فى قصيدة صور فيها الجو الرائق قبل العاصفة . ثم يصور العاصفة نفسها ، وأخيرا يعرض بالذين لا يعرفون الله الا فى مثل هـذه الأهوال ، وقد جاء فيها :

بينمـا الجو بديع رائق ... فيه للنفس من الصفو مجال
دهمتنـا فجأة عاصفـة ... بظلام مسـبكر من رمال
وبروق أمطرتنـا شررا ... هائلاكالقصر أو صفرالجمال
ورعود ذهل النـاس بها ... عن حطـام جمعـوه وعيال
حملت ما صادفها فى سيرها ... من متاع حطمته بالقـلال
ليتهـا كان رآها نفـر ... غرهم ما للطبيعة منجمال (٢)

كما قدم لنا الشاعر نفسه الغروب على شاطىء « أرجو » ، والليـل على نفس الشاطىء ، وليلة من ليالى الخريف فى السودان ، وصورة من الضفادع بوادى الضناقر (شمال كردفان) وقد ختم قصـيدة الضفادع هـذه بقوله :

أعلنت عن وجودها بنقيـق ... وادع لا بغلظة وجفـاء
كم رأينا من البرية شخصا ... معلنا عن وجوده بعـواء (٣)

وقد قدم عبد القادر ابراهيم صورة عن الطبيعة فى كسلا :

شامخات الجبال تحتضن السحب تخر الأبصـار منهن صرعى
وزئير الرعـود فى كنف الجـو يصم الآذان ضـحكا وقرعا

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) ديوان الطبيعة ٩٤ .
(٣) ديوان الطبيعة ٩٤ ، ١٠١ .

وانسياب الأمواه من منبع الصخر وبين الشعاب يسرى كأفعى (١)

كما رسم لنا عبد الله عبد الرحمن لوحة للنيل بواد مدنى

رف فيه النبـات حتى كأنى من وراء الزجاج أرنو اليه
وكأن الدخان من جانب الشط مشيب يلوح فى عارضــيه
وظلال الجميز والطلح والسدر ترامى على المروج الوسـيعه
ووجوه النبات تحلو وتبدى صورا للحياة كانت بديعـه

وها هى لوحة أخرى عن الطبيعة فى مليط (٢) للعباسى

فباسق النخل ملء الطرف يلثم من ذيل السحاب بلا كد واجهاد
كأنه ورمـالا حوله ارتفعت أعلام جيش بناهافوق أطواد
وأعين الماء تجرى من جداولها صوارما عرضوها غير أغماد
والورق تهتف والأظلال وارفة والريح تدفع ميادا لمياد (٣)

وقد عبرت قصيدة عبد الله عبد الرحمن عن الطبيعـة فى السـودان تعبيرا طيبا :

كم للطبيعة فى السودان من فتن وكم لأطيـارها من سحر الحـان
الرمل عند ضفاف النيل تحسبه حمر الشفاه جلاها بين أسنان
والسرح والسدر والجميز كارعة من صيب القطر أو من فيض غدران

ثم يقدم صورا جميلة عن الجزيرة ، والقضارف ، وأبا ، وكردفان ، والبطانة والريف عامة (٤)

. . من هذا نرى أنهم قدموا طبيعة البلاد ، وبعبارة أدق « وصفوها » من خلال اعجابهم بها ، أو من خلال أفكارهم السياسية والاجتماعيـة ، وقد يلقى عليها الشاعر ذكرياته وأفكاره فيلمس الانسان تعاطفه معهـا ،

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) مركز من مراكز دارفور .
(٣) ديوان العباسى ٣٢ .
(٤) نفثات اليراع ١١٥ .

ان صح هذا التعبير ، ولعل هذا يرجع الى قسوتها فى بعض الأحيـان ، ولأنها لا تقدم تماما الجانب « الجميل » كالأزهار ، والغدران والأنسام ، والحدائق التى تختفى وراءها يد الانسان .. ولعله البلد الوحيـد الذى لا يغنى للربيع ، وانما يرفع دائما همساته للخريف .

الغزل

(٣)

١ — وقد كثر فى هذه الفترة شعر الحب . فقد كان الشعراء يهرولون الى ظلاله من هجير الحياة وصخبها حولهم .

وشعر الحب فى السودان كالشعر فى أكثر بلادنا العربية . يدور حول الهجر ، والعتاب ، والعزول ، والاكتفاء بالأمانى والأحلام ، أو يغرق فى النواحى الجسدية ، دون التغلغل فى أعماقه ، واحتسابه قوة بناءة تبدع الحياة ، وتجمل الوجود ، وتضفى على النفس ألوانا زاهية من السعادة .

وقد يفلسف الشاعر قضية الحب ويصبغها بألوان تجريدية كما هو الحال فى شعر التجانى ، أما أن يعتبرها قوة تدور من حوله الحياة ، وطاقة تتجاوز المرأة الى عشق الطبيعة ، والجمال فى كل صورة فشىء لم يقدر عليه الشعر فى السودان .

فالشاعر راض بالألم يسعى اليه سعيا ، والشاعر متهالك فى علاقته فالشاعر مبارك المغربى يقول :

أيها الخافق الذى فى الضلوع ... هل أفاد الغرام غير الدموع
كم أطلت الشكاة يا قلب لكن ... ما لشكواك هذه من سميع
أنا راض بالهم والآلام ... ألمى خالد خلود غرامى (١)
من ترى يحمل الصبابة عنى ... غير قلب قد بات بعض الحطام

ونرى الشاعر يقول

خليلى كفا عن عتابى فاننى ... رأيت الأذى فى الحب خيرا من العتب
سأهواك رمزا عن عذاب أحبه ... وان لامنى أهلى وأنكرنى صحبى (٢)

---

(١) عصارة قلب لمبارك المغربى ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ٦٧ .

ويقول التنى

آسرى الساخر من حبى — وللسخر ضروب
قد جفا النيل فما النيل — ولا الروض يطيب
وهو رغم الصد لو تعلم — مرموق حبيب
أيها المنكر حزنى — فاتك الرأى المصيب
ذاك ترياق فؤاد — كم نأى عنه حبيب (١)

والهادى العمرابى يقول :

أطلن موقف آلامى وأحزانى — وهجن كامن أدوائى وأشجانى
عذرتهن لهن الله كم قتلت — لحاظهن بقلب المدنف العانى (٢)

ومرضى محمد خيرى يقول :

عذيرى اذا عز من يعذر — ونور حياتى الذى أقدر
رأيت الضياء سخيا يجود — بهذا السناء ولا يقتر
وهذى الزهور تذيع العطور — عبيرا زكيا بما تنشر
وهذى الطبيعة أم رءوم — تبيح الجمال ولا تحظر
شكاتى هذى لحسن ضنين — كثير التأبى فهل يعذر (٣)

وهذا الشاعر خلف يستوحى قيسا وما قاله شوقى فى الغرض نفسه فيقول :

لا تنبه من اذا قام الأذان — داعيا بالفجر — يا قوم الصلاة
قام يشكو من تصاريف الزمان — ما لها جارت وقد هدت قواه
صلت الناس فصلى فى أمان — وتمنوا وهو قد أزجى مناه
همهموا سرا وهذا فى العلان — قال يا رباه زدنى فى هواه (٤)

---

(١) ديوان التنى ٣٢ ، ٣٥ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) مجموعة للشاعر .
(٤) الفجر فى ١٩٣٥/٢/٢٨ .

ومحمد محمد على مغرم بالأسى والدموع :

حبيبى وان طال البعاد وأغطشت ... لياليــه واستشرت على قوارعــه
مكانك مخضــل بقــربى مشرق ... على الدهر لا تنفك خضرا مرابعه
فان شئت فاعمره وان شئت فابتعد ... لقد راقنى فيك الأسى ومدامعه (١)

وقد يعطينا الشاعر صورة عصرية عن الحب فيقول :

ألا هاتها يا عيــون الهوى ... فآخر كأسى التى فى يديك
لآليت الاأذوق الطـــلا ... ولا أرفع الكأس الا اليك
ومن ذا يرد تحيـــة كأس ... بمثل ابتسام على شفتيــك
وحقك ما ذقتهــا خمــرة ... تثــير المفــارح الا لديك

وقد يتمرد بعد ذوبانه فيقول :

كم عاد قلبى كالصفــــا ... من بعــد ما ذاب التيــاعا
فاذا وصــلت فمرحبـــا ... واذا تقـــاطع فالوداعا

وقد يتفجر الشاعر حبا من أول نظرة كقول حسن عزت متأثرا بالشابى :

يا لها من نظرة مســحورة ... منك يادنيا الأمانى والجمال
عالم للســحر قــد حركته ... فى دمى يخطر مسحور الظلال
أنت ما أنت ، دعينى والذى ... أبدع السحر أساجله السؤال
نظرة سكرى ، وثغر باسم ... وعيون أخجلت منك الغزال
ونهود راقصــات كلمـــا ... وقع الحب نشيدا والجمال
يا حياتى أقبل الصــبح ولم ... يستفق قلبى من فرط الضلال (٢)

وقد يبلغ من الجرأة حدا يبعد الشاعر عن التقاليد المتوارثة :

ذاب قلبى عليه حين تدانى ... بين عطفى مسلما لى عرضه

---

(١) الســودان الجديد فى ١٩٤٦/٣/٢٢ .
(٢) ديوان التنى ٣٤ .
(٣) دموع واشواق .

فاعتنقا حتى اذا غلب الشوق على الجسم كاد يفقد نبضـه
يكسر الطرف حين تعبث كفى بأغصانه اللدان الغضـه (١)

وكقوله :

يتغاضى عند احتكامى فى الخصر ، ويلتـذ عند مس النهود

وقد يغلف الشاعر رغبته المهتاجة بأردية من الفن

فلقد شربتك كالسـلافة مرة   ووردت راعشة دمى فسقـاك
وطعمت كالمجنون جسمك جائعا   ونهبتنى .. يا نجوتى وهلاكى
يا نبعـة عـريانة يا غـابة   عذراء فى الأحراش والأشواك (٢)

وكقول الشاعر :

كم مساء مازال نشوان وما زالت بقاياه حيث كنت مقيمـه
لم تزل منه صرخة فى عيون الهر . فى أوجه الطيور الرحيمه
حينما كنت حقـل هشيم . ترتمى فوقه رياح عظيمـه (٤)

وقد يمزج الشاعر بين حبيبه والنيل بحيث يصعب التفريق بينهما كما قد يخلط بينه وبين لحونه وأمانيه ، وقد يستحيل الحبيب الى حقيقة الحب نفسه (٥) ، وقد يبحث من ورائه عن الله :

يا طرير الشباب من صاغ هذا الحسن فى زهوه وفى استكباره ؟
من أذاب الضياء فيه . ومن نغم شجو الهـوى على أوتاره ؟
من رمى من أصاب . من صـور الفتنة . من زرها على أزراره ؟
والفتـور الذى بعينيك من موه سحر الحيـاة فى أقطـاره ؟
صاغ هذا الجمال من لم ينم عنه لصرف الزمان أو أغياره (٦)

---

(١) ديوان الطبيعة لحمزه الملك طنبل ٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ٦٨ .
(٣) مجموعة لمحيى الدين صابر .
(٤) اغانى افريقية ط ٢ ص ١٠٧ .
(٥) اشراقة ٦ جـ ، ٧٩ ، ٩٠ .
(٦) اشراقة ١٠٠ .

وقد يقدم لنا الشاعر صورة عن الحب نفسه .

ولد الحب على مهـد الربيـــع
ونما طفـلا على الروض البديـع
كالفراش النضر كالطفـل الوديـع
صـار يلهو فـوق مخضر الربوع
وهو عندى كل شىء فى وجودى (١)

ومن خلال ما قيل فى هـذا الباب نستطيع أن نلمح خصـائص المرأة السودانية ونواحى الجمال فيها .

فهناك من الشـعراء من يحب المـرأة المشلخة والشلوخ شىء يكاد يكون عاما بين السودانيين والسودانيات ، وقد بدأوا الآن ينفرون منه ، ومن الشعراء الذين كرهوا الشلوخ عبد الله عبد الرحمن :

ما أجمـل الريف مصطافا ومرتبعا وغادة الريف فى عين وغـــزلان
الخد لم ترع «موسى» فى جوانبه والجيد من حسنه عن زينة غان (٢)

ولكنا نرى بعض الشعراء يحبون هذا النوع من « الجمال »

فينوس . من ساق الجمال مصـــورا فى زى غـاده
يضـــوى على قسماتها نور الملاحة والفصاده (٣)

ومن هذا قول الشاعر باخريبه :

لا يا حبيب القلب لا تشفيك من حبى اراده
لا ولا يشفى المحب الطب أو تجدى العيادة
الشـــفاء الحق ان حاولت أن تلقى مراده
لثمة فى خدك الناعم ما بين الفصـــاده (٤)

---

(١) مجموعة لسعد الدين فوزى .
(٢) نفثات اليراع ١١٩ والتشليخ غير سائد فى الاماكن البعيدة عن الحضارة .
(٣) ديوان التنى ٩٤ والفصادة يشير بها الى الشلوخ .
(٤) ديوان فيض من الله ٣٨ ، ٣٩ .

وفى هذا يقول التجانى :

فيــاوداعا حالمــا كالمــلا | ك تهبط من حجرات الأبد
يرف عليه شباب الفنــون | وتبرق فى وجنتيه «الفصد» (١)

كما أن له فى هذا صورة غير مباشرة نستطيع أن تتلمسها فى قوله :

أحرقونى على يديه وشــيدوا | هيكل الحب من فؤادى الذبيح
واعصروا قلبى المفزع للحسن | أمانا ، وعوذوه « بنــوح »
وتعالوا خذوا النعيم لخــديه | الوضيئين من دوامى جروحى (٢)

وقد قدم لنا الشاعر الناصر قريب الله صورة للبدويات فى الأبيض فقال :

ورعى الله فى الحمى بدويات ، زحمن الطريق مشيا وجرسا
نادبات النهــود غير وشــاح صان نهدا وخان آخر مســا
توجت رأســها ضفائر سود تلاقى لديه طردا وعكســا (٣)

كما قدم لنا صورة لفتاة عاملة فى « وادى كيل » :

وفتـــــاة لقيتهـــا ثم تجنى | ثمــر السنط فى انفراد الغزال
تمنح الغصن أسفلى قدميهــــا | ويداها فى صـــدر آخر عالى
فيظل النهدان فى خفقان الموج | والكشح مفــرطا فى الهــزال
شاقنى صـــوتها المديد تنادى | والعصافير .. ذاهب الآمال (٤)

---

(١) اشراقة ٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .
(٣) مجموعة للشاعر .
(٤) مجموعة للشاعر .

ويذكر الدكتور كامل الباقر احدى الكردفانيات فيقول :

يا ظبية فى « كردفان » بهـوانا اثق
أعجبنى فيـك الحياء واللسان الطلق
وراعنى من مقلتيك سحرها والحدق
وقد سبى مشاعرى حديثك المعتق (١)

واحمد محمد صالح يذكر فتاة من « الجزيرة » فيقول :

يا نظرة عرضت فحالت — بين جفنى والهجـود
فى الجـدول الرقراق — ما بين الخمائل والورود
تخطو وتحمل جـرة — تمشى وتعبث بالنهـود
ومضت تضاحك تربها — فتبين عن عذب بـرود
نظـرت فلما أن رأت — شيخا تقـدم من بعيد
ورأت حمـارى ضالعا — أعيا من المشى الوئيـد
صدت وأخفت وجهها — ولوت بسالفة وجيد (٢)

وقد يعتز الشاعر بواحدة من بنات وطنه رغم ما حوله من المباهج . فهذا مصطفى عوض الكريم يصور لنا شوقه الى زينب وهو فى مدريد فى احدى الحفلات الدينية ، فنراه وهو المسلم يدخل الكنيسة ثم يطلبها من الله :

لست أنسى ليـلة المعبد فى عهـد بعيد
حينما نادى المنـادى لصـلاة يوم عيـد
والنصارى يملأون الأرض من حلو النشيد
كل شىء ظاهـر للعين فى ثوب جـديد

***

وبدا الرهبان مذهولين فى صمت رهيب

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) صوت السودان فى ظل ٤/١٩٣٤ .

وعلت رائحة العطر لنـا من كل طيب
أوقدوا النار وطافوا وأطفنا بالصليب
وتمشت كهـرباء الحب فى كل القلوب

***

ثم قام النـاس كل يتمنى وينـادى
يسألون الله أشتات الأمانى فى اجتهاد
وتمنيتك يا « زينب » من كل فؤادى
ثم لم أسأل الهى غير هذا من مراد (١)

***

جـ — والظاهرة البارزة من هذا اللون من الشعر هى غرامهم بالنساء البيض ، وخاصة الأجنبيات عن البلاد ، فهم يعتبرون المرأة البيضاء أشهى ، وأحفل بالمتعة من المـرأة الملونة ، ثم انهم يرونها سافرة تعرض مفاتنها لا ملفوفة فى « التوب » الذى يقول عنه محمد الزبير شعير :

ألا لا بارك الرحـمن فيمـا سمى « التــوب »

لقـد يغريك من بعـد ... ويظهر ما به القـرب
فلا تحفـل بمظهــره ... فقـد يلبسه الضب (٢)

فالشاعر مدثر على البوشى يهلل لانجليزية تلعب التنس :

وغانية من « التاميز » تلهـو ... رمت كرة لتـدفع عن حمـاها
دنت ورنت وقالت «شط» حكم ... فسالت «شط» شهدا من لماها
فقلت بديعة لمـا أصـابت ... وتعدى بالبـداعة من رماها
كذلك تحكم الحسـناء فينا ... متى لاحت ولوح معصماها (٣)

والتنى يغرم بسويسرية ثم يبثها حنينه

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) مجموعة للشاعر .

أشتهى عجمة الرطانة فيـــه ... كتشهى الفطيم حلو الرضـاع
ان فى شـعرك المذهب معنى ... عسجديا ، وفيه ذوب شعاع
قلت «من أبدع المفاتن هذى» ... فأجابت فى ضـحكة وتداعى
أبدعتها أم الجمـال سـويسرا ... وسـويسرا عظيمة الابـداع
أنبتتنى كزهـرة فى رباها ... وكستنى من ثلجها اللمـاع
فأنـا ماؤهـا بعطفى وبذلى ... ورباها بجبرتى وامتناعى (١)

ويذكر فتاة تسمى « لولا » فيقول :

عرفت بها سـعدا ونعمى ... لدن كنت أنت الحبيب الوصولا
فان قيل لى فى جنـان الخلود ... تمن ، تمنيت ليلات « لولا » (٢)

وحسن عزت يصور لنا مغامراته مع ألمانية مرت بجوبا فى طريقها الى جنوب افريقية ، ثم يختم قصيدته بقوله :

هل تسألين ؟ أجل وفى عينيك يرتعش السؤال
أنا بنت أحراش الجنوب ، وبنت أودية الرمال
صهرت حشاشتى الشموس فرحت ألتمس الظلال
شقراء يا بنت الشمال . عبدت فيك يد الشمال (٣)

ومحمد أحمد محجوب يقول عن الأجنبيات على شاطىء البحـر الأحمر :

ذات شـعر مصفف وقـوام ... وحـديث كأعذب الألحـان
وهبت حسنها الفـريد لرقص ... وغنـاء بمزهـر ومثانى
أى هذى الحسان ياصحب فازت ... بعروش الجمال والتيجان (٤)

ومحمد سعيد النور نراه يفتن باغريقية ذات قوام وشعر أصفر ثم يختم قصيدته بذكر اسمها :

---

(١) ديوان التنى ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ١٣٤ .
(٣) الحان ثائر ٨٣ ، ٨٤ .
(٤) السودان الجديد ١٩٤٤/١/١٤ .

مونيكا الحبيبة انني بك مغرم   وأعيذ حسنك بالمسيح الطاهر(١)

وعثمان عبد الله وقيع الله يقول :

يا خليلي تيمتني « يولنــدا »   هي أنستني البتــول وهنــدا
حين راحت تحنــــو فتعبث   بالعود وتوفيه في البداية شدا(٢)

وأبو طراف يقص قصة احــدى الأجنبيات بعد أن غرق بها الزورق في النيـــل (٣) .

ونرى باخريبه حينما كان في انجلترا يستمع الى اسبانية تغني فيذكر هذا في شعره (٤) .

وكثيرا ما يفتن الشعراء الشعر الأصفر ومن هذا قول أحمد محمد خير في فتـــاة تسمى « لوسى » .

أي شعر سقى الهوى ذهبي   يتثنى كزاخــر دفــاق (٥)

ويقول محمد المهدي مجذوب :

شعرها العسجدي ينثال كالشلال   ينصب في قـــرار النفــوس (٦)

وقد أحب الشاعر ابراهيم محمد عبد العاطي فتاة يهودية ، وفضل من أجلها اليهود على العرب :

كتمت الحب دهــرا في عظامي   فأذكت ناره في القلب «سارو»
اذا ذكر اليهــود أقول مرحى   واهلا لا اذا ذكرت « نذار »
أليس من اليهــود حبيب قلبي   لذاك عليهمــو أبدا أغــار (٧)

وقد كان التجاني مغرما بغير المسلمات :

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) الينابيع ٩٣ .
(٤) فيض من الله ٣٦ .
(٥) مجموعة للشاعر .
(٦) مجموعة للشاعر .
(٧) الراووق ٤٩ ، ٥٠ .

هى نفس اشراقة من سماء الله تحبو مع القـرون وتبطى
كلما اهتاجها الحنين استظلت بحبيبين من يهود وقبط (١)

ونراه يقـول :

وتلك وفى معاصمها سـوار   وذاك وفى ترائبـه صليب

* * *

ولقد تعلم الكنائس كم أنف   مدل بهـا وخـد مورد

* * *

آمنت بالحسـن بـردا   وبالصـبابة نـارا
وبالكنيسـة عقـدا   منضـدا من عـذارى
وبالمسـيح ومن طـاف   حـوله واستجـارا
ايمان من يعبـد الحسن   فى عيـون النصـارى (٢)

وهذا كله تعبير صحيح عن أشواق هذا المجتمع الذى لا تأخذ فيه المرأة دورها كاملا ، ومن هنا كان نقل هذه « الانفعالات » الى السافرات من الأجنبيات ، مع التركيز الملح على جسد المرأة ، والنظر اليها على أنها مجرد زوايا ، ودوائر فقط فى أكثر الأحيان .

---

(١) اشراقة ١٠٧ .

(٢) اشراقة ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ .

الاجتماعيات

(٤)

١ — لقد تعرض الشعر فى هذه الفترة لقضية المرأة ، فوقف الشعراء الى جانبها ، بينما وقف بعض آخر لها بالمرصاد ، فعبد المجيد حاج الأمين يشيد بمواقفها التحررية فيقول :

أنا لست أنساك الغداة حيال وقفتك المنيعه
ضد التقاليد العجوز ، وضد «أشباه» وضيعه
لكن أهليك الكبار تكاتفوا ضـــد الشريعه
ساموك سوم تجارة كسدت بأثمان وضيعه (١)

وخليل فرح المغنى المعروف يقول :

لك منى وللحيـــاة ســـلام طلع الفجـــر والأنام نيـــام
كنت بالأمس جنـــة تحت أقدا مك تجرى الحياة وهى سلام
جنـــة كلمــا تقنعت الأكمـــام فيهـــا تفتحت أكمـــام
تثمرين النفـــوس حتى اذا ما نعس الطير واستراح الغمـــام
وقف الجـــو حاسر الرأس . لم يحـــر جـــوابا .. كأنه تمتـــام
نحن فى حاجة لاصـــلاح ما خلف القاســـطون ... والأيام (٢)

وقد حمل حمزة الملك طنبل على السفور :

ظلمنا الشريعـــة من جهلنـــا وان الشـــريعة لا تظلم
ولكنها بالحجـــاب اتقت فســـادا لأسرتنا يهـــدم
وكم خطر ان أبحنـــاه عن جمـــوع غرائزنا ينجـــم
فصونى جمـــالك عن فتية أبرهـــم قلبـــــه يأثم
ولا تخلعى عنك ثوب الحياء ولا تبســـمى لامرىء يبسم

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) مجموعة للشاعر .

أجازوا الخـلاعة للغانيات كأن الخـلاعة لا تحرم (١)

وبينما يقول منصور عبد الحميد فى الحجاب :

يدافعنى عنـك الحجاب وانما يحجب قدسى المفاتن مبدع (٢)

نرى محمد الزبير رشيد يقول :

ألا لا بارك الرحمن فيما سمى « التوب » (٣)

وحين شاركت السودانية فى الثورة ضد المحتلين رأينا جعفر حامد البشـير يقول :

أهى الفتـاة اليـوم تبرز للكفـاح
ان كان ذاك اذا ، فقد طلعت تباشير الصباح
واذا فيابشراك يا وطنى لقد ريش الجناح (٤)

كما رأيناه يهلل حين كون الاتحاد النسائى عام ١٩٥٢ :

ومن يفرح لأحداث الليالى فليس اذا كيوم الاتحـاد
توثبت الفتـاة به حيـاة وكانت ما تفيـق من الرقاد
وكيف تقول فى وطن بنوه بواد والبنـات به بـواد
ومن منح الفتاة هدى وعلما فقـد منح السـعادة للبلاد
فتاة الاتحـاد اليك أزجى تحية شاعر ونشيد حادى (٥)

وقد صور الحياة الاجتماعية للفتاة السودانية منير صالح عبد القادر فى قوله :

وكم من أب أقسى من الصخر قلبه طموح لدى ليل من الجهل أسود
يريد الغنى من بنته فهى سـلعة وحـرز يهـودى كثير التشـدد
فصارت عجوزا وهى بعد نضيرة على العمر من هم الغريزة والود

(١) ديوان الطبيعة ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) ثوب وطنى سابغ .
(٤) حرية وجمال ٦٥ .
(٥) المصدر نفسه ٨١ .

وراحت على الدنيا يراودها الخنا فبعض هوى والبعض رهن التردد
تمــردن فى صمت على كل والد أبى غير تحكيم الهــوى والتلدد
وتنتظر الأحــلام عطــل ســيرها أب جشع ما زيد فى المــال يزدد
وسمر العذارى كالدمى فى خدورها صوابر بين اليأس والأمل الندى[1]

وقد هلل الشعراء « للمؤتمر » وعلقوا عليه الكثير من الآمال فوقف على نور يقول :

هذى يدى لسماء المجــد أرفعها رمزا يشــير الى المستقبل الحسن
لما نرجيه تحت الشمس من وطر وما نفــــديه بالأرواح من وطن
دقوا البشــائر للدنيــــا بأجمعها وللعــــروبة من شــام الى يمن
انا هممنا وأرهفنـــا عزائمنـــا على النهوض بشعب للعــلا قمن
الله أكبر هـــــذا الروح أعرفه اذا تذكـــرت أيامى ويعرفنى
كنا ننميه ســــرا فى جــوانحنا حتى استحال الى الاجهار والعلن[2]

ورأينا الدكتور محمود حمدى يقول فى نادى الخريجين بالخرطوم

خطوة تبعث فى النفس الرجاء زادهـــا الله نمــاء فى نمــاء
يا شباب النيــل زدتم قــوة انما القــوة مفتاح البقـــاء
راقبوا النهضــة فى ابانهـــا قبل أن يقضى عليهـــا اللؤماء
واحــذروا الرجعى فى أفكاره انما الرجعى هــــدم للبنــاء

ويقـــول :

اليوم تأتلف النفوس على هـــدى ومن الهوى تبنى النفوس وتخلق
اليــوم تزهر رحبة النــادى بكم ياليت فى النادى الظنون تحقق[3]

ورأينا الدكتور محمود حمدى يقول فى نادى الخريجين بالخرطوم :

---

(١) النيل ١٩٥٧/٣/١ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) الشباب الاول ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٧ .
(٤) الفجر الصادق ٤١ ، ٤٣ .

ويتحدث عن الخلف الذى دب بين أعضائه عام ١٩٣٣ :

أتراهم وقد غلوا فى شقاق مسهم طائف من الشيطان (١)

ويقول بمناسبة انتخابه عام ١٩٣٤ :

لا عتب يقصيهم ولا تلوام فاجهر برأيك ما عليك ملام (٢)

كما نراه يذكر المؤتمر فى فخر ، ويذكر أن السودان ألقى اليه الزمام ويدعو للوحدة فى داره ، ومشيدا بالمهرجانات الأدبية التى كان المؤتمر يدعو اليها (٣) .

ومن أجمل القصائد التى قيلت فى هذا المجال قصيدة العباسى :

خذ فى الحديث والسمر واستقبل اليوم الأغر
قد حقق الله المنى وصدق الخبر (٤) الخبر
ها قد غرسنا خير ما يؤتى أطايب الثمر
ياما أحيلى هذه النغمة من هذا الوتر
ان الذى سوى الهلال هو من سوى القمر
حثوا مطاياكم وكونوا فى السرى على حذر
فان بالركب الذى أقلكم ركبان شر (٥)

وقد عبروا عن المعالم الجديدة التى استقرت فى بلادهم ، فذكروا خزان مكوار :

ألا هل رأت عيناك (مكوار) بعد ما أقامت يد الأقدار فى النهر السدا
كأن مرور الماء بين عيونه مرور سهام لا تكل ولا تهدا
لقد عد فرعون الكنانة نفسه الها لأن النيل من تحتها أنقدا

---

(١) الفجر الصادق ص ٤٦ .
(٢) المصدر نفسه ٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ٣٦ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ .
(٤) الخبر بضم الخاء وتسكين الباء : المخبر .
(٥) ديوان العباسى ٤٥ ، ٤٦ ويقصد بركبان البر دعاة الانفصال .

ولو عاش حتى شاهد اليوم مارأى | وما اثمر الخزان أزرى بما عدا (١)

كما يقول العباسى فى خزان سنار :

قف تأمل مفدى العجائب وانظر | شامخا يحسر العيـون استجدا
واجل ناظريك فيما اصطفى العلم | لأحبـاره ومـا قـد أمـدا
غاص بنـاؤهم فأخـرج بالفن | وآياته من النيـل طـودا (٢)

وقد رحب عبد الرحمن شوقى بأول طيار سودانى :

أسر فى الوادى وحلق فى الفضـا | مثلما تسرى النجوم الساريات (٣)

كما رحب ابن عمر بنادى السباحة والتجديف (٤) ، وتعرض يوسف الفاضل للترام (٥) ، وهلل عبد الله عبد الرحمن حين وضع الحجر الأساسى للمدرسة الأهلية عام ١٩٢٩ ، وساند ملجأ القرش ، ودعا الى يوم التعليم عام ١٩٤١ (٦) .

كما نراهم تعرضوا لمشكلة الغلاء :

حرب الغلاء أشد من حرب الوغى | اذ ليس تطلق هاربا وأسـيرا
كيف التجـارة تستقيم ودربهـا | لا يملك التوريد والتصديرا (٧)

---

(١) الحضارة ١٩٢٥/١٠/٧ .
(٢) ديوان العباسى ٢٩ .
(٣) صوت السودان ١٩٤٥/٣/٥ .
(٤) صوت السودان ١٩٤٥/٧/١١ .
(٥) صوت السودان ١٩٤٥/٨/٣ .
(٦) الفجر الصادق ٢٦ ، ٢٩ ، ٦٥ .
(٧) حرية وجمال ٢٨ .

ولتشكيلات العمال (١) ، ولمكافحة الأمراض الصدرية (٢) ، ولجماعة الزهاد ويسميهم محمد المهدى مجذوب فقراء غير هنود (٣) ، ولمشكلة اللقيط (٤) .

وهكذا نراهم فى وعى لا بأس به بوقع الحياة على أنفسهم ، ومن حولهم فى حدود امكانيات العصر .

---

(١) حرية وجمال ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ٤٦ .

(٣) مجموعة للشاعر .

(٤) نفثات اليراع ١٧١ ، ديوان الطبيعة ٤٦ .

الرثاء

(٥)

أهم ما ميز الرثاء فى هذه الفترة هو الصدق ، فهم لا يرثون فى أكثر أمرهم الا من يلتصق بنفوسهم ، أو من يكون له فضل على بلادهم ، سواء كان هذا الفضل سخاء بالمال ، والكلمة الطيبة ، أو سخاء بالروح .

ومن الذين اهتز السودان لموتهم حزنا « الأمير عمر طوسون » ، فمحمد المهدى مجذوب يقول :

نعشك المستكين فوق ضفاف النيل أفضى الى الجنوب خياله
تنحنى فوقه العمائم كالغيم   ويزهو على البياض هلاله
عمر المجد لابعدت وهيهات   فما ينفع اللهيف سؤاله
أثر الناس مشفقا غير مضعوف ، وأرضته بالجميل خلاله
طائف كالربيع حام على السودان   كم ترقب الربيع حلاله
ضحكت ظلمة « الجنوب (١) » عن الاسلام واستنفذ الحرام حلاله
وأقام « الكجور (٢) » يسجد فى المحراب من حوله بنوه وآله
مصر يا مصر كل من أنجبت الى دار الخلود مآله (٣)

كما رثاه أحمد البكرى ذاكرا فضله على السودان (٤) ، ومحى الدين صابر (٥) ، وعبد الله عبد الرحمن (٦) ، كما اهتموا بموت على الجارم (٧) ، والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم (٨) .

---

(١) جنوب السودان وقد كانت للامير تبرعات سخية لاهله .
(٢) ممثل الدين الوثنى .
(٣) صوت السودان ١٩٤٤/٢/٨ .
(٤) صوت السودان ١٩٤٤/٣/٢٠ .
(٥) السودان الجديد ١٩٤٤/٤/٢٤ .
(٦) الفجر الصادق ١١٨ .
(٧) السودان الجديد ١٩٤٩/٤/١٠ .
(٨) اشراقة ٧٦ .

ومن الذين رثاهم الشعراء بصدق الشريف يوسف الهندى (١) ، وقد يقف الشاعر عند حد تعداد المآثر ، والسؤال عن حقيقة الموت .

كقول البنا :

لسان القوافى صغ من الشعر جوهرا وفصله بالعرفان للصارم الهندى
.. وسائله كيف الموت ، كيف مصير من أقام على الدنيا طموحا بلا حد
نفضت غبار اليتيم عنك وحببت اليك السجايا الطامحات من المهد
ومن كان « للمختار » يعزى تعلقت بأذياله العلياء حبا بلا صد (٢)

وقد يقف الشاعر عند المظاهر الخارجية للحداد كقول محمد المهدى مجذوب :

ارو لى يا « نحاس (٣) » بعض الشجون انها فى عزيفك المجنون
املأ النفس يا « نحاس » برعد الهول أضحى الشريف رهن المنون
واخطرى يا سيوف مثل بروق كنيوب على سحائب جون
وارجعى يا جياد ، ولتحسر الفتنة فى عجب روعك المفتون
ذهب المقتنيك أجرا ومجدا عربى الشياة والتزين
جردوا الباترات يوم توليت وأخلى الحمام دفء الوكون
عريت قطع السيوف لتبكيك بدمع من الشعاع سخين
هاتها يا « نحاس » منك شكايا ت ترد الحليم كالمجنون (٤)

وقد تعرض أبو القاسم عثمان نعلى عبد اللطيف فى خماسيات :

أيها السابح فى بحر الأبد شفنا الدمع وأبلانا الكمد
وانبرى الخطب فأزرى بالجلد فى عتو من ضباب وزبد

وارتوينا من أهازيج الغناء (٥)

---

(١) ديوان التنى ١٣٢ .
(٢) صوت السودان ١٩٤٣/٢/٤ .
(٣) الطبل وكان قد ضرب فى موت الشريف الهندى .
(٤) صوت السودان ١٩٤٣/٢/٤ .
(٥) مجموعة بعنوان « من ظلال الهجير » لم تنشر .

وقد يرثى الشاعر شقيقه ثم يتعرض لأخ مات من قبل ولأفكار شائعة :

أعالج لبى أن يطيش من الأسى وأمنع جفنى أن تسيل شكاتى
كدأب الليالى فى أخ لك سابق تخطفنــه بالحين مختصرات
.. فهل لك منه كل يومين زورة لدى دارابراهيم فى الحجرات(١)

وقد يرثى الشاعر والده فيذكر مآثره ، وفضله عليه ، وولعه بالعبادة والشــعر الشــعبى :

«أنسية» الصلوات هل رددتها ترى الى خــير الأنام سلاما
أثلت «بالدوبيت» دولة شاعر عزت لغير الملهمــين مراما (٢)

كما قد يعدد مآثره المرتبطة به كنصيحة والد الشاعر على أرباب لأمين باشا بترك المديرية الجنوبية للمهدية وموقفه الرائع فى « فشودة » (٣) .

وقد يرثى الشاعر طفلا فيضفى سماته على الحياة من حوله (٤) .

كما يقابل بين عواطفه الحزينة حين يتعرض لرثاء موظف ، أو صديق أو شاعر ، أو فنان (٥) .

وقد يتعرض الشاعر لذكر أستاذ له فيؤرخ لكل أمجاده كما فى رثاء الدكتور محمود حمدى للسيد حسين شريف أول من كتب « الســودان للسودانيين » (٦) .

وقد يقف الشاعر على قبر حبيبته متسائلا : ملما ببعض العادات المحلية ككسر القبر (٧) .

---

(١) اصداء النيل للدكتور عبد الله الطيب وكثير من السودانيين يقولون ان الاطفــــال حينما يموتون يؤويهم ابراهيم عليه السلام .
(٢) ديوان التنى ٩٧ والانسيةصيغة للصلاة رواها عن النبى أنس بن مالك ، والدوبيت لون من الشعر الشعبى .
(٣) مجموعة للشاعر على ارباب .
(٤) اشراقة ٧٩ .
(٥) لحظات باقية ٦٨ ، ٧١ ، ديوان التنى ٦٦ ، ٧٠ .
(٦) الشباب الاول ٢٠ .
(٧) زيارة القبر بعد فترة .

يا موكب النـور أين أفضى بك الطـريق الذى سلكته
وذلك القـدس مذ تقضى تراك فى جـدول سكبته
أنام فى حجـرة وأغضى أم أنتحى فى الطريق بيته ؟

* * *

يا رقة فى الثـرى تذوب ونضـرة للردى تنشـر
وفتنـة ها هنـا تغيب وعـالما فى الهـوى تكسر
أأنت عوفيت ياجيـوب وذاك قبر الحبيب...يكسر (١)

وقد يتعرض الشاعر للموعظة فى الرثاء :

ألا فاغنموا الخـير ان الفتى سيلقى المنـون وان عمرا
وماذا عسى المرء أن يقـدرا وقد نفـذ الله ما قـدرا
وهـل من عزاء على فقـده سوى أن هذا مصير الورى (٢)

فالشاعر هنا لا ينفذ وراء حقائق الحياة ، ولا يتعرض لفلسفة الموقف الا من خلال الدين ، والمتعارف عليه من القيم لأن كل جهده رسم صورة للفقيد ، واظهار التفجع عليه

وقد تنجر هذه الصورة على كثيرين ممن يتعرض لهم الشاعر بالرثاء ، على أن الشـعراء لم يكتموا توجعهم على الذين يرتبطون عاطفيا بهم ، الا أن أحزانهم على زوجاتهم لم تأخذ صورة علنية ، ومن هنـا لم نقف على رثاء شاعر لزوجته مهما كانت قيمة هذا الرثاء .

---

(١) اشراقة ١٠١ .
(٢) ديوان الطبيعة ٤٣ .

الهجاء

(٦)

وفن الهجاء فن مزدهر فى السودان الى الآن واذا كان قد اختفى أو قارب الاختفاء فى بعض الدول العربية فانه مزدهر فى السودان وله جمعيات تقوم باسمه .

ولعل أهم ما يدفعهم الى هذا اللون من الشعر هو انفعالهم الدائم ، وحساسيتهم الحادة لوقع الحياة من حولهم ، وأجواء الكبت التى يعيشون داخل أطواقها .

(ا) وقد يبلغ بالشاعر حدا يهجو فيه مدينة بأكملها فيعدد مساوىء أهلها فى سلاطة وعنف ، فحمزة الملك طنبل يقول فى الدويم :

بلدة خاب بمن فيهـا الرجاء ... جمعت شـمل لئام السـفهاء
ففتى كالذئب فى شكل امرىء ... باسـم السـن خـداعا ورياء
ودعى موغـل فى كبره ... جاملا رأسـا من العقـل خلاء
و « عـوير (١) » يدعى العـلم ولكنـه فى علمـه كالببغـاء
هل سـمعتم أن شخصـا مرة ... سره من بعض أهليـه البغاء
نفـر لا خـير فيهـم خلقوا ... من شرور ليس من طين ومـاء
بنفـوس طفحت خستهـا ... فهى لا تصـلح للنـاس وطاء
ان يكن ربك سـواهم فهـم ... نفر أجبن من تحت السـماء
هفـوة أخرى هفـاها آدم ... ان يكن ضمن بنيه هؤلاء (٢)

وادريس جماع يقدم لنا صورة فردية للهجاء فيقول :

---

(١) العوير بلغة السودان الدارجة الابله .
(٢) ديوان الطبيعة ص ٤٧ .

قــد غــاص فى الأوحال حتى حصــنته من الرماء
فى مأمــن من هابــط يدنو اليـــه ولامراء
بالصمت يهجى بعضــهم والبعض يهجى بالهجــاء
قد كاد فرط السخط منه يســـتحيل الى رثاء

وقد يهجو شاعر آخر فيقول له :

والله يعلم ان شــعرك كالحجارة يا (عوير) (١)

ومن هجاء محمد محمد على قوله :

هون عليك فما فى النجم من وطر هون عليك فأنت صريع الجهل والخور
لو كنت تعلم ما حملت من دنس سترت نفسك ان أحسست بالنظر
أراك ترفل فى الأكفــان مفتخــرا بجثــة لفظتها ظلمــة الحضر (٢)

وحسن عثمان يهجو جارا له فيقول :

ولى جـــار أعــوذ برب جارى من الجيران ان كانوا كجــارى
لئيم الطبــــع ذو طبع قبيـــح فلســت تراه الا فى شــجار
يسب الدين قبــل الفجــر سبا ويلعــن كل شىء بالنهــــار (٣)

٢ — وقد حملت لواء الهجاء فى السودان جماعة تسمى « جماعة حسن بدرى » وهو شاعر صاحب مكتبة فى أم درمان ، والشرط الوحيد للانضمام الى هذه الجمعية هو أن يهجو من يرغب الدخول فيها شاعرا من المنضمين الى الجمعية ، فاذا كان هجاؤه قويا قبل فورا بين الجماعة ، وحق له أن يضع شعر الهجاء فى مكان خاص بالمكتبة يسمى « درج السفاسف » ليطلع عليه كل من يريد الوقوف على هذا اللون .

وقد تحدث عن هذه الجماعة النور ابراهيم :

---

(١) مجموعة للشاعر محمد الزنير رشيد .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) مجموعة للشاعر .

أحاديثهم سحر البيـــان وقولهم فكاهات هــزل طرزت بالطرائف
هم زينوا درج ابن بدرى بدرهم وأسموه عن زهد بدرج السفاسف
وذاك لأن الدر فى شــرع مثلهم أقل اعتبارا من درارى الصحائف

وحين زهد بعض الشعراء فى هذا اللون رأينا حسن بدرى يستثيرهم جميعا ليردوا عليـه :

ياعصبة هجرت بنات الشعر عن كسل يكاد الى الخمول يعيـدها
تهجون من أحيـا لدولة شعركم فغدت ترف على البيـان بنودها
لمـا رأى روح القـريض تناثرت أوراقهـا ظمأ ، وأذبل عــودها
.. فأثرتها شعواء بين صفوفكم ملأ الفضـــــاء بروقها ورعودها

ومن هنا فقـد ردوا عليه بقصيدة طويلة اشتركوا جميعا فى نظمها وقد جاء فيها :

ألا من مبلغ عنـا ابن بدرى بأن الشـر آخـره لشـر
جعلت « الدرج » وكرا للأهاجى فقـــد آوى اليـه شر طـير
.. وما عرفت لك الأيام سـعيا حميـدا أو دعيت لفعـل خـير
أتسـعى بالوشـاية بين قـوم كرام من بنى المجـد الأغـر
.. فيـالك تاجـرا فى كل فن يبيع المكرمات وليس يشـرى
أأوراقا وبطيـــخا وتمـــرا وآخر فى الزكائب لست أدرى (١)
.. أحاول أن أسوق اليك مدحا ويأبى الله يا حسن بن بـــدرى
وقالوا الشيخ ذو فضـــل فقلنا وطاســـات وكاســات وخمـر

وقد كان أكثر هذا الشعر يدور حول الوقيعة بين الأعضاء والتفكه به.

ومن هذا ما قاله أحد الاعضاء لزميـل له اشترى بعض حاجياته من محل آخر :

---

(١) لم تكن المكتبة مقصورة على بيع الكتب ، كما هى العادة فى أكثر حوانيت السودان .

قال ابن بدرى فيك ما لو قلته لغضبت منى

وقد كانوا يذكرون الهجاء فى أكثر من غرض ففى وداع « امام دوليب » حينما كان مسافرا ليتلقى العلم فى مصر رأينا النور ابراهيم يقول :

شذ « الامام » بلون وجه كالح   فتخاله بين الملا اقواء
عجبا لمصر وكم بها من مضحك   حتى متى تستجلب الأدواء
يا مصر ان ترمى بأسود نابه   فلكم رميت بحية رقطاء
هذا « كويفير » أتاك معمما   أرض الكنانة احذرى الأزياء

وقد يتبادل شاعران الهجاء فيقول كرف يهجو الناظر لتخطيه فى الترقية :

لعمرك يا فرخ الأعاجم اننى   أجد نبوة عن كل ما يهتك العرضا
ولست ذليلا لامرىء غير اننى   أكرم اخوانى ولا أعرف القبضا
ضعفت فأسلمت القياد للجنة   ولم تستطع يوما لجمعهم فضا
ولو كنت يوما فى مكانك نشتهم   وأشبعتهم وخزا اذا شئت أو عضا
فلا ترج من مرخى العجيزة عزمة   ولا خلقا سمحا ولا كرما محضا

ويرد النور ابراهيم :

حنانيك بعض اللوم لايشبه البعضا   فلست أرى طولا للومك أو عرضا
وتزعم أن الذل يعرف أهله   وأنت به دون المنازل لا ترضى
وما الذل الا أن تعيش مدرسا تجيد صنوف المسك فى الفصل والقبضا
ولو كنت يوما فى مكانى « ناظرا »   لهالك ما ألقاه من مقل مرضى

ومن قوله كرف فيه :

آذن النور والنويراب (١) طرا   انهم ينزلون شر منباخ
لصقوا بين حارس عند باب   بربرى . أو زارع فى سباخ (٢)

---

(١) تضاف آب لتدل على الاسرة .
(٢) يقصد انهم يعملون كبوابين بمصر أو يقيمون فى أرض مجدبة وهى أرض الكنوز .

أسرع النـاس للمعـالى وباتوا　　من هوان كأنهـم فى فخـــاخ
كيف تدرى لاعجمى (١) فلاحـا　　وهو من طينة «الكنوز» المساخ
ليس يدرى لـذاذةالعيش فى شىء سـوى أنه يسىء عهـــد التآخى

ومن قول بعضهم فى المكتبة

ومكتبـــة اذا ما كنت فيهــا　　كأنك فى خـــرائب بعلبـكا
ترى الحشرات مـن ذكـر وأنثى　　يصرصر ذابهـا وتصـيح تلكـا
يفـاخرنا بها حسن بن بدرى　　ونوســعه لوجه الله ضـحكا

وقد يصل بهم الفحش حدا يخرج بهم عن أبسط التقاليد .

فهذا شاعر يقول فى النور ابراهيم :

أتيت وبى ثورة جامحــة　　فخبـرت عن كلبـة نابحـه
ألا يعـلم النـور أنى امـرؤ　　ثكلت اذا لـم أكن « . . . »

وقد وصل بهم الأدب المكشوف حدا لم أعرفه فى الأدب العربى كتلك القصيدة التى مطلعها :

أبى الشـيخ الا اجترار الحقوق　　وآلى ليجتـرحن السـفه
ترى حـوله الصـبية المـردفين　　وما منهم أحد أنصفه (٢) .. الخ

فالهجاء هنا بصفة عامة يعتمد على الفردية ولا يصل الى حـد هجاء طبقة أو وجهة نظر سائدة ، أو ينطوى على عدم الولاء للمجتمع .

---

(١) لهم رطانة خاصة بهم .

(٢) المرجع شعر هذه الجماعة أنفسهم ، ودرج سقافهم ، والسودان الجديد فى ٢/٢٢ ، ٣/١ ، ١٩٤٦/٤/٢ .

الدين والشك

(٧)

(أ) وقد ظلت للدين قدسيته فى المجتمع ، وظل الشعراء يحتفلون بأيامه الخالدة فعبد الحميد مدثر أبو القاسم يقول عن الفكرة الاسلامية :

يا فكرة لا تنطفى للحق والخير الصراح
نزلت سلاما للوجود وبلسما يشفى الجراح
فاذا نشدنا الحب ألفيناه فى الاسلام لاح
واذا أردنا العدل فالقرآن أسمى ما يتاح
يافكرة تصبو اليها اليوم آمال جماح
ويسير ركب الوعى نحو رحابها جم الكفاح (١)

والتجانى يقول عن « الله » مستغرقا فى سبحة علوية باحثة :

انه النور خافقا فى جبين الفجر ، والليل دافقا فى المساء
صفه رعدا مدويا فى السموات وصوتا مدويا فى الفضاء
هو ان شئت محض نار ونور وهو ان شئت محض برد وماء
نحن مجلى علاه فى كل دان من مرائى الوجود أو كل ناء
ظن أدنى الظنون فى قربه منك وأقصى ما شئت من عليساء
وادن بالجانح المشط وصعد بالخيال المسوم العداء
وتوغل بين الظنون ونفر ها خيالا واقعد على الجوزاء
تلقه فى الحياة أدنى الى نفسك منها اليك فى الاصغاء (٢)

والشاعر يطلب من الله الرضا ويتساءل كيف صنع العقل (٣)

وقد يذكر الشاعر رسوله وهو فى لندن فيترنم بهداه ويرد على الذين يهاجمون دينه ، ويذكر صلاة مواطنيه فى بلاده ويستجير بالنبى على مغتصبى حقوق بلاده :

---

(١) مجموعة للشاعر .
(٢) اشراقة ١٤ .
(٣) المصدر نفسه ١٧ .

نبى تبعنـــاه عـلى كل حـالة برغم الذى عادى ومن كان كذبا
يقولون ما الاســلام الا ضلالة وفضلة ماض حبـله قد تقضبا
ولن تفلحـوا أو تتركوه وراءكم وتلتمســوا عنه مناصـا ومهربا
فتالله لم نبصر سـبيلا كمثـله أدل على قصـد واهدى وأقربا
.. ألا يا رعى الله الذين توسـدوا لدى العدوة القصوى صعيدا مطيبا
أراهم أمامى آخر الليل موهنـا شخوصا تراءى أبعـدين وأقربا
بأيديهـم الألواح فيهن أسـطر كتاب الاله هـاديا من تنكبا (١)
لعل رســول الله أرغب من دعا الى الله قلبا فى الأنام وأرحبـا
يعين به الرحمـن قوما أعـزة أذلهـم جـور عليهم تغلبـا (٢)

وقد استوحى الشاعر نفسه قصيدة زهير بن أبى سلمى :

ان الخليط أجد البين فانفـرقا وعلق القلب من أسماء ما علقـا

فقال قصيدة بعنوان نبوية مطلعها :

اما الخليط فبانوا بعـد ما علقـا منك الفؤد هواها فاكتم الحرقا (٣)

وقد كانوا يحتفلون بمولده ، ويستعيدون فيه أمجاد الاســلام ، ويدعون لبلادهم بالخلاص ولأنفسهم الرحمة (٤)

ومن أجل هذه القصائد قصيدة التجانى التى تعطى حقيقة تصـور المسـلم لله :

وى هـلم اسمعوا المـلائك يعزفن بميلاده نشـيد السرور . .
وى هلم المسوا تحسوا جنـاحا خضلا فى الثرى وحـول السرير
أين أمسى فى الغـارحين رأى الله بعينيــه فى نواحى ... (٥)

(١) فى المعجز قبض .
(٢) اصدار النيل ١٢٢ – ١٢٤ .
(٣) المصدر نفسه ١٧٤ .
(٤) عصارة القلب ٢٩ ، وفيض من الله ٧ – ٩ .
(٥) اشراقة ٢٠ .

كما اهتموا بالهجرة وترنموا بها ، وتغنوا بأمجاد الاسلام ، وسردوا القصة ، وتغزلوا فى الهلال (١)

وقد يحس الشاعر بمباهج رمضان من باريس فنراه يقول :

رمضان والأيام تذكر كيف الرفاق عليك والسحر
صور من الماضى أجمعها فتكاد تنطق فى يدى الصور
فكأن يومك من تألقه تسبيحة أو خاطر عطر
وتجمع الصبيان واحتشدوا وترقبوا مسراك وانتظروا
فكأنهم صاموا وما فعلوا لكنهم بجلاله شعروا
حتى اذا قرع الآذان مضوا فتصايحوا فى الحى وانتشروا
أما المآذن فى جلالتها فكأنها الآيات والسور
ومسحر طرب يهيب له من ضجعة الأحلام مستحر
تتجاوب الطارات بينهم فى الليل كالدعوات تنتشر (٢)

ونراهم يهتمون باللغة العربية باعتبارها مظهرا من مظاهر الدين :

فيقول عبد الله عبد الرحمن فى تحيته للجارم حين استقدمه وزير معارف السودان ليضع عن اللغة هناك تقريرا :

فاعطف على لغة الكتاب فانه شر عظيم أن نراه مزالا (٣)

وقد تأثر الشعراء بالقرآن والحديث فعبد الله عبد الرحمن يقول :

وليس بحق أن يقال لظامىء اليه « وحرمنا عليه المراضعا »

يا قوم أنتم شجر أصله فى الأرض لكن فرعه فى السما

عيناى فى جناته كعيونه نضاختان

شكرا للملك تحته الأنهار تجرى ملك مصرا

والرأى عندى لا نرى من بعده قدد طرائق

---

(١) حرية وجمال ٣٨ ، عصارة قلب ١٨ ، ١٠١ ، فيض من الله ١٠ .

(٢) مجموعة لمحيى الدين صابر .

(٣) الفجر الصادق ٦٠ .

فبالله فاستعصم ويسن لا ترع فمن بين أيديهم ومن خلفهم سد
للسائل والمحروم فى أمواله حق كفاه العيش غير كفاف (١)

ويقول حسن طه :

وان رأونا نصلى فى الجنوب على مرأى من الناس ويل للمصلينا

ويقول محيى الدين صابر :

لقفت ما افكوا من منطق أفن لما التقت فيك أفكار بأفكار (٢)

ويقول على أرباب :

يطوف ولدانها فيكم بآنية من فضة ملئت بالتين والعنب (٣)

ويظهر أثر الحديث : عفوا تعف نساؤكم فى قول حمزة الملك طنبل فى لقيط :

أيهما كان الظلوم البليد هل والد ام آم هذا الوليد
من نزعة الشهوة جاءا به فويل لمن عن عفاف يحيد (٤)

كما يظهر أثر الحديث « أعدى عدويك نفسك التى بين جنبيك » فى قصيدته « الى النفس »

الا أنت شر بين جنبى وليكن مصيرك للحتف المروع بكره (٥)

(ج) وقد يظهر اثر الشك أو التألم منه :

فحمزة الملك طنبل يقول :

والردى ليس لنا منه علاج وهو قفر هائج شر هياج
ومصير الناس ظن وكلام (٦)

والتجانى يقول :

ما كنت أؤثر فى دينى وتوحيدى خوادع الآل عن زادى ومورودى

---

(١) الفجر الصادق ٦١ و ٦٥ و ٧٥ و ٧٧ و ٨١ و ٨٥ و ١١٨ .
(٢) مجموعة للشاعر .
(٣) مجموعة للشاعر .
(٤) ديوان الطبيعة ٤٦ .
(٥) المصدر نفسه ٧٠ .
(٦) المصدر نفسه ٨٠ .

أشك يؤلمني شكي وأبحث عن برد اليقين فيفني فيه مجهودي
أشـــك لارضى مني ويقتلني شكي ويذبل من وسواسه عودي
وكم ألوذ بمـن لاذ الأنام بـه وأبتغي الظل في تيهاء صيخود
الله لي ولصرح الدين من ريب مجنونة الرأي ثارت حول مجهودي
ان راوغتني في نسكي فكم ولجت بي المخاطر في ديني وتوحيدي (١)

وقد كان سبب فصله من المعهد أن الطلبة نقلوا عنه أنه يقول ان شعر شوقي أجود من القرآن الكريم ، ويقال ان ما قاله هو أن الفرق بين شوقي وحافظ كالفرق بين القرآن وأي كتاب من كتب البشر (٢)

على أن شعره يؤكد أنه كان معذبا بفكرة الشك في حقائق الحياة والدين

ومضى الشـك باليقـين فلله فؤاد تأكلتـه الرزايا

بـين اثنتـين أسر أم أبـكى قبس اليقين وجـذوة الشـك
حبـك القضـاء شراكه ورمـى للعقل منـه بضيق ضـنك (٣)

وقد يبالغ بعضهم في التهتك ، وينكر ما تواضع الناس عليه .

كما يظهر هذا في قصيدة ابراهيم محمد عبد العاطي التي رمي بسببها بالكفر والزندقة ، وقد جاء فيها :

فلسـت بتـارك غـزلي وغيي ولست بعـاشق دار القيـامه
أحب الي في الدنيـا غـلام رشـيق في ملامحـه وسامه
وكأس من عتيـق الراح مـلأى تقربها الى شـفتي غـلامه
أداعبهـا فتـجذبني بلطـف وأرمقـه فيرزقني ابتسـامه
تنقـل بين دوح الحب وانعـم فلا حـرج عليـك ولا مـلامـه
وليس الجنـة الفيحـاء وقفـا على البـله الزعانف والقمـامه
لحى الله الألى كذبـوا علينـا فقـد سلكوا بنـا طرق الندامه
مهازل دونوهـا في فصـول من التهـريج أشـبه بالدرامه (٤)

---

(١) اشراقة ٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢٣ ، ٤١ .
(٤) الأمة في ١٩٥٧/٥/٢١ .

وللشاعر الهادى العمرابى قصيدة تسمى « الكفرانية » جاء فيها :

أنا كافر بالله لكــن مــؤمن بكتابــه
أنا مؤمن بالله لكن كافــر بحســابه
ماذا ترون وهــذه أقــوال فن نــابه
الكفر والايمان يصطرعان بين ثيابــه
فالكفر أصل يسبق الايمان فى أسبابه
والكفر والايمان بينهما عميق تشــابه
ان قيل « انك كافر بالله » لست بآبه
أو قيل انك مؤمن فلكم جثوت ببابه
أرجوه مغفرة ولا أخشى أليم عــذابه
فعذابه حــق لمن يختــاره كثوابــه
ولربما كان الثواب لديه مثــل عقابه
بحر من الشك الجميل سبحت بين عبابه
وغطست فى أعماقــه جريا وراء لبابه
وطفقت ألتمس الحقيقة فى قصى شعابه
فاذا الحقيقة وهى بنت البحث من أسبابه
كمنت وراء الله واستخفت على أحبابه(١)

واذا علمنا أن القلق كان من سمات هذه الفترة ، وأن الشاعر السودانى لا يخجل من التعبير عما يحس به مهما كان هذا الاحساس ، وبخاصة اذا كانت قد ترسبت فى نفسه قيم غيبية بدون مناقشة ثم كان عليه أن يواجه الحياة بعد ذلك بمنطق حاد . اذا عرفنا ذلك أمكننا أن نوضح هذا اللون من الشك ، ومحاولة الخروج على المألوف .

---

(١) مجموعة للشاعر .

ولعل من المغالاة أن نستخرج من هذا الشـعر موقف « الانسان » من حقائق الدين ، واستخدام رموزه استخداما ، ذكيا موحيا ، لأن الصفة الغالبة عليه هى الدفاع عنه بحماس واع يصـل الى حد التضمين بالآيات والأحاديث أو عدم الرضى عن المحرمات ، أو مجرد السباحة فى « الشك الجميل ! »

الحنـــــين

(٨)

(أ) ومن مظاهر الشعر فى هذه الفترة الحنين الى السودان وقد يحن الشاعر الى بلاد زارها فى الوطن نفسه وقد مر بنا طرف من حنين الهادى قريب الله الى أم بادر ، ودار الوكيل ، ورشاد ، وحنين حسن عـزت الى الشويحات (١) ، وحنين ادريس جماع الى القضارف (٢) .

وحين نقل مبارك المغربى الى ملكال نراه يحن الى « كريمـة » والى « الموردة » وحين ينقل يحن للجنـوب . كما نرى حنينـه الى كردفان ، والى جزيرة توتى (٣) ، ونرى خليل عجب يحـن الى النهود (٤) وكامل الباقر يحن الى الرهد (٥) .

وقد يقف الشاعر على الآثار القديمة فى البلاد فيذكرنا بوقفة الشاعر العربى القديم ومن هذا وقوف أبو طراف النميرى على سواكن (٦) ووقوف العباسى على أطلال قصر الملك بادى أبو شلوخ فى سنار .

وربوعـا أحالهـا عنت الدهر   مراحا للحادثات ومغـدى (٧)

ووقوفه على وادى هور الذى دلت الحفريات على أنه كان مثوى لحضارة عريقة (٨) ، ووقوف مبارك المغربى على سواكن .

انى وقفت عـلى البـلى   أرثى الـذرى المتـداعيه
وأطوف بالمـاضى السحيق وبالمغانى الثاويه (٩) .

---

(١) دموع واشواق ٧٩ .
(٢) لحظات باقية ٩٦ .
(٣) عصارة قلب ٢٣ و٥١ و٥٨ و٦٨ و٨٠ .
(٤) الكتاب الاول للندوة الادبية بأم درمان ٧٢ .
(٥) مجموعة للشاعر .
(٦) الينابيع ٣٦ .
(٧) ديوان العباسى ٢٨ .
(٨) المصدر نفسه ٥٠ .
(٩) عصارة قلب ٨٥ .

وقد يتوغل الشاعر فى التاريخ القديم فيقول :

قفـابى على أطـلال « نبته » وقفـة السموءل فى تيماء بالأبلق الفـرد
وعن « مروى » ذات العماد تحدثا وقولا لها هل فى طلولك من رد (١)

(ب) ويبلغ شعر الحنين تدفقه وقوته فى الفترة التى يقضيها الشعراء بلنـدن . فهذا المجتمع لا يفتح للطالب الملون قلبه ، ويشعره فى كل لحظة أنه دون الناس هناك . ومن هنا يعانى الشعراء من عقدة اللون ، وقد عبر عن هذه الفكرة عبد الله الطيب فى قوله :

يا بؤس للملـونين عذبتهـم « لنـدن »
تفتنهم كما سـواهم بسـناها فتنـوا
حتى اذا ماضـلة الى هـواها ركنوا
لاقتهـم شراسـة من وجهها وشزن
فانصرفوا قلوبهـم غيظ بهـا وحـزن
وزفـرات ليس يمحو حزهن الزمـن (٢)

وقد لاقى الشـاعر من هذه الفكرة الكثير . فقد اعترض أهل زوجته عليه حينما تقدم اليهم خاطبا ، وهذا الزواج هو الذى أشار اليه النور ابراهيم بقوله :

انا لنرجـو أن يكـون بنوهمـا
فى حـزم « نلسن » فى حجـا « المأمون » (٣)

وقد تعرض لهذه الفكرة التنى فى قوله :

أنه ينـكر من أحوالهـم عجمة اللفظ وتقديس الصليب
وخـلافا غير ما يعهـده وجمودا باردا جد عجيب
مثلما قـد أنكروا من لـونه سمرة كالخال فى خد حبيب
فارحمـوا غربتـه عـودوا به قد كفاه ما يلاقى من لغوب (٤)

---

(١) الفجر الصادق لعبد الله عبد الرحمن .
(٢) اصـداء النيـل ٥١
(٣) مجموعة للشـاعر
(٤) ديوان التنى ١٢٧ ، ١٢٨

وتسوقنا التفرقة العنصرية هذه الى هذا الحوار الذى دار بين عبد المجيد الحاج الأمين وفتاة تسمى « سوزان » بأمريكا .

سوزان : من أين جئت مفــزع النظـــرات محمــوم الفكر
هل جئت من بلد تقــاذفه المخـــاوف والنـــذر
هل جئت من « تكساس » من بلد العصابات الكثر

الشاعر : أنا لست من أمــريكة يا بنت فــكر يحتضــر
أنا موطنى افريقيــــا بلد المــآسى والنـــذر

سوزان : قل لى الكثير عن الوحوش ، عن التماسيح الكبر
عن رقصة الحــــرب المخيفة ، عن أســـاطير أخر
أو تأكلون لحــوم بعض النــاس ان صعب الأمر !

الشاعر : ســوزان يا نفــح العبير يشــع فى الخــد النضر
أنا لا ألومــك أنت يا ســوزان يا همس الزهــر
قــد رمت معــرفة ولو كفــروا بعقلك ما كفــر (١)

وقد كان الانجليز أنفسهم يعملون لهذه الفكرة فى الجنوب .

ومن هذا قول محمد المهدى مجذوب :

وان عجبت فمن قس أخى ورع لدى الكنيســة لم تعلق به الريب
انى لأعرض وجهى ثم أسأله عــن لون وجهى بالآلام ينتقب
فكيف يمنع قلبى عن مواطنه وكيف مثلى فى السودان يغترب (٢)

ومن الشعراء الذين تغربوا فى لندن وتدفقوا حنينا وحبا مصطفى عوض الكريم فهو يقول :

اين منى صادح فى ملتقى النيلين غنى
وغصون فى ضفاف النيل خضر تتثنى
ذاك عهد كان حلما قد طواه الدهر عنا
ليته دام وهــل تنفع ليت من تمنى

---

(١) مجموعة للشــاعر
(٢) مجموعة للشــاعر

ويقول آسفا على فراق بلده :

رعى الله قــومى النازحين بكرمة   وحيــاهم عنى النســـيم المعطر
فهيهـــات واد لنــــدنى أحله   وواد بأدنى « كرمة » أتذكـــر
يؤرقنى شــوق تجــدده النــوى   كما تضرم النار الرياح فتســعر
ولا عــذر لى لما ترحلت طائعــا   وقد كان لى دون الترحل معــذر
تشفع بالدمــع الغــزير شويدن   بكرمة يبدى بعــض ما هو يضمر
لقــد كان لى ظل ظليــل ومــرتع   جميــل وواد دون نعمــاه عبقــر
فهل أجلسن تحت النخــل يظلنى   من السعف المسحور فينان أخضر؟
وهل أملأ الكفين من ماء جدول   به من زلال النيــل شهد مكوثر
وهل اسمعن صوت القمارى موهنا   لها فى غصون الطلح والسنط منبر
لقــد ضاع منى كل هــذا وانما   عــزائى أن الآدمى مســير
وما شــغلتنى عن جــآزر كــرمة   من البيض عين ناهــدات وضــمر

ثم يخشى الموت فى لندن فيقــول :

لعمرى لقبر بالســليم يحفــه   من العشر الظمــآن أقتــم أغبر
أحب الى قلبى مــن الأفق الذى   نزلت به يخضــل فيه الصنوبر
فلو كنت فى عليــا الجنان منعما   تنادمنى حور كواعب ضــمر
يقــدم لى الغلمان خمــرا عتيقــة   يمازجهــا ماء الغمــام المقطر
وزادى تدنيــه المــلائك يانع   من العنب المسحور بالخمــر يقطر
ويقرأ لى الأشعار جبريل منشدا   بصوت رخيم والنبيــون حضر
.. لقلت أرب العرش عد بى لكرمة   منى النفس فيها والنعيم المقــدر !

وقد مر بنا أن الشاعر حينما كان فى مدريد ورأى الناس يفدون على الكنائس يدعون . دخل هو الآخر احدى الكنائس ليسأل الله فتــاته السودانية « زينب » (١) .

ونرى مثل هذا الروح فى قصيدة محمود محمد على نمر فى قصــيدته

---

(١) مجموعة لم تنشر للشــاعر

الحنين الى الوطن بين لندن والخرطوم (١) ، وعبـد الله الطيب يرفدنا بالكثير من هذا اللون فنراه يحن الى ملتقى النيلين ، والسواقى ، والنخل حتى شوك « السيال » ، ويذكر النجوم على النيل حينمـا يتساقط عليه الثلج هناك ، ولا يحب البدر الا على النيل .

سـمج البدر فى مدائن تكس من دخان تخاله اعصـارا
سمج البـدر لا يكون على النيـل تناجيـه جهـرة وسرارا
هل ترى من تحب بالشـفق الساحر بالنيل زاحمته الصحارى

ونراه يذكر الليل على النيل ، والجزيرة ثم يقول :

ألم ترنى ضـاعت حيـاتى كلها وأفنيت روق العمر فى بلد الكفر
فياليت أن النيـل يدنو فمـاؤه أحب الينـا من معتقة بكـر

وحين يزور « كلوول » باقليم تلال مالفـــرل نراه يذكر بلاده والحياة فيها :

ديار من فؤادى كنت فيهـا وكان أبى وكان بنو لسـابى
ولم أفتـأ ـ وان أنزح ـ اليها يحركنى الحنـين مع الحنـان

وحنين الشاعر من باريس الى بلده ليس حادا حدته فى أمريكا أو انجلترا لأن المجتمع الباريسى لا يضغط على الملونين ، وقد مرت بنـا قصيدة محيى الدين صابر التى يتشوق فيها الى رمضان من هناك ، وحين يحضر الى السودان نراه يحفظ أجمل الذكريات عن هذه البلاد :

لله فى « الكونكورد » وقفة صبوة وحديث أشواق وبث شـجون
أو جولة فى « اللوفر » بين مفاتن من فـــرحة فى لوحة وأنين
« بودلير » من أنغامه أنفاسـنا حينا وحينـا هن من « فرلين »
صور على النهر القديم ألفتهـا عند الأصيل فذكرها يصبينى (٣)

أما حنين الشعراء السودانيين فى مصر فيبدو هادئا . تغلب عليـه

---

(١) السودان الجديد ١٩٥٥/٢/١٤
(٢) اصـداء النيل ١٢ و٢٢ و٣٠ و١٠٦ و١٠٧ ، ١١٣ ـ ١١٥
(٣) مجموعة للشـاعر

الذكريات القـديمة المستقرة فى أعمـاقهم ، وقد تغلف الذكريات بأمل ، أو رؤى تائهة .

على أن أكثر هذا الشعر يحتفظ بالروح المصرية ، والثقافة المصرية بحيث لا تستطيع فصله عن الواقع المصرى . ذلك لأن مصر تفتح قلبهـا لهؤلاء الشعراء ، وتمنحهم من نفسها الكثير .

فقصائد جيلى عبد الرحمن : شوارع المدينـــة ، وأطفال حارة زهرة الربيع ، والفجر فى قرية ، وعزاء فى قرية (1) تصور الواقع المصرى والحياة المصرية أكثر مما تصور الواقع السودانى والحياة السودانية .

وقصيدته « عبرى » التى تقدم صورة عن ذكريات طفل صغير هنـالك لا ترسم لنا شيئا جديدا مختلفا فى جوهره عن الحياة المصرية فى الريف . اللهم الا بعض الألفاظ التى تستخدم دلالالتها لتعرفك أن الشاعر يتكلم عن السودان كأكلة لحم التمساح ، وحنينه الى « صاى » (2) ، فاذا انتقلنا الى قصيدته « هجرة من صاى » التى يرسم فيها لوحة لوداع أسرة سودانية تأخذ طريقها الى مصر ، وجدنا الشاعر لا ينقل الينا بصـدق مشاعر هذه الأسرة وعاداتها لانشغاله بالألوان الخلفية ، والتهويم العاطفى .

وقفن على الشـط كالذكريات بقلب المعـذب والشـاعر
.. وقال وفى مقلتيه دموع نزلن غـزارا على خـده
وفى قلبـه أمنيات حيـارى يناجى بها الليل فى سـهده
.. كهول على الشط تحت النخيل كأشـباح أسـطورة ساحره
روتهـا المياه الى الشـاطئين ميـاه مقهقهـة ثـائره (3)

فالشاعر رغم الاتجاه الواقعى الغالب عليه نرى أن مصر قد امتصته أصالحها رغم الموضوعات السودانية التى كثيرا ما يكتب عنها .

أما الاتجاه السودانى فظاهر فى تاج السر أكثر من ظهوره فى جيلى وهو كثير استحضار الحياة السودانية فى نفسه ، ودائم الحنين اليها ،

---

(1) قصائد من السودان لجيلى عبد الرحمن وتاج السر ٩ ــ ٣٥
(2) المصدر نفسه ٢٣ ــ ٢٧
(3) المصدر نفسه ٢٨

ويظهر هذا فى قصيدته « عيد الغريب » وفى قصيدة « الـكوخ » التى يقول فيهـا :

ذلك الكوخ فى جوانبه أمي وفيه اخوتى يمرحون بين رحابه
وهنا والدى يجيء مع الليل . ليقضى المساء بين شـعابه
وأخى جالس يحـدق فينـا كلمـا قيـل زاد فى اعجـابه

* * *

وهنـا جدتى تسـوق الأساطير ، وتروى الخرافة السحريه
وهى تلقى على السرير بقايا جسد منهـك ونفس هنيـه
وعلى وجههـا الصـغير خطوط رسمتها يد الزمان الغويه
وعصـاها العتيقـة الملوية .. وارتجـاف الأنامل المحنيـه

* * *

كان فى سالف الزمان وكانت قصة الحب . قصـة الانسـان
كان ابن النمير يعشـق ليلى وهى كانت أمـيرة للجان

* * *

هو كوخى الصغير مستودع المـاضى ولحنى الذى أحن اليـه
وهنـا ظـل نيمتى أتـراه يدعـونى اليـه يوما اليـه

كما يبدو هذا الأثر بارزا فى قصيدة عطبرة (١) .

ومحيى الدين فارس فى قصيدة « بلادى » (٢) ، لا تلمـح فيها خطا واحدا سودانيا ، بحيث تستطيع مشاعر القصيدة أن تعبر عن عواطفه نحو أى بلد آخر ، وكذلك الحال فى قصيدة « وأزرع أرضى (٣) » ، « ليالى ثلاث (٤) » ، « الصبار (٥) » .

وقد كان قريبا من الحياة السـودانية فى قصـيدة « القرصان الكبير (٦) » ولكن الملامح السودانية كانت دائما خافتة فى لوحاته .

---

(١) المصدر نفسه ٤٥ ، ٦٠
(٢) الطين والاظافر لمحيى الدين فارس ٣٤
(٣) المصدر نفسه ١١٠
(٤) المصدر نفسه ١١٣
(٥) المصدر نفسه ١٣٤

ومن هنا نرى الشاعر لا يكاد يحس ببلاده ، ولا ينفعل بها .

أما حنين الفيتورى فلم يكن للسودان وانما للقارة كلها .

« لقد أصبحت له افريقية رؤيا تحريرية ، يتخلص خلالها من أزماته الباطنة ، ويخلع عليها صراعه النفسى المرير (1) » .

---

(1) أغانى أفريقية ١٢ من مقدمة للاستاذ محمود أمين العالم

العروبة

(٩)

لقد أحس الشعراء بالقومية العربية ، وكان احساسهم بها عضويا عميقا لا يقف عند بلد دون بلد ، وانما هو هذا الكيان الضخم الممتد بين آسيا وافريقية :

ان العروبة جسم لا انفصام له
لا يعرف الجسم أجناسا وأوطانا
ان جئت « دجلة » قد شاهدت « ليبية »
أو زرت « نجدا » فقد حييت « لبنانا »
وان دعاك الهوى يوما الى « يمن »
فقد نزلت بها « مصر وسودانا »
فالمح — فديتك — نورا ظل مرتقبا
دهرا . . وفجرا يدانى الأفق فتانا
وخبر القوم أنا ههنا نفر
لا نبتغى غير مجد العرب اعلانا
هيهات أن يفسد الباغون وحدتنا
اذا وقفنا تجاه الحق اخوانا (١)

وقد يتصورها الشاعر شيئا كبيرا يضم مكة ، والطور ، واحمد ، وعيسى ، ويرى فضلها على الغرب ثم يقول :

خميلة الله لا زالت بها رمق   وما سها الله بل تأم النواطير
لو أصلح الشرق نقصا فى زعامته   لعاد للشرق مجد منه مقصور (٢)

---

(١) عصارة قلب لمبارك المغربى ١٠٥
(٢) ديوان التنى ٢٥ ، ٢٦

وقد يؤرخ الشاعر للعروبة ، فيصور هذه العروبة القديمة ، ثم كيف عمقها الاسلام بمحمد الرسول ، وأبى بكر ، وعمـر ، وعثمان ، وعلى ، ثم يصور المد العربى الذى استقر فى الاندلس على يد الامويين ثم دور العباسيين :

أفلت الأمـر من أميـة الشر ق وأمسى مزعزع الاطنـاب
فتـولاه قادة من بنى العبا س فى جيش حكمة وصواب
مزجـوا فى العقول فلسفة اليو نان مزجا بحكمـة الأعـراب
فازدهرت دوحـة المعارف وامتد ت ظلالا على جميـع الرحاب
. . ومضـت أعصر وساد ظلام وظـلام الأحقـاد فى الألبـاب
حسـبو الدين فى العداوة والسفك وظنوا الجهاد فى الارهاب
أنكـروا فى الحـروب انسـانية الدين من غير شرعة وكتـاب
ريعت القدس ثم نادت ودون القد س نهـر من الدم المنسـاب
فأجاب النداء سيف صلاح الدين فى سـيل جيشه الغـلاب
. . وأتى وانجلى عن الشرق عهـد الترك والشرق موثق فى يباب
وسرت نسـمة فأذكت قـوى الشرق ؛ ومخزون عـزمه الوثاب
مكن العزم فى جوانح هـذا الشرق كالنار خلف عود الثقـاب
قلمت ظفره وأنيابه الدنيـا فأمسى بغـير ظفر وناب (١)

وجعفر حامد البشير يقول :

نحن جميعـا بنو العروبة ان ننسب فما ثم غير عم وخال (٢)

وها هو عبد الله عبد الرحمن يذكر بالعروبة وأمجادها :

هز اليراع وحى الشـعب ملتثما وأسمع الناس من آياتك الحكما
وغنهم ان فى أثوابهـم عـربا يهيج هائجهم ان تذكر الكـرما

---

(١) لحظـات باقية ٥٥ ـ ٦١
(٢) حرية وجمـال ٤٢

وقالت أما منكم لدى البعث منجد   يجـــير اذا ريب الزمان أغارا
وأنتم من العرب الطويل نجادهم   لزام عليهم يمنعــون ذمارا

فخر العروبة باحثا ومؤلفـــا   وخطيبهـــا ان زلزلت زلزالا
ولنـــا أمال فى قـــدومك برة   أفهـــل ترانا نبلـــغ الآمالا
مما أقمتم للعروبة وزنهـــا   ورفعتمـــو من ركبهـــا ما مالا

وبعد ألم نرض العـــروبة منطقا   ونحمل نفسا غير نابية الحد

خليلى هل من وحـــدة عربيـــة   من اللاء لم تولد لغير تمام

فى منتـــدى الخرطوم قامت   للعـــــــروبة دولتان
النثر والشـــــعر الحكيم   فهل شـــجتك الدولتان
فالله يحمى من حمــــــى   من دينه هـــذا اللسان

فان أحزن عليـــك فذو انتساب   كفى بروابط الفصحى متانه (١)

وهم شديدو الحساسية لكل ما يقع فى العالم العربى .

صبرا دمشـــق فكل طرف باك   لما استبيح مع الظـــلام حمـــاك
جرح العروبة فيك جرح سائل   بكت العـــروبة كلهـــا لبكاك
قل للعروبة قـــول باك مشـــفق   لا تركنن للغرب فى مســـعاك (٢)

وتقول الشاعرة آمنة بنت وهب مناصرة الجزائر :

أيهـــا الحر لقـــد أحزننى هــــذا المصير
حيث يغريك على الموت الفرنسى الحقير (٣)

وادريس جماع يشارك « الجزائر » صراعها :

جثمـــوا بأرضك غاصـــبين ، ومهـــدوها للمهـــاجر
هم فى ســـبيل بقائهـــم   عقـــوا أبوة كل ثائـــر

(١) الفجر الصادق، ٢٦ و٢٩ و٥٨ و٧٢ و٧٣ و٧٥ و١١٣
(٢) مجموعة للشـــاعر
(٣) مجموعة للشـــاعر

ان العـــروبة في العــرو ق دم لهذا الخطب فائر (١)

وقد أكثروا من الحديث حول مأساة فلسطين :

فجعفر حامد البشير يدعو للتبرع لمساعدة العرب عام ١٩٤٨ (٢)

وعبد الله الطيب يرسل اليها همومه فى نفس العام من لندن (٣)

ومصطفى عوض الكريم يقول :

« يا عمرو » قد عرفوا حدودك تحت ظل القسطل
أحملهم يا عمــرو بالصمصــام أصعب محمــل
طهــر ربوع القــدس من أدرانهــم ، والمجــدل
وازحف الى اللد الحبيب ، وغــزة ، والكرمــل
وارفع لواء العــرب فيهــا ظاهــرا للمجتلى (٤)

وقد رأت الشاعرة آمنة بنت وهب فى « حلف بغداد » خطرا على العروبة فقالت :

حالفت شــيطانا تــدين له الشــعوب المستكينه
شعب العــراق سيلتظى فى قــرية أو فى المدينــه
ومن العروبة سوف يلبس نفســه درعا حصينة (٥)

فالاحســاس بالعروبة موجود وبخاصة فى الفترة الأخيرة التى أحس فيها العرب انهم فى حاجة الى مساندة من بعضهم بعضا حتى يكون لهم ثقل فى الحياة من حولهم ، وحتى يمكنهم بهذا الاحساس التخلص من معــوقات كثيرة توقف عزمهم ، وتشل قواهم .

ومهما يكن من شيء فنحن لا نقول ان احساسهم بالعروبة حادكالاحساس بها فى مصر لأن مصر اذا كانت قد ذوبت الشعور بالفرعونية لصالحها فان السودان لم يستطع أن يذوب الشعور بالقومية الافريقية تماما .

---

(١) لحظات باقية ٣٩ ، ٤٠

(٢) حرية وجمــال ١٥

(٣) أصداء النيــل ١٥٠

(٤) مجموعة للشــاعر

(٥) مجموعة للشــاعرة

الشعور الافريقى

(١٠)

لم ينس كثير من السودانيين افريقيتهم . فهم يشكلون جانبا كبيرا من تكوين البلاد العضوى ومن هنا رأينا بعضهم يهتز لهذه الفكرة ، ويقوى عنده الشعور بها .

عندى من الزنج أعراق معـاندة ... وان تشدق فى انشادى العرب(١)

ونراه مأخوذا بحياتهم ولهوهم :

فليتى فى الزنـوج ولى رباب ... تميـل به خطاى وتستقيم

وفى حقوى من خرز حزام (٢) ... وفى صـدغى من ودع نظيـم

واجترع المريسة (٣) فى الحوانى ... وأهـذر لا آلام ولا ألـوم

وأصرع فى الطريق وفى عيونى ... ضباب السكر والطرب الغشوم

طليـق لا تقيـدنى قـريش ... بأحساب الكرام ولا تميم (٤)

وقد يعشق الشاعر فتاه من « الشلك » فيقول :

فتنتنى ضحى فتاة من « الشلك » ... كسـاها ثوب الجمـال المهيب

حملت جـرة الميـاه وراحت ... تتثنى مثـل القضـيب الرطيب

غـادة تسلب الخـلى نهـاه ... وترد الهنـاء للمسـلوب

كل ما فى الجنوب نبع من السحر ... ووقد من الهـوى مشبوب (٥)

وقد يصورون البؤس الذى يعيشـون فيه (٦) والمظالم التى ارتكبت وترتكب ضدهم كالتبشـير ، والاستنزاف ، والرق ، ومشـكلة الألوان ، والتفرقة العنصرية ، والهجرة .

---

(١) مجموعة للشاعر محمد مهدى مجذوب

(٢) نطاق مصنوع من دقائق الخرز الملون يسمونه « السكسك »

(٣) الخمـر

(٤) مجموعة الشـاعر

(٥) عصـارة قلب ٥٩

(٦) السـودان الجديد فى ١٩٥٥/٢/٢٢

جاء بالانجيـــل منهـم معشر | قيل عنهم من دعاة الرحمـــة
حرمونا جنة ليست لهـــم | واستغلوا أرضـــنا كالجنـة
أرجعـــوها وخذوا انجيلكم | لنعش فى أرضـــنا الطيبـــة
شغلت رهبـــانكم عن ربهم | ضـيعة البن وحقـل الحنـطة
.. انمـا صـفحتكم مذكنتم | سرقات . لعنت من صـــفحة
.. بعتم أجدادنا قرصـــنة | أمس خلف البحر بيـع السلعة
ان لونا أبيضـــا تاهـوا به | كل ما عندهمـو من قيمـــة
ربمـا ســار به مســتعليا | كل صـــعلوك خبيث المنبت
.. سبة العـــالم فى حـاضرنا | فتنـــة الالوان والجنســـية
ان نكن أقبح منهم أوجهـــا | أو تقصر فى حجى أو حكمـــة
أو تمكن أوطانـنا موبوءة | ما الذى أغراهمـو بالهجـرة (١)

وهم يحسون داخل أنفسهم بالنقص ازاء هذه الافريقية .

فمصطفى عرض الكريم يقـــول :

فلما رآنى أسود اللون قال لى | تعـز فان اللون كالرزق يقسم
فان تك مسودا فقلبك أبيـض | وان تك زنجيا فانك مسلم (٢)

وعبد الرحمن عبد الله يقول :

وما لقب الزرقاء عائب ملكهم | ملوك بنى العباس مسودة البرد(٣)

وعبد الله الطيب يقول :

أعطش لا أهـدى الى شراب | بين الوجوه البيض كالغـراب
وذات طفل أسكتت صـغيرها | لما رأت من سحنتى ديجورها (٤)

---

(١) مجموعة لمحيى الدين صـابر
(٢) مجموعة للشـاعر
(٣) الفجر الصـادق ٦٢
(٤) اصـداء النيـل ٥٩

والفيتورى يقول فى انفجار :

قلهـــا لا تجبـــن لا تجبـــن قلهـــا فى وجه البشـــريه
أنا زنجى وأبى زنجى الجـــد وأمى زنجيـــــه
أنا أســـود لكنى حـــر أمتـــلك الحـــريه (١)

وقد اهتموا بثورة « الماوماو » وأعجبوا بقائدها جوموكنياتا (٢) وأرخوا لكل مشكلات كينيا (٣) ، وطالبوا أن تقوم بلادهم بحـركة تحريرية كتلك الحرية التى قامت فى كينيا (٤) .

والفيتورى حين تعرض للقارة لم يكن قد قرأ عن مشكلاتها أو تغلغل فى أعماقها ، أو وقف على تاريخها ، وانما هى موجة من المشاعر الحاقدة التى تريد ان تفرغ طاقتها فى أى وعاء غريب . فحدة شعوره نابعة من نفسه المتوهجة وشعوره بالضياع

فهو يدعو للقومية الافريقية ثم يسخر بالافريقيين ، لو أن أحد البيض الذين يكرهون الســود ويحقرونهم أراد أن يصورهم فى صور قبيحـة منفرة لما استطاع شرا من هذه الصور .. وهنا لا بد ان نبدى استغرابنـا واستنكارنا أيضا لهذه الرسوم البشعة التى أبى الشاعر الا أن يوضـح بها قصائده ، والتى غالى رسامها فى تشويه الملامح الزنجية وتقبيحها الى درجة لا توجد حقا لدى الزنوج . هذه الرسوم المخيفة المنفـرة لا ندرى كيف تخدم هى بدورها قضية السود (٥) .

افريقيـا افريقيـا استيقظى استيقظى من حلمك الأســود
قد طالما نمت .ألم تســأمى ألم تملى قـــدم الســـيد
قد طالما استلقيت تحت الدجى مجهـــدة فى كوخك المجهـد

---

(١) أغانى أفريقية ٢٨
(٢) حرية وجمال ١٠١
(٣) مجموعه محيى الدين صابر
(٤) مجموعة محمد المهدى مجذوب
(٥) الاتجاهات الشعرية فى السودان للدكتور محمد النويهى ١٥٣

مصفرة الأشـواق .. معتـوهة تبنى بكفيها ظـلام الغـد
جوعانة تمضـع أيامهـا كحـارس المقبـرة المقعـد
عـريانة المـاضى بلا عـزة تتـوج الآتى ولاسـؤدد

كم دارت الأرض حواليـك كم دارت شموس الفلك المضرمه
وأنت لا زلت كمـا أنت كالجمجمـة الملقـاة كالجمجمـه
واعجبا ألم تفجـر شرايينـك سخرياتهـم يـا أمه

أكل ما عنـدك أن تلعقى أحـذية المستعمر اللامعـة
أكل ما عنـدك أن ترقـدى خـاملة خـائرة خاضـعه
أكل ما عنـدك أن تصـدرى قـوافل الرقيق يا ضـائعه

فالشاعر يصدر فنا عن حقد ، وعن جهل بتاريخ القارة الذى لم يكن عاريا والذى عرف حضارة الفراعنة ، وممـالك غانة ، ومللى والأشانتى على حد تعبير « ١٠١ توافور » النيجرى ، والذى يتحـدث نكرومة عن بعض هذه الأمجاد فيقول « لقد استطاع أجدادنا منـذ قرون طويلة أن يشيدوا أمبراطورية شامخة ، شيدوها قبل أن تكون لبريطانيا أية أهمية فى الوجود . تظللها أجواء الحضارة من تمبكتو الى بامكو الى شـاطىء المحيط ، ان واجبنا ان ننحنى فى احترام لأجدادنا الذين وضـعوا أسس تقاليدنا القومية (١) » ثم ان تاريخ القارة سلسلة متصلة من الثورات ضد المغتصبين وفى الوقت الذى كان يتحدث فيه كانت القـارة متخلصـة من الرقيق ، وكثيرا ما يستخدم كلمة « عبد » وهى أبشع كلمة تقال فى افريقية العربية ، كما انه يحرض على القتل ، ويدعو الى قوة سوداء قاهرة ، ولو استخدم طاقته المدمرة هذه فى الكشف عن أعماق القـارة وأسرارها وفى التعبير عنها بلمسات انسانية لكان لديوانه ـ لما يملك من قدرة على التعبير وتحريك الصور ـ قيمة انسانية خالدة .

وسخريته هذه تذكرنا بسخرية عبد الله الطيب من تمثال « مادنجو »

(١) نهضة افريقيا العدد ١١ فى سبتمبر سنة ١٩٥٩

الذى يقول فيه متذكرا ما فعله الجنوبيون بالشماليين .

أرى فى طينك الأحمر من شـجوى ألوانا

وفى وجهك ذاك الجامد الخامد شيطانا

وأشباهك قد ثاروا على قومى بركانا (١)

ويصور رواد حانة السود فيقول :

من قبعـات فوق غيـلان شـفاه ترطن

ومدجن الوجه وسـر الصـدر منه مدجن

تسرى الصـلال فى حشـاه كلهن احن (٢)

ونرى عكس هذا عند محيى الدين فارس فهو يقول :

لم أكـره الأبيض لـكننى كرهت منـه الصـفحة المعتمه

أحببت كل الكون كل الورى كل معـانى القيـم الملهمه (٣)

ونراه يسـوق أغنية على لسان راع افريقى كلها سـلام وحب (٤) ، وتمتـد رحمته الى الزنجيـة الأمريكية « لوسى » التى أوصدت دونهـا أبوا بجامعة الاباما (٥) .

ومهما يكن من شىء فقد ظهرت لهذه الدعوة جذور فى هـذه الفترة مما يدل على أنهم متأثرون أشد التأثر بتكوينهم العضوى ، وأن هـذه الدعوة تقابل عندنا « الفرعونية » والحنين اليهـا ، وكثيرا ما نرى بعض الشعراء يتعطفون اليها ويعبرون عن أعماقها .

---

(١) أصداء النيـل ٣٣
(٢) المصدر نفسه ٥١
(٣) طين واظافر ٦٢
(٤) المصدر نفسه ١٠٠
(٥) المصدر نفسه ٢٢

الشعر المسرحى

(١١)

واذا كان الشعر الغنائى هو طابع هذه الفترة ، فاننا نراهم قد عرجوا على نوع آخر من الشعر هو الشعر المسرحى . لقد عرفت هذه الفترة الرواية الشعرية . فرأينا رواية « سعاد » تتكون من ستة فصـــول آخرها راو يلخص أفكار المسرحية ويترك مصير بطلتها مع بعض المتحاورين مجهولا .

ومضـمون الرواية يدور حول هرم متصـاب يرغب فى الزواج من « سعاد » التى يرحب والدها بهذا الزواج حبا فى المال رغم انه كان متزوجا من قبل ثم ماتت زوجته عن عدة أولاد :

عبـاس شـيخ جاوز السـبعين من عمـر قصى
وسـعاد فى عمر الورود ترف كالزهـر النـدى
فى أى دين فى الشرائع زوجـوا ميتـا لحى (١)

وتذهب سعاد الى منزل الزوجية فتحس بثقل الحياة فيه وركودها فى نفس زوجها ، وبدأ الزوج يحس بانصراف قلبها عنه . وبدأ الشك يغزو قلبه فألصق بها التهم وضيق عليها الحياة :

آه نشوزك يا فتـاة يثـير أحقـادا دفينـه
هيا اتركى بيتى فقد أصبحت فاجرة لعينه (٢)

وتخرج الفتاة ولكن الى أين ؟ لا أحد يعرف .

والمؤلف لم يهتم بتصوير الشخصيات وتعميقها ، وتحديد أبعـــادها النفسية ، ولم يهتم بالأحداث وترابطها ، وطريقة الحوار فى التعبـير عن مدى الصراع .. وانما قصر اهتمامه على المواقف العاطفية السريعـة ، فى

---

(١) سـعاد للهادى آدم ١٦
(٢) المصدر نفسه ٢٤

اطار القصيدة العربية المتوارثة كما أنه لم يستخدم الخصائص الذاتيـة للبحر والقافية فى التعبير عن المشاعر .

وقد اتخذت كما قال الدكتور عبد الله الطيب « أسـلوبا وسـطا بين أسلوب الرواية والقصـيدة المعاصرة ذات الفصـل الواحـد ، والرواية الاغريقية التى تعتمد على الحوار (الكورس) (١) فالرواية لا تخرج عن كونها قصيدة طويلة توضح عدة مواقف . بل ان هناك من القصـائد ما يفوقها فى الشكل والعلاج ، ونذكر مثالا لذلك قصيدة « العراقى المريض » الذى كان زميلا للشاعر مصطفى عوض الكريم فى لندن وكيف أنه كان مريضا بمرض وقف الطب دونه عاجزا لانه كان يشكو مرض الغـربة عن وطنه ، وكيف انه كان مقبلا على الدنيا يذكر أوطانه الحرة ، بينمـا كانت الحياة بغيضة عند الشاعر ، وأشد ما كان يبغض اليه الحياة انه كان يذكر المستعمرين فى بلاده ويحس على البعد وقع خطاهم .

ويهتدى أحدث الاطباء أخيرا الى حل هو مداواة العراقى بالحب من ممرضة جميلة :

وقال الطبيب العبقـرى سمعته	يقول حيـاتى بالعراق جهنـم
لئن قطعت عنى هنـاك تمائمى	ففى لندن عنـدى تمائم حـوم
وانطابت الأيام بالموصل الذى	نعمت به انى بلنـدن أنعـم
ألا حبذا التاميز نهـرا وحبذا	غوانيه والعيش الرقيق المنعم(٢)

وهناك رواية أخرى لحسن عزت تقوم على التأريخ للحركة المهدية ، وكيف أن الترك عاثوا فى الأرض فسادا .

عبد الله :

لقد سلب الغاصب المعتـدى	رخاء البـلاد وكل النعم
ونحن نئن ونطوى الظـلام	جياعا ، ونلقى الأسى والسـقم

(١) سعاد للهادى ص ١

(٢) مجموعة للشـاعر

احمـــد :

بلى إنهـا وصـمة للبــلاد فلا بد للحرب ان تحتـــدم

وتدخل امرأة أخرى ـ ويرمز بها للسودان ـ تشكو ما أصابها ، وما أصاب أهلها ، فتزداد الحمية ، ويخرج أحمد ـ والمقصود به المهدى ـ الى الحرب فيكسب المعركة ويعرض عليه عبد الله « كرسى » الحكم فيأبى الا « برش » الصالحين ، ثم يصور انتصاراته ، وعرض غردون الحكم عليه ، وقوله للرسول :

رسول الخنا اذهب لمولاك قل له ضللت الهدى لما عرضت المعاليـا
فما نحن طلاب العـروش وانمـا حمـاة لدين الله نردى الأعاديا

ثم يقبل عليه عراف فيكشف من أمره انه جاسوس فيقول :

امسكوا النذل سجينا فى دجى السجن الكئيب

ثم يصور « غردون » فى انتظاره ، وخوفه ، وساعته الأخيرة وتنتهى التمثيلية بقتل غردون وبخـروج أحمد وعبد الله الى المسرح ثم يقـول أحمـد :

ولكنما الأحـرار مهما تسامحوا ومهمـا تهادى فى عقالهم العقـل
وقد يخضع الأفراد للظلم والضنى ولكن أفعال الشعوب هى الفصل(١)

والتمثيلية لا تختلف فى شكلها الفنى كثيرا عن تمثيلية « سعاد » أما المضمون فيحاول اظهار عظمة المهدية وانتصاراتها .

وتكاد تدخل فى هذا الباب تمثيليـة قيس وليلى (٢) التى تتـكون أشخاصها من الراوى ، والمجنون ، والعين ، وهاتف الجن وكل هـذا مستوحى من رواية قيس وليلى لشوقى ، وبعض أفكار هزيلة توضع على فم أشخاص مجمدين تماما .

وتقرب من هذا اللون من الشعر تلك القصائد التاريخية التى تقص حياة انسان كقصيدة « سلامة القس » وقصـيدة « عمرو بن يربوع والسعلاة (٣) .

---

(١) رواية مخطوطة للشـاعر
(٢) اصـداء النيـل ٨٢ ـ ٨٦
(٣) اصـداء النيـل ١٨٦ ـ ٢٠٤

أغراض أخــــرى

(١٢)

١ — اهتم الشعراء فى هذه الفترة بالشعر التعليمى ، وحاولوا دائما تقديم صور جميلة عن البلاد ، والتمسك بالاخلاقيات ، وترك العادات السيئة ، وبث روح العمل ، والتخلص من العادات القديمة الضارة .

فالنور ابراهيم يضع نشيدا للنيل تختمه فتاة بقولها :

قفى قليـــلا ونادى　　واسمعى الكون وصفا
أعـــز أرض بـــلادى　　ما بين جوبا وحلفـا (١)

ويضع محاورة بين عدة فتيات يندمن بالجهل ، ويذكرن العلم بالخير وأنه روح البلاد (٢)

وقد ينظم الشاعر قصة تصلح للاطفال كقصة السندباد لعبــد الله الطيب (٣)

وقد صدر ديوان خاص بهذا اللون من الشعر تعرض فيــه للعبادات ولواجب التلميذ فى المدرسة ، وللاختراعات ، والأشياء الصغيرة ذات الوقع الخاص على الأطفال وللحيوانات ، ولبعض الشخصيات الهامــة ، كالمهدى ، والزبير ، والسيد الميرغنى ، والسيد عبد الرحمن المهدى .

ومن قوله فى العادات :

عاداتنـــا كالغـــرر　　على وجـــوه الأدهـــر
ورثنـــاها العـــرب　　لله من قـــد أنجبـــوا
فكـــرم الســـودان　　جار على اللســـان
والموت دون العـــرض　　فى عـــرفهم كالفرض
يشاركون الجـــارا　　ويأنفـــون العـــارا
وهم على الغـــريب　　أحنى مـــن الطبيـــب

(١) كتاب احاجى ٧
(٢) المصدر نفسه ٧٦
(٣) اصـــداء النيـــل ١٧٧

تعجبنـا النصـائح تهـزنا المـدائح (١)

٢ — وقد أكثروا من شعر الأناشيد فى الفترة الأخيرة الذى يعتبر لونا من الشعر الحماسى بعد تطوره ، فادريس جماع يقدم لنا نشـيدا قوميا ، ونشيد العلم السودانى ، ونشيد جامعة الخرطوم ، ونشيد السودان ونشيد الجنود السودانيين (٢)

وقد بدأ النشيد الأخير بقوله :

اذا ردد القـوم لحن الفـدا وثبنـا سراعا وكنا صـدى
وسرنا صـفوفا نلاقى الردى ولو كان حوض الردى موردا

وجعفر حامد البشير يقدم نشيد الحرية ، ونشيد الشعب (٣)

وعبد الله عبد الرحمن يقدم نشيد البرلمان (٤) ، والتنى يقدم نشيدا للجيل ليكون نشيدا قوميا :

المجـد للوطـن هذا نداء الجيـل
يبقى عـلى الزمن الى العـلا دليل (٥)

وتراعى فى هذه الاناشيد الخطابة ، والرنة الحماسية ، والبحـور السريعة التى تنفق وسرعة الترديد .

٣ — وقد ذخر شعرهم فى هذه الفترة بكثير من المعانى الانسانية فقد بغضوا الحرب ، وذكروا مساوئها كما قال ادريس جماع :

قـد كان مسقط رأسها بالغـاب فى أولى السنين
وترعـرعت لمـا تغـذت من دمـاء الأولين
والآن تـكلؤها وترعـاها عـلوم المحـدثين

* * *

فتح المـوت للحياة ذراعيـه يضم الأنام حيـا فحيـا

(١) أشتات الشعر العباس العبيد ٦٨
(٢) لحظات باقية ٨و١٨ و٢٥ و٣١
(٣) حرية وجمال ٥٠ و٦٨
(٤) مجموعة لم تنشر
(٥) ديوان التنى ٣٠

مغمض الجفن ليس يدرى اذا لاقى أشيخا يضمه أم صبيا (١)

ويستنجد « التنى » بالله ليخمد هـذه الحرب ،ويبقى الحياة للغد والسلام (٢) .

كما يقدم قصيدة بعنوان الانسانية يتحدث فيها عن هـذا المعنى الكبير (٣) . ويقول ادريس جماع :

أنت انسان بحق وأنا بين قلبينا من الحب سنا
كل يوم صور عبر الطريق تزحم النفس بها ثم تفيق
ليس ماهزك حسا عابرا انه فى الصدر احساس عميق
هو انسانية قد وصلت كل نفس بك فى ربط وثيق (٤)

٤ — وقد أوردوا لنا جانبا من الحياة السودانية وخصائصها فابن الخياط يقص علينا قصة الفتى « المهجارى » الذى يذكرنا بصعاليك العرب والذى يودع زوجته . ثم يحمل سيفه ويخرج قاتلا أو مقتولا . ثم يلقى تبعة تصرف هذا « الفتى » على المجتمع الذى أهمله .

وها هو ذا جانب من الصورة :

قام والعالم رهن الحجر مارد الطبع وسيم النظر
يطلب الرزق بسيف باتر وبشىء نافذ كالقدر (٥)

ثم يأخذ واحدا من كرام الابل ، ويخرج مسرعا ، ولكنه يعود ليقول لزوجته :

بعد أيام ترى ساحتنا تتعالى بصياح البشر (٦)
فأنا الأحدب مأمون السرى طاعم الجيران ، وبل المطر

(١) لحظات باقية ٢٣ ، ٧٨
(٢) ديوان التنى ١٠٦
(٣) المصدر نفسه ٢١
(٤) لحظات باقية ص ٣٣
(٥) يقصد الرصاص
(٦) الابل البشارية

ان أعش أشبعك من أكبادها — أو أمت فالفخر فخر الحضر
واندبيني عشرة قائلة — مات دون الابل لا فى البقر
وهنا رفقته فى ضجر — يتناجون بصوت حذر
فاذا رائدهم منشرحا — ها هى العسراء وسط الشجر
وحدا الحادى وأروى صوته — وبدت فيه خفايا الوتر
تسمع الوادى دويا كله — ان هذا الكون للمنتصر
والمطايا تتلوى حرقة — تنهب الأرض بقلب فطر
هاجها اللحن فزادت خفة — وغدت ترقص رقص البطر

والناصر قريب الله يقدم لنا قطاعا من الحياة الشعبية :

وأسود كالليل البهيم تذيلت — به وهو مبتور جنوب الشوارع(١)
ومائج أعيار لتقريب خطوها — على الأرض وقع الصيب المتدافع(٢)
وشواء حيتان على أم رأسه — اذا ما الضحى أضحى خصاصة جائع
يناديه أطفال تعفى بطونهم — وعاء يمنيه بأطراف خاشع
وسابق عينى الذباب لطمته — فأوقف كفيه ماكن المدافع (٣)

وقد قدموا لنا بعض النماذج الشعبية مثل الحاوى وأم عباس التى تضرب الودع (٤) ، وأم الأحجاجى التى كانت جارة لمهمد المهدى مجذوب فى حلة الكراكة بأم درمان .

عجوز من الحى ثرثارة — يضج لأخبارها السامر
تخف العذارى الى قولها — تساقط سيقه الماكر
تعذبهن بذكرى الشباب — ويلتذ منطقها الخاسر (٥)

كما قص علينا قصة « فحل الحى » العريس وما يدور فى هذه الليلة من ألوان المرح :

---

(١) يقصد براميل القمامة التى توجد فى كل مكان بالسودان
(٢) الحمر التى تنقل التراب وتكثر فى « ودنوباوى » حيث سكن الشاعر
(٣) مجموعة للشاعر
(٤) ديوان الطبيعة ٤٤ و٦٤
(٥) مجموعة للشاعر

« دلوكة » (١) فى الليل ترتعد   بكمت وأرسل شجوها الكمد
مجنـونة نفضت أضالعهـا   وتـكاد فى أجـلادها تقـد
ويمد من آهاتها « الشتم » (٢)   شـحج الرنين يكاد ينقصـم
مـتربص بالرقص يصرعـه   ويدق فيـه كأنه قـدم

* * *

ساروا وللصـبيان تصفيق   والآنسـات لهن تحـديق
نظـروا ولا نظـر نلوذ به   فى كل ومض منـه تشويق (٣)

* * *

رقصت مع الأحـلام عـذراء   وبرقصـها للحب أنبـاء
تكنى وتعـلم كل خافيـة   وقلوبنـا لهف وايمـاء (٤)

* * *

ويهيج بالفتيان « شـبال »   والى حنـان عبيره مالوا
والسوط يأكل ظهر مبتـدر   فى كل جرح منـه تأمال (٥)

وقدم لنـا صورة عن « الشوارع الخلفية » التى تكثر فيها بائعات الهوى من الحبشيات والواحدة منهن تسمى « كتكوتة » .

كما قدموا بعض العادات الخاصة بهم مثل قول العباسى :

يقول لى وهو يحكى البرقمبتسما   يا أنت يا ذا وعـدا لا يسمينى

اذ ان الزوجة السودانية لا تبوح باسم زوجها . أو صفة من صفاته :

ماذا بربك تشـتكى   قل أيها الزوج الحميم (٦)

---

(١) اطار من السلصال يشد عليه جلد
(٢) طبل صغير يختلف عن الدلوكة ويضربان معا
(٣) يسمى هذا المروج « السيرة » ويقصد فى البيت الثانى الحياء
(٤) من العادة أن ترقص العروس ، وتكون العروس أو من ترقص مغمضة العينين وتعبر بيديها وصدرها تعبيرا رمزيا .
(٥) الشبال حركة تقوم بها الفتاة حيث تميل بشعرها المضمخ بالعبير على الفتى الذى يصبر على ضرب العريس له . ومن ثم يكون مكافأة على شجاعته ، وقد تبلغ الحماسة بالشبان أن يمزقوا أذرعتهم بسكين ثم ينثرون دمها على الفتيات ليعجبن بهم ، وليؤكدوا لهن أنهم على استعداد للتضحية فى سبيلهن
(٦) سـعاد ٧

ومن عاداتهم الخاصة التي عبروا عنها قول العباسي :

وخلى التريك وهز البواتر حبسا على الغــادة الناعية (١)

وقد مرت بنا قصيدة محمد المهدي المجذوب التي ذكر فيهــا ضرب النحاس عند وفاة الشريف الهندي .

---

(١)ديوان العباسي ٥٧ والتريك الخوذة : فمن عادة السودان الى يومنا هذا أن تلبس النوادب لباس الحرب للميت ، ويحملن آلاته التي كان يســتعملها في الحرب ، ويدرن باكيات في ســاحة الدار ولا تعمل هذه العادة الا للعظماء من الرجال ملوكا كانوا أو محاربين — وقد تستمر خمسة عشر يوما — .

الفاظـه

(٢)

لقد رأينا البديع اللفظى فى هذه الفترة لا يهتم به اهتماما كبيرا . فقد أحس الكثيرون من الشعراء بأنه يجب عليهم الاهتمام بالمحتوى بدلا من هذه السلاسل القديمة فطبيعة الانطلاق الذاتى تتنافى مع هـذه الحواجز .

ولفرط احساسهم بالحياة من حولهم رأيناهم يهتمـون بالكلمات الأجنبية فزيادة على ما مر بنا رأينا محمد الأمين القرشى يقـول مناصرا الأحباش :

وان لم نكن فى صفوف الحرب بينكم   فانتـا معكم بالعـزم والهـمم
أو ان « زبلن » أهـدانا سفائنه   بالجـو طرنا على الأجيـال والأكم
ولعبة « البولو » بالهامات يحذقها   مهرى اذا صار مصبوغا بفضل دم (١)

ويقول الدكتور عبد الله الطيب :

وكم شـاقك من لنـدن أفراد وأرسـال
واذ يستن نحو « البص » أفراد وأرسـال
وأكل « المورس » (٢) حزمتين من خضاره
وأقبـل الشرطى يدعوا لويل من صـفاره
وهكذا توقعنـا الأيام فى المـكاره (٣)

كما رأيناهم يهتمون بالكلمات المحلية وخاصـة بعـد أن اشـتدت الدعوة الى الأدب القومى فعبد الله الطيب يقول :

وقلة فيها « غباش » مثـل هدم العربى (٤)

---

(١) مجلة الفجر العدد الثالث ١٩٣٥/٩/١٦
(٢) صـنف من السـيارات الانجليزية
(٣) اصـداء النيـل ٤١ ، ٥٦
(٤) المصدر نفسه ٤٦ وغباش من عامية السودان ويقصد بها الغبرة والعـربى باللهجة السودانية الاعرابى

وانبرى الصرصـار فى العشـب يغنى ويشيل (١)

وكقول علي نور :

قال الرجـال بخ بـخ أما النسـاء فقلن « زينـه » (٢)

وقد يعبرون عن مكان المدرسة بالخلوة كقول التجانى :

حبذا « خلوة » الصبى ومرحى بالصبا الغض من ليال وضاح

وقد يذكرون عادة معروفة عندهم وهى « كسر القبر .. كقوله » :

أنت عوفيـت يا جيـوب وذاك قبر الحبيب . . يكسر (٣)

وقد يذكر مصطلحا متفقا عليه كقول حمزة الملك طنبل :

ونحـلف ان لم أنـل ما ترى فليست تعود « كخط الودع »

نذرت لها شـقة مؤمنـا بأن الذى أخبرت لن « يقع » (٤)

أو تعبيرا شائعا كقول مبارك المغربى :

أيهـا الذى أحب مليـا بعض هذا الجفاء صعب عليا (٥)

وكقول حمزة :

والنفس ان قامت قيـامتها أوسعتهـا بفظـاظة ردعـا (٦)

وقد مرت بنا كلمات محلية كثيرة كالنحاس ، والدلوكة ، والشتم ، والشبال .

وقد جرت المبالغة فى هـذا الاتجاه ذكر كلمات لم يستطع الشـاعر باعطاءها الحياة بين أخواتها فجاءت ميتة كقول حمزة الملك طنبل :

و « عوير » يدعى العلم ولكنه فى علمه كالببغاء

---

(١) المصدر نفسه ومع أن كلمة يشيل أصلها عربى من شال بالشيء اذا لوح به ورفعه الا انه يقصـد بها الكلمة السودانية « يشيل » وأصلها من شيلة الغناء فبعد ان يكرر رفقاؤه معا أول مايقول يبدأ فى الغناء وهكذا ويسمى هذا اللون من الترديد « شيله » ومنها « يشيل »

(٢) مجموعة للشـاعر

(٣) اشراقه ٤٧ ، ١٠١

(٤) ديوان الطبيعة ٦٤

(٥) عصـارة قلب ٥٤

(٦) ديوان الطبيعة ٧٧

ثم يدنى الغطاء منه ويأتيك بزوج من الحمام يمانى
ثم يملى اشارة فنراها رجعت عمة من الدبلان (١)

ويسوقنا الحديث عن المحلية الى استعمال « أل » (٢) بمعنى الذى وفروعه فهى مستعملة فى لغتهم العامة ، ومن هنا رأينا لها تأثيرا كبيرا فى الشعر .

كقول منير صالح :

أنت « الهنا لك » تمرحين مع الصبا وتغردين مع الهوى لمجاهل (٣)

وكقول حامد حسن البدرى :

نبس تجدى ذكرياتى لا ولا تجدى شكاتى
« والمضى » ليس بآتى فى قريب اللحظات (٤)

وأكثر ما تجىء فى الشعر الصوفى كقول الشيخ قريب الله :

« السعيهم » مشكور من سرهم معمور
« الساروا » بالمنوال « الد معهم » هطال (٥)

فاستعمال « أل » بمعنى الذى وفروعه شىء عام عند السودانيين ، من هنا نرى هذا التسرب الى الشعر الفصيح (٦) .

(١) المصدر نفسه ٤٨ ، ٤٤
(٢) أل بمعنى الذى يمنية ورويت شاذة فى الشعر العربى الفصيح
(٣) السودان الجديد ١٩٥٤/٩/١
(٤) هنا أم درمان ١٩٥١/١/٤
(٥) رشفات المدام للشيخ قريب اللمط (ص ١٥٢ و١٤٧)
(٦) استعمال « ال » بمعنى الذى معترف به فى العربية ، وان قال الكثير من علمائها انه ضرورة خاصة بالشعر ، ومن شواهد دخولها على الجملة الاسمية .

بل القوم الرسول الله فيهم هم أهل الحكومة من قصى
(خزانة الادب جـ ١ ص ٤٠ وما بعدها)

ومن دخولها على الجملة الفعلية

يقول الخنا وابغض العجم ناطقا الى ربنا صوت الحمار اليجدع
(خزانة الادب جـ ١ ص ٤٩ وما بعدها)

ومن دخولها على الظرف قول الشاعر :

من لا يزال شاكرا على المعه فهو حر بعيشة ذات سعه
(خزانة الادب جـ ١ ص ٤٠)

وهم يستعملون بكثرة التكرار للتوكيد ، وقد يجيء لمجرد التداعى فعبد القادر ابراهيم يكرر كلمة « أين » أربع عشرة مرة فى قصيدته « ملهم الشعر » (١) ، وابراهيم محمد عبد العظيم يكرر فى اهدائه للديوان كلمة « الى » أربع مرات (٢) .

وعبد الله عبد الرحمن يكرر كلمة أريد فى احدى قصائده خمس عشرة مرة ، وكلمة رب تسع مرات وكلمة لا أريد ست مرات (٣) .

ومحى الدين صابر يكرر كلمة حين وحينما ست مرات .

والحق ان هذه ظاهرة منتشرة بين الشعر السودانى وقد وقفنا عندها من قبل حينما تكلمنا عن شعر البنا .

فهى فى الوقت الذى تدل فيه عند هؤلاء الشعراء على تفتيت الوحدة العضوية للقصيدة وعلى عملية التداعى ، واجترار المعانى . نراها تدل عند الفيتورى على انفعال قوى يساعد على خلق جو موسيقى قوامه تكرار الوحدة بألفاظها مثل :

وأنت لا زلت كما أنت كالجمجمة الملقاة . . كالجمجمه
انى صحوت . صحوت من أمس وذى فأسى تهد قبوره هدا
سفنا تزحم أعماق البحار النازحه سفنا تغدو وأخرى رائحة
سفنا مكتظة بالأسلحة وبأبناء بلادى
وبخيرات بلادى وبتاريخ بلادى (٤)

ذلك لأن جو البلاد وطبيعة الناس تطرب للتوقيع السريع وللوحدة المكررة .

وقد مال بعض الشعراء الى الألفاظ العربية المتوارثة ، والتى لا تزال تفهم كعبد الله عبد الرحمن .

---

(١) الفجر فى ٣/٦/١٩٣٤
(٢) الراووق ١
(٣) الفجر الصادق ٩٧ ، ٩٨
(٤) اغانى افريقية ط ٢ ص ١١ - ٣٢ ، ٥٢

أبيني لنا أخت البسوس فاتنا جهلنا ورمنا العلم عند حزام
وضعت لثامي وهو شيبي فما أرى براكر هذا الشيب غير لثام
وعاودت أفراس الصبا فركبتها وجلت عليها بعد طول جمام
أقيموا بني أمي صدور مطيكم بصدق فعال لا بمحض كلام
خليلي عوجا بالقوافي طمرة جموحا وردوا كل ذات لجام (١)

وكالعباسي الذي يقول :

حياك «مليط» صوب العارض الغادي وجاد واديك ذا الجنات من واد
أنسيتني برح آلامي وما أخذت منا المطايا بايجاف وايخاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها أنس لذي وحشة . رزق لمرتاد
يا سعد سعد بني وهب أرى ثمرا فجد فديتك للعافي بعنقاد
مهامه غرني لمع السراب بها ومذهب لم أكن فيه بمنقاد (٢)

ولكن الدكتور عبد الله الطيب فى ديوانه أصداء النيل يقف بك فى أكثر شعره على ألفاظ ربما يعجز عنها الشاعر الجاهلى ومن هذا قوله :

أما الخليط (٣) فبانوا بعد ما علقا منك الفؤاد هواها فاكتم الحرقا
لما تراءت بليتيها (٤) لتحزنني ولا محالة أن يشتاق من عشقا
حيا الغمام (٥) جلاه الواديين وأكناف الغدير وحيا الرمل والبرقا
والركب اذ سلكت أيدي الغمام بهم ميممين الفضا من راكس فلقا (٦)

وقد تعرض الدكتور طه حسين لنقد هذا الديوان فقال :

فظللت أرضي النفس بعد نفارها وأكرهها حتى استمر مريرها

---

(١) الفجر الصادق ٧١ : ٧٢
(٢) ديوان العباسي ٣٣ – ٣٥
(٣) الخليط – الحي المختلطون
(٤) واحدها ليت وهو صفحة عنق.
(٥) مفردها جلهة ، وجلهة الوادي جانبه
(٦) أصداء النيل ١٧٤ و١٧٥

أى الناس يستطيع أن يفهم هذا البيت اذا لم يكن من أساتذة الأدب الذين عرفوا دقائق اللغة ، وتعمقوا شعر القدماء من شعرائنا ، ولا سيما حتى استمر مريرها هذه ، وما على الشاعر لو قد آثر اليسر فقال : حتى اشتدت قوتها وعرفت كيف تحتمل الأحداث وتصبر لها ، والبيت الذى يلى هذا البيت كيف السبيل الى فهمه دون الرجوع الى المعجمات .

على حين قاربت الثلاثين واتممت الى المرء أحداث كثير شقورها .

لفهم كلمة الشقور هذه ، والشاعر نفسه يفسر لنا هذه الكلمة بأنها الأمور فما ضره لو اصطنع كلمة الأمور نفسها فأقام وزنه وقافيته ولم يغير من جمال الشعر شيئا :

سكرى الشباب سبنتاه اللحاظ بها فتك بنفسى وخمر بين أوصالى

وهذا البيت وكلمة السبنتاه خاصة فيه كيف استطاع المعاصرون أن يفهموها دون الرجوع الى معجم من المعجمات . وكيف السبيل الى أن يذوقوها بعد أن يفهموها .

أما شاعرنا فيصطنع السبنتاه هذه فى وصف عذراء حسناء قد أسكرها الشباب وأى بأس عليه لو اصطنع كلمة أخرى (١) . »

وقد جاء فى رد الدكتور عبد الله الطيب على هذا النقد قوله « أما بعد يا سيدى فأنا بدوى حقا لأن أهل السودان الشمالى كلهم أقرب الى البداوة ، ولهجتهم الدارجة فيها غريب كثير ، وقد حاكيتها فى نظمى كثيرا واجتهدت أن أنقل الى القارىء لونا من جزالتها وجزالة قومى . وليعذرنى سيدى ان قلت ان أول معرفتى بالعربية كانت من طريق هذه اللهجة الدارجة فى أناشيدها وشعرها (٢) .

ولا شك أن فى هذا القول مغالطة من الدكتور عبد الله الطيب فقد

---

(١) الجمهورية فى ١٩٥٧/٣/١٣ ، والرأى العام فى ١٩٥٧/٣/١٩

(٢) الرأى العام فى ١٩٥٧/٣/٢٠

عشت فى السودان مدة كبيرة لم أتعثر فى فهم لغتة الدارجة كما تعثرت فى فهم شعره . حتى ان كلمة الطخا بمعنى سحاب التى وردت فى شعره والتى عابها عليه الدكتور طه حسين نراها قد رقت فى فم العامة فصارت « تخا » بالتاء .

ومن هذا اللون ما جاء فى قول اسحق محمد خليفة :

فكم من فدفد مرت عريض ... تضل فجاجه وحشا ونوقا
جزعت بجرة أجد هموم ... بغير خوانق مرقت مروقا
يزمجر جؤجر منها برجل ... فويق النقع محتدما خفوقا (١)

فالألفاظ هنا لا تخدم البناء الشعرى ، كما أنها لا تخدم التعبير بالصور ، وانما تقوم بعملية تفتيت لها متى ما عجز الشاعر عن تحريكها ، ووضعها فى المكان المناسب لها من اللوحة .

ومن هنا نرى كثيرا من الألفاظ فى هذا العصر يقف ناتئا فى العمل الفنى بحيث يمكن الحكم عليها بأنها دخيلة على العمل الفنى ، وهامدة وسطحية .

على أنه يمكن القول بصفة عامة أن الكلاسيكيين قد عاشوا فى الأطر القديمة للأدب العربى لعكوفهم المتواصل عليه ، وأن هذه المواريث اللفظية كانت كثيرا ما توجه المضمون الى المحاكاة والسطحية والوصف الخارجى والرضى بمواضعات الحياة والوقوف بالصورة الى مدى لا تتعداه ، ومن هنا نرى الأشياء تظهر ظهورا حقيقيا وتعجز عن أن تكون رموزا لعالم داخلى . فاللفظة لم تكن تعطى الوفير من الايحاءات ، ولكن كانت محددة بمساحات شعرية لا تتعداها ، كما هو واضح فى شعر العباسى وعبد الله عبد الرحمن وعبد الله الطيب .

أما الشعراء الرومانتيكيون وعلى رأسهم التجانى فقد كانت ألفاظهم تخدم الأغراض التى كانوا يكتبون فيها ، بحيث يمكن القول بأنها كانت تعطى الجو التأثرى للطبيعة والوحدة ، والخيال المجنح ، والتلقائية .. الخ

---

(١) ديوان زهر ونفر ص ٥٦

أغراض الروماتيكية ، كما نلمح دائما جدتها وخدمتها للجو العام للقصيدة كما فى قصيدة فى « الموحى » للتجانى : ـــ

جـــوها المعبدى يعمره الصمت بهمس من الوســـاوس فاتر
ويفـــور السكون فيه ويدوى كدوى الظنـــون فى قلب حائر
قم ونفض من ظلمة الأرض ساقيك فى الشذى عدتك المخاطر (١)

ذلك لأنها تقوم بعملية التداعى حول المضمون وتنجح بفضـــل ادراك الشاعر لحساسية العلاقات بينها فى خلق جو متناغم يلف القصـــيدة وفى أعطاء الألفاظ روحا جديدة تساعدها على التحول الى لون أو حـــركة أو نغمة فى القصيدة ، سواء كان هذا معتمدا على خاصية اللفظة وعلاقاتهـــا بالألفاظ الأخرى فى القصيدة ، أو كان معتمدا على عملية التضاد كما فى قول التجانى ويفور السكون ... الخ .

---

(١) اشراقة ص ٨٣

معانيه وأخيلته

(٣)

لقد اتسعت معانى الشعر فى هذه الفترة ، كما زاد عمقها فقد رأيناهم يتعرضون لسياسة بلادهم فى جلاء ووضوح . كما رأينا بعضهم يميل الى مصر وبعضهم الآخر يميل الى الانجليز ولكن كانت من وراء هذا الميل رغبة أكيدة فى تحرير البلاد حين تحين لهم الفرصة .

كما رأيناهم يقبلون على الطبيعة فى شوق وحب فيقدمون لنا صورة حية عن بلادهم جبالها وسهولها ، والخريف الذى يعتبر بشير الخصب بها ، والأجواء التى تمر بها ، وكل ألوان الحياة التى تطوف هناك . فهم قد رأوا كلا وجهيها ، ولم ينصرفوا الى ما فيها من زخارف ، وصور جمالية مؤثرة ، ذلك لأنهم يلاقون منها فى أكثر الأحوال عنتا . على أنا نرى الشاعر فى كل هذا يقف موقفا محايدا من الطبيعة فهو لا يوضح لنا موقفه النفسى منها ، ولا يفلسفها ، ولا يعطينا مشاركته العميقة لها ، ولا يربطها بأشياء كثيرة من حوله ، وهكذا نرى نظرته اليها أقرب الى نظرة الشعر العربى منها الى الشعر الأجنبى .

وفى الغزل نلمح فى شعرهم جرأة لم تكن متوفرة لهم من قبل وخاصة ما يدور منه حول المرأة الأجنبية . أو بعبارة أدق « المرأة البيضاء » فهم مولعون بها دائما ، ومع أن المدينة تغص بالحبشيات المتحررات الا أننا لا نرى لهن ذكرا الا فى قصيدة الى كتكوتة (١) لمحمد المهدى مجذوب ، وقصيدة أخرى لتوفيق صالح جبريل جاء فيها اسم حبشيتين :

والكأس تذكر اذ تدور بها « تسمى » أو « تهيت » (٢)

وقد قدموا الينا صورا عن الحياة الاجتماعية فى البلاد . ورأينا كيف

---

(١) مجموعة لمحمد المهدى مجذوب

(٢) صوت السودان ١٩٥٥/٦/٢٦

يكون ولعهم ببلادهم حينما يكونون فى البلاد التى تعترف بالتفرقة العنصرية كأمريكا وانجلترا ، وكيف يخفت هـذا الحنين حينما يكونون فى بلاد تحبهم ، وتتعاطف كمصر .

وفى الوقت الذى تزدهر فيه قوى العروبة نرى مجرى آخر ضـيقا هو مجرى القوى الأفريقية والاحساس بها . كما نرى الى جانب الدين جانب الشك .

واذا كان المدح والرثاء والهجاء لا يزال ضاربا بجذوره فى الأعماق السودانية وبخاصة هذا الفن الأخير فانا نرى قوالب وأغراضا جـديدة تظهر للوجود تبعا للأغراض الجديدة التى استحدثت كالشعر المسرحى ، والانسانى ، وشعر الأطفال ، وشعر الأناشيد .

وقد دارت معانيهم حول المعانى القديمة للشعر العربى ، خاصة وأن الشكل القديم قد ساعد على « تجميد » هذه المعانى ولقد كانت النتيجة « هى خفوت الملامح السودانية تحت هذا الركام الهائل من التقليد ، فلا تبرز قوية واضحة فهم كمـا قال المؤرخ السودانى محمـد عبد الرحيم « انفصلوا الى طريق ماتزال بهم حتى تسلبهم أول شىء (الذاتية) التى هى من ألزم لوازم الأدب فى التمييز بين الانتاج ، وحتى تضيف الى كل رطل من حقيقتهم عشرين رطلا من حقيقة الشاعر العربى القديم (١) »

وقد ظل الدين نبعا عميقا يلون معانى الشعراء .

وهكذا نجدنا ازاء مدرستين أولاهما تتمسك بالتراث القديم وتجتره ، وتحتذيه ، وترتكز على النقل والمحاكاة ، كما ترضى بمواضعات الحياة ، ولا تضيف جديدا الى الطبيعة ، أو ترخى عنان الخيال للشاعر ، أو تعطى عدة أبعاد للصورة ، كما تقف فى الوقت نفسه موقفا معاديا من ثقافة الغرب الوافدة ، وتعتبر الأيام الاسلامية المشهورة ، والحفـاظ على اللغـة ، والتقاليد فرصة للهجوم على المجددين ، بل ويؤكدون أن التجديد لا يكون الا على أيدى علماء الضاد .

---

(١) الاتجاهات الشعرية فى السودان ٤ ، نفثات اليراع ١١١ .

وهل ينبغى التجـديد الا لعـالم   له فى علوم الضاد رأى مسدد (١)

أما المدرسة الثانية فقد انعكست عليها الثقافة الغربية ، ورأينا الشاعر فيها يهتم بذاته ويكثر من التبرم والابهام ، واللوعة ، ويجد فى الطبيعـة ملاذا لأفكاره،وعلى يديها تحققت بعض الألوان المحلية التى أوردنا بعضها فى شعر محمد المهدى مجذوب ، وحمزة الملك طنبل ، والتجانى ، والتنى .

ومن هنا تحققت على أيدى هذه المدرسة بعض ظواهر الخلق . هذا بالاضافة الى الاهتمام بالايقاع الموسيقى الموجـود فى أعماق الطبيعـة السودانية ، والتى يعتبر أشد ما يثيرها النغم الرتيب الحـاد ، وتفضيل المضمون على الشكل ، وبث الحياة فى المرئيات ، والاغراق فى الروحانية ، والميل للطفولة كما فى شعر التجانى ، وعلى أيدى هذه المدرسة خطا الشعر خطوات واسعة فرأيناها تؤكد طريقة البسط القصصى كما فى شعر عوض الكريم ، والبناء الدرامى كما فى شعر التجانى الذى يمثل بحق هـذه المدرسة الابتداعية .

وقد رأينا فى شعر هذه الفترة رمزية واضحة ، ولكنها قد تقف عنـد الرمز بالكلمة أكثر مما تقف عند الرمز بالموضـوع ، ومن هـذا قول الشاعر :

يا سعد سعد بنى وهب أرى ثمرا   فجد فديتـك للعافى بعنقـاد (٢)

وكقوله :

فيـا مار سـيرى ولا تخـدعى   فينتزع القـرط يا مـاريه (٣)

ويظهر هذا واضحا فى أوائل شعر محيى الدين فارس .

على انا لا نفقد فى هـذه الفترة معانى رمزية كبـيرة كقول محمـد المهدى مجذوب .

---

(١) الفجر الصـادق ٨٩

(٢) ديوان العباسى ٣٣ ويرمز بهذا الاسم الى أغنياء السودان الذين يعيشون لانفسهم فقط .

(٣) المصدر نفسه ٦٠ يرمز بمادية القبطية لمصر ، ويعنى بالقرط السودان .

وتحفـزت فى الروح كاهنـة ركب الغيـوم بأمـرها يسرى
هـدأت بأحشـائى مخـادعة حتى أمنت فبـاغتت صـدرى
والضـوء يضرب رأسـه عجـلا ويلملم الأوصـال فى ذعـر (١)

ويلمس هذا فى شعر التجانى كقصيدة الزورق الأخضر (٢) ، وكقوله « فى الموحى » .

جـوها المعبـدى يعمره الصمت بهمس من الوسـاوس فاتر
ويفور السـكون فيه ويدوى كدوى الظنون فى قلب حـائر
قم ونفض من ظلمة الأرض ساقيك وطر فى الشذى عدتك المخاطر
.. ها هنـا هيـأ الهوى لك ملكا قمـريا على عـروس الأزاهر (٣)

كما نرى هذا فى شعر محمد محمد على كقصيدة حداء المحراث (٤) .

ثم رأينا الشعر يتجه الى واقعية المضمون . ويلم أجنحتـه من الأودية المسحورة ، ثم يقف فى مواجهـة الحياة ملتزما ببعض القضايا المحليـة والانسانية كما فى كثير من شعر جعفر حامد البشير ، وجيلى ، وتاج السر ، ومحي الدين فارس ، والفيتورى .

وقد تطور الخيال فى هذه الفترة فبعد أن كان خيالا جزئيا معتمدا على عمليات التداعي والتوليد نراه يتطور ويتشكل بطابع البيئة . ونحن نرى هذا واضحا كما فى قصيدة الخلوة (٥) للتجانى ، وكما فى الخيال القصصى عند مصطفى عوض الكريم ، وكما فى الشـعر التعليمى ، وشـخصيات المسرحيات .

ويسوقنا هذا الحديث الى الصورة فنراها فى شعر المدرسة الأولى محتفظة بسمات الصورة العربية القديمة التى تتمثل فى استخدام كل ما هو

---

(١) مجموعة للشاعر وحدثه عن « الشهوة »
(٢) اشراقة ص ٣٣
(٣) المصدر نفسه ص ٨٣
(٤) ألحان وأشجان ص ٣٣
(٥) اشراقة ٥٧

حسى لابراز الصورة ، وفى عمليات المطابقة الحادة بين الشيء وصورته مما ينتفى معه أى تدخل للشاعر فى عملية الابداع ، وفى عمليات الجمود التى لا يتولد عنها اهتزاز حركى بوساطة ألفاظ لها خصائص انسابيــة ككلمة « هم » ، و « انحنى » وكاستخدام الفعل المضارع .. ثم أخيرا فى تفتيت الصورة ، وتقديمها هزيلة المساحة ، خاليــة من الألوان ، والعــلاقات ، والتكوينات .

أما الصورة فى شعر المدرسة الثانية فتتراوح بين الابتداعية ، والرمزية ، والواقعية ، وهى فى كل هذا لا تخلو من النبض ، واللمعان ، والترابط .

فقد تجيء لتوضيح فكرة كتقديم القلب فى صــورة فيلسوف يمارس الألم والشرور ، والانطواء والاندماج فى الطبيعة كقول التجانى :

أطل من جبــل الأحقــاب محتملا ... سفر الحيــاة على مكدود سيماه
عارى المنــاكب فى أعطــافه خلق ... من العطــاف قضى الا بقــاياه
مشى على الجبل المرهوب جانبه ... يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه
منبــأ من ســماء الفكر ممسكة ... على الرســالة يمنــاه ويسراه
ومــر يضرب فى الدنيــا على ألم ... ضاف وتوغل بين الكون رجــلاه
حتى أتى جبل الأحقاب وهــو به ... أحفى وأحدب فاستبكى فآســاه
وقام بين الرعــان البيض ملتفتــا ... يصيح فى الأرض من أعماق دنياه
هنا الحقيقة فى جنبى . هنــا قبس ... من السموات فى (قلبى) هنا الله (١)

وقد تأتى الصورة أشبه باللقطات السينمائية السريعة كقوله :

يا طرير الشباب من صاغ هذاالحسن فى زهوه وفى استكباره
منّ أذاب الضياء فيــه ، ومن نغم شــجو الهوى على أوتاره
من رمى ؟ من أصاب ؟ من صور الفتنة ؟ من زرها على أزراره
والفتور الذى بعينيك من موه سحر الحيــاة فى أقطاره (٢) .

---

(١) اشراقة ص ١٩

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٠

وقد يأتى الشاعر بالصورة لتكون اطارا فقط لما يجب أن يقوله الشاعر فالتجانى لا يقدم لنا الزورق الأخضر الا بالقدر الذى يضم فيه قلبين (١) وقد تأتى الصورة رمزية كما فى الصورة التى قدمها محمد المهدى مجذوب للشهوة (٢) ، وقد تجيء حادة التقاطيع محسوسة الا أن الشاعر يتدخل من خلالها كقول تاج السر فى جدته :

وهى تلقى على السرير بقايا جسد منهك ، ونفس هنيه
وهنا جدتى تسوق الأساطير وتروى الخرافة السحريه
وعلى وجهها الصغير خطوط رسمتها يد الزمان القويه
وعصاها العتيقة الملوية ، وارتجاف الأنامل المحنيه

كما نرى هذا واضحا فى قصيدة « أطفال حارة زهرة الربيع » (٣) لجيلى ، وفى كثير من شعر الفيتورى ، ومحى الدين فارس .

وقد توجد بعض صور غير مقنعة كقول التجانى فى قصيدة نفسى :

أخذ النوم من يدى وأعطى أعينا لم أزل من الصحو أعطى
لفها الليل فى يديه بأضفى معلم يفصل البطاح ومرط
واعتلى فى النجوم فاستكره الأعين فى سمطها المشت وسمطى (٤)

وكقول محمد محمد على واصفا أثر أمطار الخريف :

فى طيه فرح يرف على القلوب سلامه (٥)
ذعر تطاير فى الفضاء وفى الصدور مقامه

كما يمكن أن ترى فى بعض الصور مغالطة شعورية كقول التجانى :

---

(١) اشراقة ص ٣٣
(٢) مجموعة للشاعر
(٣) قصائد من السودان
(٤) المصدر نفسه
(٥) ألحان واشجان ص ٩٦

غننـــا يا جميــل أغنية النيـــــل وبارك بسحر عينيــك فيــه (1)
وانحدر موجة من الشط غرقى   غــير مسترفد ولا معتفيــه

وهكذا نرى التعبير بالصورة الحديثة قد أخذ مكانه فى هذه الفترة ، ورأينـــاها جزءا لا يتجــزأ من العمل لأهليته له ، فى بعض الأحيـــان وأصبح الشعراء حريصين على تقديم معانيهم من خلال هذه الصور ، وان كان هــذا لم يمنع بعضهم من الاهتمام بالصورة لذاتها ، وبتكديسها فى بعض الأحيان ، وبالاتيان بها للتفسير والاقناع ، وان كانت الصورة بصفة عامة فى الشعر السودانى تتميز بالوضوح وتعدد الوحدات .

---

(1) اشراقة ص ٥٦

تأثره بالأدب العربى فى مصر والحركات التجديدية فى البلاد العربية بعامة . وبالمهجر

(٤)

١ — لقد كان التجديد فى مصر يأخذ حركة « راجعة » دائما الى الجنوب وفى الفترة الأخيرة تأثر السودان بالتجديد فى مصر والشام ، والمهجر .

« ولا شك أن ظهور الرومانسية فى السودان قد تأثر الى حد كبير بميلادها فى الأقطار العربية الأخرى ، فقد درس مجددو السودان انتاج المجددين فى سائر العالم العربى راستفادوا منه فى المضمون والشكل على حد سواء » (١) .

وقد كان من أبرز المنطلقين فى هذا التجديد التجانى يوسف بشير ، ثم تأثر السودانيون كذلك بالحركة الرمزية ، والواقعية ، وحركة التغيير فى « الشكل الشعرى » الأخير .

فقد تأثر السودانيون بكتاب العربية . ومن هذا قول عبد الله عبد الرحمن :

ولا أكذب الرحمن فى العصر أنجم ... حماة لها من غيرة تتوقد
وصحابة أدت أمانة قومها ... وقامت على ضوء الرسالة ترشد
يطالعنا « العقاد » فيها بنافع ... من القول لا يطغى ولا يتقيد
وتقرأ « للزيات » فيها رسائلا ... هى السحر أو منها له السحر مورد
و « هيكل » فى أثوابه أى كاتب ... خصيب الى خير الأساليب يعمد
ولله« طه بن الحسين » فانه ... على نثره السهل الخناصر تعقد
وان تذكر الكتاب فاذكر غريبهم ... « شكيبا » ففى آثاره ما يخلد
حمى حوزة الدين الحنيف وغادرت ... جوانبه الدنيا تقوم وتقعد
« ومطران » يسمو للخيال مصعدا ... فيألفه وحشيه المتأبد
ويعجبنى شعر « الهراوى » فانه رصين قويم ليس فيه تجعد

---

(١) الاتجاهات الشعرية فى السودان ٨٧

«جميل الزهاوى» «والرصافى» كلاهما هو اليـــم فى آذيه يستزيد
وكانت لنا فى غابر الأمس نهضـــة مباركة لا اللهو منها ولا الـــدد
«فعبد الرءوف» و «الخطيب» كلاهما له بيننا الفضل الذى ليس يجحد[1]

فالشاعر يقدم لنا صورة عن تأثير شعراء العربيـــة فى مصر والشام والعراق فى السودان . ثم يضيف الى هذا ما قام به المصريون الذين أقاموا بينهم فى السودان .

وقد كان كثير من المصريين يذهبون لالقاء المحاضرات السريعة والى هذا يشير الشاعر :

وهـــذا يحاضرنا فى العـــلوم وهـــذا يحـــاضرنا فى الأدب
وهـــذا يحـــدث فى كل شيء وينقلنـــا لعصـــور الذهب
وكم « للسباعى بيومى » من أياد ومـــن أدب منتخب (٢)

وقد كانوا يتلقون الرسالة « فى حب واعجاب » كما كانوا يكتبون بها بين الحين والآخر ، ومن كتابها توفيـــق أحمد البكرى ، وعبد الله عبد الرحمن .

وهناك قصيدة نشرتها له الرسالة فى عددها ٨٣ على أثر المساعى التى كانت تبذل للتوفيق بين الأدبين :

نبهت منـــا فؤادا غير ســـهوان وجئتنـــا بحـــديث ممتـــع دان
«محمد بن جلال[3]» قد نطقت بما نحسه من أحاسيس ووجـــدان
دعوت للأدب العالى يحـــرك من بنى العروبة من مصر والســـودان
وصحت بالقائلين الشعر بينـــكم أليس عنـــدكم السودان ذا شأن
ما للمسارح لم تخرج روايتـــه وللرواية منـــه ألف ميـــــدان
ما كان أوفقـــه لو ضمنا أدب له الكنانة والســـودان ركنان (٤)

---

(١) الفجر الصادق ٩١
(٢) المصدر نفسه ٩٤
(٣) الأستاذ محمد جلال
(٤) نفثات اليراع ١١٥ ، ١١٦

وقد تأثروا بمدرسة الديوان ومن أشد هؤلاء الذين تأثروا بمدرسة الديوان يوسف مصطفى التنى ، وقد ذكر هـذا الأستاذ محمد أحمد محجوب فى تقديمه لديوان التنى (١) كما تأثروا بالاتجاهات الحديثة التى قدمتها جماعة أبوللو ومجلتهم .

وقد أفسحت المجلة صدرها لأقلام كثير منهم ، كتوفيق البكرى ، ومحمد أحمد المحجوب ، وعبد الله عبد الرحمن ، وفى ضوئها قامت مجلة الفجر التى ثبتت أركان الشعر هناك ، والتى فصلنا الحديث عنها من قبل .

وقد أثيرت فى السودان « مشكلة الثقافة المصرية » وعرفنا أن حسن صبحى المصرى ، دعا الى مزج الثقافة المصرية بالسودانية تحت اسم الثقافة النيلية ، أما محمد أحمد محجوب فدعا الى فصل الثقـافة المصرية عن السودانية ، وقيام أدب سودانى خالص ، وشكك فى أن هنـاك ثقـافة مصرية ، ودعا الى أدب قومى خاص بالسودان ، وقد جاراه بعض فى هـذا ، بينما لم يرحب بعض آخر بهذا الاتجاه ، وعده اتجـاها مضرا بالوحدة ، والعروبة ، والدين ، وأكدوا فيما أكدوا أن الثقافة المصرية هى المتمكنة فى السودان كتابا ، ومجلة ، وصحيفة وقد ظلت الخرطوم مدينة مفتوحة لكل الثقافات العربية وان تفاوت حظ هذه الثقافات قوة وضعفا . فعرفوا زيادة على ما قدمناه « أبو القاسم الشابى » وكانت بينه وبين أدباء السودان مكاتبات .

كما قدم الى بلادهم بعض أدباء الشام كالأستاذ فؤاد الخطيب ، ومن هنا تأثروا بأدب الشام المباشر فى بلادهم وخاصة فى ناديهم ، وفيما كانوا يقروءونه لهم فى مؤلفاتهم ، على أن التأثير لم يقف عند حد أدباء سوريا ولبنان فقط وانما تعداه الى شعراء المهجر (٢) .

على أن هـذا التأثير الأخير لم تكن له قوة تأثير مصر الا فى الفترة

---

(١) ديوان التنى ٩

(٢) تاريخ الثقافة العربية ٢٣٩ ، ٢٤٠

الأخيرة التى انتشرت فيها المجلات والكتب للأدباء الشاميين والمهجريين كالأديب ، والآداب ، والقلم العمانيــة وكتب جبران وغيره ، والدكتور عابدين يؤكد التأثير فى التجانى بذكره « ايار » فى أكثر من قصيدة . كما نرى ذكر « نيسان » فى قول محمد أحمد محجوب :

أى هذى الحسان يا صحب أولى بنــدى الورود فى نيســان

على أن التأثير الواضح حقا للمهجرين يظهر فى شــعر « جماع » فشعره فى القلق والاشفاق والحنين نرى عليه ظلالا مهجرية ، ويمكن أن نرى جانبا من نظرتهم للحياة فى شعره الانسانى وفى قصائد أمنا الأرض ، ونومة الراعى .

كما يمكن أن نرى هذا فى قوله :

صور الوجود جميــلة فى شوكها فى أغصن تمتــد خلف حدودها
والوحــل فيهــا والجداول ثرة والمــاء يجرى فى نضارة عودها
وأكف أوراق يصــافحها الســنا فى نشــوة والشعر نفح ورودها
يحيــا طليقــا والحيــاة طلاقــة ورسالة الشعراء حطم قيودها (١)

ومهما يكن من شىء فتأثير مصر ومن ورائها رصيدها من الــكتب والمجلات والصحف هو التأثير البارز فى الشعر السودانى . ثم لقد كانت الصحف والمجلات المصرية تفتح صدرها للشعراء السودانيين . فالمنهل الذى كان يمتاح منه الوجدان المصرى والسودانى واحد ، ومن هنا كنا نرى دعوات التجديد التى تظهر فى مصر تشق طريقها الى السودان .

ثم أن أكثر هؤلاء الشعراء قد تلقوا تعليمهم فى مصر ، ويكفى أن نذكر أن دار العــلوم قد خرجت عددا كبيرا من هؤلاء الشعراء الذين أسهموا فى اثراء وجدان بلادهم ومن هؤلاء الشعراء محيى الدين صابر ، ومحمد محمد على ، وادريس جماع ، والعمرابى ، وأبو القاسم عثمان ،

---

(١) لحظات باقية ص ٨٨ و ٨٥ و ٨٤ و ٤٨

والهادى آدم ، ومحمد عبد المعطى ، والفيتورى الذى لم يكمل بها تعليمه .

وهكذا نرى سمات مصر واضحة فى هذا الميدان .

وقد أخذوا بالشعر الأجنبى ، وقدم بعضهم جانبا من هذا الشعر مترجما فقدمت حضارة السودان فى ١٩٢٧/٣/٣٠ ترجمة لنصائح بولونيس لابنه جاء فيها :

أبنى هناك نصائح فى جنيها نيل المكارم
منظومة كنفيس عقد فيه رصعت اليتائم
أتقش بقلبك رسمها ؟
كن لينا سهل العريكة مقبلا عن ثغر باسم
واسلك طريق الخير نهبا واتق سبل المحارم
واذعن بنى لنصحها ؟

وقدم محمود محمد على النمر وقفة على نهر التايمز لوليم وردذورث جاء فيها :

الأرض أروع ما تكون لناظرى	والحسن أبدع ما يثير مشاعرى
فلقد لمست بهاءها وجلاله	لا حبذا من مرمر العابر
يا صاح وانظر فى الفضاء مدينة	بيضاء ترفل فى الصباح الباكر
فى هدأة الصبح الرقيق تمايلت	سفن تثاءب فى سماء عاليه
حى القباب الباديات وأبرجا	ومسارحا بين الخمائل عارية (١)

كما قدم مختار محمد مختار ترجمة عن الانجليزية بعنوان قالت (٢) .
والدكتور باخريبة ترجمة لأغنية أسبانية (٣) .

---

(١) السودان الجديد ١٩٥٥/٢/٢٠
(٢) مجموعة لشاعر
(٣) فيض من الله ٣٦

ويظهر أثر التأثير الأجنبي فى شعر حسين بازرعه ومن هذا قوله :

يا عطرها الفواح يسفح فى دمى يا عطرها
ويشف أخيلة تلون غرفتى وحيا وتعصر سحرها
كم خلتها تنسى لدى شقر الضفائر سرها
وتحيل شدقى رغبة كم ذا تشهت أسرها (١)

ونرى هذا التأثير عند عزيز اندراوس فيقول فى عروس الشعر منتنا :

ما بال منتنا لم تعد لحديثها فى الليل هازجة مع الأرواح
ما بالها نكصت على أعقابها وجلى تحدق فى مسيل جراحى
« منتاى » عودى للربيع ورفرفى بجناحك المهموس فوق جناحى
بيغنائك المعسول بالخمر التى رقصت على أنغامها أقداحى (٢)

هذا هو التأثر الخارجى للتأثير الأجنبى ، أما التأثير الداخلى الذى يتمثل فى الاستفادة من المذاهب الأدبية كالابتداعية، والرمزية ،والواقعية ، وكالوحدة الفكرية ، وعدم التركيز على قافية واحدة ... الخ .

فشىء لم يأخذوه فى أغلب الأمر عن الانجليزية ، وانما عن مصر ، والمهجر .

---

(١) مجموعة للشاعر

(٢) الشاطىء المسحور ١٧

خصائصه الفنية

(٥)

نرى الشعر قد تخلص فى هــذه الفترة من كثير من القيود القديمة كالتشطير والتخميس والقصد الى الأساليب البيانية ، والمعارضات .

ومع ذلك فقد ظل فى أكثره مرتبطا فى نظام القصيدة الداخلى وتركيبها العضوى . بالنظام والتركيب القديمين .

فالشاعر قد يؤرخ للموضوع دون أن يتعمقه ، ويجزئه دون أن ينظر اليه نظرة كلية شاملة .

فالتنى فى قصيدة طيف . تكلم عن الوجه ، ثم الطرف ، ثم الثغر ، ثم عنها جميعا ، ثم تذكر أنه طيف فذكر حين رآه « جبل الصحابة بحلفا » الذى عرف فيه هذا الطيف ، ثم ترك الموضوع ووصف الجبل فى سبعة أبيات ، ثم عاد الى الطيف ليتركه مرة أخرى ذاكرا ما لهذه الرؤية من أثر على شعره الذى كان قد ظنه ذهب عنــه . ثم يترك الطيف الى الحبيبة ليقرئها الســلام (١) .

ويرى هذا اللون أكثر ما يرى فى الشعر التقليدى كالمدح ، والرثاء ، والهجاء .

ونراهم يكثرون من أسماء الناس ، والمناطق ، ويميلون الى التكرار ، وتوليد المعانى وهم أشــد الناس حرصــا على النغمة الموسيقية ، ولعله البلد الوحيد الذى لم يلق فيه الشعر الجديد رواجا الى الآن ، ومن هنا نراهم يميلون الى البحور القصيرة الراقصــة التى تحافظ فى أكثرها على القافية الموحدة ، والتى يكون الجرس فيها صدى للمعنى وليست له قيمة خارجية عن العمل .

---

(١) ديوان التنى ٦٢

وقد يضحى الشاعر بأصل الكلمة من أجل القافية فيقول :

مصر الجديدة والعتيقة والقناطر « والزمالق »

كتب الجمال بأفقها « وكأن محمر الشقائق (١) »

على أنا رأينا من الشعراء المجددين فى هذه الفترة ميلا الى الوحدة الموضوعية فقصيدة دنيا الفقير التيجانى تدور حول موضوع واحد ، وفى ختامها يتدخل الشاعر بما يشبه ترديد الكورس فيقول :

فيا آهة ملء دنيا الفقير ويا أنة ملء دنيا الوجيع

لانت لدى الله أسمى وأنبل فى الأرض من سمات الخليع (٢)

ونرى هذا عند محمد المهدى المجذوب ففى قصيدته قرية قمراء ، يقدم لنا الجو الخارجى والنفسى للقرية التى تحتفل بيوم العرس دون خروج عن الوحدة الفكرية للقصيدة .

ويمكن أن نرى هذه السمة فى كثير من الشعراء المجددين بهذه الفترة .

ومن خصائص الشعر فى هذه الفترة التعبير المباشر ، فالشاعر هناك عارى الأعصاب لا يتحرج من الكلمة النابية كما رأينا فى الهجاء عندهم ، ولا يتحرج كذلك من الكلمة الصريحة كقول محمد المهدى مجذوب :

كل شق فى الأرض فرج أباح الغيث أحشاءه الظماء لجس (٣)

ومن خصائصه أيضا الميل الى البسط القصصى (٤) ، واستيحاء التراث الشعبى واستخلاص العبرة منه كما فى شعر حمزة الملك طنبل .

كما نرى الشعر فى هذه الفترة يتعرض للفلسفة وحقائق الحياة كما فى قصيدة الله للتجانى وقصيدة « الصوفى المعذب » التى تقدم دليلا واضحا للرد على الدهريين والماديين (٥) .

---

(١) الفجر الصادق ٨٢

(٢) اشراقة ٣٨

(٣) مجموعة للشاعر

(٤) قصيدة غرام الشيوخ بالعدد ٨ من مجلة الفجر وبعض شعر الفيتورى

(٥) اشراقة ص ٩١

الفصل الثالث

أشهر شعراء هذه الفترة :

التجاني يوسف بشير
محمد المهدى المجذوب
ادريس محمد جماع

التجانى يوسـف بشـير

(١)

ينتمى الشـاعر الى أسرة « الكتياب » التى تعتبر فرعا من المجموعة الجعلية فى السودان وقد اشتهرت هذه الأسرة بالتصوف ، والحفاظ على التعليم الدينى . حتى انهم حين قدم كثير منهم الى أم درمان شغلوا بفتح « الخلوات » للتعليم الدينى .

وفى احدى هذه الخلوات التى كانت للشيخ محمد القاضى عم الشاعر تلقى التجانى مبـادىء تعليمه وقد ظلت الحياة فى هـذه الخلوة مستقرة فى نفس الشاعر حتى قدمها فى قصيدة « الخلوة » التى تعتبر وثيقة لهذا النوع من التعليم فى السودان ، وكيف أنه على قسوة الحياة فيها يحبها :

هب من نومه يدغدغ عينيـــه   مشـيحا بوجهـه فى الصـباح
ساخطا يلعن السـماء وما فى الأ   رض من عالم ، ومن أشـباح
.. ومشى بارما يدفـع رجليـه   ويبكى بقلبـه الملتـاح
ضمخت ثـوبه الـدواة وروت   رأسه من عبيرها الفيـاح
ثورة صـورت خـوافى ما بـ   ين حنـايا صبينا من رياح
ورمى نظـرة الى شـيخه الجبـ   ار مسـتنبطا خفى المناحى
حبـذا « خلوة » الصبى ومرحى   بالصبا الغض من ليال وضاح (١)

ولما كان الطريق الطبيعى لتعليمه الدينى هو التحـاقه بالمعهد العلمى نراه يلتحق به ، فيلقى فيه التشجيع حتى نراه فى أحد الأيام يقف ليناقش الطلاب فى مقدرة شوقى ، ويفضله على حافظ قائلا ان الفرق بين شـعر شوقى وشعر حافظ كالفرق بين القرآن الكريم وأى كتاب بشرى ، ولكن زملاءه حرفوا هذا القول كما يقول الدكتور عابدين حتى وصل الى شيخ المعهد أن التجانى يقول ان شعر شوقى أجود من القرآن . وسرت الأكذوبة

---

(١) اشراقة ٥٧

الى شيخ المعهد الذى وجد فريقا من الطلاب يؤيدها فما كانمنه الا أن أصدر أمرا بفصل التجانى من المعهد (١) وقد عبر التجانى عن هذه القضية فى قصيدة « المعهد العلمى » :

هو معهدى ولئن حفظت صنيعه   فأنا ابن سرحتــه الذى غنى به
ما زلت أكبر فى الشباب وأغتدى   وأروح بين بخ ويا مرحى به
قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت   هلعا وهاج وماج قسور غابه
فأعيذ ناشئة التقى أن يرجفــوا   بفتى يمت اليـــه فى احســـابه
حتى رميت ولست أول كوكب   نفث الزمان عليــه فضل شهابه
كفر ابن يوسف من شقى واعتدى   وبغى .. ولست بعابىء أو آبه (٢)

وقد عمل فى فترة المعهد مصححا وكاتبا فى الجريدة التجارية ، حتى اذا فصل نراه يعمل « محصلا » فى شركة سنجر ، وينتهى عمله فى الشركة بعد الاضراب الذى قام به العمال لزيادة مرتباتهم .

وقد عمل من جانبه على القراءة والاطلاع خاصة وأن رغبته فى استكمال علومه بمصر لم تتحقق ، فقد كانت أسرته تعيش فى ظروف قاسية ، وكان والده غير راض عن ذهابه الى مصر ، وقد تسلل الشاعر فى احدى المرات منتظرا القطار الذى سيقله الى مصر ولكن والده تعقبه وأحضره قسرا الى أم درمان .

وانه ليصف هذه الحسرة فى نفسه فيقول :

أمل ميت على النفس ألحدت له من كلاءة الله قبرا
أملى فى الزمان مصر فحيا الله مستودع الثقافة مصرا
نضر الله وجهها فهى ما تزداد الا بعدا على وعسرا (٣)

ثم توجه الى الصحافة ليرضى بها رغبة الابداع فى نفسه ، فكتب فى مجلة الفجر عدة مقالات أروعها ما عبر فيها عن رأيه فى الشعر فهنـــاك

(١) اشراقة ٨ وذكر الدكتـور عابدين انه استقى هذه المعـلومات من المبارك ابراهيم صديق الشـاعر
(٢) اشراقة ٦١
(٣) اشراقة ٤٤

شيء يسميه « الروح المعنوية والوزن الخفي » ويقول « فليتعمق القارىء في فهم حقائق الشعر ليجد أن وراء كل وزن معنى ووراء كل معنى وزنا آخر » (١) .

ثم دعاه الأستاذ محمد عبد الرحيم لتحرير مجلة « أم درمان » وفي أثناء عمله بها شعر بمبادىء مرض الصدر فلجأ الى الراحة ، ولكن العلة الحت عليه فيموت عام ١٩٣٧ عن سبعة وعشرين عاما .

وهكذا نرى هذه الحياة الحزينة القلقة تنعكس على نفس الشاعر وعلى شعره فيجيء مملوءا بالقلق ، والحيرة .

ويسوقه كل هذا الى جو من الصوفية الحزينة (٢) والى طرح أسئلة بدون أجوبة (٣) ، والى عملية كشف عن الأسرار ، والحيـاة ، فيتحدث عن الله :

مدهش ذكـره مخيف الأداء   خير مافي الوجود من أسماء (٤)

وعن العقل (٥) :

أيها العقل أنت يا حيرة العقل ولما تكن بنفسك أجدر (٦)

وقد يؤرقه الشك فيذكر أنه ودع يقينه ، ويقول :

ويحي وويح الهدى المقبور ليس له   رجعى وقد أوغلت في التباريح (٧)

وقد يطلب من نفسه عدم الشطط :

الله أيتهـا الوديعـة   أن تشط بك الظنون (٨)

---

(١) الفجر ص ٧٨٥ عام ١٩٣٥
(٢) الشاعران المتشابهان لأبي القاسم محمد بدوى ٢٣ ، ٢٤
(٣) اشراقة ١٧ و٢٠
(٤) المصدر نفسه ١٤
(٥) المصدر نفسه ١٨
(٦) المصدر نفسه ١٨
(٧) المصدر نفسه ٢٢
(٨) المصدر نفسه ٥٤

وفلسفة الشاعر وأحاسيسه ليست غريبة عن الفلسفة الاسلامية وحقائقها . فقصيدة الصوفى المعذب ترجع الى الاعتقاد السابح فى الوجدان الاسلامى من آن الله فى كل مكان .

الوجود الحق ما أوسع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أوثق بالروح عراه
كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الاله
هذه النملة فى رقتها رجع صداه
هو يحيا فى حواشيها وتحيا فى ثراه
وهى ان أسلمت الروح تلقتها يداه
لم تمت فيها حياة الله ان كنت تراه (١)

ونراه يعتنق فكرة وحدة الوجود بفهمها الصوفى فى قصيدة « الله » و « الصوفى المعذب » (٢) .

كما نراه يستوحى أفكار « الحلاج » عن الله فيقول :

هنا الحقيقة فى جنبى هنا قبس   من السموات فى قلبى هنا الله (٣)

كما نراه يستوحى القرآن فى قوله :

تبارك الذى خلق   من مضغة ومن علق
سبحانه مصورا   من حمأة الطين حدق (٤)

وبقية القصيدة تطلعنا على احساسه بمأساة الخلق :

سبحانه قد وضحت   آثاره فينا ورق
رمى بهذا الطفل فى الأ   رض ومن ثم رزق
رمى به فى موكب الدنيا   مثالا للقلق

(١) اشراقة ٩١
(٢) المصدر نفسه ١٤ و ٩٠
(٣) المصدر نفسه ١٩
(٤) المصدر نفسه ١٠٦

يدير عينيه وتستفسر عن سر الشفق
كأنه يصرخ : ان الموت بالشمس علق
أو أنه يعرف أن الضوء فى الأفق اختنق

ففلسفته فلسفة المسلم الذى يرى ويقرأ فلا يجد فيما يقرأ ما يراه من الحقائق ، أو فيما يسمعه شيئا مقنعا فى آكثره . ومن هنا جاءت فلسفته الحزينة القلقة كرد فعل لمشاهداته ، وقراءاته .

والشاعر مهتم بالكليات فحين يتحدث عن حبيبه يتحدث عن الجمال نفسه (١) وحين يتكلم عن الطفل يتكلم عن عملية الخلق والغاية منها (٢) ، وحين يرثيه يتحدث عن الموت (٣) ، وحين يرسم صورة يترك لها ظلالا خلفية عميقة :

ان فى حسنك العميق لأنهارا عذابا تغص من آذيه
ان فى وجهك الوضيء ، وعينيك ينابيع من دلال وتيه
أنت يا فاتنى أم النيل زخار بنفسى كليكما من شبيه (٤)

وشعره الوطنى هادىء ممتلىء عمقا وهو لا يقصد اليه مباشرة . ففى قصيدة ثورة نراه يبدأ بالشكوى من الأنام ، ثم يتحدث عن قلمه ، ثم عن تحرقه فى الصبابة وغرامه بالجمال ، وثورة الحياة . ثم ثورة الشباب. ثم صباه وما جد فيه ، ثم يعود للحديث عن قلمه وعن مصادر حبه ، ثم يلقى بكلمة خطابية ويكمل :

قف بنا نملأ البلاد حماسا ونقوض من ركنها المرجحن
هى للنازحين مورد جود وهى للآهلين مبعث ضن
يستثمر الأجانب الخير منها والثراء العريض فى غير من
أبطرتهم بلادنا فتعالى ابن « أثينا » واستكبر « الأرمنى »

(١) اشراقة ١٠٤
(٢) المصدر نفسه ١٠٤
(٣) المصدر نفسه ٧٠
(٤) المصدر نفسه ٢٦

يا بلادي أخلصتك الخير واستعفيت ودي اليك من كل مين
يا بلادي وأنت أضيق من رزقي مجـالا ودون آخرات أذن
حسبقلبي منالأسى ماألاقي   ملء جنبي من كلال وأين
وبحسبي من حاجـة عوز يدفـع نفسي الى فـراق وبين (١)

فالشاعر يقدم هنا خواطر متفرقة وان كان يجمع بينها جميعا خيطدقيق من الحزن ؛ فهو لا يلمس مشكلات وطنه ، ولا يحس بالأحداث التى تمر به لأنه مرتبط بجو غيبي ؛ وقد يضله هـذا الجو فتستقر في نفسه أشياء ليست من الحقيقة في شيء . لأنه لا يستمد معارفه من نبع موثق ، أو قراءة مدعمة . فنحن نراه يقول في المهدى :

في دجى مطبـق ويوم دجوجي   وليــــل مقفقف مقـــرور
ولدت ثورة البلاد على أحضـنا   ن كوخ وفي ذراعى فقـير
سـالكا في الحيـاة نهج طريق   « طيبى » معبـــد ميســور
اين أمس ؟ في الغـار حيث رأى الله بعينيـــه في نواحى « ...ر » (٢)
ثم أوحى اليـــه أن قـد تخـيرتك هدىً فاصـــدع بأمر القـــدير
أيهـــذا « النبى » مرحى بمغـداك الينـا . أهـلا بلقيـا البشـير
أصبح الغار تاج ملك وأضـحت   مفرعات الفـراء عرش الأمـــير
واليـد الطهـر خضـبتها دماء   من صريع مجنـدل أو أســـير
و« النبى الصغير » من بعد ما زا   ل نبيا معظمـا في الصدور (٣)

فالشاعر ليست له فلسفة خاصة به ، وانما كل ما عنده مجرد تأملات تدفع اليها حركة الفكر الطبيعية . كما تستثيرها ثقافته واطلاعه المحدود في بعض الكتب المجددة .

ثم ان الشاعر مشدود دائما الى أجواء بعيدة فحين يحب نراه لا يقدم لنا

(١) اشراقة ٥٢
(٢) يشير الى جبل قدير
(٣) اشراقة ٢٠ ، ٢١

نماذج من الفتيات السودانيات ــ ما عدا البيتين اللذين ذكر فيهما التشليخ ــ وانمــا يحب مسيحيات لسن مواطنات وقد يكون لاشــتغاله بشركة « ســنجر » التى كانت بها مسيحيات ، ويهــوديات ، كما يكون لحى « المسالمة » (١) الذى نشأ فيه أثر فى تهيئة هذا الجو الغريب له ، ومن هنا نراه يقول :

آمنت بالحســن بردا وبالصــبابة نــارا
وبالكنيســة عقــدا منضدا من عذارى
وبالمسيح ومن طاف حوله واســتجارا
ايمان من يعبد الحســـن فى عيون النصارى (٢)

والشاعر لا يقدم لنا صورة واضحة عن طبيعة بلاده ، كما لم يقدم صورة واضحة عن الصراع فيها ؛ فقصيدته الخرطوم تصلح لأى مدينة بل لعلها لا تنطبق على الخرطوم قدر انطباقها على بلد آخر على طول النهر :

أحنى عليهــا الغصن الفاره وظللهــا العنقود من حادر
وهام فيهــا القمــر الرافه يعزف من حين الى آخــر
قصــيدة ألهمهــا الاله يراعة الفنان والشــاعر (٣)

وهو على عادته حينما لايتمثل التجزئة فى نفســه نرى قصيدته تتسع لاكثر من موضوع ، ولعله كان موفقا فى قصيدته « توتى فى الصباح » أكثر من توفيقه فى قصيدة الخرطوم ، «والتجانى» حينما يلتزم بشىء ويريد تقديمه لا يجنح اليه فى أغلب الأمر مباشرة ، وانما يصب طاقته الفنية فى الطبيعة من حوله ثم يستسلم لما يريد أن يقول فنحن نراه فى قصيدة اليقظة التى بدأها بقوله :

---

(١) سمى بذلك لأنه كان ممتلئا بالمســيحيين ، وقد أجبرتهم المهدية على الاســلام ثم استمر بعضهم بعد الفتح على الاسلام ونكص البعض الاخر (الشاعران المتشابهان ص ٢٤)
(٢) اشراقة ص ٤٨
(٣) المصدر نفسه ٢٥ ، ٢٦

فى الليل عمق وفى الدجى نفق لو صب فيه الزمـان لابتلعه

لا يخلص لما يريد أن يقول الا فى آخر القصيدة حيث يقول :

ضـوء من العـلم فى مدارجـه يسعى وللعلم فى الوجود سعه (١)

كما أن ولعه بالطبيعة جعلهـا مادة طاغية على كل ألوانه ، وتعمقه فى التراث العـربى جعله قادرا على تحريك الصور ، وعلى استخدام الألفاظ استخداما موحيـا ، وان لم يسـلم بعض شعره من الأخطاء العروضية ، واللغوية ، والتشتت ، والتهـافت ، والغموض ، والمبالغـة فى تجسيم المعـانى (٢) .

والشاعر يشهد لثقافة مصر ، ويتغنى بفضلها عليه كما فى قصيدة رسل الشباب الى مصر ، وقصيدة ثقافة مصر (٣) التى يقول فيها :

كلمـا أنكروا ثقـافة مصر كنت من صنعهـا يراعا وفكرا

وان لم يخل شعره من تأثرات مهجرية وبخاصة أن شعره يشارك كثيرا شعرهم فى مسحة الحزن ، واللوعة ، والرمز ، والتشاؤم .

وشعر التجانى يتراوح بين وحـدة الموضوع وتفتيته ، وتسيطر عليه الرومانسية الحزينة التى تبعده عن الواقع وتطبعه بطابع الحزن والقلق .

وهو موفق فى أكثر صوره التى يلح فى اظهارها بعملية تجسيم المعانى .

وفى عملية التقاء موسيقاه الداخليـة بالخارجية نراه موفقا فيها كل التوفيق بل يصل فيها الى مدى غنائى يستحوذ على الشعور .

---

(١) اشراقة ٩٧

(٢) المصدر نفسه ٢٧ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ١٠٧ ، ٤٧

(٣) المصدر نفسه ٥٠ ، ٨٦

محمد المهدى مجذوب

(٢)

ولد هذا الشاعر فى الدامر ، ثم حفظ القرآن وتلقى تعليمه الأول فى « الخلوة » وهو ينتمى الى أسرة معروفة بالعراقة فى تاريخ السودان ، وقد ذكرنا من قبل أنه على يد رجل من رجالها هو الشيخ محمد الطاهر مجذوب ؛ قد تحول الشعر من تهويمات وسبحات صوفية ضائعة الى قيم روحية عليا ، بل الى شعر بطولات حربية . وذلك بعد أن تم تحويل المجتمع السودانى من نظرته الى التصوف كمثل أعلى الى مثل أعلى آخر هو الرجل المحارب .

وقد حفظ الشاعر من صغره شعر الشيخ محمد المجذوب ثم توفر على ديوان البرعى . ثم ديوان ابن الفارض . وأخيرا تخرج فى كلية غردون قسم المحاسبة ؛ وطوف فى البلاد السودانية حتى أصبحت نبعا يستمد منها شعره . كما رأيناه فى الوقت نفسه يقبل على رسائل المهدية ومنشوراتها ، واخبارها فيقرأ وينفعل .

ومن خلال احساسه العميق ببلاده وتاريخها تدفق شعره ملونا بهذين اللونين . حاضر السودان ، وماضيه فنراه يذكر بواقعة « شيكان » فيقول :

أأسمع من شيكان رعدا تجددت ... زمازمه حول النحاس المغرد
فهاج بحلفا قبر عثمان (١) لفه ... كسيف على ثأر يناجيه مغمد
واسمع شيخى (٢) عابرا فى نشيده ... وهاج ابن منصور (٣) قتيلا بمسجد

كما يذكر بموقعة « كررى » :

بالسفح من كررى بقية ثورة ... عطر بذابل أغصن وثمار
جبل به أثر الدماء كأنه ... حملت بسيف كريهة مدرار

---

(١) عثمان دقنة
(٢) الشيخ الطاهر مجذوب
(٣) الشهيد الحاج أحمد ودمنصور

وقد قدم صـلة مصر بالسودان ، وكفاح المهدية ، وخداع الانجليز لعرابى ، واستضعاف الخديوى وعظمة البارودى فى قصيدته لمصر ، وفيها نرى كيف أنه لا يزال متأثرا بما أشيع عن المهدية :

وسال من « الغار » أنصـاره ... لهـم سـبح قـدحت بالشرر
ووافى « الجـزيرة » منشوره ... لـواء يقود اليـه الزمـر
وجاء « الخديوى » فى عرشه ... بغـاب توثب منـه النمـر
و « غردون » أمسى لدى شرفة ... بمنظـاره كم يعيـد النظر
يرى الغرب(١) نارا على ومضها ... تهز الرماح « رعاة البقر » (٢)
وجاش « النحاس » لدى ليلة ... من الخيل يركب فيهـا القدر

ويتكلم عن المهدى فيقول :

وقـد ثار مهـدينا المنتظـر ... وسل على الترك سيف العشر (٣)
تحـدث عنـه الجمـاد الخلى ... وطن اسـمه فى حفيف الشـجر

فالشاعر لا تهمه الحقائق التاريخية ، وانما يهمه هذا الجو السحرى الذى أشيع عن المهدى فهو الى جانب اهتمامه بالمهدية نراه شديد الالتصاق بمجرى الحياة فى بلاده ، وبالناس من حوله ، ومن هنا نراه يقدم لنا نماذج محليـة فى قصيدته ، أم الأحاجى ، فقراء غير هنود ، والعاصفة ، وقرية قمراء ، وجبل الختمية .

كما نعرف عادات الموت فى رثائه للشريف الهندى .

وقد ولدت عنده شدة الاحساس ببلاده ظهور الاتجاه الافريقى عنده كما فى تلك القصيدة التى تمنى فيها الحياة بينهم حيث الانطلاق واللهو ، وتلك القصيدة التى لم يأنف فيها على عادة الشعراء من ذكر ما فى عروقه من دماء زنجية .

عندى من الزنج أعراق معاندة ... وان تشدق فى انشادى العرب

---

(١) غرب السودان
(٢) قبائل البقارة
(٣) قيل أن نبات العشر المعروف فى السودان كان يستحيل فى أيديهم الى سيوف .

كما تعرض للتفرقة العنصرية فى الجنوب ، ومشكلة التبشير فيه ، ونراه يهلل لجومو كنياتا ويشيد بقومه فى كينيا .

على أنا نراه يتأثر بالأحداث فى مصر ، ويمكن أن نرى هذا الأثر فى قصائده أم‌صابر ، وبورسعيد والنصر . وشعر محمد المهدى مجذوب يمتاز بالصورة . فهو فى أكثر شعره يعبر بالصورة ، وهذه صورة عن « عشاء » تناوله فى واحد من الأحياء الشعبية فى مصر حين قدم اليها :

هات فولا بالزيت فى أول الليــل واذهب به الشجا عن لهاتى
لمعت كل حبــة مثلما تلمــع فى البــدر درة فى الفــلاة
هاته والرغيف ، والكوز ، والقلة .. أشهى لأعينى من مهاة
قلة جيــدها ثقيــل ، وتعييــه بردف مدملــج كالصــفاة
بعثت فى يدى من نداهــا ومالت بفم بارد النطــاف موات
. . جلس « القــدر » بيننا كثرى يتباهى فى ســامر وحداة
بطنــه مائل به . وقفاه لامــع كالأثيــم فى الخــلوات
وحواليــه قــومه من صــناع يصــطفيه وحائمين ســـقاة

وقد يمزج الشاعر بين الطبيعة والجنس كقوله :

ترعش الأرض فى البوارق كالحسناء ندت على مفاتن شمس
ربت القطر ظهرها فســجت حينا كما تسكن الفتــاة لبــوس
وألانت ، وأسمحت قطواها بين حلو من العنــاق وهمــس
كل شىء فى الأرض فرج أباح الغيث أحشــاءه الظماء لجس
لاقف كل قطــرة .. هاجت الشهوق الى من أحبــه غير منسى

والى جانب قدرته على التوليد ، ورسم الصورة ، نراه يستوحى بعض المعانى القديمة فقوله :

كذلك « رمســيس » فى جنــده   يــذودون عن ربهم بالنبــــال
لقــد خرجوا من رموز النقــوش   عــلى الصــخر أطلقهم من عقــال

ترى عليه ملامح من قصيدة أبى نواس « ودار ندامى عطلوها وأدلجوا »
وقصيدة على محمود طه التى يقولها فيها :

ابريقـــه حـــلى من الدرر يزهى بـه قـدح من المـــاس
وكأن مـا حوليـه من صـــور متحـــركات ذات أنفـــاس
تركت مواضـــعها مـن الأطـر ومشـــت له فى شـــبه أعراس

والشاعر فى كل ماتقدم يعرض أفكاره من خلال الصورة التى يهتم بها كل الاهتمام ، وان كانت لاتخلو فى أكثر الأحيان من فقدان الروابط النفسية ، ومن التراكم الذى يجعلها كالأحراش التى تحجب الرؤية كمـا فى قصيدته « جبل المرغنى » .

ادريس محمد جماع

(٣)

ولد الشاعر فى حلفاية الملوك عام ١٩٢٢ منحدرا من أسرة عريقة تمتد بجذورها الى واحدة من الأسر التى أسست مملكة الفونج ، وقد سار فى طريق التعليم الدينى المعروف ، وحينما أراد الخروج منه الى التعليم المدنى فيدخل مدرسة أم درمان الوسطى نراه لا يمكث غير شهرين لعجزه عن تسديد المصروفات .

ومن هنا نراه يلتحق بكلية المعلمين ببخت الرضا عام١٩٣٦ ثم يتخرج منها مدرسا ، ولكنه مشتاق الى مواصلة التعليم فيستقيل من المعارف السودانية ، ويحضر الى مصر فيلتحق بمعهد المعلمين بالزيتون ، ثم ينتظم بكلية دار العلوم فيتخرج فيها عام ١٩٥١ ، ثم يلتحق بمعهد التربية العالى ويحصل على دبلومه عام ١٩٥٢ ثم يرجع الى بلاده ليشتغل بمهنة التدريس وانه ليقدم لنا نفسه فى هذه الأبيات (١) :

هى نفسى من الطبيعة والناس وممزوجة مع الأكوان
ليس هذا الوجود عندى أشكالا . ولكن مشاعر ومعانى
والحياة الحياة أن أرمق الدنيا ، وأمشى كالجدول النشوان
تارة صاخبا وحينا أغنى فى صفاء مسلسل جذلان
ناعم النفس دائبا فى جهاد العمر كالنحل فى ارتعاش المجانى

وأهم ما يميز شعر هذا الشاعر هو احساسه الدافق بالانسانية وشعوره بالناس من حوله ، ولا شك أن هذه نغمة جديدة فى الشعر

---

(١) لحظات باقية

السودانى ، وفى قصيدته « أنت انسان » يقدم لنا الدليل على هـــذا الاحساس النبيل :

أنت انســـان بحـق وأنا — بين قلبينــا من الحب سـنا
كل يوم صــــور عبر الطريق — تزحم النفس بهـــا ثم تفيق
ليس ماهـــزك حسا عابرا — انه فى الصـدر احساس عميق
هــو انسانية قـــد وصلت — كــل نفس بك فى ربط وثيق
واذا ما سقط الطـير الجريح — وهو مخضوب على الأرض طريح
يضرب الأرض بريش ويصيح — حوله زغب من الطير تنـوح
وتلمست بجنبيك الجــروح — فبحـق أنت انســان وروح (١)

وهو يذكر أن الانسانية نسبه ، وأنه مرتبـط بكل النـاس فى كل الشعوب ، ثم يرسم لنا العالم الذى ينشده :

أنت انســان وهـــذا نسـبى — وســنحيا فى اخــاء دائـم
ان أصــن حـريتى فى وطنى — صــنت غيرى من طماح الداهم
قـد توحدنا معـــا فى حـلم — يغمـر الأرض بفجـر باسـم

بسـمة الفجـر اسفرى عن عالم — تتآخى فيــه آمــال الشـعوب
يصـل النـاس بحب شــامل — ويبث الأمـن فى كل القــلوب
همــه دفع القــوى لا هدمهــا — كلما استجمع شعب للوثوب (٢)

ونراه يقول مستوحيا أبا العلاء :

فـــلا هطلت عــلى ولا بأرض — ســحائب ليس تنتظم البـــلادا

نراه يقول :

كلف بالحيـــاة لالى وحــدى — بل لكيمـا تعم حتى اليبـابا (٣)

كما نراه يقول :

وفى جنبــى انســـــان وروح — وحب الناس فى جنبى يسرى (٤)

---

(١) لحظات باقية ص ٣٢
(٢) المصدر نفسه ٣٤
(٣) المصدر نفسه ٦٧
(٤) المصدر نفسه ٧٤

وانه ليحمل الناس جميعا هموم أى « فرد منهم » :

ذلك الراسف فى أصفاده والذى يعثر فى ذل الرقيق
انك المسئول عن اطلاقه من هوان القيد ما دمت طليق (١)

وانه ليهلل للذكرى الثامنة لحقوق الانسان :

لك اجلالى على مر الزمان أيها الانسان فى كل مكان
تبتنى للحق صرحا شامخا فوق أنقاض التجنى والهوان
ان ميثاقك انسانية تمنح التقديس للحق المهان
.. قيم شعلتها تفصل بين بنى الناس ، وغاب الحيوان
يولد الانسان حرا ليرى حقه فى هذه الدنيا يصان (٢)

وتتجلى انسانيته فى كره الحرب ودعوته للسلام ، وقد صور الحرب فى قصيدته جنون الحرب :

قد كان مسقط رأسها بالغاب فى أولى السنين
وترعرعت لما تغذت من دماء الأولين
والآن تكلؤها وترعاها علوم المحدثين
تبدو بوجه تقشعر له جسوم الناظرين
عكست ملامحه الخرائب والضحايا الهامدين (٣)

ونراه يدعو الناس للسلام فى قصيدة « فجر من الصداقة » (٤) ، ومآسى الحرب (٥) ثم نراه أخيرا يقول :

---

(١) لحظات باقية ١٠٤
(٢) المصدر نفسه ٨٢
(٣) المصدر نفسه ٢٤
(٤) المصدر نفسه ٧٨
(٥) المصدر نفسه ١١٢

قيمة الانســـان فى الدولة مقيــاس الرقى
وهى فرق بين شعب ينزف الروح وحى (١)

وقد تميز شعره فى الفترة الأخيرة بالأناشيد . فقد ابتعد بمشاعره عن الصراع الحزبى ، وراح يعبىء الجميع بالأناشيد فقد عرف بانطوائيتـه ، وبعده عن المعارك السافرة ، كما فى قصائده ، نشــيد قومى ، ونشــيد جامعة الخرطوم ، ونشيد السودان ، ونشيد الجنود السودانيين (٢) ، بل وتجرى فى كثير من قصائده روح النشيد كقصيدة نحو القمــة ، ونحو الوثبة ، ووداع المحتل التى يقول فيها :

دمنــا قــد جــرى   وازدهى الفــاتحون
جثمــوا فى الثــرى   ســادة يحكمــون
وقفــوا مســدلين   فى الصــباح الظلام
هــدهدو النــائمين   ليطيلوا المنــام (٣)

على ان أناشيده ليست صارخة الوقع ، تقليدية الكلمات

فمن قوله فى نشــيد العلم الســودانى :

أنت حــر فامش حرا   تحت خفــق العــلم
كالمنى أنت طليــق   كانبعــاث النغم
ظللت أرضك والخلد   تراءى فى ثـــراها
راية تشمخ فى الآفاق   رفافا ســـناها
خفقهــا رجــع قلوب   نسجتها من منـــاها
واتتفاضات شــباب   يتسامى فى حماها (٤)

(١) لحظات باقية ٨ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٤٦
(٢) المصدر نفسه ٩٩ ، ١٠٥
(٣) المصدر نفسه ١٦
(٤) المصدر نفسه ١٨

على انه كان يتغلب على هذا الهـدوء التأملي فى النشيد بمقطع يتردد فى نهاية كل وحدة وهو :

أنت حر فامش حـرا تحت خفق العلم (١)

واحساس الشاعر بماضي بلاده قوى ويظهر فى قصيدته دفين الصحراء التى يتحدث فيها عن عجيب الحاج أحد أبطال السلطنة الزرقاء (٢) .

وقصيدة صانع التاريخ التى يتحدث فيها عن المهـدى كرجل قومى بعيد عن الخرافات (٣) كما نراه قد قدم لنا الحيـاة فى بلاده فى أكثر من قصيدة ، والشاعر حسه متعلق بالوعى العربى ، والبلاد العربية ، وما يقع فيها من أحداث (٤) .

وقد تعرض من عدة سنوات لمرض عقلى ولكنه شفى منه وقد عبر عن هذه المحنة التى مرت به بقـوله :

يقلبنى الفـراش على عذاب يهز أسـاه كل ضـمير حـر
يصم صليل هذا القيـد سمعى وفى الاغلال وجدانى وفكرى
وتسـلبنى الكرى الالمـاما يد من حيث لا أدرى وأدرى
يغـالب محنتى أمل مشـع وتحيـا فى دمى عزمات حر (٥)

والشاعر متأثر بالشكل القديم للشعر العربى ، وبأغراضه ، ولكنـه يضع نفسه ومشاعره بشعره بحيث يمكنك التعرف عليه ، وعلى الظروف التى تحيطه .

وقد رأيناه يبتعد قدر الامكان عن الروح الخطابيـة ، والالفـاظ

---

(١) لحظات باقية ١٨
(٢) المصدر نفسه ٦٤
(٣) المصدر نفسه ٦٥
(٤) المصدر نفسه ٣٩ و ٤١ و ٥٥
(٥) المصدر نفسه ٧٥

المجمـدة ، وتحريكه للصور لا بأس به ، وكثيرا ما يدخـل مشاعره فى نهاية الانفعال فحين تحدث عن القضارف ، رأيناه يقـول :

كانت حيـاتى كالربا   فى الصيف قاحلة وحرى
واليـوم صرت خريفها   فاخضر منها ما تعرى (١)

وقد يغرب بأفكاره ، ويأتى بألفاظ هامدة وتراكيب غريبة كقوله :

أنا ما زلت سـاخرا من ضـمير له حدود
هـذه علة الوجـود فهل يشتفى الوجود ؟

(١) لحظات باقية

السـودان فى الشعر المصرى

لقد أحب الشعراء المصريون السودانيين ، ورسموا لهم صورا كلهـا انعطاف ، وأخوة ، واذا كان بعض الشعراء قد ضاق بالسودان فما ذلك الا لأن الظلم كان واقعا عليهم من الجهات الحاكمة ، وكان ذهابهم نفسه الى السودان انتقاما منهم ورغبة ، فى عرقلة حياتهم ، والحد من نفوذهم .

وبهذا اللون من العطف ننظر الى شعر رفاعة الطهطاوى فى السودان والى تلك القصيدة التى أوردها نعوم شقير فى كتابه تاريخ السودان (١) والتى بدأها الشاعر بقوله :

أقضى الليـالى بالسـهر　　والقلب ذاب من الفـكر
والصدر ضاق من الفرا　　ق ومن مشـقات السفر
سـفر الى السـودان والخـرطوم لم يك منتظـر

على أنه لم يوجد شاعر سخط على السودانيين أنفسهم ، وعلى طريقة تصرفهم فى الحياة ، أو سخر بعادة من عاداتهم . أو عيرهم بشىء فى ماضيهم وحاضرهم .

على عكس ما فعل بعض الشعراء السودانيين بمصر . فقـد الحقـوا بمصر والمصريين المثالب وسخروا من حياتهم ، وشتموا قادتهم ، وعابوا سياستهم تحت تأثير فترة سياسية حادة ، وقد مر بنا طرف من هذا الشعر وان كان تحت أيدينا الكثير منه .

وان الانسان حين يقرأ لشوقى ما قاله فى السودان وخاصة قصيدته :

وقى الأرض شر مقـاديره　　لطيف السـماء ورحمـانها

وحين يقرأ لحافظ رثاءه ، للزبير وذكره للبلاد هناك ..

---

(١) ج ١ ص ١٤٢

يا روضـة النيلين جئت مسلما   فعليك من لدن الاله سـلام
لى فى ربوعك من رجالك معشر   شمم ، اذا جار الزمان كـرام
أين الزبير أبو الفوارس والندى   قد غيبته عن حمـاك رجـام

الى آخر تلك القصيدة التى قالها وهو فى طريقه الى السودان (١) .

وحين يقرأ لعبد الحليم المصرى تلك القصيدة التى قالها فى الاحتفال برأس السنة الهجرية عام ١٣٢٧ مخاطبا الانجليز (٢) :

مالى أرى السـودان طعمة آكل   هل أطعمتهم مصر فى السـودان
أنسوا أسود النيل يوم تضرجوا   بدم العدا حين التقى الجيشـان
متسابقين الى الحصـول كأنهـا   أوكارهم شيدت على الأفنـان
متقاسـمين العـاديات كأنهـم   فى الحرب مشـتركان مختصمان

وحين ذهب الأستاذ عباس محمود العقاد الى الخرطوم عام ١٩٤٩ قال :

تفسـير حلمى بالجزيرة وقفتى بالمقـرن
حلمـان حظهمـا خيـالا دون حظ الأعين
ما دمت بينهما فما أنا سـائل عن مسـكنى
واذا التـذكر عاد بى عطف الجديد فردنى
يا جـيرة النيـل المبـارك كل نيل موطنى
وله سمى فى الصحـافة معـرب لم يلحن
حييت فيـه سميه وحمـدت فيـه مأمنى

وقد عبر الأستاذ عزيز أباظة فى أكثر من قصيدة عن هذا الحب ولعل أجملها تلك القصيدة المسماة بسمراء الخرطوم :

أبصرتها فى فندق الخرطوم فى احدى الليالى
بين الظباء من الكواعب والذئاب من الرجال
فوقفت مشدوها أجيل الطرف فى ذاك الجمال

(١) الزبير رجل السودان ٣١٣
(٢) الشعب فى ١٦/١٠/١٩٥٧

سمراء مذهبة تقول الخال موصولا بخـال
أو أعين سـود رفقن خلال أهداب ثقـال
ان أقبلت أو أدبرت خطرت على ساقى غزال

حين يقرأ الانسان كل هذا يعجب بالشعراء المصريين ، وبالحب الكبير الذى يحفظونه للسـودانيين .

وقد أكثر الشعراء المحـدثون من الحديث عن السودان ومنهم على محمود طه ، ومحمود غنيم ، ومحمود محمد رضوان ، وفوزى العنتيل .

وقد أهديت ديوانى « شعبى المنتصر » الى السودان (١) ، واستوحيت فيه البلاد هناك . وكل ما قلته ينبض بالحب لهذا الشعب العظيم .

... وقد مر بنا مدح الشيخ عمر المغربى أحد علماء مصر للسـلطان الفونجى بادى ابودقن والتى يقول فيها :

لك الخير ان وافيت سنار قف بها وقوف محب واغتنم فرصة العمر (٢)

---

(١) ديوان شعبى المنتصر لعبده بدوى وديوان باقة نور
(٢) تاريخ ملوك السودان ص ٤

خاتمـــــة

تلخيص لأهم الموضـوعات

قمت باجلاء « وحدة تاريخية » تربط بين ظهور السودان فى التاريخ وبين نيله استقلاله عام ١٩٥٦ .

ووضحت أن الانسان القديم فى هذه البلاد كان ذكيا مسهما بقـدر فى تطوير الحياة . وأن فكرة الحضارة لا تقتصر على المناطق « الباردة » ، وأن شر ما كان يقف فى طريق هذه البلاد وتقدمها هو عدم الاستقرار السياسى .

وقد عرفت هذه البلاد العروبة القديمة الجاهلية كما عرفت المسيحية . ثم كيف تدفق اليها الاسلام من ثلاثة طرق هى الشرق ، والشمال ، والغرب . ثم كيف بدأت على استحياء فى البلاد . ثم صارت شكلا لمجتمع مضمونه افريقى ، ثم أخيرا كيف تدخلت فى هذا المضمون وأثرت فيه .

ثم قدمت السودان فى ظلال الدول الاسلامية الثلاث التى عرفها . ثم فى ضوء الحكم التركى ، ثم فى ضوء المهدية ، ثم فى ضوء الحكم الثنائى .

بحيث جعلت من بحثى « وحدة عضوية » يستطيع القارىء بسهولة أن يتتبعها ، وأن ترتبط بذهنه وحدة متكاملة لكل من الحياة السياسية ، والعقلية ، والاجتماعية ، والشعرية فى هذه البلاد .

ففى الحياة السياسية وضحت صلة السودان بمصر ، ونوع الحكم فيه ، والثورة المهدية وأسبابها ونتائجها ، وتدخل الانجليز ، ومعاهدة ١٨٩١

ثم تعرضت للحكم الثنائى ، وموقف مصر والانجليز فى السودان ، وسياسة الانجليز نحو عزل البلاد وشعور السودانيين ازاء هذا الحكم ، وتأثر السودان بالاحداث فى مصر وسياسة الحزب الوطنى ، وتأثر السودان بالحرب العالمية الأولى ، وتأثره بثورة ١٩١٩ ، وأسباب حوادث ١٩٢٤ وموقف السودان منها ونتائجها .

ثم أخيرا كيف طرد المصريون من السودان ، وأخذ الانجليز يحكمون البلاد حكما مباشرا وكيف قام الوعى القومى بالسودان . ثم عودةالمصريين بعد عام ١٩٣٦ ، وشعور المصريين ازاء عودتهم ، والدور الكامل الذىأداه مؤتمر الخريجين .

وكيف قامت الأحزاب السودانية ، ومدى تأثر البلاد بالزعامات الدينية ورفعت النقاب عن أسرار السياسة الانجليزية ووسائلها وغاياتها ، والحياة التى مرت بالبلاد ابان الحرب العالمية الثانية ازاء ثورة مصر فى البلاد . ثم أخيرا الدور الذى أدته اتفاقية لسودان عام ١٩٥٣ ، وما ترتب عليها .

وكما اهتممت بالحياة السياسية فقد اهتممت بالحياة العقلية فوضحت فى الفترة الأولى من ١٨٤٠ — ١٨٩٩ نوع الحياة العقلية هناك ممثلا فى التعليم ، والطباعة ، والصحافة ، والبعثات والترجمة .

وفى الفترة من ١٨٩٩ — ١٩٢٤ وضحت أثر التعليم المصرى والأجنبى هناك ، وكيف قام الصراع بين كل من التعليمين ، والى أى حد كان دور الصحافة هنـاك ، والنشر ، والبعثات ، ومدى التأثر بالثقافة الحـديثة ، وبالترجمة ، ودور التعليم الدينى هناك .

وفى الفترة من ١٩٢٤ — ١٩٥٣ كشفت عن مدى انتشار التعليم هناك والدور الذى أداه التعليم المصرى ، وكلية غوردون ، والبعثات ، والصحافة والطباعة ، والنشر ، ودور التعليم الدينى . والنوادى العلمية والأدبية .

ثم وضحت فى الفترة الأولى من البحث كيف كانت الحياة الاجتماعية هناك . فتعرضت للحياة العقلية ، ولطبيعة المجتمع السودانى وعاداته فى الريف ، والمدن ، والقبـائل ، وتأثره بالزعامات الدينية ، ومدى تأثره بالحضارة الحديثة ، ودور المرأة السودانية فى هذه الفترة ، والخرافات ، والتقاليد الخاصة بالسودان ، ونظام الطبقات ، وحال المجتمع من الثراء والفقر ، والصحة والمرض .

وفى الفترة الثانية تعرضت لاتصال السودان بالمدنية الغربية وحالة المجتمع من حيث الفقر والغنى والصحة والمرض ، والعادات والتقاليد وما طرأ عليها فى هذه الفترة ، ودور المرأة السودانية فى المجتمع .

وفى الفترة الأخيرة كشفت عن الحياة الاجتماعية فى ظل الحكم الانجليزى من حيث الصحة والمرض والفقر والغنى ، ومدى تأثر السودان بالمدنية الغربية فى أساليب المعيشة وشئون الحياة وفى الحياة والتقاليد فى القبيلة والمدينة والريف ، ووقفت عند خصائص المجتمع السودانى ومميزاته فى تلك الحقبة ، ودور المرأة فى هذه الفترة ..

أما الشعر فى الفترة الأولى من البحث فتعرضت لموضوعاته ، ومعانيه وأساليبه ، وألفاظه وأخيلته ، وخصائصه الفنية .

وتعرضت لأشهر شعراء هذه الفترة ، والتعريف بشعرهم ، ودراسته ومنزلته وطبيعة هذا الشعر .

وقد كان شعراء هذه الفترة هم :

١ — الشيخ الحسين الزهراء

٢ — الشيخ يحيى السلاوى

٣ — الشيخ عمر الأزهرى

٤ — الشيخ محمد الطاهر المجذوب

وفى الفترة الثانية من البحث تعرضت للشعر فى هذه الفترة ممثلا فى موضوعاته ، ومعانيه وأخيلته ، وألفاظه ، وخصائصه الفنية .

مع دراسة للشعراء :

١ — عبد الله محمد عمر البنا

٢ — محمد سعيد العباسى

٣ — عثمان هاشم

٤ — وفى الفترة الثالثة تعرضت لأغراض الشعر ، ومعانيه وأخيلته وألفاظه وتأثره بالأدب العربى فى مصر والحركات التجديدية فى البلادالعربية بعامة وبالمهجر . مع دراسة خصائصه الفنية .

كما درست الشعراء :

١ — التجانى يوسف بشير

٢ — محمد المهدى مجذوب

٣ — ادريس محمد جماع

ثم ختمت البحث بالسودان فى الشعر المصرى

ومن قبل هذه الفترات تعرضت لجغرافية السودان وتاريخه من أقدم العصور الى فترة البحث والى مدى انتشار العربية وخصائصها : ووضحت تاريخ العرب فى السودان وحالة الحكم هناك قبل فترة البحث .

ثم بينت حال الأدب فى السودان قبل فترة البعث ، والموازنة بينه وبين الأدب العربى بعامة والأدب فى مصر بخاصة .

ما أضافته الرسالة من جديد
الى التراث العلمى

لقد قدمت تأريخا كاملا للحياة السياسية ، والعقلية والاجتماعية والشعرية فى هذه البلاد . ووضحت أثر العروبة فى هذه البلاد قديما وحديثا ، والدور الذى قام به الشعر كاملا هناك معتمدا على قراءاتى ، ومشاهداتى بعد أن أهمل هذا التراث ، وفقد فى بعض الأحيان .

فقد أهمل كثير من الشعراء شعرهم لعجز الطباعة هناك .

ولقد كنت أبحث عن الشعر فى صحفهم ، ومجلاتهم القديمة ، ومن أفواه الرواة . ثم أعرضه فى مجموعات لكل شاعر ثم أسعى لمقابلة الأحياء منهم ، وما أشد ما كان يطرب الشاعر حين أضع يده على أدبه بعد أن يكون قد نسيه فى بطون الصحف والمجلات ، وفى عقول الحفظة هناك .

ثم كان يأتى دور التحقيق فأكثر الشعر الذى قرأته وسمعته كان محرفا وهنا كان يأتى دورى نعرضه على الشاعر نفسه ، أو على صديقه وعلى المهتمين بالأدب . فالى جانب عملية الكشف والتنقيب عن هذا الشعر الضائع كنت أقوم بعملية التحقيق ، وبعملية الاشارة الى المراجع .

ومن هنا فقد قدمت الشعر السودانى لأول مرة محققا ، وموضحة مصادره ومراجعه فى كل الألوان التى تعرض لها فى هذه الفترة الكبيرة من البحث .

ثم ربطت بين فكرة المهدية والتشيع والجذور التى تمتد اليها هذه الفكرة ، وكيف كان المجتمع مهيئا لها ، والدور الذى أدته كاملا فى البلاد وكيف أن ظلها مازال ممتدا الى الفترة الحديثة .

ومن هنا نضيف دولة أخرى فى افريقية تدين بفكرة المهدية الى دولتين قامتا قبل ذلك ، وكانت أولاهما دولة الفاطميين ، والدولة الثانية دولة

الموحدين ، فكل منهما تدين بفكرة المهدية . وكيف أن هذه الدولة التى تركت مجرى عميقا فى حياة البلاد كانت رد فعل على الغزو الغربى ، والتقاليد الغربية ، ودعوة للحياة الشرقية البسيطة ، وانتفاضة غريبة فى وجه الظلم من أى مكان أتى .

ثم أرانى وضعت مقاييس لامتداد موجة الثقافة المصرية على وجه الخصوص . فالسودان فى ارتباطه الثقافى بمصر لم يفترق كثيرا عن أى قطاع مصرى متطرف . ولهذا رأينا الشعر وألوانا كثيرة من الحياة تسير خطوة بخطوة وراء التأثرات المصرية ، ومن هنا أرانى أضفت ألوانا أخرى من الفكر يجب أن تراعى ، بل وتضم عند الحديث عن الحياة المصرية ، والشعر المصرى ، فكلاهما كان واضحا كل الوضوح فى السودان . بل ولا نبعد اذا قلنا انهما لا يقلان تأثيرا هناك عنه فى الأطراف البعيدة من الوجه القبلى .

وكما درست السودان فى ظل الظواهر المصرية فقد درست السودان فى ظل الظواهر الافريقية من حيث اللغة وألوان الحياة والنوازع الى الشعور بالافريقية .

وكيف أن هـذا التأثير لا يبدو قشريا فى كثير من الأمور فله جذوره الضاربة الى الأعماق ، وفى الوقت نفسه تعرضت للسودان فى ظل الظاهرة العربية . ثم أخيرا وضعت يدى على تجمعات الشخصية السودانية . وكيف بدأت تقف الآن وحدها على أسس من ماضيها ، ثم تكون لها حياة آخذة فى النمو ، والاستقلال عن كثير من المؤثرات .

وفى خلال هذا كله صححت كثيرا من الآراء العلمية ، وناقشتها فى ضوء العقل ، والمصادر والمراجع .

ثم وضعت أخيرا شعراء السودان فى مراتبهم الحقيقية ، بعد تقييمهم وأضفت اليهم الذين لم يهتم بهم أحد ، والذين كاد أن ينساهم التاريخ ،

وجلوت الشــعر السودانى فى ضوء التأثرات الاجتماعيــة ، والسياسية والعقلية كما رددته الى التأثرات الجذرية التى اكتسب منها طاقاته ونموه ، وكشفت عن شحنات التطعيم التى أفاد منها وهو يشق طريقه .

كل هذا مع اهتمام باللغة العربية ، ورصد لعمليات نموها وتطورها فى هذه البلاد وعرض لنماذج شعرها فى ضوء المذاهب الحديثه .

وفى خلال هذا كله صححت كثيرا من الآراء الخاطئة ، وناقشتها فى ضوء العقل والمصادر ، والمراجع .

المقترحات وماذا عساه فات البحث

من نقـاط جديرة بالدرس

أرانى فى بحثى قدمت تأريخا كاملا للحياة ، وللشعر هناك وبهذا كونت « أرضية » يستطيع كل بحث بعد هذا أن يقف عليها . كما اهتديت الى أشـياء جـديدة .

ومن هنا أرانى أعطيت الملامح العامة لهذه الفترة الكبيرة من البحث فاذا كان ثمة شيء لابد أن يبحث فهو التخصص فى قطاع واحد من هذه القطاعات التى تعرضت لها .

المصـــادر والمراجع

١ -- اخـوان الصـفاء للأستاذ عمر الدسوقى من مؤلفـات الجمعية الفلسفية المصرية ١٩٤٧

٢ — ارشاد البدوى للدين النبوى للشيخ الزبير المحمود الزاكى الطبعة الثالثة ــ القاهرة

٣ — أسس النقد العربى عند العرب ــ للدكتور أحمـد أحمد بدوى

٤ — أصول النقد الأدبى ــ للأستاذ أحمد الشايب ط ٣ مكتبة النهضة

٥ — أضواء على الحبشة ــ العدد السادس من مجموعة اخترنا لك

٦ — الاتجاهات الشعرية فى السودان ــ للدكتور محمد النويهى مطبوعات معهد الدراسات العربية ١٩٥٧

٧ — الأدب الحديث ــ للأستاذ عمر الدسوقى جـ ٢ ط ١ لجنة البيان العربى ، ٢ ط ٣ دار الفكر العربى

٨ — الأدب السودانى ــ للأستاذ حمزة الملك طنبل ١٩٣١ القاهرة .

٩ — الاسلام والثقافة العربية فى افريقيـة ــ للدكتـور حسن احمد محمود ــ مطبعة النهضة ١٩٥٨

١٠ — الأسلوب ــ للأستاذ أحمد الشايب ــ المطبعة الفاروقية ١٩٣٩ .

١١ — الاصول الفنية للادب ــ للاستاذ عبد الحميد حسن ــ مكتبـة الانجلو المصرية ١٩٤٩

١٢ — الامبراطورية السودانية ــ للدكتور محمد صبرى ١٩٤٨

١٣ — البيان والتبيين ــ تحقيق حسن السندوبى ط ٢

١٤ — تاريخ التربية فى السودان ــ للدكتور عبد العزيز عبد المجيـد المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٥ — التجانى شاعر الجمال ــ الدكتور عبد المجيد عابدين ط ٢ مطبعة الشبكشى ١٩٥٥

١٦ — الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان ـ للدكتور جلال يحيى ـ مكتبة النهضة المصرية
١٧ — الجغرافيا التاريخية الاسلامية ـ للاستاذ محمد حسونة ـ لجنة البيان
١٨ — الحركة الفكرية فى السودان ـ للاستاذ أحمد محمد محجوب ١٩٤١
١٩ — الحكم المصرى فى السودان ـ للدكتور محمد فؤاد شكرى ١٩٤٧
٢٠ — الحماسة ـ لأبى تمام ـ ط ـ صبيح
٢١ — الخطط ـ للمقريزى مطبعة النيل ١٣٢٤ هـ
٢٢ — الدعوة الى الاسلام لسير توماس .و. أرنولد ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ط ٢ عام ١٩٥٧ .
٢٣ — الديانات فى افريقية السوداء ـ لهوبير ريشان . ترجمة أحمد صاد حمزة ـ سلسلة الألف كتاب .
٢٤ — الزعيم على عبد اللطيف ـ للأستاذ عبد الحميد ابراهيم عبد الرحمن ـ مطبعة الفجالة ١٩٥٠ .
٢٥ — السودان ـ رئاسة مجلس الوزراء .
٢٦ — السودان الشمالى سكانه وقبائله ـ للدكتور محمد عوض محمد ١٩٥١ .
٢٧ — السودان بين عهدين ـ للأستاذ سعد ميخائيل ـ المطبعة الخيرية بالمنيا ١٩٤٠ .
٢٨ — السودان بين يدى غوردون وكتشنر ـ لابراهيم فوزى باشا مطبعة الآداب ١٣١٩ هـ .

٢٩ — السودان فى قرن — للدكتور مكى شبيكة — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ .
٣٠ — السودان للسودانيين — للأستاذ عبد الرحمن طه ١٩٥٥ .
٣١ — السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية — للأستاذ عبد الله حسين ١٩٣٥ .
٣٢ — السودان وادى النيل — للدكتور محمد عوض محمد ط ١ .
٣٣ — السيادة والحريات — للأستاذ محمد توفيق مصطفى .
٣٤ — السيف والنار — لسلاطين باشا تعريب جريدة البلاغ ١٩٣٠ .
٣٥ — الشاعران المتشابهان — للأستاذ أبو القاسم بدرى — دار المعارف .
٣٦ — الشايقية — و . نيكولز — ترجمة الدكتور عبد المجيد عابدين . مطبعة مصر بالخرطوم .
٣٧ — الصناعتين — لأبى هلال العسكرى — ط ٢ محمد على صبيح .
٣٨ — العروبة — كتاب الجامعة الشعبية بالخرطوم ١٩٥٩ .
٣٩ — العربية فى السودان — للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين الضرير مطبعة الحضارة بالخرطوم ١٩٢٢ .
٤٠ — العروبة فى السودان — للأستاذ محمد عبد الرحيم مصر ١٩٣٥ .
٤١ — العقد الفريد — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ .
٤٢ — اللغة النوبية — للأستاذ محمد متولى بدر — دار مصر للطباعة ١٩٥٥ .
٤٣ — اللواء الأبيض أمام القضاء — مطبعة مرآة السودان .
٤٤ — المدخل للنقد الأدبى — للدكتور محمد غنيمى هلال — مطبعة الرسالة ١٩٥٨ .

٤٥ — المنافسة الدولية فى أعالى النيل — للدكتور على ابراهيم عبده دار الطباعة الحديثة ١٩٥٨ .

٤٦ — المهدى والمهدية — للأستاذ أحمد أمين — سلسلة اقرأ دار المعارف ١٩٥١ .

٤٧ — انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى — للدكتور حسن ابراهيم حسن — منشورات معهد الدراسات العربيـــة ١٩٥٧ .

٤٨ — النابغة الذبيانى — للأستاذ عمر الدسوقى — دار الفكر العربى ١٩٤٩ .

٤٩ — النداء فى دفع الافتراء — للأستاذ محمـــد عبد الرحيم — مطبعة البرلمـــان ١٩٥٢ .

٥٠ — الوثبة النسائية الكبرى — للأستاذ صلاح الدين كرم الله — ط ١ مطبعة مصر بالخرطوم .

٥١ — بلاد النوبة فى العصور الوسطى — ب.ل. شيلى — ترجمة نجم الدين محمد شريف — الخرطوم .

٥٢ — بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب — للألوسى — ط القاهرة ١٩٢٥ .

٥٣ — تاريخ الأمم والملوك — للطبرى — مطبعة الاستقامة ١٩٣٩ .

٥٤ — تاريخ الثقافة العربية فى السودان — للدكتور عبد المجيد عابدين مطبعة الشبكشى ١٩٥٣ .

٥٥ — تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته — للأستاذ نعـــوم شقير بك — مطبعة المعارف ١٩٣٠ .

٥٦ — تاريخ الشعوب الاسلامية — لكارل بركلمان — ترجمة نبيه أمين فارس ، وأمين البعلبكى .

٥٧ — تاريخ العرب ـ لفيليب خورى ـ ترجمة مبروك نافع ـ ط ٢ ١٩٤٩ .

٥٨ — تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية للأمير عمر طوسون ١٩٣٧ .

٥٩ — تاريخ ملوك السودان ـ اشترك فى تأليفه الشيخ أحمد كاتب الشونة ، والشيخ الزبير ود ضوة ، والشيخ الأمين الضرير ، والشيخ ابراهيم عبد الدافع وحققه وعلق عليه الدكتور مكى شبيكه ط الخرطوم ١٩٤٧ .

٦٠ — تخليص الابريز ـ لرفاعه الطهطاوى ـ بولاق ١٢٦٥ هـ .

٦١ — تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ـ للشيخ محمد بن السيد عمر التونسى ١٨٥٠ .

٦٢ — ثورة ١٩١٩ ـ للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ط ١ ـ النهضة المصرية .

٦٣ — حقائق الأخبار عن دول البحار ـ لاسماعيل سرهنك جـ ٢ ١٣١٤ هـ .

٦٤ — دراسات سودانية ـ للدكتور عبد المجيد عابدين ـ مطبعة مصر بالخرطوم .

٦٥ — رحلة ابن بطوطة ـ مطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ .

٦٦ — رفاعة الطهطاوى ـ للدكتور أحمد أحمد بدوى ط ١ لجنة البيان العربى .

٦٧ — شخصيات من السودان ـ للأستاذ يحيى عبد القادر ـ مصر .

٦٨ — الشعر كيف نفهمه ونتذوقه لليزابيث درو ترجمة الدكتور محمد ابراهيم الشوس ـ بيروت .

٦٩ — صبح الأعشى ـ للقلقشندى ـ المطبعة الأميرية ١٩١٥ .

٧٠ — طبقات ود ضيف الله ـ للفقيه محمد ود ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى ط سليمان منديل ١٩٣٠ .

٧١ — طبقات ود ضيف الله ـ ط ابراهيم صديق ـ مطبعة المحمودية التجارية .

٧٢ — على هامش الأدب والنقد ـ للأستاذ على ابراهيم ـ دار الفكر العربى .

٧٣ — قصص من التاريخ ـ للشيخ محمد عبد المنعم خفاجه ط ٢ ١٩٥٦ .

٧٤ — قضية وادى النيل ـ للدكتور عبد الرازق السنهورى ١٩٤٩ .

٧٥ — كفاح جيل ـ للأستاذ أحمد خير المحامى ـ دار النشر ١٩٤٨ .

٧٦ — مجموعة الوثائق السياسية ـ للدكتور البراوى جـ ١ ط ١ ١٩٥٢ النهضة المصرية .

٧٧ — مستقبل افريقية السياسى ـ للأستاذ عبد الغنى عبد الله خلف الله ط ١ عام ١٩٥٧ .

٧٨ — مصر والسيادة على السودان ـ للدكتور محمد فؤاد شكرى ١٩٤٦ .

٧٩ — مصطفى كامل ـ للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ـ ط ٣ النهضة المصرية ١٩٥٠ .

٨٠ — مطالعات ـ للأستاذ عباس محمود العقاد ـ مراقبة الشئون الثقافية .

٨١ — معالم تاريخ سودان وادى النيل ـ للأستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل ١٩٥٥ .

٨٢ — مقترحات لبعض طرق البحث العلمى فى السودان ـ ج . آركل تعريب حسن ثابت ـ الخرطوم .

٨٣ — مكانة السودان فى العالم العربى — للدكتور ابراهيم أحمد العدوى — مطبعة مصر — الخرطوم .

٨٤ — مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب المصرية — لرفاعة الطهطاوى — شركة الرغائب ١٩١٢ .

٨٥ — موت دنيا — للأستاذين محمد أحمد محجوب ، وعبد الحليم محمد — مطبعة أخبار اليوم ١٩٤٦ .

٨٦ — موجز التاريخ السودانى الى سنة ١٩٠٠ — لمرجريت شينى — تعريب حسن ثابت — الخرطوم .

٨٧ — موجز تاريخ السودان — . . آركل — تعريب حسن ثابت — الخرطوم .

٨٨ — موسيقى الشعر — للدكتور ابراهيم أنيس — دار الفكر .

٨٩ — نحو سودان جديد — للأستاذ طه محمد حسين — مكتبة الانجلو المصرية .

٩٠ — نفثات اليراع — للأستاذ محمد عبد الرحيم — شركة الطبع والنشر بالخرطوم ١٩٣٦ .

٩١ — نقد الشعر — لقدامة بن جعفر — مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٢ هـ .

٩٢ — نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب — لأبى العباس أحمد القلقشندى تحقيق ابراهيم الابيارى — نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٩ .

٩٣ — نهاية الأرب — لشهاب الدين النويرى — دار الكتب ١٩٢٤ .

٩٤ — يقظة السودان — للدكتور ابراهيم أحمد العدوى — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦ .

شعر

٩٥ — أشتات الشعر ـ للأستاذ عباس العبيد ـ مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٥ .

٩٦ — اشراقة ـ التجانى يوسف بشير ـ المكتبة الجديدة بأم درمان ط ٣ عام ١٩٥٦ .

٩٧ — أصداء النيل ـ للدكتور عبد الله الطيب ـ مطبعة مصر بالخرطوم

٩٨ — أغانى افريقية ـ لمحمد مفتاح الفيتورى ط ٢ عام ١٩٥٦ .

٩٩ — الشباب الأول ـ للدكتور محمود حمدى ـ مطبعة التمدن بالخرطوم ١٩٥٧ .

١٠٠ — الجمانة اليتيمة ـ الشيخ محمد مجذوب بن فخر الدين المجذوب مطبعة الحلبى ١٣٣٩ هـ .

١٠١ — ألحان وأشجان ـ للأستاذ محمد محمد على ـ مطبعة الاعتماد بمصر عام ١٩٦٠ .

١٠٢ — ألحان ثائر ـ للأستاذ حسن عزب ـ مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٦ .

١٠٣ — الراووق ـ للأستاذ ابراهيم محمد عبد العاطى ـ مطبعة التضامن الأخوى بالقاهرة .

١٠٤ — الشاطىء المسحور ـ للأستاذ عزيز أندراوس ـ دار مصر للطباعة ١٩٥٣ .

١٠٥ — الفجر الصادق ـ للأستاذ عبد الله عبد الرحمن .

١٠٦ — الطين والأظافر ـ للأستاذ محيى الدين فارس ـ دار النشر المصرية .

١٠٧ — الينابيع ـ للأستاذ أبو طراف النميرى .

١٠٨ — حرية وجمـال ـ جعفر حامد البشير ـ الخرطوم ـ مطبعـة الصراحة .

١٠٩ — ديوان البنا ـ للأستاذ محمد عبد الله البنا ١٩٢١ .

١١٠ — ديوان التنى ـ يوسف مصطفى التنى ـ دار الفكر العربى ط ٢ عام ١٩٥٥ .

١١١ — ديوان الطبيعـة ـ للأسـتاذ حمزة الملك طنبل ـ المطبعـة الرحمانية ١٩٣٤ .

١١٢ — ديوان العباسى ـ للشيخ محمد سعيد العباسى ـ دار الفكر بمصر ١٩٤٨ .

١١٣ — ديوان المديح فى مدح النبى المليح ـ السـلطان على دينار ـ مطبعة السودان ١٩١٣ .

١١٤ — زهر وقفر ـ للأسـتاذ اسحق محمد خليف ـ دار الريحـانى ببيروت ١٩٥٦ .

١١٥ — رشفات المدام ـ للشيخ قريب الله ـ ط ١ الخرطوم .

١١٦ — سعاد ـ للأستاذ اليهادى آدم ـ دار العهد الجديد بالقـاهرة ١٩٥٥ .

١١٧ — شعراء السودان ـ للأستاذ سعد ميخائيل ـ مطبعة رمسيس .

١١٨ — عصارة قاب ـ للأستاذ مبارك المغربى ـ مطبعة مصر ١٩٥٤ .

١١٩ — فيض من الله ـ للدكتور باخريبه ـ مطبعة مصر بالخرطوم .

١٢٠ — قصائد من السودان ـ للأستاذين جيلى عبد الرحمن وتاج السر دار الفكر ١٩٥٦ .

١٢١ — لحظات باقية ـ للأستاذ ادريس محمـد جماع ـ دار النشر المصرية .

١٢٢ — مجموع الأوراد الكبير ـ للسيد محمد عثمان الميرغني ـ مصطفى الحلبي ١٩٣٩ .

مجموعات شعر لم تطبع للاساتذة

١٢٣ — أحمد علي طه .
١٢٤ — أحمد محمد خيولا .
١٢٥ — أحمد محمد صالح .
١٢٦ — الشريف محمد أحمد عبد الرحمن .
١٢٧ — الطيب محمد خير .
١٢٨ — الهادي العمرابي .
١٢٩ — الناصر قريب الله .
١٣٠ — النور ابراهيم .
١٣١ — آمنة بنت وهب .
١٣٢ — توفيق صالح ابراهيم .
١٣٣ — حسب علي حسب .
١٣٤ — حسن بدري .
١٣٥ — حسن طه .
١٣٦ — حسين بازرعه .
١٣٧ — خليل فرج .
١٣٨ — دفع الله عبد الرحمن .
١٣٩ — سعد الدين فوزي .
١٤٠ — صلاح الدين كرم الله .
١٤١ — عبد الحميد مدثر أبو القاسم .
١٤٢ — عبد المجيد الحاج الأمين .
١٤٣ — عزيز التوم منصور .
١٤٤ — علي نور .
١٤٥ — كامل الباقر .

١٤٦ — كـرف .
١٤٧ — محمد سعيد النور .
١٤٨ — محمد محمد على .
١٤٩ — محيى الدين صابر .
١٥٠ — مختار محمد مختار .
١٥١ — مدثر البوش .
١٥٢ — مرضى محمد خير .
١٥٣ — مصطفى عوض الكريم .

وقد استفدت استفادة كبيرة من مخطوط بعنوان « الشعراء والغاوون » للأستاذ الشاعر منير صالح .

مجـــلات

١٥٤ — مجلة الحياة .
١٥٥ — مجلة الفجر .
١٥٦ — مجلة القلم الجديد .
١٥٧ — مجلة الكتاب .
١٥٨ — مجلة المعهد العلمى بأم درمان .
١٥٩ — مجلة النادى المصرى .
١٦٠ — مجلة أم درمان .
١٦١ — مجلة نهضة افريقية .
١٦٢ — مجلة مصر والسودان .

صـــحف

١٦٣ — الأمـة .
١٦٤ — الأيام .
١٦٥ — الرأى العام .
١٦٦ — السودان الجديد .

١٦٧ — العلم .
١٦٨ — النهضة السودانية .
١٦٩ — حضارة السودان .
١٧٠ — صوت السودان .

مخطوطات

١٧١ — مشكلات المجتمع السوداني ـ للدكتور محيي الدين صابر .
١٧٢ — من لهجات الجزيرة ـ للدكتور عبد الحميد طالب .

مراجع أجنبية

A history of Arabs in Sudan H.A Macmichael
2 vols Cambridge 1922

Ethiopic grammer
Dillmann and Bezald London 1907

فهرس موضوعى

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة
عثمان هاشم	٤٧١
الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية	٤٧٥
(الحالة السياسية)	٤٧٦
الانجليز يحكمون حكما مباشرا	٤٧٨
الوعى القومى بالسودان ورد الفعل لحكم الانجليز	٤٨١
عودة المصريين بعد عام ١٩٣٦	٤٨٤
الشعور ازاء عودة الجيش المصرى	٤٨٦
الوعى السياسى فى السودان وقيام الأحزاب	٤٨٧
أثر الزعامات الدينية فى السياسة	٤٩٨
السياسة الانجليزية .. وسائلها وغاياتها	٥٠٢
السودان خلال الحرب العالمية الثانية	٥٠٦
الثورة المصرية وأثرها فى السودان	٥٠٨
اتفاقية السودان عام ١٩٥٣	٥١١
(الحياة العقلية)	٥١٤
انتشار التعليم فى السودان	٥١٤
كلية غوردون وأثرها	٥١٦
انتشار المدارس المصرية	٥١٨
البعثات الى انجلترا ومصر وأثرها	٥٢٠
انتشار الصحافة والطباعة والنشر	٥٢٢
المعاهد الدينية	٥٢٥
النوادى العلمية والادبية	٥٢٦
(الحياة الاجتماعية)	٥٢٩
مدى تأثر السودان بالمدنية الغربية	٥٣٢
خصائص المجتمع السودانى ومميزاته	٥٣٥
المرأة السودانية الحديثة	٥٣٧
(الشعر)	٥٤١
اغراضه	٥٤٢
الشعر السياسى	٥٤٢
شعر الطبيعة	٥٦٧
الغزل	٥٧٨
الاجتماعيات	٥٨٩
الرثاء	٥٩٥
الهجاء	٥٩٩
الدين والشك	٦٠٤
الحنين	٦١١
العروبة	٦١٩
الشعور الافريقى	٦٢٣
الشعر المرحى	٦٢٨

الموضـــــوع	صفحة

الجمهورية العربية المتحدة

مطبوعات

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

— ٥١ —

نشر الرسائل الجامعية (٣)

القـــاهرة

١٣٨٤ – ١٩٦٤

الاتحاد الاشتراكي العربي

دار ومطابع الشعب